صورة ما كتبه شيخ مشايخ الاسلام ومنار العلماء الاعلام المتحلى بحلى الفيض القدوسى حضرة حائز الشرفين السيد العروسى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى جعل شمس الاخبار ضياء وقمر الآثار نورا وسير سير الاخبار فى مناكب الامصار لتكون لمن خلفهم لسانا مشكورا وذكرا منشورا والصلاة والسلام على من نص الكتاب العزيز بأنه الذى سابق فى ميدان المفاخر فسبق وقص الله جل ثناؤه على جنابه الامين أنباء ما قد سبق سيدنا محمد الذى لا تزال مآثره الباهرة تجلى ومفاخره السافرة على تعاقب العصور تتلى وعلى آله الذين فتحوا الامصار والقرى وصحبه الذين رووا عنه ما أرووا به ظمأ الورى وبعد فقد سرحت فى روضة هذا الكتاب نظرى وأجريت فى حومة معانيه جياد فكرى فوجدته أجل كتاب فى الفنون التاريخية ألف وأجمع لشوارد الفوائد الاثرية من كل مصنف صنف قد أطلعت البلاغة من طروسه المسطورة زهورا ورياضا وأطلقت من معانيه الغرائب وألفاظه المزرية بعقود الترائب بحورا صافية وحياضا روى المقاصد الكريمة فروى ظمأ أربابها وحوى الفوائد العميمة فأحيا نفوس أصحابها تخير من الآثار الدهرية أقربها وأنجحها ومن الاحاديث التاريخية أصحها وأرجحها وما زال يزيل بسراجه الوهاج غياهب التعارض فيها حتى أزاح براقع التناقض عن أوجه معانيها المعانيها أربى كلامه على زهر الخميلة ورقى على درج المعالى الى المعانى الجميلة راقت براعته فرقت من الخطابة أرفع منبر ورقت عبارته فاسترقت كل كلام محرر فلعمرى انه لكتاب كريم ورقيم جمع من أنباء أبناء الدهور كل نبأ عظيم أرانا ببيانه كيف يكون سحر البيان وكيف تنظم عقود المعانى من فرائد اللؤلؤ والمرجان بلفظ وجيز مفيد قريب يصيب الغرض البعيد يفضى بسامعه الى السعود ويجرى فى قلبه جريان الماء فى العود ومعنى تتعشقه الحور الحسان وتتحاسد عليه الآذان والاذهان فحرام على الادباء أن يأتوا بمثل هذا السحر الحلال والسر الذى طالما تكتمته الايام والليال وقد طالما أوقعتنا الاسفار التاريخية فى ظلمات من الاوهام بعضها فوق بعض فأوقفتنا

تحريراته الشافية على صريح الحق الذى عليه بالنواجذ يعض

اذا قالت حذام فصدقوها * فان القول ما قالت حذام

ولاغرو فناظم عقود درره وناثر فرائد فوائد فقره نادرة النوادر الاديب الاريب الذى من أجله قيل كم ترك الاول للآخر ناشر أعلام العلوم ومحلى ترائب الآداب بقلائد المنثور والمنظوم فشكر الله له ذلك الصنع الجميل وأثابه عليه الثواب الجزيل بجاه خاتم الرسل الكرام صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما تعاقبت الليالى والايام آمين

مصطفى العروسى خادم العلم
والفقراء بالجامع الازهر

صورة ما كتبه خاتمة المحققين وقدوة المدققين مربى
الطالبين الاستاذ الشيخ الدمنهورى

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذى ألهم بتوفيقه ذوى العقول سلوك سبيل الاعمال الصالحة وأنعم على أولى الفضل بتمييز النقول الراجحة لتحصيل الآمال الناجحة فكانت نجوم ثواقب أفكارهم على طبق ارادته سائرة وشموس مناقب آثارهم على سمت هداياته مشرقة نائرة فانطبعت أنوار مآثرهم فى صحائف مرآة الزمان وانبعثت أشعة مفاخرهم فى طروس الزمن الحالى وان دخلت فى خبر كان قص جل شأنه فى كتابه القويم آثار الاخيار ونص عز برهانه فى كلامه القديم صحيح الاخبار والصلاة والسلام على محيى دولة الاسلام ومنقذ مهج أصفيائه من الجهالة والآثام وعلى آله الذين خلدوا بالتاريخ أعوامهم وأبدوا بذكر الوقائع الماضية أيامهم وعلى أصحابه الذين امتازوا بالذكر الجليل وقام على مكارم أخلاقهم أكمل برهان وأجل دليل * أما بعد فالانسان بطبعه يتشوق لسماع أخبار الامم الخالية ويتشوف للالماع بذكر من تقادم حديث عهده من الاقوام الماضية ويرغب خصوصا فى الوقوف على أحوال وطنه الذى به ربى وبحبوحة مهده حبى ليكون على بصيرة من تقدمات وطنه المألوف وليعلم سابقة همم سلفه فيما مر على بلاده من مئات السنين والالوف ويحقق من أحرز الفضيلة وانتهز الوسيلة فى مساعدة الاوطان واعانة

العمران وهذا هو موضوع فن التاريخ الكافل بهذه المزايا الجليلة والحامل على تحصيل الفوائد الجزيلة اذ التاريخ [illegible] يرة الزمان ومرآتها وروح جثمانها وبه حياتها لاجرم أن ينتهج جميع ما جادت به عناية الدولة الخديوية الاسماعيلية من المناهج ونبتهج بما سمحت به وسائل التقدمات الوطنية من المباهج ونجيب داعي السرور بالقبول ونشرح الصدور بالقول الشارح تصديقا للحق فنقول

قد أفادت مقدماته نتيجة الثناء على العزيز بكل لسان وأعادت كليات محاسنه الى مصرنا سلبيات عموم الازمان جزئيات عديدة كانت قبله من المهملات وأشكال جديدة صحت مقاصدها الصحة المقدمات فمنها تسهيل المعارف وتيسير العوارف بتاريخ مصر الذي جد في هذا العصر ولعمري انه تاريخ فاضل تزدحم خواطر الفضلاء عليه ومؤلف كامل تتمثل المؤلفات بين يديه تتفجر انهار الاجادة من غياض براعته وتتعطر أزهار الافادة من رياض فصاحته يشنف الاسماع ما فيه من لطائف وآداب ويروق الابصار ما انطوى عليه من ذكر المسببات التاريخية والاسباب فانا لم نقف الى الآن على تاريخ تجلى بهذا الاسلوب الغريب وتحلى بحلية التسهيل والتقريب فبيان منطقه البديع أفصح عن تصريف الافعال وجمع بجمع تصحيح ما تفرق من أسماء الابطال والرجال فلله در مؤلف كلماته الجوامع الا وهو الامير النبيل رفاعة رافع

لا عيب فيها وهو شاهد حسنها * الا تبرجها بكل مكان
جلت وان قلت صنائع لفظها * ولكم لسانا نطقت بسحر بيان
بجميل صنعكم وأجل صنائعا * وبديع فضلكم وأدق معاني

فكم فيه من خبر صحيح نشر ومن مأثور رجيح سطر وذكر مهادنات ومسالمات ومحاورات ومكالمات ووقائع حرب وكفاح ومواقع سمر وصفاح واغارة بعض الممالك على بعض وتعاقب دول على بقاع متسعة من الارض وكم فيه من استطرادات فائقة ومناسبات لائقة وأحسن ما فيه النزاهة عن خرافات المكويين وايماء النباهة لرد تقولات المستهوين ولا غرو في ذلك ولا بدع في سلوك أحسن المسالك ممن له كمال الاطلاع في أنواع

الفنون

الفنون ولا يأخذ بالتقليد ولا ببادئ الظنون فهذا المؤلف معروف فى القديم والحديث لانه لم يزل قائما على ساق الجد بعزم حثيث فكم تشرف عصرنا بعصرنا تأليفه الجليلة الوافية كالتعريبات الشافية لمريد الجغرافية وكتاب قلائد المفاخر فى غريب عوائد الاوائل والاواخر ورحلته البارزية السائرة مسرى الكواكب فى الافاق فلا غرو ان قام على فوقان تاريخه الاجماع والاتفاق فهو نور مصباح ساطع أو ضوء مصباح لامع يشرق فى أرجاء الوطن فاسأل الله سبحانه وتعالى أن يمن على مصرنا بتوفيق ولى النعم لمثل هذه الكمالات التى بها جمال هذا الزمن وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم الرسل وسيد الكل وعلى آله وأصحابه ومن تأدب بآدابه

الفقير اليه تعالى محمد الدمنهورى خادم
العلم الشريف بالازهر المنيف

صورة ما كتبه على السند والالتماء أستاذ الاساتذة
وعماد الجهابذة الشيخ ابراهيم السقاء

الحمد لله مبدع أمم العالم ومبدى همم بنى آدم وجاعل أحوالهم قصصا تتلى على ممر الدهور يعتبر بالمتقدم منها من تأخر فى العصور أنبأ ببعضها تفصيلا وبعضها اجمالا فى كتابه الذى أنزله على سيد أنبيائه وأحبابه والصلاة والسلام على رسوله الصادق فى أنبائه وأخباره وعلى آله وأصحابه وأنصاره وأصهاره والتابعين وتابعيهم طبقة بعد طبقة بالانقياد والاستسلام دائما وأبدا وسرمدا مادامت دار السلام منعما بها أهل الاسلام أما بعد فقد رأيت جزأ مما ألفه وجمعه السيد الهمام الفاضل الامام الحسيب النسيب الاديب الاريب سعادة رفاعة بك أيده وسدده وأحسن مسعاه وأسعده فى التاريخ المتحرى فيه الصحيح من الانباء المحرر من كتب الاذكياء الالباء المظنون بهم أن لا ينقلوا الاباطيل ولا يلتفتوا للمشكوكات والاضاليل فوجدته فى معناه بديعا وفى مبناه رفيعا جامعا للمحاسن التاريخية جميعا حقه أن يكتب بماء العيون وتتشرف به قلوب أهل الشجون وتتلقاه بالقبول أرباب الهمم المحبون للاطلاع على أحوال الامم كأنهم معهم حاضرون ولاقوالهم سامعون ولافعالهم مشاهدون ويرون ما حل بهم من جزاء تلك

الاحوال فما أوجب الخلل اجتنبوه وفعلوا ما أوجب الاستقامة من الخلال وقد أشار مؤلفه الى أن ذلك مطلوب الحضرة الخديوية ومرغوب الذات العزيزية وهذا مما يدل على رأفته الكلية وسعيه فى تمدن رعاياه وكمال العمارية بل على تمام رحمته بسائر البرية لانتشار ذلك بعد تمام طبعه فى الاقطار والبلاد وعموم نفعه من يطلع عليه فيها من العباد وفقه الله للمراحم التى هى شأن حضرته على الدوام وجعل مساعيه كلها على أكمل وجوه الكمال والتمام

كتبه ابراهيم السقا خادم العلم
الشريف بالازهر

صورة ما كتبه فخر أمراء الدولة المصرية سعادة رئيس
المجلس الخصوصى وناظر الداخلية

الحمد لله وحده فن التاريخ فن جليل المقدار كثير الفوائد من مزاياه توسيع عقل من يطالع كتبه وذهنه حاضر وعينه يقظى فعلينا أن نتخذه مرآة للوقائع الماضية ليرينا صور أفعال الاقدمين على وجه الصحة فنستفيد منها معاينة تمثال أفعالهم بعين الاعتبار ولا ينبغى أن نتخذه لهوا ومجرد تسلية كالمولعين بالحكايات المخترعة الملفقة التى أكثرها خرافات بل هى فى الحقيقة للعقل آفات ولا تفيد مطالعها الا فساد المزاج وتعوده على تصديق المستحيلات فلذا يجب علينا أن لا نتلقى ما نقلته كتب التواريخ قضايا مسلمة بل نبحث فيها ونضعها فى موازين العقول أو بالاقل نتتبع آثار من بحثوا فيها فنأخذ ما قويت دلائله واتضحت حججه وبراهينه والحق الذى لا ينبغى العدول عنه فى هذا الفن ترك الميل والتعصب لقوم دون آخرين والتحرى فى النقل والرجوع الى حكم العقل فمؤلف هذا الكتاب راعى هذه المزايا حق رعايتها على نسق جيد لم يسبق اليه فى لساننا فلا يسعنا الا استحسان صنيعه فانه كتاب ينفع أبناء وطننا كما ان له مؤلفات أخر نفعت الملة واستحسنتها الخاصة والعامة ولمثل سعيه فليعمل العاملون وعلى نهج اجتهاده فليسع العالمون فخير الناس من نفع اخوانه بثمرات اكتسابه علما أو غيره فنسأل الله تعالى أن يكثر فى وطننا ذوى المعارف والغيرة وصلى

الله

الله على رسولنا محمد وآله وصحبه أجمعين

محمد شريف

صورة ما كتبه شهم أمراء العسكرية سعادة
شاهين باشا ناظر ديوان الجهادية

من المعلوم أن الاطلاع على أحوال الامم الماضية وحوادث العصور الخالية فيه للانسان فوائد عظيمة ومزايا جسيمة ولذا كان علم التاريخ فضله لا ينكر بل هو أشهر من أن يذكر ولقد شغفت بمطالعة الكتب التاريخية سيما تاريخ مصر المحروسة المحمية حيث انها هي الوطن المحبوب والمقام المرغوب فلم أجد تلك الكتب مشحونة الا بما يأباه الطبع وينفر منه السمع من أباطيل خرافة وأقاويل سخافة فكنت أتمنى ان أرى فى تواريخ مصر كتابا جامعا نافعا حتى اطلعت على هذا الكتاب المسمى بتوفيق الجليل فى تاريخ مصر وتوثيق بنى اسمعيل فوجدته مع خلوه من أحاديث الخرافات جمع فأوعى وأحاط بأحوالها وأحوال ملوكها أصلا وفرعا فسررت وشكرت مؤلفه على هذا المسعى وقلت الشئ من معدنه لا يستغرب فان مؤلفه له فى نشر العلوم بمصر آثار جليلة وشواهد جليلة كيف لا وهو منتهى الاعيان ومنتهى البيان كوكب العلم الساطع سعادة رفاعة بك رافع وانى ليسرنى أن يكون فى مصرنا من أبناء عصرنا كثير من أمثاله أهل الفطن يبذلون هممهم فيما تعود منفعته على الوطن ليكون القطر المصرى مزينا بأنواع العلوم على الدوام متقدما فى زيادة التمدن وكمال الانتظام فى ظل مليكه الذى ساسه وعزيزه الذى شيد أساسه لا زال رفيع المقام هو وأنجاله الكرام

(ناظر الجهادية شاهين)

صورة ما كتبه الامير الجليل طراز الدولة المصرية المعلم سعادة
خيرى بك مهردار جناب الخديو الاكرم

أحمدك يا من أبدعت الخلائق وانى لمعترف بالعجز عن أداء الحمد اللائق خلقت آدم ومنه انتشر نوع البشر وبعثت من ذريته أنبياء كل منهم هدى

واندروبشر وجعلت من الناس ملوكا ورؤسا فنهم من ساس بالعدل ومنهم
من جار وآسا فالملوك ما بين ممدوح ومطعون ممن يتتبعون سيرهم ويطلعون
وهم مجزيون بأعمالهم عند الملك الجليل ومذكورون بأفعالهم على ألسنة
الناس جيلا بعد جيل وأصلي وأسلم على سيدنا محمد الامين المبعوث رحمة
للعالمين المصدق فى كل ما أتاه والهادى الى أقوم السبل من تحير وتاه من
اتصل تاريخ نسبه بالنبى الجليل اسمعيل وقص عليه ربه أحسن القصص فى
محكم التنزيل ففى آياته عبرة للموقنين وفى معجزاته قناعة للمتفطنين وعلى
آله وأصحابه الاخيار الناقلين لنا صحاح الاخبار وكان كل من تولى أمر هذه
الامة منهم عدلا خبيرا فانقادت لهم الامم وأعطاهم الله ملكا كبيرا
وبعد فان الدنيا كلها عبر يعتبر فيها من تأخر بأحوال من تقدم وغبر ولا مرية
فى أنه تتزايد العقول بما يصل اليها من الاخبار والنقول فان آثار الاسلاف
دائرة بين أمرين بلا خلاف اما حسن يجب له الاتباع أو قبيح يجب عنه
الارتداع فالحسن يتلقى والقبيح يطرح ويلقى فبوصول محاسنهم الينا
تكون لنا عقلا مستفادا من غير مشقة علينا وعلينا صرف الافكار فى غيرها
الى أن تحمد الفكرة فى سيرها غير أن طريق وصولها متشعبة فى أبواب
كتب التواريخ وفصولها وقليل منها ما كشف عن وجه القصد القناع
وأفاد لمريدى الاطلاع الاقناع والاكثر فى العسف عن الوجه المروم كتب
تواريخ الفرس والروم لان جل قصد مؤلفيها مدح سلاطينهم ودولتهم
وقدح مخالفيها فلا تراهم يتكلمون بقولة الا الاسناد الغلبة والصولة لتلك
الدولة مع سب المخالف والمعادى وتسفيهه فى المقاصد والمبادى فغشاء
التعصب على أعينهم حاجب عن رؤية الحق وأداء الواجب الا واحدا
أو اثنين منهم من المتأخرين سلكوا نهج المتبصرين من المؤرخين وأما
التواريخ العربية وان كان من مؤلفيها من ابتلى بالعلة العصبية ففيهم
رجال فحول لا تعدل عن الحق ولا تحول يروون الاخبار كما وصلت اليهم
ويبلغون الوقائع على الوجه الذى ثبت لديهم بيد ان الاحوال التى قبل
الاسلام فى الزمن الغير المعهود أكثرها منقول من كتب اليهود لا تكاد
تخلو عن الخلافيات وفيها كثير من الاحاديث الخرافيات نقلها المؤرخون

بالاعتماد

بالاعتماد من غير تحر فى صحتها ولا انتقاد فتمييز صحيحها من فاسدها أصعب من خرط القتاد فلذلك اعتنت الاقوام الاورباوية بالاستكشافات الدقيقة وتتبع الآثار القديمة والخطوط العتيقة فاستدلوا منها على أمور تاريخية تفيد الظنون الراجحة لانهم بنوها على تأسيسات متينة وبراهين واضحة وقد طالما تطلعنا من عناية من تعلموا اللغات الاجنبية أن ينقلوا الى اللغة العربية ماوصل اليه هؤلاء الاقوام وماأدى اليه سعيهم فى تلك الاعوام حتى شمر عن ساعد الجد والاهتمام الامير العالم الفاضل الهمام من تحلى بالفضائل وهو يافع الامير الالمعى رفاعة رافع فشرع فى تأليف هذا الكتاب فى فن التاريخ المستطاب وهو وان كان لتاريخ مصر موافقا ومجعولا فقد حررمن أخبار أجناس الناس أبحاثا ونقولا لان مصر أم الدنيا أتتها قديما كثير من الامم وبذلوا فى اعلاء مقدارها وتعمير اقطارها مااستطاعوه من الهمم واليها وردت الملوك وفيها تنافست واتخذتها مكانا وسورها آنست وكل من أولاد يافث وحام دار حول حماها وحام والمورد العذب كثير الزحام فتاريخ مصر تاريخ الدنيا بالاجمال لاشتماله على خلاصة أخبارها أى اشتمال وقد قسم الامير المومااليه هذا الكتاب على حسب مااشتمل عليه الى جزأين جزء مختص عن حكم عصر قبل الاسلام من الملوك الاقدمين وجزء مشتمل على من تولوا أمرها بعد بعثة خاتم الانبياء والمرسلين فالقسم الاول جمعه وترجمه من كتب معلومة كثيرة من التواريخ الافرنجية التى هى بالثقة معروفة شهيرة والقسم الثانى مواده كتب التواريخ العربية مع الاستعانة حسبما يقتضيه الحال بالكتب الاجنبية فقد جاء مجموعا جامعا للخاصة والعامة مفيدا نافعا ولاغرو لان مؤلفه متفنن متقن وفى اللغتين مجيد ومحسن أنفق أوقاته فيما فات فى تصنيف مؤلفات استحسنها أرباب الفطن وانتفع بها أهل الوطن وله الملكة الراسخة فى التأليف والباع الامد والرتبة الشامخة فى كل العلوم حتى وصل الى أحمد الامد وحينما كان المومااليه على مدرسة الالسن ناظرا كان روض المعارف بها يانعا ناضرا نبغ فيها بتربيته رجال أفلحوا وأضحوا من أهل الفلاح والكمال اتقنوا العلوم الادبية وأحسنوا الالسنة الاجنبية وترجموا لنا كتبا

عديدة جملتها نافعة مفيدة فليتها دامت واستمرت الى هذا الزمان ليظهر منها رجال فى العلوم فرسان لكن الدهر المسىء محاها قبل هذا العصر مع ما بها من المعارف الحسان وفى أمل الكل اعادة مثلها بعمر القاهرة مع اضافة لسانى التركى والفارسى الى ما كان فيها من الالسنة والعلوم الباهره وليس ذلك بعزيز على العزيز الذى جهز المدارس العلمية أى تجهيز وأعاد ما اندرس من المعارف بجزيل المنن والعوارف ودأبه الكريم المعلوم تنشيط مؤلفى الكتب فى العلوم لان الطف الانصاف تلطيف المصنفين وأشرف الاوصاف تأليف قلوب المؤلفين ومن جملة محاسن عصره ومقتضى ماضى أمره تأليف هذا الكتاب الذى أعجب فى فن التاريخ أولى الالباب اذ لم يسبق بمثله بالديار الاسلامية فى هذا الباب وهو الذى اقترح هذا الاسلوب العجيب على الامير المومأ اليه فلباه بقلب فطن ولسان مجيب فصار أبهج أنموذج ائتلف فيه المعنى المقصود وامتزج فعلى المؤرخين أن يقتدوا به لان المؤلف قدوة وينسجوا على منواله المرغوب ويحذوا فى هذا الفن حذوه وصلى الله على خاتم الانبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين

(أحمد خيرى)

صورة ما كتبه المتحلى بحلى المعارف العصرية
حضرة مدير ديوان الاشغال والمدارس المصرية

الحمد لله الذى أقام تاريخ الامم الماضيه شاهدا عدلا على وحدانيته وجعل قصص أهل القرون الخالية قولا فصلا فى الدلالة على تمام قدرته والصلاة والسلام على سيدنا محمد المجتبى من خيار أحياء العرب وعلى آله وأصحابه العريقين فى النسب فتح الله بهم سائر المدن والامصار فحسنت سيرة خلافتهم فى سائر الاعصار ثم الدعاء بدوام العز والاقبال لمعيد فخار مصر بتجديده فيها من المعارف والعوارف كل أمر ذى بال وهل يحتاج الى دليل تاسيس قواعد المجد من عهد اسمعيل

ومن الكفيل له بحصر ماثر * فضل العزيز منزه عن حصره

لكن لا يسعنا أن نضرب صفحا عن مدح ما برز فى ميدان البراعة وحاز قصب

السبق فى مضمار البراعة من تاريخ مصر الصادر عن أمر العزيز الذى نجزه
مؤلفه فى أسرع وقت وجهزه بأحسن تجهيز وامتاز بالسبق به كال التميز
ولا عجب فى ذلك فانه أحد الآخذين من العلوم العربية والفنون الادبية
بحظ وافر وكم له من مآثر فكيف وله دائما فى نفع الوطن الهمة الاولى واليد
الطولى ولهذا كان كتابه فى تاريخ مصر بديع الاسلوب غير بعيد عن
المرغوب تنزه عن لغو المؤرخين اذ أتى من سبا الاخبار بنبا يقين
فان فن التاريخ على كثرة مؤلفاته العديدة ومصنفاته القديمة والجديده
قل أن تخلو كتبه من حكايات مبتدعة ونقولات مخترعه وأمور وهميه
لا تستقل بالمفهومية تولع بها أرباب العجائب ونقلها عنهم من تطلع لذكر
الغرائب بدون عرضها على محك الاختبار فدخلت من المبتدا بلا مطابقة
فى مسند الاخبار وأما ما فى هذا الكتاب المستطاب فهو من الحقائق
الموزونة بميزان الصواب ومايتذكر الأأولوا الالباب لاسيما وانه قريب
المأخذ فى هذا الفن ونافع كل النفع لاهل الوطن وهو من أعظم المآثر
ينبى بصالح الاثنية على الخديو الاكرم فى الاول والآخر خلد الله عليه وعلى
أنجاله الكرام جزيل الفضل والانعام بجاه بدر التمام من هو للرسل ختام

على مبارك مدير ديوان

المدارس المصريه

والاشغال العموميه

صورة ما كتبه بدر العلماء وكوكب الادباء السارى

حضرة العلامة الشيخ عبد الهادى نجا الابيارى

ما صدحت بلابل الالسنة فى حدائق الاندية بأطرب من حمد الحميد المجيد
ولا سطعت بوارق الاثنية فى مشارق الاودية بأوجب من شكر المبدئ
المعيد فلله الحمد على أن وفق من أراد من الاخيار للتوفيق بين تعارض
الآثار والاخبار حمدا لا تزال أنوار كمائمه بمحاسن الاخلاص يانعة وأنوار
معالمه فى آفاق القبول ماهبت الصبا والقبول ساطعة والصلاة والسلام
على من جاء بفضله المطلق على جميع العالم صحيح النبا وصريح الخبر وضاء
من كواكب جبين وجوده الوضاح ما فيه رحمة وبشرى للبشر سيدنا

محمد الذى ما طلعت الشمس على أجمل من طلعته ولا أرخ المؤرخون أوفى
من مناهج سنته ولا أشفى من مباهج سيرته وعلى آله الذين جابوا أودية
الفضائل حتى آبوا منها بأسنى المطالب وجاؤا فى الازمنة الاخيرة فباؤا من
مآثر المحامد بأسمى المواهب أما بعد فقد طالما تشوقنا تشوف العليل الى
الشفاء وأهل مصر الى يوم الوفاء بل تشوف المعسر الى الايسار والاعمى
الى الابصار الى كتاب كريم ينطق بالحق عن حقيقة مصرنا وتاريخ حكيم
يعرب لنا أفعال ملوكها الماضية ويعرف مبتدآت أخبارها الى عصرنا
اذ لم نر من حام حول هذا الحمى فأروى فيه الفؤاد من الظما ولا من رام هذا
المرام وأعمل فيه صحيح الافهام وأهمل سقيم الاوهام بل ما بين مؤتم
بمعلول القدوة ومهتم بايراد ما ليس له بالصحة قوة حتى بزغت شموس هذا
الكتاب وبرزت مخدرات خرائده من الحجاب فلما أجلت فى ميادين سطور
طروسه طرف طرفى ظفرت منه بما يبرى من العلل التاريخية ويشفى ووجدته
كتابا يلعب بالعقول تحريرا وتنقيحا ويبعث بالكواكب الدرية تحريرا
وتصحيحا يحقق لكل من وقف عليه من ذوى الافهام أن كلام أمراء الانام
أمراء الكلام ويقول لكل من تشبث بأذيال معارضته أدبه قف وتأدب
ولكل ناظر فيه وفى نظرائه من التواريخ انظر تر العجب وأنى يقاوم المكثر من
كل فن من يجمع جمع القلة أو كيف تعارض الافعال الصحيحة بالمعتلة وانى
لا أقسم بغصون أقلام مؤلفه المثمرة بالهدى الموضحة من الحق طرائق قددا
انه لكتاب لا يعرف سجعه المطوق وأنه لمعقد بسحره الالسنة التى لمعارضته
تتشوق وان فصول نثره لتتعالى عن النثرة وعقود نظمه لتصب الفلك فى
قوله بها زهرة راقت براعته فرقت من الخطابة أرفع منبر ورقت عبارته
فاسترقت كل كلام محرر فهو تاريخ تؤرخ به صحف المفاخر وتؤرج بعبير
عنبره سير الاوائل والاواخر يضئ صبح سطوره لعين مطالعه سرجا ويضوع
مريح براعته لقارئ عبارته أرجا فلو اكتحل الاعمى بذلك النور لارتد اليه
طرفه أو فاخر الروض ذلك الارج ضاع مع الرياح عرفه وما أدراك انه
ينعش الارواح الهامدة ويلين الافئدة والقرائح الجامدة الا وان ألفاظه
لدرر بحور تمناها الخرائد لها قلائد نحور كل لفظ منها بل كل حرف جاء لمعنى

وكل

وكل فصل ووصل هو اعرائس البلاغة مغنى كيف لا ومؤلفه الامير الذى أمر أمر فضله فعنت وجوه الفضلاء لوجهه ووهت قوى الباحثين عن الاتيان فى القول والفعل بشبهه تتفجر عيون المعارف من بين أصابعه الكريمة وتتبختر فنون العوارف مهتزة المناكب فى مناكب طروسه النظيمة ولقد فاحت نوافح الادب فى هذه الاعصر فكان أول ناشق ولاحت لوائح العلوم الرياضية فى هذه الامصار فكان أول عاشق حتى أصبح كل أديب راويا لحديثه المسلسل راويا من عذب رحيق أدبه السلسل فما من أحد من أدباء هذا الزمن الاواليه ينتهى سند حديثه الحسن فهو المجدد فى هذا العصر لشرعة الادب بالاجماع والمنشئ سحائب الانشاء ودواوين البراعة بلا نزاع وان له الفضل وافرا بالحكمة وفصل الخطاب وجوهر فكر منسرح سريع السباحة فى بحور الآداب وقد أحسن اذجاء بهذا المؤلف المؤلف بين قلوب الاخبار المعترف لسكرات الآثار فى غوابر الاعصار ودوائر الامصار فشفى به علل القلوب ووفى بكل ماهو لذوى الرواية والروية مطلوب فليجعله الاديب سميره فى الدياجر وعمدته فى تحرير سير الاوائل والاواخر وليعض بالنواجذ عليه ارباب النهى فان عليه فى فنونه المعول واليه الانتها والصلاة والسلام على خير الانام ومسك الختام

قاله بفمه ورقمه بقلمه عبد الهادى

نجا الابيارى عفى الله عنه

صورة ما كتبه الامير الناجب ذو الذهن الثاقب حضرة

على بيك جلال وكيل المحافظة سابقا

الحمد لوليه والصلاة على نبيه ان أحسن مايستصبح به ويستملح فى معرفة أسرار الحكم الخفية الآلهية التى هى سبب لانتظام العالم واصلاحه بالحالة المشهودة البهية ويستنبط من أحكامه ماهو معين على التأدب والتدبر وموقظ ومنبه أصحاب العقول السليمة والتفكر وهو علم التاريخ الذى يعرف به أحوال السلف ويحصل منه نفع عظيم لمن يتعظ من الخلف فهو فى الحقيقة علم نافع عظيم ومجرب ومؤدب ومهذب حكيم الا انه لم يعلم جيدا حقيقة موضوعه فى الممالك الشرقية الا لمن مارس كتبه وقابلها بالمؤلفات الاجنبية

حيث أكثر مؤلفي العرب والعجم جعلوا تصانيفهم التي من هذا القبيل كأنها كتب أدبية مشحونة بفصيح العبارات وعجائب الحكايات مما ليس الى استجداه سبيل اذ في أكثر الاحوال لا يستدل على أسباب الواقعة وما نتج منها حتى يتأتى للانسان السلوك في العمل على أمثالها والتجنب عنها بما ان ذلك هو القصد المرغوب من التاريخ الصحيح المعنى الراجح الاسلوب فلما لم يوجد الى الآن لمصر تاريخ نفيس واضح مشتمل على هذه الاوصاف فلشدة الاحتياج اليه لابناء الديار المصرية وغيرهم ممن يرغب في هذا الفن من المعاصرين والاخلاف وأداء الخدمة المقبولة للانسانية والمحبة للوطن العائدة عليه بالمزية شرع في انجاز هذا المقصود من ظل عرفانه على أرباب الكمال ممدود حضرة رفاعة بك أفندي الشهير المستغني على الاطناب والاطراء بالتعبير فحسبه أنه يستدل على عظم شأنه بآثاره النفيسة العديدة مما يظهر به حقيقة قدره وسمو رتبته المعنوية لذى الالباب السديدة فالواجب علينا أن نشكر حسن صنيعه كل حين وآن ونؤدي ما علينا من فرائض الحمد على ذلك للواهب المنان حيث منح ابو لقانه النافعة في هذا العصر الباهر ونتائج أفكاره البارعة كما هو ظاهر فلا زال موفقا لخدمة وطنه بمثل هذه الهمة بجاه من ختمت به الرسالة وتمت به على أمته النعمة

علي جلال

فهرسة الجزء الاول من كتاب أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني اسمعيل

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

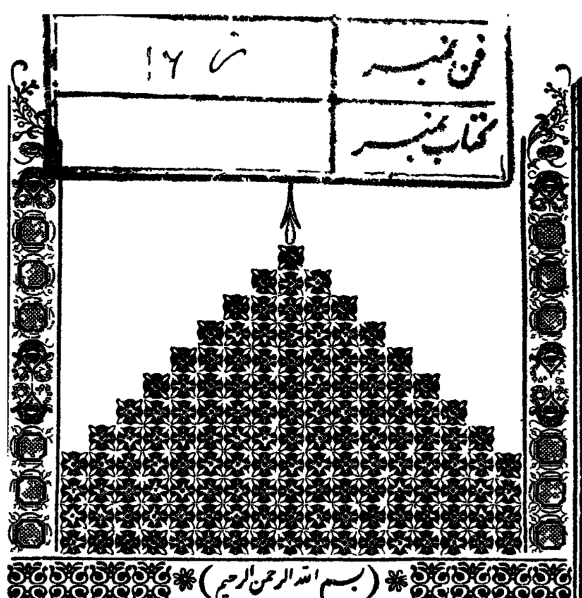
صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

الجزء الاول من كتاب انوار توفيق
الجليل في اخبار مصر وتوثيق
بني اسمعيل



(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله خالق مصباح الكائنات وفالق اصباح الموجودات ونور الارض والسموات والعالم بأسرار الماضى والآت والقائم على كل نفس بما كسبت من المخلوقات خلق فسوّى وقدّر فهدى وأبدى وأبدع على أحسن الصور جميع المصنوعات والصلاة والسلام على صاحب الآيات البينات والمعجزات الباهرات من فاز من عظم القدر بالمعنى الاعم بجليل الصفات وامتاز فى محكم الذكر بالمعنى الاخص بجميل الهبات فى قوله تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص ان فى ذلك لآيات وعلى آله أهل الشجاعة والثبات وأصحابه الذين وثبوا فى تجديد الفتوحات أعظم الوثبات وأيدوا دين الحق القويم وهدوا الخلق الى صراط مستقيم وهدّوا قوى الزيغ والضلالات ورفعوا قواعد الاسلام وردعوا أولى الشبه والجهالات فلا أمة من الامم الا اقتبست من زواهر عقولهم النيرات ولاملة من الملل الا التمست من أزاهر عقولهم المنيرات (أما بعد) فيقول قليل البضاعة عبده رفاعة هذه ثمار حدائق يانعة الازهار وتواريخ حقائق ساطعة

الانوار رافعة الاستار مفصحة عن جميع من حكم مصر من الدول والملل في جميع الاعصار سواء كان من أهل الوطن المنتسبين أو من الاجانب المتعصبين المحبين للتوطن بها والراغبين والمجدين في حسن التربية والمهذبين قبل الاسلام أو بعده ممن بذل جهده في التمدين أو لم يبذل فيه جهده اقتطفتها من الكتب العديدة واستخرجتها من التواريخ القديمة والجديدة عربية كانت أو غير عربية متجنبا فيها الاقاويل غير المرضية مما يظهر بعرضه على ميزان العقل أنه من محض الخرافات أو مما تولع به الاخباريون والقصاص من اختراع الاباطيل والخزعبلات أو مما توهمه أرباب الأوهام الفاسدة من العجائب التخيلية التي بدون فائدة اذ كثير من كتب السير مشحون بخوارق العادات ومملوء ببوارق خيال الاعتقادات مما ليس بمعجزة ولا كرامة والجزم به في مقام التاريخ الارفع مما يخفض مقامه

وليعلم الطالب أن السيرا * تجمع ما صح وما قد أنكرا

فلهذا اكتفيت بذكر جوامع الكلم في هذا التاريخ النافع وبيان ما اشتمل عليه فيما يخص أزمان مصر مما يتعلق بالمدنية والعسكرية من الوقائع مع الاعراب عن صيغ المباني والعوامل ورفع أعلام الفتوحات الى فواعلها ونصب معالم الهياكل والافصاح عما سلف من ابداع الفنون والصنائع واختراع وسائل عموم المنافع ووسائط المصانع مع ما يضاف الى ذلك من ملاحظات اقتضاها الحال أو من ايقاظات تربط ما تأخر بما سبق وارتضاها المقال حيث أوجبها الكلام لدفع المنافاة بين العبارات السابقة واللاحقة أو للجمع بين الاقوال المختلفة لتصحيح التوفيق بينها والمصادقة فجاد هذا التاريخ بالنسبة لما سواه بشفاء الغليل لما احتوى عليه من اقتران المدلول بالدليل فهو في الظاهر تاريخ أم الدنيا وعنوان ملوك المملكة العليا حيث ان مصر كنانة الله في أرضه ولها العلائق الاكيدة مع سائر العالم في طوله وعرضه ولكن في الحقيقة ونفس الامر تاريخها جامع لتاريخ سائر الممالك والملوك فلهذا سلكت في تعميمه أحسن السلوك فقد اشتمل على ذكر الحنفاء والخلفاء والعلماء والحكماء والسلاطين والاساطين والامراء

والوزراء وجميع ما اقتضاه فن الاستطراد وأوجبته المناسبة وحكم به الاسلوب الحكيم لبيان المرام والمراد حتى صار أهلا لان ينطق بالاثنية الخيرية ويبسط أكف الدعاء فى البكرة والعشية لحامى حمى الديار المصرية ومعيد بهجتها الاصلية

وكنت أنا الحامى حقيقة واثل * كما كان يحمى عن حقائقها أبى

ومنعش نشأتها الاولية ومجدد نجدة الملة الاسلامية ومشيد أركان الاحكام النظامية ألا وهو الملك الجليل عزيز مصر اسمعيل أمده الله بطول البقاء ووفقه لتنجيز مقاصده العلياء ورزقه مزيد الارتقاء (ثم لما صادفت تصنيف هذا التاريخ عناية القوة الفاعلية وساعدت ترصيفه رعاية النخوة الاسماعيلية ووافق صدور الامر بطبعه وتمثيله أثناء العهد من عقد العهد لنجله الاكبر تاج الملك وإكليله سميته أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسمعيل ليكون محبوك الطرفين متحليا باسمى الاصل والفرع الاشرفين

ولما كان من عادة من ألف مثل هذا الكتاب ان لا يتحفه الا لامير رفيع الجناب خبير بمزايا ما اشتمل عليه من الفصول والابواب حتى يكون كفؤا للوقوف على دقائق مبناه ورقائق معناه وكان صاحب الدولة نجل العزيز موصوفا بمحاسن العقل المكتسب والغريز وله فى فن التاريخ كمال التمييز وجب على تقديمه اليه وعرضه عليه واهداؤه لحضرته السنية ليكون اول تاريخ لمصر أحرز هذه المزية

معروض الاتحاف ومفروض الاستعطاف

لولى عهد مصر الوثيق حضرة محمد باشا توفيق

يا أيها الامير الجليل وسمير المجد الاثيل وسرى بنى اسمعيل وياسمى جده الاعلى الذى أحيا مصر فكان بها أولى من المعلوم لدى دولتك العلية والمفهوم لفطنتك الالمعية أن بارئ النسم وخالق الاخلاق والشيم ورافع الاقدار والهمم ومالك رقاب الامم قد خص أصلك الكريم ووالدك

البر الرحيم بالفكرة الوقادة والفطنة النقادة وعوده بأن تكون قضايا أفكاره منتجة وهدايا أنوار تصوراته منبلجة وزوايا أسرار تصرفاته قائمة ومنفرجة وسرايا أنصار مشروعاته في سبيل الظفر منتهجة ووفقه لاحياء مآثر مصره وتجديد مفاخر عصره وقوى قدم سعيه في تلك المناهج فتقوى عزمه بما ابتهج به التاج الخديوى من المباهج

ملك زهت بمكانه أيامه * حتى افتخرن به على الايام

وتفرد في مصره عن المشارك والمماثل حيث أتى بما عجز عنه الاوائل كأنه مصداق قول القائل

واني وان كنت الاخير زمانه * لآت بما لم تستطعه الاوائل

فلما رأى من أثمار غرسه ما يرضيه وتحقق من ايناع ثمرات أمانيه وأن مسند هذا الحديث متصل اليه بالعنعنة عن جده وأبيه

فان الماء ماء أبي وجدي * وبئرى ذو حفرت وذو طويت

استحسن أن يعهد بالعزازة لاكبر بنيه

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم * في الحادثات اذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح * تجلو الدجى والاخريات رجوم

فكنت أيها الامير الاولى بهذا العز المترفع والأحرى باحراز شرف هذا الموضع وصرت الأبهى الأبهج والابهر الابلج بل كنت مصداق ما قيل

فليس على الجد والمكرمات * اذا جئتها حاجب يحجبك

ولما كان المجد التليد الموهوب لا يمدح الا اذا اقترن بالمجد الطريف المكسوب وكان العزيز مجمع المجدين ومنجم السعدين هداك النجدين وحباك السوددين وحلاك من المحاسن ببردين

أبوك الذي أعطى على الجد ماله * وحاز المعالي واحتوته المكارم
فيصبح في جمع المكارم والعلا * ويدلج في حاجات من هو نائم

اذ نبه فطنتك من السنة وأمدك بالتربية الحسنة وأعدك للمعارف المستحسنة وعدلك بفهم اللغات والألسنة كما وشحك بأسنى المناقب ورشحك باسمى المراتب

ان الجمال معادن * ومناقب أورثن مجدا

فمن ذا الذى يسوم نفائس المعالى من أبناء الملوك كسموك أومن يسود قومه بعلم السلوك كما تسود فى ظل العزيز أعزة قومك كما قيل

وكل فضيلة فيها سناء * وجدت العلم من هاتيك أسنى

فلا تعتمد غير العلم ذخرا * فان العلم كنز ليس يفنى

وهذه العناية التجهيزية بالرعاية العزيزية هى التى تقول لك بلسان حالها

فأقم لنفسك فى انتسابك شاهدا * بحديث مجد للقديم محقق

فمجلس المناظرة شاهد عدل وأفصح مجيب بما شاهده غير مرة من شواهد حضور عقلك العجيب

بعكاظ يعشى الناظر يـن اذا هم لحوا شعاعه

وهل بجحد سباحد * ان كل ألف لا تعد بواحد

أدامك الله للبرايا * لتعمر الملك والدروسا

من رام أن يحرز المزايا * يفوز ان ترضه أنيسا

فكأنما العلوم الرياضية تنبع من بحار أفكارك الفيضية وتصويرها بأنواع الرسوم والاشكال يرفع وهم الواهم ويدفع الاشكال وأما نطق جنابك باللغات على اختلاف أوضاعها وتنوع أنواعها فيؤذن بغاية الجزالة والفصاحة ونهاية الحماسة والسماحة كما أن خطك سبائك الذهب النضار يروق النواظر ويجب النظار ولك فى علم الجغرافيا والتاريخ حظ وافر تقتدر أن تنافس فيهما أقرانك من أبناء الملوك وتفاخر لاسيما وان تعلم التاريخ أليق بأبناء الامراء والسلاطين اذ هو معرفة أحوال الامم والدول والملوك الماضين فتقف الملوك به على أحوال من مضى من الانبياء والاصفياء وغيرهم من أرباب الرياسات والسياسات ممن مر زمانهم وانقضى فيعتبر القارئ لسيرتهم من تلك الاحوال ويحصل على ملكة التجارب من معرفة تقلبات الزمان والانتقال فيحترز عن تجرع وغصص ما نقل من المضار وينتهز التمتع بفرص ما قيل من المنافع والمبار فالتاريخ عمر ثان للناظرين فمن تعلمه فكأنما زاد فى عمره وأحسن عاقبة

أمره لاسيما من اشتغل به مثل ذاتك البهية من عنفوان الشباب ونضرة الاهاب فانه يكتسب فى زمن الشبيبة التجارب ليحفظه الى أوان الاياب فيحوز الشاب فى وسائل الرياسة الرسوخ فكأنه مارسها ولا ممارسة الشيوخ (فلما آنست) أن رأى الجميع قد أجمع على أن جنابك المنيع لايزال يبذل الجهد فى اتقان هذا الصنيع ويجول فى حومة التاريخ أتم مجال ويسبق رجال الدولة ويحوز قصب السبق فى مضمار هذا النضال ويصيح باللسان الفصيح فى ميدان الكفاح من صد عن نيرانها * فانا ابن قيس لابراح بادرت باقتطاف أزهار التواريخ المصرية واجتناء أثمار الآثار القديمة والعصرية لأتشرف بوسمها باسم جنابك العالى ورسمها بعنوان كوكب سعدك المتلالى المتسابق الى طلب المعالى فان تفضلت بقبوله فهذا غاية آمالى فلا عجب ان صادف المقبول نسيم القبول أو وافق الراجى فتح أبواب الوصول على أن لسان الحال لاشك ينبيك بأن هذا أثر من مآثر نعماء أبيك فاهداؤه الى جنابك وتقديمه الى أعتابك من باب شكر النعمة والامتنان الواجب فى كل المذاهب والاديان لاسيما وان شكر النعمة السالفة يفيض كما قيل نعمة مستأنفة بل هو تتمة لتمام النعمة كما نقل عن بعض أهل الحكمة ولكن ما مقدار هذه المجموعة المؤلفة بالنسبة لما تجدد فى عهد العزيز من التآليف الجليلة المختلفة ومع ذلك فقد أجريت القلم فى حلبة البراعة وأخرجت نفسى من أرض الخمول الى روض البراعة وأطلقتها من عقال الفهاهة واللكنة الى اعمال الفكرة والفطنة فأبرزت ما كان مستترا من الضمائر المستكنة والفضل فى ذلك للعزيز ذى الفضل والمنة بلغ الله عزيز مصر فى حوز المعالى مناه كما يحبه منك ويرضاه وأرفق اجتهاده بالتوفيق سبل السداد والاصابه وهذا دعاء وافق أوقات الاجابة آمين

(تنبيه وجيه يحتاج اليه النبيه)

قد قسم العلماء التاريخ الى أثرى وبشرى

فالاول ما كان من طريق الشرع كالقصص الواردة فى الكتب السماوية

والثانى ما وقف عليه الناس من الوقائع والحوادث الحاصلة فى الاعصر

القديمة والجديدة فأرخوه وهذا القسم الثانى الذى هو التاريخ البشرى ينقسم الى قسمين قديم وحديث من حيث الازمان الحالية ومابعدها ومن جهة أخرى ينقسم الى عمومى وخصوصى كتاريخ جميع الامم أو تاريخ أمة واحدة كتاريخ المصريين مثلا واشهر توار يخ قدماء الامم تاريخ قدماء مصر ثم تاريخ الصوريين يعنى أهل بلاد السواحل الشامية فانهم كانوا فى سالف الاعصار ملوك البحار وتجارهم أعظم التجار حتى يقال انهم لغناهم كثرت عندهم الفضة وأثقلتهم فى أسفارهم فاتخذوها هلوبا للمراكب عوض الرصاص ثم أهالى أثور وبابل وهم قدماء العراق والاكراد التى من مدنها بابل ونينوى ثم أمة الفرس الاولى وأذربيجان ولوأن هذين المملكتين انضمتا الى ملوك العراق الا أنهما لهما شهرة عظيمة حتى ان دولة العجم عريقة فى المعرفة والحكمة ثم أمة الهند ويقال انها كانت معمورة بالعلوم والآداب والتجارة والسياسة قبل غيرها من البلاد لكثرة خيراتها ويفوق جميع هؤلاء الامم ماعدا المصريين أمة اليونان التى تاريخها أحسن توار يخ ممالك آسيا فائدة لشجاعة أهلها وحريتهم وعظم شأنهم واتقان سياستهم واحكام عمائرهم فلذلك كان له ذكر فى أكثر الاحيان فى هذا التاريخ

تمهيد لتاريخ مصر وتوطيد لاغنى عنه للطالب المستفيد

قال بعض العلماء التاريخ معاد معنوى لانه يعيد الاعصار وقد سلفت وينشر أهلها وقد ذهبت آثارهم وعفت وبه يستفيد ملكة التجارب من كان غرا ويلقى آدم ومن بعده من الامم وهلم جرا فهم لديه وقد ضمنتهم بطون القبور أحياء فى عداد الحضور ولولا التاريخ لجهلت الانساب ونسيت الاحساب ولم يعلم الانسان أن أصله من تراب وكذلك لولاه لماتت الدول بموت زعمائها وعمى على الاواخر حال قدمائها ولم يحط علما بما تداولته الارض من حوادث سمائها ولمكان العناية به لم يخل منه كتاب من كتب الله المنزلة فنها ماأتانا بأخباره المجملة ومنها ماأتانا بأخباره المفصلة

وقد ورد أن فى التوراة سفرا من أسفارها يتضمن أحوال الامم السالفة

ومدد أعمارها وكانت العرب على جهلها بالقلم وخطه والكتاب وضبطه تصرف الى التاريخ جل دواعيها وتجعل له أوفر حظ من مساعيها وتستغنى بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها وتعتاض برقم صدورها عن رقم سطورها كل ذلك عناية منها بأخبار أوائلها وأيام فضائلها وهل الانسان الا ما أسسه ذكره وبناه وهل البقاء لصورة لحم ودمه لولا بقاء معناه فالتاريخ عمود اليقين والنافى للشك بما فيه من التخصيص والتعيين به تعرف الحقوق وتحفظ العهود ويبرز ما فى مقام الغيب الى مقام الشهود ومن أرخ فقد حاسب على عمره ومن كتب وقائع أيامه فقد كتب الى من بعده بحوادث أمره ومن قيد ما شاهد فقد أشهد أحوال أهل عصره من لم يكن فى عصره ومن كتب التاريخ فقد أبدى الى من بعده أعمارا وبوأ مسامعهم وأبصارهم ديارا ما كانت لهم ديارا

يا خليلى ذكرانى بسعدى * واسعدانى بذكر سكان ربعى
فاننى أن أرى الديار بعينى * فلعلى أرى الديار بسمعى

(ولا يخفى) على ضمائر أولى البصائر وخواطر أهل الفضل الباهر أن مصر نازعت قدماء الامم فى الاقدمية فسلموا لها أنهم دونها فى مرتبة الاهمية وأن لم تسبقها أمة فى ميدان التمدنية ولا فى حومة تقنين القوانين وتشريع احكام الاحكام المدنية ولم تجحد نعمة اقتباس علومها أمة ولا ملة ولا أنكرت الاستضاءة بنور نبراسها مملكة عظيمة ولا دولة فمما اختصت به مصر من بين الممالك أن كل مملكة تستنير برهة ثم تطفى وتشرق شمس بهجتها ثم تختفى فكأنما نورها شئ ما كان ولا لمع ضوؤها فى زمن من الازمان وأما مصر فأغرب شئ من بقاء شمس سعدها وارتقاء كوكب مجدها انها بقيت سبعين قرنا حافظة لمرتبتها العليا لها اليد البيضاء والسلطنة المعنوية على سائر ممالك الدنيا ولها الارجحية فى النفوذ والتأثير وفى معيار العلوم فضلها شهير فقد كانت فى أيام الفراعنة أم أمم الدنيا وكانت شوكة سلاحها قوية وهيبتها فى القلوب متمكنة علية وفى أيام الاسكندر ومن بعده من البطالسة وأزمان دولة الرومانيين القاهرة العابسة كانت مصر أيضا رحيبة الدولة مهيبة الصولة لما انتقش فى خبايا قلوب الامم من علو فخارها

وارتسم فى مرايا الملل من رفعة منارها فكانت اهابتها بالقوة المعنوية بقدر اهابتها أيام الفراعنة بالقوة الحسية أوليس ان حكماء الاسكندرية وعلماءها وفلاسفتها اشتهروا بالعلوم العقلية لاسيما علم الاخلاق والعوائد وكثرت آراؤهم ومذاهبهم وأخذ عنهم الصادر والوارد والمتردد والوافد عموم المنافع والفوائد فتشعبت منها العلوم فى سائر معالم البلاد فتغيرت أحوال البلاد تغاير حيثية ونشأ عنها صورة حوادث الازمان الحديثة وكذلك فى القرون الوسطى المعلومة التى افتتاحها فتوح الاسلام لمصر على حالة مفهومة تجدد فى مصر ما لا مزيد عليه من التقدمات والاهمية مما لا يكاد يوجد فى غيرها من البلاد الاسلامية وغير الاسلامية اذ كانت قطب رحى ديار الاسلام ومركز دائرة شريعة خير الانام فقد انتصر سلاطينها على ملوك الافرنج وغلبوا الجم الغفير وهزموا الجند الكثير وظهروا عليهم فى جهاد أهل الصليب وخلصوا بلاد القدس وغيرها من أيديهم بتوطين النفس فى الحرب على الشدة والتصليب ولما ظهر ملك فرانسا بجهة دمياط والمنصورة ظهر عليه جند مصر فرجعت جيوشه مهزومة مقهورة وفادى بنفائس الاموال نفسه وعاد الى بلاده بعادى تخمينه وحدسه ومن سوابق هذه المخالطات المشرقية وعلائق التقدمات الاندلسية انتشر التمدن من المشرق الى المغرب وأعظم الفضل لديار مصر فى انتشار هذا التمدن المرقص المطرب (وفى ابتداء) هذا القرن الذى نحن فيه لا تخفى حوادثه الشهيرة على النبيه فقد تغلب فيه عليها الفرانساوية ورجوا باستلائهم عليها بلوغ الامنية ويأبى الله الا ما أراده حيث أعدها لغيرهم وأنجز مراده فكانت من نصيب صاحب عزيمة ولا عزيمة الاسكندر ورب شكيمة ولا شكيمة كسرى وقيصر فمن مثل انسان عين الكمال وكمال عين الانسان جنتمكان محمد الاسم على الشان فانه أحيا مصر حياة طيبة وأبرزها الى عالم الشهادة الامور المغيبة وورثها السلالة من بعده حتى وصلت الى حفيده اسمعيل الصادق فى وعده الواثق بعهده فاقتفى الفرع أثر أصله فى احياء ما أماته الحدثان واعتنى بجمع ما شتته الملوان واعتمد فى تنجيز مقاصده على مولاه وقال وما توفيقى الا بالله فرفع فى عهده على أودية

مصر أعلام العوارف والنعم ونشر على أنديتها ألوية المعارف والحكم
فمكن من أواوينها أصول الكياسة والرياسة ودوّن فى دواوينها قوانين
التدبير والسياسة وقوى عزم الشرائع والاحكام وأيد لمصر بتأسيس
قواعد الجند المصرى على أقوى تأسيس واحكام وأخذت العلوم والفنون
فى الارتقاء الى درجة الكمال وتوفرت فيها وسائل تحسين الحال وتنعيم
البال كتنظيم مجالس الملة وتعظيم حقوق الاهالى واعزازهم بعد المذلة
وعسى بكثرة غرائب الرغائب ورغائب الغرائب أن يأتى مستقبلها بالعجائب
ويزدحم على موردها العذب أرباب المآرب من المشارق والمغارب
وتنفرد بشد الرحال اليها ووفود فحول الرجال عليها حتى يقول علماؤها
لعلماء غيرها من الممالك ونساكها لغيرهم من أهل المناسك ماقاله
قدماؤها من الحكماء الحكيم سولون أحد عقلاء اليونان أنتم ياعصبة الحكماء
من اليونان جميعكم بعد عندنا من الشبان والفتيان ليس فيكم كهول
فى الفضل ولا شيوخ ولا من له فى ديوان المعارف قدم ثابت ولا رسوخ
فمن هنا يعلم أنّ ديار مصر فى سائر الاوقات والحالات لها الاهمية الكبرى
والمدخلية العظمى فى سائر الحوادث الخارجية وفى جميع المهمات ولها
الامتياز الاوفر الاوفى قديما وحديثا كما لايخفى فكأنها قسم كامل على
حدتها من الاقسام المعمورة فهى وحدها معتبرة كافريقية أو آسيا أو أوروبا
منبعا للحوادث المشهورة بل جميع هذه الجهات الثلاث بمنافعها مغمورة
بل شرعت الآن تنافس افريقية فى تنمية القطن والمزارع لتكثير فوائد
الصنائع وترويج المنافع وبالجملة فهى التى قد فتحت لجميع البلاد المعمورة
أبواب الفخار المأثورة فلا غرو أن اشتركت معهم الآن بهذا المجد الذى
انفردت به المدّة المديدة واختصت به فى القرون العديدة بل لايزال ان شاء
الله تعالى الفخار يلازمها ولا يبرح المجد يسالمها حتى يرث الله الارض
ومن عليها وهو خير الوارثين

تقسيم تاريخ مصر الى اقسام وضعية بناء على ادوارها الطبيعية

لابأس بتقسيم تاريخها العمومى من العهد القديم الى عهدنا هذا الى قسمين

أصليين

الأول حالة ما قبل الاسلام

والثانى حالة ما بعده ويتفرع عن الاول فرعان

أحدهما زمن الجاهلية

وثانيهما اشهار دين النصرانية بالاوامر الرسمية الصادرة عن طيوديس قيصر الرومانيين

فحالة ما قبل الاسلام عبارة عن الزمن الذى بقيت مصر فيه عاكفة على عبادة الاوثان والاصنام أو تمسكت فى آخر أمرها بدين النصرانية واتبعت شريعة عيسى عليه السلام وهو كناية عن دورين من الزمن دور الجاهلية ودور النصرانية فالاول هو ما كان التمدن فيه منحصرا فى عبادة الاوثان والكتابة بالقلم القديم المصرى والتكلم باللسان المصرى القديم أيضا والتعلق ببناء الهياكل والمعابد والقصور الدهرية التى بقيت آثارها على حافتى النيل وافتتاح هذا الدور من افتتاح الحكومة الملوكية بمصر ومدة هذا الدور خمسة آلاف وثلثمائة وخمس وثمانون سنة شمسية قبل الهجرة وانتهاؤه قبل الهجرة فى أول سنة مائتين واحدى وأربعين سنة فكان فى هذه السنة صدور أوامر القيصر طيودوسيس بالنهى فى مصر عن عبادة الاوثان والتصريح عليها وبوجوب التمسك بدين النصرانية فى سائر أطراف وأكناف الممالك الرومانيين ومن جملتها افتتاح الدور الثانى من تاريخ تذمر تلك الاوامر الرسمية الى السنة الثامنة عشرة من الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ومدته مائتان وتسع وخمسون سنة كلها شمسية الا الثمانى عشرة التى من الهجرة وكانت مصر فى هذا الدور الثانى بتمامه من ملحقات قياصرة الروم بالقسطنطينية

وأما حالة مصر بعد الاسلام فهى معتبرة دورا ثالثا وابتداؤه من سنة ثمانى عشرة من الهجرة المحمدية يعنى من زمن فتوح عمرو بن العاص لمصر الى عهدنا هذا ومدتها ألف ومائتان خمس وستون سنة هلالية

اقدمية مصر فى التقدم والتمدن

ثم ان مصر فى القديم والحديث لينة الاخلاق سهلة العريكة تشكىء من أرائك الطاعات والمناسك على أنعم أريكة أزلية التمدن أبدية التدين ناشطة على العمل باسطة أكف الرجاء والامل بخصوبة مزارعها واعتدال قطرها المعين على تحصيل منافعها كانت أهاليها مثرية ولم تزل غنية مشغولة عن الفتن والشرور المتولدة فى جمعيات البلاد الاجنبية وهمة أهلها فى تثمير الارزاق وعبادة الملك الخلاق دأبهم من القديم التجارة والصناعة والفلاحة يكثر منهم عدد الطوائف أرباب الصنائع المرغوبة كالحياكة الجيدة والصباغة بالالوان المحبوبة ومن قديم الزمان يحسنون صياغة المعادن السبعة وصناعة الصينى والزجاج والترصيع والتطعيم بالصدف والعاج ونحو ذلك مما كان له أعظم رواج فكانت عندهم الصنائع فى أعلى درجات الكمال وكانت ثمرات عقولهم ونتائج اذهانهم لاتنشأ الا عن فحول الرجال انتقلت آثار صنائعهم الى البلاد القاصية وكثرت فيها الرغبات فى الممالك الطائعة والعاصية حتى اشتهر عند جميع الانام أن حكماءهم وهرامستهم الذين قال انهم تلقنوا العلوم من ادريس عليه السلام وتلقوا عنه أسرار المنافع والشرائع والاحكام

والسر فى هذا التقدم العجيب وحسن التمدن الغريب فى أزمان بعيدة العهد عن ظهور النواميس والشرائع وتلاوة الكتب السماوية على الاذان والمسامع هو أن قدماء القبائل والعشائر الاوائل اما أن تكون طبيعة بلادهم تلائم فى المعيشة القنص والصيد أو رعى الماشية والتنقل من جهة الى أخرى بلا شرط ولا قيد فالقبيلة الصيادة أو الراعية يبطئ تقدمها فى التمدن ولا تصل الى درجة عالية لأن مورد كسبها ضعيف ومصدر احتياجها الطفيف تقنع من العيش بدون الطفيف فلا تصل الى التمدن بسرعة ولا تتجرع منه بجرعة الا ان هرعت الى محله وطمعت فى بقعة غير البقعة

وأما الامة التى طبيعة اقليمها تلائم الفلاحة والزراعة وتصريف نتائج هذه البضاعة فانها تركض فى ميدان التقديم وتسعى فى مضمار الترتيب والتنظيم فبقدر حاجتها الى تحصيل أدوات الفلاحة والزراعة تنبعث عزيمتها الى البحث عن اختراع الفنون واقتراح الصناعة

فهكذا كانت ضرورة الديار المصرية حيث أوجبت خصوبة ارضها أن تكون صنائعها قسرية اذ الفلاحة تستدعى انتخاب الفصول والازمان ومعرفة سير النجوم ومساحة البلدان وهندسة الآلات والعمارات وحفظ المحصولات فى المبانى والعمارات ووقاية الاموال والنفوس فى المدينة الحصينة والبندر المحروس والتمتع برفاهية الحال وتنعيم البال وتحسين العاقبة والمآل ونقل مازاد عن احتياجاتها الى البلاد الاجنبية وجلب ماليس عندها من الجهات الخارجية فاتسعت دائرتها بهذه المثابة وتفرعت أفنان وسائلها ومقاصدها فى رياضة فنون النجامة والنجابة وتشبث حوامها بادر المدّ الحفظ المعنوى والامنية .

ترتيب مملكة مصر فى القديم وسياستها واخلاقها وعوائدها

ولما تمكن من عقلها وجوب الرابطة بيد الراعى والرعية والرئيس والمرؤس والسائس والمسوس وعرفت أن الحكومة الملكية بهذه الصورة لاتقوى اعتماديتها الا باستشارة رجال المشورة نشرت لملكها الاعلام والبنود وأمدته بالاموال والجنود واتخذته حامى الحمى وأضافت الى ديوانه جماعة العلماء والعقلاء والحكما وجعلته على هذا الوجه مركز الانصاف واليه المرجع فى الوفاق والخلاف ولهذا كان أمناء الدين فى أول الحكومة الملوكية فى الازمان البعيدة الاقدمية لكونهم أرباب امتياز وخصوصية ومعارف حقيقية واستقامة أمور وعدل جمهورية يرتبون ديوان الملك وسياسته العمومية والمنزلية واذا انتقل الملك الى دار البقاء حكموا عليه بأنه كان فى أيامه من أهل السعادة أو الشقاء وبيان ذلك أنه كان اذا مات ملكهم مزقوا ثيابهم وغلقوا فى الهياكل والمعابد أبوابهم ومنعوا تقريب القربان وامتنعوا من عمل عيد أو موسم أو مهرجان واستمروا على هذا الحال بوصف الحزن فى هذا المأتم اثنين وسبعين يوما اجلالا لمنصبه المكرم وانتشر مرتين جموع الذكور والاناث فى الشوارع والحارات فى كل يوم للندب وانشاد المراثى فكانت هذه المدة مأتما حافلا يحزن فيه الخاص والعام فاذا انقضت هذه الايام وضعت جثة الملك محنطة مصبرة

فى دهليز المقبرة ثم يحثوا عن جميع ماصنعه الملك من خير أو شر ويفحصوا بغاية الدقة على الاثر والخبر بحضر ألوف من الناس كل بعدد محاسن الملك ومساويه ويذكر سيرته حسناً أورداءة وجميع مساعيه ويدبر أفعاله المرضية أوغير المرضية ويحكم فى ذلك برأى جمهور الجمعية فان حكمت بدفنه دفن بهذا الاحترام على مقتضى مقامه الملوكى والاحرم من هذا الاكرام وتجرد عما يجب لعظامه من التبجيل والاعظام ولم يكن للاهالى المصرية ولا لعامة الرعية تداخل فى حكم الملك الافى هذه القضية ومع أن هذه المداخلة بعد الموت خفيفة هينة فكانت نتيجتها شريفة بينة حيث انه لما حرم الدفن كثير من الملوك الفراعنة اجتهد خلفاؤهم فى اصلاح العمل وسلوك سبيل العدل خوفا من المناقشة بعد الموت والمطاعنة وهالهم اهانة جثتهم بعد الممات كما هال أهل الحق خشية سوء الخاتمة والخوف من العرض على رب السموات

وفيما عدا هذه الحالة كان المصريون يحترمون ملوكهم بقدر الاستطاعة ويصرفون اليهم كل الانقياد والطاعة حتى كادوا أن يعبدوهم كعبادتهم العجل والثور وينقلوهم من طور البشرية الى أشرف طور لانهم يقولون ان من قدر له فى الازل منصب الملوكية ووفق للعدل فى الرعية وصنع الخير والمعروف مع سائر البرية فلا عجب ان كان بشرا فى مظهر الالوهية

وقد كانت ملوكهم تختار من بين أمناء الدين فى جمعية عمومية أربابا من المبعوثين من كل اقليم برسم متوكلين ونواب للمداولات وعليهم فى الآراء مدار الاستصواب فيجتمعون فى البربا التى بين ميت رهينة والفيوم فكان يتشكل منهم جمعية عموم تعقد فى الحوادث المهمة والوقائع المداهمة كالصلح والحرب وتجديد التراتيب العمومية وتغيير الدولة عند خلو الكرسى من الذات الملوكية ولم يكن من شأن الملوك مباشرة الدعاوى ولا الحكم بأنفسهم فى الوقائع بل كانت المحاكم محلا للاقضية والاحكام موظفة مدققة فى اجراء قواعد القوانين والاصول على أتم اتقان واحكام فكانت مدينة منف وعين شمس بالاقاليم البحرية ومدينة آبو بالاقاليم القبلية يخرج منها فخام القضاة والحكام وكل مدينة تعطى عشرة

من القضاة لاجراء الاحكام فيجتمع من الثلاث مدن ثلاثون قاضيا لمجلس القضاء وكان لالثلاثين قاضيا الحق فى نصب قاض منهم رئيسا عليهم وبعد نصبه يكملون عدة الثلاثين من مدينة القضاة العشرة الذين نقص منهم الواحد وكانت نفقاتهم على طرف الحكومة ومرتبات رئيسهم من بيت المال جسيمة ولا تقام الدعاوى فى مجلس القضاء الا بالمكاتبة ولا يسمع التداعى والتخاصم بالمشافهة والمخاطبة مخافة أن تنجذب نفوس القضاة من سماع كلام أحد الخصمين وتستميل قلوبهم فصاحته أو عذوبة ألفاظه فربما ترتب على ذلك الاغراض فى الاحكام فكان يكتب المدعى شكواه أولا ويعين مقدار ما يلتمس اعتياضه فى نظير ما خسره أو ما حصل له من الاساءة فيعطى للمدعى عليه صورة ما كتبه خصمه ليطلع عليه فيرد كلام خصمه ويناقض رؤس جمله ثم يجوز ان يعطى جواب المدعى عليه للمدعى عساه أن يجيب عنه وكذلك يجوز أن يعطى للمدعى عليه بعد ذلك فاذا فرغت المناقشات والمحاورات وجب على مجلس القضاة بعد البحث فى القضية ان يحكم فيها بما يظهر له فيكتب الحكم أيضا ويختم الحكم رئيس القضاة على وجه عجيب

وذلك ان رئيس المجلس له زنجير من الذهب معلق فى عنقه فيه صورة من الجوهر عليها تمثال الحق مصور فعند افتتاح المذاكرة لا بد من تعليق هذه الصورة فاذا صدر الحكم من المجلس صدق عليه الرئيس بختمه بصورة الحق ووجهها صوب أحد الخصمين الحاضرين بالمجلس حين الختم علامة على أنه ظهر له الحق وأنفذه

كيفية الحدود والعقوبات عند المصريين

وكان للمصريين أحكام غريبة تدونت فى كتب شرائعهم وذلك كعقاب الحانث فى يمينه بقتله وسر ذلك عندهم أن الحانث ارتكب ذنبين من الكبائر كونه حلف كاذبا فقد خان معبوده بالفجور فى حلفه به وأنه قد غش الناس بيمينه الفاجرة ليتقوه فأوقعهم فى تصديق الكذب ومن أحكامهم أن من رأى فى طريقه من يقتل انسانا أو يصول عليه ولم يغثه من القتل أو الصيال مع قدرته على ذلك فجزاؤه القتل فاذا كان لا يقدر على اغاثته بنفسه وانما

يتمكن من طلب اغاثته بغيره وجب عليه أن يطلب اغاثته من القادر عليها فاذا قصر فى ذلك قتل أيضا وكذلك اذا علم أحد بقاتل لا آخر وجب عليه التبليغ لمحل الاقتضاء أى الحكومة فان لم يبلغ ذلك الحكومة فجزاؤه القتل لان وجوده كعدمه ومنها أن الخائن الذى يبلغ الاعداء أسرار الحكومة ويطلعهم على عوراتها جزاؤه قطع لسانه وكذلك من يصطنع النقود البرانية أو يزور فى الموازين والمكاييل أو فى الختوم والمكاتيب أو يزور فى الوثائق العمومية والحجج الشرعية جزاؤه قطع يديه

وأما الاحكام بالنسبة للنساء فمبنية على التشديد فان من ثبت عليه أنه اغتصب امرأة حرة غير رقيقة بالزنا فجزاؤه قطع آلة الزنا لان هذا الذنب يتضمن ثلاث كبائر

الاولى التعدى على المرأة بهتك عرضها

والثانية السعى فى افساد الاخلاق والعوائد فى الجمعية

والثالثة ما يترتب على ذلك من اختلاط الانساب فاذا زنى بها برضاها فجزاؤه جلده ألف جلدة وجزاء المرأة قطع أنفها لتشويه وجهها حتى ينقطع ميل الرجال اليها وأربهم منها

ومن أحكامهم أن الدين المدعى به لا يثبت على المدين اذا حلف على رؤس الاشهاد أن ذمته بريئة من ذلك وان الدائن لا يستحق فى ذمته شيأ ومحل ذلك مالم يثبت الدائن دينه عليه بسندات قوية

ومن أحكامهم أيضا أن الربح عندهم فى أى شئ كان فى البيع والشراء لا يتجاوز رأس المال والا عد من الغبن الفاحش وأن من عليه دين فاملاكه كافلة لذلك الدين وضامنة له وأما ذات المدين يعنى شخصه فليس ضامنا لدينه وسر ذلك ان ذات المدين مملوكة للحكومة بحيث تطلبها الحكومة للخدمة فى كل وقت وفى كل حال سواء زمن الصلح أو الحرب فلا يجوز القبض على أحد من الاهالى ولا حبسه فى الامور الخصوصية كالدين ونحوه

ومن الاحكام الغريبة عندهم أنه يجوز للانسان أن يقترض ويرهن فى نظير دينه جثة والده المدفونة فيكون قبر أبى المدين تحت يد الدائن الى قضاء الدين فاذا لم يقض المدين دينه ومات حرم من دفنه فى مقابر والديه ويحرم أولاد

المدين أيضا من ذلك مالم يوفوا ما على والديهم من الدين

ومن عوائدهم أيضا أن الولائم التي يصنعها الاغنياء يحضرون بعد الطعام خارجا عن أودة الطعام نقشا مرسوما عليه صورة من الخشب جيدة الصناعة على هيئة جثة الميت ينظر اليها جميع الندماء على الشراب والطعام ويفرج بعضهم بعضا عليها بالمناوبة فيقول بعضهم للآخر انظر الى هذه الجثة ستكون مثلها بعد الموت فاشربوا هنيأ وتمتعوا بدنياكم قليلا

ومن عوائدهم أيضا احترام الفتيان الشيوخ فاذا قابل الفتى شيخا فى طريقه تأخر عنه فى المسير واذا قدم شيخ على مجلس فيه فتيان قاموا له اجلالا لشيخوخته واذا تقابل المصرى مع اخوانه فى موضع ولزم التسليم على من لقيه انحنى كل للآخر وجثا على ركبتيه وقبل كل منهم يد صاحبه وكانت ملابس المصريين ثيابا من الكتان لها سجق وفوقها برانس منسوجة من الصوف الابيض ولكن لا يلبسون تلك البرانس فى المعابد والهياكل ولا يكفنون بها موتاهم بل يقتصرون على الثياب لان ديانتهم تحرم ذلك

(كيفية تقدم الفنون والمعارف)

وكانوا يشتغلون بفن الطب ويتقنونه اتقانا جيدا الا ان الطبيب عندهم لا يتفرغ الا لفرع واحد من فروع الحكمة ولا يؤذن له فى العلاج الا بعلاج مرض واحد من الامراض لا عدة أمراض مختلفة فلهذا كثرت عندهم الاطباء المتقنون فى الفروع الطبية فكان عندهم أطباء للعيون وأطباء لاوجاع الرأس واطباء لوجع الاسنان وأطباء للمعدة وأطباء للامراض الباطنة الخ وآثارهم كمبانيهم الجافية دلائل على أن درجة تقدمهم فى المعارف البشرية غير خافية اذ مثل هذا الاثر الجسيم عنوان على امتياز مصر بالعلوم النافعة فى ذلك الزمن القدم

وأما امتيازها بعد زمن الفتوح وانفرادها بكمال المعارف فهو فى غاية الوضوح فكما كانت فى القديم محط رحال العلماء والحكماء فلا زالت فى الحديث عدد علمائها كعدد نجوم السماء يرحل اليها طلبة العلم من سائر الاقطار ويهرع اليها أولو الفضل من جميع الامصار لتلقى العلوم العقلية

والنقلية من جهابذة اليهم بالبنان يشار وأساتذة لهم اليد العليا والسندات العالية فى التفاسير والاحاديث والآثار ورثوا فى المنقول العلوم النبوية كما ورثوا فى المعقول العلوم الحكمية وتمسكوا منها بما سار عليه السادة السنية على طبق موافقة السنة السنية وطرحوا وراءهم ظهريا ما كان منها مشوبا بالضلال وتباعدوا عن شبه أهل الاعتزال وعضدوها بالحجج والبرهان وشيدوها بتمكين دعائم الاسلام والايمان محافظة على سلامة العاقبة وتمسكا بخوف الله والمراقبة فبهذا لم تخل مصر من آثار جديدة ومآثر عديدة وامتيازات فى ميزان الفضائل والدرجة العليا ولم تزل حائزة لتلقبها بأم النعمة وأم الدنيا وهل تجرد عما وصفها به المولى فى القرآن العظيم حكاية عن يوسف فى قوله اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم فنيلها نوال خير لكل حاضر وباد وبرها بر لسائر البلاد والعباد أهلها أهل الايمان وبها ترعى الذمة لاهل الذمة والاستئمان دار العمل للمعاش والمعاد ومدار الامل فى الاسعاف والاسعاد عود عود شبابها الرطيب مشهود ورجوع نضرة اهابها القشيب فى هذا العصر معهود بعناية الهمة المحمدية العلية الزكية ومن اقتفى أثرها من سلالتها الطيبة كالاسمعيلية الزاكية النماء التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء فقد انهمل الغيث فى عهدها بعد ان كان قطرا وتوالت عليها شمائل النعم تترى فلله الحمد على هذه المنة وهو ولى التوفيق والهادى الى أقوم طريق

(المقالة الاولى فى تخطيط ديار مصر)

وفيها عدة أبواب

(الباب الاول فى تحديد مصر وطبيعة ارضها)

ديار مصر واقعة فى الشمال الشرقى من قسم افريقية ومحدودة شمالا بالبحر الابيض المتوسط المسمى ببحر سفيد وببحر الروم وشرقا بالبحر الاحمر المسمى ببحر القلزم كما يسمى خليج العرب وجنوبا ببلاد النوبة وغربا بصحارى برقة وهى بين الدرجة الثالثة والعشرين والثلاث والعشرين دقيقة والدرجة الحادية

والثلاثين والسبع والثلاثين دقيقة من العرض الشمالى وبين الدرجة الثانية والعشرين والعشر دقائق والدرجة الثالثة والثلاثين ودقيقتين من الطول الشرقى من باريس فهى واد يكتنفه جبلان شرقى وغربى ويبدآن من اسوان ويتقاربان باسنا حتى يكادا يتماسان ثم يتفرجان قليلا قليلا حتى اذا وازيا الفسطاط وهى مصر القديمة كان بينهما مسافة يوم فما دونه ثم يتباعدان أكثر من ذلك والنيل ينساب بينهما ويتشعب بأسافل الارض يعنى الوجه البحرى وجميع شعبه تصب فى بحر سفيد وهناك شعبتان احداهما فرع رشيد والاخرى فرع دمياط يخرجان من النيل عند بطن البقرة فيتكون بينهما اقليما المنوفية والغربية على شكل جزيرة مثلثة فى صورة الدال اليونانية تسمى عند اليونان دلطة باسم حرف الدال المذكور عندهم

وامتداد مصر من الشمال الى الجنوب ثمانمائة وثمانون كيلومترا ومن الغرب الى الشرق خمسمائة كيلومتر والكيلومتر ألف متر ومع ان أرض مصر كثيرة الاتساع لاسيما من الشمال الى الجنوب فليست خصوبتها عمومية اذ كثير من أراضيها مستور بالرمال والجبال اليابسة القحلة وان كان فى صحاريها عدة واحات ولا تكاد أن تقع بها الامطار وانما خصوبتها مقصورة على الوادى المسقى بماء النيل المبارك نعند فيضان النيل فى ميعاده كل سنة ومكثه على المزارع عدة أشهر يكسبها الخصوبة بما يحمله معه من الطين ومع قطع الجسور ووجود الترع الموصلة مياه النيل الى السهول فالفضل لله تعالى على مصر حيث منّ عليها بهذا النيل المبارك الذى تستغنى به عن مراحم الارض وعواطف السماء لانه وحده هو السبب فى خصبها فلا تحتاج كغيرها من أراضى البلاد الاخرى الى مهيآت الانبات كالتسميد والتسمين والتسبيخ وغير ذلك كما لا تحتاج أيضا الى أمطار السماء بل فيضان نيلها بانضمامه الى هوائها العجيب التركيب كاف فى تحصيل الانبات الجيد واصلاح المزارع

(الباب الثانى فى بيان النيل المبارك)

هذا النيل السعيد هو أكبر أنهار الدنيا القديمة وقد ولع المتقدمون والمتأخرون من الدول والملل بكشف منابعه والوقوف على مخارجه فكانت

معرفته الآن كمعرفته للقدماء فى تلك الازمان ولم يتبين لارباب السياحة المتأخرين الا أن البحر الابيض الذى هو النيل الاصلى بمدمسيره من منبعه الصحيح يصب فيه من شطه الايمن نهران يعد انه بمائهما الاول البحر الازرق والثانى نهر اتبره الذى يلتقى معه بالتباعد جهة الشمال ومنابع البحر الازرق هى التى كان ظنها السياحون منابع النيل الحقيق وأصح الاقوال أنها تخرج من جبال القمر وأن مجراها نحو ثمانمائة فرسخ من الجنوب الى الشمال حتى تصب فى البحر المالح فعلى هذا هى البحر الابيض وهو النيل الحقيق ومخرجه بلاد فى جنوب دارفور تسمى دار الابيض والجبال الخارج منها هنالك تسمى جبال الدره وتغلى وهى متشعبة من جبال القمر فنيل مصر خارج من جبال القمر مستمد فى طريقه مياهه من عدة أنهر وذلك لانه يتولد فى جنوب دارفور من جبال القمر فى طول أربع وثلاثين درجة وثمان وثلاثين دقيقة من طول باريس شرقيا وفى عرض سبع درجات وسبع وأربعين دقيقة شماليا فيجرى فى مبادى مسيره الى مسافة يسمى فيها بالبحر الابيض متجها الى الشرق والى الشمال الشرقى ويصب فيه فى أثناء جريانه البحران السابقان وهما البحر الازرق وبحر اتبره المسمى تقازه فبعد اتحاده بهذه الانهر ومروره ببلاد الدونكا والشلك والدونكاويه ودخوله فى سنار وكردفان يسمى بالنيل ويشق الحبشة والنوبه فيسقى الخرطوم والحلفايه وشندى والضامر وبربر وبلاد الشاقية ودنقلة والمحس وسكوت ووادى حلفة ويدخل الى مصر متجها غالبا من الجنوب الى الشمال حتى ينتهى الى عرض ثلاثين درجة واثنتى عشرة دقيقة شماليا فيتفرع من بطن البقرة الى فرعين أصليين وهما فرع دمياط وفرع رشيد وهذه الفروع تقل مياهها عند تحاريق النيل فلا تجد من العمق لبوغاز دمياط الا نحو ثمانية أقدام ويكون عمق بوغاز رشيد نحو خمسة أقدام وأما فى ارتفاع الماء ووفاء النيل فينيف كل منهما عن أربعين قدما بحيث تسير فيه السفن الحربية التى لها أربعة وعشرون مدفعا من البوغاز الى القاهرة

وقد صح الآن عند أرباب المعارف الباحثين عن أحوال مصر أن سبب فيضان النيل الدورى كثرة الامطار السنويه بين المدارين دون سبب آخر

وأن هذه الامطار أيضا هي مصدر زيادة جميع الانهر الواقعة في المنطقة المحترقة التي بين مداري الجدي والسرطان وأن الارض متى كانت منخفضة كانت الزيادة الحادثة من الامطار تكسبها الفيضان في نهرها وري المزارع وسقيها بمائه الاحمر المشوب بالطين الابليز والممتزج به كمال الامتزاج بحيث يرسب هذا الطين على الاراضي الزراعية ويكسبها الطمي قليلا أو كثيرا وهذا الطين مشتمل على أجزاء دسمة ملائمة للنباتات مصلحة لها والا فأرض مصر سبخة في حد ذاتها لا تنبت شيأ ولا ينبت منها الا ما مر عليه ماء النيل وركد فيه هذا الطين

فقد جرت العادة أن قوة زيادة النيل لا تكون الا عن غزارة الامطار ببلاد الجنوب ولا تكون أمطار الجنوب الا في أيام الصيف ولم يعهد قط زيادة النيل في الشتاء وهذا محقق عند من عرف أخبار مصر وانما تكون الزيادة تدريجية على قدر ما يهبط في النيل من مياه الامطار وايضاح ذلك في الفروع الآتية

(الباب الثالث في منافع النيل في مزارع مصر)

من المعلوم أن مصر متوسطة بين براري اسيا المقفرة وصحاري افريقية العقيمة وعتاميرها المنفرة فلولا فضل الله عليها بالنيل الميمون الطلعة لكانت محلة كالاراضي المجاورة لهذه البقعة ولولا أنه سبحانه وتعالى سخر لها عادل سلطان النيل المبارك ونزول جيش مياهه بواديها واصلاحه بالاحسان والتدبير جميع اراضيها وامداده بالميرة حاضرها وباديها لافتقرت الى امدادها بغيث السماء العميم وفاتها كون الطين الابليز لها أعظم صديق وحميم فان الغيث ولو أنه قطب غوث يتكفل بالمزارع الا أن سقوطه على الرمال انما هو بدون شك ضائع فالنيل لمصر محب ودود وبه مصر منجبة ولود وهذا معنى قول أدبائهم في أزمانهم الاولية وصدر الفطرة المصرية ما مثل مصر الاعروس عانقت النيل وصارت بوصله مشتبكة فأولدها الخصب والغنى والبركة وعانقت الصحاري ريح الاعصار فعقمت على ممر الاعصار فلو اختلست الصحراء من مصر وصال النيل في بعض الاوقات لحظيت منه مثلها بانتاج

البركات

البركات والخيرات فنظمت هذا المعنى فى قولى

كلفت بوصل النيل مصر فأنجبت * من يانع الاثمار كل ربيع
لو واصل النيل الصحارى أنجبت * لكنها ألفت وصال الريح

والاشارة فى ذلك الى الصحارى التى تمتد على شواطئ مثلث الغربية والمنوفية الرملية الحصائية فان هذين الاقليمين حولهما شرقا وغربا سهول ومستويات رماليـة أوحصائية وهى براوى واسـعة خالية عن الانيس والجليس فاقدة للماء مجردة عن العشب والكلاء عرضـة لحرارة الشمس المحرقة ليس بها من الاشجار ما يستظل به كثيرة الرياح العواصف الجنوبية فليس فيها غذاء لانسان ولا حيوان فهى وحشـة المنظر والمخبر
لكن بتوفيق البارى سبحانه وتعالى وبعناية حضرة صاحب مصر رب المآثر والمكارم وبسيف عزمه الماضى الجازم وبذله فى الخير والمنافع جهـده المعلوم لابد أن يواصل النيل بالعمليات الهندسـية تلك الصحارى كما اتصل بصحارى الفيوم وغير الفيوم فتخلى هذه البرية عن الثياب الوحشية وتحلى بين البرية بالحلل السندسية وتصير كوادى النيل الاصلى يانعة الرياض مترعة الحياض تنيف فى مزية الخصوبة على المنوفية وتفضـل بغرابة مغاربها على الغربية وبالجملة فالنيل المبارك فى الحقيقة هو روح مصر وحياة جثمانها وهو الوصـلة العظمى فى التواصـل والتعامل بين أطراف بلدانها بل بينها وبين البلاد الاجنبية بواسطة البحرين المتصلين بها شمالا وشرقا اللذين جعلا لها سابقا ولاحقا فى ميزان الدول والحكومات امتيازا وحقا فمنفعة النيل ظاهرة حسا ومعنى ومنه جميع فوائد مصر تقتطف وتجنى حتى ان طينه الابليزى نافع فى الصنائع الضرورية فالنيل كله منافع فى المزارع والصنائع مزاياه لا تحصى ولا تحصر ونهاية القول أنه فى جنات مصر نهر الكوثر وقد مدح المتقدمون عذوبة ماء النيل وملاءمته لصحة الابدان ووافقهم المتأخرون لكن لا على الاطـلاق بل حققوا القول فى هذا الشأن حيث أفادوا أن ماء النيل خفيف بطبعه قليل المواد الاجنبية لذيذ الطعم سائغ للشاربين كما صح ذلك بالتجاريب المكررة من تحليل أجزائه حتى قيل ما معناه انه أعلى المشروبات الدوائية وانه يفرغ ما فى الجوف وينقى الباطن فهو فى هذه الحالة ممدوح جدا وهو فى بحر

السنة جيد الاوصاف وأما زمن الصيف حيث يكاد أن تكون مياهه راكدة فانه يكون مشحونا بالمواد الاجنبية فيستحب ترويقه ليسوغ شربه وكذلك عند زيادة النيل فان الماء يأخذ أولا فى التلون بلون الخضرة ويمكث على ذلك اللون نحو أربعين يوما فيخلفه لون الحمرة المائل للسمرة فعند ذلك يحسن الترويق أيضا والظاهر أن هذه التغيرات حاصلة له من تلقيه لمياه متتابعة متواردة عليه من بحيرات معتادة الزيادة السنوية المجتمعة فيها من سقوط الامطار على عدة محال مرتفعة من داخل افريقية بالبلاد السودانية فاذا صبت فيه مياهها المخضرة بما تحلل فيها من الحشائش والاعشاب اكسبته لون الخضرة وحين تكاثرها عليه وجلبها الطين الذى فى مجراها تكسبه لون الحمرة العقيقية التى بعد انحسار النيل يعقبها بالغرس الالوان الزمردية

(الباب الرابع فى شلال مدخل النيل الى مصر)

قبل أن يصل النيل الى حدود مصر يسقط من خمسة جنادل تسمى بالشلالات والشلال السادس هو شلال البربه وهو مدخل مصر من جهة القبلى فهو آخر الشلالات للمنحدر وأولها للمقلع وهذا الشلال عبارة عن صخور متفاصلة من الجبل تكون منها رؤس جبلية مضرسة وشعاب حادة مفترقة عن بعضها على صورة الجزائر الكبيرة سادة لمجرى النيل من جميع الجهات فاذا ورد الماء فى مجراه عندها صدته وأوقفته فيفور ويطفو عليها حتى يغلبها ويجاوزها فعند دخوله بها انحدارا ترتفع الامواج المتراكمة مزبدة نحو نصف قدم فاذا سقطت سمع لها صرير جسيم ودوى عظيم يحصل ذلك من تكسر الامواج ويمكث بعض لحظات ويمتلئ المنافذ المتخللة من الدوامات والملقات المائية المسماة بالشبه وهذا الشلال يجعل سير المراكب عنده صعبا بل ربما كان خطرا ولكن توجد بميسرة النيل قطعة أرض مستوية غير مضرسة ذات تيار عظيم يجذب المراكب اليها فهو المسهل للسير ولولا هذا الشط المستوى لكان العبور من الشلال خطرا جدا وأيضا فهذا الشط بتمامه يكون مغمورا فى زمن الفيضان بالماء كالخليج العظيم فتسير فيه السفن بالسهولة وفى زمن انخفاض النيل يسهل أيضا صعود المراكب الصغيرة فيه ومقاطعتها للتيار بجر الليان لكن

مع القرب الشديد من الشط وأما في الانحدار والسير الى البحرى فتنحدر المراكب بغاية السرعة لانجذابها بالتيار

فهذه حقيقة شلال اسوان وقد يظهر ببادئ الرأى ان ملوك مصر الذين اجتهدوا فى منفعة وطنهم بقدر الامكان قد أهملوا فى عدم ازالة هذا الشلال بالكلية مع أن هذا خلاف ما تقتضيه طباعهم فى حب ما يقتضى العمار ولكن من دقق النظر وجد أن تركهم ذلك على حاله انما كان لغرض سياسى وذلك أنهم أبقوه عمدا ليكون حصنا مانعا لاغارة أمم السودان على هذه الديار حيث لهم سوابق فى ذلك فلوانمحت هذه الحصون الطبيعية لدام طمع هؤلاء القبائل الخشنية فى التغلب على بلاد مصر فهذا الاحتراس أبعد أولئك القبائل عن التفكر فى الهجوم الذى يغلب عليه أنه لا ينجح وبه انقطعت أطماعهم وبعد شلال اسوان تصادف وأنت سائر الى الجنوب الشلالات الاخرى فى مجرى النيل ببلاد النوبة كشلال وادى حلفا وشلال الحنش وشلال جرف الجداب جهة قرية أبى حمد وشلال السليمانية وغيرها

الباب الخامس فى استكشافات منبع النيل لاسيما ارسالية عزيز مصر الجليل

فى الاعصر الخالية والقرون البالية تعلقت همة الفراعنة بكشف منبع النيل كالملك رمسيس ثم من بعدهم بحث قمبازيس من ملك العجم عن ذلك حين تغلب على مصر وكذلك اسكندر والبطالسة وقيصر الروم نيرون الطاغية ثم بحث أيضا عن ذلك خلفاء مصر وسلاطينها وملوكها ولم يتم لهم حل هذه المسئلة المعضلة وانما استنبط بطليموس الجغرافى ما وصل اليه علمه من استكشافات زمنه مما يقرب من الحقيقة الا أنه ذكره بوجه مبهم فسرته الاستكشافات الاخيرة الافرنجية وأوضحه أخيرا عزم عزيز مصر المرحوم محمد على باشا حيث تبين من ارساليته الاستكشافية نتائج توضح المبهم من كلام بطليموس وتفيد حقيقة النيل ومجراه وسمت منبعه بتطبيق ذلك على

(صورة ما قاله بطليموس مع بعض ملحوظات)

يستفاد من كلام هذا الفاضل ان النيل متكون من اختلاط نهرين عظيمين أصليين وأن مخرجه من جبال القمر من المياه الذائبة من الثلوج الدائمة بتلك الجبال وأن كل واحد من هذين النهرين يمر ببحيرة عظيمة فى طريقه وبعد خروجهما من ذلك يأخذ كل منهما مسيره فى فرش خاص به وواد يجرى فيه ثم يجتمعان بعد جريهما منفصلين ويتلاقيان ويمتزجان فيصنعان نهرا واحدا انتهى كلامه والواقع أن النيل الحقيق وهو الابيض عند سيره الى جهة مصر يختلط بالنيل الازرق عند الخرطوم فى محل يقال له الخرطوم ويصيران نهرا واحدا وهو نيل مصر ثم بعد السير الى الشمال يختلط به بحر اتبره فكل من البحر الازرق وبحر اتبره داخل فى البحر الابيض من شطه الايمن فليس استكشاف أصح من استكشاف عهد بطليموس الواقع قبل الهجرة بأزيد من تسعمائة سنة مع ما بينه وبين الاستكشافات الجديدة الافرنجية مما ينيف عن ألفى سنة ويفهم منه بالتطبيق على ما سيأتى لاسيما من الاستكشافات المصرية واستكشافات بعض الانجليز أن النيل الحقيق هو النيل الابيض وليس هو النيل الازرق المعلوم المنبع الخارج فى بلاد سفالة فى جبال بالحبشة تسمى جبال حبش أباوى يعنى جبال أبى المياه التى هى فى عرض الدرجة العاشرة والخمسين دقيقة ومنبعه فيها عبارة عن نقرة مستديرة قطرها أربعة أعشار متر منحوتة بيد الحكمة الالهية فى أرض مسبخة مغطاة بالبوص والخيزران والحشائش والنباتات خفية عن العيون فيجرى الماء النابع هناك جهة الغرب وينعطف الى الشمال فيمر فى بحيرة تزانه المسماة بحيرة دمبعة فيلاقيها فى الجهة الجنوبية منها وهى بحيرة عظيمة فيها من الجزائر اثنتا عشرة جزيرة ولسرعة جريان البحر الازرق يخرج منها بدون أن ينعدم ماؤه فيها بأيسر انعطاف وازورار ثم يتجه الى الجنوب الشرقى ويرسم عند اقليم قوجم قوسا عظيما يقابل الجنوب ثم يستقيم ويتجه جهة الشمال الغربى حتى يصب فى النيل الابيض عند الخرطوم ويختلط به كليا وهو فى تلك المجارى العالية جهة

الحبشة

الحبشة يسمى نهر أباوى كما تقدم وفى طريقه هناك يصب فيه أنهار كثيرة ميمنة وميسرة فلا يدخل سنار الا وهو نهر عظيم مهيب متلاطم الامواج فاذا دنا من الخرطوم كان عرضه مائتين وثمانين مترا فأكثر

فهذا النهر الازرق الحبشى انما هو فرع من فروع نيل مصر اشتبه على المتأخرين من أرباب السياحة الافرنجية فحكموا بأنه النيل الاصلى وتمدحوا بأنهم كشفوا منبع النيل لان جميع الناس سابقا كانوا يرون أن النيل هو النهر الازرق والآن قد بطل هذا الرأى وحكم علماء الجغرافيه بأن اعتقاده غلط

وبيان ذلك أن موضوع الاستكشاف المطلوب انما هو منابع النيل وهى مسئلة مشكلة والمقصود حلها بالوقوف على حقيقة منبع النيل فيسأل هنا ويقال اذا جرى عدة أنهر فى مجار مختلفة وامتزجت كلها وجرت فى واد واحد وكان قبل الاختلاط لكل منها منبع متميز فما منبع النهر الكبير المصنوع من اجتماعها

وجواب ذلك أن المستحق للمنبع المسؤل عنه هو أطولها مجرى وأبعدها أصلا فاذا نظرت الى خريطة اقليم فيها أنهر بهذه المثابة تجد المنبع المرسوم انما هو لاكبرها مجرى ومن المعلوم أن الانهار التى تشق بلاد السودان لم يكن منها مستوفيا للشرط المذكور الا النهر الابيض اذ هو أطولها امتدادا فهو المستحق لاسم النيل وهو المطلوب المنبع فمنبع هذا النهر المتسلطن محجوب عن عقول الجغرافيين وانما اقتبسوا بعض أنوار ومعارف من ارسالية عزيز مصر المرحوم محمد على باشا واهتدوا بها فى استكشافاتهم

نتيجة ارسالية سليم بك قبودان ودرنود بك لسفر البحر الابيض

قد أرسل عزيز مصر المشار اليه فى ظرف أربع سنوات ثلاث ارساليات متوالية لقصد كشف منبع النيل ولكن الارسالية الثانية التى كانت تحت رياسة سليم بك قبودان ودرنود بك هى أنفع الجميع وذلك فى سنة ١٢٥٧ فسارت هذه الارسالية الجغرافية فى النهر الابيض مسافة خمسمائة فرسخ من الارتحال من الخرطوم وفى طريقها لم تجد من الانهر المهمة التى تصب فى هذا

البحر الانهرين عظيمين يجتمعان به فى شماله ويختلطان به أحدهما نهر سوباط ويقال له نهر جوجب يخرج من شرق بلاد دساقاو يرسم حول بلاد كفا انعطافات شبيهة بانعطافات النهر الازرق وثانيهما بحر الغزال وهو يصب فى بحيرة نوا المسماة بحيرة كو يرو عرضها ثلاثة آلاف وسبعمائة متر ولا يجد النيل فى مجراه بالبعد عن هذه البحيرة شلالات ولا جبالا بل يجرى النيل فى سهول مستوية منفسحة وخمة لا يكاد يدرك بها انحدار المياه وانما فى عرض الدرجة الخامسة يلج بعض جبال فترتفع الارض تدريجا ويأخذ المجرى فى الضيق ومع ذلك فعند جزيرة جانكير لا ينقص عرضه عن مائتى متر وهذه الجزيرة واقعة فى عرض الدرجة الرابعة وخمس وعشرين دقيقة شماليا وهى فى الدرجة التاسعة والعشرين من الطول الشرقى من باريس وعلى القرب من هذه الجزيرة باجات كيمان من الرمال والصخور كشلالات تمنع سير السفن على النيل منعا كليا

فلما ارست سفن الارسالية المصرية على هذه الجهات ووجدت الموانع للسفر قوية اقتصرت على أخذ الاستعلامات اللازمة والاستفهامات النافعة فيما يخص منابع النيل مما يعلم من أهالى تلك الجهة

فكانت نتيجة ذلك أن النيل يأتى الى تلك الناحية من الجنوب الشرقى وأن منبعه يقرب من دائرة الاستواء على ثلاثين مرحلة فوق جزيرة جانكير ومن المعلوم أن مرحلة السودان يعنى ما يقطعه المسافرون هنالك فى يوم خمسة فراسخ أو ستة حسب المعتاد فتكون المسافة بين جزيرة جانكير ومنبع النيل نحو مائة وخمسين فرسخا تقريبا فاذا حسبنا مجرى النيل نقول ان من منبعه الى جزيرة جانكير مائة وخمسين فرسخا ومن هذه الجزيرة الى الخرطوم خمسمائة فرسخ ومن الخرطوم الى البحر المتوسط خمسمائة وخمسون فرسخا فجملة مجرى النيل ألف ومائتا فرسخ ونتيجة هذا القياس تدل على أمرين الاول على أن النيل هو أطول أنهار افريقية مجرى الثانى على أن ما ذكره الاقدمون مثل بطليموس فى حق النيل صحيح

وبيان ذلك ان النيل على كلام بطليموس مجمع نهرين عظيمين وأن مخرجه من جبال القمر وأن كل واحد من النهرين يشق بحيرة عظيمة وبعد خروجه منها

ينفرد بمجراه فى واديه وفرشه ثم يجتمعان و يصيران نهرا واحدا فلا أصح من هذا القول ولا أصدق منه حيث تقدم صدقه فى النيل الازرق الذى هو أحد فرعى النيل وأما ما يخص النهر الابيض فانه يظهر من استكشاف الارسالية المصرية بضميمة أخرى تضاف اليها كاستكشاف مسيو ربمان الانجليزى أحد أحبار الانجليز المبعوثين الى افريقية من طرف الدولة الانجليزية لتشرديانتهم بتلك الاقطار السودانية القاصية فان هذا الحبر استوطن بالقرب من بلاد تسمى ربايه على ساحل افريقية الشرقى فى الدرجة الرابعة من العرض الجنوبى فاجتهد فى أن يستكشف تلك البلاد المجهولة الاحوال ليبلغ مرامه مخاطر بنفسه وتوغل فى البر الى أن وصل بلدة دغاس فصادفه هناك جبل يسمى قيلى منجارو رأسه مغمور بالثلج الدائم فسأل أهل دغاس عن أحوال هذه الجهة فأفادوه بعض فوائد فكتب بها الى مجامع العلوم فى أوربا ومن مضمونها أنه موجود خلف دغاس اقليم واسع يسمى مونوموبزى فيه بحيرة عظيمة لم يطلع أحد من أهل السياحة عليها فالظاهر أن هذه البحيرة هى احدى البحيرتين اللتين يشقهما النيل بقرب منبعه على قول بطليموس ولا يسوغ لنا ان نجزم بذلك وانما المحقق عندنا ان هذا الرأى يوافق اتجاه النيل الاغلبى ويناسب طول مجراه

وقد نبهنا على أن النقطة التى وقفت عندها السفن المصرية هى جزيرة جانسكير وأنها على البعد من منبع النيل بمائة وخمسين فرسخا تقريبا فاذا فرضنا هذا الخط الذى طوله مائة وخمسون فرسخا ورسمناه على خريطة افريقية كما فعله مسيو بكه فى رسم خريطته وجدنا أن طرفه الجنوبى ينطبق على بلاد مونوموبزى الممتدة من الدرجة الاولى الى الرابعة فى العرض الشمالى ومن الدرجة التاسعة والعشرين الى الرابعة والثلاثين من الطول الشرقى من باريس

وقد لاحظ مسيو بكه أن لفظ مونوموبزى هو اسم مركب من كلمتين كل منهما له معنى ففى اللغة الصوهلية القريبة من اللغة المونوموزية معنى لفظ مونو ملك أو أمير أو حاكم وأما الثانية وهى موبزى فهى علم على البلد ولكن معناها فى الاصل قمر ومن هذا قال بطليموس ان مخرج النيل من جبل القمر فلعله قيل له فى ذلك الزمن ان النيل يخرج من جبال موبزى (يعنى جبال قيلو

منجار وبقرب مونوموبزى) فلما ألف بطليموس كتابه وذكر فيه ذلك ترجم لفظ مو يزى بالقمر باللغة اليونانية مع أن هذه الكلمة علم على البلد فاشتهر أن مخرج النيل انما هو من جبال القمر

فهذا كله يؤيد أن مخرج النيل من جبال مونوموبزى وفى الحقيقة هذه البلاد يصعب وصول أرباب السياحة اليها فان طرقها كثيرة الموانع عظيمة الاخطار لكن لا نخرأ عظم ممن يصل اليها من أرباب السياحات ويكشف منابع النيل المأخوذة الآن بالاجتهادات والتخمينات حتى تقوم اليقينيات مقام الظنيات

(الباب السادس فى زيادة النيل وذكر المقياس)

تبتدئ زيادة النيل من خامس بؤنه فاذا كانت ليلة ثانى عشر بؤنه يكون عيد ميكائيل عند القبط وتنزل فى تلك الليلة النقطة ويزيد النيل حينئذ ويؤخذ قاع النيل لاجل أخذ مقياس القاعة وينادى عليه بما زاد من الاصابع فى سابع عشر بؤنه ويقال أقل ما يبقى فى قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع ففى تلك السنة يكون الماء قليلا وأكثر ما وجد فى قاع المقياس من الماء اثناعشر ذراعا وفى تلك السنة يكون الماء عاليا جدا فابتداء الزيادة فى خامس بؤنه وظهورها فى ثانى عشره فأول دفعة يكون فى زيادة ثانى عشر أبيب ومنتهى الزيادة الى الثامن من بابه ومن هناك يأخذ النيل فى النقصان الى عشرين فى بابه فيكون من مبتدا الزيادة الى منتهاها ثلاثة أشهر وخمسة وعشرون يوما من بابه ومدة مكثه بعد انتهاء الزيادة اثنان وعشرون يوما ثم يأخذ فى النقصان ومن العادة القديمة أن ينادى عليه فى السابع والعشرين من بؤنه ويفتح الخليج الكبير اذا كمل الماء ستة عشر ذراعا وكانوا يقولون نعوذ بالله من اصبع من عشرين ذراعا ثم لما فسدت أحوال الجسور والقناطر كان اذا بلغ الماء أصبعا من عشرين ذراعا الايم الاراضى كلها ثم فى هذا العهد الاخير حيث أصلحت القناطر والجسور وتكاثرت الترع والخلجان كان يكفى فى الرى لاسيما فى البحيرة سبعة عشر ذراعا وربع حيث انها منخفضة لمزارع ويحتاج الصعيد فى أكثره أكثر والاقاليم الوسطى الى نحو ما فوق العشرين والزيادة تعلم بالمقياس الموجود فى جزيرة الروضة

وهـذا المقياس عمود من المرمر فى قاعة مربعة الشكل فيها فجوة يدخل ماء النيل من تلك الفجوة الى القاعة وفى دائرها منزل بدرجات ينزل منـه للقياس وذلك العمود محزوز غاية حزوز منفصلة ومنقسمة الى ستة عشر قسما كل قسم منها ذراع وكل ذراع منقسم الى ست قبضات كل قبضة أربعة أصابع وقد أفادت العادة ان النيل الذى لا ينزل عن الذراع الثالث من العمود لابد أن يصعد فوق الذراع السادس عشر أربعة وعشرين اصبعا الى ثلاثين يعنى يغطى رأس العمود حتى انه يحصل الرى الكافى وهذا يكون سبعة عشر ذراعا كاملة أو سبعة عشر وربعا من ذراع وكما ينادى عليه فى الشوارع بقدر الزيادة مدة زيادته يدعى له فى الخطب على المنابر بابلاغـه المزارع والمنافع وبناء المقياس كان فى قديم الزمان فى عدة محال من الاماكن المشهورة كمدينة منف وجزيرة اسوان وغيرها ثم بنى بعد الاسلام أيضا فى عدة أماكن ويقال ان أول من بنى مقياس الروضة هو سليمان بن عبد الملك الاموى سنة سبع وتسعين من الهجرة ثم تهدم وجدده الخليفة المأمون العباسى سنة مائة وتسع وتسعين كما يدل على ذلك التاريخ المرسوم فى العمود ثم أصلحه الخليفة المستنصر بالله وصنع فوقه قبوتين أقامهما على العمود مستندتين على جدران القاعة وأصلحه أيضا صاحب مصر محمد على باشا

(الباب السابع فى فضل النيل ومزاياه)

قال بعض العلماء لم يسم نهر من الانهار فى القرآن سوى النيـل فى قوله تعالى وأوحينا الى أم موسى ان أرضعيه فاذا خفت عليـه فألقيه فى اليم قال أجمع المفسرون على أن المراد باليم هنا نيـل مصر وقد اتفق العلماء على أنه أشرف الانهار فى الارض لاسباب منها عموم نفعه فانه لا يعلم نهر من الانهار فى جميع الارض المعمورة يسقى ما يسقيه النيل ومنها الاكتفاء بسقيه فانه يزرع عليه بعد نضوبه ثم لا يسقى الزرع حتى يبلغ منتهاه ولا يعـلم ذلك فى نهر سواه ومنها ان ماءه أصح المياه وأعدلها وأعذبها ومنها مخالفته لجميع أنهار الارض فى خصال هى منافع فيـه ومضار فى غيره ومنها أنه يزيد عند نقص سائر المياه وينقص عند زيادتها وذلك عند أوان الحاجة اليه ومنها أنه يأتى أرض مصر

فى أوان اشتداد القيظ والحر ويبس الهواء وجفاف الارض فيبل الارض ويرطب الهواء ويعدل التصل تعديلا زائدا ومنها ان كل نهر من الانهار العظام وان كان فيه منافع فلا بد أن يتبعها مضار فى أوان طغيانه بافساد ما يليه ونقص ما يجاوره والنيل موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير مرسوم لا يزيد عليه ولا يخرج عن حده ذلك تقدير العزيز العليم ومنها أن المعهود فى سائر الانهار أن تأتى من جهة المشرق الى المغرب وهو يأتى من جهة الجنوب الى الشمال فيكون فعل الشمس فيه دائما وأثرها فى اصلاحه متصلا ملازما ومنها أن كل الانهار يوقف على حقيقة منبعه وأصله والنيل لا يوقف له على أصل منبع مع عدم الابطاء فى ذلك وليس فى الدنيا نهر يزيد ثم يقف ثم ينقص ثم ينضب على الترتيب والتدريج غيره وليس فى الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ولا يجبى من خراج غلة زرعه ما يجبى من خراج غلة زرع النيل

وقد أعطى كثيرا من المحصول من أيام ميناوس أول ملوك مصر الى أيام أمراء العهد الجديد ثم كان قد تقهقر حال محصوله وسبب تقهقره قبل عهد المرحوم محمد على باشا ان عمال الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان ينفق على الرجال الموكلين بحفر خلجانه وترعه واصلاح جسوره ورم قناطره وسد ما يلزم سده من ترعه وقطع الشوك وازالة الحلفاء وما أشبه ذلك وكانوا فى الازمان السالفة مائة ألف رجل وعشرين ألف رجل مرتبين على اخطاط مصر سبعين ألفا للاقاليم القبلية وخمسين ألفا للاقاليم البحرية وكان اذا جبى الخراج من قرى مصر وجمع كان للملك من ذلك الربع خالصا يصنع فيه ما يريد والربع الثانى لجنده ومن يقوى به على حربه وجباية خراجه ودفع عدوه والربع الثالث لمصلحة الارض وما تحتاج اليه من جسورها وحفر خلجانها وترعها وبناء قناطرها والقوة للزارعين على زرعهم وعمارة أرضهم والربع الرابع يخرج منه ربع ما يصيب كل قرية من خراجها فيدفن ذلك لنائبة تنزل أو جائحة تحل بأهل القرية والذى يدفن فى كل قرية من خراجها هى كنوز فرعون التى يتحدث الناس بها والآن لم تزل عادة دفن الغلال فى الرمال جارية عند أغنياء الفلاحين فهى كنوز الاهالى وثمرات العدالة والكد ولما فتح عمرو

ابن العاص رضى الله عنه مصر قال المقوقس أنت وليت مصر فبم تكون عمارتها فقال بخصال أن تحفر خلجانها وتسد جسورها وترعها ولا تأخذ خراجها الا من غلتها ولا تقبل مطل الاهالى وتوفى لهم بالشروط وتدر الارزاق على العمال لئلا يرتشوا وترفع عن أهل الخراج المعاون والهدايا ليكون قوة لهم فبذلك تعمر مصر ويرجى خراجها والظاهر أن ملوك مصر قديما كانوا يقسمون الخراج أربعة أقسام قسم لخاصة الملك وقسم لارزاق الجند والعسكر وقسم لمصالح الارض وقسم يدخر لحادثة تحدث فينفق فيها فهو الذى يكنز لحاجة اليه وهذا كله يقتضى أن اجتناء ثمراتها واحياء مواتها انما هو بالنيل المبارك فان الله سبحانه وتعالى أرسله اليها وبارك به فيها وقدر فيها أقواتها

(الباب الثامن فى بحيرات مصر)

كان فى مصر فى قديم الزمان سبع فروع للنيل ينصب ماؤها فى بحيرات وهى فرع تنه وفرع تنيس وفرع ديه وفرع دمياط وفرع البرلس وفرع رشيد وفرع أبو قير فأما فرع تنيس فهو متحد الآن مع فرع المنزلة وكذلك فرع ديه فلنذكر الآن بحيرات مصر التى كانت تصب تلك الفروع فى البعض منها فنقول

بحيرات مصر عشرة الاولى بحيرة مريوط الثانية بحيرة المهدية وتسمى بحيرة أبو قير الثالثة بحيرة ادكو الرابعة بحيرة البرلس الخامسة بحيرة المنزلة السادسة بحيرة أبو بلح السابعة سبخة بردويل الثامنة بركة التمساح التاسعة بركة النطرون العاشرة قارون

(بحيرة مريوط)

أول ما يقابل الانسان عند قاعدة مثلث الوجه البحرى المسمى الدلطه وهو قادم من الغرب هو المسمى بحيرة مريوط فهى بين المحل الذى يقال له ترعة العرب والاسكندرية وكانت هذه البحيرة فى سالف الاعصر تخصب ما حولها من الاراضى وكانت بعد فتوح مصر بالاسلام عذبة الماء لما يصل اليها من

خلجان النيل ولكن في حدود القرن العاشر من الهجرة أهملها دولة المماليك وتركوها بالكلية فيبست وانما يتجدد فيها الماء من الامطار ويمكث فيها مدة الشتاء وفي سنة ١٢١٦ من الهجرة قطع سفن العثمانية والانجليز جسر ترعة الاسكندرية من الطرف الغربي من بحيرة المهدية فانتشرت مياه الترعة المالحة التي هي مثل ماء البحر في الملوحة وأخذت في الاتساع تدريجا ودخلت في بحيرة مريوط من عدة مصاب وفوجات فلأتها في نحو شهرين وستة أيام من الجري وكان كسر الجسر من مشورة الانجليز على العثمانية لقطع الامداد عن الفرنساوية فترتب على تلك الاستشارة حدوث نوع من الطوفان أغرق في طريقه أربعين قرية مع ماحولها من الاراضي والمزارع فلما جاءت نوبة الحكومة لخديو مصر محمد علي سد جميع الطرق والمنافذ بين مريوط والبحر فمن هذا الوقت صار لا ينزل في هذه البحيرة غير مياه الامطار فاذا غصت بالماء عند الامتلاء ألقته في ترعة المحمودية فهي تمتلئ في فصل الشتاء ويتصاعد ماؤها أبخرة ولما كان قاع هذه البحيرة قد مكث زمنا طويلا مشوبا بالمياه المالحة ومخالطا لها كان عند وجود المياه فيه يحدث على وجهه طبقة كثيفة ملحية فيجعل منظره كمنظر الثلج فاذا تبلور الملح في هذه البحيرة بهذه المثابة صار استخراجه من هذه الملاحة

وقد كان صمم المرحوم محمد علي باشا على أن يصلح أرض مريوط ويجعلها زراعية فانتقل الى دار البقاء والدوام قبل تنجيز هذا العزم وبلوغ هذا المرام ثم لما جاءت نوبة ولده المرحوم محمد سعيد باشا اتخذها نزلا في بعض الاحيان ولعله كان قصده أن يجدد بها العمران الا أنه لم يعمل من ذلك ما يستدل به على حقيقة القصد

(بحيرة المهدية)

هذه البحيرة تسمى بحيرة أبوقير وهي بركة ماء على طريق الاسكندرية الموصلة لرشيد تنصب في البحر المالح بين أبوقير وبحيرة ادكو وماؤها مالح كانت حفرت جديدا والبوغاز التي تتصل به الى البحر هو تقريبا محل الفرع القديم الابوقيري وعلى طول الارض الرملية الفاصلة لها من البحر آثار الجسر المستطيل

الذى يبلغ طوله ثلاثة آلاف متر وقد كان هذا الجسر انقطع بشدة مياه البحر المالح سنة ١١٢٨ من الهجرة حيث كان البحر ابتدأ فى اغراق المهدية ومسطح هذه البحيرة نحو ثلاثين ألف فدان تقريبا

(بحيرة ادكو)

هذه البحيرة بين المهدية و بحر رشيد تستمد ماءها من النيل وقد كانت يبست بالكلية حيث ان جسور الترع التى كانت تمدها لم يخرج منها مصرف اليها من مدة طويلة فلما انقطع الجسر سنة ١٢١٦ وكان فيضان النيل عاليا جدا حتى ارتفع الماء زيادة عن نصف متر على مساواة البحر ففتح فجوة واسعة بوغازا عرضه نحو مائة وخمسين مترا يصب منها فى البحر وحيث ان مياه هذه البحيرة تولدت من فيضان النيل فى أول الامر فقد نضب ماؤها فيما بعد لدخوله فى تخوم الرمال فخلفتها مياه البحر المالح التى وصلت اليها من ترعة ديروط وصيرتها بحيرة وترعة ديروط ترعة اتصلت بالبحر فى الجنوب الشرقى من أبوقير وكانت حدثت أيضا سنة ١٢١٦ فى زمن فيضان النيل لتصريف مياهه التى أغرقت قرى كثيرة ولكن لم يحصل منها كبير ثمرة فى تصريف المياه المالحة التى بقرب البحر فهذه المياه الخسيسة بهذه الجهة بقيت على ماهى عليه وتكون منها بحيرة ادكو التى سميت باسم بندر ادكو الواقع على شاطئها الغربى ومسطح هذه البحيرة نحو ستين ألف فدان تقريبا

(بحيرة البرلس)

هذه البحيرة واقعة فى أرض قاعدة مثلث الدلطه وتمتد من أحد فرعى النيل الى الآخر وهى قليلة العمق يصب فيها عدة ترع وهى توصل هذه المياه الى البحر المالح ببوغازها وطولها نحو خمسة وعشرين فرسخا ومسطحها نحو مائتى ألف وعشرين ألف فدان

(بحيرة المنزلة)

تمتد هذه البحيرة من دمياط الى تينة وطولها نحو ٨٤٠٠٠ متر وعرضها

نحو ٢٢٠٠٠ متر ومسطحها ٣٦٨٠٠٠ فدان وهى متصلة بالبحر بواسطة بوغازين لم يزالا مصرفين للمياه وهما بوغاز ديبه وبوغاز أم فراج وهذا الفرع من الفروع القديمة

وليست مياه بحيرة المنزلة كريهة الطعم ولا مالحة كمياه البحر بل قد يسوغ شربها مدة فيضان النيل فان مياهه تنبعث فيها من ترعة مويس ومن البحر الصغير فتعذب وتحلو

(بحيرة البلاح)

هذه البحيرة عبارة عن عدة ألسنة ورؤس مستنقعة وأجزاؤها الجنوبية متكونة من بحيرة المنزلة ومسطحها نحو ١٢٠٠٠ فدان

(البحيرة المسماة سبخة بردويل)

هذه البركة لسان قريب من البحر على الشرق من رسوم مدينة تينه القديمة وعلى الغرب من رأس قرزروم وبالقرب من جهة العريش توازى امتداد ساحل البحر ومنها جزء يابس وما حكاه القدماء فيما يتعلق بها فى قديم الزمان لم يزل الى الآن باقى الآثار فقد حدثوا بأنها رمال غزيرة ومفازة رديئة وأنه قد اتفق ان شرذمة من العساكر هلكت فيها حيث اغترت بها وذلك أنها جهلت عمق هذه السبخة التى هى عدة بحيرات تملؤها العواصف بالرمال فتغمر أعماقها فلما سلكوها مشوا على الرمل فوجدوا الرمل يثبت عليه القدم فى مداخلها وانما يأخذ فى التخلخل تدريجا حتى بطول السير تنغمس فيه الاقدام وتزل فيه الارجل كالاوحال العميقة فبهذا انغمست أقدام من سبق فى السير من هؤلاء العساكر فاستنجد بأصحابه ليغيثوه من الغرق فحصل لهم ما حصل له من ورطة الرمال وصارت تنهال عليهم حتى أغرقتهم عن آخرهم فلاشك أنها جباب ومهاو ومهالك فهى محل تسلطن الرياح العاصفة وكأنما هى بحر رمل

(بركة التمساح)

هذه البركة تسمى البحيرة المرة وهى واقعة فى أرض برزخ السويس ويغلب على الظن ان ماء البحر الاحمر كان جاريا فى محلها فى الازمان السالفة لوجود الامارات الدالة على ذلك

(بحيرات النطرون)

تسمى هذه البرك أيضا وادى النطرون وهى على غربى قرية الطرانة بسير ساعتين فهى واد جزء منه منخفض مشتمل على ست برك تسمى برك النطرون لوجود الاملاح النطرونية بها وشطوطها مقطوعة بخلجان صغيرة ترشح فيها المياه فتصنع عيونا فاذا امتلأت هذه العيون وانسابت ماؤها صب فى حيضان تلك البرك وعلى شطوط هذه البرك تتربى أملاح النطرون

والغالب على الظن ان فرش هذه البرك أخفض من سطح النيل بل ومن سطح البحر المالح فلذلك ذهب أرباب البحث الى أن هذه البرك تستمد ماءها من رشح النيل الكامن فى خلال الاراضى وسريانه اليها من التخوم فى مسافة عشرة فراسخ من محل انفصال مياه النيل عن واديها ومن المحقق أن زيادة ماء هذه البرك ونقصه دائما على عكس زيادة النيل ونقصه وذلك لان الرشح انما يحصل فى ثلاثة أشهر الشتاء فتزيد فيها مياه البركة شيأ فشيأ الى منتهى زيادتها

و بقرب هذه البرك عدة ديور للقبط ومن جملة بركها بركتان لون مائهما محمر بأجزاء نباتية حيوانية فحين تصعد المياه منهما فأول ملح يتبلور يكون أحمر اللون وله رائحة ذكية كرائحة الورد

(بحيرة القارون)

هذه البركة تسمى أيضا بركة مريس باسم ملك يقال انه احتفرها وهى أهم جميع البرك لشهرتها فى الازمان الخالية بعموم نفعها لبلاد الفيوم خاصة ولعموم الديار المصرية بأسرها والفيوم واد منخفض مستدير مصنوع من جبل لوبية على مسامتة أراضى الاقاليم الوسطى ومعنى لفظ فيوم فى اللغة المصرية القديمة أرض بركية مستبحرة ولم يبق من تلك البركة الا مخاضاتها الخسيسة الماء لانها كانت سابقا نحو ستين فرسخا فى مثلها وكان يصب فيها ماء النيل من

خليج الفيوم المسمى بحر يوسف الذى تكون على شكل بوغاز بعنفوان الماء وقوته وهجومه على سلسلة جبال لوبية حتى فتحها ودخلها وكان بحر يوسف الموجود الآن يتشعب منه عدة فروع تسقى أرض الفيوم ومزارعها فاذا تم الرى صب ما زاد من مائه فى بركة قارون

وكان تصريف هذه المياه فى البركة المذكورة بقصد خزن مياه النيل فيها لينصرف منها عند الاقتضاء بقدر الحاجة

واختلف فى محل المصرف من هذه البركة الى وادى مصر فقال بعضهم ان موردا لمخزن الذى كان يتلقى المياه مدة ستة أشهر من السنة هو المصدر لما يحتاج اليه من الستة أشهر الباقية من السنة فمحل المصدر والمورد واحد بترتيب وتقدير مختلف واستظهر بعضهم بما هو الاقرب للاحتمال أن المصرف كان من المحل المسمى الآن بحرا بلا ماء فان واديه متصل بطرف بركة القارون الغربى ومتجه جهة الشمال فى داخل البرية بمسامتة النيل وكان سابقا يجرى صوب بركة النطرون بنحو ساعة ونصف وينتهى الى بحيرة مريوط وحيث كان قراره محفورا الى الآن فهذا دليل على انه كان ذيلا لبركة القارون كله أو بعضه يعنى أنه كان بركة ثانية تالية للاولى فهو بركة طبيعية فى الاصل وانما دخلها التدبير البشرى والعمل الانسانى واتساع هذه البركة من شط الى آخر ثلاثة فراسخ وهى الآن عقيمة لا ماء فيها ولا عشب وانما بها أشجار متحجرة وحيوانات كذلك

(الباب التاسع فى ترع مصر وخلجانها)

قال العلماء ان نيل مصر كنز نفيس بين يدى رشيد فاضل أو سفيه جاهل فالاول يعز قيمته ويعرف قدره ويحسن التصرف فيه من مصلحة ويدبر أمره لينمو المحصول حسب المرغوب والمأمول والثانى يفوته الحزم والتدبير ويقنع من الثمرة بالقليل ويضيع ماء النيل هباء منثورا بترك الواجب كسلا وتقصيرا وهل بركة مصر ويمنها الا من نيلها المبارك الميمون والا كانت بدونه برية خالية لا تسكن لاحد ولا تقوم بالشؤن نخصبها انما هو بقدر ما يجرى بأراضيها من ماء النيل وتدبير مياهه الرواتب بذلك كفيل ومعلوم ان النيل لو ترك ونفسه يقذف فى

البحر المالح مقدارا معلوما من مائة وكبة مقدرة عند وفائه فما أمكن أن تحجزه أراضى مصر بالتدبير من المياه المارة عليها فانها تفوز به للاصلاح وخصبها بقدره قلة أو كثرة وبهذا انجاح الفلاحة ورباح الفلاح فالخصب والثروة والفائدة انماهى على قدر ما يمكن بحجزه من المياه التى تضيع فى البحر المالح فحفظها للحاجة اليها من أبرك المصالح

فبهذا كانت غبطة مصر انماهى فى حفر الترع والخلجان وعمل القناطر والجسور بالاحكام والاتقان وتدبير مياه النيل مع كمال الاقتصاد وتوسيع دائرة عمليات الرى والسقى لبلوغ المرام والحصول على المراد وهذا طريق لتكثير المحصولات وتوسيع الاراضى الصالحة للزراعات ومن هنا يعظم الغنى واليسار وتتقدم التمدن وقوة الحكومة واكتساب الفخر والاعتبار وقد فهم هذا المعنى أكثر عقلاء ملوك مصر وحكامها وأجروه قديما وحديثا كل على قدر همته فى حسن ترتيب العمليات ونظامها وكان أعظم الجميع غيرة وهمة وتأدية لمفروض المنصب وواجب الذمة المرحوم محمد على باشا حيث تأسى بمن سلف وورث حسن صنيعه للخلف وجدد العمليات الجمة التى أثمرت بعده لسائر الاهالى سعة العيش ووفور النعمة

ولنذكر الآن الترع والخلجان الاصلية التى لعمقها واتساعها فى الغالب تسمى بحارا فى الديار المصرية وهى عشرة

(بحر مويس)

هذا الفرع العظيم يخرج من فرع دمياط بجوار اتريب وبنها على البعد من المحروسة بفرسخ ويجرى الى الشمال الشرقى من اقليم الشرقية فى سمت الزقازيق وتل بسطا ويتشعب الى شعبتين تصبان فى بركة المنزلة وتسير فيه السفن كالنيل وطوله أربعون فرسخا فى عرض مائة وخمسين مترا وفيه انعطافات كثيرة وشطوطه مسطوحة بمساواة مستوى الاراضى وقد استظهر بعضهم أن مجرى بحر مويس بفرعيه هو ما كان قديما مجرى فرعى تدنه وتنيس

(البحر الصغير اى بحر المنزلة)

يخرج من فرع دمياط بجوار المنصورة ثم يمر على مدينة المنزلة ويصب فى بركة المنزلة كبحر مويس

(بحر شبين الكوم ويسمى بحر القرينين)

هذا البحر يمر بالمنوفية والغربية يستمد ماءه من فرع دمياط عند قرية القرينين ثم عند شبين الكوم يتكون منه فرع آخر يسمى فرع المليح ويتصل بترعة التبانية ويصب مثلها فى بحيرة البرلس واستظهر بعضهم أن هذا البحر من أول خروجه من فرع دمياط الى مصبه فى بحيرة البرلس انما هو مجرى فرع البرلس القديم ثم ان بحر القرينين المذكور تسير فيه المراكب وعرضه فى بعض المواضع مائة وخمسون مترا الى مائتين وهو يمد بمياهه عدة ترع من ترع القرى والمدن بالمنوفية والغربية

(البحر الصعيدى)

قد سميت بهذا الاسم الترعة الخارجة من فرع رشيد بجوار دسوق وتمر بالمندورة وتصب فى بحيرة البرلس

(المحمودية)

كانت هذه الترعة سابقا خليجا صغيرا قليل النفع من صنيع من حكم مصر بعد الفتوح واشتهرت فى الازمان الاخيرة بالاشرفية وفى مدة حكم المماليك تعطلت بالردم فحفرها المرحوم خديو مصر محمد على باشا بترتيب آخر على أحسن أسلوب وجعلها عميقة فكان امتدادها نحو خمسة وعشرين فرسخا وفيها بالعطف على القرب من فوه وتسير فيها السفن العظيمة وكان مدة حفرها سنة وشهرا فقد اجتمع عليها من العملة أكثر من ثلثمائة ألف نفس وهذه العملية جديرة بأن تنافس عمليات ملوك مصر الاقدمين أرباب الفخار

وبواسطة هذه الترعة اتصلت المحروسة بالاسكندرية بغاية من السهولة وتواترت الاسفار بين المدينتين لما كان فى السابق من الصعوبة فى الوصول الى الاسكندرية من فرعى رشيد ودمياط فهى من الهمم الملوكية كسد ابوقير

وسد

وسد الفرعونية التى سدها المرحوم محمد على لتعطى المياه الكثيرة لفرع رشيد من فرع دمياط وكانت مشاق سدها عظيمة وذلك لان سدها لم يتم الا بتغيير جزء من مجرى النيل عن أصله وتحويله عن موضعه فلزم كثرة الاشغال التى لامزيد عليها ونتج عنها نتائج جزيلة تكافئ المتاعب والمصاريف كما سيأتى

(ترعة الجعفرية)

هذه الترعة هى ترعة طنطا ومبدؤها من طنطا وفمها من فم ترعة شبين الكوم وتمر فى جنوب بندر الجعفرية وبالقرب منها تتصل بترعة كفر الشيخ على الغرب من دفرية طولها خمسون كيلومتر وعرضها نحو ستة عشر مترا وعليها أربع قناطر رياحات ذات أبواب لمصارف المياه

(ترعة البوهية)

تخرج من فرع دمياط على شمال دقدوس وتتجه من جهة الشمال الغربى الى السنبلاوين ومنه تجرى شرقا الى ان تلتقى ببحر مويس وتجتمع به فى جنوب كفر داود وطولها أكثر من خمسين كيلومترو عرضها نحو ستة عشر مترا وعليها أربع قناطر رياحات بأبواب للتصريف

(ترعة البحيرة)

هذه الترعة تسمى الخطاطبة وفمها فى شمال بنى سلامة على فرع رشيد تمتد بالاستقامة على شطوط النيل متجهة صوب الرحمانية وطولها مائة كيلومتر فى تسعة عشر مترا من العرض وعليها قناطر وأبواب للتصريف

(بحر يوسف)

يطلق هذا الاسم على الخليج العظيم الخارج من منفلوط على سمت النيل ومحاذاته الى دخوله فى الفيوم ويتشعب منه شعب كثيرة وقد زعم بعض أرباب الجغرافيا أن هذا البحر انما هو فرع قديم من فروع النيل كان سابقا يتجه غربا بعد خروجه من الفيوم ويصب فى البحر المالح بواسطة وادى بحر بلا

ماء وعرض بحر يوسف مائة متر وفرشه أوطى من الارض التى يمر بها فى طريقه وقد تقدم بعض شئ يتعلق به فى الكلام على بركة قارون

(ترعة السهباجية)

تخرج من النيل بجوار سهباج من الغرب تتجه منها حتى تصب فى بحر يوسف وماؤها يكثر عقب فيضان النيل ولها جسر عظيم يقطع بجبر الخليج عمداً وانه باحتفال كاحتفال جبر الخليج نوعا ومنه يروى اراض كثيرة تستمد منه السقى بالراحة أو بعمليات هندسية بقطع أو بسد جسور فرعية وفتح بعض قناطر وسد بعض آخر بتقدير وتدبير معلوم فى أوقاته وعند انحسار النيل ينضب ماؤه فى أغلب المحال وتبقى منه أماكن مستبحرة متفاصلة فى بعض القرى يسقى منها المزارع الصيفية بآلات كالسواقى والشواديف وتسير فيها القوارب

ومن ترع مصر المشهورة ترعة الفرعونية التى تعطلت فى الازمان الاخيرة وذلك لانها كانت تسقط المياه بكثرة فى بحر رشيد وتنزح بحر دمياط وتضر بالجهات الزراعية الواقعة عليها فصدرت أوامر سنية خديوية من المرحوم محمد على باشا بسد هذه الترعة بالكلية وكان هذا بعيدا عن تصديق العقل بتجويزه لاستلزامه تحويل جزء عظيم من النيل عن مجراه فحصل الاجتهاد العظيم فى تلك العملية فانسدت الترعة المذكورة على أتم حال وأحسن منوال وحصل المطلوب من الثمرات والفوائد المرتبة على ذلك وسيأتى فى ذكر تاريخ مصر الجديد بسط الكلام على تجديدات محمد على وحفيده الخديو الفريد

(الباب العاشر فى نباتات مصر وحيواناتها ومعادنها)

من المعلوم ان مصر من جنات الارض ومنتزهاتها كما قال تعالى حكاية عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى وقال تعالى فاخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم فكانت الجنات بحافتى النيل من أوله الى آخره من الجانبين جميعا من اسوان الى رشيد متصلة لا ينقطع منها شئ عن شئ وكان الزرع ما بين الجبلين معا من أول مصر الى آخرها فيما يبلغها الماء الجارى من النيل بنفسه أو بالتدبير والتقدير وقال بعضهم فى

قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين أن الربوة أرض مصر والماء المعين نيلها فلا مبالغة فى كون مصر من جنات الارض ولا فى القول فى أنها أخصب البلاد انباتا فانها فى الحقيقة تنبت فى كل شهر من أشهر السنة نباتات جديدة وتثمر أثمارا حديثة وتزهر أزهارا يانعة كما يعلم ذلك من تنوع قانون زراعاتها الراتبة وبقولها وخضراواتها وفواكهها وأثمارها وحبوبها المختلف ذلك كله باختلاف الفصول ففى الفصول الباردة حيث تموت النباتات والخضراوات تجد بمصر كأن أرواح هذه النباتات التى تجردت عن أشباحها قد حلت فى أبدان نباتات مصر حيث خضرة رياضها وبساتينها ومروجها ومزارعها تروق الناظر وتسر الخاطر فتجد أزهار النارنج والليمون ونحوه تذكى رائحة الهواء وتعطرها وتجد الحيوانات فى المراعى تزيدها حسنا على حسنها فلا تكون بلاد مصر حينئذ الا بستانا مستطرفا منثورا فيه النخيل من جميع جهاته وأما فى الفصول الحارة فتجد أيضا الزروع الصيفية فى أكثر الاماكن مخضرة والمحصولات على عيدانها محمرة أو فى بيادرها وأجرانها مختلفة الالوان والمواشى سارحة فى سائر البقاع مملوأة بها المزارع لاسيما المواشى ذات الالبان وتجد السماء مصحية من غير غيوم ولا سحائب وفى الغالب يكون اعتدال الاهوية وهبوب النسائم الطيبة فى أغلب الاوقات وبالجملة فقطرها صالح لتطبيع النباتات الاجنبية واضافتها للنباتات الاهلية ويمكن قسمة زراعتها الى رتبتين أصليتين الاولى زراعة الاراضى المروية بفيضان النيل فيضانا طبيعيا والثانية زراعة الارض بتدبير المياه تدبيرا صناعيا وعلى كلتا الحالتين تزرع الحنطة والشعير والفول والعدس والسلجم والخردل والكتان والانيسون والقرطم والترمس والبرسيم والحلبة والخس والبطيخ والقاون والشمام والخيار والفقوس والقرع والذرة وقصب السكر والنيلة والقطن والارز وجميع الفواكه بأنواعها المختلفة الا أن أغلبها جيد جدا وبعضها متوسط الحال وانما فى زراعة الارض بالتدبير الصناعى بالخدمة والسقى فانه اذا كان بأرض لا يعلوها ماء النيل عند فيضانه لارتفاعها أو لحجزها عنه بسبب من الاسباب التى تقتضيها فهى تحتاج لان تبذر فيها النباتات التى تستدعى تجديد السقى مدة مكثها فى الارض وتحتاج الى تعب كثير وخدمة

دائمة وتكون اصالة فى الاراضى التى على شطوط النيل فى الصعيد والفيوم والاقاليم الوسطى والوجه البحرى فى بعض جهات منه وفى الغالب أنه يزرع فى الصعيد والاقاليم الوسطى على هذه الارض الذرة وقصب السكر والنيلة والقطن والبقول والخضراوات ثم ان أغلب الجهات المصرية لها اختصاص بزراعة ما يوافقها من الاصناف كالفيوم مثلا فانها تميز بزراعة الورد لاستخراج ماء الورد الجيد منه وبزراعة الكرم بكثرة لجودته فيها وفى البحيرة فى المحال المنخفضة لجهة دمياط تميز بالارز الجيد الذى لامثيل له وزراعة الارز بمصر من مستحدثات الخلف تقليدا لاهل الهند وقد فاق هذا الصنف بجودته ولذة طعمه عن أرز بلاد الدنيا وان تميز عليه أرز ايطاليا فانما ذلك فى اللون فقط لبياضه ولمعته والا فالارز المصرى الآن أعلى الجميع وتزرع الذرة الشامى والبلدى بكثرة فى الشرقية كما يزرع فيها أيضا قصب السكر والنيلة والقطن وقد كثر زرع هذا الصنف أيضا فى جميع جهات مصر الصالحة له وهو دائما لايزال يزيد زرعه باجتماع الرغبات عليه الآن من كافة أهل الزراعة ولكن دونه فى ذلك استخراج الحرير بتكثير غرس التوت ويؤمل بهمة الخديو نموه على تداول الايام

وقد تطبع الآن بمصر نباتات أجنبية كانت سابقا متأصلة كاللوز والبندق والكريز ولكنها زرعت فى بساتين مخصوصة ومع أن فيها الاشجار العظيمة الكثيرة الفروع الواسعة الظل الضخمة الجذوع الا أن أعظم جميع أشجارها نفعا هو شجر النخل الذى ليس غرسه مختصا بالاراضى التى يسقيها النيل فترى البستان الواحد قد يكون مشتملا على الالوف من النخيل ووسق النخلة الواحدة من التمر أقل ما يساوى من الثمن ريالا كل سنة وفى الفيوم يزرع شجر الزيتون ويكون جيدا ويخللون أثماره وكذلك يزرع فى غير الفيوم وقد ذكر المؤرخون ان الزيتون انتقل الى بلاد اليونان من مهاجرى مصر وهذا أصل تولده بها وقد كان فى سالف الازمان لمصر شهرة بزرع الكرم وكان فرعاهما بها وكانت تستخرج منه الانبذة وتباع فى بلاد الروم والآن ما يزرع منه لاسيما بقوة والفيوم انما هو لمجرد الاكل وان كان ينتبذ بعض أهل الفيوم الآن نبيذه غير جيد مع أن التواريخ القديمة تفيد أن فى سالف

الاعصار أجود أنبذة الدنيا نبيذ مصر فهذا يدل على كثرته والرغبة فيه ولعل الرغبة انقطعت بتحريمه عند ظهور الاسلام ومع ما في مصر من الاشجار العظيمة الضخمة فهي قليلة الآجام والغابات ومحتاجة الى ذلك فليس بها الا بعض أورمانات من أشجار السنط لا تكفي لحاجاتها وانما شجر النخل لكثرته ينتفعون بجذوعه وجريده للسقوف في الارياف وكذلك شجر الجميز فانه يتخذ منه القوارب الصغيرة وآلات السواقي ونحو ذلك فبلاد مصر محتاجة الى البحث عن حطب الوقود وخشب العمارات من البلاد الاجنبية ولو اهتمت بغرس ما يلزم لنجحت واستغنت عن غيرها

ومع أن أرض مصر عظيمة المرعى كثيرة ما يتربى به المواشي الا أنها ليست كالبلاد الاخرى ذات مروج صناعية أو طبيعية ورياض مخضرة ركلا واسع مباح فبهذا لم تبلغ فيها تربية الماشية حد الكثرة وذلك لان المواشي مدة فيضان النيل على الاراضي لا ترعى في الخلا بل تعلف في المزاود والاصطبلات ثم ان من مواشي مصر الخيل وهي جيدة لان المماليك كانوا يعتنون باقتناء الخيل الجيدة الاصائل ويربونها للركوب فكثرت وعظمت ثم في مدة المرحوم محمد علي باشا اعتنى كثيرا بتربيتها واقتدى به أعيان حكومته فزادت تحسينا ولا زالت آخذة في النمو والكثرة في حكومة ورثته وكذلك البقر والجاموس في جميع بلاد الريف وتختص البحيرة بصنف الاغنام المغربية ومن أصول ثروة مصر أيضا الابل ومعز الصعيد وأغنامه والحمام والدجاج وجميع الحيوانات الاهلية ويقل بهذه البلاد الوحوش بسبب عدم وجود غاباتها وغاباتها فليس بها الا الضباع والذئاب والثعالب وهي أيضا لا تبلغ حد الكثرة وبها الغزلان لاسيما في صحارى الصعيد ومن حيواناتها الحمر الجيدة وفي مصر يحسن تربية النحل فيطلقونه في النهار ثم يدخل في الليل الى خليته من غير أن يقصر في الرجوع وكذلك تربية الدجاج فانها من الامور المخصوصة بمصر وتسمى حضانة السراريج بالذبل ونحوه ولكن يقل بمصر تربية الفراريج بالحضانة بل أكثره حضانة صناعية مدبرة ففي كل بلد موضع لذلك يسمى معمل الفروج وهو ساحة كبيرة مشتملة على أبيات من عشرة أبيات الى عشرين بيتا وفي كل بيت ألف بيضة ويسمى بيت الترقيد وأحسن الاوقات المختارة لعمله

أمشير وبرمهات وبرمودة التى فيها يكثر البيض ويكون غزير المياه كثير الفقس صحيح المزاج والزمان معتدل صالح لذلك وفى نيل مصر التماسيح بكثرة وانما يظهر أنه الآن قل وجودها عن السابق وكذلك به فرس البحر وتسمى جاموس البحر وهى توجد بأسافل الارض خصوصا ببحر دمياط وفى النيل من الاسماك مالا يحصى كثرة وأصنافا وأمّا معادن مصر فقد ذكر أصحاب التواريخ كثرتها والان لايستخرج الا النطرون والملح والاحجار الجيرية والرخام وأحجار الآلة وأحجار الرحى والجبس والصوان وأحجار البناء وليس بها الآن استخراج لاحجار نفيسة ولا المعادن منطرقة وانما يكون استخراج الملح فى الغالب على شطوط البحر المالح والنطرون من وادى بركة النطرون حيث يوجد فيها بكثرة وهو يدخل اصالة فى صناعة القزاز والصابون ويقال ان بها معدن اللازورد واليشم والياقوت وغير ذلك فهذا ومايخص المواليد الثلاثة بالديار المصرية

(الباب الحادى عشر فيما شوهد من الآثار القديمة بمصر)

لم يشاهد فى غير مصر من العجائب مثل ماشوهد فيها من آثار الاقدمين وهى الاهرام والمسلات وعواميد السوارى والتماثيل والهياكل والبرابى ورسوم المدن القديمة

فأما الاهرام فقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها وهى فى الحقيقة كانت كثيرة العدد جدا وكلها ببر الجيزة وعلى سمت مصر القديمة ويمتد سمتها فى نحو مسافة يومين وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها بالطوب والطين وأكثرها بالحجر وبعضها مدرج وأكثرها مخروط أملس وقد كان منها بالجيزة عدد كثير لكنها صغار فهدمت فى زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على يدى قرقوش أحد امرائه وكان خصيا رومياسامى الهمة وكان يتولى عمائر مصر فاستعمل أحجارها فى بناء القناطر ونحوها ومع ذلك فقد بقى من الاهرام التى هدمت آثار تدل عليها واما الاهرام الموصوفة بالعظم فثلاثة واقعة على خط مستقيم بالجيزة قبالة الفسطاط وبينها مسافات يسيرة وزواياها متقابلة نحو المشرق واثنان منها عظيمان جدا وفى قدر واحد تقريبا شبههما الشعراء

بنهدين فى صدر الديار المصرية وهما متقاربان جدا ومبنيان بالحجارة البيضاء
وأما الثالث فينقص عنهما بنحو الربع لكنه مبنى بحجارة الصوان الاحمر
المنقط الشديد الصلابة ولا يؤثر فيه الحديد الا فى الزمن الطويل وتجده صغيرا
بالقياس الى الهرمين السابقين فاذا قربت منه وأفردته بالنظر هالك منظره
وقد سلكوا فى بناء الاهرام طريقا عجيب الشكل والاتقان ولذلك صبرت
على ممر الزمان بل على ممره اصبر الزمان فانك اذا تأملت فيها حق التأمل وجدت
الاذهان الثاقبة قد استهلكت فيها والعقول الصافية قد أفرغت عليها
مجهودها والانفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها والملكات
الهندسية قد أخرجتها من القوة الى الفعل لما فى غاية امكانها حتى كادت
تحدث عن قومها وتنبئ عن حالهم وتنطق عن علومهم وأنوارهم وتترجم
عن سيرهم وأخبارهم
وذلك ان وضعها على شكل مخروط يبتدئ من قاعدة مربعة وينتهى الى نقطة
ومن خواص الشكل المخروط ان مركز ثقله فى وسطه وهو يتساند على نفسه
ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض فليس له جهة أخرى خارجة عنه
يتساقط عليها
ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهاب الرياح الاربع فان
الريح تنكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية وليست كذلك عندما تلقى
السطح وارتفاع أكبر الاهرام الثلاثة نحو خمسمائة قدم ومساحته من أسفله
طولا وعرضا نحو خمسمائة قدم
وهذه الاهرام مبنية بحجارة جافية طول الحجر منها ما بين عشرة أذرع الى
عشرين ذراعا وسمكه ما بين ذراعين الى ثلاث وعرضه نحو ذلك والعجب كل
العجب فى وضع الحجر على الحجر بهندام ليس فى الامكان أصح منه بحيث لا تجد
بينهما مدخل ابرة ولا خلال شعرة وبينهما طين مونة لا يدرى ما صنفه ولا ما هو
وعلى تلك الحجارة كتابات بالقلم القديم البرباوى الذى لم يعرف لاى أحد من أهل
مصر وانما توصل بعض الافرنج فى هذا القرن الثالث عشر لحل رموزه نوعا
وقد تبين أن بانى أكبر اهرام الجيزة اخيوبس ملك منف وبانى الهرم الثانى
خفرم اخو اخيوبس المتقدم وبانى الثالث موقرنوس الموجود بعدهما

واشتهر أن هؤلاء الملوك كانوا قبل الهجرة في آخر القرن التاسع عشر ثم ظهر بالتحقيقات الحديثة أن هؤلاء الملوك كانوا قبل مبعث سيدنا ابراهيم الخليل فعلى هذا يكون وجودهم في القرن التاسع والعشرين من الميلاد ومنه يعلم تاريخ بناء الاهرام اعتمادا على هذه التحقيقات الجديدة وأنها من بناء الدولة الرابعة المتوارثة الذى كان الملك صوفى هو السادس والعشرين من ملوكها بعد مينا وس وان صوفى هو الذى بنى الهرم الاول وأخوه سنصوفى بنى الهرم الثانى كسلفه ثم منقادى اقتدى بهما وبنى الهرم الثالث الصغير وبازاء الاهرام آثار أبنية جبابرة ومغاور كثيرة متواترة كبيرة المقدار عميقة الاغوار متداخلة وقلما ترى منها شيأ الا وعليها كتابات بالقلم البربائى وعندهذه بأكثر من غلوة صورة رأس وعنق بارزة من الارض فى غاية العظم يسميه الناس أبا الهول وهو راس تمثال جثته مدفونة تحت الارض ويقتضى تناسب القياس أن تكون جثته بالنسبة الى رأسه سبعين ذراعا فصاعدا وأعجب شئ تناسب وجه أبى الهول فان أعضاء وجهه كالانف والعين والاذن متناسبة كما تكون الخلقة متناسبة الصورة فان أنف الطفل مثلا مناسب له وهو حسن به حتى لو كان ذلك الانف فى الصغير أنفا لرجل كبير كان مشوها به وكذلك لو كان أنف الرجل للصبى لتشوهت صورته وعلى هذا سائر الاعضاء فكل عضو يكون على مقدار وهيئة بالقياس الى تلك الصورة وعلى نسبتها فان لم توجد المناسبة تشوهت الصورة والعجب من صورة أبى الهول كيف قدر أن يحفظ التناسب فى الاعضاء مع عظمها وأنه ليس فى اعمال الطبيعة ما يحاكيه اذ هو صورة وهمية ومن الآثار العجيبة آثار مدينة عين شمس لاسيما المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتى فرعون وصفة المسلة أن تجد قاعدة مربعة طولها عشرة أذرع فى مثلها عرضا وفى مثلها سمكا قد وضعت على أساس ثابت فى الارض ثم أقيم عليها عمود مربع مخروط ينيف طوله على مائة ذراع يبتدئ من قاعدة قطرها نحو خمسة أذرع وينتهى الى نقطة والمسلة كلها عليها كتابات بالقلم البربائى قد بقيت منها الآن مسلة واحدة بالحصن بالمطرية ومثل ذلك أيضا مسلة بالاسكندرية على شاطئ البحر ومثلها أيضا توجد فى الصعيد عند مدينة لقصر وقد نقل الفرانساوية أخيرا الى باريس مسلة عظيمة من لقصر أبى الحجاج

وأما البرابي فى الصعيد فالحكاية عن عظمها واتقان صنعتها واحكام صورها وعجائب مافيها من الاشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع احكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر وهى بمكان من الشهرة بحيث تغنى عن الاطالة فى وصفها

ومن الآثار أيضا عمود السوارى بالاسكندرية وهو عمود أحمر منقط من الحجر الصوّان عظيم الغلظ جدا شاهق الطول لا يبعد أن يكون طوله سبعين ذراعا وقطره خمس أذرع وتحته قاعدة عظيمة تناسبه وعلى رأسه قاعدة أخرى عظيمة وارتفاعها عليه بهندام تقتضى القوة عند قدماء مصر فى العلم برفع الاثقال ومهارتهم فى الهندسة العملية وكان عليه قبة هو حاملها والظاهر أنها هى الرواق الذى كان يدرس فيه ارسطوطاليس وشيعته من بعده وأنه دار لعلم الذى بناه اسكندر حين بنى مدينته ويقال ان فى هذه القبة أيضا كانت خزانة الكتب التى يقال انه حرقها عمرو بن العاص بإذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنهما مع أن ذلك لم يتحقق بل يقال انها كانت احترقت قبل الفتح وهناك آثار أخرى تاتى فى محالها

واذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى اعتقادهم فى الاوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجثتهم كانت عظيمة أو انهم كان لهم عصا اذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم وذلك لقصور الاذهان عن مقدار ما يحتاج اليه فى ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة وتوفر العزيمة ومصابرة العمل والتمكن من الآلات والتفرغ للاعمال والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان وخاصة الانسان ومقاديرها ونسب بعضها الى بعض الى غير ذلك مما يتعجب منه غاية العجب والله خلقكم وما تعملون

(تنبيه)

هذه الآثار القديمة تسمى أنتيكه وكان صدر من المرحوم محمد على باشا أمر سنية فى نحو سنة ١٢٥٢ بحفظها وان ما يحتفر منها فى مواضعها يحفظ فى مخزن أنتيكات بالمحروسه وأنه لا يسوغ اخراج شئ منها الى البلاد الاجنبية لانها زينة مصر ولا يجوز تجريد مصر من حليتها التى تجلب اليها المتفرجين من

سائر بلاد الدنيا ثم انها لم تزل الى الآن لها مخزن مخصوص فى بولاق منتظم أحسن تنظيم ولكن لم يزل يأخذ منها الاجانب ما يحصلونه بالشراء من تصاوير وموميات أى اجزاء محنطة مصبرة مع أن بقاء تلك الآثار لا زالت الملوك تراعيه وتحافظ عليه وتمنع من العبث فيه والعبث به ولو بالنسبة للتماثيل والاصنام الموجودة فى تلك الانتيكات وان كانوا أعداء لاربابها وانما يفعلون ذلك للمصلحة لتبقى تلك الآثار تاريخا يتنبه بها على الاحقاب الخالية ولتكون أيضا شاهدة للكتب المنزلة فان القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها ففى رؤيتها خبر الخبر وتصديق الاثر ومن فضيلة بقائها أيضا أنها تدل على شئ من أحوال من سلف وسيرتهم وتوفر علومهم وصفاء فكرهم وهذا كله مما تشتاق النفس الى معرفته وكان ذلك فى الازمان السالفة مما يحافظ عليه جدا ثم تغير الحال ورأى أهل الازمنة الاخيرة ان هذه الانتيكات انما هى آثار تسلية فراعهم منظرها وظنوا الظن السوء بخبرها واعتقدوا أنها دلائل على مطالب ودفائن وحسبوا أن كل تمثال عظيم انما هو حافظ لمال تحت قدميه فصاروا يعملون الحيلة فى التخريب والتهديم طمعا فى الحصول على كنز خفى فيه مال قديم فبهذا صارت الانتيكات فى حالة قبيحة ولولا الاوامر السنية السابقة لتمادى العوام على ذلك واشتغلوا باستخراج هذه المطالب المفضية الى المهالك فبقاؤها من أبرك المصالح فلا تزال تقتبس منه معارف يعود نفعها على الجغرافيا على وجه ناجح راجح

(الباب الثانى عشر فى ولاة مصر قديما وحديثا)

وفيه حالتان

الاولى حالة ولاة مصر قبل الفتوح بالاسلام وحكمها بأهلها أو بالاجانب

الثانية حالة ولاتها بعد الفتوح الى وقتنا هذا وحكمها بخلفاء العرب أو بالملوك والسلاطين

(ولاة مصر قبل الفتوح بالاسلام)

كانت اقامة أوائل ملوك مصر فى قديم الزمان بالصعيد الاعلى وكانوا ينتخبون

من أمناء الدين يعني من كهنة الاصنام التي كانوا يعبدونها كالشمس والقمر والنار وغير ذلك من العناصر وهذا معنى قول قدماء المؤرخين من اليونان ان البركان حكمها كذا سنة يعني أن كاهن هيكل النار هو الذي كان حاكما عليها ومدة حكمها بهذه الكيفية مجهولة الحال وانما يقال ان أول هؤلاء الولاة كان من مدينة في الصعيد يقال لها طيبة وتسمى أيضا طينة كما يقال ان أول من أسس مدينة طيوة يعني لقصر وما حولها هو الشمس يعني كاهن الشمس ثم خرجت العائلات الملوكية من هاتين المدينتين القديمتين ثم بنيت مدينة منف ومدينة عين شمس وصا الحجر وتنيس وبسطا ومدينة سواس وانتقل الى هذه المدن الملك وصارت فيه عائلات ملوكية فبهذا يقال الدولة الطيوانية أو المنفية أو الشمسية أو الصاوية أو البسطاوية وهكذا وقد عد المؤرخون دول مصر قبل الفتوح نحو ثلاثين دولة يعني عائلة ملوكية حاكمة بالتوالي وكانت اذا انقطعت حكومتها ثم عادت اليها تغير اسمها واختلف فالدولة الاولى كانت قبل الهجرة بنحو ثلاثة آلاف سنة ومائة واثنتين وعشرين سنة وهي بعد الحكومة الكهنوتية وأول ملوكها ميناوس المسمى أيضا مصرايم ومن هذه الدولة الى حكومة دولة الملوك الرعاة المسماة دول العمالقة ثمان عشرة دولة وملوكها ثلثمائة وثلاثون ملكا وهذه الدول بعضها منفرد بالحكم في ديار مصر كلها وبعضهم منفرد باقليم وغيره حاكم لاقليم آخر وقاعدة الملك تارة في الوجه البحري وتارة في الوجه القبلي فأصل الملك ميناوس من مدينة طينة فهو في الحقيقة أول ملوك مصر بعد الطوفان وكانت مملكته باقليم الصعيد وكان وادي هذا الاقليم في ذلك الوقت دون غيره ليس مغمورا بمياه النيل لبعده عنه فكان أول جهاد هذا الملك وفتوحاته ونصراته انما هي انتصاره على الميل المبارك وذلك أنه أصلح تلك الاراضي المستنقعة بالمياه لانخفاضها وسواها فبادر كما قيل بأن أرقف مجرى النيل وحبسه بجسر عظيم جدا عريض بقرب محل مدينة منف وحوله عن مجراه الاصلي وجعله في الوادي الذي يجري فيه الآن بين الجبلين ورفع الاراضي وجعلها قارة ثابتة وشيد مدينة منف وشرع في اصلاح رعاياه بتحسين الزراعة وترتيبها وتنظيمها وكذلك تنظيم القوانين والاحكام وغيرها كالتحسينات في المطاعم والمشارب والفرش وأمتعة البيوت

ومبادى العمران ومن بعد هذا الملك الى الملك موريس المسمى طوطميس الرابع يذكر المؤرخون عدة ملوك مذكورين فيما سبق عند ذكر الاهرام لا يعلم تفاصيلهم ولا أحوالهم فليس هنا محل ذكرهم وانما سبق لنا ان من ملوك الدولة الرابعة من بنى اهرام الجيزة وهم الملك صوفى الذى بنى الهرم الاكبر من أهرام الجيزة وأخوه الملك سنصوفى وهو الذى بنى الهرم الثانى والثالث الملك منقارى وهو الذى بنى الهرم الثالث وكلهم من الدولة الرابعة خلافا لمن جعل بناء هذه الاهرام من الملوك الذين بعد سيزستريس وأمّا كون البانى لها هو خيوبس واخوه خفرم ومقرينوس فان صح كانت هذه الاسماء أيضا أسماء لمن تقدم ذكرهم أو يكون المراد بالملك سيزستريس ملكا آخر من ملوك مصر من الدولة الرابعة فهو غير رمسيس الاكبر الشهير بالغزوات المعهودة

ثم ان ميناوس أول ملوك مصر الى نقطانيبو الثانى آخر ملوكها الاهليين مدة ألفين وخمسمائة سنة على القول المشهور وقيل ثلاثة آلاف وخمسمائة وقيل خمسة آلاف وأربعمائة وأربعين فتكون دولة الفراعنة بقيت بمصر هذه المدة الى ماقبل الهجرة بنحو ألف سنة

المقالة الثانية فى طبقات ملوك مصر وفيها عدة ابواب

الباب الاول فى الطبقة الاولى وتسمى العليا

مبدؤها من سنة ٥٦٢٦ قبل الهجرة وهى من ميناوس الى الدولة الحادية عشرة ومدتها نحو ١٩٤٠ سنة

لا شئ محقق فى التاريخ فيما يتعلق بالدولتين الاوليين من هذه الطبقة وانما هنالك بعض شئ يتعلق بآخر الدولة الثالثة منها وهو مايفهم من كتابات المبانى فى وادى مغارة بجزيرة الطور أن من ملوك هذه الدولة الثالثة ملكا يقال له سناورون يصورون أنه غزا جزيرة الطور واستولى عليها بالانتصار على عرب بنى عون وأنه أول من بنى بوادى مغارة المتقدم المبانى المصرية لاستخراج معادن النحاس الموجودة بجبل الطور

فيؤخذ من هذا أن ديار مصر كانت من عهد الدولة الثالثة من هذه الطبقة

آخذة فى توسيع دائرة المعارف وامتداد الحدود والبحث عما فيه منفعتها ولم تك تترك انتهاز الفرصة فى الازمان الاولية بل هذا يدل أيضا على توفر الادوات والآلات ووجود المقتضيات وانتفاء الموانع فى تلك المدة وأنها كانت من ذلك الحين ذات جمعية تأنسية عمرانية بل ذات تدين معلوم مألوف للاهالى فقد وجد على أهرام سقارة كتابات متحدة التاريخ مع بناء أهرام تدل على ديانة مصر وأنها كانت صابئة من زمان الملك خيوبس حتى انه مرسوم على الاهرام اسم الاصنام المصرية من الشمس والقمر وغير ذلك وهذا كله يدل أيضا على ان ملوكها فى تلك الدول الاولية كانوا ذوى تصرف مطلق فاعلين مختارين لهم يد على التصرف فى النفوس والاموال فلهذا اقتدروا على ابتناء البنايات الضخمة الجسيمة وغزوا الغزوات البعيدة وماذاك الا لثروتهم وبأسهم وسلطنتهم بكمال التصرف على رعاياهم وامتازت الدولة الرابعة من هذه الطبقة بكثرة ملوكها وطول مدة حكمها كما سيأتى ذلك فى جدول الدول المصرية وبعض ملوك هذه الدولة اشتهر فى تلك الازمان القديمة ببعد الصيت بسبب أشغاله وعماراته العجيبة كالبانين لاهرام الجيزة وهم الملك خيوبس وأخوه الملك خفرم وخلفهما وهو مقرنيوس وقد تقدم أن لهم أسماء أخر قريبة من هذه اشتهروا بها

وأول من نبه على هؤلاء الملوك هردوطس وقد أيد قوله الوصول فى عصرنا هذا الى قراءة النقوش البربائية والحصول على حل رموزها بمعرفة المتأخرين فقد وجدوا داخل الهرم الكبير اسم لفظة خوفو فاستنبط منه أنه خيوبس ووجدوا أيضا بالاهرام اسم خفرة واستدلوا به على خفرم ووجدوا اسم منقارة فأخذوا منه مقرنيوس ولا يعلم أحد من ملوك الدولة الخامسة باسمه ولا نعته وانما يعلم ان بعض ملوكها بنى بجهة سقارة المحل المسمى بمسطبة فرعون وبعض مقابر فى تلك الجهة كما يعلم أيضا اسم ملك اشتهر بأشغاله وعملياته ويظهر أنه من ملوك الدولة السادسة وأنه يسمى بابى مارى را وقد استظهر بعضهم أنه هو موريس اليونان صاحب بركة قارون وخالفه آخرون كما سيأتى ان معنى موريس بحيرة

وقد ظهر لبعض علماء الآثار من الاستكشافات الجديدة القريبة أنه عقب

انقراض الدولة الخامسة بموت آخر ملوكها استولى على كرسى المملكة المصرية دولة أخرى أصلها من مدينة منف وأشهر ملوكها كما قال الحبر مانيطون اثنان وهما الملكة نيطوكريس والملك أبابوس فأما الملكة نيطوكريس فقد لقبها مانيطون المذكور فى تاريخه بوردة الخدين وذكر انها كانت أشهر عصرها حسنا وجمالا وفضلا وكمالا ويقال عنها انه كان له أخ قتله أعداؤه فأخذت بثاره من قاتليه فجذبتهم الى مقاصير تحت الارض أعدت لهم فيها وليمة عظيمة فلما التهوا فى لذات المآكل والمشارب أمرت بأن ينساب عليهم ماء النيل فأغرقهم جميعا

وأما الملك أبابوس فقد كان ملكا مغازيا كالملك خيوبس وكان من جملة من اعتاد الاغارة على مصر من طوائف الزنوج طائفة تسمى هوهو فسعى هذا الملك فى غزوها وادخالها تحت الطاعة لمملكة مصر وكذلك انقادت له قبيلة من قبائل العرب تسمى بنى هروسة وكان جماعة من المصريين يستخرجون معادن النحاس من جزيرة الطور بعد استيلاء أحد ملوك الدولة الثالثة عليها كما سبق فكدر عليهم بعض العرب الموجودين بها فعاقبهم الملك أبابوس بما فعلوا ويكثر ذكر اسم الملك أبابوس فى الكتابات المنقوشة على الآثار القديمة بالقلم البربائى فيوجد بآثار اسوان واسنا وناحية القصر والصياد باقليم قنا وناحية الشيخ سعيد وزاوية الميتين بمديرية المنيا وفى جهة سقاره وفى ناحية صان باقليم الشرقية ويوجد مصورا فى صخور وادى المغارة بجبل الطور وفى المحل المسمى بالحمامات الذى تأوى اليه القوافل الذاهبة من قنا الى القصير ولفظ أبابوس معناه باللغة المصرية القديمة طويل القامة فمن هذا نقل الحكويون ان هذا الملك كان يبلغ من الطول سبعة أذرع وحكم مصر مائة سنة انتهى ولعله هو الذى عبر عنه المؤرخون أيضا باسم بابى مارى رافيكون على هذا غير موريس الذى ظن اليونان أنه اسم منشى بحيرة قارون وقد ظهر بالاستكشافات الجديدة أن لفظ موريس أصله ميرى ونقله اليونان الى لسانهم بزيادة السين ومعنى ميرى فى لغة المصريين القديمة بحيرة أو بركة كان يطلق علما بالغلبة على بحيرة الفيوم فأضاف اليونان اليه لفظ بحيرة أو بركة وقالوا بحيرة موريس ظنا منهم أنه اسم لصاحب البحيرة والحال أنه اسم للبحيرة

نفسها التى أنشأها الملك أمونها أحد ملوك الدولة الثانية عشرة
والدور الممتد من آخر الدولة السادسة الى أول الدولة الحادية عشر مبهم بل
هو أشكل أزمان تاريخ مصر وملوكها فيما يتعلق بالسنين والوقائع فى مدة
نحو ٤٣٦ حتى ان جميع صحف المؤرخين قد خلت من بيان هذا الدور فلا
يقدر أحد أن يهتدى الى معرفة الدولة السابعة والثامنة والتاسعة
والعاشرة اذ هى مغلقة الابواب فلا سبيل الى الوقوف منها على الصواب
ولعل هذا ناشئ عن فترة فى هم الامة عن بناء عمارات تدل آثارها عليها أو عن
عدم الاهتداء الى هذه الآثار بسبب كونها سحب عليها الدهر صروفه حتى
صارت فى دفائن الارض مكنوزة غير معروفة

(تنبيه)

قد صح بالتواتر والاستفاضة أن ميناوس أى مصرايم هو أول ملوك مصر بعد
الطوفان وانه أول مؤسس للمملكة المصرية فى تلك الازمان وأن مصر من
وقته الى الدولة الرابعة كانت فى حالة الطفولية لقلة الآثار العمارية
فبظهور الدولة الرابعة سنة ٤٨٥٧ قبل الهجرة أخذت مصر فى التمدن فى
عصر الملك خيوبس المسمى فى نقوش الآثار باسم الملك خوفو وله غير ذلك من
الاسماء وقبره فى الهرم الكبير الذى هو أكبر أهرام الديار المصرية الذى أنشأه
هذا الملك فى مسافة ثلاثين سنة بمائة ألف من العملة يتناوبون العمل فى كل
ثلاثة أشهر حتى تم العمل ولم يزل يظهر أنه فوق طاقة البشر بعد مكث ستين
قرنا من الدهر بدون خلل وكذلك ما بجواره من الاهرام التى عدت من
عجائب الدنيا والصحيح أن تمدن مصر وصل اليها من بلاد آسيا من جزيرة العرب
لا من بلاد النوبة والسودان وأنها فى مدة دول الطبقة الاولى بلغت مصر من
التمدن النسبى حظا وافرا اذ كان فى زمن الجاهلية الاولى بديار مصر قوم
أولو علم وحكمة وفضل ونعمة لهم حكومة ملكية وقوانين ضبطية وربطية
وهل تظهر المبانى العجيبة الا من ملوك رعاياهم لاوامرهم ونواهيهم سميعة
ولرغباتهم ومطامعهم مائلة كل الميل مجيبة مطيعة

(الباب الثاني في الطبقة الثانية وتسمى الطبقة الوسطى)

وهي من الدولة الحادية عشرة الى الثامنة عشرة في سنة ٣٦٨٦ قبل الهجرة
ومدة هذه الدولة ١٣٦١

قد سبق لنا أن مصر بقيت من بعد الدولة الملوكية السادسة الى الحادية عشرة قليلة العمائر عديمة الشعائر ليس لها ما يدل على تاريخها في أثناء هذه المدة التي تبلغ نحو أربعمائة وستا وثلاثين سنة وانما في أيام الدولة الحادية عشرة قد نهضت بعض نهوض وصار لها في أيام هذه الدولة من المباني والآثار ما يدل دلالة قوية على أن ملوكها كانوا يسمون الملوك النانطوية ويقال لهم أيضا الانطوية ويقال للدولة دولة أنطو ودولة نتطو ولعل هذا كان من أسماء الملوك أو من ألقابهم ويستفاد من التاريخ أن هذه الدولة عملت في مصر أعمالا توجب فخارها ومجدها ويقال انها أصلحت في مصر اصلاحات جديدة وتنظيمات مفيدة وحسنت حال الخط والكتابة عن الحال الاول وغيرت التمسك بالديانة الى نسق عليه يعول وقد وجدوا في مدينة طيوة بالصعيد مقابر معدة لملوك هذه الدولة الحادية عشرة وأما الدولة الثانية عشرة فهي ابتداء دور جديد وتاريخ ظاهر لعظم قدرها وعلو شأنها واعتبارها بقدر ما أحدثته في مصر من المآثر لا سيما في أمر مهم عاد على مصر بالمنفعة الجسيمة وذلك أن مصر كانت في الدولات السابقة منقسمة الى حكومات مختلفة حاكمة في آن واحد ففي أيام هذه الدولة اجتمعت وارتبطت برابط وحدة وصارت مملكة واحدة في دار ملك واحد وهي مدينة طيوة التي كانت تختا لاحد الحكومات فأول من حكم وحده من ملوكها هو سيزورطاسن الثالث فانه كان ذا شوكة عظيمة وان كان في مبدأ أمره يحكم بالاشتراك هو والملك أمونها الثالث في آن واحد عوضا عن سيزورطاسن الاول وأمونها الاول الا انه كان له السطوة فقد وجد مكتوبا على الاسطوانة التي أقامها في مدينة عين شمس انه كان يلقب بصاحب الوجه القبلي والبحري ووجد مكتوبا أيضا على مبنى قديم جهة الشلال الثاني في النوبة أنه كان يلقب بالملك المنصور على أمة القوس والنشاب ومما يدل على ذلك أنه مصور في بعض المباني معه أسارى استعبدهم من آسيا الغربية وهذا دليل

على

على أنه غزا هذه الجهة ومن المشهور أيضا انه أول من بنى أساس مدينة كرنك الصعيد وأما بعده من الملوك فقد أتموها فقط وكانت مملكته من آخر زمانه فانه وسع حدود المملكة المصرية الى ناحية سمنة فى جنوب الشلال الثانى وتوغل فى بلاد النوبة وهذا الفاتح مذكور فى تاريخ مانيطون باسم سيزوستريس ولابد أن هذا الاسم كان من أسمائه فى ذلك الوقت بل ربما كان تسمى به عدة من الفراعنة فبتقادم الازمان وبتداول الايام اشتبه هذا الملك برمسيس الاكبر المعروف بعنوان سيزوستريس وهذا الاخير انما هو من ملوك الدولة الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة على الخلاف فيه ولعله سمى سيزوستريس باسم ذلك الملك السالف الذكر رجاء أن يصير مثله وقد نسب اليونان جميع ما فعله الاول من المآثر الخارجية والداخلية للثانى الاخير مع ضميمة فعاله ومآثره وفتوحاته وعمائره والسبب فى ذلك مجرد الاشتباه وتأسى غير اليونان باليونان ثم خلف سيزرطاسن الثالث أمونها الثالث

وهذا الملك هو الذى بنى البربة الشهيرة التى هى أعظم العمائر المصرية القديمة وأعجبها وهذه البربة لم يزل أثرها الى الآن باقيا فى اقليم الفيوم ومرسوم عليها اسم هذا الملك

وقد بقى رونق ملك مصر وبهجتها زمنا طويلا الى أثناء الدولة الثالثة عشرة فمما يدل على ذلك مشاهدة المبانى العظيمة المختلفة فانا نجد ما يدل على ان المملكة المصرية فى أيام أولئك الملوك المعمرين لتلك المبانى كانوا أقوياء واحرارا لا أحد يكدر راحتهم ولا يصدهم عن مشروعهم فقد وجد أيضا فى جزيرة أرغو فى داخل النوبة جهة دنقله مبان ضخمة جافية بناها ملوك هذه الدولة فلا يقدر على بنائها من الملوك الا من كان صاحب قوة وبأس وراحة تامة ولكن فى أثناء هذه الدولة الثالثة عشرة كانت مملكة مصر على ما استنبط أخيرا من تماثيل وأحجار مستكشفة بناحية صان والعرابة المدفونة التى هى آثار مدينة طيسة أو طينة لم تزل باقية فى مدة حكم ملوك الدولة الثالثة عشرة على حالة تمدنها وقد ذكر المؤرخ مانيطون أن عدة ملوكها كانوا ستين ملكا وأن مدة حكمهم كانت ٤٦٣ سنة وكذلك يؤخذ من الاستكشافات الجديدة بناحية صان ومن تمثال عظيم صار الاطلاع عليه بجزيرة أرجو بالقرب من دنقله وهو من آثار

الدولة الملوكية الثالثة عشرة أن المملكة المصرية فى أيام هذه الدولة اتسعت حدودها كما كانت عليه فى مدة الدولة الثانية عشرة وكذلك مما ينبغى التنبيه عليه أنه وجد فوق وادى حلفة بالقرب من قرية سمنه صخور عالية وعرة واقعة على حرف النيل عليها نقوش بالقلم البربانى على ارتفاع سبعة أمتار فوق أعلى مقياس النيل هنالك على الدرجة العليا من الزيادة يفهم من ترجمتها ان النيل كان فى عصر الدولة الثانية عشرة والثالثة عشرة أقصى زيادته موضع النقش من تلك الصخور فيستبان من هذا أن النيل المبارك كان قبل هذا العصر بأربعين قرنا من الزمن يبلغ عند الشلال الثانى زيادة عما يبلغه فى عصرنا هذا من الارتفاع بسبعة أمتار ولعل سبب ذلك أن ملوك الطبقة الوسطى اعتنوا بالعمليات الجسيمة فى ماء النيل بقصد الامتناع من غائلته والانتفاع بزيادته مع التحصن من غارات أعدائهم الذين كانوا يتهجمون عليهم من السودان فجعلوا هذا الشلال المدبر حصنا طبيعيا ومانعا قويا لا يتمكن معه الزنوج من نزول سفنهم الى مصر والاغارة عليها وذلك كما ذكره المؤرخون أن بلاد كوش وهى البلاد السودانية كانت فى ذلك الوقت أعداء مصر وكانت قوة مصر دائما متجهة لمصادمتهم ومقاومتهم ومنع اغارتهم حتى أنشأت حكومة مصر فيما وراء الشلال الاول على شطى النيل قلعتى كنه وسمنه فلعلها فيما بعد صنعت الشلال الثانى لكمال الاستحكامات والتحصينات

وأما الدولة المصرية الرابعة عشرة فمجهولة الحال لا يعلم المؤرخون فى حقها شيأ وأما الدولة الخامسة عشرة والدولة السادسة عشرة فأصلهما من مدينة طيوه بالصعيد وكانت هذه المدينة تحت ملكهم وفى أثناء هذه المدة كانت اغارة الملوك الرعاة على مملكة مصر وتجديد دولة جديدة بالوجه البحرى بمصر ويقال ان اغارتهم كانت فى أيام الملك طيماووس ودولتهم تسمى دولة الهقصوص واشتهروا بالتواريخ باسم الملوك الرعاة يعنى ملوك العرب وفى كتب التواريخ الاسلامية يقال لهم العمالقة ولا يعلم تحديد وقت هجومهم على مصر ولا مدة حربهم وانما المحقق أن دولتهم كانت معاصرة للدولة المصرية الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة وان انقراض دولتهم كان مفتاح الدولة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة فانهم فى أثناء هاتين الدولتين كانوا لا يزالون

يغيرون بعض اغارات غير منتجة وزعم بعضهم أيضا استظهارا منه أن دولة الرعاة عاصرت أيضا الدولة الرابعة عشرة والخامسة عشرة قال مانيطون المؤرخ لما غضب الله على مصر أرسل اليها من المشرق أمة خبيثة الا انها ذات شجاعة فاستولت عليها بدون حرب ولا قتال واستعبدت رؤساءها وأهاليها وهدمت معابدها وهياكلها وسلبت الاولاد والحريم وملكت عليها ملكا جديدا من هذه القبيلة الهقصوصية أقام فى مدينة منف وهو الملك سلاطيس ومن فر ونجا بنفسه من أنخاذ العائلات الملوكية ذهب الى الصعيد والى ساحل البحر الاحمر وأما هذه القبيلة فتحصلت بالقلاع والعساكر والجنود على أن تمكنت من الاقاليم البحرية والوسطى وأزعجوا أهل مصر ولم يبق للدولة المصرية المتأصلة الا ملك الصعيد وكانت دار ملكهم مدينة طيوه

وأصل هؤلاء القبائل الرعاة مجهول فبعضهم يجعلهم من الامة العبرانية وبعضهم يقول انهم تتار وترا كمة أغاروا على بلاد مصر لخصوبتها وبعضهم يجعلهم صوريين وكنعانيين والاقرب الى العقل أنهم من جهة الحجاز وبلاد الشأم القريبة من مصر وفى مدة هؤلاء الملوك الرعاة المعدودين من فراعنة مصر أيضا ولو أنهم أجانب كان دخول بنى اسرائيل فى مصر للتوطن بها فى أيام ما كان يوسف عليه السلام عزيز مصر وكان ذلك فى عهد الملك أبوفيس من ملوك الرعاة وذلك قبل الهجرة بنحو ألفى وخمسمائة وسبعين سنة

والظاهر أن المدة التى كانت قاسية على المصريين وظهر فيها جبر الملوك الرعاة لم تكن مدة أبوفيس الذى هو فرعون يوسف والمسمى عند العرب بالوليد بن الريان فقد وجد فى هذه الازمان الحديثة جهة مبانى أواريس التى هى صان من الآثار ما يدل على انه كان يحسن معاملة المصريين ويمازج عوائدهم وأخلاقهم ما أمكن وانما ما حصل للمصريين انما كان قبله وبعده وبيان ذلك على وجه التفصيل وزيادة الايضاح ان الملك طيماوس هو الذى تغلبت العرب على مصر فى أيامه ولم يتمكنوا منها الا بعده وأن أول ملوك الرعاة كان سلاطيس وأن آخرهم كان الملك أسيس وأن جهة تمكنهم وقوتهم العسكرية كانت فى مدينة أواريس التى هى صان وان فى مدتهم لم يستطع عائلات دول مصر أن يعيشوا ملوكا فى الاقاليم البحرية ولا أن يمكثوا تحت الطاعة

والانقياد لهم فتشتتوا بعائلاتهم وتفرقوا كل مزق فى جهة صعيد مصر وبلاد الكنوز بالنوبة وعلى سواحل البحر الاحمر وكان لمصر على هذه السواحل قبائل وملحقات واختارت الدولة الملوكية أن تجعل دار ملكها فى مدينة طيوة التى هى دار الفراعنة القديم فبهذا كان فى الديار المصرية مملكتان متعاصرتان وهما مملكة الفراعنة المتأصلين فى صعيد مصر ومملكة الملوك الرعاة المتغلبين فى منف وكان حكمهم عاما للاقاليم الوسطى والبحرية فبهذا كانت ملوك الدولة السابعة عشرة المصرية لها فرعان معاصران فرع أصلى أهلى وفرع متغلب اجنبى ومدة حكم ملوكهما تكاد أن تكون متحدة التاريخ مختلفة المؤرخين مدحا وقدحا فلا غرابة فى وقوع الاختلاف فى حكايات وقائعهم وانما من المحقق ان الملوك الرعاة كان دأبهم تخريب العمارات العظيمة وتدمير المبانى المصرية الجسيمة وكانوا لا يبالون باتلاف العمائر الشهيرة والظاهر أن اتلافهم امتد واتسع عن دائرة حكمهم باغاراتهم حتى وصل الى أسوان التى هى آخر حدود مصر فقد دمروا هنالك من المبانى ماقدروا على تدميره

وأول ملوك الرعاة الذى هو قائدهم ساطيس لما تولى المملكة بنى فى الوجه البحرى مدينة عسكرية بقرب تنيس وسماها أواريس كما سبق وجعلها معسكرا عظيما حصنه وجمع فيه جنوده فكان فى أمن من هذه الجهة على مصر بحيث لا يقدر أن يهجم عليها أحد من بلاد آسيا حيث كانت معادية لمصر فى تلك الازمان ورتب أيضا رباطات وحراسا جهة الشرق والشمال وكان دائماله ملاحظات ومحافظات جهة الوجه القبلى فكان فى أمن تام من هجوم ملوك مصر المتأصلين المقيمين بالصعيد بحيث لا يستطيعون أن يتطلبوا حقوقهم بالاغارات كما سبقت الاشارة الى ذلك

وأما خلفاء طيماوس وهم ملوك المصريين المتأصلون فقد بالغوا مقصدهم فى الحزم والتحفظ على أنفسهم وعلى مملكتهم من هجوم هؤلاء الملوك الرعاة فكان لهم نوع استقلالية وأما أخذ امهم فدولتهم كانت ظاهرية لا حقيقية وليست عظيمة الشوكة ولا متمكنة القوة فنا واهم ملوك الصعيد الوطنيون وبذلوا جهدهم فى مراعاة خدمهم وحشمهم ليخلصوا فى الخدامة والصداقة

واستجلبوا محبة الاهالى ووجوه أكابر المملكة لاسيما ان الجميع لهم مصلحة عظيمة فى التحزب مع هذه العائلة القديمة لاسترداد حقوقهم ومزاياهم التى ضاعت بضياع حقوق ملوكهم واجتمعوا على قلب رجل واحد وحاولوا غيرمرة أن يقاتلوا أخصامهم فبعد الجهد الجهيد انتهى الحال الى أن أحد هؤلاء الفراعنة المسمى أموسيس تمكن من تبديل شماهم فى اطراف مصر وأكافها وحاصر مدينتهم العسكرية مدة سنين وضيق عليهم الحصار ومات قبل أن يظفر بهم ظفرا تاما فتولى بعده ابنه المسمى أمونوفيس الاول وأبقى الحصار وزاد فى التضيق عليهم فكانوا بحيث لا يمكنهم الا المصالحة فصالحهم على أن يخرجوا من مصر آمنين على أنفسهم وأموالهم فخرجوا منها الى بلاد أثور ببلاد آسيا وسلكوا من جهة العريش فكانت مدة حكومتهم نحو أربعة قرون وكان المخرج لهم منها هذا الملك المتقدم الذكر وكانت جنود فى هذه الغزوة أربعمائة وثمانين ألف مقاتل ومع ذلك فلم يتمكن من أخذ معسكر عدوه عنوة فكان هو أول ملوك الدولة الثامنة عشرة وذكر بعضهم ان مدة حكم الملوك الرعاة كان يوجد بمدينة صان بالوجه البحرى دولة ملوكية أخرى من ضمن دول الملوك الرعاة حضرت الى مصر من قبيلة يقال لها الخيتاس وهى من القبائل النازلين بجبال أرمنية كانوا يعبدون صنما يسمى سوتيخ فجاءت الى مصر ولم تكن كباقى العمالقة المتصفين بوصف التدمير والخراب فانهم ولو كان نزولهم على الديار المصرية واستيلاؤهم عليها بطريق القهر والغلبة الا أنهم اكتسبوا من تمدن رعاياهم واقتدوا بملوك مصر فى تقديم الفنون والصنائع حتى جانسوا رعاياهم فى اتخاذ التماثيل فى مدينة صان وتعلموا كتب المصريين والخط البربانى واستعملوه حتى صاروا من المصريين الحقيقيين وتلقبوا مثل سلفهم بألقاب الطنطنة والسلطنة ودولتهم هى الدولة السابعة عشرة العربية المعاصرة للدولة السابعة عشرة التى بطيوة فى الصعيد فاصدر من المؤرخ مانيطون وغيره من ذكر مثالب دول الملوك الرعاة يحمل على ما عدا هذه الدولة السابعة عشرة فان الدولة المصرية فى أيام ملوك هذه الدولة قام سعدها وعظم مجدها واستوجبت حسن الثناء عليهم حتى بقى على ممر الدهور فان الملك سيزوستريس الاكبر الذى هو رمسيس الثانى بعد أن عقد عقد مناركة مع

طائفة الخيتاس ببلاد الارمن الذين هم أصل الدولة السابعة عشرة بعد
مضى أربعمائة سنة من تاريخ دخولهم الديار المصرية أجرى بمدينة صان
مراسم عيد عام ملوكى فلماذكر ملوك الدولة السابعة عشرة وذكر الملك
سباطيس الذى هو أول ملوك هذه الدولة بمصر عنونه فى متن العقد بعنوان سيد
قومه ولقبه بلقبه الذى تلقب به وقت ولايته ومن المعلوم أيضا انه فى أثناء
الدولة السابعة عشرة العربية امتلأت شواطئ النيل من الجانبين مدة
حكمهم بأنواع العمائر والابنية الجليلة الآثار الدالة على التمدن والرفاهية
وقد علمت فيما سبق ان ملك دولة الملوك الرعاة زال على يد الملك أموسيس ونقول
الآن ان أكثرهم انتقل الى برزخ السويس وارتحلوا الى بلادهم الاصلية
وبقى بعضهم بالجهات المصرية فأقطع الملك أموسيس لمن بقى منهم بعض الاراضى
التى كانت بيد أسلافهم ليزرعوها ويتعيشوا من غراتها وبانقراض دولة
الرعاة عادت مملكة مصر التى كان أسسها ميناوس الى الملوك الاهليين وبقايا
طائفة الرعاة الذين تخلفوا بأمر الملك أموسيس تكونت منهم قبيلة لم تزل
ذريتها على جوانب بحيرة المنزلة يمتازون عن غيرهم بقوة أعضائهم وهيئة
وجوههم التى بها نوع استطالة فهذا ما يتعلق بالطبقة الوسطى التى أعظم
مزاياها انشاء بحيرة قارون ولها مآثر أخرى كحوادث أيام يوسف عليه السلام
والنواويس الموجودة ببنى حسن القديمة وأسيوط وتماثيل مدينة صان
ومسلات المطرية والفيوم فلا مانع أن يكون بين حالة الاختلال تخللت
أحوال العظم وحسن الحال حتى جاءت الدولة الثامنة عشرة لى هى أول
ملوكها أبونوفيس الاول

(الباب الثالث فى الطبقة الاخيرة)

وهى من أول الدولة الثامنة عشرة الى الحادية والثلاثين التى مبدؤها سنة
٢٣٢٥ وتنتهى بالدولة الحادية والثلاثين التى هى دولة الفرس المنقرضة
سنة ٩٥٤ قبل الهجرة وفيه فصول

(تنبيه)

على مقتضى حساب موسيو شمبليون يقتضى أن ابتداءها سنة ٢٤٤٤ وقد سر جدا وله على تصحيح هذا الحساب فلذلك جرينا على ما فى كتابه والفرق هين بالنسبة لتواريخ هذه الازمان القديمة

(الفصل الاول فى ملوك الدولة الثامنة عشرة)

قد ظهرت هذه الدولة بمظهر لم يكن لسواها وقد جبرت فى أقرب وقت ما دمرته أمة الهكسوس العمالقية فعمرت تلك الدولة الهيا كل الدينية والعمارات المدنية فامتلأت شواطئ النيل بالعمارة من ساحل البحر المالح بالجهات البحرية الى جبل البركل بدنقله من البلاد السودانية وافتتحت طريق التجارة وأعانت الزراعة والفنون والصناعة حتى بلغت الى أوجها وتمكنت مصر من حسن السياسة والرياسة حتى فاقت على ما سواها من الامصار وانفردت بالشوكة والبأس فاستولت من جهة الجنوب على الاقطار السودانية واستعملت عليها العمال والنواب ومن جهة الشمال توغلت جيوش مصر حتى فتحت الجزيرة بين دجلة والفرات وتركت فى قلاع تلك الجهات وثغورها الجنود للمحافظة والولاة للملاحظة كما سيأتى ذلك عند سرد ملوكها الذين أولهم الملك أمونوفيس وان كان فى الحقيقة الفخر انما هو لابيه الملك أموسيس فانه هو الذى أنقذ الديار المصرية من يد العمالقة وفى أيامه بدت استهلالات المجد والفخار فانه بعد أن أجلى العمالقة من بلاد مصر جد فى المسير وراءهم الى ان دخل اقليم فلسطين للاستيلاء عليها ثم جال بجنوده جهة الجنوب واستولى على بلاد النوبة ومع اشتغاله بالحرب اعتنى بتعمير الهيا كل والمعابد التى كان دمرها العمالقة وأنشأ هيا كل ومعابد أخرى وقد استبان من الاستكشافات الحديثة فخر هذا الملك لاسيما من العثور على الحلى الذى وجد داخل تابوت والدة الملك المصبرة وحفظ بانتيكخانه بولاق فمن ذلك سلسلة طويلة من الذهب وقلادة ذهب منقوبة القرائد وتاج عليه تمثالان من الذهب وسيف مسقط محلى بالذهب وكان هذا الملك قد أمر بصياغة ذلك لزينة جثة والدته لتدفن معها فمن اطلع على هذا الحلى النفيس لايكاد يصدق ان هذا النفائس صاغها هذا الملك عقب خروج مصر من ربقة المتغلبين

ذكر الملوك على الترتيب

(جدول ملوك الدولة الثامنة عشرة)

	أسماء الملوك وألقابهم	مدة المملكة سنة	مدة المملكة شهر	ابتداء التملك قبل الهجرة سنة
١	أمونوفيس الاول (ابن أموسيس)	٣٠	٧	٢٤٤٤
٢	طوطوميس الاول (ابن أمونوفيس الاول)	١٢	٠٠	٢٤١٣
٣	طوطوميس الثانى (ابن المذكور)	٢٠	٧	٢٤٠٠
٤	الملكة أمنسه (أخت المذكور) زوجها الاول يسمى طوطوميس وزوجها الثانى يسمى أمنطه	٢١	٩	٢٣٧٩
٥	طوطوميس الثالث (ابن الملكة أمنسه)	١٢	٩	٢٣٥٨
٦	أمونوفيس الثانى (ابن طوطميس الثالث)	٢٥	١٠	٢٣٤٥
٧	طوطوميس الرابع (ابن أمونوفيس الثانى)	٩	٨	٢٣١٩
٨	أمونوفيس الثالث ويسمى ممنون (ابن المذكور)	٣٠	٥	٢٣٠٩
٩	هوروس (ابن المذكور) طماهوموت بنت هوروس	٣٨	٥	٢٢٧٩

جمع مدة هذه الدولة ٢٠٣ وعدّها بعضهم ٣٤١

كما سيأتى ولعله أدخل فيها مدة من تولى قبل هوروس من غير بيت الملك أو جعل مدة حكم كل ملك فيه زيادة تختلف مع هذا بالادخال والاخراج وباختلاف أقوال المؤرخين

فقد تبين من هذا أن الدولة الثامنة عشرة أولها الملك أمونوفيس الاول الذى هو مؤسس الدولة المذكورة المتوارثة وان آخرها الملك هوروس فلنذكر هؤلاء الملوك على حسب ماهو فى الجداول الذى استنبطه موسيو شمبليون من الكتابات البربائية ومن الصحف القديمة التاريخية استنباطا اجتهاديا مبنيا على تعقل الوقائع ومقابلتها ببعضها فهو بمنزلة اليقين وليس خارجا عن دائرة المعقولات التاريخية مع بعض تأشير للاستكشافات الجديدة من ناظر

الانتيكه جناب ماريت بيك الفرنساوى فيما يناسب اقتباسه

(الملك امونوفيس الاول)

هذا الملك أعاد الحكومة المصرية فى مدينة منف وحكم مصر بتمامها مع مضافاتها ولواحقها واشتغل كسلفه بتشييد الهياكل واصلاح ما دمره ملوك الدولة الراعية وعمت عماراته مدينة منف وغيرها من مدائن المملكة كمدن بلاد النوبة المصرية

وفى مدته لم تزل مصر تسعى فى توسيع دائرة حدودها شمالا وجنوبا فآثاره تشهد على أن جنوده دخلت الشأم والسودان وابتداء ملكه فى سنة ٢٤٤٤ قبل الهجرة وحكم ثلاثين سنة وسبعة أشهر

الملك طوطوميس الاول ويسمى طوطوميسيس وهو ابن امونوفيس الاول

هذا الاسم فى لغته بالطاء ولا مانع فى تعريبه أن يكون بالتاء لانه مركب من كلمتين أحدهما توت ومعناها رب وميس اوموسيس معناها ابن ثم صار علما وهو الذى بنى المبانى العظيمة المسماة مدينة أبيبوله كذلك مبانى ابريم ومنها الهيكل المنحوت فى الحجر هنالك وقد غزا هذا الملك بلاد السودان وانتصر عليهم وكذلك غزا بلاد العراق والاكراد وكان المستولى عليها اذذاك قبائل تسمى الروتونو كانوا مستولين على حصون واستحكامات كمدينتى نينوى وبابل ويدل على ذلك ماوجد بنواحى الفرات من الالواح المنقوشة بالقلم البربائى على ان هذا الملك انتصر على هؤلاء القبائل ونظير هذه النقوش توجد بالجهات الجنوبية أيضا وابتداء ملكه فى سنة ٢٤١٢ قبل الهجرة وحكم ثلاث عشرة سنة وبعضهم يجعل مدة حكمه احدى وعشرين سنة

(الملك طوطوميس الثانى)

اشتغل كسلفه ببناء الهياكل والمعابد فى مدائن مصر ومن مبانيه ما يوجد

الآن باسنا من بناء ظريف بحجر الصوان الاحمر بقيت آثاره الدالة على تمام
دخول الولايات السودانية تحت طاعة مصر ولم يكن له فتوحات غير ذلك وله
كذلك تزويق مبانى مدينة أمبو التى بطيوة واسمه مرسوم فى كثير من المبانى
المنقوشة ولقبه عليها هكذا رب اللطافة سيد الدنيا صاحب المعروف وابتداء
ملكه سنة ٢٤٠٠ وحكم ثلاثين سنة وسبعة شهور

(الملكه امنسه ويقال ان اسمها تازو)

هذه الملكة هى بنت طوطوميس الاول وأخت طوطوميس الثانى الذى مات
ولم يعقب وارثا للمملكة فورثت الملك بعده أخته وتزوجت بزوجين أحدهما
يسمى طوطوميس وهو أول زوجيها والثانى يسمى امننطه فكان زوجها
الاول ملكا بالتبعية لها وهى ملكة فى الحقيقة فهى المعدودة فى السلسلة
الملوكية وقد ولدت من زوجها الاول ولدها طوطوميس الثالث ثم مات زوجها
الذى كان يحكم بالتوكيل عنها فتزوجت بعده أمننطه فكان أيضا يحكم
المملكة بالتوكيل عنها ثم عن ابنها طوطوميس الثالث مدة قصوره وبعد أن
بلغ رشده كان يشركه فى الحكم والملك بوصف كونه زوج أمه ومكث اشتراكه
معه عدة سنين من مبدا ملك طوطوميس الثالث المذكور وبهذا السبب
قال بعض المؤرخين انه ساقط من سلسلة هذه الدولة الثامنة عشرة اسم
طوطوميس آخر واسم أمننطه وجواب ذلك أنهما كانا يحكمان بالتوكيل
وكان ابتداء ملكها سنة ٢٣٧٩ قبل الهجرة ومدة حكمها بالانفراد
والاشتراك احدى وعشرون سنة وتسعة أشهر بناء على استكشافه أنه لما
مات طوطوميس الثانى ولى المملكة من بعده طوطوميس الثالث وكان
طفلا صغيرا فكفلته أخته هاتازو وكان لها نفوذ المملكة فى عهد الملك السابق
وكانت مدة سياستها للمملكة بطريق الكفالة من باب الاقتيات حيث
تجاوزت مدتها اذ بلغت سبع عشرة سنة وان كانت أيام حكمها مشتملة على
الفخار فان لها آثارا جليلة من العمارات فمن جملة آثارها الشهيرة المسلتان
بجهة الكرنك اللتان لم تزل احداهما قائمة على ساقها الى الآن وكان سبب
انشائها لهما تخليد ذكر والدها طوطوميس الاول وكان رأس كل من المسلتين

متوجا بإكليل هرمى الشكل من الذهب المغتنم على الاعداء وصنعة كل واحد منهما من استخراج حجره من جبل أسوان الى ان تم عمله سبعة أشهر ومن آثار هذه الملكة أيضا الهيكل المعروف بالدير البحرى بمدينة طيوة مكتوب على جدرانه الغزوات الحاصلة منها بالقلم البربانى وعليها تصاوير بديعة الصنعة يظهر منها صور غزوها فى بلاد العرب انتصرت فيها جنودها وقد استكشف أخيرا حجران استبان مما عليهما من الرسوم صورة هذه الغزوة أيضا وعليهما تمثال قائد الجيوش المصرية وبين يديه قائد جيوش العدو بهيئة الضراعة أشعث أغبر طويل الشعر مجردا عن السلاح ووراءه زوجته فى حالة التذلل والخضوع وفى جهة أخرى من التماثيل صورة السفن الحربية المصرية فيها أسرى المهزومين وغنائمهم من حيوانات غريبة كالزرائف والقردة والنمورة وغير ذلك من الغرائب وصورة السفن ضخمة يظهر عليها متانة التركيب ذات شراع ومجاذيف وعلى سطحها طوائف البحرية ووجد تماثيل أخر عليها أشكال العساكر المصرية راجعة من الغزو كأنها تسرع فى المشى وتدخل مدينة طيوة بدلائل النصرة مسلحة برماح أو بلط فى الميامن وفى المياسر قابضة فرع نخلة أخضر علامة النصرة وامامهم آلات الموسيقى الحماسية كالمزامير والطبول يدقون النوبة الحربية ويضربون الالحان والآلات وبجانبهم ضباط العساكر حاملين على أكتافهم الاعلام والبيارق الوطنية مكتوب بأعلاها اسم الملكة كفيلة الملك فى هذا العصر صاحبة الامر والنهى وربة النصر وهذه الملكة مستحقة فى الواقع ونفس الامر أن تدرج فى جملة كبار ملوك الدولة المصرية فان لها من الآثار المصرية ما يقتضى انتظامها فى سلك ملوك الدولة الثامنة عشرة من جميل المآثر وجليل المفاخر مما يخلد ذكرها وقد استبدت بالتصرف الملوكى مدة سبع عشرة سنة حتى بعد أن تقلد أخوها طوطميس الثالث بالمملكة لم يزل فى يدها الحل والعقد نوعا الى أن ماتت واستبد أخوها بالملك الذى كانت تولته أغلب مدتها بوصف الاقتيات

(الملك طوطميس الثالث)

هو أخو الملكة أمنسة وجده طوطميس الاول بن آموتوفيس الاول استبد بعد

موت أخيه بسر برالملك وهو مشهور عند اليونان باسم موريس وهو الذى حفر بحيرة موريس المسماة بركة قارون التى تقدم ذكرها فى الكلام على البحيرات وقد علمت فيما سبق أن موريس اسم للبحيرة لا للملك وأن منشئ هذه البحيرة الملك أمونها وانها ليست من ملوك الدولة الثامنة عشرة كما ظهرت من الاستكشافات الجديدة ومع أن مدة حكمه كانت قصيرة لكن كان فيها ما ينظمه من كبار ملوك مصر أرباب الاعتبار والصيت والشهرة فانه لم يوجد من أحد من ملوك مصر ما آثر أكثر مما وجد له الا ما قل وكان يحب السلم والراحة و يألف تقديم الفنون والمعارف حتى قيل انه استحق أن يلقب بلقب الاكبر فقد بلغت مصر فى أيامه ما لا مزيد عليه من الاعتبار فقد كان فى داخلها قوة عسكرية أهلية منتظمة وآثار جليلة معظمة يوجد كثير منها بوادى المغارة وبمدينة عين شمس و بمدن منف وطيوة و بجزيرة أسوان و ببلاد النوبة وكذلك كما كانت مصر قوية فى داخلها صارت قوية فى خارجها بما حازته من الظفر بكثير من الملل البعيدة والقريبة فكان لها كمال النفوذ فى الممالك الاجنبية وكان ملكها حكما بين الملوك بقطع النزاع وحكمه قرين الاتباع وازدادت حكومته بفتوح بلاد السودان التى جال فيها كل الجولان يرسل اليها العمال والنواب وفى أيامه فتحت سفنه الحربية جزيرة قبرس واستمرت جنوده مدة سنوات تجول فى بلاد آسيا الغربية حتى قيل فى أيامه انه ساغ لمصر فى عصر هذا الملك أن تضع حدودها حيث شاءت لان مملكتها اشتملت على بلاد الحبشة والنوبة والسودان والشأم والعراق والجزيرة و بلاد الاكراد وقد طالت مدة حكم هذا الملك كفالة واصالة حتى بلغت سبعا وأربعين سنة فلما توفى انتقلت المملكة المصرية لحفيده أمونوفيس الثانى

(الملك امونوفيس الثانى)

يوجد اسم هذا الملك فى مبانى بلاد الكنوز وابريم والنوبة أكثر من وجوده فى مبانى مصر وذلك لانه اجتهد فى أن يستمر على تتميم ما نوى فعله والده فكان والده بعد أن شيد فى مصر العمائر العظيمة ابتدأ فى عمائر النوبة فأقام بتتميمها ابنه وكانت كثيرة ومع ذلك فيوجد اسمه على عمارات فى طيوة ومن

عمارانه أيضا هيكل الكلابشة الذى انهـدم بالحرب أو بطول الزمن وتجـدد فى عهد ملوك البطالسة ومن بعدهم تهدم أيضا وجدده الرومانيون و يقال ان حالتـه التى هو عليها الآن تدل على أنه لم يكمل وابتداء ملك هـذا الملك فى سنة ٢٣٤٥ وقيل غير ذلك وحكم خمسا وعشرين سنة وقيل لم يحكم الا عشر سنين وعشرة أشهر ولم يعلم مدفنه فى أى محل من الوادى الغربى من النيل ولم تميز تربته من تربة أسلافه ملوك الدولة الثامنة عشرة

(الملك طوطوميس الرابع ابن آمونوفيس الثانى)

تولى هذا الملك بعد أبيـه آمونوفيس الثانى واستمر على بناء الهيكل الذى كان شرع فيه أبوه وغيره من المبانى فى وادى حلفة ولكن مدة حكومته كانت كلها عبارة عن احتياطات عسكرية وتكميل فتوحات لاسيما فى آخرها وذلك لان حـدود مصر القبلية كان يخشى عليها من القبائل العاصية جهـة بربة لوبية و بلاد برقة حتى ان هذا الملك اجتهد فى قتالهم فى أواخر سنى ملكه وقد وجـد ما يدل على ذلك فى آثار بجهة الشلال مكتوب عليها ان هذا الملك انتصر نصرة عظيمة على أعدائه فى السنة السابعة من ملكه وكان ابتداء ملكه فى سنة ٢٣١٩ قبل الهجرة وحكم تسع سـنين وثمانية شهور وهذا هو المشهور

(الملك آمونوفيس الثالث)

هذا الملك هو ابن طوطوميس الرابع وولى عهده وهو من أشرف ملوك هـذه السلسـلة المصرية وله صيت عظيم فى الاقطار المغربية يسميه اليونان الممنون ويحكى أن ولادته وتربيته وأحواله وشؤنه كانت عجيبـة ومرسومة فى آثار مبانى لوقصر أبى الحجاج على وجـه غريب مضمونها ان رئيس الكهنة بشر أمه بحمـله فأحست بذلك عن قرب فلما وضعته بشرها أيضا بعظم ناموسه زيادة عن غـيره وأن يكون له ملك عظيم لم يسـبق لمثله وانه يملك ما بين الخافقين مشرقا ومغربا وشمالا وجنوبا فكان من شأن هـذا الملك أن بلغ من العظم ما بشر به الكاهن وغالب مبانى وهيا كل لوقصر أبى الحجاج و بيبان المـلوك من أعماله وآثاره وقـد غزا الغزوات لاسيما جهـة بلاد النوبة والسودان

واستمر فيها ولذلك تأله ولقب نفسه بلفظ هوروس يعنى شمس الربيع كما لقب نفسه بملك القطرين وصاحب المصرين ومولى الخافقين ومراده بالقطرين البحيرة والصعيد وبالمصرين منف وطيوة وبالخافقين المشرق والمغرب يعنى آسيا وافريقية وكان هذا الملك مهيبا فى زمن الحرب حسن السياسة فى زمن الصلح فقد امتدت حدود مملكته من الجزيرة الى داخل بلاد الحبشة وقد ملأ جوانب النيل بالآثار العجيبة والتصاوير الغريبة والهياكل والمعابد فمنها هيكل جبل البركل وهيكل الشلال الثالث وله آثار بجزيرة أسوان وبجبل السلسلة وبجهة طرة وبجهة منف وبجزيرة الطور وله زيادات فى هيكل الكرنك واضافات الى هيكل لوقصر مما هو مدفون تحت أسوار القرية ويقال انه هو الذى أنشأ على ميسرة النيل تجاه ناحية لوقصر معبدا من أعظم الآثار المصرية القديمة وقد تخرب الآن الا الصورتان المسميان الآن بالصنمات وهما عبارة عن صورة الملك أمونوفيس الثالث المذكور وكان فى الزمن الاول لم يلتفت الى هذه الصورة أحد فحصلت زلزلة فى سنة ٥٩٥ من الهجرة فأسقطت احدى التمثالين وبقيت قاعدته قائمة فى محلها وقد شوهد ان هذه القاعدة متى سقط عليها الندى وقت الصباح سمع منها صوت مستطيل عند شروق الشمس فكان يعجب من ذلك أرباب السياحة من اليونان والرومان فاعتقدوا أن صورة الملك أمونوفيس هذه هى صورة معبود المصريين الخرافى يبدى التحية عند طلوع الشمس الى الفجر ويودعه مع أن هذه أثر الندى وتأثير الشمس فى الحجر فهى خاصية طبيعية ومتى ظهر السبب بطل العجب وخلف عدة أولاد تولى منهم بعده ملك مصر ابن هوروس وكان ابتداء ملك أمونوفيس الثالث فى سنة ٢٣٠٩ وحكم ثلاثين سنة وخمسة شهور

ويقال انه قد تناوب كرسى المملكة المصرية من غير بيت الملك عدة ملوك معدودين فى جملة الدولة الثامنة عشرة خاملى الذكر آثارهم ليست بعظيم شئ ثم تولى الملك هوروس وبه رجع المنصب الملوكى لمستحقيه من بيت الدولة الثامنة عشرة كما تولى عليه أيضا من بعده افراد آخرون من أهله

الملك هوروس بن آمونوفيس الثالث وبنته المسماة

طماهوموت بنت هوروس

لما ظهر هذا الملك على سرير الملك قامت بمصر قيامات شديدة ومحن جديدة بسبب ما حصل من تبديل الديانة فى زمن أمونوفيس الرابع فانتقمت الاهالى فى شأن ذلك ومحوا آثار الملوك الذين انتزعت من أيديهم المملكة قبل هوروس من جميع الهياكل والمعابد بل تشبثوا بهدمها بالكلية وكان قد سبق من هؤلاء الملوك تأسيس مدينة جليلة بقرب تل العمارنة لتكون تخت ملكهم عوضا عن طيوة بالصعيد فجعلوا عاليها سافلها حتى انمحى أثرها مع أن ذلك كله جرى فى مدة الملك هوروس فلم يمنع من كونه كان ملكا حسن السياسة والرياسة لاسيما فى التمسك بديانة أهله فى ذلك الوقت فعادت المملكة فى أيامه الى ما كانت عليه أولا وبلغت من درجة العز والمجد مبلغا عظيما وبقى لها ما كانت حازته من الحدود البعيدة فى عهد الملك طوطوميس الثالث وكان هذا الملك آخر من أبلغ الديار المصرية من ملوك الدولة الثامنة عشرة أقصى درجة العمار والفخار فقد سار على سير أسلافه من الاجتهاد فى تجديد الهياكل والمعابد والقصور فى بلاد مصر ومضافاتها وأما بنته طماهوموت أخت رمسيس الاول فكانت عند موت أبيها رشيدة وكان أخوها رمسيس الاول ابن هوروس قاصرا فخلفته على الملك ولم يعلم بينها وبين أخيها أسماء من تولى من بعض الملوك الذى تنوه بذكرهم فيما سبق وكان ابتداء ملك هوروس فى سنة ٢٢٧٩ قبل الهجرة وكانت مدة ملكه وملك بنته معا ثمانية وثلاثين سنة وخمسة أشهر وهو آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة على قول بعضهم وقد أقامت على كرسى المملكة ٢٤١ سنة وبعض أهل التاريخ يجعل آخر الدولة الثامنة عشرة الملك رهاميرى فيزيد عدد السنين لهذه الدولة فيجعل مبدأ الدولة التاسعة عشرة سنة ٢٠٩٦ قبل الهجرة والاقرب للصحة ماذكرناه

(الفصل الثانى فى ملوك الدولة التاسعة عشرة)

هذه الدولة لم تزل مصر فى أيامها باقية على حالة حسنة من المجد والعز والاجتهاد فى الغزو وتوسيع البلاد وانما اعتراها فى أثناء هذه المدة بعض فتور فى الهمة

يعنى أنها كانت مهيبة تشن الغارة على غيرها من البلاد وتختص بحرب المهاجمة دون المدافعة فاعتراها فى خلال هذه المدة ان صارت تارة مهاجمة وتارة مدافعة عن نفسها

وأول هذه السلسلة الجديدة من الملوك هو الملك رمسيس الاول وآخر ملوكها رمسيس الثانى

(الملك رمسيس الاول ابن هوروس)

خلف أخته وأباه وسار على سير أسلافه وله آثار عظيمة فى مصر ووادى حلفة وصورته فى رواق صور الملوك بالصعيد بجانب صور أسلافه ولم توجد صورة أخته طماهوموت بين صور أسلافهما بوصف كونها ملكة ولعل ذلك أن المنصب الملوكى كان انتقل فى الحقيقة لاخيها الناصر رمسيس ومع ذلك فلم يستبد به الابعوتها لحفظت الاصول المصرية فى أوضاع التصاوير الملوكية ومن المحقق أن الملك رمسيس الاول غزا غزوة بجهة شمال الشام بميسرة نهر الفرات وجبل كورين والبحر المالح وهى البلاد المعمورة بطائفة الخيتاس عباد الصنم المسمى سوتيخ وهم أمة ذات بطش وقوة وهجم على عدة طوائف من حلفائهم من أهل آسيا وهو أول من تجاسر على ملاقاة طائفة الخيتاس والجولان فى بلادهم وكان ابتداء تولية هذا الملك سنة ٢٢٤١ قبل الهجرة وحكم تسع سنوات وخلفه ابنه منفطه الاول المسمى عند اليونان بالملك سيطوس الاول

الملك منفطه الاول المعروف عند اليونان باسم سيطوس الاول

الظاهر أن مدة حكومة هذا الملك كانت أيضا مما يجمل به تاريخ مصر فكيف وهو أبو رمسيس الاكبر وله من الآثار العجيبة الحظ الاوفر فمما يدل على عظمه ما يشاهد الآن فى المملكة المصرية بالوجه البحرى والقبلى من الآثار العجيبة وعلى البحر الاحمر وبلاد النوبة وقد نقل الافرنج من

غرائب آثاره مالا يحصى الى مدائنهم وزينوا بها تحف خاناتهم ففى الاقاليم الوسطى جهة بنى حسن الجديدة وبنى حسن القديمة آثار هيكل القمر الذى أسسه طوطوميس الرابع وأكمل بناءه منفطه الاول وبنى بجانبه معابد ومقابر مرسوم عليها اسم هذا الملك وكذلك جدد فى الصعيد الاعلى عند جبل السلسلة على الشاطئ الغربى من النيل معبدا منحوتا فى الجبل ولم يزل منه بقايا جيدة الصناعة كاملة الزينة تقتضى تقدم فن العمارة والنقش فى أيامه وله القاعة ذات الاعمدة الموجودة بجهة الكرنك التى هى من أبدع العمائر المصرية القديمة وتسمى بالقصر المنفطى نسبة الى هذا الملك ورشاقة هذا القصر تدل على أنه كان معدا لسكنى ملك صاحب شوكة عظيمة وثروة جسيمة ويقال ان سيطوس المذكور لم يتم هذا القصر وانما تممه بعده ابنه رمسيس الثانى ويقال ان هذا القصر يصلح أن يكون دارا للسكنى بحسب أوضاعه وأن يكون هيكلا للعبادة بحسب نقوشه وتصاويره ولهذا الملك أيضا هيكل للشمس فى محل يسمى الآن وادى المويه على البعد من النيل بيومين فى البرية التى على طريق القصير

ومما نسب اليه أيضا تقطيع أحجار الرصيف المصنوع الآن فى جزيرة اسوان وهو من آثار أحجار العمارات التى كان بناها هذا الملك فى هذه الجزيرة ونسب بعضهم اليه أيضا صنع المسلة العظيمة التى انتقلت من مصر الى رومة ووضعت بها فى ميدانها الاكبر ومن أعماله الهيكل الكبير الذى صار استكشافه أخيرا بالخرابة المدفونة وما يحتويه من التصاوير العجيبة وهذا الملك هو أول من حفر الخليج لتوصيل ماء النيل الى بحر القلزم وأول من فتح طريقا للقوافل توصل من اسنا الى معدن الذهب بجبل أتوكى حيث حفر فى الجبال عينا صناعية تنبع منها المياه دائما ولم يقصر مع تجديده فى العمائر العظيمة فى تحصيل سمو القدر وعلو الرفعة والشان للممالك المصرية وتوسيع حدودها فقد سار على سيرة جده طوطوميس الثالث وبنى على بنائه من توسيع الحدود المصرية كما يعلم من نقوش الكرنك فى مادة الحروب التى فعلها سيطوس فانها تفيد أنه أدخل بلاد السودان تحت الطاعة وحارب بلاد الشأم وانتصر بها وترك بقلاعها المحافظين من الجنود المصرية وغزا بلاد

آسيا وانتصر على الخيتاس والروتونو وهما قبيلتان عاتيتان وغزا كلا من مدينتي نينوى وبابل وسار بجنوده الى أقصى بلاد ارمينية وانتصر على أهلها ومن هنا يظهر أن بلاد آسيا الغربية التي كانت تحت طاعة الدولة المصرية ومعدودة من مضافاتها قبل الدولة التاسعة عشرة قد أخذت من أول عهد الملك سيطوس الاول ثاني ملوك الدولة المصرية التاسعة عشرة في الخروج عليها وعدم الانقياد لها ولا بد أن مصر من وقت خروجهم كانت تعاملهم معاملة البغاة العصاة عليها فلما بلغوا أشدهم وقويت شوكتهم صاروا للدولة مصر من أشد الاعداء وصاروا يتشبثون بالسعي في اضرارها بقصد التغلب عليها عند الفرصة فلهذا تجد كما سيأتي صدور ذلك منهم كثيرا وكانت وفاة هذا الملك سنة ٢١٩٩ وكان ابتداء ملكه في سنة ٢٢٣٢ وحكم اثنتين وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ودفن بعد أن قدماء الملوك المصرية بمدفنه الذي ابتناه لنفسه في وادي بيبان الملوك جهة مدينة طيوه ومدفنه هذا حسن الشكل من أبدع العمارات المصرية وهو تحت الارض يتعجب منه غاية العجب من جهة احكام البناء والتشييد وهندسة الرسم المهندم على وجه عجيب مع اتقان التصاوير الجيدة والنقوش المحكمة وتولى بعده منفطة الاول ولي عهده رمسيس الثاني بكري واديه

الملك رمسيس الثاني المشهور عند اليونان باسم سيزوستريس

يقال لهذا الملك رمسيس الاكبر لانه أعظم ملوك مصر سلطنة وقوة وشوكة وأبهة مع طول مدة حكمه التي كثرت فيها الآثار المصرية والعمائر الجسيمة حتى لا يكاد يوجد بوادي النيل أثر من الآثار القديمة والعمائر الفخيمة الا وعليها اسمه ورسمه كما سيأتي ذكر ذلك مع توسيع الفتوحات وجولان الغزوات وتجديد الاصلاحات وكثرة الترتيبات والتنظيمات الملكية والعسكرية

وكان هذا الملك في أيام والده مشتغلا بالحروب والغزوات وكان له مدخلية

عظيمة فى حماية الوطن ونصرته قبل أن يكون ملكا فاستحق بهذا عظيم الشهرة وبعد الصيت وأن يذكر بذلك فى صحف التاريخ لاسيما ما فعله من عظائم الامور بعد جلوسه على سرير الملك ويقال ان كاهن هيكل الشمس بشر أباه بأن ولده هذا يملك سائر بلاد الدنيا ولذلك لما آلت اليه المملكة المصرية اهتم بها كل مدينة منف المنذورة للشمس فشيدها ووسعها توسعا خارجا عن حد العادة وقد طال عمره وامتدت مدة ملكه وتناقلت مآثره وتواترت مفاخره وسارت بسيرة مجده الركبان فى سائر الاقطار والبلدان حتى بقيت سيرة ذكره الى عهدنا هذا والظاهر أنها تبقى مخلدة الى قيام الساعة فقد قص تاريخه قدماء المؤرخين ووضحوا مناقبه وعملياته الحربية والسلمية من آخر القرن الثانى والعشرين الى أثناء الثالث والعشرين قبل الهجرة وقالوا انه ملأ مشارق الارض بصيت فتوحاته وأرهب مغاربها التى كانت اذذاك خشنية بهيبة بأسه وسطواته وأغنى أهل وطنه ونعم بالهم وحسن احكامهم وقوانينهم ونظم أحوالهم وجدد عصره وأحيا مصره وقوى فيها البطش والشوكة وضرب الخراج على عشرين أمة استرعاها ومكن بذلك بلاده وملكه وابتنى المبانى الباقية المآثر التى لم تترك الاوائل من أمثالها شيأ للاواخر وقد ذكر المؤرخون أنه لم يسبق رمسيس الثانى أحد من ملوك الدولة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أعظم من طوطوميس الثالث الذى كان بينه وبين رمسيس الثانى ستة ملوك ورميس هو سابعهم وهم

١ أمونوفيس الثانى

٢ طوطوميس الرابع

٣ أمونوفيس الثالث الممنون

٤ هوروس بن أمونوفيس الثالث وبنته طماهوموت

٥ رمسيس الاول

٦ منفطة الاول

٧ رمسيس الثانى

ومما ذكره المؤرخون أن أباه سطوس كان يتوسم فيه من سن شبوبيته استعداده للحروب وممارسة الخطوب فأناطه بهذه الصناعة حيث آنس

منه المهارة والبراعة وانما مهد له تمهيدا عجيبا وأسس له تأسيسا غريبا مبنيا على ما كان مألوفا للطباع بحسب الازمان والبقاع من سلوك سبيل المغالاة فى تحصيل المجد والفخار وترك التساهل والمبالاة فى استحصال الشرف والاعتبار فجمع سائر أنداده من الصبيان المصرية المستوين معه فى زمن الولادة العصرية وجعلهم فى الساحة الملوكية ليصير ارضاعهم معه واجراء تربيتهم بالسوية لتكون التربية للجميع واحدة على كيفية يكون التساوى فيما بينه وبينهم غير متباعدة حتى يصيروا جميعا له من الانصار والاعوان عند ظهور الابان وحضور الاوان ويتخذ منهم وزراء الملكية وأمراء العسكرية فكان ذلك كله حيث تمرنوا مثله على العيشة المستصعبة وتعودوا على الحركات المتعبة فلم يكن عندهم من أقرب الاشياء الامشاق الحروب ومقاساة الخطوب ومن جملة تربية هؤلاء الغلمان أنهم كانوا يذهبون قبل تناول الطعام صباحا ومساء للتريضات البدنية والحركات الجثمانية ركبانا أومشاة ركضا أوهرولة وأنهم دائما كانوا يعملون فى تروضهم شوطا فسيحا وفى العادة جل تروضهم فى الصيد والقنص

وكان رمسيس المذكور من زمن شبوبيته فاضلا بارعا جدا متضلعا من العلم والحكمة حتى قيل انه تلقى سائر العلوم والفنون عن هرمس المثلث وهو ادريس عليه السلام وزعم بعضهم أنه تلقى عنه العلوم مشافهة فلعل من زعم ذلك يعتقد أنه تلقاها فى عالم الرؤيا أو عالم الالهام لاستحالة الاجتماع المتعارف لرفع ادريس الى السماء وتأخر زمن رمسيس وانما الظاهر أنه اقتبس تلك العلوم من كتب هرمس المثلث بالتلقى والتلقين من أحد الهرامسة المصريين وقد دلت كتب اليونان على أن هرمس الهرامسة المثلث هو ادريس عليه السلام وهو مصرى المولد وأنه أول من وضع العلوم والفنون والسياسات والتدابير والحروب والصنائع وله رموز عجيبة وأسرار غريبة ومعارف كلية وجزئية وما ينقل عنه الى هذا العهد من الاقوال والروايات معتقد الصحة مقبول للعقول ومألوف للنفوس قال بعضهم كانت عادة المصريين من قديم الزمان أنهم اذا اخترعوا شيأ من المعارف النفيسة والحكم الرئيسة نسبوه الى هرمس المثلث ليسهل تلقيه من عامة الناس بالقبول وليثق به الجميع كمال

الوثوق

الوثوق فيما اشتمل عليه من الفروع والاصول ولعل مثل هذا معهود في الاعصر الحديثة

ولما ترعرع رمسيس الثاني في حياة أبيه وكان قد تربى في حجر الشجاعة والحماسة والرياسة والسياسة وتعود على اقتحام مشاق الصيد والقنص في الفلوات الواسعة وعلى مواثبة الوحوش والجوارح في الجهات الشاسعة جعل أبوه يعلمه اقتحام الاخطار والوقائع فأرسله أول مرة لغزو بلاد العرب فتعود في هذه الغزوة الصعبة على تحمل الظما والجوع وهيهات هيهات الرجوع فأدخل العرب تحت الذل والخضوع فانقادوا لشوكة الدولة المصرية ولم تكن العرب قبله انقادت لملك من الملوك الاولية بل ولا كانت قابلة للانقياد والطاعة لنفورها عن التأنس ومخالطة الجماعة وقد اقتحم مع هذا الشاب العقبات الحجازية من اشترك معه في التربية من الفتيان المصرية فكانوا له أعظم أعوان وأنصار وعادوا معه مظفرين بالنصر الى الاوطان مع بلوغ الاوطار فلما تحقق منه أبوه دلائل الظفر والنجاح وأيقن ان اجتهاده في الجهاد مقرون بالفلاح سيره الى جهات المغرب فاستولى على برقة وغيرها من بلاد افريقية وصيرها مضافة الى الديار المصرية ثم مات أبوه عقب ذلك وتركه أهلا لتدبير الممالك فقام بأعباء الملك الجسيمة وأضمر على توسيع ممالكه بالفتوحات العظيمة وتعلقت آماله بتسخير الممالك المعمورة فجند الجنود المؤيدة وجيش الجيوش المنصورة وشرع في التغلب على الاقطار السودانية فاستولى عليها وضرب على أهاليها خراجا مقدرا يدفعونه كل سنة من الابنوس وسن الفيل والذهب ثم بعث الى البحر الاحمر بعمارة سفن تنيف على ثلثمائة سفينة حربية فاستولت على سواحل هذا البحر وجزائره ومدنه وثغوره وعلى جزائر بحر الهند ومع تجهيز هذه الغزوة وجعلها تحت رياسة أمرائه جهز في آن واحد غزوة أخرى برية مقارنة لها اجمع فيها أبطال رجاله وفحول أجناده وقادها بنفسه وسار بها الى بلاد آسيا فاستولى عليها وجال فيها حتى دخل بلاد الهند وعبر نهر الكنك ووصل من داخل أرض الهند الى البحر المحيط الهندي وكذلك جال في طوائفه حتى دخل بلاد التتار وسار حتى وصل الى نهر طونة واجتازه واستولى أيضا على جزائر بحر الروم عنده ودخل بعض ممالك أوروبا وبعض روم ايلي

وهى آخر جولاته وسلك فى فتوحاته مسلك الحلم مع المنهزمين والصفح عن الجانين والعدل مع الامم المغلوبين فلم يضرب عليهم الخراج الا بحسب ميسرتهم فمن هذا يفهم أن جولانه فى البلاد وتسخيره للعباد كان يفوق ماوقع من ذلك للاسكندر الرومى حيث ان اسكندر المذكور لم يصل الى ماوصل اليه رمسيس وقد تمت هذه الغزوة فى ظرف تسع سنوات وانما يؤخذ من هذا كله ان البلاد المجاورة لتلك الاقطار التى فتحها كانت مستعدة للطاعة والانقياد وان تلقى اليه مقاليد ممالكها حيث علمت بأسه وبطشه وأنها لاتقدر على مقاومته فلهذا سهل أخذها وكان كلما فتح مملكة من الممالك واستولى على دولة من الدول وخضعت له أمة من الامم أبقى فيها فرقة من المصريين ليستوطنوا فيها وينشروا بها أخلاقهم وعوائدهم لتكون علامة ظاهرة ودلائل باهرة تبقى على ممر الايام وتداول الاعوام حجة على نصرته وبقاء ذكره وربما شيد فيها أعمدة جليلة وأبنية جميلة ورسم فيها عبوره بتلك البلاد ونقش عليها تاريخ استيلائه على الامم والعباد ولازال بعض هذه المآثر باقيا الى الآن فى بعض الممالك دالا دلالة بينة على ذلك

فقد حكى المؤرخ هردونس أنه رأى فى سياحاته بآسيا أعمدة مكتوبا عليها بالقلم البربانى قد فتح ملك الملوك وسلطان السلاطين بسيفه مملكة كذا وكذا وكان رمسيس يأخذ بعض البلاد عنوة وبعضها صلحا ومع أنه أكثر من الفتوحات فى افريقية وآسيا وبعض أطراف أوروبا كان لايخطر بباله فتح داخل بلاد أوروبا لانه كان يعلم علم اليقين تعذر الميرة والعدة فى هذه الاسفار الطويلة وأنه لايتيسر له الحصول على الامداد ولا الذخيرة فلهذا لم يتصد لغزو تلك الجهات

وقد أفاد التاريخ ان طبع هذا الملك الفاتح كان يخالف طباع غيره من الملوك المتهورين والسلاطين الفاتحين وذلك أنه لم يكن متولعا الا بمجرد محبة الظفر والغنيمة وهزم الاعداء والانتصار على الممالك بقصد شفاء الغليل والتلذذ بغلبة الاعداء من أى قبيل وكان مدار رغبته على أن تنقاد البلاد والعباد لسطوته وتخضع لعزته وان تنتسب اليه وتعترف له بالولاء والسيادة وتدفع له الخراج والجزية ولم يكن متطلبا لها المزية أن يحكمها بنفسه

ولا

ولا الفضيلة أن ينشر فيها أحكام الديار المصرية وسياساتها فكانت فتوحاته اسم بدون جسم وغرس أشجار بدون أثمار ولذلك لما جال غاية جولته وصال نهاية صولته وفرغ من التغلب واستراح وعاد الى مملكته وأغمد السلاح دخل فى ميدان حوزته الاصلية وانزوى فى زوايا الاقطار المصرية ولم يسر حكم مصر فى الحقيقة الا على بعض بلاد مجاورة لها ولم تستمر البلاد الخراجية على دفع ما تقرر عليهم من المرتب لخلفاء هذا الملك الا نحو أربعة أجيال فامتنعوا من دفعها وآل أمرها الى الابطال ولما عاد رمسيس الثانى الى مملكة مصر زين هياكلها وأتحفها بنفائس الغنائم وبسط ما أهداه وأسداه الى المعابد من هذه المكاسب الوافرة مما عاد على جميع الاهالى بالثروة والغنى ثم صرف همته بالكلية والجزئية الى اصلاح وطنه وتنظيمه وتكميل رفاهيته فشرع فى تشييد المبانى العجيبة التى لا تدرك محاسنها الا العقول الذكية والافكار الجلية ولا تزال تتأمل فيها عقول السلف على ممر الدهور والاعصار لتكون دالة على فخار بانيها ومذكرة له أعظم تذكار ولتكون مأثرة مخلدة الآثار

فقد جدد هذا الملك فى مصر ما يقتضى السعادة والسيادة والامنية وحفظ الحقوق للرعية المصرية وكان فى بنائه الهياكل والمعابد يراعى معتقد المصريين بل معتقد كل كورة من كور مصر وكل مدينة من مدائنها وجعل عملية هذه المبانى والصناعات على المستعبدين الذين سباهم وأسرهم فى الغزوات وجعل معظم همته فى تحسين مدينتى مصر العظيمتين وهما منف دار المملكة وطيوة دار الديانة

وقد شيد هذا الملك بيد الاسرى ما يلزم من الجسور والقناطر والترع والخلجان ورفع الاراضى المنخفضة التى يفسدها فيضان النيل ونقل المدن المنخفضة من محالها وحولها الى ربوات وهضبات وتلال عالية حتى لا يكون للماء سلاطة على العمران ولا على الانسان والحيوان فقد يشاهد الآن أن بجهة أبوقصر أبى الحجاج وما حوله قصورا مبنية على تل صناعى مرتفع فوق المزارع ولا ازال باقيا من زمن هذا الملك الى وقتنا هذا

وما صنعه من الترع والخلجان منه ما هو خارج من النيل بالقرب من مدينة

منف متواصل الى البحر المالح بقصد تسهيل التجارات بتوصيل الارزاق من اقليم الى آخر ومن مدينة الى أخرى مع قصد منع اغارة فرسان البلاد المجاورة لتلك الناحية اذ كانت عادتهم الهجوم على مصر من تلك الجهة وكذلك كما حصن الجهات الغربية حصن الجهات الشرقية بالقلاع والحصون لمنع هجوم أهل الشأم والحجاز

ويقال ان هذا الملك حين رجوعه من غزوته الجسيمة جاء اليه أخوه لاستقباله فى مدينة تنيس وأظهر أنه يهنئه وأبدى له البشاشة والفرح فأحسن الملك فيه ظنه ولم يعتقد أن أخاه يظهر خلاف ما يبطن وفى الحقيقة أضمر أخوه له السوء والهلاك فأضرم النار فى قصر هذه المدينة وكان الملك وعائلته لا يشعرون بذلك فحين أحسوا بالحريق فر الملك من هذا الخطر العظيم ونجا بنفسه وعائلته ويقال ان أخا الملك الفاعل لهذه الفعلة هو ما يسمى عند اليونان دانوس المصرى المعلوم الهجرة الى بلاد اليونان وأنه انتجع اليها وأسس فيها القبائل المصرية فى آخر القرن الثانى والعشرين قبل الهجرة ويؤيد هذا أن هذا التاريخ موافق للقرن الذى عاد فيه رمسيس المذكور من غزوته ويعضد هذا القول أيضا ما حكاه بعض المؤرخين من أن دانوس هو عين أرمايس أخى رمسيس وأنه ركب سفينة من مصر مع فرقة مصرية وهاجر الى موره وعمر بلاد اليونان ومدنها وخالف ذلك بعض المؤرخين وقال ان دانوس هذا ليس من أبناء ملوك الدولة التاسعة عشرة ولا من اخوة رمسيس الثانى وانما هو من عائلة الملوك الرعاة المحاربين للدولة المصرية المتأصلة فى الحقوق الملوكية وأنهم لما ضيقوا على أمراء الملوك الرعاة وأخرجوهم من مصر وشتتوا شملهم هاجروا تحت رياسة دانوس المذكور وقيل انه من أبناء بنت ايناخوس المصرى الذى كان فر من مصر مع فرقة عربية من عرب العمالقة الى صور فتزوج منها وأعقب بنتا ببلاد الصور ولدت دانوس المذكور ثم هاجر ايناخوس الى بلاد اليونان وتقلد ملك أرغوس وهو اقليم فى موره فلما انتقلت المملكة الى أولاده وأولادهم وكان دانوس من ذرية بنته ارتحل الى مملكة أرغوس يتطلب أيضا حقوقه ووراثته فى ممالك جده ومن هنا يعلم أن بلاد اليونان تمدنت ممن هاجر اليها من الديار المصرية فى أزمنتها الاولية وأن

اليونان انما هى بنت مصر لان القبائل المصرية الذين تمكنوا فيها بالمهاجرة انتشروا فى سائر بلاد الروم ومدنوها فلا شك ان مصر حرية بتسميتها أم الدنيا ثم انه حدث فى بلاد اليونان بعد المصريين قبائل صورية وكنعانية كملوا تمدنها ومكنوا عماريتها ثم أقبل عليهم أمير من البلاد التتارية القريبة من الجبال الجركسية مع عشيرته فانتشروا بها الا أن الفضل للمتقدم كما هو معلوم

ثم ان رمسيس الثانى مع ما كان عليه من العظم والفخار الذى عرف به فى جميع الاقطار قد أطفأ نورانية فتوحه العجيب وكسف كوكب شمس نصرته وشمس بهاء تدبيره الغريب شغفه بالفخار العاطل وولوعه بالتعاظم الباطل وسلوك سبيل الكبر الذى لا جدوى له ولا تحته طائل وذهوله عن أنه من البشر واستهزاؤه بالملوك الاسرى لمجرد البطر والاشر ولولا ذلك لكان بالنسبة لقدماء الملوك كالمصباح وكشروق الشمس فى الاصباح ولكان منظوما فى سلك كبراء الابطال وأمراء فحول الرجال وعلى كل حال فهو طراز تيجان الملوك المصرية وعصابة اكليل السلاطين المشرقية ولو أنه حدث منه نادرة تنفر منها الطباع وتمج ذكرها الاسماع وهى ما قيل عنه انه بلغ من الكبر والسخافة أنه كان اذا ركب فى موكب أو محفل الى معبد أو هيكل أو موسم أو زينة وأراد أن يشق المدينة وكان عنده بعض من الملوك والامراء والرؤساء والكبراء ممن حضروا ليؤدوا الجزية المقررة أو لاداء التشريفات فى أدوار معتبرة مقدرة فانه كان يغتنم فرصة هذه المحافل الموكبية ويربطهم كالخيل أربعة أربعة ليجروا العربية ويعتقد أن هذا من قبيل الطنطنة وعنوان على شوكة السلطنة وفى غير هذه الحالة قبل الموكب وبعده يحسن الصنيع معهم ويبذل فى اكرامهم وتلطيفهم ما عنده فلا يصلهم لديه من الهوان الا جرعة لاظهار علو الشأن فى هذه الاحيان

عوقب فى آخر عمره بالاهانه ولم يساعده الدهر على حسن العقبى ولم يكمل معه فى ذلك احسانه بل كف بصره وضاع بذلك حظه وفقد أنسه فقتل بنفسه نفسه ليريحها من العناء وسكن رمسه وما فارق الدنيا الا وترك مصر فى غاية الثروة والغنى والسعادة والهنا وكل انسان من أهلها شاكر لصنيعه

حامدلفعاله ولم تنل مصر من أحد من خلفائه ما نالت من فضاله
قال بعضهم انه حكم مصر ثلاثا وثلاثين سنة وقال آخرون ان مدة حكمه
طالت حتى بلغت سبعا وستين سنة وقيل بلغت ثمانيا وستين سنة واشهرا ومايدل
على طول عمره وصحة استطالة مدة حكمه أنه لما تغلبت على مصر دولة العجم
وخرجت الحكومة المصرية من يد الدولة الاهلية وكان فى رواق الصور
الملوكية المصرية بطيوة بالصعيد صورة رمسيس الاكبر أراد دارا ملك العجم
المتغلب على مصر أن يضع صورة نفسه فى هذا الرواق فوق صورة رمسيس
المذكور وكان ناموس رمسيس لم يزل محفوظا عند أهل مصر لا يعلوعليه
ناموس أحد من كبار الملوك مع تقادم عهده فغضب جميع الناس من قصد دارا
لاسيما رئيس الكهنة المحافظ على تلك الصور وقال للملك دارا لايجوز لاحد
من الملوك أن يعلوعلى رمسيس الاكبر الالمن ساواه فى المآثر والفضائل
وصنع لمصر من الصنائع والمنافع نظير ما صنعه هذا الماجد الفاضل فلم يغضب
دارا من هذا القول الاليم بل أجاب الكاهن بالرضا والتسليم ووعد أنه ان
عاش عمر رمسيس ليجتهدن ويفعل لمصر من المحاسن ما فعله ذلك الملك الكريم
حتى لايكون دونه فى المقام لتستحق صورته ان ترقى مرقى الاحترام
فمن هذا يؤخذ أن رمسيس المذكور طالت مدته على سبيل السلطنة والافلا
معنى لرجاء دارا أن يعمر مثله ولا فائدة فى انتظاره طول المدة فى السلطنة ولا
لوعده بفعل مايقتضى المظهرة والطنطنة لاسيما وأن دارا المذكور لما وصل
الى مصر كان فى السنة السادسة والثلاثين من تملكه على العجم فرجاؤه طول
مدة فى الملك على مصر كمدة رمسيس يدل على أن رمسيس تملك عليها من أيام
الشبوبية الى بلوغ الشيخوخة والهرم ويؤيد ذلك أيضا ما سبق ذكره من
كثرة العمارات الجسيمة التى تستدعى المدة المديدة وكان يستعمل ابناء
العمارات العمومية على العادة المصرية الاسرى العديدين الواردين اليه
من الحروب ووفود الغرباء الواصلين الى مصر من بلاد آسيا للاستيطان بوادى
النيل الجيد الخصوبة السهل المعيشة المكرم للاغراب فكان هؤلاء
الاجانب يقومون بالاشغال والخدم فى نظير ما يعود عليهم من المنافع وقد نص
التوراة على ان بنى اسرائيل استعملهم فرعون المسمى رمسيس فى بناء مدينة

فى شمال مصر تسمى مدينة رمسيس

ثم انه قبل تولية رمسيس كانت امتدت أنظار الاعراب الطائعين لمصر أن يخرجوا عن الطاعة وينفصلوا من الجماعة فتحركت الفتن فى بلاد السودان على مصر وقاموا على ولاتها ونوابها وحاربوهم وانتصر عليهم ولاة مصر وعمالها النصرات العديدة البالغة النهاية فى ذلك العصر بدليل تصاوير كيفيات تلك النصرات المتواترة الصادرة عن أمراء الجنود المصرية وهزمهم لرؤساء العصاة السودانية وكذلك فى أثناء تلك المدة هجم على ديار مصر من بلاد المغرب من جهة برقة أقوام كالجراد المنتشر زرق العيون شقر الشعور فكان يخشى على الاقاليم الجنوبية منهم فدفعهم الجنود المصريون دفعا عنيفا وقد أسلفنا أنه غزا برا وبحرا بلاد آسيا وسخر كثيرا من الممالك والاقاليم التى أضافها البلاده ونقول هنا البيان ذلك أنه لما حصلت من أقوام آسيا حركة مثل حركة المغرب وتحالفت قبيلة الخيتاس مع عشرين قبيلة من آسيا وكان جميعهم أرباب شجاعة فى الحروب واقتحام الخطوب يحاربون على العربات والخيل وتحزبوا جميعا على الديار المصرية قاتلهم رمسيس الثانى مدة ثمانى عشرة سنة وكان الحرب بين الفريقين سجالا فى تلك المدة فصالحهم بمشارطة فيها المزية للجانبين وفى أثناء هذه الغزوة الطويلة المدة أبدى رمسيس الثانى بمرأى ومسمع من جنوده براهين الشجاعة الشخصية والبسالة الذاتية ما استحق به المدح من شعراء زمانه وأدباء عصره وأوانه بقصيدة وجدت مكتوبة على أسوار جهة الكرنك بالصعيد وعلى الوجهة الشمالية من باب هيكل لوقصر الكبير تاريخ هذه القصيدة فى شهر أبيب من السنة الخامسة من حكم هذا الملك

وبيان هذه الواقعة أن الملك بينما كان يجد السفر مع جنده صوب مدينة آنس اذ قابلهم جماعة من أهل البادية المنتصبين فى الطريق لاستطلاع أحوال جيوش مصر من طرف قبيلة الخيتاس أعداء المصريين فأضلوهم السبيل ووقع رمسيس وجنوده فى ورطة كمين واحتاطت به على حين غفلة جيوش الخيتاس والمتعصبين معهم ففر من كان حول هذا الملك ونجا بنفسه فوقع وحده بين أعدائه فقال الشاعر يحكى الواقعة ان حضرة الملك نهض وهو فى

غاية الصحة والسلامة واعتدال المزاج لم يبال بشئ كأنه اله ذو بطش شديد فلبس عدة الحرب فى الحال وتهيأ للطعن والنزال وانساب بعربته فى صفوف الجموع وهجم على بنى خيتاس وحده وبذل فى اقتحام الوغى جهده بمشهد من جميع الاتباع والخدام فى وسط ألفين وخمسمائة عربة حربية من شجعان الخيتاس والعصبية والقبائل المتكاثرة والعشائر المتظاهرة وكان على كل عربة من عرباتهم ثلاثة من المحاربين ولم يكن مع حضرة الملك أحد من عشيرته ولا من أمراء دولته ولا من قواد جنوده ولا من العساكر الرماة ولا من عساكر العربات فتوجه الى معبوده واستغاث بمولاه قائلا يخاطبه تركنى وحدى جند الرماة والفرسان ولم يبق معى ممن يشد أزرى أو يعضد ظهرى فماذا يريد مولاى فهل أنا عاص استحق العقاب مع أنى لمولاى سميع مطيع أعمل بما أعلم من الامر بقدر ما استطيع وأقوم بحقوق المشاعر واظهار الشعائر واملأ بيوت العبادة من غنائم الاعدا وأتقرب الى المعبود بالقربات التى لا تحصى عدا وقد أكثرت من المعابد والهيا كل وذبحت ألف ثور قربانا مزينة بالزهور الطيبة الرائحة وقد شيدت الهيا كل الجسيمة واقتطعت لها الاحجار العظيمة وغرست فى المعابد الاشجار المخلدة وندرتها لتكون مآثر مؤبدة وأحضرت من جزيرة اسوان للمولى المعبود أحجار المسلات الشامخة وأجريت السفن فى البحار الزاخرة لجلب غنائم الملل الى الهيا كل الباذخة فها أنا يا الهى أدعوك وأنا بين أقوام كثيرين لا أعرفهم وأنا فى حضرتك وحدى فاقد الجندى تركنى عساكر الرماة وفزعنى الفرسان الكماة وقد دعوتهم فما أجابونى واستغثت بهم فما أغاثونى وأنت أولى بى من الجنود الرماة والفرسان وأحق بنصرتى من الابطال والفتيان فانصرنى على العدد الكثير والجم الغفير

ثم أجاب الشاعر فى قصيدته بكلام عن مولاه أنه لبى دعوته وقبل رجاه فقال

سمعنا يا رمسيس نداءك وقبلنا رجاءك فأنا منك قريب وسميع مجيب آخذ بيدك وأقوم بسعدك وأنا خير لك من الآلاف المؤلفة والاعداد المؤتلفة ومتى كنت بين عربات القوم ولو كانوا ألفين وخمسمائة عربة ذهبوا منهزمين

بالحرب والويل واندا سوا تحت سنابك الخيل وضعفت قلوبهم بين جوانحهم واسترخت أعصاب أعضائهم وجوارحهم فلا يفوقون سهما ولا يهزون رمحا سأغرقهم فى الماء ينغمسون فيه كما ينغمس التمساح ولا يستطيعون الى السباحة من براح بل يزاحم بعضهم بعضا ولا يستطيعون نهضا ويفنى كل منهم صاحبه بالمهاجمة والمواثبة ولقد تعلقت القدرة بأن لا يلتفت أحد منهم خلفه ولا امره ومن وقع منهم هلك ومن هوى فلا يجد له مسلك

هذا ما قاله الشاعر على مقال المولى وقال فى هذه القصيدة على لسان سائس ركاب الملك الذى رأى صفوف الاعداء متزاحمة مخاطبا الملك يا أيها السيد العظيم والملك الكريم حامى حمى مصر يوم النزال قد بقينا وحدنا بين صفوف الاعداء فى ميدان القتال فهلا مهلا والنجاة النجاة عسانا ننقذ نفوسنا والمهج وماذا يكون العمل والخروج من الضيق والحرج فاجابه الشاعر على لسان الملك قو جاشك ولا تفقد انتعاشك فانى سأنقض عليهم انقضاض العقاب الكاسر على الغنيمة وأطرحهم فى التراب طرح الرمة الرميمة ثم هجم رمسيس عليهم حينئذ بعربته وحمل عليهم بقوته ست مرات متواليات فقهر رجالهم وهزم فى كل مرة أبطالهم فاجتمع حوله قواد عسكره وفرسانه ولم يشهدوا الوقعة الاولى ولا كانوا من أعوانه فجمع بهم شمله وصفهم حوله وقال لهم لعمرى قد احتد عليكم قلبى واشتد عليكم غضبى هل منكم من أدى مفروض الوطن وحمى الحمى والسكن ولولم يثبت فى هذا الميدان قدمى لثبت عدمكم وعدمى ولا زال يوبخهم الشاعر على لسانه ويطنب فى ذكر أصناف مضمار الحرب وميدانه ويذكر الشاعر فى قصيدته مقالة الجنود للملك وما أجابوا به عن خطابه ومدحهم له بأنه بمفرده سد عنهم فى قتال الاعداء مكاره الحرب بغلق أبوابه وأن ما فعله يعجز عنه البشر حتى نظمه الشاعر فى سلك الالوهية حيث ظهر على أعدائه بأعجب مظهر ولعل مسند الالوهية كان فى تلك الازمان من المساند النسبية يعنى كاقطاب الازمان الاخيرة وأرباب الاحوال والكرامات الشهيرة والا فعقلاء المصريين وحكماؤهم يشاهدون موت من تألهه بنفسه أو الهوه للتهويل والتفخيم فلا يظن بهم أن معتقدهم فيه أنه متصف بمنصب الالوهية العظيم

فقدمات رمسيس الثانى بعد أن حكم ثمانيا وستين سنة وشهرين وكان ابتداء ملكه سنة ١٩٩٢ قبل الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وبعض الاستكشافات الجديدة تدل على أنه كان موته فى نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الهجرة ويقال انه حين مات خلف مائة وبعض ولدا منهم تسعة وخمسون ذكورا ولعل هذا من باب المبالغة من المؤرخين المتقدمين كما أنهم بالغوا فى غزواته واتساع دوائر فتوحاته حتى انهم نسبوا اليه وحده من الوقائع الحربية ما حصل من ملوك عديدة كالملك طوطوميس الثالث والملك سيطوس الاول والملك رمسيس الثالث وكل هؤلاء لم يكونوا دونه فى الشهامة والفخار ولا فى نباهة الذكر وكثرة الآثار حتى ان بعض المؤرخين نسب هذه الوقائع لرمسيس الثالث وقال هو الذى يسمى سيزوستريس وقد علمت ما عليه أكثر المؤرخين ثم ان الذى خلف رمسيس الثانى الاكبر من أولاده الكثيرين هو ثالث عشر أولاده الذكور المسمى منفطة

(الملك منفطة الثانى)

هذا الملك يسمى أيضا فاران أو فرعان ويقال له أيضا فرعون وانما سمى منفطة لكون جده كان يسمى بذلك وكانت عادة ملوك مصر الجارية عندهم أن يلقب الملك منهم بلقب جده ولهذا الملك عمائر وما آثر كثيرة فى الديار المصرية كاسلافه وقد حكم خمس سنوات وأعقب ثلاثة أولاد تولى البكرى منهم الملك وسمى منفطة الثالث كما سيأتى ويقال ان فى مدة حكمه كان خروج بنى اسرائيل من الديار المصرية مع موسى عليه السلام من بعد ما حصل من المعجزات المذكورة فى التوراة وفى القرآن الشريف فهو على هذا هو فرعون الذى أغرقه الله تعالى فى بحر القلزم ولا يمنع من ذلك وجود قبره فى ضمن القبور الباقية الى الآن بالجهة المعروفة بباب الملوك بالصعيد لان وجود القبر لا يدل على وجود مقبور فيه فكثيرا ما تجد فى بلدة مشاهد على اسم افراد ومدفنهم الحقيقى فى غيرها من البلاد فان من الجائز أن فرعون بنى لنفسه مدفنا ولم يدفن فيه ويدل على هذا أن الملك منفطة الثانى لما مات خلف ابنة يقال لها طوسير وخلف ابنا قاصرا تسمى فيما بعد منفطة الثانى وأن هذه الملكة

بسبب قصور أخيها تولت المملكة المصرية وتزوجت بأمير يقال له صفطا منفطا ومعناه ابن النار أو عبد النار ولنوضح قضية غرق فرعون فى ترجمة هذه الملكة

(الملكة طوسير بنت الملك منفطة الثانى)

تولت هذه الملكة حكومة مصر بعد أبيها منفطة الثانى وكان زوجها المسمى صفطا منفطا يلقب ملكا وفرعون تبعا لها ولذلك وجدت مقبرة الملكة طوسير مع مقابر أسلافها من الملوك الذين تولوا مصر مذكورة فى سلسلة الملوك دون زوجها مع أن زوجها مدفون أيضا بمقبرة قريبة من مقبرتها وانما لم يدفن مع الملوك ولم ينتظم فى سلسلتهم لانه لم يكن من العائلة الملوكية فزوجته هى الملكة ومن السلسلة وانما استولت على المملكة لكون أخيها كان قاصرا

وكان ابتداء ملكها قبل الهجرة بنحو ألفى سنة وحكمت تسع عشرة سنة وستة شهور ومن ضمن هذه المدة حكم أخيها منفطة الثالث الآتى هذا كلام المؤرخين فى حق هذه الملكة وهو يؤيد قضية غرق فرعون ونجاة بنى اسرائيل ويدل على أنها كانت فى زمن هذا الملك وبعض المؤرخين من أهل أوروبا قال ان هذه الواقعة حصلت فى زمن رمسيس الثانى وزعم بعضهم أنها كانت فى زمن أبيه منفطة الاول والاكثر من المؤرخين أنها فى زمن فرعون ابن رمسيس الاكبر المسمى عندهم فرعان ويقال له أيضا آموخوريس وهذا الاختلاف انما هو فى خروج بنى اسرائيل من مصر لا فى غرق فرعون ومع ذلك كله أيضا فكل يبنى خروج بنى اسرائيل على حسابات تقريبية واستنباطات اجتهادية يسلك فيها مسالك مؤرخ فيطبق الوقائع لعلها تطابق التوراة لان قصة بنى اسرائيل وغرق فرعون لم تستفد الا من الكتب السماوية يعنى من التوراة والقرآن الشريف وتواريخ مصر القديمة لم يكن لها الا منبعان يستنبط منهما الوقائع المصرية وهما الكتب السماوية أيضا واسترابونس وأمثاله فاما استرابونس وأمثاله كهيرودوت فلم يتعرضوا لغرق فرعون ولا لنجاة موسى على الصفة المذكورة فى القرآن والتوراة مع اعتماد المؤرخين لما فى الكتب السماوية من التواريخ القديمة المصرية فما كان

واقعة بنى اسرائيل فى نجاتهم الاقصة ينتحل لها مؤرخو اليونان أدنى شئ يدل على تفسير كلام الكتب السماوية حتى يؤولون جميعا انفلاق البحر بحادثتى المد والجزر الدوريين و ينكرون غرق فرعون موسى و يجعلون ان هذه الواقعة على فرض صحتها لم تكن واقعة رسالة ولا ايمان وانما هى واقعة سياسية واقتضا آت ملوكية استدعاها اتحاد بنى اسرائيل بالملوك الرعاة المغتصبين لمصر وانضمام بنى اسرائيل الى من بقى من طوائف هؤلاء الملوك وأن ملوك مصر المتأصلين انما ضربوا على الاسرائيليين الاسترقاق والاستعباد لاضعاف ناموسهم حتى لا يستطيعوا مساعدة أهل الحجاز والشأم ممن مطمح نظره الاغارة على مصر وانما قسيسو الاوروباويين يذكرون الغرق على وجه مجمل تبعا لعبارة التوراة مع أنه بالتفحص يفهم غرق فرعون مما أسلفناه بانضمامه الى ماذكره مؤرخو العرب

فبتلاوة عبارة من عبارات المقريزى ومقابلتها بتاريخ منفطة و بتنه طوسير يكون غرق فرعون مصر قطعيا ونص عبارة المقريزى

قال ابن عبد الحكم لما أغرق الله آل فرعون بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق بها الا العبيد والاجراء والنساء فاتفق من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا وأجمع رأيهن أن يولين امرأة منهن يقال لها دلوكة بنت ذباو كان لها عقل ومعرفة وتجارب وكانت فى شرف منهن وموضع وهى يومئذ بنت مائة وستين سنة فخافت أن يتناولها الملوك فجمعت نساء الاشراف وقالت لهن ان بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد ولا يمد عينه اليها وقد هلك أكابرنا وأشرافنا وقد ذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم وقد رأيت أن أبنى حصنا أحدق به جميع بلادنا فأضع عليه المحارس من كل ناحية فانا لا نأمن أن يطمع فينا الناس فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها المزارع والمدائن والقرى وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة فيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل وجعلت على كل محرس رجالا وأجرت عليهم الارزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالاجراس فاذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم الى بعض الاجراس فيأتيهم الخبر من أى وجه كان فى ساعة واحدة فنظروا

فى ذلك فبنعت بذلك مصر ممن أرادها وفرغت من بنائه فى ستة أشهر وهو الجدار الذى يقال له جدار العجوز بمصر وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة فلكتهم ثلاثين سنة انتهى وقوله لم يبق الا الاجراء والعبيد لعله من الدوائر الملوكية لا من عموم أهل مصر وقال المقريزى فى محل آخر أيضا قال ابن عبد الحكم ولما أغرق الله فرعون بقيت مصر بعد غرقه ليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق الا العبيد والاجراء والنساء فأعظم أشراف من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا وأجمع رأيهن أن يولين امرأة يقال لها دلوكة فلكت دلوكة بنت ذباء ويقال دلوكة بنت فاران وكان لها عقل وتجارب ومعرفة وكانت فى شرف منهن وهى يومئذ بنت مائة وستين سنة فبنت جدارا حصنت به مصر من الاعداء وكان بناؤه فى ستة أشهر وهو حائط العجوز انتهى ملخصا

ويؤيد كلام المقريزى ما سبق ذكره من أن طوسير على كلام المؤرخين من اليونان وغيرهم هى بنت منفطة الثانى وانه يسمى فاران وفرعان وفرعون فلفظ فاران موجود فى كلام المقريزى بعينه مع اتفاق مؤرخى اليونان أن زوجها لم يكن من بيت الملك ولا عد فى الملوك ولا دفن فى مقابرهم وتولية هذه الملكة عقب موت أبيها وجدها مع كثرة العائلة الملوكية من ذرية رمسيس الثانى تدل دلالة قوية على انقراض الذكور منهم وهذا لا يكون الا عقب حادثة عظيمة هائلة وهى غرق فرعون وقومه ولولا ما نقل عن التوراة أن رمسيس الثانى استخدم الاسرائيليين فى بناء الهيا كل لصح أن يقال ان خروج بنى اسرائيل من مصر وغرق فرعون كان فى زمن الملك هوروس المتقدم الذكر وأن التى حكمت بعده طماهو موت بنته ويكون خروج موسى عليه السلام فى نحو السنة السابعة عشرة من حكم هوروس بجعل طماهو موت بنت هوروس هى عين دلوكة العجوز وقطع النظر عن عمر دلوكة المحكى فى كلام المقريزى فانه من محض مبالغات المؤرخين استنباطا من تسمية حائطها بحائط العجوز مع أنها تسمى كما قاله المسعودى فى مروج الذهب بحائط الجوز بالحاء ومما يدل على أنها ليست عجوزا بالغة لذلك السن ما نقله المسعودى أيضا أنها بنت هذا الحائط من خوفها على ولدها فمن كانت لها ولد تخاف عليه

لاتكون عجوزا بتلك المثابة ولكن الثابت عند المؤرخين ان الذى كان قاصرا
بعد موت هوروس انما هو رمسيس الاول ابن هوروس وأخو طماهوموت
التى فرضنا أنها دلوكة فلعله اشتبه على مؤرخى العرب بالابن وعلى كل نحن مات
أبوها وخلف أخاها قاصرا لاتكون عجوزا بتلك الصفة فاذن طماهوموت هى
التى خلفت هوروس وهو فرعون الذى أغرقه الله فى اليم ويؤيد ذلك ماذكره
قاموس مشاهير الرجال الفرنساوى أن تاريخ خروج بنى اسرائيل من مصر كان
فى سنة ١٦٤٥ قبل الميلاد الموافق لنحو سنة ٢٢٦٧ قبل الهجرة وقد علم من
جدول تاريخ الملوك السابق ان الملك هوروس وطماهوموت بنته كان ابتداء
ملكهما فى سنة ٢٢٧٩ قبل الهجرة وان مدة حكم الاثنين ثمان
وثلاثون سنة وخمسة أشهر وان مدة حكم بنته منفردة ثلاث عشرة سنة فاذا
طرحنا هذه المدة الاخيرة من ثمان وثلاثين سنة وخمسة اشهر كانت مدة حكم
هوروس خمسا وعشرين سنة فيكون خروج موسى فى نحو الاثنتى عشرة سنة
من أيام حكم هوروس ويكون تتبع فرعون لموسى باقى المدة الى غرق فرعون
أو أن هوروس هو الذى حكم المدة القليلة وبنته طماهوموت التى قدرنا أنها
دلوكة هى التى حكمت المدة الكثيرة حيث دلت التواريخ العربية على أن
دلوكة حكمت مصر عشرين سنة حتى بلغ صبى من أبناء أكابر العائلة الملوكية
فتولى بعدها بل قيل انه احتكمت نحو ثلاثين وان الذى خلفها هو أخوها
رمسيس فحينئذ اذا قلنا ان هذه الملكة قد حكمت عشرين سنة من ثمان
وثلاثين وخمسة أشهر كانت مدة حكم أبيها ثمان عشرة سنة وخمسة شهور
فيكون خروج موسى مع بنى اسرائيل فى السنة التاسعة عشرة من حكمه
الموافقة لسنة ٢٢٦١ تقريبا فيكون الفرق بين هذا الحساب وبين ما
ذكره قاموس مشاهير الرجال نحو ست سنوات وهو فرق هين بالنسبة لاختلاف
الحسابات بالنسبة لتلك الازمان المجهولة

وقد قلنا ان بعضهم يجعل خروج بنى اسرائيل وغرق فرعون فى زمن منفطة
الاول فيكون ذلك فى نحو سنة ١٢٣٠ قبل الهجرة ويبعده أن هذا الملك لم
يحصل عقب حكمه حادثة عجيبة كتولية امرأة بل تولى بعده رمسيس الثانى
وبالجملة فقدماء القبط نسبوا هذه الواقعة للملك منفطة الاول ونسبوا اليه

طرد العمالقة من مصر وجعلوها واقعة واحدة للتعمية بقصد اخفاء واقعة اغراق فرعون فى بحر القلزم وعلى جميع الاحوال فخروج بنى اسرائيل ونجاتهم وغرق فرعون ثابت لامراء فيه سواء كان فى زمن فرعون هوروس أو منفطة الاول أو منفطة الثانى أو فى زمن رمسيس الثانى أو فى زمن فرعون آخر ساقط من التواريخ القديمة لاسيما وان المؤرخين قد ذكروا أنه ساقط من التاريخ القديم ملوك قبل هوروس وبعده فجائز أيضا أن يكون فرعون الذى أغرقه الله هو وجنوده منهم ووجود مدافن لمن ذكروا لايمنع الغرق لجواز عدم الدفن بها كما سبق على ان فرعون موسى نجا بدنه بعد الغرق بصريح الآية وهى قوله تعالى فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية بعد قوله تعالى حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لااله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين فقوله تعالى فاليوم ننجيك ببدنك أى نخرجك من البحر ونخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر اى ننجيك بدنا محضا من غير روح وجسما كاملا سويا لم تتغير عريانا من غير لباس معجزة لموسى عليه السلام لتكون لمن خلفك ممن اعتقدوا فيك الالوهية ولم يشاهدوا اغراقك آية حتى لايكذبوا بذلك زعما منهم أنك اله لاتموت وانك لست ربهم الاعلى وانك كنت بالامس فى نهاية الجلال والعظمة ثم صار أمرك الى مايشاهدونه فيك فقد أغرق سبحانه وتعالى جميع قومه وما أخرج أحدا منهم من قاع البحر بل خص فرعون بالاخراج بهذه الحالة العجيبة دلالة على كمال قدرته تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام فى دعوى النبوة وقوله تعالى لمن خلفك أى للمصريين الذين ليسوا من الجنود ممن لم يصابوا بالغرق أو من بنى اسرائيل فقد قيل ان فرعون كان طريحا على ممرهم أو المعنى لتكون لمن خلفك أى لمن بعدك من جميع المخلوقات آية ففرعون فى هذه الحالة وهى النجاة بالبدن لامانع من أن يكون بعد اشهاره وتمثيله أخذ ودفن وان لم يوجد نص صريح بهذا وبالجملة فدلوكة العجوز هى الملكة طماهو موت بنت هوروس أو طوسير بنت منفطة فانها حكمت تسع عشرة سنة وستة شهور وهى وأخوها منفطة الثالث الآتى

(الملك منفطه الثالث ابن الملك منفطه الثانى)

هذا الملك يسمى أيضا أوزريامنقطة وهو أخو الملكة طوسيرو كان كثير التعبد بعبادة ذلك الوقت له انحافات كثيرة واغداقات على الهياكل والمعابد وقبره في بيبان الملوك في آخر الايوان المتسع اتساع الميدان وليست عمارته مكملة كما ينبغي وهو آخر ملوك الدولة التاسعة عشرة على ماهنا ولكن المؤرخ مانطون جعله آخر ملوك الدولة الثامنة عشرة وسلك عليها بعضهم ولكن دلائل مدينة آبو جهة لوقصر وما اشتملت عليه من الآثار هي أقوى حجة من تأليف مانطون وقد دلت على وجود ملك آخر بعده فيكون آخر الدولة التاسعة عشرة أو الثامنة عشرة على الخلاف الذي تقدم ذكره وستأتي الاشارة اليه أيضا وهذا الملك الذي هو آخر الدولتين يسمى رهاميري وكان ابتداء ملك منفطة الثالث في أثناء ملك اخته ومدة حكمه مندرجة في مدة حكمها فهي مدة واحدة كما سبق ذلك عند الكلام عليها

(الملك رهاميري)

تولى هذا الملك ملك مصر سنة ١٩١٤ قبل الهجرة ولا يعلم حقيقة نسبه وانما الظاهر أنه من عصبة الملوك السابقين أومن أرحامهم وكذلك لا يعلم مدة حكمه بالتحديد وانما استنبط بعض المؤرخين بالقرائن والدلائل أنه حكم بعد سلفه السابق خمس سنوات وأشهرا وبها تمت حكومة الدولة التاسعة عشرة مائة وأربعا وسبعين سنة وانتهت بسنة ١٩١٠ قبل الهجرة على حساب الاستكشافات الجديدة وبعضهم يدخل بعض ملوك الدولة التاسعة عشرة في ملوك الدولة الثامنة عشرة فتختلف المدة

(الفصل الثالث في ملوك الدولة المكملة للعشرين)

هذه الدولة كالدولتين قبلها طيوبية وأول ملوكها هو من أبناء ملوك من قبلها فلا يفهم من لفظ دولة معناها المعهود الآن بل لفظ الدولة عند قدماء المصريين بمعنى آخر كالعصابة والفرع والعائلة التي تحكم مدة خاصة في بلد خاصة حكومة متميزة وان لم تختلف السلالة ولا خرجت الحكومة عن السلسلة الملوكية وترتيب ملوك هذه الدولة في مراتبهم الحقيقية ترتيبا زمانيا لا حجة له

قوية وإنما هو مأخوذ من الاجتهاد والاستنباط والاستدلال من الآثار أو من أقوال المؤرخين وابتداء حكم هذه الدولة سنة ١٩١٠ قبل الهجرة ومدة حكمها مائة وثمانية وسبعون سنة ومدة كل ملك من ملوكها مضطرب فيها فلذلك ضربنا عن تواريخهم صفحا واكتفينا بذكر وقائعهم وأول ملوك هذه الدولة رمسيس الثالث ويسمى رمسيس الميمون يعني عبد شمس ويسمى أيضا سيطوس الاول

(الملك رمسيس الثالث)

من المعلوم في تاريخ مصر القديم أن رمسيس الاكبر جعل لهذا الاسم كبير اعتبار ومزيد افتخار فقد تلقب به من بعده من الملوك حتى ان هذه الدولة المكملة للعشرين سميت بالدولة الرمسيسية وكان أولها الملك رمسيس الثالث الذي فعل من الحروب والعمارات ما استحق به أن ينتظم في سلك كبار ملوك مصر السابقين فقد دلت الآثار القديمة على انتصاره في غزوات جسيمة حتى عد من كبار الفاتحين للبلاد ويقال ان في عهد أبي هذا الملك هجم العمالقة على ملك مصر فخاف أبوه عليه حيث كان صغير السن وسار به الى بلاد السودان فأقام بها ثلاث عشرة سنة فلما بلغ ابنه الاشد جمع جيشا عظيما وجاء به الى مصر فهزم أعداءه وطردهم من مصر الى الشأم وتمكن من سرير الملك بدون منازع ولم يكن عمره اذ ذاك الا ثماني عشرة سنة وقد جمع أيضا عساكر برية وبحرية وغزا البلاد البعيدة بآسيا وفتحها ويقال انه لما سافر للغزو ترك أخاه أرمايس حاكما على مصر بالنيابة عنه متصرفا في ملك مصر بشرط أن لا يلبس التاج الملوكي وأن يراعي حقوق زوجة أخيه أم أولاده فسار رمسيس المذكور الى قبرس ففتحها ثم غزا سواحل الشأم والجزيرة والموصل وأرمينية وغير ذلك من البلاد المشرقية وبينما هو في الفتوحات اذ وصلت اليه رسالة من رئيس الكهنة تفيد أن أخاه أرمايس لم يعمل بأوامره ولا احتفل بوصاياه بل أقام راية العصيان واستبد بالملك فعاد رمسيس الى مصر ودخل مدينة تنيس واستولى على سرير الملك ولبس التاج الملوكي فهرب أرمايس وهاجر من مصر وهو الذي يسمى عند اليونان دانوس وكانت هجرته الى بلاد اليونان وقد جعل

بعضهم هذه الواقعة كانت مع رمسيس الاكبر وحكاها بطريقة أخرى فتعلم عما سلف فى تاريخه

والاقرب كما قاله بعض المؤرخين أنّ هذه الواقعة انما حصلت مع رمسيس الثالث دون رمسيس الاكبر وهو الذى بنى مدينة آبو المعدودة قطعة من مدينة طيبة وهى عبارة عن هيكل عظيم أنشأه هذا الملك لتخليد ذكره وكتب عليه غزواته ويقال ان بلاد السودان والحبشة أظهروا العصيان فى عصره عدة مرات فأدخلهم فى الطاعة المرة بعد المرة وكذلك لما عصى أهل لوبيه وهى بلاد برقة وأغاروا على الثغور المصرية من جهة الغرب سار اليهم هذا الملك وهزمهم شر هزيمة مرارا عديدة وبالجملة فقد أدخل تحت الطاعة سائر المضافات المصرية وهزمهم برا وبحرا كما يعلم ذلك من التصاوير الموجودة بمدينة آبو فانه من جملة ما يشاهد فيها صورته واقفا على ساحل البحر فى وقعته مع أهالى آسيا يدفع هجوم الاعداء عن البر وفى جنب عربته كالملك رمسيس الثانى أسد مستأنس يقاتل عنه ويفترس الاعداء المغلوبين وبهذا يستدل أنّ الدولة الملوكية المتممة للعشرين كانت سعيدة الطالع وأنّ هذا الملك أعلى شأن المملكة المصرية كالسابق وان كان اعترى الحكومة المصرية الخمول فانما كان هذا بعد عهده مات هذا الملك بعد أن حكم مدة طويلة وتولى بعده ابنه رمسيس الرابع اكبر أولاده العشرة تخلفه فى ولاية العهد لكونه البكرى ولمقتضيات أحوال محلية كما وقع نظير ذلك لابيه رمسيس الثالث

(الملك رمسيس الرابع)

وبعضهم يسميه الخامس كما يسمى الثالث الرابع وعلى كل حال فهو ابن رمسيس الميمون طالت مدة هذا الملك جدا حتى قال بعضهم انها بلغت نحو ستين سنة والظاهر أنه ولد قبل موت أبيه بزمن يسير ولم يفهم من التواريخ أفعال ظاهرة تدل على كبير الفخار وانما وجد مرسوما فى آثار مدينة جبل السلسلة ما يدل على أن مدة حكمه كانت فى غاية من الفخار فقد وجد مكتوبا فى هذه المبانى ما مضمونه ان وادى النيل فى أيام هذا الملك أثرى وأخصب ونبات الارض رعرع واعشوشب وقد ملأ أفواه الهيا كل بجميل ذكره وشنّف مسامع

المعابد والمشاهد بجليل ثنائه وشكره حيث أمدها بعظيم صنيعه وفخيم بره وكانت أحكامه فى جميع الرعية على صورة عادلة مرعية أبقى جميع المراتب والطوائف على ما كانت عليه من التمتع بالشعائر والوظائف والخصائص واللطائف وصار كل من الخاصة والعامة والاكابر والاصاغر مستبشرا بأيامه مسرورا بأحكامه لانه كان اذا نام تفكر فى أحوال الرعايا واصلاح حال البرايا واذا استيقظ أحسن معاملة الجميع بكمال النفع وحسن الصنيع كما يفعل الاب مع بنيه وهكذا فعل الملك النبيه فهذا محصل مناقبه التى تؤذن بعلو مراتبه مات هذا الملك بعد ان حكم مدة أطول من سلفه وتولى بعده أخوه رمسيس الخامس

(الملك رمسيس الخامس)

هذا الملك هو ابن رمسيس الميمون وبعض المؤرخين يجعله السادس من هذا الاسم تولى ملك مصر ولا يعلم له من الآثار ما يدل على حالة حكمه وانما يعلم أنه قبل أن يلى المملكة كان موظفا فى خدمة سلفه بوظائف جليلة منها أنه كان رئيس عساكر الفرسان وتربيته فى وادى بيبان الملوك لم تزل الى الآن ظاهرة على ربوة فى آخر الوادى وعليها نقوش دالة على وقائع فلكية ورموز دينية فتجد عليها رسم فلك الشمس وما تقطعه فى اليوم والليلة وعليها رسم عدد ساعات اليوم والليلة أيضا وجداول مطالع الكواكب وحلولها فى البروج واحكام النجوم وتناسخ الارواح والنص على ثواب المحسن وعقاب المسىء وذكر الحروب الواقعة فى أيامه ويفرض أن مدة حكم هذا الملك كانت عشرين سنة وتولى بعده أخوه رمسيس السادس

(الملك رمسيس السادس)

هذا الملك الذى جعله بعضهم سابعا من هذا الاسم لا يعلم له من الآثار الا قبره المحفور فى صخور بيبان الملوك بقرب قبر اخيه رمسيس الخامس وهو أول ما يجده الانسان أمامه وهو قادم من القرنة هنالك وكانت مدة حكمه خمس سنوات على ما قيل وخلفه بعد موته أخوه رمسيس السابع

(الملك رمسيس السابع)

تولى مملكة مصر عقب موت أخيه وله آثار عظيمة بقيت رسومها فمنها بعض مباني بمدينة منف كالاعمدة الشامخة التي ارتفاع العمود منها أربعون قدما التي بقيت على حالة حسنة الى ان أقامت مقامها الاسكندرية وما أحسن قول بعضهم

سألت اطلال مصر * عن عين شمس ومنف
فما أحارت كلاما * وما أجابت بحرف
وفي السكوت جواب * لذى الفطانة يكفي

وهذا دليل على أن المملكة المصرية كانت لم تزل الى أيامه باقية على عظمها وكمال استقلاليتها وراحتها ولم يكن طرأ عليها اختلال ولا تضعضع حال وكانت مدة حكم هذا الملك أيضا خمس سنوات على ماقيل وخلفه بعد موته رمسيس الثامن

(الملك رمسيس الثامن)

وبعضهم يجعله التاسع ويقول انه آخر ملوك الدولة التاسعة عشرة وقد علمت أنه معدود في الدولة المكملة للعشرين على الاصطلاح الجديد الذي سلكه موسيو ماريت بك ولم يعلم المؤرخون درجة قرب هذا الملك من سلفه وانما وجود تمثاله في صف تماثيل الملوك الرمسيسية قضى له المؤرخون بأنه على عمود نسب العائلة الملوكية الوارثة لملك مصر وقد لحوا أيضا في تمثاله ريشتين على ظهره وهما في اصطلاح هذه الدولة علامة على الصدق والعدل فاستدل بهما على أنه معدود من الملوك وقد وجدوا أيضا بالاستكشاف صورة سند قديم يدل على أنه كان رتب صدقة جارية على هيكل مدينة طيوة صرفت لمستحقيها ست سنوات متواليات فبانضمام ماذكر مع ما تضمنته فهرست المؤرخ مانطون المتعلقة بسلسلة الملوك وقوله عنه ان هذا الملك مات في السنة السابعة من حكمه يدل جميع ذلك على أنه ملك من ملوك هذه الدولة وانه حكم سبع سنوات ولكن استظهر موسيو شمبليون العارف باللغة المصرية القديمة من الكشف عن قبره ودلائل ماظهر له أنه حكم ثمانية وأربعين سنة قال ان

اتساع مدفن هذا الملك والتأنق فى بنائه واحكامه وعمل هذا العمل الجسيم فى مدة حياته يستدعى طول مدة حكمه

والى حد هذا الملك الذى هو رمسيس الثامن تعلم وقائع الرمسيسية وبعده عدة ملوك لا تعلم وقائعهم وانما تعلم أسماؤهم فقط بل من ملوك هذه الدولة ملكان مجهولا الاسم والوقائع فلذلك اكتفى المؤرخون بسردهم على هذا الوجه

١	رمسيس التاسع	٦	رمسيس الثالث عشر
٢	رمسيس العاشر	٧	رمسيس الرابع عشر
٣	رمسيس الحادى عشر	٨	باهور اموسه
٤	أمينومسيس	٩	فهمه
٥	رمسيس الثانى عشر	١٠	مملكة اثنين مجهولين

[illegible]

فيفهم من هذا أن أغلب هؤلاء الملوك رمسيسية ولا تعلم مدة حكم كل ملك من ملوكها على حدته بل منهم ملكان مجهولان لا يعلمان لا اسما ولا لقبا وفى بعض كتب التواريخ الجديدة يوجد بدل باهورموس اسم هرهور وبدل فهمه اسم بيانكى معبرا عنهما بأنهما من طائفة الكهنوت ولعلهما من الاسماء المترادفة على مسمى واحد وأن هرهور هو عين باهورموسه وبيانكى هو عين فهمه

وقد ذكر هذا المؤرخ أيضا ملكا من طائفة الكهان المتغلبين باسم بناطيم ولعله أحد الملكين المجهولين ولما كان هؤلاء الملوك الاحدى عشرة المكونة لبقية الدولة المكملة للعشرين من ذرية من قبلهم من الملوك الرمسيسية الطيوبة ولكنهم ليسوا أرباب ظهور ولا بهجة كاسلافهم جعل بعض المؤرخين أسلافهم من الدولة التاسعة عشرة وجعلهم دولة هى تمام العشرين لانهم خلعوا من الملك أسلافهم وظهروا مظهر الخمول والتساهل حيث خانوا الامانة وأهانوا الديانة ونبذوا أحكام المملكة وراءهم ظهريا فطردهم أهل الكهانة وضموا تاج الملك لرياسة الدين فظهر من مدينة تنيس دولة جديدة

وقد نص مؤرخو اليونان على حادثتين عظيمتين حصلتا فى أيام دولة الرمسيسية لا بأس بذكرهما الاولى احداث دورنجمة الشعرى وطلوعها والثانية أخذ اليونان لمدينة طروادة القريب محلها الآن من اسكى ازمير

وبيان الحادثة الاولى ان المصريين كانوا يحسبون السنة التوتية ثلثمائة وخمسة وستين يوما واستمروا على هذا الحساب المدة المديدة ثم تبين لهم برصد الشعرى اختلاف حسابهم ونقص سنتهم ربع يوم فبتكميل ربع اليوم فى الاحتساب تكون السنة التوتية ثابتة على حالة واحدة فوجدوا الفرق بين السنة المختلفة والسنة الصحيحة فى كل مائة وعشرين سنة شهرا كاملا وبتجميع هذا الشهر وزيادته يتكون منه فى كل ألف وأربعمائة وستين سنة زيادة ثلثمائة وستين يوما وهى سنة كاملة وهى الفرق بين السنين المختلفة والسنين الصحيحة فبكبس هذه السنة فى تلك المدة يوافق فى آخر الدور أول السنة الصحيحة لاول السنة المختلفة ويوافق طلوع الشعرى فتصحيح السنة التوتية على هذا الوجه هو ما يسمى عند القدماء بالدور الشعروى

ووجه هذا التصحيح أن الالف والاربعمائة والستين سنة المختلفة باضافة السنة الفرق عليها للتصحيح تكون ألفا وأربعمائة وستين سنة صحيحة وحينئذ يكون عدد دورهما بهذه الاضافة واحدا لان أيام كل منهما مساو لمقدار الآخر فى العدد فلذا صح التحرير والتصحيح لتوفيق السنين وكان تاريخ هذا التصحيح فى أواخر القرن العشرين قبل الميلاد وهو يوافق زمن الرمسيسية وأما الحادثة الثانية التى هى أخذ مدينة طروادة وتغلب اليونان عليها فهو أيضا فى عصر أوائل دولة الرمسيسيين على أشهر الاقوال فقد صرح المؤلف بلياس ان فتوح اليونان لمدينة طروادة كان فى زمن رمسيس ملك مصر ولم يذكر أى رمسيس هو وانما من المعلوم أن تدمير اليونان لهذه المدينة كان فى سنة ١١٨٤ قبل الميلاد الموافق لسنة ١٨٠٦ قبل الهجرة فيقرب أن يكون فى زمن رمسيس الرابع وان جعله بعض المؤرخين بمقتضى حسابه فى زمن رمسيس الثامن استظهارا بتوفيق الحساب ومن المعلوم أن اختلاف حساب السنين فى تواريخ ملوك مصر انما جاء من اختلاف أسمائهم وألقابهم باختلاف المؤرخين بسبب كثرة ألقاب هؤلاء الملوك وأسمائهم المتعددة المترادفة غالبا على مسمى واحد فانها متى طرقت سمع المؤرخ ظن تباينها مثلا رمسيس الثامن يسمى مينوفريس فى كتب بعض المؤرخين ومعناه عبد شمس وهو اسم من أسمائه ويسمى طوريس عند بعض آخر وبقية أسماء الملوك كذلك

فمن هذا حصل الالتباس فى تواريخهم

وهناك حادثة أخرى من حوادث ملوك الدولة الرمسيسية علمت من لوح حجرى موجود بالخزانة الملوكية بمدينة باريس مستخرج من هيكل شونس الذى هو أحد الاوثان المعبودة بمدينة طيوه بالصعيد ومنقوش على هذا اللوح بالخط البربانى أن أحد الملوك الرمسيسيين لقى فى بعض أسفاره بالجزيرة بين دجلة والفرات التى كانت تابعة اذ ذاك لملوك مصر احدى بنات الملوك ببلاد الجزيرة فتزوج بها ثم مضى على ذلك بعض سنوات فبينما كان رمسيس جالسا فى قصره بمدينة طيوه واذا ببعض الحجاب أخبره بحضور رسول من طرف صهره يلتمس منه أن يرسل اليه طبيبا حاذقا ليعالج بنته التى هى أخت زوجة فرعون المذكور حيث أصابها داء أعجز الاطباء فبعث اليه طبيبا مصريا ليخرج ما بها من الجن فلما وصل الطبيب المصرى الى تلك الجهة بذل جهده فى علاجها فلم يجد علاجه شيأ ولم يخرج الجنى منها وعاد الطبيب الى الديار المصرية بدون نتيجة وكان ذلك لخمس عشرة سنة خلون من حكم الملك رمسيس المذكور ثم فى عام ست وعشرين سنة من حكمه وفد عليه رسول آخر وأفاد رمسيس من طرف صهره بأنه لا يشفى ابنته من علتها الا أحد الاوثان المعبودة بمدينة طيوة فبعث اليه التمثال المسمى شونس فمكث فى الطريق سنة ونصفا حتى وصل الى بلاد الجزيرة وعزم على الجنى حتى خرج من بدن ابنة الملك فعاد اليها الشفاء كما كانت فلما عرف ملك الجزيرة خاصية هذا الوثن من ان مجرد حضوره فيه الشفاء صمم على أن حجزه فى قصره مع علمه بأن حجزه يوجب العداوة بينه وبين صهره فأقام هذا الوثن محجوزا ببلاد الجزيرة ثلاث سنين وتسعة أشهر ثم رأى ملك الجزيرة فى المنام أن هذا الوثن استحال الى صورة باز من ذهب وطار الى مصر وأنه فى وقت طيرانه أصيب الملك بعلة أتته على حين غفلة فلما استيقظ أمر باطلاقه فى الحال وارجاعه الى محله فعاد الوثن الى هيكله المعد له بمدينة طيوة بالصعيد فى سنة ٣٣ من حكم الملك رمسيس هذا ما وجد مكتوبا على اللوح الحجرى قال بعضهم ولعل ملك الجزيرة تخيل ما هاله فى منامه فتطير منه وخشى عاقبة أمره ففك سجنه حالا ولعل هذا المنام أيضا منام همة وأما الشفاء بحضوره فهو استدراج أو أن فى هذا الصنم خاصية وضعها فيه كهنة مصر

للمصروع بالجن كالحلتيت أو مصادفة اقدار وقد انتهت الدولة المكملة للعشرين سنة ١٧٣٢ قبل الهجرة وهي ابتداء الدولة الحادية والعشرين الآتية

(الفصل الرابع في ملوك الدولة الحادية والعشرين)

ابتداء حكم هذه الدولة كان في سنة ١٧٣٢ قبل الهجرة وملوكها سبعة ومدة حكمهم جميعا مائة وثلاثون سنة وأصل هذه العائلة الملوكية تنيسية أي من مدينة تنيس التي يسميها بعضهم أيضا مدينة صان وهي مدينة أزلية لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وكانت جنات ونخلا وكرما وشجرا ومزارع وكانت فيها مجار على نشز من الارض ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الارض ولا أعظم اتصالا من جناتها وكرومها ولم يكن بمصر كورة يقال انها ليس لها شبه الا الفيوم وكان الماء منحدرا اليها لا ينقطع عنها صيفا ولا شتاء يسقون جناتهم اذا شاؤا وكذلك زروعهم وسائره يصب في البحر من جميع خلجانه وقد كان بين البحر وبين هذه الارض مسيرة يوم

ويقال ان الجنتين اللتين ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز اذ يقول واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل الآيات كانتا لاخوين من بيت الملك أقطعهما ذلك الموضع فأحسنا عمارته وهندسته وبنيانه وكان الملك يتنزه فيهما ويؤتى له منهما بغرائب الفواكه والبقول ويعمل له من الاطعمة والاشربة ما يستطيبه فعجب بذلك المكان أحد الاخوين وكان كثير الضيافة والصدقة ففرق ماله في جميع وجوه البر وكان الآخر ممسكا يسخر من أخيه اذا فرق ماله وكلما باع من قسمه شيأ اشتراه منه حتى لم يبق لا يملك شيأ وصارت تلك الجنة لاخيه واحتاج الى سؤاله فانتهره وعيره بالتبذير وقال كنت أنصحك بصيانة مالك فلم تفعل ونفعني امساكي فصرت أكثر منك مالا وولدا وولى عنه مسرورا بماله وجنته فأمر الله البحر فركب تلك القرى وغرقها جميعها فأقبل صاحبها يولول ويدعو بالثبور ويقول ياليتني لم أشرك بربي أحدا قال تعالى ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وهذه تنيس الاولى ثم بنيت ثاني مرة وصارت عظيمة الشأن حتى يقال انه كان اهلها مائة باب مثل

مدينة طيوه والى هذه المدينة تنسب هذه الدولة التنيسية

(أسماء ملوك هذه الدولة)

١	مندوفطف	ابن حاسن ويسمى منداس واسمنداس ولم يكن حاسن أبو مند وفطف ملكا بل كان من آحاد الرعية وانما تولى الملك ابنه مندوفطف
٢	حاسن بن مندوفطف	يسمى هذا الملك أسوسنيس ويسمى أيضا فوسناس حكم ستة وأربعين سنة
٣	نفرخريس	(حكم أربع سنوات
٤	أمينوفطيس	(حكم تسع سنوات
٥	أوسوخور	(حكم ست سنوات
٦	اسيناخس	(حكم تسع سنوات
٧	حاسن الثانى	(ويسمى ابسوسنيس حكم ثلاثين سنة

وقد عاشت وماتت هذه الدولة بدون فخار ولا اعتبار ولم يكن لها من الشهرة الاضياع الملك فى عصرها وضيق ملك مصر بعد السعة ورجوعها الى حدودها الاصلية وضعف ما فى مدينة طيوه من العائلة الملوكية فلا يوجد لاحد من ملوكها ما يذكر به من مبنى من المبانى أو معنى من المعانى الا الاولهم فقط فقد وجد على صخر من الصوان فى جزيرة بربا بأسوان نقش بالقلم البربائى مشتمل على طلب الدعاء بحفظ منداس مؤسس الدولة الحادية والعشرين

وقد كان موت حاسن الثانى آخر ملوكها سنة ١٦٠٣ قبل الهجرة

وكانت هذه الدولة فى عصر سيدنا سليمان وأبيه داود عليهما السلام ويقال ان سيدنا سليمان تزوج بنت أحد فراعنة هذه الدولة المذكورة وأمهرها مدينة غزة ولهذا بنى الجامع الاقصى على منوال المبانى المصرية وبنيت مدن الشام على رسم عمارات مصر

ثم ان عجز فراعنة هذه الدولة بتضعضع حالها فتح بابا الاضاعتها من أيديهم حيث ظهرت عائلة أخرى من بسطة محلها الآن قريب من الزقازيق وخلعت عائلة تنيس من الملك وتقلدته واستولت على المملكة المصرية فمثل هذه الوقائع التى ينتج عنها اختلال الدولة وعدم انتظام أحوالها تؤدى الى زوال ملك

الملوك وسلطنة السلاطين
فمتى وجدت أمة من الامم أو دولة من الملل انقسمت الى حزبين كل منهما يسعى فى مصلحة نفسه الخصوصية فاعلم أن سعيهما معا انما هو لعدوهما المترقب لذلك فهو يعود عليه بالنفع دونهما بدون أن يشعرا بذلك فهما فى الحقيقة سعيا لحرمانهما معا وتمكين خصمهما الصدق مصائب قوم عند قوم فوائد وما ذكرناه من أسماء هذه الدولة التنيسية فهو ما ذكره المؤرخ مانطون فى دولة العائلة الملوكية المصرية الحقيقية بالاقاليم البحرية وكان بالصعيد بمدينة طيوه دولة أخرى مصرية تغلبت عليها طائفة القسيسين وتلقب أيضا هذه الدولة الصعيدية بالدولة الحادية والعشرين وهم الذين أتموا عمارة الهيكل الذى بين الكرنك ولوقصر وعليه توجد أسماؤهم مكتوبة وأما الدولة الملوكية البحرية المعاصرة لهم فان لها أيضا آثارا ببعض جهات لاسيما بجهات تنيس وقد استكشف لها ببعض تيجان وأكاليل صيغت لتكون فوق المبانى وبعض صفائح من الذهب محفوظة فى ضمن المحفوظات بالانتيقه خانه ببولاق تدل على أسماء بعض ملوك من ملوك هذه العائلة صار الوقوف على أسمائهم عن قريب بعد ما لم يكونوا معلومين فى التواريخ السابقة
وقد انتهت مدة هذه الدولة سنة ١٦٠٢ قبل الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وجاءت بعدها الدولة الملوكية الثانية والعشرون

(الفصل الخامس فى ملوك الدولة الثانية والعشرين)

كان سرير هذه الدولة بمدينة بسطة بالشرقية ومحلها الآن تل بسطة القريب من الزقازيق وعدد ملوكها تسعة ومدة حكمهم مائة وسبعون سنة والظاهر أن هذه الدولة البسطية لم يكن من ملوكها من الغزاة وأرباب الفتوحات الا القليل كما أن الظاهر أيضا أنهم كان لهم قرابة أو مصاهرة أو ميل للاجانب فان أسماءهم كأسماء ملوك العراق والاكراد وكانت عساكرهم المحافظون لذواتهم ليسوا من أهل مصر بل من المغاربة ولا يعرف لهذه العائلة الملوكية عمارة جسيمة تنتسب اليها الغاية الآن وانما يؤمل أنه باستمرار عملية الحفر بناحية

تل بسطة لابدوأن يستكشف بعض عمارات ومبانى مما أنشأته هذه الدولة بمدينة بسطة التى اتخذتها سرير الملكها وأول ملوكها شيشاق

(الملك شيشاف وهو شيشونق الاول)

يسمى هذا الملك بهذا الاسم فى التوراة واسمه مرسوم على الآثار القديمة باسم شيشونق وقد كان من أرباب الغزو والفتوحات فهو الذى غزا بلاد فلسطين حيث سار من مصر الى القدس فى جند مؤلف من نحو ألف ومائتى عربية حربية وستين ألف فارس وطوائف كثيرة من المشاة المغاربة والنوبة وغيرهم فاستولى على جميع قلاع فلسطين ودخل مدينة القدس وسلب أموال المسجد الاقصى الذى بناه سيدنا سليمان عليه السلام وكذلك سلب أموال القصور الملوكية حتى الدروع السليمانية المصوغة من الذهب وقد أيد هذه الحادثة التى ذكرها التوراة ماشوهد فى رواق من الكرنك بصعيد مصر مرسوم عليه تمثال الملك شيشاق يجر تحت أقدام الاصنام كثيرا من الاسرى وعلى صدورهم اسم جنسهم وبلدهم فقد وجد من النقوش على صدر صورة أحدهم أنه يهوذا ملك فلسطين وهو مصور بين الاسرى موثوق اليدين خلفه وقد دل التاريخ على ان شيشاق قطع أحجارا كثيرة من مقاطع جبال السلسلة وأعدها للعمارات هيكل الشمس بقرب الكرنك وغيره ببطيوه ولم ينجز ذلك بنفسه بل تمم مقصوده بعده خلفاؤه وقد حكم هذا الملك اثنين وعشرين سنة وخلفه ابنه أوسرخون مات سنة ١٥٨٠ قبل الهجرة

(الملك اوسرخون الاول)

هذا الملك يسمى فى التوراة ذاراق ويعبر عنه بالملك الحبشى حارب مملكة يهوذا كسلفه شيشاق فى حرب القدس وكان ذلك بعد أخذ مدينة القدس بتسع وعشرين سنة فهجم على مملكة يهوذا بنحو مليون من النفوس وثلثمائة عربية حربية وتوغل فى البلاد بالاغارة فسار ملك يهوذا للملاقاة واصطفت جنود الفريقين فى وادى صفد بقرب مدينة قديمة تسمى ماريسة ولكن ألقى الله الرعب فى قلوب الحبشة فهربوا جميعا هذا مفاد عبارة التوراة والمراد بالحبشة

المصريون ومن معهم من الجنود الاجنبية فيؤخذ من هذا انهزام هذا الملك وعدم استيلائه على تلك المملكة وقد مات سنة ١٠٦٥ قبل الهجرة بعد ان حكم خمس عشرة سنة وخلفه ولده شيشونق الثانى

(الملك شيشونق الثانى)

لم يعلم فى حق هذا الملك شئ من الوقائع الا كونه حكم تسعا وعشرين سنة فيكون موته سنة ١٠٣٦ قبل الهجرة فتكون مدة حكم الملوك الثلاثة ستا وستين سنة ولم يعلم باقى ملوك هذه الدولة بعد هذا الملك وانما استنبط بعضهم من بعض دلائل انه تملك بعد شيشونق الثانى ملك يسمى طاقيلوطس ثم تولى بعد طاقيلوطس ملك يسمى أوسرخون الثانى ولم يعلم لحكمهما مدة ولا وقائع فيكون عدة الملوك المعلومة الاسماء من هذه الدولة خمسة

رذ كرمانطون المؤرخ ملكين آخرين ولم يعينهما بالاسم وقد سبق لنا أن المؤرخين جعلوا ملوك هذه الدولة تسعة فبقى أربعة من الملوك غير معلومين بالكلية فينتج من هذا أن مدة حكمهم المائة وأربعة سنين الباقية هى من المائة وسبعين سنة مدة حكم هذه الدولة وأن مدة الملوك المعلومين أكثر من الستة وستين سنة المذكورة ولعل الملك أوسرخون الثانى خلف ذرية ورثوه واحدا بعد واحد وأنهم أضعفوا هذه الدولة المصرية وكانوا سببا فى انقراضها وأن سكوت المؤرخين عن أولاد أوسرخون الثانى المذكور اما للصفح عن جناياتهم بكتم أسمائهم وعدم التعرض لهم بشر وانما سكتوا عنهم لعدم الاكتراث بهم حيث لا يستحقون أن يذكروا فى سلسلة الملوك وسبب ضعضعة الدولة الحادية والعشرين ومابعدها أن هذه الدول لم تسلك مسالك أسلافها فى التشبث لحفظ ناموسها وبقاء محيط دائرتها بل رضيت بتحكمات الملل الاجنبية عليها ومطاوعة أهوائهم لاسيما وقد انقرضت دول الملوك الطيبة والمنفية وانمحى أثر نسلهم وانقطع سرير الملك عن طيوه ومنف واتخذ الملوك أسرة ممالكهم فى مدائن الاقاليم البحرية فبهذا صارت الديار المصرية بحيث لا تثبت استقلالها واستبدادها والسبب الاصلى لذلك كله أن الملوك الطيبوية التى ارتفع شأنها وعلا سلطانها قد فتحت أبوابها لبعض الاجانب كبنى اسرائيل وأقطعتهم بعض

الضياع ليستوطنوا بها على سبيل الضيافة والاكرام ولكن احترست منهم ومن ظهورهم وضبطتهم غاية الضبط وأدخلتهم تحت الطاعة وأما دول المدن البحرية فانها لم تحترس من الاجانب ولا لاحظت أطوارهم وحركاتهم فمن كان تحت قبضتها من الولايات المضافة اليها أقاموا راية العصيان وتعدوا الحدود وما أقطع لهم من الاراضى للانتفاع به والتعيش منه طمحت نفوسهم لاستملاكه والاستيلاء عليه بالقهر والغلبة وانتهى الحال بتغلب الاجانب على ملك مصر لكثرتهم بالثغور الشرقية فالظاهر أن الدولة الملوكية الثانية والعشرين كان ملوكها من الاغراب المتوطنين وقد خلف هذه الدولة دولة أخرى أسوأ منها حالا وهى الدولة الثالثة والعشرون

(الفصل السادس فى ملوك الدولة الثالثة والعشرين)

الظاهر من الوقائع التاريخية أن الديار المصرية فى عهد هذه الدولة كانت ممزقة كل ممزق وليست على صورة وجود كلية تعدد فيها أرباب الحل والعقد فكانت فى الاقاليم البحرية متفرقة غير متواطئة كالجمهوريات ولو كانت كما فى عصر العمالقة منقسمة الى دولتين أجنبية وأهلية لكان أهون مما هى عليه فى هذا العهد فانها كانت فى عهد الدولة الثالثة والعشرين منقسمة الى دول متفرقة وطوائف متكاثرة غير متفقة فكان يحكمها عشرة من ملوك الطوائف وجمهورهم من طائفة الماسواس وهى طائفة عسكرية أو جاقلية كالانكشارية اغتصبت المملكة بطريق التعدى هذا ما كانت عليه مصر فى الاقاليم المصرية الحقيقية وأما مضافاتها ولواحقها من الاقطار السودانية التى كانت من أول الزمان الى عهد هذه الدولة منقادة للفراعنة فخلعت الطاعة واستبدت بنفسها وخرجت عن حكومة مصر ولم ترض بالانقياد لنواب مصر عليها فخرجت السودان عن طاعة الدولة المصرية بالكلية فى أيام الدولة الثالثة والعشرين ولم تكتف بذلك بل أغارت على جنوب مصر من جهة الصعيد حتى وصلت الى اقليم المنية حتى صار الصعيد فى ذلك العصر أشبه باقليم سودانى فكان عصر هذه الدولة زمن فتن ومحن كما دل على ذلك الاستكشافات الجديدة من لوح حجر صوانى بجبل البركل باقليم دنقلة وهو من انشاء ملوك الدولة السودانية وليس

من أعمال ملوك مصر الاصليين
ومضمون مادلت عليه الكتابة أن طائفة الكوشيين يعنى السودان من بنى حام لما أسسوا لانفسهم مملكة مستقلة تدينوا بدين المصريين واستعملوا طريقة كتابتهم وتعلموا السانهم فكان تمدن السودان صادرا عن تمدن قدماء المصريين وأن السودان أغاروا على معلميهم ومدنيهم وغلبوهم بما تعلموه منهم اه فكان هذا أشبه بجزيرة سندمنغ المسماة بجزيرة هايتى حيث استقلت بنفسها وطردت الفرانساوية ومثله ماوقع لكثير من دول أوروبا فى مضافاتهم بامريقة حيث خلعوا طاعة ملوكهم عقب التمدن واستبدوا بحكوماتهم وكان أيضا أشبه بالنيل وقد رجع على منبعه بالطغيان وليس هذا بعجيب فى أبناء أبناء كل زمان

أعلمه الرماية كل يوم * فلما استد ساعده رمانى
وكم علمته نظم القوافى * فلما قال قافية هجانى

ثم انه يظهر للمتأمل أن أحوال مصر مرتبطة فى المعنى بمنابع نيلها وأن منافعها المعنوية تابعة لمنافعها الحسية فكلما قرب ماء النيل من مصبه صوب الوجه البحرى ضعفت قوته ووهى عزمه الى أن يبتلعه البحر المالح وكذلك حكومة مصر فى الازمان الخالية لما كان سريرها بالصعيد الاعلى فى مدينة طيوه كانت قوية الشوكة فى أعلى درجة فلما دنت من الوجه البحرى فقدت قوتها شيأ فشيأ حتى صارت أشبه شئ بالشيخ الذى بلغ درجة الهرم فضعفت بنيته ورد الى أرذل العمر وأدركته منيته وذلك بمقتضى علاقات ذلك الوقت وأماروابط أيامنا هذه التى صار لمصر فى الجهات البحرية منبع عظيم كمنبع النيل وهو منبع المنافع العمومية كالتجارة ونحوها فهى مرجحات قوية لوجود تخت المملكة بقربه من المنافع وقد استبان من هذا كله أنه بعد الدولة العشرين قد انقرضت تقريبا ملوك طيوه بالصعيد وذهبت عائلاتهم الملوكية وانمحت تندماتهم الجليلة الجلية فصار لا يصدر عن طيوه ملوك ولا فنون وليس لها حل ولا عقد وانما كانت فى ذلك الزمن مقصورة على المحافل الدينية والمجامع الكهنوتية وفى الزمن الذى كانت فيه بهذه المثابة ارتقى الوجه البحرى الى شأو الدرجات العالية وارتفعت فيه قوة المعارف وشوكة الملك وظهرت مدنه

العظيمة

العظيمة بمظهر رفيع كمدائن تنيس وبسطة وصا الحجر وسمنود وغير ذلك وصار بهذه المدن دول ملوكية منفردة أو متفرقة ولكن كلما تباعد تخت المملكة رجعت الحكومة القهقرى الى ان وصلت الحكومة الى الدولة الثالثة والعشرين التنيسية التى قلنا ان عصرها كان عصر محن وفتن فان حكومة مصر كانت فى أيامها فى قبضة عدة دول ملوكية مفترقة على غير عمود العائلات الملوكية الاصلية ذكر منها المؤرخ مانطون الدولة الملوكية الحقيقية ولم يتعرض لغيرها من الدول وذكر من ملوكها ثلاثة بأسمائهم وذكر غيره من المؤرخين أنهم أربعة وان المعلوم بالاسماء منهم ثلاثة لا غير أخذا من المبانى القديمة ومع ذلك فالملوك الثلاثة وقع ذكرهم فى الكتب على وجه مختلف حيث وجدت على المبانى بلفظ وفى فهرسة مانطون بلفظ آخر كما تراه فى الجدول

١ ابتاهوطف		١ باطوباسيطس		على حسب
٢ أوسورطاسن	فى كتابة المبانى	٢ أوسورطون		فهرسة
٣ آمين هم جم		٣ ابساموس		مانطون

وقد استكشف ماريت بك محافظ الانتيقه خانه من لوح حجرى وجده بقبر العجل أبيس الذى بجهة سقارة دولة ملوكية أخرى كانت مستقرة بمدينة منف وعلم من الكتابة التى على الحجر حقيقة ثلاثة ملوك أيضا كالملوك الثلاثة التنيسية وعلم من لوح حجرى آخر وجده البك المذكور بجبل البركل باقليم دنقلة ما يفيد أن بعض أقاليم مصر كان فى أثناء تلك المدة فى قبضة بعض ملوك طوائف متفرقين ليس ممن ذكرهم المؤرخ مانطون ولا ممن ورد اسمه باللوح الحجرى الذى وجد بقبر العجل أبيس الذى كان يعبده المصريون فى تلك الازمان

ثم ان وقائع الدولة الثانية والعشرين ومابعدها يظهر فيها ان من أسماء ملوكها ما يوافق أسماء أهل الموصل فهذا يقتضى وجود رابطة بين دولة مصر ودولة الموصل فهل هذه الرابطة كانت مصاهرة وقعت بين الدولتين فأرادت مصر التحبب والتقرب الى دولة الموصل بتسمية أولادهم باسماء موصلية لاسيما وأن المحبة كانت اذ ذاك من الطرفين حيث كان لمصر نفوذ على ساحل دجلة والفرات أولم يكن سبب ذلك رابطة مصاهرة بل حصل فى مصر تغيير

وتبديل في دولتها باستيلاء بعض ملوك الموصل والجزيرة عليها فبعد انجلاء المتغلبين اقتبست مصر تلك الاسماء مثل أوسرخون ونحوه ويدل على هذا الرأى الاخير سكوت مؤرخى المصريين عن بيان أخبار القرن الخامس عشر قبل الهجرة حيث كتموا فيه ماعساه أن يكون وقع لمصر من الهزيمة وكان ابتداء حكم ملوك هذه الدولة الثالثة والعشرين فى نحو سنة ١٤٣٢ قبل الهجرة وانتهاؤها سنة ١٣٤٣ فتكون مدة حكمهم تسعا وثمانين سنة ثم جاءت بعدها الدولة الرابعة والعشرون

(الفصل السابع فى ملوك الدولة الرابعة والعشرين)

هذه الدولة صاوية تنسب الى تخت ملكها وهو صا الحجر التى هى مدينة أزلية لم تزل آثارها القديمة باقية الى الآن ولم يبرز من هذه الدولة الا ملك واحد وهو بوخوريس كما ذكره المؤرخ مانطون فهذه الدولة عبارة عن هذا الملك وقد وجد اسم هذا الملك مكتوبا على بعض أحجار من قبر العجل أبيس الذى كان يعبده قدماء المصريين

(الملك بوخوريس)

قد اشتبه على بعض المؤرخين هذا الملك بفرعون بن رمسيس الثالث صاحب واقعة خروج بنى اسرائيل على بعض الاقوال فان ذلك يوافق القرن العشرين قبل الهجرة بخلاف هذا الملك فان وجوده فى القرن الثالث عشر قبل الهجرة الذى يسمى انيسيس البصير لانه كان فاقد البصر الذى خلفه سباقون ملك النوبة المتغلب على مصر

وبيان ذلك أن بوخوريس كان صاحب تنظيم وترتيب وتربية وتهذيب قوى روابط التجارات وأعان على المحافظات الاجنبية والمعاملات وبذل مجهوده فى تحسين المملكة المصرية التى جدد بها دولته القسرية ولكن صروف الدهر غلبت هذا الملك الغالب واوقعته فى أعظم الشدائد والنوائب حيث اتهمه جميع الملة بأنه أهان ثورا كانوا يعبدونه وجعلوا تلك الاهانة أعظم ذلة وكانت انحطت مملكة مصر عن رونقها القديم وشاخت وهرمت واشتهر وهنها

وضعفها فى كل اقليم فعند تضعضع حالها هم النوبة بالخروج عن الطاعة وهجموا على مصر ورفعوا علم العصيان وشراعه فاستنجدهم المصريون على ملكهم البغيض وأعانوا عليه ملك النوبة وشنوا اغارة الاغراء والتحضيض فأغار ملك النوبة على الديار المصرية من وراء الشلال ووقع بوخوريس فى قبضة سباقون الجبروتية فألقى نمرود السودان خليل الرفاهية حيا فى النار ولعجزه عن المعجزة استعاره اللهيب استعارة تحقيقية ذهبت به الى مجاز البوار فكانت هذه الحادثة كناية عن استيلاء الدولة السودانية الخامسة والعشرين وسيأتى بيانها أتم تبيين

وقد وجد اسم بوخوريس قريبا فى هذا العهد منقوشا على آثار جهة السويس فى حفر الموضع المسمى سربيوم وكان ابتداء حكم هذه الدولة سنة ١٣٤٣ وانتهاؤها قبل سنة ١٣٣٧ قبل الهجرة فتكون مدة حكمها ست سنوات وبعض المؤرخين جعل ابتداء هذه الدولة سنة ١٣٨٤ وجعل حكم بوخوريس المذكور أربعا وأربعين سنة ولكن الاصح ما سبق وأن ابتداء الدولة الخامسة والعشرين كان فى سنة ١٣٣٧

(الفصل الثامن فى ملوك الدولة الخامسة والعشرين)

قد كان استيلاء السودان على مصر وتأسيسهم فيها دولة سودانية مسببا عن الانقلابات المترتبة عن العداوة والشحناء بين ملوك الدول السابقة الذكر حتى ان فى التوراة ما معناه ان ملوك تنيس صاروا لا عقول لهم وملوك منف ضلوا وأضلوا قومهم فقضينا ان نعطى مصر لملك جبار يتولى أمرها ويدبر شأنها اه فقسر الاحبار الملك الجبار بالملك سباقون السودانى

(الملك سباقون)

لما صعد على سرير مصر عقب احراقه لبوخوريس اتسعت مملكته عليها الى البحر الابيض وقد تقدم بيان جبروته وقسوته باحراقه بوخوريس حيا ومع ذلك فقد ذكر بعض المؤرخين أنه انقاد لقانون التمدنات المصرية وتدين بديانة مصر وكان له عدل فى الرعية وفضل من بعده من الملوك السودانية حتى

حكى عنه أنه رأى فى المنام أن معبود مدينة طيوه ينذره أنه لا يتمكن من ملك مصر الا اذا قطع كهانها وأمناء أديانها اربا فلم توافقه ذمته ولا رضيت بذلك وآثر خلع نفسه من المنصب الملوكى والعود الى وطنه وأبى أن يلوث ناموسه بسفك دماء أمناء الاديان فان صح هذا النقل كان دليلا على صحة حسن سيرته وطيب سريرته وانما يقال عنه انه أول من أبطل العقوبة بالقتل وقد اجتهد فى اصلاح الجسور السلطانية والقناطر الملوكية والترع والخلجان العمومية ورمم المبانى النافعة واصطنع المصانع البارعة فكيف هذا مع ما فعله من الجبر فى مبدأ أمره مما يلوثه ويقضى بسابقة شره ولا مانع ان الحامل له على الخروج من الضد الى ضده والانتقال من النقيض الى نقيضه أنه لما تقلد مملكة جديدة وفتح دولة حديثة كان أول فكرته اصلاح الزالل وجبر الخلل لاسيما وأنه تولى مملكة مشرفة على الخراب فحالتها أوجبت عليه الاصلاح أكمل ايجاب فبادر بالوصول الى مقاصد العمران حيث توفرت له الوسائل والاسباب لاسيما وأن بلاده مجاورة للديار المصرية فهو يعلم حالها وأسباب ضعضعتها الداخلية وما يلزم لحسن الادارة والسياسة وما يقتضيه منصب الملك والرياسة بل كان بين الاقليمين فى الازمان السابقة روابط وعلاقات وتناسب واتحادات حتى قيل باتحاد مصر والنوبة فى الجنسية والاصول الاولية حتى ان ملوك النوبة المعاصرين لملوك الدولة الخامسة والعشرين السودانية المصرية بنوا فى النوبة مبانى على منوال المبانى المصرية واصطنعوا مصانع وهياكل كهياكل المصريين وعباداتهم عليها نقوش باللسان المصرى القديم بالقلم البربانى ولم تزل الهياكل المصرية حافظة الى الآن اصلاحات هذا الملك وسلفه وتزيينا تهم ونقوشهم فتجد ذلك فى لوقصر أبى الحجاج وكذلك تجد فى مدينة طيوه صورة سباقون عاكفا على تقريب القربان لتماثيل هذه المدينة وأصنامها حتى ان ملوك السودان لتمصرهم لقبوا أنفسهم بالفراعنة وتكنوا بكنى ملوك مصر

ويقال ان الملك سباقون كان فى مبادى حكمه فى حروب مستمرة مع ملك مصرى من العائلات القديمة حصن مملكته فى الوجه البحرى ولعل دولة السودان بمصر كانت كدولة ملوك الرعاة حاكمة فى أقاليم مخصوصة وكانت

دولة الملوك المصريين موجودة فى جهة أخرى ومحاربة معها وكانت مدة حكم الملك سباقون اثنتى عشرة سنة فيكون موته سنة ١٣٢٥ قبل الهجرة

(الملك سواخوس ويسمى سباقوطيف)

بعضهم يسمى هذا الملك سباقون الثانى تولى مملكة مصر بعد موت أخيه سنة ١٣٢٥ قبل الهجرة وهو المذكور فى التوراة حيث ذكر أن ملك القدس لما خرج على ملك بابل المسمى سلامنصر استنجد بملك مصر المسمى سوار فنسده عليه فلا بد أن هذا الملك هو الملك سواخوس ومع أنه تعاهد مع ملك القدس لحرب سلامنصر فلم ينتفع ملك القدس بمعاهدته ولم ينتصر على عدوه ولم تعلم مدة حكمه وانما يظن أنها سبع سنوات تقريبا فيكون موته سنة ١٣١٨ وتولى بعده الملك طهراق

(الملك طهراق)

هو ثالث ملوك الدولة السودانية الخامسة والعشرين تولى مملكة مصر سنة ١٣١٨ قبل الهجرة وكان ملكا محاربا هازم ملك بابل كما يشهد بذلك ماذكر عنه فى التوراة وما نقله اسطرابونس المؤرخ ويعضد ذلك ما يفهم من المبانى المصرية فقد وجد من عهد قريب فى آثار مدينة آبو تمثال هذا الملك منقوشا عليها أنه حكم السودان والمصريين وافريقية جنوبا وشمالا وأن مملكة بابل كانت قيادة من مملكته وتابعة لمصر فى مدته وانما قيل ان هذه دعوى بدون دليل لاسيما لمن يعلم حقيقة مملكة بابل فى تلك الازمان حيث كانت دولة قوية وصاحبة صولة على بنى اسرائيل وأهل فلسطين وان مصر كانت فى ذلك الحين تخشى بطشها فلا يصح أن يكون لمصر عليها ولاء وسيادة فلم يكن لمصر مدة طهراق حكم على ممالك دجلة والفرات وانما شرعت مصر فى تسخير تلك الدولة فى زمن دولة نيخاو حين أغار على بابل وكثيرا ما تجد فى عنوان ملوك مصر تلقيبهم بملوك آسيا والظاهر فى هذا اللقب أنه ليس على حقيقته بل تلقيبهم بملوك الشام أيضا فيه تسامح منهم وتساهل لانهم لم يستقلوا بحكم الشام بالتصرف الحقيقى بل حكمهم فيه اسم بدون جسم وكانت مدة حكم هذا الملك خمسة

وعشرين سنة وبه انتهت حكومة الدولة السودانية الحقيقية وخلفتهم دولة أخرى مصرية صابئة وهي الدولة السادسة والعشرون ويقال ان ملكا بعد طهراق يسمى بيانكى وهو آخر هذه الدولة المصرية الخامسة والعشرين ومدة حكمه على ما يظهر ست سنين فتكون مدة حكم هذه الدولة خمسين سنة وانتهاؤها كما تقدم سنة ١٢٨٧ قبل الهجرة ولكن حقق بعضهم ان الملك بيانكى المذكور وزوجته الملكة أمونوروطيس التي وجد لها تمثال عجيب محفوظ بخزانة الآثار القديمة ببولاق حكما على اقليم الصعيد فقط في العهد الذى كانت فيه الاقاليم البحرية محكومة بالحكومة الاثنى عشرية التى ستذكر في الدولة المصرية السادسة والعشرين

الفصل التاسع في ملوك الدولة السادسة والعشرين وتسمى اصطفانيناطية

قال بعضهم انه كان قبل هذه الدولة دولة تسمى الجمهور الاثنى عشرى المتعاهد ويقال لها الحكومة الاثناعشرية وقد اشتهرت بذلك وأنها كانت سابقة على الدولة الاصطفانيناطية نسبة الى اصطفانيناطس أول ملوكها فعلى هذا يقال ان مدينة صا الحجر لما أفضى بها الحال الى انحطاط ملوكها وانقراضهم وضعفت مملكة مصر فتعصبت وجوه المدائن المصرية وأعيانها وعقدوا معاهدة بينهم على تخليص وطنهم من الاجانب فأخرجوا دولة السودان الحاكمة من الجهات البحرية وتقاسموا المملكة فكانت مصر بين اثنى عشر حاكما من أمراء المدن المتعاهدين كل أمير يحكم مدينة اقليم ويحكم ذلك الاقليم بتمامه فسميت هذه الحكومة بالمقاسمة الاثنى عشرية فكانت عبارة عن جمهورية التزامية الى أن استولى عليها الملك ابساميطيقوس صاحب مدينة صا الحجر وخلصها من يد الملتزمين واستبد بحكمها فبهذا صارت مملكة واحدة ويقال ان هذا الملك استعان في ذلك بعساكر يونانية متطوعة فقد حكى هرودوطس واقعة تملك ابساميطيقوس ملك مصر واستبداده به وتخليصه من أيدى حلفائه بواسطة عساكر اليونان على وجه غريب حيث قال ان بعض

الكهان كان قد أخبر هؤلاء الملوك المتعاهدين أن أحدهم لا بد أن يشرب الشراب ذات يوم للتقرب به الى صنم النار فى قدح من حديد وبهذا يصير ملكا على جميع الاقاليم المصرية وكانوا يشربون شرابهم فى اقداح الذهب فبينما كان هؤلاء الملوك الاثناعشر مجتمعين للتنادم على الشراب تقربا الى صنم النار ولم تكن أقداح الذهب المصفوفة بينهم الا أحدعشر قدحا بقى أحدهم وهو ابساميطيقوس بدون قدح فنزع مغفره من رأسه وكان من حديد فشرب فيه الشراب فتذكر رفقاؤه بشرى الكاهن السابق وتنبهوا لذلك فاكرهوه على أن يهاجر الى بعض أجمات بالوجه البحرى خيفة أن يستبد بالملك دونهم فأقام بتلك الجهات منفيا فبعد وصوله الى تلك الجهات أحضر كاهنا من الكهان وسأله عما سيقع له فأخبره أنه لا بد أن يستبد وحده بملك مصر وأن ينصره على اقرانه رجال من حديد يقدمون عليه من جهة البحر الابيض فاتفق أنه أرسى على بر مصر رجال أرباب صيال من ملاحى اليونان مسلحين بأسلحة من حديد وخرجوا فى البر على مقربة من منازل ابساميطيقوس لينهبوا البلاد ولكن لما تذكر ابساميطيقوس أن خبر الكاهن ربما يتحقق بذلك بادر الى عساكر اليونان ورحب بهم وأكرم نزلهم ووعدهم بالانعام وتحالف معهم على أن ينصروه فدخلوا فى خدمته واستعان بهم على شن الغارة على أقرانه وانحاز اليهم حزبه المصرى فتلاقى جنده بجند أعدائه فظفر بهم وخلعهم عن أسرة ملكهم واستبد بالملك وحده فكان هذا مبدأ الدولة الصاوية السادسة والعشرين فبانفراده هذا الملك بالحكومة انفتح لمصر ثانيا باب المجد المؤثل وعاد لها رونقها الاول ورجعت لها شوكتها القديمة وطمعها فى الغزوات الجسيمة ونالت من التوسيع دائرة ملكها غاية المطلوب واكتسبت من حفظ ناموسها نهاية المرغوب ومن هذا يفهم أن بين الدولة السودانية والدولة الاصطفانيناطية فترة وهى مدة الدولة الاثنى عشرية وقال بعض المؤرخين انه لا فترة بين الدولتين وصححه

وبيانه أنه لما شق على أهل مصر تحمل حكم الملوك السودانية مع عدلهم وكانت الامة المصرية أصعب ما على نفوسها الانقياد للاغراب اجتهدوا كل الاجتهاد فى طردهم وتقرير زمام المملكة لعائلة مصرية وكانت فى ذلك الوقت

مدينة صا الحجر مدينة شهيرة بعظم مبانيها وكثرة ما ثرها وبما فيها من المدرسة الكهنوتية الجامعة لانواع العلوم والمعارف فكان لها الارجحية على غيرها من مدن ذلك الزمن فانتدب بعض أمرائها وهو اصطفاينطس فقاد العساكر وهجم على الطائفة السودانية فهزمهم وطردهم من الاقاليم البحرية واستبد بالملك وجعل كرسى مملكته بمدينة صا الحجر فهو أول الدولة الصاوية ظاهرا ولكن أولها فى الحقيقة الملك ابساميطيقوس فانه هو الذى تمم انفصال السودان عنها بالكلية وقد حقق بعض الاستكشافات الجديدة أن الدولة الاثنى عشرية أقامت متخالفة مدة خمس عشرة سنة ثم جاء بعدها ابساميطيقوس حيث أغار على مخالفيه وهزمهم كما تقدم ذكره ويظهر لبعض المؤرخين أن ماولة هذه الدولة بل والامراء الاثنى عشرية من نسل الامراء الاغراب وأنهم من مغاربة برقة وان جعلهم كثير من المؤرخين من أبناء أمراء مصر المتأصلين وعلى كل حال فهذه الدولة سواء كانت متأصلة أو أجنبية فقد أورثت الديار المصرية السعادة والرفاهية مدة مائة وثمان وثمانين سنة بما اجتهدت فيه من محبة الفنون والصنائع وبنائها كل القديمة بعد اندراسها وتجديد معابد أخرى حديثة وتشييد أبواب مدينة صا الحجر سرير مملكتها فانها بنت بها أبوابا كبيرة جدا حتى قال المؤرخ هيرودوطس بأنه لم يشاهد مثل عظم هذه الابواب بسائر الديار المصرية ولكن هذه المدينة الشهيرة قد اندرست مع ابوابها بعد أن رجعت ناكصة على أعقابها ولم تزل الرسوم الباقية الى الآن تدل على عظمها وقد كان سابقا حواليها ما لا يحصى من الحدائق والبساتين والطيور المغردة والوحوش المستأنسة والانهار المطردة والرياض المونقة والقصور المرتفعة التى كانت شرفاتها من حجارة ملونة تلمع اذا أصابتها الشمس فينتشر شعاعها على ما حولها وكانت فيها جميع آلات النغمة وادوات الرفاهية وكانت العمارات منها ممتدة فى رمال رشيد ورمال الاسكندرية قال بعض الثقات ممن دخل مدينة صا ومشى فى خرابها انه وجد لبنة طولها أربعة أشبار فكسرها وجعل يتأملها فاذا فيها سنبلة قمح قدر شبر وافر كأنها كما حصدت ففركها بيده فخرج قمح أبيض كبار حبه جدا فى قدر حب اللوبيا فلم يجد فيه تغيرا

ومن آثارها هيكل الملك أبرياس وهو هيكل عظيم يضاهى أعظم العمارات المصرية التى بناها من قبلهم من ملوك مصر وبه قبره ولعل هذا الهيكل هو هيكل عطارد الذى هو مدبر الحكمة فان هذا الهيكل من عمارات صا الحجر كما ذكره المؤرخون وفى هذه المدينة أيضا قبر الملك أماسيس ومما يوجد بهذه المدينة أيضا من الآثار العظيمة تمثال عظيم الارتفاع يبلغ ارتفاعه خمسة وسبعين قدما وهو كالتمثال الذى بمدينة منف من آثار الملك اماسيس وقد كان أحضر الملك اماسيس لتصليح الهيكل الموجود بتلك المدينة أحجارا ضخمة زائدة فى الضخامة بعضها من مقاطع الاحجار بطرة وبعضها من محاجر أسوان وهى الجافية فى الحجم وبالجملة فأعظم آثار مدينة صا الحجر معبد صغير متخذ من قطعة حجر واحدة كان قد نقله الملك اماسيس من جبال جزيرة أسوان الى مدينة صا الحجر واستعمل على نقله من تلك الجهة ألفين من العملة فنقلوه الى السفن فسارت به على النيل مسافة ثلاثة أشهر وطوله من الخارج اثنا عشر مترا فى عرض سبعة أمتار وسمكه أربعة أمتار وكان يعمل لهذه المدينة عيد قديم حافل وموسم عظيم جامع للخاص والعام يسمى عيد المصابيح توقد ليلته بالوقدات العجيبة ولما كانت هذه المدينة غاصة بالحكمة والعلوم النافعة انجذب اليها فلاسفة اليونان وصاروا يحجون اليها من جميع الجهات ومنها اقتبست العلوم والمعارف أثينة مدينة الحكماء اليونانيين على ماذكره مؤرخوهم بل قد دل التاريخ على أن مدينة أثينة هى مؤسسة من قبيلة مصرية وذلك ان اسقروبس المصرى هاجر من مدينة صا مع فرقة مصرية وركب البحر حتى رسا على ساحل اليونان ودخل اقليم أثينة مع حزبه وكان ذلك فى أثناء القرن الثالث عشر قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية فأسس هنالك اثنتى عشرة قرية فصارت هذه القرى فيها مدينة أثينة ورتب هنالك جمعية الاحكام والقوانين وعلم يونان تلك الناحية العلوم الدينية والفنون الزراعية وعقود النكاح وصناعة النقش والفنون المصرية فهو المؤسس لمدينة أثينة التى هى من أعظم مدن اليونان

وكانت هذه الدولة السادسة والعشرون مالكة عقب دولة أجنبية حسنة الفعال فأرادت أن تجتهد غاية الاجتهاد وتضاعف همتها فى تشييد أوطانها

وتأييد عمائرها وبنيانها حتى تظهر المزية وتستبين المحبة الوطنية التى هى من الامور الجبلية فصنعت من العمائر بمدينتها نظير ما صنعه من قبلهم بالف سنة ملوك الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بمدينة طيوة وكذلك قد جددت هذه الدولة السادسة والعشرون جملة قبور جملة جهة العصاصيف من مدينة طيوه بالصعيد تميز عن غيرها بما فيها من السعة وحسن صنعة التصاوير المزينة وكذلك وجد بطريق الاستكشاف ألواح حجرية بقبر العجل ابيس بسقارة فيها بيان جميع الآثار والعمارات التى حدثت فى عصر بعض ملوك هذه الدولة المعنونين بعنوان ابساميطيقوس وعلم منها أن المصريين كانوا يحافظون على تقييد عنوان قبر كل عجل يعبدونه فى ضمن لوح من الحجر ويدفنون كل لوح فى قبر عجله وجميع تسجيل هذه العناوين بصورة توثيق واحدة يثبتون فى هذه الوثيقة الحجرية تاريخ مولد العجل وتاريخ وفاته ومدة عمره مبينا فيه السنون والاشهر والايام ويؤرخون ذلك من ابتداء حكم الملك الحاكم وكذلك مما يوجد لبعض ملوك هذه الدولة آثار متفرقة بصخور أسوان ومحطة الحامات ومدينة طيوة وبالعرابة المدفونة وسقارة ولكن آثارهم الكبيرة بمدينة صا الحجر كما تقدم ولم يكن لها حظ فى الحروب والغزوات وفتح البلاد فان الملك ابساميطيقوس شرع فى فتح بر الشأم وحاصرها تسعة وعشرين سنة وعجز عن الاستيلاء عليها وكذلك شرع الملك نيخاوس أن يعيد ما كان للديار المصرية من اليد القديمة على بلاد الجزيرة بين دجلة والفرات فلم يستطع ذلك بل لاقاه الملك بختنصر فى مدينة كركميش ولم ينج منه الا بالفرار وكذلك بعث الملك ابرياس الجنود الى بلاد القيروان ليفتحها فانهزم مواعدة مرات وقتل منهم خلق كثير وقد جبر عدم فلاح هذه الدولة عنايتها بمادة التمدين ونشر أسباب العمارة والتحسين وفتح أبواب المدن المصرية لقبائل العرب واليونان وأهل الشأم وساحل البحر الابيض لتكثير التجارات والصناعات بالمخالطة مع الاغراب

وقد جعل المؤرخون عدد ملوك هذه الدولة تسعا وأنهم حكموا مائة وثمانية وثلاثين سنة وأما ابتداء حكمهم سنة ١٢٨٧ وانتهاؤه سنة ١١٤٩ قبل الهجرة وأولهم الملك اصطفانيناطيس وآخرهم الملك ابساميطيقوس الثالث

(ذكر ملوكها)

١ الملك اصطفانيناطيس
٢ الملك ناخبسوس } ثلاثة ملوك
٣ الملك نيخاوس الاول

هؤلاء الملوك الثلاثة لا يعلم لهم مآثر ولا مناقب ولا محاسن مباد ولا عواقب وانما يقال انهم من هذه الدولة السادسة والعشرين ولعل مدة ملكهم كانت نحو خمس عشرة سنة وأنها عين المدة التى حكمها امراء الدولة الاثنى عشرية بل ربما كان هؤلاء الملوك الثلاثة معدودين على التعاقب من عصبة هؤلاء الامراء والمدة واحدة أو أنهم كانوا معاصرين لهم فالمدة واحدة أيضا وبالجملة فمدتهم نحو خمس عشرة سنة وأول ملوك هذه الدولة فى الحقيقة هو الملك ابساميطيقوس الاول

(الملك ابساميطيقوس الاول)

تقلد هذا الملك مصر سنة ١٢٧٢ قبل الهجرة المحمدية ويسمى هذا الملك أيضا ابساميطيق وهو فى الحقيقة مفتاح فخر هذه الدولة ومصباح تاريخها وهو صاحب الفتوح وعلى لسان جميع الاخباريين هو المحمود والممدوح له مآثر تاريخيه فى مبانى طيوه وفى أعمدة الكرنك وفى جزيرة الصنم مما يدل أيضا على أنه قطع من محاجرها أحجارا كثيرة منها ما أدخله فى المبانى والعمارات ومنها ما أصلح به الهياكل القديمة المحتاجة للترميمات وفى محاجر طره يوجد اسمه منقوشا على حجر كبير وهذا يدل على أنه قطع أيضا من محاجرها القليل أو الكثير وقد اعتنى بعمل تاريخه مؤرخو اليونان لانه أول ملك مصرى له الفضل عليهم حيث قربهم الى بلاده واستمال قلوبهم بالدخول فى رياسة جماعاته وأجناده وخالف فى ذلك عوائد من تقدمه من الدول وخص يونان آسيا وأوروبا من بين الاجناس والملل وأقطعهم الاقطاعات من الاراضى المصرية وسوى بينهم فى الحقوق وبين طوائف الجنود الوطنية وأدناهم وجعلهم من المتقربين فى المعية وأعطاهم غلمانا من المصريين لتعلم اللسان اليونانى منهم حتى يترجموا بين اليونانيين والمصريين ففى أيامه كثرت بوسيلة

الترجمة التجارات والمعاملات وسهل الاخذ والعطاء بسهولة المخالطات وتأسست بالقطر المصرى العمائر التجارية وبهذه الوسيلة عرف اليونان تاريخ مصر على الحقيقة واستقام نقل الاخبار المصرية على أحسن طريقة وهذه أول مرة تكلم فيها اليونان بلسانهم فى البلاد الاجنبية لان أول اقامة لليونان فى غير بلادهم انما كانت فى الديار المصرية ولما رأى همة هؤلاء اليونان ومساعدتهم له فى أى مكان وزمان أكثر لهم المرتبات ورتب لهم قشلاقات ومحطات وجعل معسكرهم بين مدينتى تنيس وبسطة فى الولاية المعتادة للجنود الوطنية وقلد منهم رجالا وابطالا مناصب سامية بلدية وحين غزوه بلاد الشأم أعطى دائرة المعاونة منهم وظائف تشريفية وجعلهم على ميمنة الجنود الاهلية فاستشاطت جنود مصر غيظا من ذلك وصمموا على الفرار من مملكة مصر الى غيرها من الممالك فهرب منهم نحو مائتين وأربعين محاربا من فحول الرجال ممن كان معدودا من كبار الابطال فبهذا داخل قوة مصر بعض ضعف واضمحلال فاجتهد هذا الملك فى استمالتهم اليه ووعدهم براحتهم حين القدوم عليه ولم يجد ذلك أدنى فائدة بل اختاروا الاقامة بين أظهر الاجانب وبقيت هذه الجنود على ما كانت عليه شاردة آبدة فأقطعهم ملك النوبة بعض أراضى ليتعيشوا فيها فتوطنوا هنالك بموطن يسمى دار المصريين المهاجرين

فلما أيس منهم ملك مصر قوى روابط المحبة مع الاجانب وأكثر ما استطاع من جلب العساكر الاجنبية من عرب وغيرهم وغرضه الاصلى من ذلك أن يأمن من هجوم الاغراب مثل العجم فلم يفهم أهل مصر ذلك وحقدوا عليه باطنا فأكد الروابط بينه وبين الكهنة ليطمئن من جهتهم فأجرى العوائد والصلات على المعابد والهياكل وانفق عليها النفقات الجزيلة وبنى فى منف ضلعا من هيكل النار وشيد هيكل معلف العجل أبيس المنتظر الظهور بعد العجل أبيس الذى نفق بالموت على عادة ذلك الوقت واشتغل بالتراتيب الملكية والتنظيمات الادارية وتكثير الايرادات المالية بشمول أنظاره على التجارات الخارجية وجدد معاهدات تجارية بينه وبين اليونان والصوريين فبهذا صارت مصر مركزا لتجارة الامم والملل وتكاثرت الاسفار البحرية والبرية ذهابا

وايابامع كمال الامنية على النفوس والاموال فصار لا يقتل الغريب القادم
على مصر ولا يستعبد كالسابق حتى ان المعاهدة مع الصوريين عادت على مصر
بالغنى والثروة لانهم لهم التقدم فى التجارة والملاحة اذ كانت مملكة صور
مخازن جميع الدنيا وكانت ميناتها وسواحلها مطمعا للفتوح المصريين
ومطمحا للانظار ملوكهم الاقدمين فانتهى الحال بهذا الملك ان أضمر فتوح
بلاد الشأم وحاصر بعض قلاعها واستولى عليه بعد تسعة عشر من الايام
وقد طال عمر هذا الملك الذى كان يلقب بشمس الملة وسليم الجبلة فمات سنة
١٢١٧ بعد أن حكم نحو أربعة وخمسين سنة وأبقى سيرته مستحسنة وترك
لابنه نيخاوس الثانى اتمام المشروع وهكذا ما ابتدأته الاصول يكون تتميمه
على الفروع

(الملك نيخاوس الثانى المسمى فرعون الاعرج)

تولى ملك مصر بعد موت أبيه فى نحو سنة ١٢١٨ قبل الهجرة النبوية
فاستدام حرب الشأم وهزم جند عدوه واستولى على جميع ديار الشأم وكان
قد أعد اذ ذاك سفنا بحرية وترسانة مصرية بقيت آثارها الى زمن أسفار
هردوطس فى مصر فكان هجوم هذا الملك على الشأم برا وبحرا وقصة ذلك
مفصلة فى التوراة فى السفر الثانى من كتاب الملوك وملخصه ان فى أيام يوشيا
ملك يهوذا سار نيخاوس ملك مصر الى نهر الفرات لحرب ملك تلك الجهة فذهب
الملك يوشيا نحوه ليقاتله فقال له فرعون اذهب عنى ليس اليك جئت فلم يسمع
منه يوشيا فضربه فرعون بسهم فى الترقوة فقتله فى مجدله نخيث أبصره هنالك
وقبر فى أورشليم فاختار اليهود ولده ياهوحاز ويسمى يواش وملكوه عليهم
فأقام ملكا باورشليم ثلاثة أشهر فأساء فى الحكم وعطل أحكام التوراة
فأسره نيخاوس ملك مصر عند مدينة حماة لما غلب على أورشليم وولى بدله أخاه
الياقيم ملكا عليها ويسمى أيضا يوياقيم واستصحب فرعون ياهوحاز ودخل به الى
مصر أسيرا الى أن مات هنالك فى أسره وكان فرعون ضرب على أورشليم وهى
مملكة يهوذا خراجا مائة قنطار من الفضة وعشرة ذهبا فصار يعطيها يوياقيم
لفرعون حيث كانت تؤخذ من البلاد باسم فرعون ويجمع من الاهالى على

قدر أحوال الهدم وفى أيام يوياقيم المذكور تولى بختنصر ملك بابل فغلب على أورشوليم وانقطع حكم فرعون مصر عنها ولم يعد أيضا ملك مصر للخروج الى الشأم ولم يتطلب خراجها الان ملك بابل أخذ من نهر مصر الى نهر الفرات جميع الذى كان لملك مصر انتهت عبارة التوراة وقد ذكر مانطون ان مدة حكم نيخاوس كانت ست سنوات فهل هذه المدة توافق ما فى التوراة وهل نص التوراة يعضدها الجواب عن ذلك أن الملك نيخاوس الثانى هزم يوشيا وقتله فى الواقعة المذكورة وتولى بعده الملك ياهوساز وحكم ثلاثة أشهر فقط وعزل وقبض عليه أسيرا وتولى بعده يوياقيم أخوه وفى السنة الرابعة من حكمه على أورشوليم خرجت بلاد الشأم من حكم الملك نيخاوس عقب الهزيمة التى حصلت له على نهر الفرات حيث ظهر عليه بختنصر واقتفى أثره الى ان أدخله فى مصر حد مملكته فموته عقيب هزيمته وعوده من الشأم يؤيد صحة هذه المدة التى حكاها مانطون

وبمناسبة ذكر بنى اسرائيل هنا لا بأس بذكر نبذة تتعلق بهم فنقول هذه الامة هى بيت النبوة ومعدن الرسالة من بنى آدم وجمهور الانبياء عليهم السلام منهم وكانت مساكنهم ببلاد الشأم وبها كان ملكهم الاول والآخر الى أن أجلاهم عنها المرة الاخيرة فى طيطوس الملك الرومى ومزق ملكهم وبدد جمعهم فتقطعوا فى البلاد أيدى سبا وتفرقوا فى أقطارها شذر مذر فليس فى معمور الارض مملكة الا وفيها منهم فهم منشورون فى مشارق الارض ومغاربها وجنوبها وشمالها ولم يخل منهم الا الحجاز فان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أجلاهم عنها لامر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك بقوله لا يبقين دينان بجزيرة العرب ولم يشتهروا الا بالعناية بعلوم الشرائع وسير الانبياء فكان أحبارهم أعلم الناس بأخبار الانبياء وعنهم أخذ ذلك علماء الصحابة كعبد الله بن عباس وكعب الاحبار ووهب بن منبه ولم يشتهر علماء اليهود بعلم الفلسفة ولكن ربما كان فى أيام دولتهم من عنى منهم ببعض علوم فلسفية وقليل ما هم وانما يعلم أن لهم حسابا دقيقا فى تاريخ شريعتهم ومعاملاتهم لكن لا يعلم هل هو من نتائج عقول علمائهم أو رتبه لهم بعض العلماء من غيرهم فلما تفرقوا فى البلاد بعد ذهاب دولتهم وداخلوا الامم تحركت همم قليل منهم لطلب العلوم النظرية

واكتساب الفضائل العقلية فقال أفراد منهم ماشاؤا من فنون الحكمة
ويفهم مما تقدم أن نيخاوس لما ظهر عليه بختنصر واقتفى أثره من الفرات
الى ان أدخله فى مصر التى هى آخر حدود ممالك بختنصر مات هذا الملك حتف
أنفه عقب هذه الهزيمة بعد دخوله مصر بدون أن تقع مصر فى قبضة بختنصر
ولا دخلت فى حكمه المذكور خلافا لما ذكره بعض المؤرخين من أنه دخلها
ودمرها وقتل ملكها وافتتح بلاد المغرب وخلافا أيضا لما قالوه من أنه ملك
الدنيا بأجمعها والآية الشريفة تدل على أنه كان مسلطا على بنى اسرائيل جزاء
لهم على اختلافهم وظلمهم فقد قال تعالى وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب
لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا
عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد يعنى بختنصر وأصحابه فجاسوا خلال الديار
وكان وعدا مفعولا

وقال بعض المؤرخين ان فرعون الاعرج يعنى نيخاوس كانت له حروب وسير
فى الارض وهو الذى غزا بنى اسرائيل وخرب بيت المقدس مرة قبل بختنصر
وبالجملة فمن تشبثه بالحروب وسيره للغزو بالجنود الكثيرة وتعميره للسفن الحربية
بقصد الفتوحات يفهم أن همته فى ذلك كانت كهمة أبيه كبيرة واعمالم
تساعده المقادير ولا صفت له الاوقات

ولم يكن جهده مقصورا على الاشغال الحربية بل كان كأبيه له عناية بتدبير
داخل المملكة وتحسين أحوال الرعية وتوسيع دائرة التجارة فتواتر فى أيامه
الاختلاط بالاجانب وتشعب فروع المعاملات وسهل الاخذ والعطاء بواسطة
التعارف والتخاطب والترجمة فاستدعى الحال لتشبث هذا الملك بمشروع
جسيم سنح بباله وسمح به دهره له دون أمثاله وهو وصل بحر القلزم بالبحر الرومى
بقطع برزخ السويس بترعة موصلة للنيل على امتداد أربع مراحل بحرية
عرضها يسع سفينتين متحاذيتين مبدأ هذه الترعة من مدينة بسطة وآخرها
بركة التمساح حيث ماء بحر القلزم كان مجراه بالقرب من ذلك فشرع فى هذا
المهم الجسيم فهلك فى أثناء هذه العملية مائة وعشرون ألف نفس على ماحكاه
هردوطس فأوقف هذا الملك هذه العمليات لاسيما وقد أخبره بعض الكهنة
ان هذا العمل يكون حظ الانتفاع به لدولة أجنبية وقال ارسطاطاليس انما ترك

نيخاوس وغيره من الفراعنة عملية الترعة بعد أن ابتدؤها لما أفادهم المهندسون ان سطح البحر الاحمر أعلى من أرض مصر فلهذا لم تنته العملية الا الى بركة التمساح المسماة بالبحيرات المرة

وقد شرع دارا الاكبر ملك الفرس فى فتحه ولكن ترك العمل خوفا من اغراق البلاد بسبب ارتفاع سطح البحر الاحمر على أرض مصر ثم تممه الملوك البطالسة وأوصلوه الى البحر الاحمر واستعانوا على سلامة الاراضى المصرية من التلف بأبواب وأقفال ورياحات فكان نافعا للتجارات ثم طم وبقى مسدودا الى فتوح مصر بالاسلام حتى أمر بفتحه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ثم سد فى زمن المنصور الدوانقى العباسى ولم يزل فى بال الدولة العلية فتحه والآن صار التشبث بذلك بعناية الحكومة المصرية وبهمة مولى مصر حضرة اسمعيل باشا ينتهى انجازه على صورة مرضية مع حسن الروابط التجارية والسياسية الاحتراسية التى لم تخطر ببال سلفه

ومع ان الملك نيخاوس أبطل اشغال الترعة السويسية التى هى مقصد فخيم فى المنافع المصرية فقد اجتهد فى مقصد آخر شريف ومطلب سام منيف له فائدة قوية على المصالح التجارية وهو الشروع فى معرفة محيط قطعة افريقية والوقوف على مسالكها البحرية على وجه الحقيقة فكلف البحريين من أهل صور والملاحين منهم ممن لهم خبرة بالبحور على ممر الدهور والعصور وحملهم على أن يرحلوا من خليج العرب وأن يعودوا من بوغاز سبتة وان يستكشفوا البحار والبرور والجزائر لبلوغ الارب فتوجهوا بعدة سفائن من بحر القلزم واخترقوا البحر المحيط الهندى واستكشفوا المسالك المجهولة فى تلك الازمان ومروا بالرأس المسمى رأس بونس برانس يعنى رأس عشم الخير واقتفوا فى مسيرهم سواحل غرب افريقية حتى وصلوا الى بوغاز طارق المسمى بحر الزقاق ومنه دخلوا الى البحر الابيض المتوسط حتى وصلوا الى بر مصر وبالجملة فقد أنجزوا هذا السفر وعادوا بعد نحو ثلاث سنوات وحرروا بالتحرى ما ظهر لهم من الاماكن والمسافات فبهذا علمت سواحل افريقية وما حولها من البحار على وجه الصحة ولكن غاب علمها عن العقول وتناسى الناس فى أقرب وقت خبرها المنقول فلم تعد منها على الجغرافيا ثمرة مستمرة وأتى عليها حين من

الدهر

الدهر لم تكن شيأ مذكورا بالمرة
وقد حكم هذا الملك ست سنوات على رواية مانطون ومات فى سنة ١٢١١

(الملك ابساميطيقوس الثانى)

هذا الملك يسميه المؤرخون ابساميس صعد على سرير مصر بعد الملك نيخاوس سنة ١٢١١ وحكم ست سنوات ولو أن بعضهم جعل مدة حكمه أكثر من ذلك وغزا بلاد النوبة ومات فى رجوعه من الغزوة فى سنة ١٢٠٥ وسيأتى ان احدى بناته تزوجت الملك أماسيس المغتصب للمملكة المصرية وأنها ولدت منه ولدا سمى باسم جده وتولى ملك مصر بعد أبيه أماسيس

(الملك ابرياس)

تولى هذا الملك سنة ١٢٠٥ قبل الهجرة ويسمى فى فهرسة مانطون فبريس ويسمى فى التوراة خفرى بالخاء والحاء ويسميه هردوطس افريس وفى التوراة انه استنجد به صدقيا ملك يهوذا على بختنصر ولم تنفع اغاثته بشئ فان بختنصر ذبح أولاد صدقيا امام أبيهم ثم فقأ عينى صدقيا وسلسله وحمله الى بابل وسجن فيها الى أن قتل صبرا كما سيأتى
وقد بعث ابرياس بعد ذلك بعوثا لغزو بلاد القيروان ولكن لم ينتصر فيها أيضا بل كانت الهزيمة على جنوده وانتهى أمر عسكره ان رفعت راية العصيان فأرسل اليهم ابرياس أماسيس ليخمد نار هذه الفتنة ليرجع الجنود عن العصيان فذهب أماسيس الى العسكر وكان من ابطال جند ابرياس وأراد أن يعظهم وينصحهم عسى أن يعودوا للطاعة فبينما هو فى أثناء ذلك اذ أحاط به أحد الجنود وألبسه خوذة فى رأسه كالتاج وصاح بأعلى صوته قد رضينا بك ملكا علينا فلم يمتنع أماسيس من قبول ذلك وسار على رأس الجند لقتال ابرياس ولم يكن فى صف ابرياس الا الجنود الاجنبية المحكمة فتلاقى الصفان عند مدينة منوف السفلى والتحمت المعركة فكانت عساكر ابرياس المحكمة تقاتل بغاية من الشجاعة والهمة ولقلة عددهم انهزموا اشر هزيمة ووقع ابرياس فى قبضة خصمه اماسيس فسار به الى مدينة صا وحبسه فى القصر العظيم الذى كان

يسكنه قبل وقوعه فى الاسر وأحسن فى حقه الصنيع وعامله أحسن المعاملة وأظهر له مكارم الاخلاق وحفظ ناموسه
ولكن قد اغتنم جنود مصر ما حصل لهذا الملك من الضيم والذل بالعزل والسجن مع ما كانوا عليه من الحنق والغيظ لكسر أنفهم باغرائه العساكر الاجنبية عليهم جبروا الملك اماسيس على أن يسلمه لهم فبمجرد ما قبضوا عليه قتلوه خنقا فى سنة ٥٩٢ بعد أن حكم نحو اثنتى عشرة سنة

(الملك اماسيس)

تولى هذا الملك سنة ٥٩٢ تقريبا قبل الهجرة وقد سبق أن تقليده ملك مصر كان بانتخاب الجنود وفى مبدا أمره لم يكن لاهل مصر عظيم احترام ولا مزيد اعتبار فى حقه لانه لم يكن ذا حسب رفيع ولا نسب عريق ولكن سلك مسالك الحزم والكياسة وذهب مذهب حسن التدبير والسياسة فقام شأنه وعظم سلطانه ولما استشعر بما خطر فى بعض النفوس من اعتقاد ضعته وخسة حسبه جمع محفلا عاما وتمثل فيه باناء من ذهب كان مستعملا فى استعمالات العادة ثم استحال الى ان صار تمثالا للعبادة فعظم حينئذ محله فى النفوس وصار مرعى الحرمة والناموس
ولما كان هذا الملك ذكى الفطنة جيد القريحة أحسن تدبير الملك مع القيام بحظوظ نفسه وتوفيته بملاذها الصحيحة فوفق بين مصلحته الخصوصية ومصلحة مملكته العمومية فقد قال ذات يوم لاخصائه أما علمتم ان القوس لا يوتر الا عند الحاجه ويرخى متى فرغ القصد منه حيث أنتج الشد انتاجه وهكذا الانسان اذا انهمك على شغل جد صعيب فلا بد أن يعطى لنفسه الراحة ويبلغها من الحظ ما تستروح به وبه تستريح اليه كمال الاستراحة والا ان استدامت على الجديات داخلتها الحماقة والغفلة على تداول الاوقات واستعدت للوساوس والجنون وصارت غير قابلة لادراك السر المصون وقد بالغ المؤرخ هردوطس فى مدح هذا الملك حتى جعل أيامه أعظم من أيام من سواه من الملوك وان مصر لم تخصب فى أيام غيره كخصبها فى أيامه الهنية ولم يفض النيل على مصر بالخيرات فى مثل أيامه ولا صارت قبله كما فى عهده مربعة غنية حتى قيل ان مدن مصر

بلغت

بلغت فى عهده عشرين ألف مدينة عامرة والظاهر انه معدود منها الكفور والقرى التى كانت زاهية زاهرة كالمدائن بل الظاهر أن هذا من مبالغة المؤرخين كما هو العادة

وقد أخذ هردوطس حصر هذا العدد من أمناء الدين بمصر والكهان وكانوا يحبون المغالاة والاطراء فى مدح مصر فى أيام العجم ليظهر بذلك فخرها فى عهد ملوكها المتأصلين لنكاية هؤلاء الملوك الاجانب وللتمدح لما سبق لملوك الوطن من الرغائب والغرائب وكان من أعظم أسباب ثروتها أيضا التجارات العظيمة لاسيما مع أمم اليونان فانهم كانوا فى ذلك الوقت عندهم حركة التجارة والصناعة مما تحصلوا عليه بمخالطة المصريين ولذلك كان هذا الملك دائما مساعدا لليونان شاملا لهم بانظاره الخصوصية فقد رخص لهم الاستيطان بالديار المصرية فى مدينة نقراطيس التى محلها الآن نذرفوه على قول بعضهم وبعضهم يجعل محلها كوم نكراش وجعل محلها العالم الفلكى محمود بك بالاستطها رنقرهة بجوار دمنهور البحيرة لقرائن اثرية دلته على ذلك وقد أباح لهم أن يتمسكوا بأصول دياناتهم وأقطعهم أراضى مخصوصة ليبنوا فيها معابدهم وهيا كلهم ومذابحهم على اختلاف طوائفهم وأديانهم ومذاهبهم وعقد مع حكومة أثينة معاهدة واستولى على جزيرة قبرص وأضافها الى مملكة مصر ولم تكن قبل ذلك دخلت هذه الجزيرة فى حكم مصر ولا أضيفت الى اياالاتها الا هذه المرة وعقد أيضا المعاهدات مع أمم أخرى كأمة القيروان بافريقية وكان له مخاطبات ومراسلات مع الملوك الاجانب وقد بقى فى التاريخ مراسلته الى ملك جزيرة صيصام المسماة سيموس ينصحه فيها بنصيحة خيرية اقتضاها الحال بقوله لا تأمن صروف الزمان بل تجهز لنوائب الحدثان واقمع النفس بالزهد فى الدنيا عن اتباع هواها واعصها ولا تبلغها بالتشهى مناها فبمجرد وصول هذه النصيحة الى الملك المذكور كان باصبعه خاتم جوهر نفيس لا يؤثر عليه شيأ من زينة الحياة الدنيا فألقاه فى اليم حيث عزم على الزهد وصمم ولكن سعد هذا الملك القائم جمعه فى أقرب وقت بهذا الخاتم وذلك أنه ابتلعه حوت عظيم وقع فى شبكة صائد وحكم ان هذا الحوت يصلح لمائدة هذا الملك دون غيرها من الموائد فوجد الملك الخاتم فى جوف الحوت ففهم منه أن الاشياء سعود وبخوت ومع ذلك

فقد دارت فى الاواخر دوائر الزمان على كل من الملكين وصح مضمون ما فى الرسالة من العنوان فالعبرة انما هى بالخواتيم والعواقب ولا أمن لاحد من صروف الدهر والنوائب وكان للملك أيضا مراسلات مع سولون حكيم اليونان وكانت المخاطبة بينهما متواترة لاقتباس الفوائد والعرفان فلهذا كان لهذا الملك ذكر فى محفوظات الافاضل فكان تاريخه قائم البرهان والدلائل وقد تزوج بتمام بنات ابساميطيقوس الثانى تسمى عنق ناس اصطفاها من العائلة الملكية لبوسس لنسله منها دولة صاحبة حق على أمكن أساس فولدت له ولدا سماه ابساميطيقوس باسماء جدوده وتوسم فيه أن يكون خليفته وولى عهده وقد مات هذا الملك بعد أن حكم أربعا وأربعين سنة على ماذكره المؤرخون وعضده مع ماوجده مرسوما على الهياكل والمبانى الباحثون وان كان على موجب مافى الجدول لم يعط له من الحكم الا نحو خمس وثلاثين سنة وخلفه ابنه وتلقب ابساميطيقوس الثالث ومدة حكمه كانت فى تاريخ هذه الدولة السادسة والعشرين مدونة

(الملك ابساميطيقوس الثالث)

هذا الملك هو آخر ملوك الدولة الصاوية وهو تاسعهم ويسمى عند المؤرخين وفى فهرسة مانيطون تارة ابسامقريطس وتارة أخرى ابسامينيطس ومرسوم على المبانى باسم ابساميطيقوس وابساميطيق باسم أجداده لامه ولم يذكر التاريخ له شيأ من المناقب الا كونه زال فى زمان حكمه ملك مصر عن الفراعنة وانقرضت فى أيامه دولتهم وأنه حكم ستة أشهر بحيث لا يكاد يعرف له أمر ولا نهى ولا يكاد يستشعر بتملكه وقد اقتضت صروف الزمان بتملك دولة العجم للمملكة المصرية بعد غزوة مجهزة مدة سنين آل أمرهم فيها الى هزم آخر فراعنة المصريين وانتقال الملك الى دولة العجم سنة ١١٤٩ قبل الهجرة بعد حكم الدولة السابقة مائة وثمانية وثلاثين سنة

الفصل العاشر فى ملوك الدولة السابعة والعشرين وهى دولة العجم وتسمى دولة الفرس

عدد ملوك هذه الدولة ثمانية ومدة ملكهم مائة و ٢٠ وعشرون سنة وابتداء ملكهم سنة ١١٤٩ قبل الهجرة وبيان ذلك أنه قبل انقراض الدولة السابقة بنحو اثنتى عشرة سنة كان ظهر فى آسيا الغربية أمة خاملة لا ظهور لها ولا ديانة وانما هى اخلاط ناس فاجتازت نهر الرس هائمة لا تدرى أين تتوجه وانضم اليها قبائل مثلها من البلاد المجاورة لحدودها وسارت جهة الشمال الغربى من آسيا تحت قيادة قائدها كيروس ويسمى كورش ليس من بيت الملك وهو كسرى الاول من ملوك الفرس ولا يصدها فى طريقها أحد ولا يمنعها مانع وكان كورش رئيس جميع هذه القبائل والطوائف ومصحوبا بعباد المجوس وكان ضباط هذا الجيش من أمراء الفرس السكينية وكانت الطائفة المقدمة على غيرها من طوائف هذا الجيش طائفة الفرس فعدى كورش بجيشه الجرار نهرى دجلة والفرات وجعل معسكره فى اقليمى خوزستان والعراق واستولى على المدينتين العظيمتين وهما خوزست وبابل ثم تغلب على بلاد الشأم بدون ممانع وضرب الخراج على ملوك الشأم وجعل على أهل الشأم مغارم فى نظير ترخيص استدامة التجارة لهم ببلاد الجزيرة بين دجلة والفرات وصارت الشأم فى أيام كورش ايالة من ايالات العجم فمات كورش الا وجنوده كانت مشرفة على الاستيلاء على مصر فتولى ابنه قنبيشاش المسمى كمبيزأ وقنبيسوس على مملكته فسار على سيره فى الحكم والاغارة وتمم مشروع أبيه وفتوحاته فهجم على مصر هجوم السيل على الاباطح فأغرقها فى بحر ظلمه وعسفه وبدل العمل الصالح بالطالح وسمى بختنصر الثانى ولعل هذا معنى قول المؤرخين ان بختنصر خرب مصر مع أن بختنصر الجبار ملك الموصل لم يحكم مصر ولا خربها كما تقدم وسيأتى لذلك بعض بيان والسبب المعقول لاغارته على مصر ان أمة العجم المتبربرة كانت اتخذت فى أيام أبيه الحروب والاغارات ديدنا وكانت تتقلب فى البلاد شرقا وغربا شمالا وجنوبا ولما وجدت مغانمها فى ذلك التنقل صارت تبحث فى طريقها عن الغنائم والمكاسب وكان اذ ذاك صيت غنى مصر وخصبها يطمع فيها الاطماع الاجنبية فهم قنبيشاش على ان يتغلب عليها مستعينا أيضا بجنود أبيه المجمعين من جزائر اليونان ومن بلاد أناضلى ممن كان يتبع أباه فى الحط والترحال ولما كانت فى طريقه قبائل

العرب وكان يخشى الاعاقة منهم عقد معهم عقد محالفة استأمن به فى طريقه فسار على مصر من جهة الفرما حيث كان ملك مصر ناصبا معسكره هنالك للاقاته ومدافعته فهجم ملك العجم على جيوش ملك مصر فهزمه وهرب ملك مصر حتى لحق مدينة منف فارسل اليه قنبيشاش ملك العجم سفراء ليتكلموا معه فى شأن تسليم مصر صلحا فقتلهم فسار هذا الملك لقتاله فثبت أمامهم مدة طويلة ثم آل الامر الى ان سلم ملك مصر لخصمه بعد ان فارقه اتباعه ومن هذا الوقت انتقل ملك مصر من أيدى أهلها الى قبضة العجم وقام السفه والجهل مقام الرشد والتمدن وكان هذا هو مبدأ الدولة السابعة والعشرين كما سبق

ويقال انه حصل لابساميطيقوس الثالث غاية الذل والهوان ويقال ان قنبيشاش أمر بقتله فلم يظهر التألم ولا التأثر من ذلك بل قال ان هذه المصائب أحقر من أن يتأثر بها عاقل فاتعظ بذلك ملك العجم ومن معه حتى قال بعض المؤرخين انه رق لملك مصر ورق لحاله وهم بان يرجع له الحكومة ويجعله نائبا عنه لولا ان هذا الملك امتنع من ذلك وقال الموت ولا النيابة فرماه بعض أعدائه بدسائس خفية وأنه مضمر للفتنة وتقويم الامة المصرية على العجم فحكم عليه بالقتل وسقاه دم ثور فشربه ومات بعد ذلك وتمكن قنبيشاش من المملكة بموته

الملك كمبيز المسمى قنبيشاش ويسمى قنبسيوس وقد سمى نفسه بختنصر الثانى

هذا الملك هو رأس الدولة السابعة والعشرين حكم مصر حكومة عسكرية صعبة ومن كان معه من عباد المجوس عاثوا فى معابد مصر وهيا كلها وأضروا بدين أهلها مع ما صنعه هذا الملك بعد غزوته فى سيوة والنوبة من نبش قبر أماسيس وضربه وقتل كهنة المعابد فى موسم العجل أبيس

وقد ذكرنا سبب مجيئه فى مصر وحقيقته وبينا أنه هو الصحيح وقد نقل مؤرخو اليونان فى شأن ذلك أقاويل مطروقة للعامة مما يخترعه الحكويون

من النوادر التى لا يليق بمنصب المؤرخ ذكرها واعتمادها فمنها ان قنبيشاش كان طلب من أماسيس فرعون مصر بنته للبناء بها فأرسل اليه أماسيس بنتا من بنات ابرياس فكشف هذه الحيلة ووجدها ليست كفؤاله فحقد عليه فى ذلك وغزا مصر لينتقم من ولده وقيل انه طلب منه حكيما كحالا ماهرا فأرسل اليه كحالا من مصر فادعى الكحال المذكور أنه من المبغوضين عنده وان هذا الملك انتهز هذه الفرصة فى نفيه من القطر المصرى فأغرى هذا الحكيم قنبيشاش على قتاله وقيل ان كورش أبا قنبيشاش كان تزوج بابنة ابرياس وان قنبيشاش ولدها فهو سبط الملك ابرياس فلما كان أماسيس غاصبا لمملكة جده أراد قنبيشاش أن ينتقم منه وقيل ان المرأة التى أخذها أبوه من مصر لم تكن الاسرية من المحاظى المصرية فكانت مضارة لامه فهذا أوجب حقده على مصر واغارته عليها وقد سبق ذكر السبب الحقيقى وهذا كله يدل على ان قدماء اليونان كانت طباعهم كغيرهم من أهالى هذه الازمان الحديثة يميلون الى التقاط الخرافات العجيبة والاباطيل الغريبة فتصديق الامور الغير المعقولة قدر مشترك بين أمم سائر الازمان القديمة والحديثة والصحيح الذى ينبغى أن يعتمد عليه فى ذلك هو ان الملك قنبيشاش لما وصل الى الديار المصرية فى عهد ابساميطيقوس الثالث التقى جيش العجم وجيش مصر عند مدينة فرما فبعد التقاء الصفين والمكافحة من الجانبين ظفر ملك العجم بملك مصر فبدد شمله ودخل الديار المصرية واستولى عليها عنوة وصيرها اقليما من مملكة العجم سنة ١١٤٩ قبل الهجرة وأقام بها أولا مدة خمس سنوات لم ينتهك لها حرمة بل حفظ ذمتها وأبقاها على عبادتها وأظهر علو الهمة والشفقة والرحمة حيث قرب اليه أمناء الديانة المصرية ليتعلم منهم ما اشتهروا به من العلوم والحكمة ثم شرع هذا الملك فى ثلاث غزوات فى آن واحد حيث أرسل غزوة بحرية لحرب جمهورية قرطاجة بالمغرب وجهز لذلك سفنا قبروصية وسفنا صورية فخابت هذه الغزوة لوقوع الاختلاف بين الفريقين لاسيما وان الصوريين هم الذين عمرت قبائلهم مدينة قرطاجة وأسست مملكتها فكان بين القرطاجين والصوريين علاقة القرابة فكان لا يمكنهم رفع السلاح على أقاربهم فانهزمت عساكر البحرية ببلاد افريقية ورجع جيشه مذموما مخذولا وكانت الغزوة الثانية فى

بلاد النوبة الغربية
وبيان ذلك أنه بعث قبل الحرب نحو النوبة سفراء من وادى الكنوز يحسنون لغة النوبة وكانت رجال النوبة حسان الخلقة طوال القامات غلاظا شدادا أذكياء العقول معروفين بعلو الهمة والشجاعة وانما يهملون الفنون التى بها يكمل تمدنهم لاعتمادهم على قوة أجسامهم وصلابة أبدانهم وكان مما يزيدهم بسطة فى الجسم والثبات قناعتهم فى المطاعم والمشارب فلهذا كانوا أطول الناس اعمارا فكثيرا ما كان يعيش الانسان منهم مائة وعشرين سنة فلم يكن سفراء قنبيشاش فى الحقيقة نحوهم الاعيونا وجواسيس ليروا البلاد ويستكشفوا أحوالها فعرف النوبة منهم ذلك ولكن رحبوا بهم وعاملوهم أحسن المعاملة ولم يظهروا أخذ الحذر منهم ولا الاحتراس وكان مع هؤلاء الرسل هدايا الملك النوبة من المصنوعات الذهبية والحلل الحمر الارجوانية والعطريات ذات الروائح الذكية وأنبذة التمر المنبهة للشهية فأعجبهم كل الاعجاب من هذه الهدايا هدية الشراب فأرادوا مكافأة الملك على هديته السنية فأتحفوه بقوس أوتره ملكهم بحضر من سفراء قنبيشاش وقال ما مضمونه ان ملك النوبة ينصح ملك العجم ان لا يحضر الا بنفسه لحربنا على كثرة جندنا ولا يكون حضوره الا اذا قدر هو أو أحد من العجم أن يوتر قوسا عظيما مثل هذا القوس وحده كما أوترته وحدى فى أقرب وقت وفى أثناء المسافة التى لم يمكنه فيها تعليم ذلك فليحمد الاله المعبود حيث لم يرزق النوبة الطمع فى المسير على بلاد العجم والاستيلاء على ملكهم اهـ
فلما نقل لملك العجم هذا الجواب حنق كل الحنق وسار يطلب بلاد النوبة هائجا مسلوب الحواس لم يعتن بتنظيم جيشه ولا باستحضار ذخائره ولا بايجاد ضبط ولا ربط بين عساكره وبمجرد وصوله الى مدينة طيوة بصعيد مصر قطف فرقة من جيشه تبلغ خمسين ألف نفس وأرسلها الى واحات سيوه ولم يكمل غزوته وقيل انه سار بعض مراحل فى الصحراء التى بين مصر وبلاد السودان فنفد زاده فبادر بالرجوع ولم يقنع من الغنيمة بالاياب بل قصد غزو الواحات المسماة واحات آمون القريبة من جبال برقة وهى واحات سيوه بقصد استعباد أهلها وهدم هيكل المشترى الموجود بها المسمى هيكل آمون حيث هو معبد

بزار ويحج اليه الناس فبينماهم فى أثناء الطريق بعد مسير عدة مراحل فى الفلاة مرفقين معهم خبرا منخانهم الرفيق وأضلهم عن الطريق حتى نفدت أزوادهم ورواحلهم وتاهوا فى الصحارى بتلك الجهة اذهب عليهم ريح السموم فأهلكهم عن آخرهم باغراقهم جميعا فى بحر الرمال ولم ينج منهم أحد وقيل ان هذه الغزوة كانت قبل غزوة السودان وانه قد سار ببقية جيشه الى النوبه فلما وصل الى خمس مسافة الطريق نزل بجيشه القحط والمخمصة حيث لم يكن احترس على ما يكفى من الزاد فكانت عساكره فى أول الامر تأكل حيوانات الحمل والشيل فلما فرغت كانوا يغتذون بما يصادفهم فى طريقهم من الاعشاب والحشائش الرديئة فلما توغلوا فى الاراضى الرملية غير المنبتة صار يأكل بعضهم بعضا بالاقتراع من كل عشرة أنفس واحد ممن تقع عليه القرعة فكان هذا الامر أشد عليهم من الجوع ومع ذلك فالملك مصمم على استدامة السير ومصر على المجازفة غير مكترث بخسارة جنده ولكن انتهى به الحال ان خاف على نفسه الهلاك ورجع القهقرى ومع المخمصة الشديدة الحاصلة فى الجند لا زال الملك فى مائدته محافظا على رسومها واستكمال أصناف المطاعم اللذيذة فعاد ببقية جنوده حتى وصل مدينة طيوه ولقصد استعواض الخسارة العظيمة التى تلفت فى غزوته سلب أمتعة هيا كل هذه المدينة وزينتها وذخائرها من ذهب وفضة وغير ذلك وكانت مملوأة بالنفائس والامور المثمنة فكان هذا مما يعد عند المصريين من التعديات الكفرية ومن هذا الوقت لم تكن أفعال هذا الملك الامحض اختلالات متوالية وقساوات متتالية حتى انه تصادف عند دخوله فى مدينة منف التى كانت أعظم مدن الدنيا كانوا يعملون فى هيا كلها موسما مشهودا لولادة العجل أبيس فظن أنهم فرحون مستبشرون بهزيمته فقتل جميع الحاضرين من الكهان وأمراء الاديان وأرباب الحل والعقد وختم ذلك بنبش جثة أماسيس وضربها وضرب أيضا العجل المحترم الذى هو حسب اعتقادهم ربهم المعظم بطعنة خنجر فأدماه وأظهر فى ملاعظيم من الناس ان هذا العجل ليس باله فانتصر عابد النار على عباد الابقار ومأوى الفريقين جهنم وبئس القرار

ويقال انه من حين الغضب على المصريين تلقب بختنصر الثانى وهذا معنى

قول المؤرخين ان بختنصر خرب مصر فالمقصود به قنبيشاش أول ملوك العجم
كما أشرنا اليه فيما سبق وقد أطنب المؤرخون فى وقائع جبروته مما يلوث جميع
أوصافه ونعوته فمما يحكى عنه أنه ذات يوم أكره أحد أخصائه المسمى
ابريساسبه على أن يخبره بما يعتقده الرعية فى شأن أحكامه وفى تعداد مناقبه
وسيرة العدل فى أيامه فقال له انهم يعتقدون اتصافك بالاوصاف الجيدة
والمناقب الحسنة والاحكام السديدة ويرون انه لامثلبة فيك الا الانهماك
على الشراب ولولاها لكنت منزها عن العيوب بدون ارتياب فقال قنبيشاش
هم يعتقدون اذا أنى لست لدى الشراب من ذوى الالباب ثم شرع يشرب
من الخمر فوق العادة وأمر باحضار ابن ابريساسبه وكان رئيس السقاة فى
مجلس شرابه وأمره أن يقف بالمجلس منتصبا واضعا شماله على رأسه وقال لابيه
أريد ان أقيم برهانا فى ولدك على صحوى ولو تعاطيت ماتعاطيت من الاقداح
فها أنا مفوق سهمى لأصيب فؤاد هذا الغلام مدير الراح فان أصبت المرمى
فلست فاقد الحواس وان اخطأته صح فى حقى مايعتقده الناس فسدد سهمه
صوب فؤاد هذا الغلام ففأده بأحد السهام وأمر خالابشق بطنه ليرى
أبوه السهم مرشوقا فى فؤاد ابنه ثم قال لابيه هل سبق لاحد مثلى نظير هذه
الاصابة فأجابه الاب بقوله ليست فى طاقة أحد من البشر هذه البراعة
ولا هذه النجابة فكان نفاق المظلوم أبشع من فعلة الظالم ولا غرابة فى شحن
الدولة الجورية باشتراك الحاكمين والمحكومين بالكبائر والعظائم
ويحكى عن هذا الملك مايملأ الصحائف والطروس من أمثال ذلك بالتمثيل فى
قتل النفوس حتى يقال انه كان يتسلى بقتل الاعجام وذبحهم كالاغنام فقد
قيل انه دفن اثنى عشر من أعيانهم أحياء فى ساعة واحدة وأهال عليهم
التراب حيث خطر له انهم مستحقو ذلك العقاب وقد نبش فى مدينة منف
المقابر ليتسلى برؤية الرمم وانه نبش فى مدينة صا قبر أماسيس وضربه بالعصا
ومثل به ونقم عليه وانتقم وهذا يدل على أنه اما كان فى عقله خبل أو فى لبه
خلل أو أن عقول مؤرخى أخباره فى تلك الازمان كانت مختلة وأنهم يصدقون
جميع الاباطيل والخرافات بدون قيام القرائن على صحتها والادلة وفى آخر
أيامه فى مصر حدثت فتنة عظيمة ببلاد العجم وهى أن ناسيه عليها طمع فى نقل

الملك الى عائلته نفسه فأقام أخاه الشبيه باسمرديوس أخى قنبيشاش ملكا على العجم فملكوه عليهم لالتباسه بابن كورش وتجزوا تقليده بالحكم مع الاكرام والتعزيز وأعلن له بالملوكية على جميع بلاد العجم وأرسلوا الدعاة للمبايعة فى جميع الجهات وعند كافة الامم ويسمى فى كتب التواريخ اسمرديوس المجوسى ويقال انما سمى مجوسيا لظهور زردشت بدين المجوسية فى أيامه ويعتقد المجوس نبوة زردشت وبعضهم يجعل تاريخ ظهور هذا المتنبى قبل كورش وكان قنبيشاش خرج من مصر ودخل الشأم فبينما هو هناك اذ حضر داعى العجم يدعو أهلها للمبايعة اسمرديوس المذكور والى الانقياد له فى سائر الاحكام فلما سمع قنبيشاش بذلك أراد أن يجد المسير ويخلع المغتصب لمملكته من التخت والسرير فبينما هو يركب جواده اذ انساب سيفه من غمده فجرحه فى فخذه وألزمه وساده فمات بعد أيام قلائل بعد أن حكم مصر خمس سنين ولم يقم على هذا القيل دلائل

ولم يذكر لهذا الملك من المناقب الحسنة والمآثر المستحسنة الامنقبة واحدة يشم منها رائحة حب العدل والانصاف وان كان قد تغالى فيما هذا الملك وسلك سبيل الاعتساف

وهى ان أحد قضاته المسمى سيزمناس ارتشى فى بعض الوقائع ليحكم بالباطل فلما علم بذلك قنبيشاش قتله سلخا وأمر أن يفرشوا جلده على منبر القضاء وولى ابنه قاضيا بدله وذكره ماجرى لوالده فيما مضى ونهاه عن الرشوة والبرطيل وعن استبدال الحقوق بالاباطيل ويقال ان سبب جبروته قلة التربية والتأديب وعدم اعتناء والده كورش بالقيام بشؤنه فى تحسين الاخلاق والتهذيب لان أباه لما كان منهمكا على الغزو والفتوح لم يتفرغ لتربية ابن البوح تربية اب نصوح بل وكل أمره فى ذلك لحكام سراياته وحرمه وقل أن يفلح أمير مكث فى الحريم من مهده الى بلوغ حلمه

وقيل ان ماحكى عنه من الامور المخلة غير صحيح لان أغلبه من نقل هردوطس عن كهنة مصر وهم أعداء لهذا الملك فكانوا يختلقون عليه مالا يحصى من القبيح وأما هردوطس فانه كان لايعلم حال هذا الملك الامن هذه الجهة الكهنوتية وأقاويل الاعداء على عدوهم غير ثبوتية

ولما خرج قنبيشاش من مصر كان أناب عنه فى الحكم اريانداس فلما مات
قنبيشاش سنة ١١٤١ قبل الهجرة بعد ان حكم ثمان سنين وخلفه دارا
الاول كانت الفتنة فى بلاد العجم لم تخمد انتهز النائب الفرصة وشرع يستقل
بحكم مصر ويجعل نفسه أصيلا فتدارك دارا ذلك وأبعده وبذل جهده فى أن
يحسن معاملة المصريين وأن يستميلهم اليه لينسيهم ماصدر من قنبيشاش

(الملك دارا الاول)

كان صعود هذا الملك على تخت العجم فى نحو سنة ١١٤١ عبارة فى مبدئه
عن تأسيس قواعد هذه المملكة الفارسية وتنظيم أمورها فقد كان كورش
وقنبيشاش وسعا هذه المملكة فى دون عشرين سنة فلما اتسعت دوائرها
وتكاثرت أقاليمها قسمها دارا حين جاءت له نوبة المملكة الى عشرين ايالة
أو عملا وقد اجتهد فى جلبه لها وسايط الثروة ووسائل الغنى حتى كان يسميه
الفرس بالملك النقاد وذلك لانه كان يعرف جهات المكاسب وتحصيل الاموال
وجلبها من أى شئ كان كما كانوا يلقبون قنبيشاش بالملك المتملك وكورش
بالملك الاب قيل وكانت مصر وقسم النوبة واقليم القيروان واقليم برقة فى هذه
القسمة معدودة ايالة واحدة وعملا واحدا وكانت تسمى الايالة الثالثة
الفارسية وتدفع خراجا جسيما للفارس
وكان محصول صيد السمك من بحيرة قارون بالفيوم يجبى لطرف الحكومة
وكان محصوله كل يوم مقدارا جسيما مدة الستة أشهر التى يدخل فيها ماء النيل
زمن الفيضان الى البركة وفى الستة أشهر الباقية محصولها هين بالنسبة للستة
أشهر الاولى وكانت مصر تدفع كل سنة أيضا مقدارا من الحنطة لكفاية المائة
والعشرين ألف نفس من الجنود أو المعاونين المتوطنين بمحافظة مدينة منف
من طرف الفرس وكان هذا المقدار أزيد من الكفاية فكان يفيض منه وكانت
ايالة مصر بعد ايالة بابل والموصل اللتان هما الايالة التاسعة من ايالات العجم
أكثر جميع الايالات خراجا وقد سبق أن أقاليم النوبة كانت فى أيام العجم مضافة
الى مصر ومع ذلك فقد استنتج بعضهم من قرائن تاريخية ان قسم النوبة الذى
كان فى زمن الفراعنة مضافا الى مصر وكان يدفع الخراج لهم قد انفصل

عنها

عنها فى أيام دولة العجم وأنه لا يستفاد من تاريخ دولة العجم أنهم كانوا يملكون شيأ من الاقاليم بعد جزيرة أسوان مما يلى الجنوب وانما كانت مملكة النوبة المصاقبة لمصر ملزومة بهدايا تبرعية تدفعها على سبيل المحبة للعجم وأنها كانت فى هذه المزية مساوية لبلاد فارس نفسها حيث كانت غير ملزومة بدفع شئ بوصف الخراج فكانت بلاد النوبة المذكورة تهدى الى العجم كل ثلاث سنوات مدين من الذهب الخالص ومائة قضيب من الابنوس وخمس جوار نوبيات واحدى وعشرين سن فيل وقد دلت المبانى المصرية على أن النوبة كانوا يدفعون نظير هذا القدر للملك رمسيس الاكبر ولسلفه وخلفه وقد ضرب الملك دارا السكة باسمه من صنف الذهب وصار التعامل بها فى جميع ممالكه وهو أول من أدخل فى مصر المعاملة التى سميت بالسكة الدارية وكان الملك قنبيشاش قد قلد نيابة مصر للنائب اريادس فلما تولى دارا أبقاه على منصبه فضرب السكة من الفضة باسمه فلما علم دارا بذلك عاقبه على افتياته واتهمه بالخروج عليه

وقد وصف المؤرخون دارا بعمله لتنظيم الممالك وتحسين ادارتها وسياستها ولعلهم استنبطوا ذلك من ضربه المعاملة ومن بعض اصلاحات أخر كما استنبطوا من ذلك أيضا أن مصر كانت فى أيامه سعيدة ولو أنها كانت محكومة بغير أهلها لحقيقة الحال أن مصر كانت كغيرها من بلاد المشرق التى فى حكم الفرس وكان الفرس الموجودون بها عباد النار مجوسا متعصبين لدينهم وانما أبقت الحكومة الفارسية لهم رخصة عبادتهم فقط وحرمت على جميع الفرس المقيمين بمصر الكتابة بقلم المصريين القديم ونهتهم عن أن تتداول بينهم هذا اللسان ولو فى مصر وأمرتهم أن يحافظوا على لغتهم حتى لقد كادت أن تكون أهلية فى مصر فكتابة العجم المجوسية المقدسة عندهم أصلها من لسان الكلدانيين أى السريانيين وهم أهل بابل ثم تلقاها عنهم أهل اذربيجان ثم انتقلت الى فارس فلما تغلب الفرس على مصر بقى فى مصر آثار من هذه اللغة يعنى من كتابتها وكانت حكومة العجم هينة لينة فى حق الواحات وغيرها مما جاور مصر فلم تشدد عليها القصد اتساع دوائر التجارات فكانت سنتها أن تستولى باللطف واللين على المحصولات التى تضبط للميرى خاصة من الاقاليم المسكونة بالعساكر

بقدر لزوم العساكر وانها الا تمس شيأ من ايراد بيت المال بمصر الا بقدر ما يصرف على الطرق وغيرها بالعمليات كطريق الحجاز من السويس والقصير فقد وجد مايدل على ذلك منقوشا على الصخور مما يفيد أنهم كانوا يميلون الى عمل مافيه الوصلة بين طريق مصر والحجاز فقد شرع الملك دارا المذكور فى عملية الترعة بين النيل والبحر الاحمر ويقال ان بعض ملوك مصر شرع فيها قبل زمن حرب تروادة وان نيخاوس الثانى ابن ابساميطيقوس شرع فى تكميلها حتى أشرف على ذلك ثم تركها خوفا من اغراق مصر حيث انها أخفض من البحر وقيل سبب ذلك أن قوة الصناعة فى مصر فى ذلك الوقت كانت لا تفى بانجاز ذلك العمل وقد وجد بقرب هذه الترعة فى واديها بعض مبان مرسوم فيها حروف فارسية قديمة ثم أبطل دارا ترعة السويس وأدار أنظاره الى اصلاح طريق القصير حيث وجدها مهمة للاخذ والعطاء فأصلحها وبالجملة فلم يكن دارا متخذا مسكنه فى مصر بل كانت اقامته فى المدائن الكبيرة من آسيا وكان عنده أطباء من مشاهير حكماء مصر وكان قد سبق مجيئه فى مصر فى زمرة جنود سلفه قنبيشاش حين استيلائه عليها وكان تقابل مع يونانى يسمى سمعان صوقوصون فى مدينة منف فكان دارا ذات يوم خفيرا على قنبيشاش وكان سمعان ملتحفا بكساء قانى الحمرة فأعجب دارا فوهب هذا اليونانى برنسه لذلك الفارسى الذى كان جنديا لا منصب له ولا نفوذ كلمة فلما ان صار دارا ملكا على مصر أكرم سمعان المذكور وأحسن منزلته فدل ذلك على أنه كان صاحب وفاء ومكارم أخلاق كما قيل

ان الكرام اذا ما أيسروا ذكروا * من كان يألفهم فى الموطن الخشن

ولما كان حكام الفرس أرباب جبروقساوة على رعاياهم وكانوا متمادين على الجور والظلم أصر رعاياهم على مقابلة السيئة بمثلها فخرج أهل بابل عن الطاعة وطلبوا الحرية وأحاطوا بمدينة بابل حيث كان الملك مقيما بها وضيقوا على أهل فارس فى الحصار عشرين شهرا ولكن سلك العجم مسلك المكر والحيلة ورفعوا الحصار وغلبوا أهل العراق واستمر الملك حاكما على بابل

فاقتدت مصر بالعراق فى اثارة الفتنة وخرجت عن طاعة العجم وكان هذا قبل موت دارا بسنة واحدة يعنى فى السنة الخامسة والثلاثين من حكمه فاجتهد

فى

فى ادخالهم تحت الطاعة فحالت بينه وبين مرامه زيادة النيل وفيضانه وحجبت العساكر عن الوصول لقمع المصريين فلما مات دارا سنة ١٠٩٧ قبل الهجرة عن أربع وأربعين سنة من حكمه لم تكن دخلت مصر تحت الطاعة بل لا زالت الفتنة باقية فى بلاد مصر نحو سنتين

(الملك شيارش)

تولى شيارش فى سنة ١٠٩٧ قبل الهجرة فمكن حكومة العجم فى مصر وعاقب أرباب الفتنة وضبطهم ومسك زمامهم وأناب عنه أخاه أخناس وجعله حاكما على مصر

ولما انقادت مصر لحكمه رتب جنده فى ظرف أربع سنوات وجهز للغزوات هذا الجند فى السنة الخامسة وقنطر القناطر وبنى فى الصعيد قباب المدينة المدفونة وقد أعطت الايالة المصرية لشيارش فى غزوته مائتى سفينة مكملة العدة مطقمة الرجال كل واحد من رجالها على رأسه خودة من الحديد ودرقة ورمح مما يناسب حرب البحر وأعطتهم البلط اللازمة للحرب وكان لهؤلاء الجنود أيضا دروع وسيوف

ولم يكن للمصريين محبة فى دوام ملك العجم عليهم ولو أنه وجد مرسوما فى مبانيهم ما يفيد مدحهم للعجم فقد وجد منقوشا فى آثار القصير التعبير عن الملك شيارش بأنه المولى المحسن سيد الجميع فهذه الكتابة انما هى رسمية جرى بها العرف فى حق الملوك فلا يستفاد منها اسعاد ولا تعاب فى أثناء الدولة الاجنبية الجائرة عليهم وأيضا انه بموت هذا الملك ظهر منهم ما يفيد الحقد والبغض لانهم بادروا بمجرد موته لطلب استقلاليتهم وتخليص ملكهم وكان عندهم شجاعة وثبات وحب لاوطانهم واستعداد للتمسك بشرائعهم وعوائدهم والذب عن دينهم ومفاداة حريتهم ببذل الاموال والارواح عند الاقتضاء وذلك لانه كان منقوشا فى لوح أفندتهم صورة ما وقع من الاجانب من الظلم والعدوان فانه طالما سلبهم ملوك الاغراب المنافع الجمة ونهبوا هياكلهم ومعابدهم فى ابتداء فتح البلاد ثم مات شيارش سنة ١٠٨٨ بعد أن حكم تسع سنين وتولى بعده ارطخشيارش

(الملك ارطخشيارش ويقال ايضا ارتسجار)

تولى هذا الملك على العجم فى نحو سنة ١٠٨٨ قبل الهجرة واجتهد فى طالعة أمره اجتهادا كليا فى حسم الفتنة القائمة فى مصر وبذل الهمة فى تصميم ملكه فيها وكانت قوة العجم مهددة ومخوفة لليونان وعلى صيت بعيد وهيبة عظيمة وكان بين اليونان ومصر محالفات وعهود على ان تطرد اليونان من سواحلها سفن العجم وعساكرهم التى كانت تخشاها مصر حتى لا يبقى فى مصر للعجم بقايا فوضعت حكومة أثينة سفنها فى البحر لمنع عبور سفن العجم وبعثت الى مصر جنودا يونانية من ممالك متعاهدة مع أثينة لتنضم الى جنود مصر فترتب على اجتماع هذه الجنود الانتصار العظيم على العجم وانهزام جنود ارطخشيارش وانحيازها الى جهة مدينة منف فهجمت عليها جنود مصر فى تلك الجهة ولكن اجتهد ارطخشيارش فى التحيل على فصل جنود اليونان من جنود مصر وتفريق العصبة فأضعفهم ونزل بسواحل النيل وصمم دولته بمحافظة مدن السواحل المصرية فعادت مصر الى ما كانت عليه فى قبضة الفرس عليها بالكلية وأقام عمه اخمناس نائبا على مصر فاستعبد أهلها وأذلهم أكثر مما كان لهم فى أول الامر وأكثر مؤرخى اليونان المشهورين كانوا أحياء فى وقت هذه الواقعة فحكوها على ما ينبغى الا أنهم وان اتفقوا فى الوقائع فقد اختلفوا فى الازمان والتواريخ وأصح حكايتهم هذا المعنى كلام مانطون حيث يشهد له ما وجد فى المبانى المصرية مما يوافقه

ومضمون كلامه يقتضى انّ ارطخشيارش بعد أن مكن دولته حكم فى مصر ثمانيا وثلاثين سنة بعد عصيان المصريين على نائبه مدة سنتين فتكون مدة حكمه جميعها على العجم أربعين سنة ولازال المصريون خاضعين لنائبه كما كان ذلك فى مدة حكم أخيه شيارش فكانوا على غاية من الاسر والاستعباد وقد وجد اسم هذا الملك ارطخشيارش مرسوما على الصخور التى بالطريق بين قنا والقصير مضمون ذلك أنه ملك مصر وسيد الدنيا ولما مات سنة ١٠٤٨ قبل الهجرة بعد مدة حكمه السابقة خلفه شيارش الثانى

(الملك

(الملك شيارش الثانى)

(الملك سوغديانوس)

(الملك دارانوطس)

لم تكن مدة حكم الاول الا شهرين ومدة حكم الثانى كانت سبعة أشهر وأما الملك دارانوطس يعنى ابن شيارش الثانى من السفاح فقد تولى فى نحو سنة ١٠٤٧ قبل الهجرة وحكم نحو تسع عشرة سنة كما يدل على ذلك كلام فهرسة مانطون التى يجرى فيها ذكر الحكومات ولو وقتية ولو كانت مدة حكم الملوك قصيرة وأما فهرسة ملوك العجم المنقولة عن المؤرخين السابقين والفلكيين الاقدمين فلا وجود فيها لشيارش الثانى ولا لسوغديانوس بل كذلك جدول سلسلة تاريخ الملوك الذين ذكرهم بطليموس الفلكى فى طالعة كتابه المجسطى التى بنى عليها زيجه تذكر كورش وقنبيشاش ودارا الاول وشيارش وارطخشيارش ودارا الثانى ولم تذكر غيرهم فالعمدة على ما قاله مانيطون والظاهر أن معاهدة المصريين مع الآتنيين كانت فى عهد حكم ارطخشيارش وتفصيلها ان سبب اتلاف سفن العجم بالكلية أو قبض الآتنيين عليها هو أن اليونان نزلوا بالنيل وأخرجوا عساكرهم الى السواحل تحت قيادة قارطيس وكان اخناس نائب مصر من طرف العجم معه ثلثمائة مقاتل فهزمه جند المتعاهدين وأهلكوا منه ثلث عساكره وقتل هذا النائب فى هذه الواقعة وهرب بقية عساكره فى قلاع منف فحاصرهم المصريون ثلاث سنوات وضيقوا عليهم الحصار فجاء العجم امتدادات من جهة أناطلى والشأم فانهزم المصريون والآتنيون وجرح قائدهم وهربوا امام العدو وانحازوا الى الوجه البحرى يتحفظون فيه من عدوهم فنا وشتهم عساكر الفرس هناك نحو سنة ونصف وكانوا متحصنين فى جزيرة بين فرعين من فروع النيل فطمى أحدهما العجم واستطرقوا للوصول اليهم فصالحهم المصريون على أن يسلموا أنفسهم من غير أن يقتل منهم أحد وأما الآتنيون فكانوا عشرة آلاف مقاتل فأحرقوا مراكب العجم ولم يرضوا بالمصالحة كما رضى بها المصريون واختاروا شرف

الموت فى ميدان الحرب على عار العبودية فصالحهم العجم مصالحة ليس فيها ذل ولا عار حيث آنسوا منهم الشجاعة وكانوا مع ذلك قد أشرفوا على التلف فأشفق عليهم العجم ثم أرسل الآتينيون سفنا أخرى يونانية فانتصر عليهم العجم أعظم نصرة وانقادت مصر ثانى مرة وجعل واليا عليها اسرطاماس الفارسى وقبض على قائد المصريين وأرسله الى ملك العجم فصلبه هنالك مظهر اللعجم انه ابن ابساميطيقوس ملك مصر

وهذه الواقعة الاخيرة لم تخمد همة المصريين ولا أوهنت حماسهم ولا أضعفت تعصبهم للوطن بل رفعوا أعلام العصيان وطلبوا استقلاليتهم فى عهد دارانوطس وأقاموا عليهم رئيسا مصريا يسمى أمرطيس من مدينة صا الحجر فانهزم عند مصادمة العجم وانحاز الى الجهة البحرية ومكث فى الاراضى المسبخة مستريحا لايدنو منه أحد الى أن استدعاه المصريون ثانيا لتخليص الوطن من الاعجام

فحضر هذا القائد وقاومت عساكره عساكر نائب دارانوطس وطاردتها ففى أثناء ذلك مات دارانوطوس المذكور فى نحو سنة ١٠٢٨ قبل الهجرة بعد ان حكم نحو تسع عشرة سنة فملك المصريون جميع ديار مصر فشرع أمرطيس فى الحكم على مصر وأجرى الاصول السابقة كاسلافه من الفراعنة وجدد فيها الاحكام القديمة سياسية أو ديانية وبهذه المثابة انقرضت دولة فارس فى مصر التى هى عبارة عن الدولة المصرية السابعة والعشرين فكانت مدتها مائة واحدى وعشرين سنة كما تقدم

الفصل الحادى عشر فى ملوك الدولة الثامنة والعشرين وهى الصاوية

تنسب هذه الدولة الى صا الحجر كما تقدم فى نظيرها وكان ابتداء حكمها فى نحو سنة ١٠٢٨ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ولم تتعدد ملوكها بل الملك أمرطيس هو الذى تملك فيها وحده فكان عبارة عنها

(الملك

(الملك امرطيس)

تولى هذا الملك المصرى سنة ١٠٣٨ قبل الهجرة ولا مانع أن يكون من نسل عائلة ملوكية قديمة وهو وحده على انفراده عبارة عن الدولة الثامنة والعشرين ومع انه لم يحكم الاسبع سنوات فقد اجتهد فى اصلاح ما أفسدته دولة فارس وفى اعادة المراسم والمواسم الدينية وفى اصلاح وتحسين ما أتلفه الاعجام من الهياكل والمعابد والمصانع وقد بذل همته قبل تقليده بالملك فى الحروب الطويلة التى كان بها خلاص وطنه ولو عاش طويلا لتمكن من اصلاح جميع ما فسد فيها الا أنه مات سنة ١٠٣١ وقد أبقى بقايا أصلحها من بعده من ملوك الدولة التاسعة والعشرين التى أعقبت دولته وهى الدولة الاشمومية

الفصل الثانى عشر فى ملوك الدولة التاسعة والعشرين وهى الاشمونية ويقال لها الاشمومية

نسبة هذه الدولة الى مدينة قديمة تسمى أشمون الرمان التى هى على تخطيط تقويم البلدان لابى الفداء فى محل المدينة القديمة المسماة منديس فيقال لهذه الدولة أيضا المنديسية وكان عندها فى قديم الزمان مصب فرع من النيل يسمى الفرع المنديسى وقد طم الآن بازرمال ولا يدرى سبب صعود هذه الدولة على سرير الملك بعد الدولة الصاوية التى قبلها وكان ابتداء حكمها فى نحو سنة ١٠٢١ قبل الهجرة وعدد ملوكها خمسة ورأس هذه الدولة الملك نفروطف

(الملك نفروطف الاول)

تولى هذا الملك فى نحو سنة ١٠٢١ قبل الهجرة واسمه عند اليونان نفريطس ولم يزل من منذ صعوده على السرير يهدده ملك العجم ويرعبه ببعوث الجنود الكثيرة لحربه ومع ذلك فقد بذل ما عنده فى سلامة وطنه حيث عقد معاهدة مع جمهورية اسبارطه اليونانية المسماة لقدمونه بأن تعاونه على العجم التى

هى خصم للفريقين فكان متقويا بهذه المعاهدة مات فى نحو سنة ١٠١٥
فكانت مدة حكمه ست سنوات وتولى بعده الملك هوقور فى هذه السنة

(الملك هوقور)

تولى هذا الملك فى نحو سنة ١٠١٥ و يسمى عند اليونان أخوريس ومدة حكمه على ماهو فى فهرسة مانيطون ثلاث عشرة سنة اجتهد فيها دائما فى ارهاب العجم فكانت مصر فى أيامه مجتهدة دائما بالمحافظة والممانعة وجددت المعاهدات النافعة مع الامم والملوك مثل أهل قبرص والعرب والغرب وبرقة وكان فى مصر عائلة كان قد جار عليها ابساميطيقوس فى زمانه وكان منها شخص يسمى غاوس خرج بسبب النفسانية والعداوة من مصر ودخل فى خدمة العجم واشتهر عند رؤسائه منهم فوقعت منافسة بينه و بين أحد رؤسائه فى حرب قبرص فهرب أيضا من خدمة العجم الى مصر وتبعه حزب من الجنود البحرية والبرية تحت قيادته وانضموا الى جند الملك هوقور وأضيف اليهم عساكر اسبارطة وتحزبوا مع مصر على حرب العجم فمات غاوس المذكور قبل الانتصار على العجم وكذلك مات رؤساء المعاهدة فانحلت المعاهدة بموت من ذكروا فجدد هوقور عهدا مع أمم اليونان لينتصر بهم على العجم وانطلقوا الى مصر تحت قيادة خابرياس الاثينى فلما جاء أهل فارس الى مصر كانت على جانب عظيم من القوة فلم تبلغ فارس شفاء غليلها وخاب سعيها وفى أثناء هذه المدة مات ملك مصر المذكور ومع ما كان عليه هذا الملك من الاشتغال بحماية الوطن فقد سعى أيضا فى اصلاح مابقى من تخريب الاعجام مما لم يصلحه سلفه فقد يوجد فى مدينة آبو فى طيوه بالصعيد اصلاحات للاعمدة المحمول عليها الايوانات تشهد له بالاصلاحات العجيبة بل فى مقاطع الحجر يطره ما يدل على أن هذا الملك استخرج منها فى السنة الثانية من حكمه أحجار المبانى التى أنشأها وأعادها وقد مات هذا الملك فى أواخر سنة ١٠٠٣ قبل الهجرة بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة على ماسبق وخلفه ابساموطيس وفى أيامه قدم افلاطون وغيره من حكماء اليونان مصر ليتعلموا الحكمة من حكماء عين شمس ومنف وطيوه لينشروا العلوم النافعة فى بلاد اليونان

(الملك

(الملك ابساموطيس)

تولى هذا الملك فى أواخر سنة ١٠٠٣ قبل الهجرة ولم يحكم الا سنة واحدة وقد وجد مرسوما فى قصر الكرنك فى مدينة طيوه بقرب سلفه هوقور وقد مات فى نحو سنة ١٠٠٢ وخلفه الملك موطيس على ماهو فى فهرسة مانيطون

(الملك موطيس)

تولى هذا الملك سنة ١٠٠٢ قبل الهجرة ولم يحكم الا سنة واحدة ولم يعلم له شئ من المآثر ولا مايذكر به فى رسوم المبانى وقد خلفه الملك نيفاروس عقب موته سنة ١٠٠١ قبل الهجرة

(الملك نيفاروس)

تولى هذا الملك فى أثناء سنة ١٠٠١ قبل الهجرة ولم يحكم الا أربعة أشهر فقط ولا يعلم من آثاره الا صنم أبى الهول الذى يوجد فى خزينة التحف الانطيكية الملوكية بمدينة باريس ولقبه الملوكى كألقاب الفراعنة السابقين عليه ويقال له أيضا نيفروه وهو آخر ملوك الدولة التاسعة والعشرين التى لم تكن مدة حكمها الا احدى وعشرين سنة وجاءت بعدها الدولة الثلاثون وهى الدولة السمنودية

الفصل الثالث عشر فى ملوك الدولة المكملة للثلاثين وهى السمنودية

هذه الدولة منسوبة لمدينة سمنود القديمة بالوجه البحرى كالدول الأخرى المنسوبة الى المدن البحرية وذلك لان مدن الصعيد انقطعت شهرتها العظيمة وصيتها البعيد المذكور فى التواريخ بالنسبة لما كان يصدر فيها من الملوك فان مدينة طيوه تمكنت من هذا المجد الاثيل وهو خروج ملوك الدول منها

زمناطويلا ثم تجردت عنه وانقطعت للكهنوتية فكانها المطال بها الاستعباد والهوان واضمحل شرفها القديم فلم تكن مصدرا ولا مركزا الملك لسرير الفراعنة انطفت أنوار بهجتها وضاعت منها هذه المزية وانتقلت منها الرياسة الاصلية الى مدن الاقاليم البحرية ثم ان مدة هذه الدولة كانت نحو ثمانية وثلاثين سنة وملوكها ثلاثة وكان ابتداء حكمها سنة ١٠٠٠ قبل الهجرة النبوية وأول ملوكها نقطانب الاول

(الملك نقطانب الاول ويسمى نقطنبو)

تولى هذا الملك سنة ١٠٠٠ وهو رأس هذه الدولة الجديدة ولم تكن مدته صلحا ولا راحة بل كان كسلفه فقد مضى زمانه القصير فى الحروب فانه فى السنة الثانية من حكمه قد أغار عليه العجم فاضطر الى دفاعهم وقد كانت جاءت اليه عساكرهم برا وبحرا وقربت من جهة فرما وكان محترسا من ذلك بتجنيد الجنود الكافية للمحافظة فانتصر عليهم لاسيما وقد وقعت المشاحنة وعظمت الفتنة بين عساكر العجم ومع انهزامهم فقد ركبوا النيل وتحصنوا ببعض الجهات ولكن وضع الملك نقطانب المحافظة اللازمة لحماية منف ثم شرع فى قتالهم فسار خلف القائد فرنابازامير عسكر العجم ففاض النيل على عادته وعم أرض مصر فوقع العجم فى أيدى المصريين بعد أن تلف أكثر عساكرهم فخلصت مصر من أيديهم

فبعد سنوات قدم الملك اجزيلاس اليونانى على ديار مصر سفيرا من طرف مملكة اسبارطه التى هى لقدمونه يستظهر لاهل اسبارطه على طائفة من اليونان تسمى طيوه اليونانية حيث عظمت شوكتها وظهرت على اسبارطه فأغاثهم وكانت مدته فى آخر عمره صلحا وراحة ومما يدل على ذلك تفرغه فى آخر أمره للادارة وتحسين مصالح مملكته فله آثار جليلة من هياكل ومعابد واختلف فى مدته فقيل انه حكم عشر سنوات وقيل وهو الاصح انه حكم ثمان عشرة سنة فيكون موته فى نحو سنة ٩٨٢ قبل الهجرة

(الملك طاخوس)

تولى هـذا الملك سـنة ٩٨٢ قبل الهجرة ويسمى عند المصريين طاوس وقد اشتغل مدة حكمه بحاماة مصر من الحجم المغيرين عليها ومكن المعاهدة مع القدمونيين من أمم اليونان فبعثوا الجيشا قائده اجزيلاس فوعده طاخوس برياسة عموم العساكر المصرية برية أو بحرية ولكن لما ارتاب فى منظره وكان منظره دون مخبره لم يقلده الا رياسة العساكر البرية وقلد قائدا آخر يسمى خبرياس رياسة العساكر البحرية وجعله أمير عموم الجيش برا وبحرا يعنى أعطاه هذا العنوان وكان قد أشار اجزيلاس على الملك ان لا يهجم على أهل فارس الا اذا قدموا مصر فأبى الملك الا قتالهم علا قاتهم فى سواحل بلاد الشأم ولم يرض انتظار وصولهم الى مصر فبمجرد ما خرج بجنده عن حدود الديار المصرية قامت عليه عساكر مصر متحزبين على عزله فخلعوه وولوا عليهم نقطانب الثانى ابن أخى طاخوس فهرب طاخوس بعد عزله عند ملك العجم وقابله فى طريقه ببلاد العرب ولا يوجد لطاخوس أثر على أى مبنى من المبانى المصرية فيما يعهد الى الآن وكانت مدة حكمه الى هروبه سنتين

(الملك نقطانب الثانى)

تولى هذا الملك سنة ٩٨٠ عقب خلع طاخوس وقد انتخبته عساكر مصر ملكا عليها فظهر بعد ذلك خصم لفرعون المذكور يتطلب الملك منه وهو أمير من أولاد وجوه أشمون وتحزب معه كثير من العساكر وأجاب دعوته كثير من الاحزاب فأشار اجزيلاس على فرعون أن يسد شمل الخوارج والعصاة بالهجوم عليهم حتى لا يكون لهم زمن ينتظمون فيه ويكثرون من الامدادات وحسن الترتيب ولكن ارتاب الملك من هـذه النصيحة ولم يقبلها فعما قريب ساجله عصاة العساكر وغالبوه وجبروه على أن ينحصر فى مدينة من مدائنه فأحاط بها عساكر خصمه ولم يساعده القائد اجزيلاس بل خذله فى اول الامر ولما اشتد عليه الخطب أشار عليه أن يفتح المدينة ويغير على الاعـداء ويحمل عليهم حملة شديدة ففعل فظهر عليهم وأبعدهم عن المدينـة واقتفى اجزيلاس أثرهم وأخذ أميرهم أسيرا وبقى نقطانب الثانى على مملكته لا يعارضه أحد فى تدبيره وفى السنة الثانية من ولايته عقد معاهدة مع أهل صيـدا وصور وكانوا

كاهل مصر على خوف من ملك أهالي فارس عليهم فكانت المحافظة أيضا قدرا مشتركا بينهم وكان كل منهم محتاجا للاحتراس من العدو فلما قصد الفرس مصر اضطروا الى حرب الصوريين أولا فكان هذا عائقا لهم عن الوصول الى ارض مصر

فبعث نقطانب فرقة فيها أربعة آلاف مقاتل يونانية محكمة من طرفه وجعل رئيسها منطور الروسي ودخل في معاهدة الفريقين أيضا عساكر قبرص فكسروا جنود العجم فغضب ملك فارس من انهزام رؤساء جنوده فقاد جيشا ثانيا بنفسه وانطلق به الى مصر ففزع الامير منطور الروسي من عظم هذه الغزوة وهاله كثرة عساكرها فهرع الى الانتظام في جند الفرس ودخل على دارا خوس الآتي ذكره لانه أقوى من أخصامه فرحب به دارا وأحسن له الصنيع رجاء أن يدله على الجهات المقصودة لحروبه حتى يسهل له أخذها

وأما نقطانب فجهز من العساكر ما يقوم لحماية بلاده من خصمه فقاد جندا مؤلفا من نحو خمسة وعشرين ألف يوناني وعشرين ألف مغربي وستين ألف مصري ووضع الحرس والمحافظين في جميع الثغور والحصون المهمة فكان في مدينة الفرما من المحافظين خمسة آلاف نفس وقد كان كل من المهاجمين والمدافعين بعضهم نصب أعين البعض الآخر وكان مع كل من ملكي مصر وفارس رؤساء من اليونان من حزبه يستشيرهم ويستعين بشجاعتهم في الحرب ويثق بأمانتهم في رياسة العساكر فالتحمت الحرب وكانت بين الفريقين سجالا وانتهى الحال الى ظهور فارس على ملك مصر فسلم المصريون واليونانيون أنفسهم لامراء ملك العجم فلما رأى ملك مصر انهزام جنده وتبدد شمله وقرب زوال ملكه ضاقت به الحيل وداخله اليأس والقنوط فلم يسعه الا أن جمع خزائن أمواله وفر الى بلاد النوبة بدون رجعة وكان هذا الملك آخر ملوك الدولة المصرية المكملة للثلاثين كما هو آخر ملك مصري من هذه الدولة وقد حكم ثماني عشرة سنة ومن بعده لم ترجع دولة الفراعنة المنصب الملوكي ولم يقم للامة المصرية الجليلة الذكر والمآثر سرير مصري أهلي بل صاروا تحت ولاء العجم والروم الى فتوح مصر بالاسلام كما سيأتي في محاله ان شاء الله تعالى

وقد انتهت هذه الدولة المكملة للثلاثين فى نحو سنة ٣٦٢ قبل الهجرة بعد أن حكمت مائة وثلاثين سنة

وهذه الدولة كالدولتين قبلها كانت عبارة عن فتن واختلالات فان الديار المصرية وان كانت قد عادت حكومتها الى أهلها فى ذلك العصر الا أنها لم تزل على حالة غير ثابتة لتهديد الاعداء لها واغارتهم عليها ومع ذلك فلم تخل دولة من تلك الدول الثلاثة عن المآثر الاهلية ولم تحرم من المزية الملوكية فان الملك أمرطيس ملك الدولة الثامنة والعشرين قد اجتهد فى اصلاح ما أفسده العجم واعادة المراسم والمواسم الدينية وتعميرالهياكل والمعابد والمصانع وكذلك كل من الملك آخوريس والملك نفراطيس اللذين هما من ملوك الدولة التاسعة والعشرين قد اجتهد فى تزيين ابهيا كل المصرية بالتماثيل والصور أى ان كلا منهما حسنها بصورته وكذلك الملك نقطانب الاول أحد ملوك الدولة الثلاثين اصطنع توابيت عظيمة منها مانقل الى مدينة لندرة والى مدينة برلين والى مدينة باريس ومنها ما هو باق بالانطيقة المصرية وهى عبارة عن توابيت عظيمة حسنة الهيئة متخذة من حجر الصوان وكذلك زاد هذا الملك بعض اضافات توسيعية فى هيكل مدينة آبو والكرنك بالصعيد كما أكمل عمارة قبر العجل أبيس بمدينة منف وبنى الباب الكبير الحصين الموجود أمام المبانى التى تحت الارض من آثار مدينة منف وكذلك شرع الملك نقطانب الثانى أحد ملوك الدولة الثلاثين فى بناء الهيكل الكبير بجزيرة البربا القريبة من أسوان فمن هنا يعلم ان الفتن الخارجية لم تعق فراعنة مصر ولا منعتهم من العمارات الاثرية ولو فى أيام انحطاط درجتها واضمحلال شوكتها وضعف سياستها ورياستها بل كان رونقها فى أيامها لا ينقص عما كان فيها من البهجة فى أيام الدول الاجنبية الآتية

(الفصل الرابع عشر)

فى ملوك الدولة الحادية والثلاثين التى هى دولة الفرس الثانية المنقرضة فى مصر باغارة الاسكندر الرومى

كانت مصر تخلصت من استعباد الفرس ومكثت مدة نحو ست وستين سنة فى

حكم الدول الثلاثة السابقة وقد حظيت فى اثناء هذه المدة بحفظ استقلاليتها واستبدادها بنفسها وبظهورها على عدوها الى أن غلبت عليها العجم فى هذه الدفعة الثانية فى أيام دولة دارا أخوش الذى أسسها فى سنة ٣٦٢ قبل الهجرة ولكن لم تطل مدتها فانها كانت ثمانى سنوات فقط وعدد ملوكها ثلاثة وقد انتهى حكمها فى سنة ٩٥٤ وفى هذه السنة تولى الاسكندر الرومى مصر

(الملك دارا اخوش)

تولى هذا الملك سنة ٩٦٢ قبل الهجرة بعد أن انتصر على نقطانب الثانى ملك مصر الذى فرهاربا وأقام دارا عليها شخصا يسمى فرنده أحد أمرائه نائبا من قبله واستلب هذا الملك أموال مصر واغتنم جميع مافيها ويقال انه بنى قصر الشمع وجعل فيه هيكلا فيكون قصر الشمع من بناء الفرس وكان دارا قبل التغلب على مصر حكم على العجم نحو عشرين سنة كما دلت عليه كتابات المبانى المصرية ومات سنة ٩٢٠ فكانت مدة حكمه سنتين وتولى بعده ابنه أرشيش

(الملك ارشيش بن دارا اخوش)

تولى هذا الملك أيضا مصر سنة ٩٦٠ ومكث حاكما عليها سنتين كابيه ولم يعلم فى المبانى المصرية له ذكر وانما ذكره مانيطون فى فهرسته وخلفه بعد موته سنة ٩٥٨ قبل الهجرة دارا الثالث آخر ملوك فارس فى مصر

(الملك دارا الثالث)

تولى هذا الملك مصر سنة ٩٥٨ وحكمها أربع سنين وهى أيضا مدة حكمه سلطنة فارس الواسعة الاطراف والاكناف وفى مدة هذا الملك تضعضعت سلطنة فارس فى سائر أقطارها وتلاشى أمرها فقد اقتضت الحكمة الالهية ان الملك كورش رأس الدولة الكينية أسسها ووسعها لتكون ملكا للاسكندر الرومى حيث ورثها عن خلفاء كورش ارثا موقتا وذلك ان خلفاء كورش عاشروا اليونان وتعلموا منهم ماعندهم من حب الوطن وان الامة

القليلة الاهالى الصادقة فى حب وطنها كامة مقدونيا اذا كان عندها بعض تمدن وسياسة تغلب العدد الكثير والجم الغفير من أخصامها وكان من أمم اليونان جمهورية يونانية وصلت فى نوبتها الى درجة عالية فى التمدن وانطبعت فيها الشجاعة لكونها ساكنة بالثغور بالاقاليم المجاورة للبحور فظهرت على غيرها من الامم وطار بعيد صيتها الى أقاصى البلدان وسارت بشهرة مفاخرها الركبان وهذه الامة هى أمة مقدونيا فقد حكمت بلاد اليونان واستولت على جميعها ولما كان ملكها فليبش ذا قريحة سياسية يدبر أمر ملكه بالسياسة والكياسة خلفه على الملك ابنه الاسكندر فوسع ممالك أبيه بمهيب سيفه وذلك ان هذا الفتى الماهر فى الحروب الشجاع الممارس فى الخطوب لم يعقه عائق عن توسيع دوائر فتوحه للبلاد وتسخيره للعباد فلم يكن وجد فى طريقه بحارا غير مسلوكة لموانع أو صحارى غير مطروقة لعوائق أو جبالا شاهقة أو مسالك متضايقة

فقد جال الاسكندر بجميع أقاليم آسيا فدخل بلاد الهند وبدد شمل ملكها المسمى بوروس وهزمه وكان بوروس المذكور قد حارب الاسكندر راكبا على فيل عظيم وقد ظهر من هذا الفيل كمال الفروسية فميزه الاسكندر الاكبر ونذره لكوكب الشمس المعبود عند المقدونيين وسمى هذا الفيل باسم أجاكس أحد فحول اليونان فصار هذا الاسم معلقا على هذا الفيل كاجل عنوان ثم حرم ركوب ظهره ماعاش من الزمان وقد عثروا فيما بعد على هذا الفيل عينه بعد مضى ثلثمائة وخمسين سنة وبهذا استدل أرباب التواريخ الطبيعية على ان عمر الفيلة قد يبلغ أربعمائة سنة ثم بعد ان غزا الاسكندر الهند بدد شمل تخت فارس أيضا وورث ملكهم وكان فتوح ماتغلب عليه العجم من الممالك أسهل شئ بالنسبة اليه لاسيما مملكة مصر لانها لما كانت مستعبدة لهم داخلة تحت أحكامهم الشاقة رحبت بالاسكندر ليخلصها من ربقة الاسر فأسس فيها حكمه من سنة ٩٥٤ قبل الهجرة المحمدية فكانت مدة حكم الفرس على مصر حكما حقيقيا أو صوريا بقدر المدة التى مضت بين قنبيشاش الى موت دارا الثالث فكان ما بينهما من الدول المصرية غير معتبر لكون دولة الفرس كانت لهم بالمرصاد فى المدة المتخللة بين حكمها فى المرتين

(الفصل الخامس عشر)

(فى ذكر النتائج التى نشأت من حكم دولة العجم على مصر)

مما يلوح للباحث عن الآثار القديمة أنه من عند مدينة طيوه فى صعيد مصر الى محلة الدكه فى بلاد النوبة فى مسافة خط يزيد عن ستين فرسخا يشاهد الانسان أن المبانى المأثورة عن البطالسة والرومانيين كثيرة باقية قائمة على سوقها وأن مبانى قدماء مصر من الملوك الفراعنة خاوية على عروشها لم يبق منها الا رسوم واطلال فاستنبط من هذا ان منشأ ذلك تخريب العجم لمبانى الفراعنة فى صعودهم وادى النيل انتهابهم الى النوبة حيث تركوا النهر بوازاة قرية سبوه وأخذوا طريقهم فى العطمور لكونها أقصر من طريق النيل الصعب المسالك على الجنود لكثرة الشلالات والجنادل وهذه الطريق العطمورية الصحرائية هى التى يتبعها الى الآن الركب المسافر الى النوبة لقصرها فلهذا كان الهيكل الذى بناه طوطوميس الثالث بقرب أبى حد فى جنوب سبوه لم يزل موجودا وبشمال هذا المحل الى طيوه لا يوجد الا مبانى مشيدة أو مجددة عمرها أو جددها البطالسة أو الرومان على آثار ما دمره العجم وأما مبانى الفراعنة جهة كروسكو وبيت الوالى فانها وان كانت لم تزل باقية الى الآن مع أنها على طريقهم ولم تدخل فى عموم ما ذكرناه فانه لم يكن للعجم عليها سلاطة لكون هذه الهيا كل مصونة فى الحجر فليس فى طاقتهم تدميرها فلذلك قنعوا بتعييب الهيكلين الموجودين هناك ومما لوحظ أيضا أن حكومة الفراعنة كانت عادلة لما كان أهاليها منقسمين الى طوائف لهم مدخلية فى تلطيف الحكومة وبهذا تحسنت أخلاق الحكومة والرعية ففى مدة حكومة العجم استحالت حكومة مصر الى حكومة مطلقة طاغوتية وبقيت فى تصرف أمراء العجم المختلفين فى درجات الجبروت والقسوة كل يفعل ما تسمح به مرخصيته فى حق مصر وأهلها فلم تكن مصر فى أيامهم فى الحقيقة الا اقليما من سلطنة العجم الواسعة بل كانت أشبه شئ بمعسكر فارسى

ومما يظهر أيضا ان المانوية الذين هم أمناء مجوس فارس كانوا مخالفين للكهنة الذين هم أمناء دين المصريين ولمخالفتهم لاهل مصر فى العبادة لم

بنوا في مصر لاصنامهم وأوثانهم هيا كل وانما اقتصروا على تخريب هيا كل المصريين وبيوت أصنامهم ولم يبيحوا لهم الا التعبد بدينهم في محاريبهم بل ضبط العجم أيضا املاك الطوائف الكهنوتية وضربوا المغارم على أصنام المصريين في نظير اباحة التعبد بها لكونها في اعتقادهم باطلة فكانت تدفعها لاصنام الفرس الحاكمين لكونها في اعتقاد الفرس صحيحة وفي الواقع ونفس الامر لم يكن هناك تماثل بين فارس ومصر لا في الهيا كل والتماثيل ولا في الكتابة الفارسية ولا المصرية القديمة بل كانت بينهما المباينة في ذلك كلية أصلا وفرعا

ومما يلحظ أيضا ان حكومة الفرس بقيت في مصر محافظة على زيها في ملابسها الفارسية كما بقي المصريون محافظين على زيهم في الملبس ولم يمنعهم الفرس من ذلك ولم يوجد على المباني المصورة صورة أحد من أهل فارس على صورة الفرس وانما وجد مصورا عليها بصورة أهل فارس الاولى في الحروب التي انتصر فيها عليهم قدماء ملوك الفراعنة

كذلك لم يعثر بأحد من ملوك الفرس دفن في مصر أبدا وانما قد عثر على مقابرهم في بساتين قصور مدينة اصطخر فان أهل فارس كانوا تابعين لاصول زردشت متمسكين بها فكانوا يصبرون أجسام ملوكهم ليدفنوها في بلاد فارس لاقتضاء قوانينهم ذلك ولو مات ملكهم في أي بلد فقد نقل قنبيشاش جثة أبيه كورش من الشام الى مدينة اصطخر كرسي بلاد فارس ليدفن بها وقد زاره هناك الاسكندر الاكبر حين مروره بتلك الجهات وكذلك أمر الاسكندر بدفن دارا في مقابر أسلافه فارس ومقابر ملوك الفرس مبنية في جبل بفارس يسمى الجبل الملوكي كما ان مقابر ملوك مصر التي في طيوه بالصعيد مبنية على ربوة عالية في المحل المسمى بيبان الملوك وقد استنبط بعضهم من ذلك ان ملوك العجم قلدوا ملوك مصر في بناء مقابرهم بالمحال العالية بل قيل ان دارا الاول اقتدى بملوك مصر في كون الملك منهم يبني قبره في حياته فأمر ببناء قبره بفارس وجهز الاشغال اللازمة لتشييده وكان مرامه أن يرى قبره قبل موته ليخيل بينه وبين ما يشتهي من رؤية قبره وهو على قيد الحياة

وقد اكتسب أهل فارس أيضا من حكمهم في مصر بعض عدنات مصرية

اقتبسوها من الطوائف المصرية المنقسمة باعتبار صنائعها وفنونها الى مراتب خصوصية فكانت قبل استيلائها على مصر لم تبق المجد والشرف لطوائفها على اختلافهم الا القبيلة الملوكية الماجدة وكان باقى طوائف العجم مجردين عن التمدن والمعارف لايعرفون الديانة ولا الفنون والصنائع والزينة بل كانوا دائما تحت الخدمة العسكرية وليس لهم خبرة الا بالحروب ولاشغل الا بها فكان كورش ملك فارس فى زمانه مثل جنكزخان فيما بعد فى كونه صاحب قبائل مجندة يستعين بها على غزواته حتى انه استخدم طوائف المغول والتتار العارفين بالحروب المهيئين لاقتحام الخطوب فى جميع فتوحاته فكانوا يسيرون معه أينما سار للقتال والمعارك بل لم يكن سعى هؤلاء القبائل الا عبارة عن انتجاع أمم فارة من الاقاليم الجدبة الى الاقاليم المخصبة فكانت تنقلاتها مهاجرات وانتجاعات فى محاط رائعة ونزولات فى منازل رائعة

فحكمهم على مصر وعلمهم الحكومة المستكملة وفتح أعين ملوكهم لطرق السياسة والرياسة ومعرفة الاحكام المتنوعة الاشكال فان مدة قنبيشاش شاهدة بذلك ودلائل قطعية عليه

وبيانه أنه لما قامت فى مدينة فارس فتنة عظيمة ظهر فيها سمرديوس الساحر وتمكن من كرسى الفرس بدعوى أنه سمرديوس أخو قنبيشاش وظهر افكه وخلعوه من الملك وأرادوا أن يأسسوا حكومة فارسية جديدة فاختلفت الاحزاب فى صورة تلك الحكومة وتشكيلها فجمعوا جمعيات ومجالس وصاروا يتكلمون فيها بالخطابات الرسمية والمقالات السياسية كل منهم يبدى مايستحسنه فى المشورة فبعض الخطباء أشار عليهم بترتيب المملكة المربوطة بالقوانين والاحكام المشروطة بالسير على أصول العدل بالاتقان والاحكام وبعضهم أشار بالحكومة الالتزامية المودعة بين أيدى الوجوه والاعيان ومجلس الجمهورية المؤلف من أمراء البلدان وبعضهم ارتضى الجمهورية الاهلية المؤلفة من وكلاء الاهالى والرعية على اختلاف الدرجات لايختص بمزية الرأى فيها انسان دون انسان فلاشك ان هذه الآراء لم تكن تخطر لاهل فارس ببال لولا قدومهم فى مصر وحكمهم فيها مدة أجيال بل تقسيم مملكة العجم

الى ايالات وعمالات وكور فى أيام دبرا الاولى انما كانت اقتداء بملوك مصر
فى تقسيماتهم التى صار عليها فى جميع الدول المعول فبهذا التقسيم انتظمت
أحوال ممالك العجم وحسنت عندهم الادارة الكاملة والسياسة الفاضلة
ودخل جميع أقاليمهم المختلفة تحت قانون عام واتحدت فى سائر ممالكهم
الاصول والاحكام وهذا بعينه هو أساس الحكومة السياسية على نسق
الحكومة المصرية فقد صارت بلاد فارس حكومة ملكية بعد ان كانت
حكومة عسكرية فالفضل فى جميع ذلك لمصر المحمية

وبالجملة فاذا أردنا استخراج المنافع التى بقيت عند ممالك الامم المتمدنة التى
فتحها العجم وفضلت بها فضل المحكوم على الحاكم استنتجنا ان تمدن جميع
هؤلاء الامم التى صار عندها معلومات تمدنية وأحكام قانونية هو السبب فى هدم
أساس مملكة العجم واستئصالها بعد أن بلغت ما بلغت فى التمكن مع
استدامتها على الطغيان والعدوان وعدم معاملتها رعاياها بالعدل والاحسان
فانقرضت هذه المملكة الفارسية العجمية الظالمة وزال ملكها بمصر وأغلب
البلدان ولم ينفعها الخمسة ملايين من العساكر التى رتبها شيارش للتغلب
والاغتصاب وكان سبب انقراضها فى مصر قيام المصريين عليهم وخروجهم
عن طاعتهم وشجاعة اليونان المعاهدين للمصريين وصلابتهم فى الحروب
وملازمتهم لاقتحام هذه الخطوب وتصميمهم على هزم العجم فغلب التمدن
الكامل على الظلم والجبروت

فانقراض حكم الفرس بمصر فتح لمصر تاريخا جديدا على نسق جديد فى الوقائع
الزمانية ومزايا حديثة عادت عليها بالفوائد وذلك أن استيلاء الاسكندر
وخلفائه على مصر بعد الفرس كان أخف ضررا على أهلها من حكم الفرس
وذلك لان أمة اليونان القديمة كانت أمة عاقلة تلائم أحوال جميع الامم
وتوافق ادارتها الطباع ذلك الزمن القديم لاسيما وانه قد كان بينهم وبين
المصريين سابق عهود ومحالفات جعلتهم حزبا واحدا على الفرس وكذلك
كان بين مصر واليونان روابط محبة وشرائط مودة باشتراكهم فى العلوم
والمعارف الحكمية والتآليف والتصانيف النافعة والقرائح التمدنية
والعقول الذكية واشتراكهم فى الامور الدنيوية والشوكة البرية والبحرية

فكل هذه المشاركات أوجبت الوصلة الباطنية والاتحاد القلبى

(المقالة الثالثة)

فى الدول الثلاثة الاخيرة الى تاريخ أمر الملك طيوديس قيصر الرومانيين وهى من سنة ٤٥٩ الى سنة ١٤٢ وفيها عدة أبواب

(الباب الاول)

(فى ملوك الدولة الثانية والثلاثين وهى الدولة المقدونية الاولى وفيه فصول)

(الفصل الاول)

(فى بيان هذه الدولة ومدة حكمها)

كان ابتداء هذه الدولة اليونانية التى عرفت فى التاريخ بالدولة المقدونية الاولى من ابتداء سنة ٩٥٤ الى سنة ٩٢٧ قبل الهجرة فكانت مدة حكمها سبعا وعشرين سنة وعدد ملوكها ثلاث ورأس هذه الدولة الاسكندر الاول الملقب أيضا بالاسكندر الاكبر وبهذه الدولة انتهت سلسلة الدول المصرية العائلات التى ذكرها المؤرخ مانيطون فى تاريخ مصر غن هذه الدولة ومايذكر بعدها الى فتوح الاسلام ليس الاعتماد فيه الا على مايفهم من آثار العمارات مما هو مكتوب عليها ومفهوم منها مع مايضم الى ذلك مما يستفاد من كتب اليونان والرومانيين المتداولة عند الامم وماترجم منها فى الالسن المختلفة فمما يدل من الآثار المصرية على ملوك هذه الدولة مصراعا باب متخذ من حجر الصوان وجد فى هذا العهد بجزيرة أسوان مكتوبا عليه عنوان الاسكندر الاكبر وكذلك وجد بالكرنك مقصورة من حجر الصوان منسوب بناؤها الفليش أريدس أخى الاسكندر وكافل ابنه الاسكندر الثانى وكذلك صار استكشاف بعض تصاوير بهيكل بالكرنك ولوقصر مكتوبا عليها اسم الاسكندر الثانى ابن الاسكندر الاكبر تدل على أنه من ملوك الدولة المصرية مع مايضاف الى ذلك كله مماذكره المؤرخون فى شأن ملوك هذه الدولة وبيان الوقائع والحوادث الحاصلة فى أيامهم كما ستعرفه فى الفصول الآتية

(الفصل الثانى)

(فى مناقب الاسكندر الاكبر وفتوحه لمصر وبنائه الاسكندرية)

رأس هذه الدولة المعروف بالاسكندر الاول ويسمى أيضا الاسكندر الرومى ومع أنه يلقب أيضا بذى القرنين الا أنه غير ذى القرنين المذكور فى القرآن الشريف فهو الاسكندر المقدونى ابن فليبش ملك مقدونيا وأمه تسمى لنبادة أناط أبوه فليبش ارسطاطاليس الحكيم بتربيته مدة شبيبته فكان من مبدأ أمره تلوح عليه سمات النجابة و يستبين من حاله أنه سيصير يوما من الايام مفردا فى الدنيا ظاهرا على ملوكها وأن يفعل من الفتوحات العظيمة ما يخلد به اسمه فى دفاتر مشاهير الرجال وقد سبقه أبوه بالنصرات العجيبة فى الحروب والفتوحات ولما شرع أبوه فى غزوة مدينة بيزنطيا التى خلفتها القسطنطينية كان عمر الاسكندر نحو ست عشرة سنة فأقامه مقامه فى حكومة مملكة مقدونيا ولواحقها وفى أثناء هذه النيابة اجتهد الاسكندر فى تسخير الممالك المجاورة لمقدونيا وكانت قد أظهرت العصيان ولما صعد على سرير ملك أبيه وهو فى سن عشرين سنة فتح شمال روم ايلى وسواحل ايطاليا وأدخل اليونان تحت طاعته وكانوا قد خرجوا عليه استضعافا له وظنا أنه لصغر سنه لا يستطيع تذليلهم ودمر مملكة طيوه اليونانية وأخذ مدينتها عنوة وأفنى أهلها ولم يستثن من قتلهم الا عائلة فندروس الشاعر ثم أعلن حرب فارس وارتضاه اليونان أميرجيوش جميع الممالك اليونانية المصاحبة له فى هذه الغزوة فقاد ثلاثين ألف مقاتل من المشاة وخمسة آلاف فارس من الفرسان وسار بهم قاصدا بلاد فارس فاجتاز بوغاز كليبولى فهزم عسكر دارا على سواحل نهر استولى فى أناطولى فرض مرضا شديدا ألجأه الى الاقامة فى طرسوس زمنا فلما شفى هزم دارا أيضا عند نهر ايازو فى اقليمى سلقفة وأهنة وفى هذه الواقعة أسر عسكر دارا وعاملهم بأحسن المعاملة الملوكية وأخذ عقب هذه النصرة صور وصيدا وفلسطين وغزة ودخل مصر واستولى على جميعها بالحلم والعدل واستمالة قلوب أهلها وترتيب ادارتها وسياستها القديمة على ما كانت عليه ولم يغير شيأ من عوائد المصريين وتوجه الى كاهن المشترى فى واحات

سيوة فاستجوب الكهانة ولم يظهر نفسه فعرفه الكهان وأعلنوا بأنهم يعهدون أنه ابن المشترى الذى أصل هيكله فى مدينة طيوه وأن سره سرى الى معبد سيوة ومع حكاية المؤرخين سفره بتلك الجهة فلا يوجد الآن من آثار القدماء ما يدل على سفر هذا الفاتح لا بالكتابة ولا بالنقش بل لم يوجد الى الآن اسمه مكتوبا بالاعلى مصراعى باب مصنوع من حجر الصوان وجد فى هذا العهد بجزيرة أسوان ومرسوم عليه عنوان الاسكندر الاول كما سبقت الاشارة الى ذلك فى الفصل الذى قبله ولم يبق من آثاره غير ذلك الا آثار مدينة الاسكندرية التى اختار موقعها فى البرزخ الذى بين بحيرة مريوط والبحر المالح فى غربى النيل

وقد كان هذا المحل قرية قديمة تسمى راقودة فدخلت فى سور الاسكندرية وبقى اسم راقودة لخطة بالاسكندرية بنيت على آثارها

وقد رسم الاسكندر صورة مدينته الجديدة وجعلها على نسق المبانى المقدونية وقد خطط محل أساساتها بالدقيق المدخر لمؤنة العساكر فبنيت أسوارها على هذا التخطيط وكان قطر محيطها لا ينقص عن ثمانين غلوة سهم وكان المعمار المسمى دينارخس اليونانى هو المأمور باجراء عملية الرسم كما رسمه الاسكندر وقد عين الاسكندر بنفسه محال المبانى العمومية والهياكل سواء كانت معابد أصنام اليونان أو أصنام المصريين وهذا دليل واضح على اباحته الديانة بل نص المؤرخون على أنه صرح للمصريين باباحة ذلك يوم فتوحه فهذا الصنيع لم يخطر مثله لعقول العجم أيام حكمهم وهو يدل على علو درجة الاسكندر فى التمدن وحسن السياسة والتدبير فان معابد المصريين على مقتضى معتقدهم واجبة البناء فى هذه المدينة الجديدة وقد أحدث الاسكندر لهذه المدينة العمران حيث جلب اليها من المدائن المصرية أناسا كثيرين تصير بهم آهلة عامرة وجعل فيها محافظين مقدونية وأذن لكثير من اليونان وأهالى أناطولى وغيرها من البلاد المشرقية أن يستوطنوا بها وفتح أبوابها لجميع أهل الملل والدول وأعدها مركزا جديدا للتجارة أهل المشارق والمغارب فصارت كذلك على مدى الازمان فهى الى الآن رابطة لزومية ومدينة مركزية لتجارة أوروبا وآسيا وافريقية بل وامريقة وقد رزقها الله تعالى

بفاتح آخر مقدونى الاقليم مخلد الاسم بلمشروع الجسيم أشرق طالع سعده على أفق مدينة سلفه فى زمن طويل من بعده وقد كادت أن تكون فى نومة أصحاب الكهف والرقيم فأعاد اليها شبابها وألبسها من الزينة اهابها وهيأها لمقاصد سامية ومراصد عالية وأعاد اليها المآثر الدوائر بمقتضى أحوال لزومية ومساعدات وقتية وتنظيمات أوروباوية وهذا المقدونى الثانى المعوذ الاسم الكريم بالمثانى ساكن الجنان الحاج محمد باشا على الشان جليل البرهان أنجز دوام مقاصد الاسكندر ونواه وذلك مما تفضل عليه به مولاه مما يعود بالمنافع الجليلة على الديار المصريه وينتهى به الحال الى تمدن افريقية والى هذا العهد لازالت هذه المدينة تتزايد فى درج الكمال وبلوغ الآمال وسيأتى الكلام على معبد تمدن الديار المصرية وبيان مفاخر الاسكندرية فى الحكومة الاسمعيلية المحفوفة بالعناية الصمدية ثم لما قصد الاسكندر السفر الى آسيا من جهة الشأم ليستمر على الغزو والفتوح قلد ولاية مصر للامير اقليومنوس وسار هو حتى دخل الى آخر حدود آسيا وفى عودته من مصر الى آسيا انتصر على دار النصرة الاخيرة بقرب مدينة اربل جهة الموصل وكان ذلك فى سنة ٣٣١ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية

(الفصل الثالث)

(فى ذكر واقعة أربل)

كانت هذه الواقعة ختام دولة الفرس فى حكمهم على الممالك المتكاثرة وبيان ذلك أن جيشى مقدونيا وفارس كانا متباينين عددا وبطشا فكان جيش دارا مؤلفا من ستمائة ألف من العساكر المشاة وأربعين ألفا من الخيالة وكانت عساكر الاسكندر لاتزيد على أربعين ألفا من المشاة ومن خمسة آلاف الى ثمانية آلاف فارس ولكن عساكر الاسكندر كانوا أرباب شهامة وقوة حماسية وأما العجم فكانت جنودهم أقواما متجمعة وأخلاطا مستهجنة وهمجا مستجمعة لا جنودا مجندة بحيث لم يتكون منها جيش منظوم مؤلف من كماة أبطال وحماة فحول رجال

وكانت تعبية الجيشين على شكل واحد فقد رتب كل من الفريقين جنده صفين
فجعل الاسكندر الفرسان جناحي جيشه ميمنة وميسرة والمشاة قلبا وكبداله
وجعل ضباط المشاة والفرسان تحت قيادة ملوك الطوائف الذين جاؤا معه
من ممالكهم وجعل الحكام والامراء أرباب الرياسة العالية من أخصاء
الملك وأمنائه وجعل الفرس مواجهة صفهم محصنة بمائة عربة حربية مسلحة
بالمناشير والمناجل وخمسة عشر فيلا مركوبة بالعساكر وكان مستقر دارا بينهم
في مركز الصف الاول محروسا بالحراس الملوكية المنتخبين من شجعان جنده
وبالعساكر اليونانية المستخدمة عنده بوجاق العساكر المشاة ممن أدخلهم
في خدمته لما عهده فيهم من الحماية ومقاومة يونان المقدونية المزراقجية
ولما رأى دارا أن صفوف عساكره أكثر امتدادا وانبساطا في الصف من
عساكر الاسكندر أضمر أن يغتنم فرصة ذلك بالاحاطة على صفوف عساكر
الاسكندر ليحصروهم من جميع جهاتهم ويأخذوهم غيلة من كل جانب ولم
تفت هذه المكيدة الحربية الاسكندر بل تداركها حيث أمر حاكم الصف
الثاني أنه اذا هجم عليه عدو من الخلف يدير وجه الصف اليه ويقاومه
أو يرتب عساكره متقاطعة تقاطعا صليبيا في حالة ما اذا جاء العدو للهجوم
على جوانب الصف ووضع الاسكندر للتحصين أكثر عساكره المقوسين
والمقلاعجية ورماة النبال والاحجار في واجهة الصف الاول لمقاومة العدو
وردعرباته المسلحة بالمناشير والمناجل ولارعاب خيل تلك العربات وتنفيرها
بتساقط السهام والنبال والاحجار على وجهها كامطار السماء وأمر الاسكندر
قواد جناحي جيشه أن يمدوا صفوفهما مدا واسعا بشرط أن لا تضعف قوة
الصف بالمد والانتشار وقد جعل أيضا في المعسكر بعض قراقولات لحفظ
الذخائر والامتعة وللمحافظة على أسرى الفرس المسجونين فيه وكان من
جملتهم أم دارا وأولاده وجعل امارة ميمنة الجيش لنفسه وامارة الميسرة
للامير بارمنيون

فلما تقابل الجمعان تبين للاسكندر أن دارا ادبر له كمينا في موقع من المواقع
فانحاز عنه الاسكندر واجتنبه ووسع جيشه على البعد من هذا الكمين جهة
اليمين ليأمن من هذه المكيدة فكان العجم يزحفون على جيش الاسكندر بحسب

حركة جيشه وموقع عساكره ثم أدرك دارا أن القصد من حركة جيش الاسكندر
انما هى زحزحة جيشه من المحل الذى أصلحه بالتسوية الى أرض مضرسة
بالارتفاعات والانخفاضات لمنع عرباته المسلحة وتعجيزها عن السير فأمر
فرسان الجناح الايسر الذى هو أبسط وأوسع من جناح جيش الاسكندر أن
يتقدموا أمام الجيش وأن يحيطوا بجناح جيش الاسكندر ليمنعوه عن
الانبساط والاتساع زيادة عما هو عليه فلما أحس الاسكندر بذلك منهم بعث
فرسانه بصدهم عن ذلك على قدر الامكان فانكمشت عساكر الاعجام وانضمت
ثم حملت على العدو حملة عظيمة والتحم القتال

وكان عساكر العجم أكثر عددا وعدة من عساكر المقدونية وأجود سلاحا وخيلا
ومع ذلك فعساكر الاسكندر تجلدت وتثبتت أمام العدو حتى كلت وتعبت
من مطاردة فرسان العجم ثم أخذت فى الثبات والبسالة فوق طاقتها وتمادت
على ذلك فألجأت فرسان العجم الى الفرار

فعند ذلك أطلقت الفرس عرباتها ذات المناشير والمناجل على مزراقجية
المقدونية قاصدة اختلال نظامها وتبديد شملها فكان ذلك أيضا بدون طائل
لان المزراقجية صاروا عند ذلك يدقون بأسنة رماحهم على درقاتهم فتحدث
عنها قعقعة عظيمة صوتها مزعج للخيول وجعلت ترمى النبال عليهم من كل
جانب فبهذه الوسيلة جفلت الخيل ورجعت ناكصة على أعقابها فهجمت
على عساكر أصحابها فأوسعتهم جراحا وجعلت كيدهم فى نحورهم وتعرض
عسكر الاسكندر لبعض عربات العجم بالقبض على زمام خيولها فأوقفوها
وأنزلوا من فيها وذبحوه على محله وبعض عربات العجم دخلت فى الانفراجات
المتخللة بين الصفوف التى أمر بانفراجها الاسكندر بعبورهم فاستولى عليها
المقدونية بدون أن تضرهم فى عبورها بشئ

وقد فهم الاسكندر من دارا أنه يريد أن يدبر حركة أخيرة ليهجم على جيشه
بجميع جنوده دفعة واحدة فخشى الاسكندر من هذه الحملة على جنوده لقلتهم
وكثرة عدد العدو وخاف أن ينهزموا بالرعب حين الانقضاض عليهم فدبر حيلة
لاحياء قلوب عساكره وانتعاشهم وكان معه بالمعسكر شخص يحسن العرافة
وزجر الطير يسمى أرسيطاردة فأمره الاسكندر أن يلبس حلة العرافة البيضاء

ويقبض بيده على غصن من شجر الغار وينجز الطير ويبشر بالحيرفى أثناء الخطر والتردد فى الظفر دنا هذا العراف من الجيش ووقف فى مركزه وصاح بأعلى صوته معلنا للبشارة قائلا قد لاح لى ان عقابا باسطا جناحيه على رأس الاسكندر وهذه بمقتضى التجاريب عندى دلالة باهرة على النصر والتأييد وها هو العقاب بمرأى من أبصاركم وأشار باصبعه الى جهة السماء فأحدق الجميع أبصارهم وشخصوا الى ما أشار اليه وتخيلوا أنهم رأوه بالابصار فدبت فى عروق أبدانهم النخوة وداخلهم الحماس والفتوة فعادوا بالحملة على عدوهم بقوة ونشاط وبسالة وشجاعة وسرور نفس وانبساط وشقوا صفوف الاعداء ومزقوهم كل ممزق وشتتوا شمل فرسانهم فلما رأى الملك ذلك لحقهم بخواص جيشه وحرسه وتمم هزيمة الاعدا من جناحهم الايسر وسقاهم فى الوغى كأس الموت الاحمر فلما تمت عليهم الهزيمة رجع الملك القهقرى حيث لاموجب لاقتفاء آثارهم ثم انعطف بالحملة على الفرقة التى كان فيها دارا فلما التقى الصفان وكان كل من الملكين بمرأى من صاحبه ومسمع قويت عزيمة الجندين وتحركت همة الجمعين وقد كان دارا راكبا عربته مسلحة وكان الاسكندر أيضا راكبا على ظهر جواده وحوله حرسه من فحول رجال أجناده ممن يفديه بنفسه فاشتد القتال واتسع المجال وسالت الدماء فى ميدان النزال وقد فوق الاسكندر سهمه وسنانه فطعن بذلك ركابدار الملك دارا فخطر فى الظنون ان دارا هو المطعون وكثر اللغط بذلك ودارت الالسنة أن دارا لامحالة هو الهالك فشدوا عليه النكير ودعوا هنالك ثبورا حيث هو قد صار من القادمين على منكر ونكير فاختل نظام جيوش العجم وفر أقارب دارا وأحبابه حيث أيقنوا بالتلف والعدم وفارقه كل من كان على ميسرة عربته لظنهم موته وأما من كان على يمينها فقد علم الحقيقة فبادر بأخذه وتوصيله الى مركز جنوده ليكون فى أمن عليه وأمان واطمئنان من غائلة الطعان فلما رأى دارا أنه معرض للخطر وايس من بلوغ الوطر سل خنجره من غمده وهم بقتل نفسه ومفارقة جنده وما حمله على هذه العزيمة الا تخوفه من عار الهزيمة التى هى عند أهل الحروب مثلبة ذميمة ثم رأى أيضا ان عساكره لم يزل فيهم الرمق وربما ساعدهم الدهر والتأم

شملهم المفرق فاستحيا أن يتركهم وحدهم لحومة الميدان ويفارقهم مفارقة الجبان فاستبق على نفسه ولم يسع فى تعجيل حاوله برمسه وأما جمعه فكانوا بين الرجاء والخوف فارتخت أقدامهم شيأ فشيأ فانفرجت صفوفهم وأرغمت أنوفهم فلم تكن هذه واقعة قتال بل كانت مذبحة كاملة الاختلال فلما أيقن دارا أن حينه قدحان وأنه قد أمن الدهر خان عطف على وسائل النجاة وعوّل واقتفى جنده أثره وأوّلوا صريح مالم يتأوّل وتفرّقوا فى الفلاة طالبين النجاة فاقتفى الاسكندر أثره سائرا الى اربل ظنا أن يجد دارا هنالك مع أتباعه ويظفر بذخائره ومتاعه فوجد أنه ترك له خزائن ماله غنيمة بل ترك قوسه ودرقته واختفى غب هذه الهزيمة

فهذه آخر هزيمة للفرس ونصرة للمقدونية خسر فيها العجم سلطنتهم الباهرة ودولتهم القاهرة فقد قال المؤرخ أريانوس ان العجم هلك منهم فى هذه الواقعة ثلثمائة ألف نفس غير الاسرى وهذا ان لم يكن صحيحا فلا أقل من كونه يدل على ان خسارتهم كانت جسيمة جدا وأما جند الاسكندر فلم يهلك منهم على ما قاله أريانوس الا نحو ألف ومائتى نفس أكثرهم من الفرسان وهذا أيضا من باب المبالغة التاريخية فى القلة من طرف مؤرخى اليونان وفى الحقيقة كانت هذه الواقعة بقرب محل واقعة أبزو فى سهل بالموصل على مقربة من مدينة اربل فبهذا اشتهرت هذه الواقعة بهذا الاسم وهو واقعة اربل

ثم لازال الاسكندر يقفو أثره من محل الى آخر ليعلم خبره وأين مستقره فوجده قتيلا قريبا من دمغان باقليم اذربيجان فأسف عليه كل الاسف وعلم أن قاتله أحد قواده حيث لم يوافقه دارا على الهروب وارتكاب أكبر الذنوب فصنع له جنازة عظيمة ملوكية ورجع من حيث أتى لمقاصده الخصوصية وأول شئ فعله الاسكندر بعد النصر والفتوح تقريب القربان وذبح الذبائح وشكر الهه واظهار التهانى فى الغبوق والصبوح ثم أنعم بالصلات والعوائد والمنح الجزيلة الفوائد على جميع من امتازوا فى الوقائع من الابطال وحازوا قصب السبق فى حومة النزال فقد منحهم أيضا المنازل والقصور والمناصب والوظائف وجعلهم من ولاة الامور ولما

كان شاكر الفضل أمم اليونان حيث قلدوه الامارة العظمى على عموم جنودهم المختلفة باختلاف البلدان ومنحوه الرياسة العمومية على سائر الجيوش اليونانية أمر برفع ما كان عليهم من التكاليف واستمال قلوبهم اليه وألفها أحسن تاليف وأعاد لهم ما سلب منهم من الخصائص والمزايا وحرر مدنهم وأعتقها ورفع عنها المغارم ومنحها بالعطايا وبالجملة فقد أظهر للجميع ميله الى الفضائل وحبه لاحياء مكارم الاخلاق واماتة الرذائل وأنه أهل وفاء وأمانة وصاحب عناية وصيانة وقيام باداء الواجبات والحقوق ومحب للبر ومبغض للعقوق لا يميل عن العدل والاحسان ويحب أن يقتدى به فى ذلك كل انسان وبالجملة فقد كان يسلك مع رعاياه سبل الفضائل ومكارم الاخلاق حتى اشتهر بالمكارم فى سائر الآفاق

(الفصل الرابع)

(فى دخول الاسكندر الاكبر فى مدينة بابل بالعراق ووفاته بها)

قد سار الاسكندر قاصدا مدينة بابل حتى لم يكن بينه وبينها الا فرسخ ونصف واذا بمشايخ أهل العراق الذين كانت لهم يد فى رصد النجوم خرجوا اليه من المدينة ومثلوا بين يديه وأخبروه بأنه ظهر لهم من التنجيم ومن علوم أحكام النجوم القديم أن دخوله بمدينتهم يعود عليه بالخطر وأنه يموت بذلك كما بدا لهم من الطوالع وظهر ورغبوا كل الرغبة أن ينصرف عنها الى غيرها من المدائن فتطير من ذلك وتشاءم ولم يدر أن المقدر كائن فبعث بعض أمرائه الى هذه المدينة وسار الى معسكره وقد أضعف شك التنجيم يقينه فوصل الى معسكره بعد مسير عشرة أيام وكان فى المعسكر جماعة من حكماء اليونان العظام فقدموا عليه للتهنئة والتبريك وعلموا ما فى نفسه من الوسوسة والتشكيك وأنه عدل عن دخول بابل لما أوضحه له المنجمون من الدلائل فأقاموا الحجج والبراهين على أن أحكام التنجيم مجرد دعوى ليس تحتها طائل وأن زعم الاطلاع على الغيب من قبيل افك بدون شك ولا ريب وأن تنجيم أهل العراق من قبيل الزندقة والنفاق فطمع فى السير الى بابل مع جميع جنده وكان قد بلغه قدوم الوفود من جميع بلاد الدنيا اليها وانهم ينتظرون

قدومه فجد السير بكل جهده فلما فرح بذلك واستبشر وزال عنه الوسواس والشر طرح قول العراقيين وراءه ظهريا وصار التشاؤم من قولهم نسيا منسيا ودخل هذه المدينة التى هى مركز الجمعية العمومية مع غاية الابهة والطنطنة المشرقية ثم تقابل مع سفراء الملوك العظام وأظهر الشمم وعلو الشأن مع الترحيب والاكرام

ومكث فى بابل نحو سنة يجدد فيها الاعياد والمواسم والضيافات والولائم ولم يحد عن طريق الصواب بشئ من أنواع الظلم والارتكاب ماعدا ارتكاب اللذات والانهماك على الشراب فبينما كان ذات ليلة فى مجلس اللذات والشهوات اذ أسرف على نفسه وأفرط فى السكر والمقدر لاشك آت فالتمسوا منه فى مجلس الشراب اعادة الحانة والمدام وأن يشرب على محبة كل واحد من الندامى نحو جام وكانوا نحو العشرين أنيس كل واحد منهم هو نديم له وجليس فأجاب هذا الالتماس وشرب العشرون عن محبة كل واحد كاس ثم استدعى بقدح كبير المقدار يسمى هرقاوس الجبار يسع ملء ست زجاجات فشرب به مرتين وأراد أن يظهر الثبات فوقع مغشيا عليه وانكب على محياه فأصيب فى الحال بشديد الحمى فما هنأه أحد ولا حياه بل نقلوه فى فرشه فاقد الشعور فلازمته الحمى المتقطعة بالمرور والعبور فكان اذا فارقته الحمى يأمر وينهى بما يخص ارسال الجنود المقدونية لجهات الغزو برية وبحرية ظنا ان زمان مرضه قصير وأن أمره الى استكمال فتوحاته وحفظها يصير فلما رأى أن حياته على شفا وأنه قد أيس من البرء والشفا وأنه قد ضعفت حواسه وانقطعت أنفاسه خلع خاتمه من اصبعه وسلمه الى الامير برديقا وأوصاه أن ينقل جثته الى هيكل المشترى بواحات سيوة ليدفن هنالك بين الاصنام لا بين الناس ومع أنه كان على آخر رمق فكان يظهر التجلد والقوة فقد أسند ظهره ذات يوم على وسادة ومد يده يقبلها جميع الجند حسب العادة فسأله بعض كبراء دولته عمن يخلفه على هذه المملكة الجسيمة فقال خليفتى عليكم أصلحكم بحفظ ناموس الملك والطريقة المستقيمة ثم قال انى لارى انه لا بد أن يقع بينكم الفشل

والشقاق وأن لا يكون بينكم اتحاد واتفاق وسأله بعضهم متى نعدلك ممن يجل ويعظم وفي سلك أقطاب الكون وعقدهم المنظم فأجابه لا أستحق هذا الاحترام الا اذا سعدتم بعدى وانتظم شملكم أحسن نظام فكانت هذه العبارة آخر كلامه ونهاية ساعاته من الدنيا وأيامه توفي وعمره اذذاك اثنان وثلاثون سنة وثمانية شهور وهذا أصح الاقوال والمشهور وحكم منها اثنتي عشرة سنة ألا الى الله تصير الامور وكان ذلك سنة ٣٢٦ قبل هجرة بدر التمام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام

(الفصل الخامس)

فيما ترتب على موت الاسكندر من تقسيم ممالكه بعده ومن حكم مصر من ذويه

لما كان قد فتح الاسكندر الممالك العظيمة وأدخل ممالك آسيا تحت حكمه اشتهر في البلاد المشرقية بكمال الرجولية والشهامة بل جل في الاعين من جهة سكونه فاتحا البلاد الدنيا وصار له احترام وتبجيل حتى قيل ان نصرته السريعة خارجة عن طوق البشر وأنها من قبيل العناية الالهية فكانت سطوته موجبة لصداقة الامم التي استرعاها وانقيادها لحكمه مدة حياته وكان يظن من هؤلاء الرعايا وملوكهم القيام بحقوقه بعد موته وبقاءهم تحت دولته فلما مات فجأة لم يبق شيء من ذلك وكان أمر الله قدرا مقدورا

ومن المجرب ان الحقوق المكتسبة بالقوة القسرية تزول بزوال تلك القوة بل متى تجددت قوة أخرى غالبتها فانها تنتزع بهذه القوة أي تكتسب الحقوق بمثل ما كانت اكتسبت أولا حيث ان العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما فالحقوق التي اكتسبت بالقوة القهرية تزول بالقوة القهرية فكما لعب الاسكندر في ميدان حروبه باسترقاق الممالك والملوك واستبد بحكومة هذه الممالك وأعدها حقوقا له مع أن مبنى ذلك على التعدى والتسلط بالقوة عوقب بنزعها من ورثته وورثائه بل الذى انتزعها منهم بقوته هو ممن شاركه في العمل والتغلب وأعانه عليه

ولم يعقب الاسكندر وارثا السرير ملكه يصلح لان يخلفه حالا ولو على مملكة مقدونيا الموروثة عن آبائه فضلا عن أن يخلفه على الممالك المتكاثرة فان

الاسكندر

الاسكندر لم يكن له من الاخوة الا أخ لابيه عى فليبش أريديس وكانت أم هذا الولد بنت الاصل فأخذها فليبش أبو الاسكندر ورزق منها بذلك الولد وكان للاسكندر أيضا ولد من زوجته باريسينه بنت دارا اسمه هرقولس وكانت زوجته التى مات عنها وهى روشنك بنت ملك همدان من بلاد العجم حاملا ومشرفة على الوضع فكان يحتمل أنه الصغ ذكرا يرجى أن يخلف أباه فكانت ولاية العهد منحصرة فى شخصين محققين وثالث مظنون

فأما أخوه فليبش أريديس فكان معتوها ماله وأنه غير مقتدر على حمل أعباء الملك الجسيم فلا يصلح للخلافة على ممالكه وكان ابنه من باريسينه لا تجربة عنده ولا سبق له معرفة بسياسة ولا رياسة ولم يكن محققا ذكورية الحمل الملوكى وعلى فرض وجودها فالحاكم فى الحقيقة هو وصيه وحكومة الوصى ضعيفة نظرا للوقت والحال حيث ان موت الاسكندر كان بغتة بعد استيلائه على ممالك متكاثرة وخضوع ملوك قوية له فلا يقوم مقامه على هذه السلطنة العظيمة وصى على طفل صغير بل لابد فى حفظ هذه الممالك المختلفة المتباعدة من ملك عظيم صاحب بأس خطير موصوف بجميع صفات الاسكندر الفاتح لها

فلو اتحد جميع قواد جيشه وأمراء جنوده وأعيان دولته واتفقت كلمتهم وكانوا على قلب رجل واحد لهان هذا الخطب الجلل وافترقوا على وجه جميل ولكن ترتب على أطماعهم اختلاف الكلمة وتحقق ما أخبر به الاسكندر قبل وفاته من حصول الفشل والمشاحنة بينهم وذلك لانهم كانوا جمعا ما بين أرباب مجد أثيل ونسب عريق أو امتيازات بخدامات ملكية وامارات عسكرية ويضاف الى مجدهم التليد والطريف كون الحكمة الالهية زادتهم بسطا فى الاجسام والعقول وكان ممن امتاز منهم بهذه المحاسن والعطايا وفاق على أقرانه بالخصائص والمزايا عدة أمراء وهم

بورديقا والبوناط وأنطباطير ولوزيماك

وبوطون وبوطسطس ونيارخس وبطليموس

ففى غداة موته اجتمعوا حول سريره ووضعوا على ذلك السرير علامات الملك المخصوصة وسلاح الاسكندر وعقدوا مجلسا وتذاكروا فيمن يخلفه

فرأى برديقا أولوية ابنه من زوجته روشنك القريب الولادة ورأى نيارخس ان الذى يصلح لذلك هو ابنه الموجود المرزوق له من باريسينه بنت دارا وقد سبق أن هذا الولد يسمى هرقولس فنقض بطليموس كلا الرأيين ولم يستحسن تولية واحد من الطفلين قائلا انهما من اسباط ملوك العجم فاذا قلدنا الملك لواحد منهما فكأنا سلمنا بأنفسنا ملك مقدونية لملوك فارس ثم قال الاحسن أن توضع ادارة سلطنة الاسكندر فى يد مجلس مؤلف الاعضاء من أعيان قواد الاسكندر فبينما هم يتداولون فى هذا الرأى اذا بصوت جهورى يسمع من خلال المجلس هانحن نبايع أخا الملك خليفة على سلطنة أخيه ونلقبه فليبش وكان هذا الاسم مألوفا عند أهل مقدونية وقد عضد هذا الرأى رئيس الجنود المشاة فاختلفوا على هذا الرأى ورفضه أكثرهم واجتهدوا فى عدم تولية أخيه واستعانوا بفرسان الجنود فلم يجد ذلك شيأ بل ظهر فليبش أريديس أخو الاسكندر وعليه الحلة الملوكية وتزيا بزى ملك العجم فبايعه السواد الاعظم والجمهور من الاهالى والجنود على أنه وارث الاسكندر فوزع الايالات والمناصب الملكية على الضباط ومشاهير الرجال لاسيما على من كان مقبولا منهم واشتغلوا بتحنيط جثة الاسكندر وتصبيرها وكان لم يزل طريحا على فراشه محروما من الدفن مدة سبعة أيام وفى هذا المجلس قلدوا بطليموس نائبا على مملكة مصر وما يضاف اليها من برقة وبلاد الغرب المتاخمة لها وبعد فليبش تولى الاسكندر الثانى تحت كفالة بيطون فتكون عدة ملوك مصر التى من الدولة المقدونية الاولى التى هى الثالثة والثلاثون ثلاثة وهم

الملك الاسكندر الاكبر وقد سلف ذكره

(الفصل السادس)

(فى الملك ارهيده فليبش)

يسمى هذا الملك اريديس فليبش وهو أخو الاسكندر من أبيه وفى الحقيقة لم يكن الا ابن فليبش من السفاح تولى ملك مقدونيا بالاشتراك مع ابن أخيه الاسكندر الثانى ولم يكن له فى المنصب الملوكى على مقدونيا الا مجرد اللقب لا النفوذ الحقيقى فكان ملكا فى الصورة فقط وكان المتسلط على ممالك مقدونيا فى الحقيقة الامير برداقاوس وصى الاسكندر على ممالكه وذلك لان

الاسكندر حين حضرته الوفاة أحضر أربعة من أمراء جنوده الذين هم من ملوك الطوائف وجعلهم أوصياء على تقليد مملكته لمن يستحقها فتغلب الامير برداقا على خاتم الاسكندر عند موته واجتهد فى أن يستولى على جميع الممالك وطمع فى السلطنة وكان للاسكندر الاكبر أخت تسمى قلوبطره فتزوجها الامير برداقا فتحزب عليه أربعة من ملوك الطوائف ومنعوه من ذلك وكان بطليموس اذذاك نائبا على مصر من طرف ملك مقدونيا فسار برداقا فرارا من المتحزبين الى مصر طمعا فى أخذها من بطليموس حيث يئس هو من السلطنة على مقدونيا فالتحم القتال بينهما بقرب مدينة منف فانهزم برداقا هنالك ومات غريقا فى نيل مصر

وأما فليبش أرهيدس ملك مقدونيا فقتلته ليبناده زوجة الاسكندر لسبع سنين من حكمه فكانت توليته فى سنة ٩٤٦ وموته سنة ٩٣٩ قبل الهجرة وانفرد بمملكة مقدونيا الاسكندر الثانى

(الفصل السابع)

(فى الملك الاسكندر الثانى ابن الاسكندر الاكبر)

هذا الملك هو ابن الاسكندر الاكبر من زوجته روشنك بنت ملك همدان تلقب ملكا فى طفوليته فى أيام عمه فليبش أرهيدس ثم بعد موته انفرد بالملك الصورى وكان النفوذ اذذاك للامير انطباطير أحد الاربعة الاوصياء فبعد موت انطباطير دخل الاسكندر المذكور تحت وصاية الامير بيطون أحد الاوصياء الاربع بتوسط بطليموس نائب مصر فعند ذلك قام ابن انطباطير المسمى كسندره على الاسكندر المذكور فقتله وتغلب على مملكة مقدونيا وقتل ليبناده أم الاسكندر أيضا وحمل الناس على المبايعة له على المملكة فى نحو سنة ٩٢٣ قبل الهجرة فيكون مدة حكمه انفرادا ست سنين ثم ان كلا من فليبش والاسكندر الثانى كانت مصر فى قبضتهما بالتبع لمملكة مقدونيا كالاسكندر الاول فان لهما آثارا بمصر دالة على ذلك فقد بنى فليبش أريديس مقصورة جميلة من حجر الصوان بهيكل الكرنك وهى فى وسط مقصورة أخرى من انشاء الملك طوطوميس الثالث امام محراب هذا الهيكل وكذلك قد وجد بعض تصاوير بهيكل الكرنك ولوقصر مرسوم عليها اسم الاسكندر الثانى

فهذا كله يدل على ان فليبش والاسكندر الثانى كانت لهما اليد العليا على مصر وبموت الاسكندر الثانى انقضت الدولة الثانية والثلاثون وكانت مدتها سبعة وعشرين سنة وخلفتها الدولة الثالثة والثلاثون التى هى الدولة اليونانية الملقبة بدولة البطالسة

(الباب الثانى)

في ملوك الدولة الثالثة والثلاثين وهى الدولة اليونانية
المسماة أيضا بدولة البطالسة وفيه فصول

(الفصل الاول)

(فى تأسيس هذه الدولة ومالها من المناقب)

قد أسلفنا أن الامير كسندروبن انطباطير قتل الاسكندر الثانى ملك مقدونيا وتغلب على ممالكه وحمل الناس على المبايعة له وان ذلك كان فى سنة ٩٣٣ قبل الهجرة ثم بعد مضى نحو ست سنوات من تغلبه اقتسم ممالك مقدونيا مع بطليموس نائب مصر وكان ذلك فى سنة ٩٢٧ قبل الهجرة ومن ذلك الوقت صارت مصر فى قبضة البطالسة مملكة مستقلة لامشارك لهم فيها ولا منازع ثم انضم اليها مملكة قبرص والقيروان عقب حروب عديدة كما انفصلت عنها هذه الاقاليم واتصلت بها مرارا عديدة بالحروب المترددة وأما ملك مصر الحقيقى يعنى ملك الديار المصرية فقد بقى فى أيدى البطالسة ثلاثة قرون متوالية مع حفظ الحدود الحقيقية المصرية فكان تأسيس دولتهم سنة ٩٢٧ قبل الهجرة وكانت هذه الدولة عبارة عن بقية الدولة اليونانية وانما انفردت عنها لاستقلالية ملك البطالسة بملك مصر ومضافاتها حيث لارابطة لمصر بمملكة مقدونيا ولا غيرها من بلاد اليونان لاسيما بعد استبداد بطليموس الاول بحكومة مصر وعقب السبع عشرة سنة التى كانت عبارة عن قائمقامية وان كانت مدتها فى الحقيقة استقلالية فعلا

قد تحققت ثمرات فتوح الاسكندر وبدا اصلاحها فى مصر وظهرت فيها شوكتها وبهجتها ولكن لم تظهر نتائج عقل هذا الفاتح المقدونى وآثار فكرته الا فى

أيام البطالسة بالاصالة وبعدهم بالتبعية فان ادخال المعاملات التجارية والمعارف أوجبت اتحاد المشرق بالمغرب كما تخيلته قريحة الاسكندر وتصورته فطنته

(الفصل الثانى)

(فى الملك بطليموس الاول)

أول دولة البطالسة بطليموس الاول الملقب سوطير يعنى المخلص وقد وقعت مصر فى نصيبه حين مقاسمة ممالك الاسكندر بين ملوك الطوائف وكانت مصر أعظم ممالك الدنيا وأرجحها وأبهجها وكان لاغوس أبو بطليموس من قواد فليبش أبى الاسكندر فاشترك بطليموس من أيام شبيبته فى الحروب مع الاسكندر واقتسم معه الخطوب فرفع قدره حتى صار رئيس فرسانه وخدمه بالصداقة فى جميع غزواته حتى تولى بعد وفاته حكومة مصر فصارت مصر من ذلك الحين حكومة مؤلفة الاهالى مابين مصريين ويونانيين

قال بعض المؤرخين كان بطليموس اللاغوسى يعرف اعتبار مصر ومقامها وامتيازها بين الممالك وكان مختصا من دون ملوك الطوائف بالعدل والاستقامة منزها عن طماعية النفس لا يخطر له ببال التغلب على سلطنة فارس ولا أن يقلد الاسكندر ولا أن يخلفه على ممالكه بخلاف أقرانه وانما كان يتداخل عند الاقتضاء فى مصالح الدولة الفارسية لقمع مطامع غيره فقط فكان دائما على حذر من طمع النفس كما كان محترسا من طمع غيره فى مصر فلذلك بقيت مصر محفوظة الناموس لم يبلغ أمله أحد من ملوك الطوائف فى سلبها من بطليموس

فأول ما حكم بطليموس مصر أحسن التدبير والسياسة واستمال عقول جميع الاهالى المصرية وقد كان اذ ذاك برديقا وصيا على مملكة فارس وبيده الحل والعقد وكان بطليموس يعهد منه الطمع فى الاستيلاء على مصر فأخذ الحذر منه وجهز جندا اعظيما للحماية وعضد ملكه بمعاهدة الملوك الخارجية وتحالف أيضا مع الامير أنطيباطر والى مقدونيا وصاهره وبينما هو يدبر أمور مملكته ويقيم دعائم حكومته ويقوى روابط شوكته اذ لاحت له الفرصة فى

ادخال جمهورية القيروان بالجهات المغربية تحت حكمه لما أقامت فيها فتنة عظيمة بين الجمهورية والاهالى فغلب الجمهور والاعيان رعاياهم ونفوا أصحاب الاملاك من مدينة القيروان فنزلوا مصر واستجاروا ببطليموس فأحسن نزلهم وأجارهم حيث انطلق منهم بجنود كافية وسفن حربية وافية فهزم ذلك الجمهور واستولى عليها وأضافها الى مصر وعاد الى مقر حكومته مصحوبا بالهناء والسرور

وكذلك انتهز فرصة أخرى زاد بها رفعة وفخرا وهى ان الامراء لما صمموا على نقل جثة الاسكندر الى مقدونيا وأحس بطليموس بذلك بادر بالسير الى بلاد الشأم بجنده مظهرا تأدية آخر واجب لسيده وبمجرد وصوله وخروج الجنازة للذهاب بها الى مقدونيا استولى على تابوته ورجع به الى الاسكندرية وبنى له هيكلا عظيما وصنع لجنازته محفلا جسيما لم يسبق بمثله فبهذا أحبه جميع الاهالى ودنا منه الخاص والعام وكان دأبه تأليف القلوب فهرع الناس الى الاسكندرية وجاء اليها القاصى والدان من جميع الاقطار ورغب الجميع فى خدمة بطليموس واتظامهم فى زمرة جنوده فحسن حال السائس والمسوس وفى هذا الوقت بعينه خطر لبرديقا أن يغير على مصر فهجم عليها بخيله ورجله فانهزم عند عبوره بالنيل فقتله جنوده وأغرقوه وقد كان بطليموس قادرا على أن يأخذ مقدونيا بعد قتل برديقا لما كان له فيها من الاحزاب والاحباب ولكن آثر بها صاحبه بيطون على نفسه فأقامه وصيا على أرهيدس وبقى أرهيدس ملكا تحت كفالته

ولما كان ملوك مصر فى سائر الازمان يرغبون فى اضافة بر الشأم الى مصر جهز لذلك جيشا وبعث من قبله قائدا للتغلب عليها فاستولى قائده على أصول مدن السواحل الشامية ولكن لم تمكث تحت يد بطليموس مدة طويلة بل أخذها منه أنطيفونس أحد ملوك الطوائف بعد هزمه هزيمة متلفة ولكن انجبرت خسارته فى هذه الواقعة بما اكتسبه بالاستيلاء على جزيرة قبرص واعادتها الى حكمه بعد خروجها عليه وباستيلائه أيضا على اقليم أدنة وما جرى له ثم ان دمتريوس بن انطيفونس قصد مصر أيضا فاستشعر بذلك بطليموس فسار اليه فى جند مؤلف من ثمانية آلاف من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان فلما

وصل

وصل الى قرب غزة وتلاقى الجمعان هنالك والتحم القتال بينهما كانت الهزيمة على دمتريوس ولكن عامله بطليموس بأحسن معاملة ملوكية حيث أعاد اليه جميع الاسرى قائلا ليس قصدى بالحرب مع انطيغونس وابنه تحصيل الغنائم والسبايا وانما موجب الحرب بينى وبينهما مخالفة الشروط والعهود وسلبهما من سليقوس مملكة العراق بمحض التعدى وهتك حرمة الحقوق والمحالفات وقد اكتسب بطليموس من نصرة غزة حيازة مدينتى صيدا وصور لنفسه واعادة مملكة العراق لسليقوس الذى استظهر به فى هذه الواقعة العظيمة ومع ذلك لم تمكث مدن السواحل فى حكم بطليموس بل جرد أنطيغونس وابنه دمتريوس جندا عظيما وسلبوها من يده ولم يسلمها الا بعد أن هدم حصونها

وقد كان بطليموس فى الغالب منصورا فى المدافعة عن مصره لا يغلبه غالب فى المهاجمة عليها وأما فى حروبه الخارجية فلم يعد عليه كبير فائدة بل كان مآل نصراته الى الهزيمة وعاقبة ظفره الى الخيبة وذلك لان سبب نصرته فى مصر منعة سواحلها التى يصعب الدنو منها وميل المصريين اليه لان ميل الرعايا لملوكهم هو حرز حريز وحصن منيع وهو الحصن الحقيقى لحفظ الملك والمملكة ولذلك لما أراد أنطيغونس عقب انتصار ابنه على الجنود المصرية فى قبرص أن يتغلب على مملكة مصر تلفت أكثر سفنه وخابت آماله وولى مدبرا

ثم ان بطليموس لما علم بالتجربة الصحيحة عقم نتائج الفتوحات الخارجية اختار السلم والراحة وأحجم عن أن يدخل فى مصالح العجم أو غيرهم فتفرغ فى باقى مدته لتنظيم مملكته العظيمة وعزم على أن يصرف اليها همته وأن يبرز فى تشييدها حكمته فشرع فى تتميم الهياكل والقصور والمبانى والمصانع التى عملها فى الاسكندرية لتصير من أعظم مدائن الدنيا فمن هذه المبانى ضريح الاسكندر الاكبر الذى خفى الآن عن العيون وظنت بأنه فى محل نبى الله دانيال الظنون وكذلك منارة الاسكندرية التى أنشأها بجوار المينى البحرية لمنافع التجارات وفوائد السياحات الملاحية والمعاملات وهى أحد بنيان العالم العجيب الذى بقى على ممر الازمان من عجائب الدنيا حتى تولع به مؤرخو المتقدمين وشعراء المتأخرين فمن ذلك قول بعضهم

وسامية الارجاء تهدى أخا السرى * ضياء اذا ما حندس الليل أظلما
لبست بها بردا من الانس صافيا * فكان بتذكار الاحبة معلما
وقد ظللتنى من ذراها بقبة * ألاحظ فيها من صحابى أنجما
تخيل ان البحر تحتى غمامة * وأنى قد خيمت فى كبد السما

وقوله وقد ظللتنى من ذراها بقبة الخ يشير به الى ماذكر ومن أنه كان هنالك قبة أساطين من نحاس مذهب والقبة مذهبة وأن ارتفاع القبة نحو مائة ذراع أو اشارة اذا كان الشاعر من المتأخرين الى القبة التى بناها أحمد بن طولون من الخشب فى أعلى المنارة حين رمّ المنارة وقال بعضهم فيها أيضا

ومنزل جاوز الجوزاء مرتقيا * كأنما فيه للنسرين أوكار
راسى القرارة سامى الفرع فى يده * للنوء والنور أخباء واخبار
أطلقت فيه عنان النظم فاضطردت * خيل لها فى بديع الشعر مضمار

وبالجملة فقد كان موضوع بناء هذا المنار بهذا الموقع ليكون علما بالليل ومرقبا بالنهار وأن بانيه انما هو بطليموس الاول فى أصح الاقوال

ومن أنفع مبانى بطليموس المذكور مدرسة الاسكندرية المسماة بالرواق حيث جمع فيها جميع علوم ذلك الوقت ومعقولاتها من فلسفة ورياضيات وطبيعيات وحكمة وآداب والهيات وكانت هذه المدرسة موصلة لقصره بقرب عمود السوارى وقد جلب اليها علماء اليونان وغيرهم من سائر البلدان فلم يمض على الاسكندرية يسير من الزمن الا وقد استحالت مركزا لسائر العلوم والفنون وكانت هذه المدرسة ذات ايوانات عظيمة ورواقات حسنة فخيمة وأنشأ فيها خزائن كتب ملوكية جمع فيها الكتب القديمة المعتنى بها وجلب اليها النساخين والمصححين والمجلدين والمذهبين وكان بطليموس المذكور يستعير الكتب الجليلة من محالها فينسخ منها النسخ الجيلة ثم يرسلها لاربابها بدلا عن النسخ الاصلية المستعارة ليحفظها فى خزائنه فكثرت الكتب النافعة المتنوعة بتنوع الفنون والعلوم وبلغت فى الكثرة مبلغا جسيما

وكان له مزيد عناية بالفنون البحرية وعمارات السفن حتى كان عنوانه فى ديوان مقدونيا قبطان الاسطول وكل هذا كان سببا لثروة مدينة الاسكندرية حيث عادت عليها الملاحة بتوارد المعاملات فكثرت فى أيامه التجارات

والمخالطات مع البلاد الدانية والقاصية والامم الاجنبية مثل بلخ وهمدان وبلاد الهند والسودان والحبشة وغيرها وكما كثرت الثروة والغنى وازدحم الناس على مصر وازداد أهلها وسكانها زيادة بليغة كثر ايراد الحكومة وقويت شوكتها وعظم سلطانها وارتفع شأنها ومكانها فكانت قوتها العسكرية برية أو بحرية جسيمة وكانت سفنة بطليموس محامية للتجارات الواسعة وأعلامه الملوكية منشورة على هذه السفن بجهات البحر الشاسعة محترمة الناموس عند جميع الملل والدول

وقد ذكر بعض المؤرخين ان مصر فى أيامه كان فى وسعها الاستحضار على مائتى ألف من العساكر المشاة وأربعين ألفا من الفرسان وثلثمائة من الافيال الحربية وعلى ألفى عربة مسلحة بالمناشير والمناجل وكان فى مخازن المملكة ثلثمائة ألف طقم مجهزة من الزرد وكان بالترساخانات نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة كبيرة أو صغيرة وكان ما يبقى فى الخزينة فى كل سنة من الايراد السنوى بعد المصرف نحو مائة ألف كيس وقد كانت مدينة الاسكندرية غاصة بالاهالى وجميعهم على غاية من المحبة والمودة لهذا الملك العادل لاعتدال حكومته وتشويق السكان برخصة التجارة والارباح بحسن معاملاتهم مع المدن الكبيرة فكانت أسواق التجارات فيها نافقة برواج الاخذ والعطاء وكانت هذه الحالة تكتسب كل يوم النمو والزيادة حتى ان بطليموس كان دائما يجلب الاهالى من مواطنهم لاستيطانهم فى الاسكندرية وقد رغب طوائف اليهود بالنزول بها حتى تكاثروا فيها بالتناسل وعمروا فيها خطة عظيمة أضيفت اليهم

ومما حبب فى هذا الملك رعاياه أنه دون ملوك الطوائف أبقى لرعيته حين استولى عليها أحكامها وسياساتها وعوائدها وصورة تقسيم أقاليمها وأباح لها التمسك لاصولها الدينية وأبقى بها طوائف الكهان والاحبار على حالهم وبهذا تمكنت دولته وامتدت صولته ومع أنه سكن الاسكندرية وجعلها مقر حكومته ودار مملكته فقد أبقى مدينة منف على حالها من كونها دارا لمملكته رسما ومقر سرير الاحتفالات الملوكية والشعائر المصرية ذات الابتهاج لا يلبس الملك التاج الملوكى الافيها فكانت بمنزلة مصر القاهرة

الآن بالنسبة للاسكندرية وكان فيها الهيكل الاكبر المشتمل على الشعائر الدينية

وفي أثناء تنظيم بطليموس لهذه المملكة المصرية كانت الدولة قد طرأ عليها ما صيرها مشرفة على فتنة عظيمة وذلك أن دمتريوس لم يقنع بمملكة مقدونيا بل هجم على آسيا وأراد أن يعيد جميع البلاد المشرقية التي كان يحكمها أبوه أنطيغونس فتحزب عليه بطليموس وأخذ سفنه الحربية ودخل في بحر الروم فوجد أن معاهديه من ملوك الطوائف كفوه مؤنة الحرب اذ قد غلبوا دمتريوس وسلبوا منه مقدونيا وأخذوه أسيرا ثم مات في أسره ومن ذلك الوقت عاش بطليموس في ممالكه متمتعا بالسلم والراحة بدون منغص

ثم لما رأى أنه قد عمر وناهز الثمانين سنة شرع في ترتيب ولاية عهده من بعده حتى لا يبقى ملك مصر بعد وفاته مترددا عرضة للشقاق وكان له زوجتان وله من كل منهما أولاد فكان أكبر أولاده من احداهما يسمى بطليموس ويلقب قرونوس يعني الصاعقة لحدته وجسارته وكان أكبر أولاده من الزوجة الاخرى يسمى أيضا بطليموس الملقب بمحب أخيه من باب أسماء الاضداد فاختار الثاني ونصبه ولي عهده فاستشاط أخوه من ذلك غيظا وخرج من مصر وذهب الى بلاد مقدونيا والتجأ الى ملكها سيليقوس فأكرم نزله ومع ذلك قتله بطليموس الصاعقة غدرا ودعا أهل مقدونيا وترحاله لمبايعته وصار ملكا على تلك الجهة ثم قتل الامراء المتطلبين للمملكة وكانت أخته أرسنويه قد فقدت زوجها لوسيماقوس وتأيمت وكان لها ولدان منه فتزوجها وقتل ولديها ففرت الى مصر فتزوجها أخوه بطليموس الثاني الملقب فيلودلفيس فلم يقتصر بطليموس على تقليد ابنه الثاني ولاية العهد من بعده بل لاظهار حبه فيه آثره على نفسه وقلده الملك في حياته وكان بطليموس المذكور قد حكم في مصر ثمانية وثلاثين سنة منها سبع عشرة بمنصب نائب ايالة مصر ومنها احدى وعشرون بمنصب ملك مصر وسلطانها ولما اراد خلع المنصب الملوكي على ابنه عقد له موكبا عظيما وقلده ملك مصر وكان ذلك في سنة ٣٠٧ قبل الهجرة ثم مات بطليموس بعد تولية ابنه بسنتين وهو في سن الثمانين وقد تقدم أنه كان يلقب سوطير يعني المخلص أو المنجي

(الفصل الثالث)

(فى الملك بطليموس الثانى الملقب فيلودلفيس)

تولى المملكة سنة ٢٠٧ قبل الهجرة ولقب فيلودلفيس أى محب أخيه من باب التهكم والسخرية بقصد الضدية لانه كان يبغض اخوته وقد تقصدهم بالقتل وكان سنه وقت تقليده ملك مصر أربعا وعشرين سنة وقد سار على سير أبيه وتحقق فيه ما كان يرجوه منه من الاستقامة حيث آثره على أخيه فى ولاية العهد عنه وكانت مدة ملكه التى هى عبارة عن ثمان وثلاثين سنة مصروفة غالبا فى السلم والصلح بل كانت خيرا من مدة أبيه وقد تفرغ هذا الملك الى تقديم العلوم والمعارف فهو الذى أمر القسيس مانطون المصرى بتأليف تاريخ مصر باللغة اليونانية فجمع هذا المؤلف تاريخه من الدفاتر الرسمية والتذاكر القديمة المحفوظة بالهياكل والمعابد المصرية ولم يبق من هذا التاريخ المانطونى الابعض جزئيات وصلت الى الافرنج فى ضمن كتب المؤرخين من اليونان والروم برسم عبارات منقولة عنهم وجدول مبين فيه ملوك مصر كان قد وضعه المؤرخ المذكور فى ذيل تاريخه وأثبته فى تاريخه بعض المتأخرين من المؤرخين السابقين على زمن الهجرة بسنين قلائل ثم ان ذلك الملك قوى أيضا فى مصر التجارات فكانت مصر فى عهده أعظم البلاد تجارة وملاحة وأسفارا بحرية وعمرانا فقد حكى سيوقريطس أن مدن مصر بلغ عددها فى أيام هذا الملك ثلاثة وثلاثين ألف مدينة فاذا صح قول هذا المؤرخ أنتج أن مصر اذذاك كانت أعمر بلاد الدنيا والافان قلنا ان هذا النقل من مبالغة المؤرخين واطرائهم كما هو دأبهم فلا أقل من كونه يفيد أن مصر فى هذا العهد كانت عامرة جدا وقد كان ورث هذا الملك من أبيه ممالك كثيرة لان أباه كان تملك غير ديار مصر مملكة القيروان وسواحل الشأم وبلاد العرب المجاورة لمصر وجزيرة قبرص وجزائر بحر الروم وأغلب سواحل أناطولى الجنوبية وبعض سواحل روم ايلى فاقتنع الابن بهذه الموروثات العظيمة ولم يطمع كما هو الظاهر فى الفتوحات التى تقتضى توسيع سلطنته زيادة عن ذلك بل اقتصر على محافظة ممالكه وادارة انظاره الى عمليات جسيمة تعود منها على

بلاده بل وعلى سائر بلاد الدنيا المنافع الجمة وهى أنفع من الفتوحات الجديدة والتوسعات التى بدون فائدة فاعتنى بمعرفة حقائق البلاد واستكشافات طرق البحار بالاسفار ليقف على معرفة المسالك والممالك فاستكشف داخل بلاد افريقية والبلاد التى على سواحل بحر فارس وأرسل القبطان طيموسطينس الى بلاد النوبة من طريق مصعد النيل ليعرف حقيقة مجراه ومنبعه وليسخر بلاد السودان الى طاعته فوصل ذلك القبطان الى جزيرة مروة بقرب شندى وهى جزيرة أتبرة فى مسافة ستين يوما وأرسل أيضا القائد أرسطقريون الى هذه الجهات فجال فى هذا الاقليم أبعد من هذه المسافة وانعطف من هنالك الى جهة المغرب فبهاتين السياحتين اتسعت دائرة المعاملات التجارية وانتظمت بين مصر والنوبة كما اتسعت دائرة المعارف الجغرافية وأمكن الوقوف بذلك على أحوال البلاد والعباد قال ديودورس الصقلى انه لم يكن قد توغل أحد فى بلاد النوبة بهذه المثابة من الدهور الخالية الى عهد بطليموس وانما نهاية ما وصلت اليه المعرفة هو حدود حكومة مصر جهة الجنوب لان وسط بلاد النوبة لم يكن أهله يألفون الاجانب فكان فى دخول الاجانب اليهم خطر عظيم فلم تعلم حقائقها الا من أسفار هذا الملك ودخول الجنود اليونانية بها تحت قيادته انتهى

وقد اجتهد بطليموس فى ترتيب المعاملات التجارية بين ممالكه والممالك الهندية والمشرقية وقد جدد عملية فتح ترعة السويس التى كان شرع فيها من الفراعنة الملك نيخاوس ومن الفرس الملك دارا فافتتح بطليموس محب أخيه هذا الخليج من فرع طينة القريب من تل بسطة عند الزقازيق وأوصله الى البحر الاحمر بقرب السويس فى الجهة الشمالية وقد أرسل طيمسطينس الذى كان استكشف مجرى النيل فى النوبة الى أن يستكشف طريق البحر الاحمر وسواحله وأرسل كثيرا من الكشافين لكشف جهات عديدة كسواحل جزيرة العرب الى بحر الهند وأخذ مساحتها ورسمها وأرسل سفنا أيضا لاستكشاف سواحل الحبشة والبلاد السودانية الداخلة وأمرها أن تجعل فيما تستكشفه محطات عسكرية أو تجارية وكان سير هذه السفن الى تلك الجهات من مينى القصير فكانت موردا للتجارات ومصدرا للاخذ والعطاء

سواء

سواء لبلاد النوبة أو لبلاد العرب أو لبلاد العجم والهند وكان مركز التجارات العمومى مدينة الاسكندرية فكانت محط الرحال التجار لم تنتقل عنها فضيلة الاولية الى غيرها مادامت دولة البطالسة باقية فكانت الاسكندرية قطب دائرة تجارة الدنيا

ومع أن تواريخ الازمان القديمة أوضحت عن مشروعات بطليموس محب أخيه وعن مآثره الجة على وجه التفصيل فلم تفدنا تفاصيل وقائعه الحربية وسياسته الخارجية وماجرى بينه وبين المقدونيين من الحروب

وغاية مايستفاد من التاريخ فى مدة هذا البطليموس أن مصر فى أيامه حفظت علو شأنها وبقاء ناموسها كما فى أيام أبيه ولا يعلم كيف كان نفوذه عند ملوك الطوائف ولا درجة توسطه فيما شجر بينهم حيث كانت مصر فى الدعة والراحة وكانوا هم فى الحروب والمنازعات والفتن والاختلالات وانما وقع بين بطليموس واخوته وأصهاره حرب فى الشأم والقيروان أوقعه فيها اخوته بالاستظهار عليه وكان فيها مؤيدا منصورا وقد زوج ابنته برنيقة لانطيوكوس ملك الشأم وشرط عليه أن يكون لاولادها الذكور منه وراثة ملك الشأم بعد أبيهم وهذا يدل على أنه كان منصورا على أنطيوكوس ثم جهز بنته جهازا عظيما ملوكيا وأوصلها بنفسه الى زوجها من طريق البحر حتى دخلت الى مدينة انطياكية على نهر العاصى وعمل لها الافراح العظيمة والاحتفالات الجليلة اللائقة بمقامه ومقام صهره ومات بعد عوده من هذا السفر وقد كان شرع فى بناء هيكل عظيم لزوجته أرسنوية التى هى أخته وكانت قد فرت من مقدونيا بعد قتل بطليموس الصاعقة لولديها ثم تزوجت به وذلك لان بطالسة مصر وسلوقية بلاد الروم كانوا يعتقدون أنهم ورثاء ملوك الفرس فتمجسوا بزواج الاخوات والبنات واختصوا بتجويزه دون الملوك المقدوانية وغيرهم من الامراء اليونانية فهذا تسبب عنه فساد أخلاقهم وقبح سيرهم واتصافهم بالمساوى والمثالب الفاضحة وقد تقدم أن بطليموس محب أخيه كان دائما ملتفتا لتوسيع دائرة العلوم والفنون والصنائع والتجارات وقد سبق القول على توسعه للتجارات باستكشاف الطرقات البرية والبحرية وأما التفاته للعلوم فقد أكثر من تحصيل الكتب وتجسيم الخزانة التى أسسها

أبوه وكانت عظيمة فزادها من الكتب الجليلة ففى السنة العاشرة من توليته أمر بترجمة التوراة من لسان العبرانيين الى اللسان اليونانى لان كثرة الاسرائيليين وكثرة اختلاطهم مع اليونان أوجب اطلاع اليونان على كتبهم ومعرفة عقائدهم وأحكامهم وهذه الترجمة هى المسماة بالسبعينية وسيأتى أن المأمون صنع فى ترجمة الكتب اليونانية الى العربية مثل ذلك ولما كان هذا الملك يرغب فى الوقوف على سائر الكتب المترجمة من اللغات الاجنبية الى اللسان اليونانى لم يهمل كتب اليهود الذين وطنهم فى بلاده وكان ديوان هذا الملك دائما مشحونا بالشعراء والادباء وأرباب الانشاء والمحاضرات وكان قد شرع فى عقد المخالطة والمعاملة بينه وبين مدينة رومة وعقد معها معاهدة فبهذا أوجبت هذه المعاهدة تأسيس مداخلة رومة فيما بعد فى المصالح المصرية وقد مات بطليموس الثانى فى سنة ٢٦٩ قبل الهجرة بعد أن حكم ثمانيا وثلاثين سنة

(الفصل الرابع)

(فى الملك بطليموس الثالث الرحوم)

هذا الملك يلقب ويرجيطه ومعناه الرحوم لقب به من باب التهكم والسخرية وهذا اللقب هو الذى اشتهر به وقد لقبه رعاع الناس بلقب آخر وهو أطريفون ومعناه المهزول تولى على مصر سنة ٨٦٩ وقد ذكره بعض المؤرخين بهذا اللقب أيضا ولما خلف أباه على سرير المملكة لم يمكث زمنا طويلا الا وقد اضطر الى الحرب والقتال مع ملك الشأم واستمرت المشاجرة بينهما أزمانا طويلة وذلك لان أنطيوكوس ملك الشأم كان قد تزوج برنيقة أخت بطليموس المذكور عقب طلاقها وهربت مع ابنها فى قرية دفنة من بلاد انطاكية فقبض عليها سيلوقوس الثانى ملك الشأم وقتلها وقتل ابنها بعد أن تغلب على ملك زوجها فهذا أوجب حرب أخيها بطليموس ويرجيطه مع ملك الشأم ليأخذ ثارها وينتقم لها ولولدها منه فسار الى الشأم بجند عظيم من المشاة والفرسان والفيلة وجهز سفنا حربية لتساعد الجنود البرية فأغار على البلاد التى قبل نهر الفرات فاستولى على مملكة أذنة وما جاورها وعلى

سواحل سيواس وعلى ايالة عكا وعلى سواحل اناطولى وجال فى ممالك أعدائه وظفر بهم فى أسرع وقت ثم اجتاز نهر الفرات واستولى أيضا على الجزيرة والعراق وعلى اقليمى خوزستان واذربيجان وكان مستعدا للتغلب على فارستان وجميع بلادها الى بلخ وهمذان ولولا ما بلغه من قيام فتنة عظيمة فى الديار المصرية صدته عن الاستمرار على الحروب لتملك جميع سلطنة أخصامه السيلوقية وملوك الطوائف بل عاد الى مصر وابقى من فتوحاته مملكة الشام وسلم مملكة أذنة وما جاورها لانطيوكوس أخى سيلوقوس وكان قد تحزب مع بطليموس وأعانه على ملك الشام فكافأه بطليموس بمملكة أذنة

وقد أبقى بطليموس جنودا مصرية فى المدن تحت قائد المسمى زنطيبس ودخل هو مصر مثقلا بالغنائم ومن جملتها تماثيل الاصنام المصرية النفيسة التى كان استلبها قنبيشاش ملك العجم من مصر ونقلها الى بلاد فارس كما سيأتى ذلك فى الفصل الثانى عشر من هذا الباب ثم بعد مضى زمن يسير ظن سيلوقوس انه تقوى على حرب مصر فغزاها فانهزم وخاب أمله فاقتفى أثره بطليموس ودخل الشام وأخذ دمشق وميافارقين وجبر رؤساء السيلوقية ان فروا الى انطاكية وانزووا فيها

ثم اصطلح انطيوكوس مع أخيه سيلوقوس وتعصبا معا على ملك مصر فالتزم أن يعقد مع ملك الشام هدنة يترك فيها الحرب بينهما عشر سنين ثم وقع الشقاق والاختلاف بين الاخوين المذكورين فاغتنم بطليموس فرصة العداوة بينهما فى فسخ الهدنة وأغار على الشام ودخل الى بلاد الجزيرة وقد كان انطيوكوس فاقدا المملكة أذنة مطرودا منها فذهب الى مصر ظنا انه يجد فيها ملجأ وحمى عند بطليموس فلم يصفح عنه بطليموس ولا سامحه من غدره وخيانته بل سجنه فدبر الهروب ورجع الى أناطولى ومكث فيها مدة طويلة يحارب أمراء الشام

وأما بطليموس فكان آمنا مطمئنا على سريره مشغولا بتنظيم ملكه وتدبيره بل كان يصرف جل زمنه فى الولائم واللذات والحظوظ والشهوات مما أفضى الى تلقيبه بالمهزول صاحب الكسل والخمول ومع ذلك فلم يهمل فى حفظ ناموس مصر الملوكى بل بقى ناموسها فى أيام حكمه كما ورثه عن أسلافه فكان له النفوذ فى مصالح اليونان محاميا عن حقوق معاهديه

الموزلية معينالهم على مقاومة المقدونية مساعـدا لمحالفيه بالعساكر البرية والبحرية واذا اقتضى الحال ساعدهـم بالمال فبينماهو كذلك اذا اختلبته أظفار المنيـة وحالت بينه وبين الامنية فى سنة ٢٤٤ قبـل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وكانت مدة حكمه خمسا وعشرين سنة وخلفه بطليموس الرابع محب أبيه

(الفصل الخامس)

(فى الملك بطليموس الرابع)

تولى هـذا الملك مملكة مصر فى سنة ٢٤٤ قبل الهجرة ويلقب فيلابوطور أى محب أبيه على سبيل التهكم لانه اتهـم بقتل أبيه بالسم وهو رابع ملوك البطالسة اللاغوسـية جلس على سرير مصر فى أيام صباه فكان نفوذ الحكم لوزيره سوسيبوس كما كان له النفوذ سابقا على المملكة فى أواخر مدة بطليموس الثالث ولاجل أن يتمكن هـذا الوزير من النفوذ والانفراد بمصالح المملكة والاستبداد بالرأى والحـل والعقد ترك الملك ينهمك فى اللذات والشهوات وأرخى له العنان فى ذلك حتى لا يكون للملك وقت لرعاية الرعية وليتباعد عن المصالح العـمومية لالتفاته لحظوظ نفسه وملاذه الخصوصـية وبهذا احتجب بطليموس عن أرباب الديوان وعن أرباب الوظائف والعـمل فكان لايرى ماموري المصالح الافى النادر وكان لا يلتفت الى حكومة الاقاليم والممالك البعيدة المضافـة الى مصر ولا يسأل عن أحكامها وولاتها وجنودها مع أنها كانت مطمح نظر أسلافه فكانوا يلتفتون اليها أكثر من مصر فكان سلفه يبذلون الهـمة فى حفظ وادى الشأم الذى بين طرابلس ودمشق وكانوا يحفظون جزيرة قبرص المحروسة بعساكرهم حتى كان يهابهم ملوك الشأم ويخشون من ملوك مصر ومن هجومهم على بقية البلاد الشامية وكان البطالسة لهـم مـدن على سواحل بلاد آسيا وعلى الجزائر وكانت الثغور والرباطات الساحلية فى قبضتهـم من عكا الى جناق قلعة وبوغاز كليبولى وكلها محروسـة بجنود تابعة لمصر وكان لهم مدن بقيت فى أيديهم من تغلبهم على اقليم روم ايلى فكانوا يلاحظون بذلك اقليمى روم ايلى ومقدونية وعنـد الاقتضاء يبعثون

عساكرهم

عساكرهم لهذه الجهات القاصية ولا يخشون شيأ أمامهم من هذه الممالك وبهذه الوسائل يحكمون مصر مع غاية الامن والاطمئنان فهكذا كانت حالة ممالك أسلاف بطليموس الرابع ولهم حق فى رسوخ تملكهم على البلاد الخارجية لكمال الامن على خصوص مملكة مصر وتمكنهم فيها ولكن أهمل بطليموس الرابع حفظ البلاد الخارجية لتفرغه لحظوظ نفسه وانهماكه على اللذات والشهوات الملومة وقد عمى عن التبصر فى تدبير ملكه ولم يكترث بحفظ ناموس سلطانه فعما قريب قام عليه أعداؤه وصمموا على قتله والاستيلاء على سلطنته

وقد جرت العادة أن الملك الموصوف بهذه الصفات يكون سخيف العقل ضعيف الرأى أذنا يصغى الى الاغراء والتحذير ويسمع ما يلقى اليه من التهم ولا ينقدها نقد بصير ويعامل بالقسوة والجبروت من يتوسوس منه بسعى السعاة ووشى الوشاة فأدخل عليه وزيره سوسيبوس الاراجيف والتخويفات التى لا أصل لها حتى صار يأخذ حذره خوفا على نفسه وعلى مملكته وقصد الوزير بذلك أن يبعد عنه أرباب النفوذ لئلا يقف منهم على حقيقة حاله وخيانته فنفر نفس الملك من النصحاء وأغراه على ايذائهم حتى أمر الملك أولا بقتل أخيه مغاس لئلا يتحد مع العساكر المحكمة ويتحزب معهم عليه وأمر أيضا بقتل أمه برنيقة لمثل هذه الاسباب وسيأتى قتله لاخته وزوجته ثم قصد أن يقتل اقليومونس ملك أسبارطة الذى استضافه وذلك أن ملك أسبارطة كان موعودا مدة بطليموس الملقب ويرجيطه أن يرجع اليه ميراث أبيه بمساعدة المملكة المصرية وكان متعاهدا معه على ذلك ففى زمن بطليموس الرابع التمس تنجيز الوعد فلم يجب الى ذلك لاسيما وكانت فرصة تنجيز هذا الوعد أسهل شئ عليه لان انطيغونس ملك مقدونيا كان قدمات وبقيت مقدونيا تحت حكومة ابنه الذى كان سنه خمس عشرة سنة فتضرع اقليومونس الى ملك مصر أن يمكنه من مقدونيا فخشى بطليموس عاقبة ذلك وأبى أن يعينه مخافة أن يستولى فيما بعد على عموم اليونان ويوسع سلطنته فى أوربا فيعود منها الضرر على مصر فغضب اقليومونس من امتناعه وتكلم وهو فى مصر فى حقه بما لا يليق وقال انه ليس أهلا الا للاتحاد بالشبان الذين يلعبون بالمزامير فوصل ذلك الى

مسامع سوسيبوس وزير الملك بطليموس فزعم ان ملك اسبارطة اقليومونس انما أراد بقوله ذلك اثارة الفتنة فى مصر فبهذا السبب وضع عليه السجن وجعله تحت الحرس فغضب اقليومونس من هذا الصنيع وقال لا أموت أبدا فى الحبس المظلم موت الجبان وانتهز فرصة غيبة بطليموس فى أبوقير فجمع خدمه وأحبابه على وليمة وخرج فى النهار معهم من سجنه مشهرا سيفه من غمده بدون أن يترقب أحدا فى وقوع ذلك منه فاستدعى من الاهالى ان تقوم معه وان تطلب الحرية فلم يوافقه أحد على ذلك فصعد الى قلعة الاسكندرية وكسر أبوابها وأخرج المسجونين وسلحهم ليستعين بهم فلم ينجح تدبيره حيث قهره ضباط القلعة وهزموه فخشى هو ومن معه الوقوع فى يد خصمهم فقتل بعضهم بعضا فلم يمكنوا أخصامهم من شفاء غليلهم منهم

فلما قدم بطليموس الى الاسكندرية مثل بجثة اقليومونس بصلبها وذبح تحتها زوجته وأمه وأولاده وكان ذلك فى سنة ٢٤٢ قبل الهجرة وكان أنطيوكوس الاكبر ابن سيلوقوس قلينوكوس خلف من مذ سنوات على مملكة الشام أخاه سيلوقوس قلينوكوس المذكور وكان أنطيوكوس شابا ولكن متصفا بصفات عظماء الملوك فراودته نفسه أن ينتهز فرصة جبن بطليموس الرابع وفتور همته لينتقم منه عما فعله أبوه فى الشام وأن يستلب منه الاقاليم التى تملكتها مصر فى آسيا والبلاد المشرقية فشرع فى ذلك فخاب أمله وضاع فى هذه المرة عمله ونهى عما صمم عليه وذهب لتسكين ما قام فى بلاده من الفتن والشرور فبينما كان أنطيوكوس بعيدا عن حدود مصر واذا ببطليموس قد وجد طريقة فى تقوية نفوذ مملكته وزيادة بطشها فعقد معاهدة مع اخيوس ملك أناطولى المتغلب عليها بنفسه فبعد أن سكن انطيوكوس فتنة بلاده المشرقية جاء الى انطاكيا مدينة السيلوقية الواقعة على نهر العاصى وكان بها العساكر المصرية من وقت نصرة بطليموس الثالث فأخذها وكان سيودوطوس اليونانى حكمدارا على العساكر المصرية التى بالشأم من طرف بطليموس فكان غير شاكر لسيده حيث كان سيده غير شاكر أيضا لصنيعه فسلم لانطيوكوس جميع ما تحت يده من الولايات والمدن الاخرى كصور وعكا فلما سمع بطليموس بتلك الخيانة أرسل بدله حكمدارا آخر الى سواحل الشأم وأصحبه بجند جديد

فهجم

فهجم هذا الحكمدار على انطيوكوس فى جبال بيروت فهزمه انطيوكوس هزيمة عظيمة فوقعت البلاد فى يد انطيوكوس الى حدود مصر

ولما كانت قوة بطليموس متجمعة جهة الفرما وكانت لم تزل عظيمة القوة شديدة البأس جدا دبر أباطوكليس وسوسيبوس حيلة على انطيوكوس بأن أرسلوا السفراء اليه لطلب الصلح وقصدوا بذلك تطويل الوقت وأظهروا انهم يريدون عقد هدنة بمهلة أربعة أشهر فمضى فصل الشتاء فى المخاطبات التى لا طائل تحتها فلما دخل فصل الربيع شرع فى الحرب

وكان كل من ملك مصر وملك الشأم له سفن بحرية تساعد الجنود البرية فتلاقيا فى جهة صيدا وكانت القوة البحرية من الطرفين متكافئة لا ظهور لسفن أحدهما على الآخر ولكن كانت جنود انطيوكوس البرية منصورة على نظيرتها من جنود مصر فاستولت على ايالة بيسان ومملكة يهوذا وجزء من بلاد العرب وكان ذلك فى سنة ٢١٨ قبل الهجرة وبعد ذلك بسنة أغرى وزراء مصر بطليموس على ان يقود الى الشأم جنده بنفسه فسار من الفرما أميرا على جيش مؤلف من سبعين ألفا من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان وثلاثة وسبعين فيلا وقصد أن يهجم بذلك على انطيوكوس وكانت عساكر انطيوكوس اثنين وسبعين ألفا من المشاة وستة آلاف من الفرسان ومائة واثنين من الفيلة ثم تقابل ملك الشام وملك مصر تحت أسوار مدينة رافيا بين العريش وغزة فظهر انطيوكوس على عدوه من الجهة التى كان فيها انطيوكوس المذكور ولم يلتفت الى الجهة الاخرى من جيشه وقد كانت انهزمت عساكر تلك الجهة وأخذت فى الفرار ولم يشعر بهزيمتها فلما التفت اليها علم هزيمة ميسرة جنده وانكسار قلب صفه وأنهم ولوا مدبرين فاقتضى الحال أن يقف ويجمع ما تشتت من جنوده المنهزمة فوجد أن معسكره قد خسر خسارة بليغة فولى مدبرا بالبقية وكان جند مصر منصورا يستولى على مدينة رافيا ومدن سواحل الشأم وفلسطين وطرابلس ودمشق وكان أنطيوكوس قد تغلب على هذه المدن قريبا فانتزعت من يده فعقد متاركة وهدنة مع المصريين بمهلة سنة واحدة

وهذه الواقعة سميت واقعة رافيا وقد نتج منها تعذيب اليهود وقتلهم وسبب

ذلك أن بطليموس الرابع كان التمس من حاخام القدس أن يدخل بيت المقدس فمنعه الحاخام من ذلك فحقد على جميع اليهود وأمر باستئصال يهود الاسكندرية وكتب لجميع عماله أن يقتدوا به فى قتل اليهود واهلاكهم ولما رجع هذا الملك من الغزو الى الاسكندرية عاد لما كان عليه من اللذات والشهوات وكان بالاسكندرية مرأة تسمى اغاسقلة كانت أخت اغاسقليس أحد وزراء المملكة وكانت مشتركة مع الوزير سوسيبوس فى السياسة والتدبير فأخذت بمجامع قلب الملك لفرط حبه لها وحرضته على قتل زوجته الملكة ارسنويه وسبب ذلك ان زوجة بطليموس المذكورة كانت أيضا أخته ومكثت مدة طويلة معه بدون تناسل منه فكان الملك محروما من خليفة منها بعده ثم رزقت منه بولد فى سنة ٨٣١ قبل الهجرة فوقعت الغيرة منها فى قلب اغاسقلة وحقدت عليها لما وجدت أن جميع الاهالى فرحوا بوضعها غلاما فنقمت عليها وقصدت اعدامها بتوسط سوسيبوس فأغرى الملك على قتل أمها بريبقة فسعى فى قتل البنت أيضا فلم يعش الملك بعد قتل زوجته التى هى أخته لان جسمه كان قد انتهك بالشهوات واللذات وقد ضعفت قواه فمات فى بحبوحة شبابه وكان انطيوكوس اذذاك مشغولا بحرب فارس وبلخ وهمذان ومصمما أن يهجم على مصر بجنوده المتكاثرة وكان موته فى سنة ٨٢٧ قبل الهجرة فكانت مدة حكمه سبع عشرة سنة وتولى بعده ابنه بطليموس الخامس

(الفصل السادس)

(فى الملك بطليموس الخامس الملقب بالماجد)

تولى مملكة مصر سنة ٨٢٧ وهو ابن بطليموس الرابع و يلقب ابيفانوس ومعناه الماجد فأعلن له بالملك بعد أبيه فى سنة ٨٢٧ وأقاموا عليه وكيلا أغاسقليس أحد وزراء أبيه حيث كان عمر بطليموس المذكور خمس سنوات وكان سوسيبوس وزير المملكة كما كان فى السابق وله اليد العليا فى ادارة المصالح الملوكية وبوصايه أغاسقليس على هذا الملك القاصر صفا الوقت له ولاخته الدنيئة النفس وتمكنا من مرامهما بدون منكد ولا منغص فلا زال هذا

الكافل يزداد فى ارتكاب الجرائم مجاوزة الحدود حتى نفرت منه ومن عائلته نفوس الاهالى والجنود نفورا شديدا وحقدوا عليه وقد أوجس فى نفسه خيفة الفتنة منهم والقيام وأنه عرضة للانتقام حيث هو مبغوض الخاص والعام وقد خشى عاقبة ذلك على نفسه وكان يأنف أن يقلع عن ذنوبه وأن يعتذر عما جناه وكان لا خلاق له فأراد أن يعقد مع المقدونيين معاهدة ليكونوا من حزبه على أهل مصر فاجتهد فى ذلك ولم يثمر اجتهاده شيأ بل انتصر المقدونيون لخصمه المسمى طلابوليميس رئيس الجنود اذ كانوا يعتقدون شجاعته واستقامته وخذلوا كافل المملكة فلما قامت الفتنة وخرجت الاهالى والعساكر عن طاعة وصى المملكة لم يجد نصيرا ولا مجيرا قال بولبس فى حكاية هذه الفتنة ما نصه

انقسم أرباب الفتنة الى فرق متعددة فاجتمع البعض فى ميدان السباق وأخذوا فى الصياح والهياج والغوغاء وشرع البعض الآخر فى التشجيع وتقوية الحماس والوعظ وبعض ثالث تجنب الخطر وانزوى فى بيته أو فى الاماكن الحصينة وفى أثناء هذه الثورة وظهور الفتنة وتجمع الجموع كان أغاسقليس نائما فى قصره فأيقظوه فأحس بالخطر الابعد أن امتلأ ما حول القصر الملوكى وميدان التعليم والرحبات والملاعب من الناس المجتمعين وبالجملة فقد كانت غصت الميادين السلطانية بالاحزاب على اختلاف مراتبهم وصنائعهم فسار وصى المملكة وخلفه أتباعه وحزبه الى محل الملك فأخذ بطليموس من يده وصعد به الى الرواق الموصل للملعب بالقصر وكان للقصر ثلاثة أبواب فسد البابين الكبيرين بالاحجار والمتاريس وتحصن وراء الباب الثالث واحتمى فيه مع عائلته وحراسه والملك بطليموس وسائر الاتباع

فازداد اجتماع الاهالى ونسائهم من كل حدب الى المحال العمومية واستفاضتهم من جميع أخطاط المدينة حتى سدوا الطرق والمشارع والحارات وملؤا البيوت والسطوح والطاقات وضجوا وعجوا وصاحوا وهاجوا وماجوا كانما اعتراهم الجنون فبقى هذا الحال الى ضحوة النهار وازدادوا فى الحدة والشجون ولهجت الالسنة بالانتقام وأخذ الثار وازالة الذل والعار واستدعوا جميعا خروج الامير اليهم من قصره وانفصاله من كافله وولى أمره

فتحركت عساكر اليونان المقدونية وحاصروا دهليز السراية السلطانية محل انعقاد المجالس العمومية وبحثوا عن المحل الذى احتمى فيه بطليموس والتجأ فعرفوه وخلعوا أبواب الرواق الاولية ليفتحوا لهم مدخلا ومخرجا فلما وصلوا الى ثانى الابواب دعوا بطلب تسليم الملك اليهم بدون حجاب فلما رأى أغاسقليس أن نفسه قد صارت عرضة للبلايا لما جلبه لها من الرزايا ترجى بعض من معه من الحراس أن يستميلوا اليه نفوس الناس وأن يعطفوا قلوب الجنود المقدونية عليه عسى أن ينظروا بعين الرأفة اليه وأن يعلموهم بأنه مستعد للتنازل عن الكفالة الملوكية وللاستعفاء من مسك زمام المملكة المصرية وأنه راض باسقاط حقوقه ومزاياه وترك أمواله وما ملكت يداه ليفدى بذلك نفسه من الهلاك ولا يخرج من المملكة بشئ من الاموال والاملاك وانما يكتفى بالكفاف ويتجرد عن صفات الاماجد والاشراف حتى لا يكون له أدنى شوكة وبأس بحيث لا يتوهم نفوذه أحد من الناس فلم يرض أحد من الحراس أن يدخل فى ورطة التوسط فى هذه القضية ولا أن يكون شفيعا فى تخليصه من هذه البلية فلما أيس من شفاعة الشفيع وقنط من الملجا والمنجى فى هذا الهول الشنيع مد يده الى العساكر المقدونية اشارة الى التسليم الذى يعقبه حصول الامنية أو المنية وكذلك أخته أغاسقليه أخرجت ثديها من القميص وقالت هذا الثدى هو الذى أرضع الملك واغتذى بلبنه فلا يسوغ وقوعه فى مثل هذا الخطب العويص وتضرعت الاخت وأخوها باظهار الندم ولات ساعة مندم فلم ينفع البكاء ولا العويل ولم يرث أحد من الاهالى لهما ولا سمع لهم منها الكثير ولا القليل فأخرجا الملك من حوزه فأخذه الجند الى حوزه وأركبوه جوادا وذهبوا به الى الميدان الفسيح فصار يرأى من الاعجمى والفصيح فلما أبصره جميع الجموع فرحوا به الفرح الشديد وأقبلوا اليه وأجلسوه على كرسى الملك وشرعوا فى أحسن مشروع اذ سأله أحد الامراء هل تأذن بهدر دماء أرباب الخيانة الذى خانوك فى قتل أمك ولم يراعوا قانون الصيانة وهل تتركهم ينتقم لك منهم جميع الناس أو تأمر فى حقهم بما تقتضيه أوامرك السنية بخلاف هذا الالتماس فأجاب باباحة اراقة دمهم وتنكيس علمهم فقال ذلك الامير لبعض الجنود أخبروا الاهالى

بما قاله الملك وأمر بتجهيزه فى اليوم الموعود فلما سمع الناس ذلك الامر الصريح استحسنوه جميعا وحصل لهم به غاية التفريح

وقد كان أغاسقليس وأخته ذهب كل منهما فى محل اقامته منتظرا ساعة قيامته وكان قد تفرق العساكر من بادئ رأيهم أو باغراء بعض أمرائهم للبحث عنها ففى خلال ذلك برز شخص من أخصاء أغاسقليس يسمى فيلاون فى الميدان بروز المعربد السكران وصاح بين الاهالى وهم فى نهاية الغضب والحدة قائلا كيف تصنعون لو خرج أغاسقليس من ورطة هذا الخطر فلا بد أن جميعكم يندم على هذا العصيان الذى هو محض أشر وبطر فلما سمعوا منه هذه المقالة هجموا عليه بالمشاتمة والملاكمة وقصدوا اقتاله فأظهر المدافعة عن نفسه وقاومهم فرقوا ثيابه وطعنوه بالرماح فكان ذلك أول ظهور المقتلة واراقة دماء حزب أغاسقليس الذى هدر دمهم لما زالت قدمهم ورموا جثته بجنب أغاسقليس مضرجة بالدماء فى الميدان العام وتنبهوا لقتل بقية هذا الحزب وذبحهم كالانعام فظهر أغاسقليس مكبلا بالسلاسل والاغلال فأكبوه على وجهه وأذاقوه بالقتل كأس العذاب والوبال ثم حضرت أخته أغاسقليه مع بناتها وأقاربها فقتلوها أشد قتلة ثم قتلوا زوجته المسماة ايناته راكبة على جوادها عريانه فأذاقوها وأتباعها بالقتل كأس الاهانة

وكان المتولى لقتل الجميع الاهالى والرعاع فما تركوا شيأ من أنواع التعذيب الا أذاقوه للمتبوعين والاتباع فبعضهم كان يعض بأنيابه وبعضهم يطعن بحرابه وبعضهم يفقأ العيون حتى أذاقوهم على هذا الوجه كؤس المنون وكلما قتلوا واحدا منهم مزقوا جثته وقطعوا أعضاءه وأهانوا رمته ولما علم النساء المنسوبات الى الملكة أرسنويه حضور فيلامون قاتلها الى الاسكندرية هجموا على منزله وأرادوا الفتك به بأشد بلية فأثخنوه بالعصى والمثقلات ونجزوا قتله بالسلاح بأشد القتلات وخنقوا ولده وكان فى سن الطفولية وذبحوا زوجته بالميدان العمومى أشر ذبحة ردية

وعقب هذه الفتنة الواضحة والمقتلة الفاضحة أقام الامبراطور لابوليوس مقام أغاسقليس فى الوصاية على الملك فلم ينتج من هذه الفتنة العظيمة الا تغيير الوصاية واستبدال الكفالة فكأنما ذهب من مصر حاكم غشوم وخلفه ظالم

مشؤم وذلك أن الوصي الجديد كان تربى فى المعسكرات فلم يكن له خبرة بأصول السياسات فنشأ من ذلك ضعف المملكة المصرية وأخذها فى الاضمحلال لسوء تدبير هذا الوصي وعدم معرفته فى الادارة الملكية فانه بمجرد ما استولى على ما فى مصر من الخزائن والاموال تفرغ للالقاب الصولجانية أو الترسية مع أقرانه من الشبان واتخذ لهم عقب هذه الالعاب الهزئية الولائم الفاخرة والضيافات التى يمثله مزرية وأخذ يسرف فى النفقات ويبذر فيما يمنحه من الاموال لسفراء ممالك اليونان والولايات وأكثر من المنح والعطايا والرغائب لارباب الملاهى والملاعب ولامراء العساكر والاجناد ومن يتردد على ديوانه السعيد ويحسن له ما أراد فهذا السلوك تسبب عنه أنه أقصى الاهالى وصار بينه وبينهم حجاب لشغله بحظوظه واسرافه على نفسه مما يمنع الاقتراب فاضطر الى تسليم عنان الحكومة المصرية ليد ارسطومينيس الرومى فكان كأنه الثابت الحقيق يتصرف كما يريد فنشأ من ذلك من الوخامة والسقامة ما لا عليه من مزيد

فبتلك الفتنة التى سفك فيها الدم المباح وبما أعقبها من التقلبات الخالية عن الصلاح والاصلاح لاحت الفرصة القوية لملك الشام أن ينتقم من واقعة رافيا التى سبق فيها الكلام فعقد معاهدة مع فليبش ملك مقدونيا فهجم فليبش على جناق قلعة وعلى بوغاز كليبولى وعلى بلاد روم ايلى التى كان فيهما من عهد فتوح فيلادلفس رباطات مصريه ومحافظات عسكرية وكذلك هجم ملك الشام على المدن المصرية المملوكة بالديار الشامية وعلى جهة أناطولى وكان بهذه البلاد أسقوباس من طرف بطليموس الخامس فانتصرت مصر فى أول أمرها على ملك الشام نصرة عجيبة على سواحل الشام وعلى بلاد فلسطين ثم انهزمت على منابع نهر الاردن وأخذ منه أنطيوكوس صاحب الشام مدينة سامرة وغيرها من المدن كمدينة القدس نفسها وفى ثانى سنة مضت من هذا التاريخ أخذ منه جميع المدن المصرية التى بولاية أدنة وغيرها من ولايات أناطولى وقد تصادف فى حالة نصرة أنطيوكوس على ملك مصر أنه كان قد صمم أنطيوكوس أن يهجم فى أوربا على جمهورية الرومانيين بايطاليا فلاجل أن يتفرغ للتجهيز لهذه الجهة ولغزوها لزم مصالحة بطليموس مصالحة

نافعة تقوى روابط المحبة بين الطرفين وتؤكد دوام الصلح بينهم وكان لانطيوكوس بنت تسمى قلوبطره فكان من شروط الصلح أن يزوجها الملك مصر ويهب لها أقاليم الشام فى نظير جهازها بداعى أن مملكة الشام كانت محل النزاع بين مصر والشام فلما جعلت من نصيب قلوبطره كانها صارت حاسمة للنزاع بين الفريقين

ولما كان ملك مصر لم يدخل بها وان كانت معدة لذلك بموجب الشروط بقيت عند أبيها ففى أثناء هذه المدة حدثت فتنة أخرى فى مصر نشأت عن البغضاء بين أرسطومينوس كافل المملكة واسقوباس رئيس الجنود وقد كان هذا الرئيس معتمدا على الجنود الرومية التى فى خدمة مصر فلما وقع القتال بينه وبين خصمه فى الاسكندرية أثار اسقوباس الفتنة وقواها وتكاثرت أحزابه وخرجوا عن طاعة الملك وتبعه جميع أهل بلاده وتحزب المصريون مع الملك فقبضوا على رئيس الجيش وحققوا قضيته وأثبتوا خيانته وحكموا عليه بالقتل هو وأحزابه وطردوا جميع أهالى بلده من الخدمة العسكرية المصرية فنجح أرسطومينوس فى هذه القضية ثم أراد أن يتمكن من النفوذ تمكنا زائدا فتوج الملك فى محفل عام ليجلس على سرير الملك ويتقلد بالاحكام ولم يكن سنه اذ ذاك يزيد عن ثلاث عشرة سنة وذلك فى سنة ٨١٨ قبل الهجرة

ومع أن هذه الفتنة التى أثارها اسقوباس قد سكنت فقد نتج عنها وقت اضطرابها اشاعة موت بطليموس بدون أصل حتى وصل ذلك الخبر الى مسامع انطيوكوس فى بلاد روم ايلى فأراد أن ينتهز هذه الفرصة ويفسخ المعاهدة بالهجوم على جزيرة قبرص وكانت تابعة لمصر فوجه اليها سفنه ففرقتها الرياح المختلفة على سواحل أناطولى ففى أثناء ذلك وقف على حقيقة الحال وأيقن ان بطليموس لم يزل على قيد الحياة فصمم على عدم نقض المعاهدة التى عقدها فى شأن زواج بنته لملك مصر وكان قد مضى ست سنوات من وقت عقد المصالحة بينه وبين ارسطومينوس فسار الى مدينة رافيا بين غزة والعريش واستصحب بنته معه وكان أيضا بطليموس نازلا بهذه المدينة فبنى بزوجته واستلم بالتوكيل عنها أقاليم الشام التى هى جهازها حسب الشروط

ثم شرع أنطيوكوس عقب ذلك فى الحروب مع جمهورية الرومانيين بايطاليا

وكان بينه و بين ملك مصر عهود أكيدة بأن لا يعاونوا الرومانيين عليه ومع ذلك فقد عرض بطليموس عليهم المرة بعد المرة أن يمدهم ويعينهم بما يلتمسونه فلم يرتض مجلس ايطاليا بقبول تلك الاعانة فلما انهزم أنطيوكوس فى غزوته ومات عقب ذلك كان المأمول لمملكة مصر بالنسبة لموالاتها للك الجمهورية أن تبقى زمنا طويلا فى السلم والاطمئنان ولكن اساءة بطليموس الماجد لتدبير المملكة وظلمه رعاياه كان السبب فى انقطاع راحتها وعدم تمتعها بلذة الصلح مع الاهالى وذلك ان وكيل هذا الملك كان دائما ينصحه ويوبخه ويخوفه عاقبة أفعاله الوخيمة وكان الملك لا يقبل نصيحته ويحقد عليه فى تهديده وتخويفه فتخلص من هذا الوزير بقتله بالسم ليرتاح منه فلما ظفر بقتل وزيره ترتب على استبداده برأيه ذنوب كثيرة وارتكب من المآثم والخطايا ما لا تستطيع ان تحمله الرعايا وكثر منه الطغيان والظلم والعدوان فنتج من ذلك خطر عظيم الاختلال وقامت الاهالى على الملك ملتمسة تغيير الحال وعمت الفتنة كثيرا من المدن المصرية ولكن جنود اليونان المستخدمون فى مصر كانوا أيضا كثيرين فنصروا الملك وخذلوا أعداءه لاسيما وان قائدهم بولقراطس كان بطلا فاضلا وهماما باسلا فضيق على الثائرين للفتنة كل التضييق وحصرهم غاية الحصر حتى سلموا أنفسهم لعفو الملك وطلبوا منه الامان فذهب كثير من رؤساء الاحزاب المصرية الرافعين راية العصيان الى مدينة صا الحجر حيث كان الملك فيها فقتلهم شر قتلة ومثل بهم وكان ذلك فى سنة ٨٠٧ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

ثم ان الوقائع التى حصلت فى آخر مدة بطليموس الماجد لا يعلم منها الا كونه جدد المعاهدات المنعقدة مع يونان المورة وانه بينما كان يجهز جنوده للحرب مع سليقوس الرابع ابن انطيوكوس اذا اخترمته المنية فى سنة ٨٠٣ قبل الهجرة بعد ان حكم أربعة وعشرين سنة وكان قد أحضر بهذه الغزوة كثيرا من الجنود الخارجية المحكمين ولا زال يكثر منهم ويقال انه سئل ذات يوم من أين تدفع جوامك هؤلاء العساكر ونفقات هذا الجيش الجرار فأجاب كيف هذا السؤال أما تعلمون ان أموال أحبابنا هى أموالنا فدخلت الاراجيف فى قلوب أحبابه فمكروا به ودسوا عليه السم فمات مسموما لكونه أفرط فى

المحبة الى هذه المثابة

(الفصل السابع)

(فى الملك بطليموس السادس محب أمه)

تولى هذا الملك سنة ٢٠٣ قبل الهجرة وهو أكبر ابنى بطليموس الماجد يلقب فيلوماطور يعنى محب أمه على سبيل التهكم والسخرية خلف أباه فى سنة ٢٠٣ قبل الهجرة وكان قاصرا ولكن كانت مدة قصوره وكفالته أقل اضطرابا وتغلبا من مدة قصور أبيه فان مملكة مصر قد أصلحتها عناية الملكة قلوبطره أم هذا الملك وذلك أن سليقوس الرابع ملك الشام مع كونه أخا هذه الملكة وخال ولدها قد أراد أن ينتهز فرصة طفولية هذا الملك ويستولى على ولايات مصر التى بسواحل الشام ووادى دمشق فاخترمته المنية فى أثناء تجهيزه للغزو وحالت بينه وبين مايشتهيه فصمم خليفته أنطيوكوس على تنجيز هذا المقصد فاقتضى الحال ان قلوبطره التمست لمملكة ابنها حماية الرومانيين بأن تكون مصر تحت عنايتهم وملكها تحت كفالتهم فبعثت جمهورية الرومانيين من طرفها أميرا يقال له ايليوس لايدوس الى مصر وجعلته كفيلا على هذا الملك الصبى وكان هذا الكفيل من طائفة أمناء الدين الكهنة فماتت الملكة قلوبطره بعد يسير من الزمن فعزل أهالى الاسكندرية هذا الكفيل وقلدوا الكفالة لشخصين مصريين وهما أوليوس الطواشى ولونيوس أحد أعيان الحكومة وكان ملك الشام قد استولى على سواحل الشام ودمشق فطلب منه هذان الوصيان اعادة هذه الاقاليم للديار المصرية وكذلك ملك الشام الذى هو أنطيوكوس طلب كفالة ابن عمته وقال انه أولى بذلك من الاجانب وفى أثناء هذه الحالة حضر من طرف الرومانيين الى مصر سفراء مفوضون بتجديد المعاهدة بين الجمهورية الرومانية والدولة المصرية على طبق شروط كانت بين الجمهورية وبطليموس الخامس فانهوا قضية المعاهدة ولم يفصلوا الخصومة التى بين الشام ومصر فصار اشهار الحرب بين حكومتى مصر والشام وكان الرومانيون مشغولين اذذاك بالحرب مع برشاوش ملك مقدونيا فكان يتعذر عليهم اعانة بطليموس السادس محب أمه فاستولى

انطيونوس بدون تعب ولا نصب على ولاية دمشق و يهوذا و سواحل الشام الى حدود مصر كما استولى على جزيرة قبرص بخيانة محافظها فتقوى أنطيونوس بنجاحه ورغب أيضا فى الهجوم على مصر فاجتهد بطليموس أن يوقف سيره عند مدينة فرما و يمنعه من دخول مصر وكان ذلك فى سنة ٢٩٧ قبل الهجرة فانهزمت فى هذه الواقعة عساكر مصر هزيمة شديدة و دخل أنطيونوس الى مدينة مصر بالنصر والتأييد ومع ذلك فقد أحسن معاملة بطليموس واعتذر له بأنه لم يقصد بالحرب الاستيلاء على كرسى مصر ولكن ديوان الاسكندرية وجنودها وعساكرها لما رأوا وقوع ملكهم أسيرا وأنه صار فى قبضة ملك الشام بايعوا على مملكة مصر أخاه بطليموس بدله ولقبوه أو يرجيطه الثانى يعنى الرحيم وكان هذا الملك صبيا قاصرا فلما علم أنطيونوس بذلك سار بجيشه لحرب الاسكندرية فتجهز من فيها للممانعة والمدافعة و بذلوا غاية جهدهم فى ذلك و بعث بطليموس أو يرجيطه الثانى وأخته قلوبطره سفراء الى الرومانيين للاستغاثة بهم وحاصر ملك الشام الاسكندرية وطالت مدة حصارها وفى أثناء ذلك أشاع يهود الشام موت ملكهم فى حصار مصر فقامت فتنة عظيمة فى الشام وطنت فى آذان أنطيونوس فعزم على العود الى مملكته فعند ذلك ذهب بطليموس السادس محب أمه الى منفيس رجاء ان اختلافه مع أخيه يكون وسيلة فى استيلائه على مصر كما كان وكان قد ترك أنطيونوس محافظته بمدينة فرما فلم ينجح فى اثارة الفتنة بين الاخوين وتوجه الى القدس فأخذها وسلب ما سلب ونهب ما نهب ففى أثناء غزوه مع يهود الشام اصطلح بطليموس محب أمه مع اخيه أو يرجيطه الثانى بتوسط أختهما قلوبطره فى هذا الصلح وقصدا أن يدافعا عن وطنهما كل جهدهما فى حالة ما اذا خطر ببال أنطيونوس أن يجدد الحرب ويغير على مصر والتمسا أيضا من الرومانيين أن يبعثوا جمعية مختارة لاصلاح ذات البين بين مصر والشام وصار قواد الجنود المصرية لقتال سفن أنطيونوس على سواحل قبرص الى حين حضور الجمعية الرومانية وفى فصل الربيع سنة ٥٩٧ قبل الهجرة هجم جيش جرار من الشام على مصر واستولى منها على جميع البلاد الى حد مدينة منف ونصبوا معسكرهم بقرب الاسكندرية وكان قد حضر بو بليوس ليناس سفير الرومانيين

فاوقفهم

فأوقفهم هنالك ثم أخرجهم من مصر فى أسرع وقت على أحسن وجه
ومع أن ملك الشام قد انفصل عنها كما هو مرام الاخوين فلم يطل الصلح بينهما
ولم تتمتع مصر بالراحة لحصول الفشل وتولد الحرب الداخلى ولا يعلم تفصيل
هذه المخاصمة وانما غاية ما وصل الى علم المؤرخين أنه نتج منها ذهاب أوبرجيطة
الثانى الى مدينة رومة ليستغيث بالجمهورية الرومانية فارسلت الجمهورية
المذكورة سفارة أخرى وأفادت بطليموس أنها حكمت بان يتنازل لاخيه
أوبرجيطة عن مملكة القيروان وبرقة لكن لم يقنع أخوه أوبرجيطة الثانى
بنصيبه فى هذه المقاسمة بل ألح على مجلس رومة بأن يضم الى هذه المملكة قسما
آخر من الولايات التى تحت حكومة مصر فأضافوا الى ما تقدم جزيرة قبرس
فأبى بطليموس ملك مصر أن يمتثل لهذه الزيادة فغضب الرومانيون من ذلك
لان لهم اذ ذاك كمال النفوذ فى الدول المشرقية والتكلم عليها لا سيما اذا فوض
اليهم التحكيم فكان لا أحد من ملوك زمانهم يعارض آراءهم فأصدر مجلس
رومة أمرا بترخيص سائر الممالك اليونانية وممالك آسيا وكانت متعاهدة
مع رومة أن تمد عند الاقتضاء بالامدادات اللازمة أوبرجيطة الثانى وان
تنصره على أخيه فاستعان بتلك الممالك وجهز الجنود لقتال أخيه ومع ذلك
كله فكانت الهزيمة عليه وقد كان فى قدرة بطليموس أن يصنع معه ما تقتضيه
العداوة من الانتقام لكن عامله بمكارم الاخلاق وصفح عنه الصفح الجميل
واشترط عليه أن يقتنع بمملكة القيروان وبرقة وبعض مدن من جزيرة قبرس
ولاجل تمكين الصلح وبنائه على أساس متين وعد أن يزوج أخاه ابنته كعادة
البطالسة فى ذلك الوقت تشبيها بملوك فارس الذين يزعمون أنهم ورثاؤهم
فبوسيلة ذلك كله رجعت مصر الى الصلح التام والراحة العامة وبقيت على
ذلك عدة سنوات ثم انه كان فى جزيرة قبرس حكمدار من طرف مصر يسمى
ارخياس فأراد خيانة مصر بتسليم الجزيرة لملك الشأم حتى كادت أن تضرم
لذلك نار الحرب بين المملكتين كل الاضرام ولكن انكشفت الحيلة ولم
يستطع أرخياس أن ينجز خيانته بل خاب أمله لظهور دناءته فيئس وقتل
نفسه فأضمر بطليموس العداوة لدمتريوس ملك الشام بسبب اغوائه لحاكم
قبرس وقصد أن ينتقم منه فأعان اسكندر صراصهره أن يدعى أنه ابن

أنطونيوس وأجلسه على سرير الشام بمحض دعواه وعزل دمتريوس سوطير وكان ذلك فى سنة ٧٧٥ قبل الهجرة وأمده فى نصرته على دمتريوس المذكور بالعساكر المصرية

فلما تولى اسكندر مملكة الشام التمس أن يتزوج قلوبطره بنت بطليموس محب أمه فجهزها له أبوها وسار بها بنفسه الى الشام وعمل لها أفراحا عظيمة وفى سنة ٧٦٩ قبل الهجرة يعنى بعد تولية الاسكندر بطليموس بست سنوات نهض دمتريوس نقطاطور بن دمتريوس سوطير وقصد أن يستلب تاج أبيه من اسكندر المغتصب الذى هو صهر بطليموس فأعان بطليموس اسكندر بجيش عظيم برى وبحرى فأخذ بطليموس بجنده البلاد الشامية من فلسطين الى عكا وكلما تغلب على مدينة رتب فيها رباطا مصريا فارتاب من هذا الصنيع أمنيوس وزير اسكندر ملك الشام ونوى أن يقتل ملك مصر غيلة فاستشعر بطليموس بذلك وأحس بما نواه عدوه فطلب من اسكندر عقاب هذا الوزير فأبى اسكندر أن يعاقبه فأشهر بطليموس الحرب معه وتغلب على مدن سواحل الشام الى انطاكية التى على نهر العاصى وفرق بينه وبين بنته وساعد دمتريوس بن سوطير أن يأخذ مملكة أبيه ويجلس على كرسيه وزوجه ابنته واتحدت قوة مصر والشام فلما وصل بطليموس محب أمه الى انطاكية ألبسه أهلها تاجين أحدهما تاج مصر والآخر تاج الشام فأبى أن يلبس تاج مملكة الشام بل آثر به دمتريوس المذكور وكان شابا فاذا نظرت الى حقيقة هذه الواقعة تجد أن ماصنعه بطليموس مع دمتريوس نظير ماصنعه قبله أنطيوكوس فى مدينة منف مع ملك مصر سواء بسواء حيث ان ملك الشام أعطى مملكة مصر لوريجيطة كما تقدم ولكن وصل اسكندر من بلاد القرمان مع جنوده وتقابل مع أعدائه وتصادموا فانهزم اسكندر وهرب عند رئيس حى من أحياء العرب فقتله فى سنة ٧٦٨ قبل الهجرة وبعث برأسه الى بطليموس فتصادف موت بطليموس فى هذا الوقت حيث سقط من ظهر جواده فى أثناء نصرته بعد ان حكم خمسا وثلاثين سنة وفى مدة بطليموس محب أمه هرب أونياس الاسرائيلى الى مدينة الاسكندرية بمصر واستاذن من هذا الملك فى بناء هيكل لليهود على محل معبد آخر فى مدينة تل بسطة لاظهار شعائر اليهود فى

(الفصل الثامن)

فى الملك بطليموس السابع الملقب أوباطور أى الماجد الاب وبطليموس الثامن الملقب أويرجيطة يعنى الرحوم ويلقب فسقون يعنى البطين

أمّا بطليموس السابع الملقب أوباطور أى الماجد الاب فقد خلف أباه بطليموس محب أمه فى سنة ٧٦٨ قبل الهجرة وكانت أيام حكمه قصيرة جدا حتى لم يذكره بعضهم فى بطالسة مصر بل كان لا يعلم المؤرخين أنه تولى على مصر وانما نص أهل التاريخ على أنه كان من نسل البطالسة ثم ظهر للمؤرخين المتأخرين استكشاف وثيقة معاهدة يونانية مكتوبة فى ديوان مصر يؤخذ منها أنه ابن بطليموس محب أمه وأنه تملك مصر ولقب بالماجد الاب وانه تولى قاصرا وكفلته أمه قلوبطره وحكمت مصر بالنيابة عنه مدة يسيرة جدا بحيث لا تعدّ مدة مستقلة فى حدّ ذاتها بل متحدة داخلة فى مدة أخيه بطليموس الثامن الملقب أويرجيطة الثانى يعنى الرحوم الثانى

وأمّا أويرجيطة الثانى المذكور الذى هو بطليموس الثامن فسبب توليته للملك أنه كان فى زمن أخيه بطليموس محب أمه ملكا على القيروان فشاع موت أخيه قبل حصوله ولكن اعتمادا على التواتر صمم أن يبادر بالتملك على مصر فتجهز لذلك وتقوّى بجنده وكذلك الملكة قلوبطرة زوجة بطليموس محب أمه لما توفى عنها زوجها الذى هو أيضا أخوها بادرت بالمبايعة لابنها بطليموس الماجد الاب وكان صبيا قاصرا فلما قدم بطليموس الثامن الى مصر ووجد أخاه قد مات وأن ابن اخيه قد تولى ملك مصر لم يظهر تطلب الملك بنفسه بل تطلب أن يكون وصيا على مملكة ابن أخيه فأبت قلوبطره أن تمكنه من الوصاية فهجم على الاسكندرية وتزوج قلوبطره التى هى أخته وذبح فى يوم عقده عليها ابنها على حجرها بيده وكان قد أمر بقتل أحزاب ابن أخيه فقتلوا عن آخرهم وبعد هذه الافراح والاتراح وسفك الدماء سئم من أخته حيث لم يكن الغرض من زواجها الا التمكن من التاج الملوكى فتزوج عليها بنتها من أخيه وبقى مع الزوجين الام والبنت بوصف الزوجية وأبقى لكلتيهما عنوان

ملكة مصر فأوجبت هذه الفعلة الشنيعة بانضمامها الى جبروته نفور جميع رعاياه منه بالكلية فخشى عاقبة ذلك فاتخذ الجنود الاجنبية المحكمة لحماية نفسه ومحافظة ممالكه فاشتدت بذلك كراهية الخاصة والعامة لاسيما أنه كان منهمكا على اللذات والشهوات ومصرا على أنواع المعاصى فكره الجميع منظره وقبحت فى أعين الناس صورته وكان قصير القامة ضخم البطن لا يكاد يقدر على المشى لهذه العلة المسببة عن الافراط فى الشهوات واللذات ولهذا لقبه أهل الاسكندرية بالبطين وقد طال حكمه من سنة ٧٦٨ الى سنة ٧٣٩ قبل الهجرة فبلغت مدة حكمه تسعا وعشرين سنة على ما كان عليه من العسف وبغض الاهالى

ومن العجائب أنه مع كونه محتقرا مبغوضا عند جميع الاهالى الى هذا الحد طالت مدة حكمه ولم ينزع الملك من يده ولكن متى ظهر السبب بطل العجب فقد استبان أنه كان له وزير عظيم حامل لاعباء الملك وكان هذا الوزير راجحا فى ميزان الاعتبار عند الجميع فبهذه الوسيلة وحسن التدبير والسياسة لم يزل ملك مصر باقيا مع المخدوم بحسن ادارة الخادم وهذا هو الوزير المسمى هوهياراش محافظ الاسكندرية فكانت مدة وزارته مانعة لعطب المملكة حامية لها من الاختلال واقية لها من الزوال نعم انه فى آخر مدة هذا الملك هاج غضب الاهالى واشتد حنقهم عليه فقامت الفتنة على ساق وقدم فى سنة ٧٥٢ وحرقوا قصر الملك أويرجيطة الثانى الذى هو بطليموس الثامن فبادر ذلك الملك بالهروب وقصد جزيرة قبرس واستصحب معه قلوبطره الصغيرة وكان مثير الفتنة ومقوم الاهالى قلوبطره الكبيرة التى هى أمها بدليل أنهم لما كسروا تماثيل أويرجيطة الثانى الذى هو بطليموس الثامن تلميحا بعزله سلموا زمام الحكومة لهذه الملكة فبادرت بقبولها

ثم ان الملك لما سمع فى أثناء طرده هذا الخبر استشاط غيظا وخشى ان تبايع المملكة لابنها منه على ملك مصر فأرسل يأخذ ابنه فى قبرس ليكون معه فبمجرد وصوله اليه أمر بذبحه ثم وضع أجزاءه فى زنبيل وبعث بها الى أمه فى الاسكندرية فبينما هى مشغولة بعمل وليمة لمولدها اذ جاؤا اليها بجثة ابنها مذبوحا ممزقا فتجهزت لحرب أويرجيطة الثانى كما تجهز لحربها وأكثر كل من

بجنده وجعل أويرجيطة قائد جيشه هجالوخوس وجعلت قلوبطره قائد جيشها
هرسياس فلما التقى الجمعان فى ميدان مصر هزم قائد أويرجيطة جيش الملكة
قلوبطره ووقع هرسياس أسيرا فى يد خصمه فبعث به الى الملك أويرجيطة فى
جزيرة قبرس فأحسن معاملته وصفح عنه ليستميل بذلك قلوب المصريين وأما
قلوبطره فتحزبت فى الاسكندرية وخلعت المملكة المصرية على صهرها
دمتريوس نيقاطور ملك الشام فجاء حالا وحاصر الفرما فقامت قيامة فى الشام
فعاد اليها سريعا فاضطرت قلوبطره الى الهروب فى الشام فبهذا صار تسليم
الاسكندرية صلحا الاويرجيطة الثانى فركب سرير سلفه ثانيا وأراد أن ينتقم من
دمتريوس فأغرى شخصا يسمى سيداطس على أن يدعى أنه ابن انطيوكوس
ملك الشام وأن له حقا فى التملك عليها فقام ليدعى ذلك ويتطلب حقوقه فلقب
نفسه اسكندر زابيناس وبايعه أناس كثيرون وحارب دمتريوس فانهزم
دمتريوس بقوة خصمه الدعى وهرب فى صور وقتلته زوجته بهذه المدينة فى
سنة ٨٤٧ قبل الهجرة فانتقلت اليها بهذه الفعلة مملكة الشام وكانت تعهد
أن زابيناس يبغض أويرجيطة الثانى فتقربت من أويرجيطة المذكور
واستمرت على الحرب مع زابيناس فانتصرت عليه بعناية ملك مصر ومعاهدتها
له وتزويج بنته المسماة طروفانه لابنها أنطيوكوس أغروبوس لتأسيس المحبة
وتاكيدها فمن هذا الوقت استمر بطليموس الثامن الملقب أويرجيطة الثانى
فى أمن تام على مملكة مصر الى ان حضرته الوفاة وقد سلك مسلك أسلافه من
ملوك البطالسة من الزيادة فى كتب خزانة الاسكندرية زيادة كثيرة وكان له
مشاركة فى العلوم الحكمية والفنون الادبية فكان قد تلقى العلوم عن
المعلم ارستارخس الشهير بالمعارف الادبية وقد ألف هذا الملك بعض كتب
ورسائل وفى أيامه كانت السفرة العلمية لاستكشاف بحر الهند وكانت هذه
أول سفرة سافر فيها المصريون لاستطلاع أحوال البحر المحيط الهندى تحت
رياسة القائد هودوشيش القوزيقى وكان شجاعا على الاسفار جسورا
على اقتحام البحار والقفار يحسن الارصاد الفلكية والملاحظات العلمية
وتعيين المواقع الجغرافية فخاطر فى الملاحة وطاف حول افريقية فى هذه
السياحة وتمم بالارصاد معرفة ما فى البحر الهندى من الجزائر والبلاد فى أيام

بطليموس المذكور وكان موت هذا الملك لسنة ٧٣٩ قبل الهجرة بعد أن حكم تسعا وعشرين سنة كما سبق فى أثناء الفصل وتولى بعده بطليموس التاسع

(الفصل التاسع)

(فى الملك بطليموس التاسع)

تولى بطليموس التاسع ولاية مصر فى سنة ٧٣٩ قبل الهجرة وبقى ملكا عليها الى سنة ٧٠٣ فتكون مدة حكمه ستا وثلاثين سنة ومن ضمنها مدة حكم أمه قلوبطره الصغيرة كما سيأتى فى آخر الفصل

ولهذا الملك عدة ألقاب فيلقب سوطير الثالث يعنى المخاص وبوطونوس يعنى المحبوب ولاطوروس يعنى الارقط لانه كان له علامة فى وجهه وكان أكبر ولدى بطليموس البطين من قلوبطره الصغيرة وكانت أمه تبغضه وتحب أخاه الصغير المسمى اسكندر وتؤثره عليه وكان لها سلطنة على قلب زوجها بطليموس البطين فحملته على أن يبعث هذا الولد البكرى الى جزيرة قبرس ليكون حاكما عليها وقصدت بتغريبه حرمانه من ولاية العهد وانتقال حق الملك لولدها اسكندر الصغير ليخلف أباه فيما بعد على مصر بدون مانع ولينتهز هذه الفرصة قبل أخيه الاكبر لكن مع ارتكابها هذا العمل خاب منها الظن وأخطأها الامل لانه بمجرد موت زوجها بطليموس البطين جبر أهل الدولة المصرية قلوبطره الصغيرة على أن تحضر ابنها الاكبر من جزيرة قبرس لتقلده مملكة مصر فبادرت باحضاره وألبسته التاج الملوكى واشترطت عليه أن يطلق زوجته قلوبطره أخته ويتزوج بدلها احدى اخواته المسماة سيلانة المعهودة الطاعة لامها والمعروفة بكمال الامتثال وعدم العقوق فطلق قلوباطره وبقيت حاكمة على جزيرة قبرس واستمرت على التداخل فى مصالح الشام الى أن قتلت بأوامر أختها طروفانة ملكة الشام وتزوج بطليموس لاطوروس أخته سيلانة عملا بشرط أمه

ومع ذلك فقد بقيت قلوباطره أمه حاقدة عليه مضمرة له العداوة ومريدة له التلف فبمجرد أن ماتت بنتها قلوباطره حاكمة قبرس جعلت ابنها الصغير

اسكندر ملكا على هــذه الجزيرة رجاء أن يعود منها ذات يوم و يصير ملكا على مصر فكانت دائما مصممة على خلع ولدها الاكبر من مملكة مصر عنـد أول فرصـه فكث كل من بطليموس التاسع وأمه زمنا طويلا على ادمان العداوة والاصرار على الدسائس الخفية وكل منهما يعتمد على حزب فى الشام من أغراضـه ثم انتهى الحال على أن أم الملك المذكورة اتهمت ابنها بطليموس التاسع بأنه هم بقتلها سما فحزبت عليه جميع أهالى الاسكندرية ليفتكوا به ففر هاربا الى جزيرة قبرس فى سنة ٧٢٨ قبل الهجرة وعاد ابنها اسكندر الى مصر فبايعه المصريون وجعلوه ملكا على مصر بهذه الوسيلة

ومع ذلك فلم تترك قلوباطره ابنها الاكبر بطليموس التاسع آمنا على نفسه فى مدة انزوائه فى جزيرة قبرس بل أرسلت اليـه جيشا مصريا ليخرجـه منها او يجليه عنها فخرج بطليموس التاسع من قبرس الى سواحـل الشام ومعه ثلاثون ألف مقاتل فهجم بهـم على سواحل نهر الاردن وهزم اليهود الذين كانوا أعـداء لانطيوكوس القوزيقى ملك الشام وكان هذا الملك معاهداله واستولى أيضا على عكا وكانت فى قبضة مصر فلما سمعت قلوبطره بهذه الوقائع جهزت جنودا مصرية برية و بحرية وسيرتها الى الشام وأخـذت منه مدينة عكا وقصدت أن تخرج جزيرة قـبرس من قبضـتـه فعجزت عن ذلك ومكث الحرب بين الام والابن سجالا كل منهما غالب تارة ومغلوب أخرى الى أن انتهى بالمصالحـة بينهما

ومكثت هـذه الحروب مدة طويلة متجهة جهة الخارج وكلما انقطعت تجدد بدلها فتن داخلـية فى مصر فالتفتت قلوباطرة الى حسم الفتن الداخلية وقد رأت ان ابنها الاصغر اسكنـدر الاول الذى جعلته ملكا عـلى مصر ولقبته بطليموس لم يكن مطيعا لاوامرها ونواهيها فأخذت تحتقد عليه وتضمر له السوء كما فعلت بأخيـه فقصدت أن تتخلص منه بقتله غيلة فبينما هى شارعة فى تنجيز أغراضها اذ أحس بذلك فتدارك نفسـه بابقاء حياته بقتل أمه فقتلها وأراح العباد والبلاد منها واستبد من هذا الوقت بملك مصر بدون مشارك ولا منازع ثم ارتكب ذنبا آخر وهو نبش قبر اسكنـدر الاكبر وسلب التابوت المصوغ من الذهب المتضمن لعظام هـذا الفاتح المقدونى فاداه طمعه الى سلبه بوضع

جثة اسكندر فى تابوت متخذ من البلور فبعد هذه الفعلة لم يمكث زمنا طويلا الا وقد جوزى بعمله وذلك أن صنيعه أغضب الاهالى والجنود فتعصبوا عليه جميعا فقرّها ربا الى خارج مصر فاستدعى ديوان الاسكندرية بحضور أخيه بطليموس سوطير وطلبوه من قبرس لما آنسوه فيه من حميد السيرة وحسن الاخلاق فمالت اليه النفوس واجتمعت على محبته القلوب فحضر سوطير الثانى بالاسكندرية وكان أخوه بعد أن خرج من مصر وصل الى بلاد برقة فاستولى عليها وقصد أن يجتهد فى الاستيلاء على قبرس فسار اليها بجنده ووقعت حروب بحرية بينه وبين جنود قبرس فهلك فى هذه الوقعة سنة ١١٧ قبل الهجرة وامّا بطليموس سوطير فسار بجنده الى مدينة طيوه مدينة الصعيد وكان قد امتنع أهلها من مبايعته ورفعوا راية الخروج عن طاعته فقاتلهم وهزمهم واستولى على المدينة وقتل وسلب وسبى ونهب فاباد هذه المدينة التى كانت فى مصر على كمال العمارية والزينة فلم تعد الى حالتها العليا ولم تصر بعد ذلك أم مدن الدنيا

ثم ان المملكة المصرية عادت فى أيام هذا الملك الحسن التدبير والسياسة لعلو شأنها ورفعة مقامها كما كانت فى السابق وصارت لها اليد العليا والشوكة القصوى على ممالك بلاد الشرق فان بطليموس التاسع أعاد لها شوكتها البحرية بتعمير السفن التجارية والحربية وتمكين فن الملاحة فبهذا احسن حالها وعلا قدرها وصارت مرغوبة للمعاهدات ومطلوبة للمحالفات فقد التمس مطريداطس ملك قبادوقيا وارمنستان تأكيد عهد المحبة وعقد المودّة بينه وبينها وكذلك التمس منها الرومانيون نظير ذلك وهذا مما يؤيد فخرها فى تلك الازمان ويزيد قدرها بين دول ذلك الاوان وكان بين ملك قبادوقيا والرومانيين شقاق وخلاف فكان التماس كل منهما معاهدة مصر لقصد تحصيل القوة بها ومع الحاح الالتماس بين الطرفين فقد أبى بطليموس التاسع أن يتعاهد مع كل من الفريقين وان يوالى مملكة من المملكتين ونوى أن لا يتداخل ظاهرا فى حروب بعضهما مع بعض والظاهر أنه كان يخشى اتساع صولة الرومانيين وقوة دولتهم لانها كانت دائما آخذة فى التزايد شيأ فشيأ فكان يحاذر من مساعدتهم ومع اظهاره خلوّ اغراضه كان يعين ملك قبادوقيا سرّا فان من المحقق ان

الرومانيين لما أرسلوا قائدهم بوقولوس لحرب مملكة قبادوقيا بعثوا سفيرا الى ملك مصر يطلب منه الاعانة للقائد بوقولوس وكان الطالب لذلك سولا رئيس الجمهورية الرومانية وامتنع ملك مصر من ارسال هذه المساعدة وكان ذلك في سنة ٧٠٧ قبل الهجرة وهذا مما يدل على شوكة مصر في ذلك الزمن حيث لم تلب دعوة سولا رئيس الجمهورية الرومانية مع أنه كان لا يمكن اذ ذاك لاحد من ملوك الدنيا أن يخالف أغراض الرومانيين لما كانوا عليه من العز والسلطان

وقد مات ملك مصر المذكور حتف أنفه وترك مصر اذ ذاك في صلح مع غيرها من الممالك وكان موته في سنة ٧٠٣ قبل الهجرة ومدة حكمه وحده ومع أمه ست وثلاثون سنة وقد خلفته بنته قلوبطره برنيقه على سرير الملك ولم تحكم الا ستة أشهر لا غير

(الفصل العاشر)

(في الملك بطليموس العاشر و بطليموس الحادي عشر)

يعبر عن الاول باسكندر الثاني وعن الثاني بعنوان أوليطيس ومعناه الزامر وكانت مدة ملكهما معا من سنة ٧٠٣ قبل الميلاد الى سنة ٦٧٤ نحو تسع وعشرين سنة وذلك أنه لما مات بطليموس التاسع كان الامير سولا رئيسا على الجمهورية الرومانية وكان لاسكندر الاول البطليموسي ابن يسمى اسكندر الثاني وكان مقيما في ديوان متريداطس نزيلا قبل ذلك عنده ولما جاء الامير سولا الى قبادوقيا قائدا على عسكر الرومانيين للحرب مع ملكها متريداطس المذكور استحسن اسكندر الثاني أن ينضم الى سولا ليعينه عند الفرصة على تولية مصر له فذهب الى سولا فأكرم نزله واستصحبه معه الى رومة بعد انقضاء حرب قبادوقيا فلما تواتر الخبر بموت أخيه سوطير الثاني الذي هو بطليموس التاسع أرسل سولا رئيس الجمهورية اسكندر الثاني ليتولى ملكا على مصر فلما وصل اسكندر الثاني الذي هو بطليموس العاشر الى مصر قصد أن يحسم الفتنة و يقطع عرق النزاع بينه و بين الملكة قلوبطره برنيقه فتزوجها وشاركها في الملك فبعد أيام قلائل قتلها لينفرد بالملك فلما رآه رؤساء الجنود

المصرية معوّلا على دولة الرومانيين التى هى أجنبية وليس لها حق فى المداخلة فى المصالح المصرية مع كون هذا الملك مبغوضا للمصريين فى حد ذاته فجعوه فى ملعب الاسكندرية بعد تسعة عشر يوما مضت من ولايته

ولم يكن اذذاك لبطالسة اللاغوسية أولاد ذكور من نكاح صحيح وانما كان لسوطير الثانى ولد من السفاح يسمى بطليموس أوليطيس يعنى الزامر لتولعه بسماع المزمار فولاه المصريون ملكا عليهم ولقبوه بطليموس الحادى عشر ومن المعلوم أن هذا الولد قد تولى ملك مصر مع اتصافه بوصفين مذمومين من أعظم العيوب وهو كونه من السفاح وكونه تولى المملكة رغما عن أنف الجمهورية الرومانية بدل ملك كان انتخبه الرومانيون ونظموه فى سلك أحبابهم ومعاهديهم فكانوا بالضرورة لا يعترفون بملوكية بطليموس الزامر فبهذا صرح الرومانيون بأن توليته على مملكة مصر لاغية لا اعتداد بها ولا صادفت محلا وأعلنوا أن سرير مصر خال عن الذات الملوكية المستحقة للتولية المعتبرة الصحيحة وان ملوكية مصر انحلت لا عن وارث من السلسلة وآلت الى نظارة جمهورية رومة بمقتضى وصية اسكندر الثانى ملكها وسواء كانت هذه الوصية صحيحة أو ادعائية فكانت على كلتا الحالتين لا بد من تنفيذها جبرا وأيضا كان فى الشأم من ذرية بطالسة مصر بنات خلفن ذكورا وإناثا من ملوك الشأم فكن يعتقدن تقديم نسلهن على بطليموس الزامر وان نسلهن الأولوية عليه وان الرومانيين يساعدون على ذلك

وذلك أنه كان لبطليموس سوطير أخت فى الشأم تسمى سيلانة كانت زوجة بطليموس القوزيقى ملك الشأم وكان قد بقى لها من تعلقات مصر بعض مدن على سواحل الشأم كمدينة عكا ولها ولدان من ملك الشأم أحدهما يسمى انطيوكوس والثانى يسمى سيليقوس فبعثت فى ايطاليا بنيها لتطلب من جمهورية رومة أن تسعى فى تقليدهما مملكة مصر بقولها ان المملكة المصرية انتقلت اليهما بالميراث من جهة أمهما فاستشعر بطليموس الزامر بهذا وبعث من طرفه سراعة سفراء الى رومة ليعارضوا ما طلبته الملكة سيلانة ويمنعوا انطيوكوس وسيليقوس من دعوى ذلك لانهما من أمراء الشأم لا من أمراء مصر وليستميلوا بالرشا والبراطيل بعض أمراء الجمهورية

الرومانية ليحكونوامعه ومن اغراضـه فوقعت المذاكرات والمداولات في مجلس رومة مرارا وتكرارا في شأن مملكة مصر وهل يجوز أن ترسل الجمهورية الى ديار مصر جنودا رومانيـة ليقيموا فيها اقامـة موقتـة لمنع الاختـلال ولحفظ المملكة من النزاع والجدال ولتمكين بطليموس الزامر أم لايجوز وسبب المذاكرة والتطول بل ما كان يدفعه وكلاء بطليموس في رومة من البرطيل فكانت لاتنحل هذه المسئلة المعضلة بمدينة رومة بل يحصل فيها التراخي والاهمال وأيضا كان للرومانيين في ذلك الوقت شغل أهم من هـذا وهو الحرب المفتوح بينهم وبين متريداطس ملك قبادوقيا فكان هذا الحرب مما أعاق الرومانيين عن الالتفات لمصر وتمييز اغراضهـم فيها فلما هزموا ملك قبادوقيا وفرغ الرومانيون من قتاله صرفوا همتهـم الى الالتفات للمصالح المصرية على وفق أغراضهم

فالتمس اقراسوس ويولوس قيصر اللذان هـما رؤساء رومـة من مجلس الجمهورية أن يصـير ارسالهـما من طـرف جمهورية رومة الى مصر لاجراء ماتقتضـيه مصلحة المملكة المصرية فلم يصدق مجلس رومة على ارسالهما وفي سنة ٦٨٦ قبل الهجرة التمس المستشار رولوس من مجلس رومة أن تضاف مملكة مصر لممالك الرومانيين وتكون ايالة ملحقة بايالة رومة وكان في المجلس قيقرون الخطيب ويقال أيضا شيشرون وهو خطيب مصقع مشهور بالفصاحـة والبلاغة فأقام البراهين القاطعة على عدم صحة اضافتها لرومة لما في ذلك من مخالفة أصول الملل والدول واحتج أيضا على وجوب استقلالية مصر في حـد ذاتها وان تكون قائمة بنفسها مستبدة بأحكامها لاقتضاء موقعها ذلك فحكم مجلس رومة بناء على سماع دلائله وبراهينه بتخليص مملكة مصر من ورطة التبعية للرومانيين وقضى بابقاء استبدادها بنفسها على حاله

ولما كانت الجمهورية الرومانية لاتزال تتوعـد مصر بادخالها في ايالاتها وتهـددها بتبعيتها لها أوجب ذلك ان بطليموس صرف النظـر عن موالاة الجمهورية الرومانية ومصادقتها في الباطن فلما انفتح الحرب أخيرا بين الرومانيين وبين متريداطس اقتصر بطليموس على اظهار عـدم التعرض للطرفين فلم يساعد الرومانيين ولا أمدهـم وكذلك لم يساعد متريداطس مساعـدة ظاهرة

وانما كان بينهما مراسلات سرية ومخالطات باطنية فلما عاد جيش الرومانيين من حرب مترید اطس وكان الرئيس على الرومانيين الامير بومبيوس وكان قد نزل بالشأم فبلغه فى طريقه موت مترید اطس الذى كان عدوا امينا لرومة أدخل هذا الرئيس الى حدود مصر فارتعب منه بطليموس الزامر وأرسل اليه الهدايا الفاخرة وواساه كل المواساة والتمس منه ان يعينه على رعاياه وكانوا قائمين عليه مضرمين نار الفتنة فى المملكة المصرية فأبى هذا الامير الرومانى دخول مصر وامتنع من اعانة بطليموس فألح عليه بطليموس وطلب منه المعونة والمحاماة فأجابه الى ذلك وكان فى مدة حصار بومبيوس لبيت المقدس أعانه بطليموس بالدراهم والذخائر فلما عاد بومبيوس الى رومة وكان قيصر ملكا عليها وكان بينه وبين بومبيوس محبة فأوصاه على بطليموس فشمله قيصر بنظره وجعله تحت حمايته والتمس من المجلس الرومانى أن يقره على ملوكية مصر بعد أن كان قبل ذلك قد قضى فى هذا المجلس بنزع الملك من يده وكان ذلك فى سنة ٦٨١ قبل الهجرة

وبالجملة فقد أنفقت السلالة اللاغوسية الاموال الجمة فى تحصيل الحماية الرومانية فانه بعد هذا الزمن بيسير قرر بعض أرباب المجلس الرومانى تبعا لغرض بعض أرباب مجلس الاهالى الرومانية نزع ملك جزيرة قبرس من يد ملكها أخى بطليموس الزامر وادخال هذه الجزيرة فى أملاك الجمهورية الرومانية فأجيب الى ذلك واغتصبت رومة جزيرة قبرس فأغضب ذلك ديوان الاسكندرية وأهاليها لانهم كانوا اذ ذاك لا زالوا محافظين على التمسك بحفظ ناموس وطنهم وصيانة املاكهم أكثر من تمسك ملوكهم بذلك فالتمس أهل الاسكندرية من ملكهم بطليموس الزامر أن يبذل جهده فى نقض معاهدة الرومانيين وأن ينزع من أيديهم جزيرة قبرس بالقهر والغلبة ويعيد أخاه ملكا عليها وفى تلك الحالة لم يكن بطليموس أهلا لانجاز ذلك ولا يرجى منه الجسارة اللازمة لحماية وطنه فلهذا أجابهم بالمنع وعدم الرضا بما التمسوه منه فقاموا عليه وأثاروا الفتن والشرور فخرج من مصر بدون أن يشعر به أحد وذهب الى رومة لالتماس الاعانة على رعيته حيث حرضوه على ما ينبغى فلم يقبل منهم ذلك

وكان الرومانيون قد عينوا الامير قاطون حاكما على جزيرة قبرس وقد سار حتى

وصل

وصل الى جزيرة رودس فذهب اليه بطليموس الزامر بعد خروجه من مصر ليزوره فلم يكرمه بل لامه على الخروج من المملكة وتركها وأشار عليه أن يركب معه سفنه ليوصله الى مصر ويتوسط له فى الصلح مع رعيته وأكد عليه فى ذلك فأبى بطليموس الرجوع الى بلاده قائلا ان مديد السؤال الى مساعدة رومة أهون على من عودى الى مصر لطلب الصلح مع رعيتى وفى أثناء هذه المدة كانت انقطعت أخبار بطليموس الزامر عن رعاياه ولم يقفوا له على خبر ولا أثر فظنوا أنه قد هلك وكان له بنتان كبيرتان وهما قلوبطره طروفانه وبرنيقه ثم بعثوا الى الشأم سفراء ليلتمسوا من انطيوكوس خال الملكتين أن يحضر الى مصر ليشركهما فى المملكة وقد كان انطيوكوس ملكا على الشأم ثم عزل عنها بعد طرد الرومانيين ملك الارمن وكان الذى عزله عنها هو بومبيوس رئيس رومة فكان انطيوكوس مقيما فى الشأم كآحاد الناس فلما ذهب السفراء لطلبه لم يجدوه على قيد الحياة فبهذا فاته المنصب الملوكى على مصر كما فات أهالى الاسكندرية غرضهم من التعضد به فعرض السفراء هذه المشاركة على فليبش أحد أقاربه السابقة للتملك على مصر ومدافعة الاجانب ولكن صده عن السفر الى الاسكندرية غابنيوس قائد عسكر الرومانيين حيث لم يمكنه من ذلك فاستبدله السفراء بالامير سليقوس أخى انطيوكوس فقبل المنصب وسار الى مصر فوجد قلوبطره طروفانه احدى الملكتين قد ماتت بعد ان أشركت أختها فى حكم مصر سنة كاملة ووجد برنيقة منفردة بملك مصر فتزوجها سليقوس واشترك معها فى الحكومة المصرية وبعد يسير من الزمن قتلته خنقا وتزوجت بعده ارخيلاوس كاهن هيكل البستان الذى ببلاد الارمن ويقال ان هذا الكاهن ابن متريداطس الاكبر ملك بلاد الارمن وبقيت معه

وأما بطليموس الزامر فكان قد انتقل من جزيرة رودس ووصل الى رومة وتداخل مع أرباب الحل والعقد من الجمهورية ودبر جميع ما يقدر عليه من الحيل والدسائس وتوسل الى الرومانيين ليعود الى منصبه الاصلى ويرجع ملكا على الديار المصرية وأرفقت معه الامير انطونيوس الشهير الذى صار فيما بعد قنصل رومة وكان فى وقت هذه المأمورية قد تقلد امارة قبادوقيا وبلاد

الارمن فتعهد للرومانيين بادخال بطليموس مصر وتنصيبه على مملكتها كما كان وفى أثناء ذلك حصلت مشاجرة فى رومة بين أعضاء الجمعية الرومانية وقام النزاع والشقاق الداخلى على ساق وقدم وخرج بومبيوس من مدينة رومة مغضبا فأعاقت هذه الفتن والمحن الرومانية تجهيز سفر بطليموس الى مصر بل كان خروج بومبيوس من رومة على الحالة الغير المرضية محض ضرر على بطليموس لانه كان مظاهر اله ومناصر الاغراضه فبقى بطليموس فى رومة عديم الجاه قليل الحيلة وأما أهالى الاسكندرية فانهم لما بلغهم خبر حياته وتشبثه بالسعى فى رومة لنيل مراده أرسلوا الى رومة سفراء لتثبيط همته والسعى فى نقيض مراده ونبهوا على سفرائهم أن يعددوا معايبه ويترافعوا معه بالنيابة عن الاهالى فى مجلس رومة فتحيل بطليموس الزامر فى قتل أكثر هؤلاء السفراء وكانوا تحت رياسة الاميرديون فجذب بطليموس اليه هذا الرئيس وصده عن أداء أمور يتسه اما بالرشوة أو التهديد فلم يعد الى مجلس رومة للمرافعة ولا الى التشكى لجمعية الرومانيين فلم يتم أمر قضية بطليموس الزامر وعوده ملكا على مصر الا فى سنة ٦٧٧ قبل الهجرة لما تولى بومبيوس حاكما على الرومانيين وتلقب قصنلا عليهم وتقلد هذه الرياسة العظمى فانه حين ذلك حرر الاوامر الاكيدة الى غابنيوس قائد جنود الرومانية المأمورة بالغزوة الفارسية ان يعيد بطليموس ملكا على مصر ويصحبه ليجلسه على كرسى مملكته وسلم هذه الاوامر الى بطليموس ليذهب بها الى ذلك القائد

فلما وصل بطليموس الى الشأم وجد غابنيوس عازما على عبور نهر الفرات ليعيد على مملكة من ممالك الفرس متريداطس الثالث الذى كان طرده أخوه منها وهذه المأمورية تعادل مأمورية اعادة ملك مصر الى مصر سواء بسواء بالنسبة لقائد الجنود الرومانية وانما غزوة مصر أسهل وأقرب من غزوة فارس وأربح منها بالنسبة للقائد المذكور لان فيها دراهم معدودة وبراطيل موعودة فان بطليموس قد صرح لهذا الامير بذلك ووعده بالدراهم غير مرة فلما طن فى أذنيه رنة الدراهم والدنانير رجح مصلحة بطليموس على مصلحة متريداطس الثالث فتأخرت نصرة هذا الامير ومع أن قانون الرومانيين كان يأبى خروج الولاة من ايالاتهم وأنهم انما يرسلون من يقوم مقامهم فى مثل هذه المأموريات حتى

لاتفوتهم ادارة أقاليمهم بأنفسهم فقد خالف هذه الرسوم غابنيوس وأناب عنه ولده فى ادارة الشأم مدة غيابه وسار بنفسه مع بطليموس الزامر الى مصر وقد أمدته اليهود بأصناف الامدادات وكان قائد عسكره مرقوس أنطنيوس محب بطليموس الذى سيأتى قريبا أنه يشترك مع قلوبطره ملكة مصر فى التسلط على مملكة مصر وأنه يتزوجها ويشركها فى الزينة والرفاهية المصرية فوصل هذا القائد امام مدينة فرما بمصر مع فرسانه الرومانية وتغلب عليها بدون قتال بل بخيانة المقيمين بها من اليهود فتقدم ارخيلاوس زوج الملكة برنيقة وكان شجاعا فى الحرب صنديدا شديد الطعن والضرب فهجم على جند غابنيوس الرومانى على مقربة من فرما فانهزم جيشه ودخل جيش الرومانيين فى الديار المصرية من جهة البر وكذلك دخلت سفنه قهرا من بوغاز البحر وسلكت فى النيل وسارت وهى صاعدة على ظهر هذا النهر

ومع ان أهل الاسكندرية كانوا يبغضون بطليموس الزامر فى الباطن والظاهر لانهم لا يترقبون منه الا اضمار السوء الا أنهم لما رأوه قد وفد عليهم ودخل البلاد وصار بين يديهم ورأوا أن ارخيلاوس زوج الملكة مصمم على مدافعة الرومانيين وممانعتهم وأنه يجهز الاسكندرية للمحاصرة والدفاع خافوا عاقبة هذا النزاع مع ما جبلت عليه طباعهم من الخفة والطيش وقد كرهوا المدافعة لظنهم أنها غير نافعة فكثر لغطهم واشتد سخطهم لاسيما لما رأوا ان ارخيلاوس يرسم خطوطا استحكامات هندسية ويخطط اخاديد تحفظية ويحفر الخنادق للممانعة فانهم ازدادوا حنقا عليه ومع ذلك فقد أراد أن يقاتل مقاتلة جديدة بالمهاجمة فاجتهد فى تحصيل الظفر والتأييد فخاب فى عزيمته وانهزم وقتل فى هزيمته فجلس بطليموس الزامر على سرير الملك ثانيا بعناية الرومانيين

وأما انطونيوس قائد عساكر الرومان فانه لما علم بقتل ارخيلاوس رثى لحاله وتأسف عليه وشيع جنازته بأعظم المحافل لانه كان قد أضافه قبل ذلك بمصر فأكرمه غاية الاكرام فأدى اليه بعد موته ما يليق به من كمال الاحترام وبمجرد دخول بطليموس الاسكندرية وعوده الى كرسى السلطنة المصرية سلك فى الانتقام أشنع طريقة فابتدأ بقتل بنته برنيقة وسفك دماء الاغنياء والاعيان

وضبط أموالهم وأهداها للرومانيين المتعصبين معه حيث نصروه على الاخصام والاقران ثم ذهب غابنيوس مع قائده أنطنيوس من حيث أتى متقلا بالذخائر والاموال وأبقى لبطليموس من يحرسه من فحول الرجال وهم من الغلية أى قدماء الفرنساوية

فعاد لبطليموس فى هذه المرة ملك مصر ولم يصنع فيها شيأ من المنافع كما أنها فى الدفعة الاولى لم تنتفع منه مصر بشئ ومات فى عنفوان شبابه وكان موته فى سنة ٦٧٤ قبل الهجرة فكانت مدته مع مدة من حكم قبله وبعد حكمه الاول نحو تسع وثلاثين سنة وكان قد أرسل قبل موته الى مدينة رومة سفراء ومعهم وصية لمجلس الرومانيين ليحفظها بومبيوس تحت يده مضمونها أنه أوصى بممالك مصر لاكبر أولاده وكبرى بناته بشرط عقد الزواج بينهما حين بلوغهما سن الزواج وأن يشتركا معا فى الحكومة شيوعا وأن يكون الوصى عليهما الامة الرومانية وأن تعاملهما بمنطوق العهد نامه المنعقد مع الجمهورية الرومانية والدولة المصرية

(الفصل الحادى عشر)

(فى الملك بطليموس الثانى عشر وبطليموس الثالث عشر والملكة قلوبطره)

كانت مدة ولايتهم من سنة ٦٧٤ الى سنة ٦٥٢ قبل الهجرة النبوية فتكون مدة ولاية جميعهم نحو اثنتين وعشرين سنة

وبيان ذلك أنه لما مات بطليموس الزامر تولى بعده على مصر ابنه بطليموس الثانى عشر الملقب دنيس اى الخمار عملا بوصية أبيه ولم يكن عمره الاثلاث عشرة سنة فكان قاصرا وكان عمر قلوبطره الشهيرة الموصى لها بالملك بالمشاركة مع أخيها سبع عشرة سنة فكانت أهلية السياسة والتدبير منحصرة فيها دون أخيها لعدم رشده فأقيم عليه ثلاثة أوصياء من أعيان المملكة المصرية وهم بوطين الطواشى وطيودوطس وزير الداخلية وأخيلاس رئيس الجند وكان هؤلاء الوكلاء الثلاثة أعداء لقلوبطره من حيث أغراضهم الذاتية فكانوا لا يرغبون فى اشتراكها مع أخيها فى الملك فكان اشتراكها معه صعبا على نفوسهم ولما عرضت التولية المذكورة على مجلس الرومانيين صدق

عليها جميع أربابه و بمقتضى هذا الاقرار والاستصواب صارت الملكة وأخوها بطليموس الثانى عشر منظومين فى سلك الملوك المعاهدين للرومانيين ومعدودين من أحبابهم ومحسوبيهم وفى هذا الزمن بعينه كانت رياسة الدولة الرومانية بين يدى أميرين رومانيين مشتركين وهما يولس قيصر و بومبيوس وكانت قد ظهرت بينهما العداوة وحصل الفشل الذى لا مزيد عليه وانقسم الرومانيون الى حزبين بحسب اغراض الرئيسين وانفرد كل منهما بحزبه وحصل القتال بين الفريقين المفترقين فصمم بومبيوس على أن يهاجر من رومة الى البلاد اليونانية وكانت معدودة من الايالات الرومانية وتجهز للارتحال فأرسل أكبر أولاده مع قائد من حزبه يسمى قورنليوس سيبون الى مصر ليجمع له منها عساكر يستعين بها على خصمه قيصر فأمدته قلوبطره بالزاد والراحلة واعانته بستين سفينة مصرية وبالعساكر الغلية التى كان أبقاها غابنيوس فى مصر لحرس الملوك البطالسة وقت ان أعاد بطليموس الزامر وكان عددهم خمسمائة مقاتل فسار ابن بومبيوس الى أبيه بهذه الامدادية ولم تكن على غرض أوصياء بطليموس فحقدوا على قلوبطره هذا الصنيع وحنقوا كل الحنق وحرضوا أهالى الاسكندرية على القيام عليها والخروج عن طاعتها فثارت فتنة عظيمة يخشى عاقبتها فخافت على نفسها وفرت الى الشأم مع اختها الصغيرة المسماة أرسنويه

وتصادف فى ذلك الوقت أن يولس قيصر هزم خصمه بومبيوس عند مدينة فرسة بولاية ترحاله ففر بومبيوس هاربا الى مصر وكان بطليموس الثانى عشر اذ ذاك قاصدا السفر من الاسكندرية الى الخارج ليقفوا اثر أخته قلوبطره ويحاربها فلاح سفن بومبيوس وعلم انه جاء الى مصر مستجيرا به لما له عليه من اليد البيضاء حيث أعانه على توليته ملك مصر فلما رأى بطليموس أن بومبيوس جاءه نزيلا مستصرخا يحتمى من قيصر لم يحسن نزله ولم تأخذه النخوة الملوكية ولا الفتوة والاريحية على أن يحمى نزيله لاسيما وان له عليه سابقة معروف واحسان بل عامله معاملة الخائن الجبان المقابل النعمة بالكفران فقتله ليشمت فيه خصمه ولم يراع حقوق المنة والنعمة فشتان بين صنيع بطليموس ملك مصر و بين صنيع محمد بن معاوية عامل مصر حيث أجار رجاء بن روح من

صالح بن علي في أيام الخلفاء العباسية وذلك انه لما ولي صالح بن علي على مصر من قبل ابن أخيه أبي العباس السفاح خرج عليه رجاء بن روح بفلسطين مع عمه الحكم بن ضبعان المتولي على شرطة مصر فأرسل اليهم صالح بن علي أبا عون ومحمد بن أشعث الخزاعي فهزما الحكم وبلغ صالح بن علي ان رجاء بن روح دخل مصر واستجار بمحمد بن معاوية فأجاره فأرسل اليه فحضر فقال له ألم أكرمك ألم أشرفك قال بلى فقال جزائي منك ان أجرت عدوي قال ومن ذاك أيها الامير قال رجاء بن روح فأت به قال أصلح الله الامير اختر واحدة من اثنتين لي فيهما براءة امّا ان أثلج صدرك باليمين أو ترسل رجلا من ثقاتك يفتش منازلي قال أو تحلف قال نعم فأحلفه بطلاق زوجته وعتق عبيده ومشيه الى مكة راجلا حافيا لخلف محمد بن معاوية له ثم انصرف الى منزله وأعلم زوجته فاعتزلت عنه وقالت له لا تنقطع عني لئلا يشعر بك فلما عزل صالح بن علي عن مصر ورجع الى بغداد أظهر محمد بن معاوية طلاق زوجته وأعتق رقيقه ومشى الى مكة كما شرط عليه وما أحسن قول الشاعر

هو المرء أمّا ماله فمحلل * لعاف وأمّا جاره فمحرّم

فبطليموس ملك مصر لم يرع حق الجوار كأحد ولاة مصر في أيام الاسلام فلما حضر قيصر بنفسه امام الاسكندرية متتبعا خصمه وكان بطليموس اذ ذاك بقرب فرما يريد السفر الى الشأم رجع حالا الى الاسكندرية ولما أرسى قيصر على برّ الاسكندرية حضر طيودوس وزير بطليموس الى بولس قيصر برأس بومبيوس ووضعها بين يديه فكان أول شيء وقع عليه بصر قيصر رأس خصمه فلم يتمالك قيصر نفسه من اسالة الدموع على قرينه ورثى لحاله وأظهر الاسف والحزن وجهز جنازته بكمال الاحتفال كما يليق بمقام فحول الرجال والامراء الابطال ومع انه كان هزمه وانتصر عليه في حال حياته نصرة عجيبة والجاه الى الهروب الى مصر فقد أحسن معه الصنيع بعد موته وعامله بمكارم الاخلاق اللائقة بأكابر الامراء وأمراء الاكابر وسيأتي انه ولو أمهل بطليموس وأبقى عليه الا انه سجنه ثم أطلقه بشروط ثم غزاه وأغرقه هو وجنده في النيل وما هذا الا للأخذ بثار انطنيوس فشتان بين سوء خلق بطليموس وحسن خلق قيصر فذهب الملق قديم ولا يأباه الاكريم

لم يبق فى الناس الا الشوك والملق * شوك اذا اختبروا ورد اذا رمقوا
فان دعاك الى ايلافهم قدر * فكن سعير العل الشوك يحترق

وما فعله قيصر فى حق بومبيوس بعد قتله نظير ما فعله الاسكندر الاكبر فى حق دارا خصمه بعد موته بقتل أتباعه له فانه أسف عليه غاية الاسف وقتل قاتله وأما قيصر فلما وجد خصمه قد مات مقتولا ولم يكن لمحاجة بمصر غير قطع عرق النزاع مع خصمه قصد الرحيل منها حالا الى مدينة افريقية بالمغرب وكان قد تجمع فى هذه المدينة ما بقى من أحزاب بومبيوس ولكن عاقه عن السفر اختلاف الرياح فأقام بالاسكندرية نزهة بل كان الموجب الحقيقى لاقامته بالديار المصرية انما هو تعلقه بقلوبطره لانها كانت بديعة الجمال وكان قد أحضرها معه من الشأم الى مصر وأعادها ملكة كما كانت وأصلح بينها وبين أخيها بطليموس الثانى عشر

وكان أهل الاسكندرية يتشبثون دائما باستقلال وطنهم ويتغالون فى محبة حريتهم ويكرهون توسط الرومانيين فى المصالح المصرية فلما حضر قيصر بمصر وأصلح بين قلوبطره وأخيها بطليموس المذكور أغضب ذلك المصريين فتظلم بوطين الطواشى للوجوه والاعيان من هتك ناموس المملكة المصرية وعدم رعاية حرمتها من طرف قيصر الذى لم يراع حقوق مصر ثم امر بوطين المذكور الامير أخيلاس قائد الجيوش المصرية أن يهجم على الاسكندرية ويقاتل بطليموس المذكور وكان قيصر قد أمر بصرف جنوده وتخلية سبيلهم وخروجهم من الاسكندرية حيث لا حاجة له بهم فلما هجم جند مصر على بطليموس دبر هذا الملك الهروب من قصره ولحق بعسكر قيصر ليحتمى فيه ولم يكن مع قيصر من العساكر بجهة الاسكندرية الا ثلاثة آلاف نفس فكان فى حيرة عظيمة فى أمر هذه المدينة العامرة الغاصة بالاهالى المطبوعين على خلع ملوكهم فاراد قيصر تسكين الفتنة وتلى عليهم وصية آخر ملوكهم ووعظهم الموعظة الحسنة ليدفعهم بالتى هى أحسن وأمرهم بأن يعطوا جزيرة قبرس لذرية بطليموس الزامر وهما أرسنويه وبطليموس القاصر ليشتركا فى مملكتها وألزمهم ذلك بوصف كونه رئيس الرومانيين ومنفذ وصية ملك مصر وكالناظر الحسبى على مصالحها وان توسطه ليس من تلقاء نفسه ولا لاظهار جاهه

فسكنت الفتنة سكوناً وقتيا ثم هاجت ثانيا بتحريض الوزراء الاوصياء لما وجدوا ان وصايتهم قد زالت وان تصرفهم قد انتهى بانتقاله منهم الى الرومانيين فحرضوا جميع الاهالى على القتال واتحدوا بوطين الطواشي بالامير أخيلاس قائد الجيوش المصرية وغيرهم وصمموا على اهلاك قيصر ومن معه من الرومانيين بالاسكندرية فجاء أخيلاس اليها بجيشه وكان يبلغ اثنين وعشرين ألف مقاتل ونصب معسكره أمام الاسكندرية وأفاد الرومانيين أن تسكين الفتنة لا يكون بدون تسليم قالوبطره للاهالى لينتقموا منها كما يشاؤن فلم يرض قيصر بتسليمها واختار الاقامة فى الاسكندرية محصوراً أو مسجوناً وآثر المكارة الشديدة على تسليم هذه الملكة للاهالى يستبيحون دمها ورأى أن ذلك مخل بناموسه وموجب لاتصافه بالخسة ودناءة الهمة فشرع أهل الاسكندرية فى وضع يدهم على سفنه واستيلائهم عليها فلم يمكنهم منها بل أضرم فيها النيران حتى انتشرت الحريقة منها الى القصر الملوكى واحترقت كتبخانة البطالسة الموصلة الى هذا القصر وقد سبق انهم جمعوا فيها عددا كثيرا من كتب الدنيا مع ما تجدد عندهم من التآليف العديدة ومن هنا يتضح ان نسبة حرقها الى عمرو بن العاصي بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنهما انما هو من اشاعة المؤرخين الذين لا علم لهم بالحريقة المذكورة الواقعة فى أيام البطالسة فلا معنى حينئذ لمن يشن الغارة باللوم على أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه بأنه حرق كتب العلوم الاولية وبينما كانت عساكر قيصر القليلة العدد الكبيرة الشجاعة مشرفة على فتور الهمة مما قاسوه من النصب والتعب انجاءهم الفرج على حين غفلة بقدوم فرقة عسكرية وذخائر وامدادات حضرت اليهم من رومة فاستقبلها قيصر بنفسه فبهذه الامدادية المنضمة الى العساكر البحرية انتصر قيصر على أهالى الاسكندرية وهزمهم شر هزيمة حتى التجؤا الى طلب الصلح من قيصر وأرسلوا اليه من طرفهم رسلا مفوضين فى ذلك فالتمس منه الرسل اطلاق بطليموس الثانى عشر وكان محجوزا عنده فصالحهم على اطلاقه بشروط معلومة وأطلقه مع علم قيصر بغدره وخيانته وانه خصمه ولكن آثر الاسكندر أن يكون خصمه ملكا وان يكون حربه مع هذا الملك دون الاهالى لان الحرب مع ملك يجمع عساكر معينة محكمة

يستعين بها على خصمه أسهل من الحرب مع الاهالى بتمامها حيث لا يمكن القبض على جملة الاهالى فضربة الملك الملك مثله وحربه معه أولى وأقرب من ضربته لاهالى مملكة بتمامها وحربه معهم وأقرب للانتصار

فبمجرد ما تخلص بطليموس الثانى عشر من قبضة قيصر أظهر للرومانيين أشد المعاداة وقصد قيصر بالمضرة والايذاء ولكن من سعد قيصر حضور متريداطس والى برغام لمساعدة قيصر مع الجنود الرومانية التى كانت فى اناطلى والشأم وفلسطين وكان قد هجم على عساكر قيصر جيش مصرى يمنعه من المرور بالشأم فهزمته عساكر اليهود ووقع حرب عظيم آخر بين قيصر وبطليموس على سواحل النيل فهلك فى هذه الواقعة بطليموس الثانى عشر عقب انهزامه وفراره مع فرقة عظيمة من جيشه غرقوا جميعا فى النيل وقذفتهم الامواج على الساحل فعرفت جثة بطليموس بما وجد بها من الدرع المصوغ من الذهب الذى كان متدرعا به وكان موته فى سنة ٦٦٩ قبل الهجرة بعد أن حكم خمس سنوات

وبعد موته جلس أخوه بطليموس الثالث عشر على سرير الملك بأمر قيصر لان قيصر تغلب فى غزوته التى مات فيها بطليموس على الاسكندرية ومصر فكان يقتدر أن يجعل مصر ولاية رومانية من جملة عموم ولايات الجمهورية الرومانية ولكن استصوب تنفيذ وصية بطليموس الزامر وآثر تنفيذها على شفاء أطماعه فولى بطليموس وكان قاصرا مملكة مصر ليشترك مع أخته قلوبطره فى الحكم وأبقى لحرس قلوبطره وصيانة مملكتها فرقة عسكرية غلية أى فرنساوية خيفة من أن ينزع احد الملك من يدها واستصحب معه الى رومة أختها رسنويه لانها لو بقيت فى مصر لحصل بوجودها فى المملكة فتنة عظيمة فوصلت هذه الاميرة الى رومة أسيرة كأنها غنيمة من جملة ما اغتنمه قيصر من مصر ودخلت فى رومة فى الموكب المنعقد لقيصر وقت دخوله فى رومة نحن هذا الوقت صارت قلوبطره قابضة على زمام مملكة مصر ولهادون غيرها فى المملكة الحل والعقد وأما زوجها الذى هو أخوها فكان ملكا صورة فقط

وفى سنة ٦٦٨ قبل الهجرة يعنى بعد جلوس بطليموس الثالث عشر على كرسى المملكة بسنة واحدة سارت قلوبطرة هى وزوجها الى رومة فتلقاهما

الرومانيون تلقى المحبين المتعاهدين مع الرومانيين وبعد سنتين من هذا التاريخ مات بطليموس الثالث عشر عقب ثلاث سنوات من حكمه ويقال ان أخته قلوبطره سمته

ومادام قيصر على قيد الحياة لازالت قلوبطره باقية بحمايته وجاهه تحت عناية رومة وحمايتها ومن هنا يعلم ان ملك مصر فى ذلك الزمن كان متعلقا برومة غير مستقل بنفسه وكان فى حمى الرومانيين وقد اتفق فى تلك الازمان أن قيصر عظم بأسه وقويت شوكته وظهر منه قصد التعدى على الجمهورية الرومانية وحرمانها من الحرية وانه اذا دام على هذه الحالة تسلطن عليها حسا ومعنى وكان حزب الجمهورية قويا وكان فيهم شجاع يسمى بروطوس دعى مجهول الأب الا أنه كان مشهورا بمذهب الحرية ومتعصبا للجمهورية وكانت أحزاب الجمهورية قد أضمرت على التخلص من رياسة قيصر بقتله فحرضوا بروطوس على ذلك وقالوا له لو كنت شجاعا ما بقينا فى العبودية على هذه الحالة فتمكن الاغراء من قلبه وقال للاحزاب دليل شجاعتى اطلاقكم من أسر العبودية وجرد خنجره وأقبل على قيصر فى المحفل العام بالمجلس وطعنه به فرفع عينيه قيصر اليه وصاح قائلا قد طعنت يدى ولدى وفى الحقيقة كان بروطوس بن قيصر من السفاح والى وقت قتله اقيصر لم يعلم انه أبوه فندم على ذلك وخلص الرمانيون من قيصر ووقعوا فى أسر من هو أشد منه وهو أغسطوس قيصر أول ملوك القياصرة كما سيأتى قريبا فى الدولة الرابعة والعشرين

فلما قتل قيصر محبوب قلوبطره كان يخشى على مصر من هجوم قسيوس الرومانى حاكم الشأم فخاطرت قلوبطره بنفسها والتجأت الى المجلس الرومانى وتوصلت بعد موت أخيها الى تمليك أصغر أولادها التى زعمت انها ولدته من قيصر واقبته بطليموس قيصرون يعنى القيصر الصغير ويجعله بعض المؤرخين بطليموس الرابع عشر وكان أنطنيوس أحد الشركاء فى دولة الرومانيين قد عشق قلوبطره بمجرد ما رآها بعد موت قيصر وحماها حماية كاملة وفيما بعد تزوج بها وارتبط بحبته بحبتها وتحتنه بحتها فكأن لسان حالها فى هذه الحالة ينشد

ان ضاق بي بلد يممت لي بلدا * وان نأى منزل بي كان لي بدل
وان تغير لي عن وده رجل * أصفى الموتة لي من بعده رجل
لم يقطع الله لي من صاحب أملا * الا تجدد لي من صاحب أمل

و بيان ذلك ان أنطنيوس لما أدخل قلوبطره تحت حمايته كان قد قصد أن يسافر للغزو في مملكة من ممالك العجم وكان قد ارتاب في سياسة هذه الملكة واشتبه في أمرها وخشي أن لا تكون صادقة في محبتها فتساعد أخصامه عليه فأراد أن يتحقق أمرها ويعلم حقيقة سلوكها معه تفصيلا فشدد عليها في الامتحان والاختبار حتى طلب منها مقادير جسيمة من المال فلم تقصر في ذلك فعزم عليها أن تسير من مصر بعد وصوله الى مدينة طرسوس وتصل اليه هنالك وتبادر بمقابلته فيها وكانت قلوبطره تعلم منزلتها عنده ومالها في قلبه من شدة المحبة وانها متسلطنة على فؤاده فسلكت مسلك الدلال والفخر ولم تبادر كمرغوبه الى السفر بل أخرت المسير الى جهة طرسوس ثم لما حملها الهوى على المسير سارت حتى وصلت الى ايالة سلفقة فركبت نهر قراصو وهو نهر طرسوس وسارت في سفينة مذهبة الاطراف والاكناف أرجوانية القلوع والستائر الحرير وكانت أمواج البحر تضطرب بالنسمات على نغمات العيدان والمزامير وروائح البخور يعبق شذاها بسائر الارجاء فتكتسب الروائح المسكية ويفوح منها الى سائر النواحي روائح الطيب الزكية حتى امتلأت شواطىء النهر من رياها فلما لمح أهالي مدينة طرسوس انه قد هل عليهم كوكب الزهرة المصرية وموكب مليكة الجمال القيصرية ولاحت أنوارها الاشراقية بآفاقهم المشرقية هرعوا جميعا الى هذا النهر للتملي برؤياها والتعطر برياها وكل استقبل جميل محياها وبتحية الملوك حياها ولم يتخلف الا انطنيوس اذ بقي في مجلسه السعيد ولم يسع لاستقبال هذا القمر المنير من بعيد بل استدعاها أن تحضر امامه حيث قدمت الى المدينة بالسلامه فلم ترض هذه الملكة الا بسعيه اليها على الاقدام وقد وسمه عليها أولا لاظهار التبجيل والاعظام فأجاب الى مطلوبها ولبى دعوتها كمرغوبها وكانت على غاية من البهاء والجمال ونهاية من التزين بأفخر ما عندها من حلل الكمال فتعجب انطنيوس من زهوها وبهائها بهذه الحالة وسحرت لبه بما كانت عليه من الجمالة والجلالة فأدخلها في مجلسه الملوكي

الفائق فخطرت كغصن البانة المتأود فحق للسان حال انطنيوس أن ينشد

بحسن يوسف من مصر بدت ملكه * والنهى نصبت من دلها شبكه
مصرية لملوك الروم ساحرة * هندى الحاظها من صابه فتكه
لاغرو ومن فلك يرتج ان خطرت * فكم لدى الفلك الدوار من حركه
يطالع القلب باب الاختصاص بها * وقد غوى فى الهوى من يقبل الشركه

ثم هيأ لها من الوليمة الفاخرة ماهو بمقامه ومقامها من اللائق فابتهج مجلسه بها كمال الابتهاج وانتقشت اشعة ماعليها من الجواهر والملابس الزهية على ارجاء المحل فكانت كالسراج الوهاج فكان المجلس يسطع على جوانبه أنوار الاشكال المتنوعة ويتلألأ على اطرافه واكنافه لوامع أنوار الاجسام النورانية المجتمعة فاتحدت الانوار الحسية بالمعنوية فى محفل هذه الوليمة البهية وما ذلك كله الا من بهجة هذه الملكة المصرية فمن هذا الوقت أخذت بمجامع عقل أنطنيوس وسحرت لب هذا البطل وشموس الحسن المصرية تستولى على النفوس فجعلته من هذا الوقت طوع يدها وأسير قيدها فجلبته معها الى الاسكندرية وانعقد بينهما عقد الزوجية وذاق معها فى هذه المدينة نعيم الوصال وتلذذ منها بشهى طعم الحسن والجمال وذهل بطريقته عن وظيفته وبيت قصده عن تمام مقصوده وما فصله عن تواصل هذه اللذات ولا أخرجه من التمتع بجمال هذه الذات الا تهديده من مجلس رومة بتجرده من منصب الحكومة وخوف انفراد اقطاوس قرينه بالرياسة واستبداد شريكه دونه بالسياسة فخرج من مملكة مصر مكرها لا بطل ونهض الى ايطاليا على عجل ثم سار من ايطاليا الى ايالة الشأم ليجهز فيها مواد الحرب لغزو الاعجام فقابلته قلوبطره فى البلاد الشامية لقضاء الاوطار وتمنت عليه أعظم أمنية اذ التمست منه أن يضيف الى المملكة المصرية جميع مدن السواحل الشرقية الواقعة على بحر سفيد لتوسيع دائرة ملك مصر على وجه مفيد وأن يضاف الى مصر أيضا جزيرة قبرس وجزء من أناطول وبلاد يهوذا الموصوفة بالبلسم فى تلك الازمان والتمست أيضا أن يعطى لها بلاد العرب والحجاز الموصلة الى بحر الهند لتكون هذه البلاد مضافة لدولة الاسكندرية لما أن أهلها أرباب حركة صناعية وادارة تجارية

فبهذه الاضافة يتم للاسكندرية صفة المركزية العمومية لتعود بها المعاملات كالزمن القديم وتعوض مافات فان الاسكندرية كانت تلاشت تجارتها وتضعضع حال معاملتها من منذ تدمير مدينة صور التى هى قرينة الاسكندرية ومن وقت انقراض مملكة العجم لم تبق لكل من مدينة صور والاسكندرية الا الشهرة الظاهرية الصورية

فقبل أن يهجم أنطنيوس على بلاد الاعجام عرج على مصر لاجابة التماس هذه الملكة ونظمه على أبدع نظام فلما دخل الى الاسكندرية أطال المكث مع الزهرة المصرية ولم يستطع الخلاص من أسر جمالها بل نسى مقام وظائفه الرومانية واستعوض أعمالها باهمالها بل شرع فى مقدمات اضعاف مصالح الجمهورية الرومانية وابطالها فاعطى عنوان الملك لاولاده من قلوبطره وقسم الممالك التى يؤمل فتحها بينهم دون سواهم وجرد رومة من هذه الممالك ولم يراع حقوق الرومانيين وخالف هواهم فجعل ابنه اسكندر ملك أرمينيه وأذربيجان وفارس وقلد ابنه الثانى بطليموس ملك سواحل الشأم ودمشق اناطول وأحضر هذين الولدين أمام الاهالى بالمظهر الملوكى المعتاد فألبس ابنه الاكبر التاج الملوكى والحلة الملوكية فى زى ملوك الارمن وأذربيجان وألبس الثانى التاج الملوكى والحلة الملوكية فى زى ملوك الطوائف الذين خلفوا اسكندر على الممالك اليونانية ومن هذا الوقت صارت قلوبطره لاتخرج من قصرها الا بالملابس الملوكية الرسمية الموكبية اللائقة لملكة مصر والرومانيين برسم كونها ملكة مصر بالوراثة عن أسلافها وبرسم كونها زوجة ملك الرومانيين الذى هو أجل ملوك الدنيا وبرسم كونها أم الملكين العظيمين اللذين علكا على ممالك العجم فصارت لاتظهر الا بهذا المظهر العظيم

وقد كان فى عصمة أنطنيوس زوجة أخرى رفيعة الحسب والنسب وهى أوقطاوية أخت أوقطاوس شريك انطنيوس فى الرياسة الرومانية فبالزواج على أخته حصل الشقاق والعداوة بين الشريكين وفارق أنطنيوس زوجته أوقطاوية واقتصر على قلوبطره وكانت مملكة الرومانيين اذذاك أعظم ممالك الدنيا مجدا وشأنا وكانت تحت رياسة أنطنيوس وأوقطاوس وكانا مشتركين

فيهما أشيوعا ولهما عليها اليد العليا ولم يكن حاكم هذه الجمهورية غيرهما الا مجلس الجمهورية الذى له حق التصرف بالحل والعقد فى هذه المملكة العظيمة فتظلم أوقطاوس من خصمه لهذا المجلس الذى هو بمنزلة محكمة عليا تبت الاحكام بين الاخصام ورفع دعواه واتهم أنطنيوس بأنه خرق الدولة الرومانية وأدخل قيصرون فى وراثة قيصر مع أنه ابن سفاح فحكم المجلس الرومانى بعزل أنطنيوس من رياسة الجمهورية واعلان الحرب مع قلوبطره مملكة مصر وبالضرورة صار أنطنيوس من ذلك الوقت عدوّا لاوقطاوس وقد قال أوقطاوس لمجلس الجمهورية لا يسوغ لنا أن يكون الحرب بيننا وبين أنطنيوس لأن الشراب المصرى قد أسكره وذهب بعقله فلا يكون حربنا الا مع أتباع الملكة قلوبطره وأمراء جنودها يشيرون بذلك الى أنه مخمور لا يكاد يصحو فلو كان كعنترة العبسى وانتصر عليهم حين غزوه لرد عليهم بمثل قوله

وإذا شربت فاننى مستهلك * مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى * وكما علمت شمائلى وتكرمى

وقد أخذ هذا المعنى ابن حمديس وزاده حسنا فقال

يعيد عطايا سكره عند صحوه * ليعلم أن الجود منه على علم
ويسلم فى الانعام من قول قائل * تكرم لما خامرته ابنة الكرم

لكن أنطنيوس صدّق القول بالفعل بفراره وعدم قراره قال ابن الرومى

* والله ما أدرى لأية علة * يدعونها فى الراح باسم الراح
الريحها أم روحها تحت الحشا * أم لارتياح نديمها المرتاح

فاستعدّ كل من الفريقين للحرب وخرجت قلوبطره بنفسها للغزو وأصحبت معها أنطنيوس الى محل الواقعة البحرية وهو مدينة أكسيوم التى هى مدينة أزيو بساحل روم ايلى فكانت ميدان القتال بين أنطنيوس وأوقطاوس فأمدّت قلوبطره أنطنيوس وحزبه بمائتى سفينة بحرية واجتهدت فى احياء همة الجنود ونشاطهم لكى تنتصر على أوقطاوس ويكون فخر نصرة السفن المصرية عائدا عليها بالمجد والفخار

ولو أن ما أسعى لادنى معيشة * كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل * وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

فجعلت

فجعلت مدار الحرب على جنودها البحرية لتغلب خصمها بجندها فحصل القتال بين سفن الرومانيين والسفن المصرية وكان الحرب بينهما سجالا فلم ينتصر أحد الفريقين على الآخر انتصارا قطعيا حاسما للنزاع فبينما الامر كذلك اذ سارت ستون سفينة من سفن قلوبطره بقوة المجاذيف وانفصلت من بين سفن أنطنيوس وهربت صوب جزيرة المورة وفيها الملكة قلوبطره هاربة من القتال والهروب نصف الشطاره فارّة من مضمار النزال اما لان الحرب أفزعها والطعن والضرب روّعها فخافت على نفسها من الهزيمة التى عاقبتها ذميمه أو أنه حصل بينها وبين أوقطاوس اتفاق سرىّ ودسائس مكتومه ومواعدة بينه وبينها فغدرت بقرينها حيث وجدته قرين سوء

ذهب الحمار ليستفيد لنفسه * قرنا فآب وماله أذنان

فلما رآها أنطنيوس قد أدبرت ولى مدبرا وراءها اما جبنا منه أو اقتفى أثرها للتعلق بها وعدم القدرة على فراقها كما قيل

يوم الفراق لقد خلقت طويلا * لم تبق لى جلدا ولا معقولا
لو حار مرتاد المنية لم يجد * الا الفراق على النفوس دليلا
قالوا الفراق فقلت شككت بأنها * نفسى عن الدنيا تريد رحيلا

وبالجملة فقد هرب كل منهما الى مصر ولسان حالهما يقول

وما أدرى اذا يممت أرضا * أريد الخير أيهما يلينى
أألخير الذى أنا أبتغيه * أم الشرّ الذى هو يبتغينى

فاقتفى أثرهما أوقطاوس وسلمت اليه قلوبطره مدينة فرما التى هى مفتاح الديار المصرية وأرادت بهذه الخيانة أن تتحبب اليه حتى ينتهى الحال بها أن تتنصل من أنطنيوس وكان أنطنيوس لسوء حظه يعتمد على أمانتها ولا يخطر له فى بال انها سلمت مدينة فرما قصدا ولو قيل له ذلك لا يصدقه

يقضى على المرء فى أيام محنته * حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

لا سيما وأنه فى يوم وصول أوقطاوس أمام مدينة فرما كان أنطنيوس دخل الاسكندرية وأطلع الملكة على دفتر العساكر الذين حاربوا معه وامتازوا فى الواقعة وكل هذا لم يجذب قلبها اليه فصارت لا تعول على كلامه ولا تعتمد عليه وكأنها تقول

كنت بدرا وكان قلبى أفقا * ومليكا ولا أخالف أمرك
فاعترا الكسوف والملك ولى * عظم الله فى المحاسن أجرك

وفى اليوم الثانى من دخوله الاسكندرية خانته العربان وتحزبوا عليه مع خصمه وانفصل عنه العساكر المشاة وانضمت السفن المصرية الى سفن قيصر ورون ولا شك أن هذه فعلة قلوبطره لانها جردت أنطنيوس من جميع الجنود حتى من السفن البحرية التى كان يمكنه أن ينجو بها من خصمه فهذا كله عين الخيانة وان لم يستشعر بها أنطنيوس ولكن كاد المريب أن يقول خذونى لان قلوبطرة أحست بسوء فعلتها وحاك اثم الفعلة فى صدرها فخافت من انتقام أنطنيوس اذا علم الحقيقة

ومهما يكن عند امرئ من خليقة * وان خالها تخفى على الناس تعلم

فاختفت مع أموالها فى مدفن حصين كانت شيدته لتدفن فيه فكأنها مصداق ما قيل

جعلت حقيبة الاطماع يأسا * فآوانى الى كهف وديع
ركبت مطية الاقبال غفلا * بلا رحل يشد ولا شسوع

فاحتمت فى هذا المحل وأشاعت انها تريد قتل نفسها وتواتر الخبر بذلك حتى بلغ أنطنيوس فعزم أيضا أن يقتل نفسه حتى لا يعيش بعدها فأشار الى مملوكه بتنجيز هذه الفعلة فرفع المملوك سيفه مظهرا قتل سيده وطعن نفسه بالسيف ولم تسمح نفسه بقتل مولاه فخجل أنطنيوس من ذلك وطعن نفسه بخنجره ولم يمت فى الحال وقد علم قبل ازهاق روحه أن قلوبطره لم تزل على قيد الحياة فطلب من أتباعه أن ينقلوه اليها ليجتمع بها قبل موته

تمنيت من حبى بثينة أننا * وئدنا جميعا ثم نحيا ولا أحيا
فترجع دنياها عليها وانني * بساعة ضمها رضيت من الدنيا

فلم تفتح له باب محلها بل أدنته من شباك المحل وأنزلته فى جهة من المدفن فمات فيه وما هذه الايام الا صحائف * نؤرخ فيها ثم نمحى ونمحق

ولم أر عيشا مثل دائرة المنى * توسعها الآمال والعيش ضيق

وكان قد بلغ اوقطاوس أن قلوبطره تريد أن تقتل نفسها فأرسل اليها من جنده من يمنعها من ذلك فدخلوا من ذلك الشباك فوجدوا فى حزامها خنجرا

كأنها

كأنها كانت تقربه على بطنها ورأوها على هيئة من يعمد الى طعن نفسه وفى الواقع أنها كانت لا تحب قتل نفسها وانما كانت تظهر ذلك لأمل أن تفتن أوقطاوس كما فتنت عمه قيصر فخاب ظنها فى ذلك ولم يلتفت اوقطاوس الى اجمالها ولا مال قلبه اليها

لست ممن غوى هواه بريم * أو ظباء لها القنا كالكناس
ان دنت دارها فلبى لبى * أو نأى ربعها فلست بآس

فلم يلتفت الى تهديدها اياه بقتل نفسها اليصعب على نفسه ذلك

تهددنا وتوعدنا رويدا * متى كنا لامك مقتوينا

فلما أيست منه بالكلية صممت على قتل نفسها فأمسكت عن الشراب والطعام وواصلت الصيام لفهمها ان غرض أوقطاوس أن يوقعها فى أسره ويذهب بها الى رومة ويدخل بها فى موكب عظيم من جملة الغنائم المصرية مغلولة العنق وربما ربطها خلف عربته ويدخل بها رومة على هذه الحالة المعرة فقتلت نفسها شر قتلة حتى لا تكون عند أعدائها مثلة ومع ان أوقطاوس كان يرسل اليها يصدها عن قتل نفسها ويتوعدها بقتل أولادها بعدها ان فعلت ذلك لم ينفع التهديد ولا التحذير بل كان ما كان من قتلها مما جرت به المقادير

من نال من دنياه أمنية * أسقطت الايام منها الالف

فوجدوها ذات يوم من الايام ميتة فى وسط نساء مقتولات معها وجميعهن نيام فكانت هى نائمة على فرش من الذهب الابريز وعلى جبينها تاج الملك لهابه على صويحباتها كمال التميز وكانها متجملة بجميع زينتها الملوكية ليوم عيد وهو فى الحقيقة يوم وعيد أو لمراسم رسمية

فالدهر يرقص والايام تنشده * هذا هو العيش لولا أنه فانى

واختلف فى طريقة قتلها لنفسها فقيل انها تعاطت لذلك السم الناقع والمتواتر انها كانت أحضرت ثعبانا عظيما أخفته فى وعاء مملوء من التين مدة طويلة فلما خرج اليها الثعبان من الوعا قالت له قد حان وقتك وقد حضرت هنا فدب لقتلها وسعى هذا ما تداول فى ذلك الوقت على لسان العامة واعتقد صحته أوقطاوس حتى انه لما عاد الى رومة صور تمثال هذه الملكة وجعل فى جانب

صورتها تعبانا ينهشها وكان موتها سنة ٢٥٦ قبل الهجرة
وقد وقع نظير ذلك تقريبا للزباء المتولية على ملك أبيها بالعراق مع جذيمة الابرش ملك الحيرة الا أن الزباء سلكت فى جميع سلوكها مسلك الابطال ولم تطمع فيها أحدا من الرجال وشتان بين العصمة العربية وعادة اليونان الابتذالية وكانت واقعة الزباء بعد واقعة قلوبطره بنحو ستين سنة لانها كانت بعد ميلاد عيسى بثلاثين سنة وبيان خبر الزباء مع جذيمة أن جذيمة كان من العرب الاولى من بنى اياد وكان فى أيام ملوك الطوائف وكان قد ملك شاطىء الفرات الى ما والى ذلك الى السواد ستين سنة وكان الملك قبله أباه وهو أول من ملك الحيرة وهى بلدة قديمة كانت على ساحل البحر بقرب الكوفة وكان فى قديم الزمان بحرا والآن ليس بها أثر بل آثارها طامسة وكانت الحيرة منزلا لملوك بنى لخم وهم كانوا ملوك العرب فى قديم الزمان واياهم أراد الاسود بن يعفر فى قوله

ماذا أؤمل بعد آل محرّق * تركوا منازلهم وبعد ايادى
أهل الخورنق والسدير وبارق * والقصر ذى الشرفات من سنداد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم * ماء الفرات يجىء من أطواد
أرض تخيرها الطيب مقيلها * كعب بن مامة وابن أمّ دواد
جرت الرياح على محل ديارهم * فكأنهم كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة * فى ظل ملك ثابت الاوتاد
فاذا النعيم وكل ما يلهى به * يوما يصير الى بلى ونفاد

ويروى عن أبى أمية شريح بن الحرث القاضى بالكوفة الذى يضرب به المثل فى العدل وتدقيق الامر انه جاء رجل عنده لشهادة فقال ممن الرجل قال من بنى فلان قال أتعرف قائل هذا الشعر

ماذا أؤمل بعد آل محرّق * تركوا منازلهم وبعد ايادى

قال لا فقال توقف يا وكيل فى شهادته فان من كان فى قومه رجل له هذه النباهة وهو لا يعرفه أظنه ضعيفا وكان جذيمة هذا يغير على ملوك الطوائف حتى غلبهم على كثير مما فى أيديهم وهو أول من أوقد الشمع ونصب المجانيق للحرب واول من اجتمع له الملك بأرض العراق وكان قد قتل أبا الزباء ملك الجزيرة ويعدّ من ملوك الطوائف وغلب على غالب ملكه وألجأ الزباء الى اطراف

تملكها وكانت عاقلة أديبة فبعثت اليه تخطبه لنفسها ليتصل ملكه بملكها فدعته نفسه الى ذلك فشاور وزراءه فكل أشار عليه أن يفعل الا قصير بن سعد فانه قال له أيها الملك لا تفعل فان هذه خديعة ومكر فعصاه وأجابها الى ماسألت فقال قصير عند ذلك لا يطاع لقصير رأى وقيل أمر فأرسلها مثلا ولم يكن قصيرا ولكن كان اسماله ثم انه قال له أيها الملك أما اذا عصيتني فاذا رأيت جندها قد أقبلوا اليك فان ترجلوا وحيوك ثم ركبوا وتقدموا فقد كذب ظني وان رأيتهم اذا حيوك طافوا بك فاني معرض لك العصا وهي فرس لجذيمة لا تدرك فاركبها وانج فلما أقبل جيشها حيوه ثم طافوا به فقرب قصير اليه العصا فشغل عنها فركبها قصير فنجا فنظر جذيمة الى قصير على العصا وقد حال دونه السراب فقال ماذل من جرت به العصا فأرسلها مثلا وأدخل جذيمة على الزباء وأفهمته أنها ليس عندها متاع عروس وأنها لا تصلح للتمتع واحياء النفوس وأمرت باجلاسه على نطع وقطع رواهشه أي العرقين اللذين في باطن ذراعيه فقطعت رواهشه وكان قد قيل لها احتفظي بدمه فانه ان أصاب الارض قطرة من دمه طلب بثأره فقطرت قطرة من دمه في الارض فقالت لا تضيعوا دم الملوك فقال جذيمة دعوا دما ضيعه أهله فلم يزل الدم يسيل الى أن مات ثم ان قصيرا أتى عمرا ابن أخت جذيمة وأخبره الخبر وحرضه على أخذ الثأر واحتال لذلك بان قطع أنفه وأذنيه ولحق بالزباء وأخبر أن عمرا فعل به ذلك وانه اتهمه بممالأته له على خاله فلم يزل يخدعها حتى اطمأنت له وصارت ترسله الى العراق بمال فيأتي الى عمرو فيأخذ منه ضعفه ويشتري به ما تطلبه ويأتي اليها به الى أن تمكن منها وسلمته مفاتيح الخزائن وقالت له خذ ما أحببت فاحتمل ما أحب من مالها وأتى عمرا فانتخب من عسكره فرسانا وألبسهم السلاح واتخذ غرائر وجعل أقفالها من داخل ثم حمل على كل بعير رجلين معهما سلاحهما وجعل يسير النهار حتى اذا كان الليل اعتزل عن الطريق فلم يزل كذلك حتى شارف المدينة فأمرهم فلبسوا الحديد ولبسوا الغرائر ليلا وعرف انه مصبحها فلما أصبح عندها دخل عليها وسلم وقال هذه العير تأتيك الساعة بما لم يأت قط مثله فصعدت فوق قصرها وجعلت تنظر العير وهي تدخل المدينة فأنكرت مشيها وجعلت تقول

ما للجمال مشيها وئيدا * أجندلا يحملن أم حديدا

أم صرفانا باردا شديدا * أم الرجال جثما قعودا

فلما وافت العير المدينة حلوا أفقالهم وخرجوا فى الحديد وأتى قصير بعمرو فأقامه على سرب كان لها اذا خشيت خرجت منه فأقبلت لتخرج من السرب فأتاها عمرو مصلتا سيفه فجعلت تمص خاتمها وفيه سم ساعة وتقول بيدى لا بيد عمرو وفارقت الدنيا وما أحسن ما أشار الى ذلك ابن جابر الاندلسى فى وصف ممدوحه حيث قال

تطول به للمجد أشرف همة * فما باعه عن غاية بقصير

سما لاقتناص المكرمات كما سما * بعمرو الى الزباء سعى قصير

وقد ذكر هذه الواقعة على بن زيد العبادى فى قصيدة طويلة أولها

أبقلت المنازل أم عنينا * تقادم عهدهن فقد بلينا

وقال يخاطب النعمان بن المنذر بن ماء السما

ألا يا أيها الملك المرجى * ألم تسمع بخطب الاولينا

ومنها

دعا بالبقة الامراء يوما * جذيمة عصر ينجوهم ثبينا

فطاوع أمرهم وعصى قصيرا * وكان يقول لو تبع اليقينا

ودست فى صحيفتها اليه * ليملك بضعها ولأن تدينا

فجاءها وقد جمعت فيوجا * على أبواب حصن مصلتينا

فأردته ورغب النفس يردى * ويبدى للفتى الحين المبينا

وحدثت العصا الانباء عنه * ولم أرمثل فارسها هجينا

وقددت الاديم لراهشيه * وألفى قولها كذبا ومينا

ومن حذر الملاوم والمخازى * وهن المندبات لمن منينا

أطف لانفه الموسى قصير * ليجدعه وكان به ضنينا

فأهواه لما رنه فأضحى * طلاب الوتر مجدوعا مشينا

وصادفت امرأ لم تخش منه * غوائله وما أمنت أمينا

فلما ارتدمنها ارتد صلبا * يجر المال والصدر الضغينا

أتتها العيس تحمل مادهاها * وقنع فى المسوح الدار عينا

البقة اسم موضع بالحيرة والثبين كالتبن بالتحريك السيد والشريف والفطن ودقيق النظر وكل يصح ارادته هنا اه مؤلفه

ودس لها على الانفاق عمرا * لتسكنه وماخشيت كمينا
فجللها قديم الامر عضبا * يصك به الحواجب والجبينا
فاضحت من خزائنها كان لم * تكن ذباء حاملة جنينا
وأبرزها الحوادث والمنايا * وأى معمر لا يبتلينا *
اذا أمهلن ذا جد عظيم * عطفن له ولو قرطن حينا
ولم أجد الفتى يلهو بشئ * ولو أثرى ولو ولد البنينا

وكما أنه انتهى بقتل الزباء حكم ملوك الجزيرة وانتقاله الى ملوك الحيرة انتهى كذلك بقتل قلوبطره نفسها حكم البطالسة بمصر وصارت مصر ايالة رومية حتى ان بطليموس قيصرون الذى هو ابنها بعد أن كان تلقب ملك الملوك فى حياتها فقد قتله أوقطاوس الآتى ذكره باسم أغسطوس بعد قتل أمه قلوبطره ولبعضهم

يا أيها الناس انى ناصح لكم * فعوا كلامى انى ذو تجاريب
لا تلهينكم الدنيا بزخرفها * فما تدوم على حال ولا طيب

(الفصل الثانى عشر)

فى بعض ملحوظات عمومية تتعلق بأيام البطالسة وفى ذكر جدولهم

هذه الدولة تسمى أيضا دولة اللاغوسية وجميع ملوكها يسمون باسم بطليموس بن لاغوس ويقال ابن لاوى أيضا الذى هو رأس هذه الدولة فغلب على جمعهم اسمه كما أن نساءهم يسمين غالبا باسم قلوبطره وبرنيقه وأرسنويه ولو أن مصر فى أيامهم كانت رجعت الى القهقرى النسبية ومالت من درجتها العليا الى درجة ثانوية حيث فقدت ما كان لها من وطأة القدم على سائر الدول والامم الا أنها كانت لم تزل فى أيام البطالسة كثيرة المآثر غزيرة المفاخر تستحق الانتظام فى سلك المجد المؤثل وشرف العقد الاول ومما أعان على اتصافها بهذه المناقب تبصرها فى العواقب حيث تعلقت همتها بمنح الرخصة العمومية وكمال الحرية لاهل الوفود والرعية ونظمت الجميع بوحدة الاحكام فى أجمل ترتيب وأكمل نظام وشملت جميع الاهالى والسكان بحسن المعاملة بالعدل والاحسان وقد كان سن لهم هذه السنة الحسنة اسكندر الاكبر الذى هو أول الدولة اليونانية حيث حسن تحت

مصر وأمنه فانه بمجرّد فتحها أباح لها التعبد بدينها والتمسك بعقائدها ولم يكلفها بما لا تطيق لتكثير فوائدها وقد اقتدى به بطليموس بن لاغوس حين خلفه عليها فصرف جميع عنايته فى عمارتها وتحسين حال أهاليها وتجنب ما كان فعله قنبيشاش الجبار ملك العجم من الظلم والجبروت الذى تسمى بسببه بختنصر فاختلط بهذا الاسم مع نمرود الموصل الممقوت فبعناية بطليموس لاغوس اتحد اليونان والمصريون فى التمدن العام والتسوية فى الاحكام وانما بقى لليونان صفتهم الجنسية وأصالتهم اليونانية فكانت ملوك البطالسة تستميل قلوب الرعية المصرية بابقائهم على عاداتهم الوطنية عادية أو دينية فقد ذكر المؤرخون أن أحد البطالسة لما توجه الى غزو العراق وماوالاه وخاب سعيه ولم يبلغ من أعدائه مناه عاد من الغزو ومعه أكثر من خمسة وعشرين ألف صنم مما كان قد استلبه ونقله من الديار المصرية الى تلك الجهات قنبيشاش ملك العجم فلما ظفر به بطليموس فى أسفاره بادر بردّه الى المصريين ليؤلف قلوبهم باعادة مناسك الدين وشعاره فكان مما أعان على العمران رعاية العوائد والعناية باباحة الاديان

ومما جعل لدولة البطالسة فى أوائل أمرها كمال الرسوخ والثبات أنهم تشبثوا بتجديد العلوم والمعارف فى الاسكندرية ليجبروا ما فات فانّ مدار الحركات العقلية على النظر فى العلوم وصرف الافكار الى تحصيل ما يدوم فقد سبق لنا أنّ بعض ملوكهم أمر بترجمة التوراة من العبرانية الى اليونانية وجلب لها سبعين مترجما ليعرف حقيقة الصحف السماوية وفى أيام بعض ملوكهم كان تأليف مانيطون لتاريخ القدماء من المصريين وجمع كتبخانة الاسكندرية المشتملة على جميع علوم الاولين والآخرين فشحنت هذه الخزانة بجميع كتب اليونان والرومان وانضمت الى كتب حكماء المصريين التى صنفوها فى غابر الازمان ولاجل تمام الفائدة ترجمت الكتب المؤلفة باللغات الاجنبية الى اللغة الاهلية وقد أنشأ بعض هؤلاء الملوك خزانة للتحف والغرائب وجلبها من سائر الاقطار لتكون فى مصر من العجائب ووضع هذه التحف الجمة برواق فى الاسكندرية يسمى رواق الحكمة حتى قيل انه لم يسبق تنظيم مثل هذا الرواق فى سائر الاقطار والآفاق

وأمّا ما يخص العمارات والابنية فكانت دولة البطالسة تقيم على حبها للعمارات أصدق شهود وأعدل بينة كما يشهد بحسن أثرهم النيل مايشاهد منه على شواطئ النيل حتى قيل انه لم يكن بعد الدولة المصرية التاسعة عشرة أكثر آثارا من آثار دولة البطالسة المعتبرة فقد أصلح ملوكهم ما كان قد تخرب من الهيا كل المصرية وأتموا بناء ما ابتدأ سلفهم من العمائر الاهلية وأضافوا الى ذلك معابد جديدة وهيا كل عديدة كهيا كل بلاد النوبة بالتاكة وبلاد الكلابشة وكذلك المبانى التى بجزيرة البربا المسماة أنس الوجود فانها زينة تلك الجهة وجمالها مشهود ومن آثارهم الفخيمة مدينة اسنا القديمة التى احتجبت عن الابصار ببناء المدينة الجديدة على هذه الآثار ومن بنائهم أيضا مدينة أرمنت القديمة الباقية الرسوم والدمن الدالة على فخامة ملوك ذلك الزمن ومع أنهم جعلوا مدينة الاسكندرية دار ملكهم ونظام عقد سلكهم وحلوها بأعظم أنواع الزينة والزخارف وجمعوا بها من الآثار التليد والطارف فلم يطرحوا مدينة طيوة بالصعيد فى زوايا الاهمال بل كسوها بالعمائر الجديدة حلل الجمال والكمال فما أسسوه بها الهيكل المعروف بدار المدينة والمعبد الصغير المبنى على بركة آبو المزين بأجمل زينة وشيدوا على الجانب الايمن منها الباب الكبير المنفرد فى شمالى الكرنك والباب الآخر المناظر له الذى يمر به القادم من لوقصر الى هيكل شونش وقد بنت الملكة قلوبطره بدندرة هيكلا عظيما أهدته لاصنام المصريين باسم ولدها قيصرون المولود لها من يولس قيصر الروم سفاحا وهذه الملكة هى التى بنت مدينة ادفو القديمة ذات الآثار الجسيمة والرسوم الدينية ورسم أسماء الاماكن والبلدان وفى جميع آثار البطالسة كتابة اسم الملك والعنوان ومما يدل على مجدهم وعزهم ما يوجد بكثرة باقليم اسنا واقليم اخميم كنشأة النيدة التى بناها بطليموس فيلادلفس وكذلك تكثر آثارهم بناحية بهبيت بجوار المحلة الكبرى ويغلب على ظن الباحثين عن الانطيقات والآثار القديمة أن من جملة آثار البطالسة المبانى الجميلة القريبة من مقابر العجول الابيسية المعبودة للمصريين التى بناحية سقاره وما يوجد فى هذه المقابر من النواويس والتوابيت العجيبة الصنعة

ومما عثر عليه جنود الفرانساوية مدة اقامتهم فى الديار المصرية لوحة الحجر التاريخية التى تعرف فيما بينهم بحجر رشيد وهى من آثار البطالسة النافعة فقد توصل بها أحبار أوروبا الى حل رموز الاقلام القديمة على طريقة بارعة فهذا اللوح الحجرى مكتوب على احدى جهاته ثلاث صحائف متفاصلة متمايزة أحدها بالقلم البربائى القديم المخصوص بمعرفته الحكماء والعلماء وهو قلم العلوم والمعارف والاسرار والصحيفة الثانية مكتوبة بالقلم المعتاد المتداول بين الاهالى المصرية فى ذلك الزمان والثالثة بالقلم اليونانى فبالتأمل لتلك الصحف وامعان النظر فيها أدرك العقلاء ببادئ الرأى أن الصحيفة الثالثة اليونانية انما هى ترجمة الصحيفتين اللتين باللغة المصرية وأنه يمكن بما هو مكتوب على الحجر أن يتوصل بالمعلوم منه الى المجهول بمقابلة الحروف والكلمات والتوفيق بينها والوقوف بذلك على اصطلاح القلم المصرى القديم الاشارى والاعتيادى وكان الفرانساوية لما عثروا على هذا الحجر حفظوه فى الاسكندرية ثم وقع بعد ذلك فى يد الانكليز مع بعض آثار أخرى سلبوها من الفرانساوية حين خروجهم من مصر ولم يزل هذا اللوح الحجرى بتحفخانة الغرائب بمدينة لندرة ففضيلة تفسير القلم المصرى القديم الاشارى والاعتيادى ينبغى أن تنسب لدولة البطالسة وتضاف الى ما لهم على مصر من الفضائل واليد البيضاء

وبالجملة فمنذ جعل ملوك البطالسة ديار مصر سلطنة يونانية وأقاموا كرسيها بمدينة الاسكندرية صار هذا الثغر مورد الخاص والعام والمورد العذب كثير الزحام فوفد عليها من الخارج أرباب العلوم والمعارف من العلماء والحكماء والادباء وأرباب العقول الكاملة فعمرت بهم مدرسة الاسكندرية وتمكنت غاية التمكين وتشيدت على أساس متين حتى لم يزل رونقها باقيا فى أيام دولة الرومانيين فانه لما ظهر دين عيسى بن مريم وانتشر فى مشارق الارض ومغاربها وعم وتشعب الى مشاعب ومذاهب واختلفت فروع عقائده ما بين مخطئ ومصيب وعارضته الحكماء والفلاسفة ووقعت المحاورات والمجادلات بين أهل الرشد والسفه امتاز حكماء الاسكندرية بمشاجرة هذا الدين والانتصار لدين المصريين وان لم يدل هذا على رشدهم وسدادهم فقد دل على تمكن

عقولهم من ادراك عقائد بلادهم فقد داموا متمسكين بعبادة الاصنام والاوثان مع كونهم أرباب العلوم الحكمية فى تلك الازمان ولكن أضلهم الله على علم

واذا البينات لم تغن شيأ * فالتماس الهدى بهن عناء
واذا ضلت العقول على علم * فماذا تقوله النصحاء

وأمّا فى مادّة الادارة فلم تخل دولة البطالسة من المخالطات السياسية والعلاقات الدولية والاشغال الداخلية والخارجية فانهم قد بعد صيتهم وسارت به الركبان فى سائر المدن والبلدان وصعدوا الى أوج الفخار على قدر الامكان وان لم يصلوا الى درجة فراعنة مصر فى الازمان الخالية والدهور البالية وانما كان جل مشروعهم وخير منفوعهم تقديم العلوم والآداب والترحيب بالاجانب والاغراب وكشف الحجاب لمن يطلب الاقتراب وبقيت هذه العادة جارية على سبيل الملك لا العارية الى زمن الاسكندر بطليموس الزامر الذى لم تخل مدّته عن بعض المحاسن والمآثر ولكنه لما لم يعقب نسلا كفؤا لولاية عهده أوصى بالديار المصرية كفالة وتمليكا الى الدولة الرومانية من بعده

انظر الى لاعب الشطرنج يجمعها * مغالبا ثم بعد الجمع يرميها
كالمرء يكدح للدنيا ويجمعها * حتى اذا مات خلاها ومافيها

فكانت آخر ذرية البطالسة بالديار المصرية الملكة قلوبطره التى كانت السبب فى تدميرها بالاتحادات القيصرية ومع أنها كانت بديعة الجمال فبكمال عقلها وسياستها غلبت فى غالب الاحوال فحول الرجال فاستولت على عقل يوليوس قيصر وصادت بشركها أنطيوس فدخل فى حبالتها وما قصر وكان بيدهما زمام دولة الرومان التى كانت لها السلطنة على ممالك تلك الازمان فأعان قلوبطره كل من الرئيسين على أغراضها وشفياها من أمراضها وكان ما كان بين قيصر أغسطوس وأنطنيوس مما ينفر القلوب ويوحش النفوس مما أدّى الى قتل نفسها بنفسها وتعجيل حلولها فى رمسها مما تقدم ذكره وعلم فى سائر التواريخ أمره وكانت بالاتحاد مع أنطنيوس قد توجت ابنها قيصرون بتاج ملك الملوك يعنى ملك مصر وجهة بلاد العجم كارمنستان

واذربيجان وغير ذلك من مملكة العجم فلهذا عده المؤرخون من البطالسة فيكون على ذلك هو بطليموس الرابع عشر وكان كما تقدم ادخاله فى ميراث بعض أقاليم الرومانيين سببا فى حرب أوقطاوس مع أنطنيوس وهلاك هذا الاخير وقتل قلوبطره لنفسها وزوال دولة البطالسة وقطع دابرها واستئصال نسلها بقتل أغسطوس لقيصرون السالف الذكر واستيلاء دولة الرومانيين على مصر وقد عد أكثر المؤرخين من البطالسة الذين حكموا مصر من ليس منهم كبطليموس الاقلوذى الفلكى ولو أنه يونانى أو مصرى فالتحقيق أنه ليس من عائلة البطالسة الملوكية وقد كان هذا الحكيم الشهير من أصحاب المعارف الموجودين بالاسكندرية فى القرن الثامن قبل الهجرة كان كثير الاشتغال بالعلوم الفلكية والجغرافية وكان كثير الاجتهاد والتشبث بجمع أشتات المعارف ومتفرقها ولم يعده العلماء من أرباب القرائح المخترعة للعلوم بل كان أغلب أوقاته يشتغل بنقل كلام من قبله من الحكماء وبذل الجهد فى تصحيحه وتنقيحه وترتيبه وتهذيبه وكان أكثر اعتماده على كتب أبرخس الحكيم حتى قال بعضهم انه لم يصلح مما فيها من الخطا الا القليل بل ما حرره منها لم يستوف تحريره وقد اشتهر مذهبه الفلكى باسمه فيقال مذهب بطليموس لدوران الشمس والنجوم السيارة حول الارض الثابتة ورسم الشمس والنجوم مداراتها حول الارض ولا زال الحساب جاريا على المذهب البطليموسى عند جميع الفلكيين فى سائر المشارق والمغارب الى أن ظهر قوبرنيق الفلكى الاوروباوى فأقام البراهين على ثبوت الشمس ودوران الارض وتبعه أهل أوروبا فى مؤلفاتهم الفلكية والجغرافية وقالوا ان حركة الشمس انما هى ظاهرية فقط والحساب واحد وليس القول بدوران الارض انفرد به الحكيم قوبرنيق المذكور بل هو مذهب قديم لبعض فلاسفة اليونان كفيثاغورس الحكيم وأصحابه كما ذكره العلامة محمد بن محمد القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات وعبارته ومن القدماء من أصحاب فيثاغورس من قال ان الارض متحركة دائما على الاستدارة والذى يرى من دوران الكواكب انما هو دوران الارض لا دوران الكواكب وقال بعضهم انها واقفة فى الوسط على مقدار واحد من كل جانب والفلك يجذبها

من كل وجه فلذلك لا تميل الى ناحية لان قوة الاجزاء متكافئة مثال ذلك حجر المغناطيس الذى يجذب الحديد لان من طبع الفلك أن يجذب الارض وقد استوى الجذب من جميع الجهات فوقفت فى الوسط ومنهم من قال انها مدورة موقوفة فى الوسط وسببه دوران الفلك وسرعة حركته ودفعه اياها من كل جهة الى الوسط كما أنه لو جعل تراب أو حجر فى قارورة مدورة وأديرت فى الخلوط بقوة قام التراب أو الحجر الى الوسط انتهت عبارته ومع أن قوبرنيق أبطل مذهب بطليموس فى دوران الشمس حول الارض وجعلها من الثوابت وأثبت قول فيثاغورس وأصحابه من أن الارض دائرة وصار هذا المذهب معمولا به ومعتمدا عند الافرنج فلا يحصل يأس من تقدم العقول بعد مدة طويلة ورجوع الافرنج الى مذهب بطليموس بعد مدة مديدة بقدار المدة التى مضت من زمن بطليموس الى عهد قوبرنيق ولا غرابة فى ذلك فان مذهب بطليموس لم يزل الى الآن متداولا على الالسن فيقول الافرنج ان الشمس تقطع فلكها فى مقدار كذا فينسبون الحركة اليها نظرا للظاهر وعلى كلا المذهبين تكون الارصاد الفلكية واحدة وانما الاختلاف فى العلل والاسباب وكل من القولين بدوران الشمس أو الارض فيه عظم دلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى

وللّه فى كل تحريكة * وتسكينة أبدا شاهد

وفى كل شئ له آية * تدل على أنه واحد

ولا ينبغى أن يذكر القول بدوران الارض الا فى معرض الحكاية عن قائله وهو قوبرنيق أو فيثاغورس ومن ذهب مذهبهما من أهل الهيئة والجغرافية لا فى معرض العقائد الدينية التى يعتمد فيها على صريح نص الآيات القرآنية كقوله تعالى والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم فعلينا معشر أهل السنة أن نعتقد جريان الشمس وأن نسلك فى ذلك مسلك السلف من تفويض جريان الشمس الى الله تعالى لا مذهب التأويل فلا نقول ان جريان الشمس ظاهرى ناشئ عن جريان الارض على مذهب من يقول به كفيثاغورس مثلا ثم ان فيثاغورس الحكيم ممن قدم من حكماء اليونان الى مصر فلما وصلها اشتاق الى الاجتماع بالكهنة الذين كانوا بمصر فورد على أهل

مدينة عين شمس فقبلوه قبولا كريها وامتحنوه زمانا فلم يجدوا عليه نقصا ولا تقصيرا فوجهوا به الى كهنة منف كى يبالغوا فى امتحانه فقبلوه على كراهة واستقصوا امتحانه فلم يجدوا عليه معيبا ولا أصابوا له عثرة فبعثوا به الى أهل ديوسوس أى طيوه بالصعيد ليمتحنوه فلم يجدوا عليه طريقا ولا الى ادحاضه سبيلا ففرضوا عليه فرائض مخالفة لفرائض اليونانيين كيما يمتنع من قبولها فيدحضوه ويحرموه طلبته فتقبل ذلك وقام به فاشتد اعجابهم به وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره الى أماسيس ملك مصر فأعطاه سلطانا على ضحايا الرب وعلى سائر قرابينهم ولم يعط ذلك لغريب قط فقد فهم مما سبق أن بطليموس المذكور ليس من ملوك مصر البطالسة ولا من البيت الملوكى كما توهمه كثير من المؤرخين كما أن بعض المؤرخين توهم أن من ملوك مصر بطليموس الذى سماه الصائغ وقال انه تولى على مصر بعد أبيه بطليموس الاول الملقب سوطير والواقع أن هذا خطأ من وجهين الوجه الاول أن بطليموس المذكور ابن سوطير انما يلقب بالصاعق لا بالصائغ لحدته وشدة جراءته تشبيها له بالصاعقة الوجه الثانى أن الذى تولى ملك مصر بعد بطليموس سوطير الاول انما هو بطليموس فيلودلفس بن سوطير وأخو بطليموس الصاعقة كما سبق ذكره فى محله وأما بطليموس الصاعق فانه ترك مصر وسار الى مقدونيا وكان ملكا عليها سليقوس فأكرم نزله ورحب به فخانه بطليموس الصاعقة حيث قتله وطلب من أهل مقدونيا وترحالة أن يبايعوه بالملك فصار ملكا على مقدونيا وترحالة ثم قتل الامراء المتطلبين للمملكة المذكورة وتزوج بأرسوية أيم الامير لوسيماقوس وبنى بها وقتل أولادها من زوجها القديم فهربت من مقدونيا الى مصر خوفا من القتل بها فتزوجها بمصر أخوه بطليموس فيلودلفس ثم كان لبطليموس المقدونى الجزاء من جنس العمل فقد مات قتيلا فى حربه مع الغلية الذين هم قدماء الفرنساوية بعد ان حكم على مقدونيا وترحالة سنة وستة أشهر فلا وجه لعده من بطالسة مصر وان كان من العائلة الملوكية حيث لم يتول مصر أصلا ولنذكر هنا جدولهم

جدول البطالسة الذين حكموا مصر

أسماء الملوك	مدة حكمهم	أسماء الملوك	مدة حكمهم
	سنه		سنه
بطليموس الاول	٣٨	بطليموس السادس	٣٥
بطليموس الثانى	٣٨	بطليموس السابع وبطليموس الثامن	٢٩
بطليموس الثالث	٢٥	بطليموس التاسع	٣٦
بطليموس الرابع	٢٧	بطليموس العاشر والحادى عشر	٢٩
بطليموس الخامس	٢٤	بطليموس الثانى عشر وبطليموس الثالث عشر والملكة قلوبطره	٢٢

فكانت مدة حكم ملوك هذه الدولة مائتين وخمسة وسبعين سنة كما ذكره المؤرخون لان ابتداء دولتهم من سنة ٩٢٧ قبل الهجرة وانتهاءها سنة ٦٥٢ قبل الهجرة أيضا فيكون مدة حكمهم ما ذكر ولكن اذا جمعت مدة حكمهم على ما فى الجدول المذكور وجدت المدة ثلاثمائة سنة وثلاث سنين فاطرح منها سبعة عشر سنة حكمها بطليموس بن لاغوس بوظيفة نائب على مصر قبل استقلاله بمملكتها عليها فتكون باقى المدة مائتين وستة وثمانين سنة ومن المعلوم أن ابتداء تملك كل ملك وانتهاء مدته وابتداء مدة الآخر قد يكون فى آخر السنة المحسوبة من حكمه أو فى وسطها فتختلف السنين حيث شهور التولية غير معلومة فالاحدى عشرة سنة هى فرق التوليات الملوكية وبالجملة فمدة حكمهم هى المائتان والخمسة وسبعون سنة ويضاف اليها سبعة وعشرون سنة حكم الدولة اليونانية قبل الهجرة الاولى فتصير مدة حكم اليونان ثنتين وثلثمائة سنة وهذا يوافق ما عليه أيضا مؤرخو العرب حيث قالوا ان اليونان حكموا مصر ثلثمائة سنة وسنة واحدة ولعل السنة الزائده فرق بين المبدا والمنتهى وبعد هذه الدولة الثالثة والثلاثين ابتداء الدولة الرومانية الرابعة والثلاثين التى ابتداؤها من سنة ٦٥٢ قبل الهجرة

(الباب الثالث)

(فى ملوك الدولة الرابعة والثلاثين وهى دولة الرومان وفيه فصول)

(الفصل الاول)

(فى الكلام على أصل هذه الدولة ومدة حكمها)

تسمى هذه الدولة دولة اللاطنيين واشتهرت بالدولة الرومانية نسبة الى مدينة رومة التى هى تختها كما أن هذه المدينة سميت رومة أو رومية نسبة الى بانيها وهو رومولوس بالاشتراك مع أخيه روموس وكان تأسيسها سنة ١٣٧٥ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية وببنائها يؤرخ الرومانيون تاريخهم

وكانت فى مبدأ أمرها عبارة عن ضيعة كالضياع المعتادة ماوى لارباب الصيال وقطاع الطريق يجتمع اليها أخلاط الناس والهمج ثم تجاسم أمرها واتسعت بالتدريج فى أيام ملوكها السبعة الذين تداولت أيديهم عليها واحدا بعد واحد فى ظرف قرنين ونصف وهم رومولوس الذى هو مؤسسها ونومابومبلوس الذى هو أول مقنن لقوانينها ثم طوليوس هسطيلوس ثم أنقوس ثم تركين القديم ثم سرويوس طليوس ثم تركين الشاب الظريف وقد اتسعت مدينة رومة فى عهد الثالث والرابع ثم قويت شوكتها فى عهد الملوك الثلاثة الاخيرة وازداد عدد أهاليها زيادة بليغة وتحصلوا على الغنى والثروة ثم انتزعت المملكة من أيدى العائلة التركينية وترتب بدل الدولة الملوكية حكومة جمهورية ذات رئيس يلقب بالقنصل ومعناه منفذ الاحكام فلك واستمرت الحكومة الجمهورية على هذا الوجه مدة خمسمائة سنة وكانت للدولة الرومانية فى عهد الجمهورية غاية العزة والظهور فقد استولت على جميع أمم ايطاليا وأدخلتهم تحت الطاعة والانقياد ثم ظهرت ظهورا كاملا وكانت دولة قرطاجه المسماة قرطاجنة أيضا وهى الآن تونس معاصرة لها ومعادلة فى القوة والبأس فوقع بين الفريقين حروب عظيمة تسمى بالحروب البونيقية فانتهى الحال بأن انتصرت رومة على قرطاجه ودمرتها كل تدمير واستولت على مملكتها وكذلك ظهرت على مملكة مقدونيا أعظم ظهور وعلى بقية أمم اليونان بل وعلى جميع الامم المعروفة فى تلك الازمان ماعدا الامة الجرمانية والفرس الاولية وكانت فى أثناء دولتهم مصر ذات قوة وشوكة فقدت

دولة الرومان أنظارها عليها وتداخلت فى تنصيب ملوكها البطالسة حين داخلهم الضعف بالمشاجرات الداخلية وانتهى الحال بتسلط الرومانيين على الديار المصرية وجعلها ايالة رومانية فى عهد أغسطوس كما سيأتى وكان أغسطوس مبدأ دولة القياصرة الآتى ذكرهم واحدا بعد واحد فيما بعد وفى أول أيام القياصرة عظمت دولة الرومانيين وملكت الدنيا بأجمعها ثم حصل فيها حروب داخلية أفسدت حالها وسلكت القياصرة مسالك الترف والانهماك على اللذات والشهوات وفسادا الاخلاق وطغوا وبغوا فكان هذا موجبا لانحطاط دولتهم ووهن ملكهم وفى سنة ٦٥٢ قبل الهجرة تحولت الحكومة الجمهورية الى حكومة قيصرية وكان أول ملوكها الملك أغسطوس الآتى وفى سنة ٢٤١ قبل الهجرة انقسمت القيصرية الرومانية الى قيصريتين قيصرية المغرب وتختها مدينة رومة وقيصرية المشرق وتختها مدينة القسطنطينية وفى سنة ١٤٦ قبل الهجرة تغلب على قيصرية المغرب الامم المتبربرة كأمة الغوطة وغيرها وانحلت قيصرية الرومان المغربية وانتهى الحال بزوال ملكها فى تلك الجهات بالكلية وبقيت قيصرية المشرق الى فتوح الاسلام فغزا القسطنطينية بنو أمية وضربوا عليها الخراج ولكن بقى فتحها دائبا بدون علاج الى أن أنهى فتحها السلطان محمد خان الفاتح كما ستعرفه وأما الديار المصرية فانها دخلت فى حكومة الرومانيين وصارت ايالة من ايالاتها فى سنة ٦٥٢ وقت أن صارت قيصرية وبقيت فى أيديهم الى فتوحها بالاسلام سنة ١٩ من الهجرة المحمدية يعنى مدة ٦٧١ سنة منها احدى عشر وأربعمائة سنة الى صدور أمر الملك طيودوسيس بالتمسك بالديانة العيسوية فى جميع الايالات الرومانية التى منها ايالة الديار المصرية وهذا هو موضوع الباب المعقود لهذه الدولة الرومانية الثالثة والثلاثين وبقية مدة الدولة الرومانية الحاكمة على مصر التى مبدؤها تقسيم القيصرية تذكر فى مقالة أخرى على حدتها وقد مكثت مصر قبل استيلاء هذا القيصر عليها سنة واحدة وكانت معدودة فى هذه السنة من جملة أعمال الرومانيين

ثم لما تلقب قيصرا كان ملكا عليها كباقى الايالات الرومانية وحيث كان هذا

القيصر أول القياصرة وبه استحالت الجمهورية الى مملكة كان لا بأس بذكر بيان تحويل الجمهورية الرومانية الى مملكة قيصرية رومانية وبيان أسباب تحويلها وهو أن أوقطا والذى صار غابعد أغسطس كان أبوه أحد أرباب مجلس الجمهورية ويسمى أوقطاويوس وكان متزوجا بأخت يولوس قيصر أحد رؤساء الجمهورية فولدت أوقطاوا المذكور فلما مات أوقطاويوس كان ابنه أوقطاو فى حداثة سنه فتبناه خاله قيصر واعتنى بتربيته وأرسله الى مدارس اليونان لتحصيل المعارف فلما اقتل خاله قيصر فى مجلس الجمهورية برومة كان عمر أوقطاو ثمانى عشرة سنة وكان فى مدارس بلاد اليونان للتعليم فبادر بالحضور الى رومة ليستولى على ميراث خاله قيصر حيث تبناه ومع أنه صغير السن فقد جبر أنطنيوس أحد روساء الجمهورية على أن يعطيه جزأ عظيما من ميراث قيصر وكان أنطنيوس قد اغتصب ذلك وأعطاه لغيره ثم خاف من بعض أمراء الرومانيين أن يقتلوه حيث لح منهم الغباوة فاصطلح مع خصمه أنطنيوس وزوجه أخته أوقطاوه التى صارت ضرة قلوبطره ملكة مصر فيما بعد فبهذا الصلح اشترك هو وأنطنيوس فى رياسة الجمهورية الرومانية وأشركا معهما ثالثا يسمى ليبدوس فكانت رياسة الجمهورية مثلثة فشتتوا شمل أعدائهم وكانوا مثل يولس قيصر يميلون الى المذهب الملوكى والاستبداد بالاحكام ولا يحبون الحكومة الجمهورية التى النفوذ فيها للاعضاء المجلس بتمامه فتشبث الثلاثة بتشتيت شمل أعدائهم وهزموا أحزاب الجمهورية وكان هذا بهمة أوقطاو وأنطنيوس ثم شرعا فى طرد شريكهما الثالث وهو ليبدوس فنأوياه وبلغا مقصودهما من طرده وصفا لهما الوقت واقتسما أقاليم الرومان فأخذ أوقطاو الاقاليم الغربية وأخذ أنطنيوس رياسة الاقاليم الشرقية وفعل أنطنيوس ما فعله من تزوج قلوبطره وخلعه عليها وعلى أولادها جزأ من نصيبه من الولايات الرومانية فوقعت العداوة بين الشريكين ووقع الحرب بينهما فانتصر أوقطاو على أنطنيوس عند مدينة اكسيوم بساحل روم ايلى فهرب أنطنيوس الى مصر فاقتفى أثره أوقطاو وأخذ الاسكندرية فقتل أنطنيوس نفسه فصارت مصر فى قبضة الرومانيين فلما رجع أوقطاو الى رومة تلقب أمير مجلس الجمهورية ثم تلقب امبراطور الجمهورية

ثم تلقب أخيرا أغسطس يعني قيصرا فتحولت من ذلك الوقت الجمهورية الرومانية الى مملكة ومع أن أغسطوس قبل توليته قيصرا كان فيه شدة وحدة وجفاوة وقساوة فبمجرد توليته تشبث بالعدل والحلم فرتب القوانين العدلية لراحة الاهالى وسلك مسلك الرفق واللين مع الجميع وعلى ما فيه من الحدة فلم يكن عظيم الشجاعة وأما انتصاره فى حروبه فانما كان بشجاعة قواده وأمرائه لاسيما قائده المسمى اغريبا فانه كان بطلا صنديدا وقد كان أغسطوس له ميل الى المعارف الادبية فلهذا اجلب الى رومة أرباب الادب والشعر ويقال انه سئم من المنصب الملوكى وأراد خلع نفسه ولكن نأى عن ذلك فيما بعد وتعلم بقية أوصافه ووقائعه فى الفصل الآتى

(الفصل الثانى)

(فى الملك أغسطس قيصر)

تولى هذا الملك قيصر على الدولة الرومانية سنة ١٥٦ قبل الهجرة ثم استولى على مصر فكان أيضا ملك مصر يقيم عليها نائبا من طرفه وكان يلقب امبراطور ومعناه فى الاصل رئيس الجيوش واشتهر كغيره باسم قيصر ويلقب أيضا أغسطس ومعناه الرئيس الاعلى أو الخديو لما تولى هذا الملك وانفرد بالمملكة الرومانية وفد عليه رسل الملوك بالمشرق يرغبون فى ولايته ويضرعون اليه فى السلم فأسعفهم ودانت له الارض وضرب الخراج على أهل الآفاق وكان العامل على اليهود بالشأم من قبله هيرودوس ولما استولى على ناحية الشرق سير عساكره الى فتح مصر فملكها وقتل ولدى قلوبطره وكانا يسميان الشمس والقمر وكان أحدهما المسمى قيصرون ابنا من السفاح لقيصر خال أغسطوس فكانت أمه لما تزوجت من أنطنيوس وولدت له أولادا أقطعهم أنطنيوس بعض ممالك بلاد الروم فتلقب قيصرون ملك الملوك لاستحقاقه ارث مصر عن أمه وارث بعض بلاد الروم عن قيصر أبيه فلما قتل أغسطوس أولاد قلوبطره آل اليه ملك مصر ويحسن هنا قول الشاعر

وللموت تغذو الوالدات سخالها * كما لخراب البيت تبنى المساكن

وعلى تسمية ولدى قلوبطره بالشمس والقمر وازدهائهما لحظة وكسوفهما

لاالى عود وانجلاء ينطبق قول بعضهم

يا ذا الذى بصروف الدهر عيرنا * هل عاند الدهر الامن له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيف * ويستقر بأدنى قاعه الدرر
وفى السماء نجوم لاعداد لها * وليس يكسف الا الشمس والقمر

فلما دخلت مصر تحت حكومته ولى على ايالتها قورنليوس غالوس فكان أول نائب على مصر من نواب الرومانيين حيث صارت مصر بعد انقراض دولة البطالسة بموت قلوبطره عمالة رومانية وفى قبضة القياصرة فكان أول اجتهاد هذا النائب على مصر اصلاح ما أفسدته الفتن والحروب الاخيرة بجلب الراحة العمومية والطمأنينة الداخلية كما اجتهد أيضا فى اصلاح الاراضى الزراعية بالعمليات الهندسية كحفر ترع مصر وخلجانها واقامة جسورها وقناطرها ومع تشبثه بصالح المصلحة المصرية قام عليه أهالى مدن عديدة ورفعوا راية العصيان فأسكن فتنتهم وأدخلهم تحت الطاعة والانقياد وكان من جملة المدن التى أضرم أهلها نار الفتنة مدينة طيوه بالصعيد فعاملها بالسلب والنهب واستوعب أموالها وضبطها لدولة رومة وحاز لنفسه مقدارا جسيما من الاشياء النفيسة على ما حكاه قدماء المؤرخين والظاهر أنه اغتر بعد ذلك بشوكته وشدة بأسه وبنصرته على المصريين فطغا وبغى ونظم نفسه فى سلك الفراعنة وقلدهم فى جميع أفعالهم الجورية فأمر أن تنحت تماثيله على صورته وتوضع فى الميادين العمومية بمصر وأن ترسم وقائعه على المبانى والهيا كل العامة كالفراعنة الاقدمين ولكن لم تدم هذه الحالة زمنا طويلا ولا تهنا برفعة شأنه وعلو مقامه كما يتمنى حيث أعقبها عزله ونفيه وقتله لنفسه فى محل نفيه وسبب ذلك أن أغسطس كان قد غضب على أحد علماء الآداب الرومانية وطرده من رومة فآواه بمصر هذا العامل فبهذا أغضب أغسطس فكان هذا اسيا لما جرى عليه من قتله لنفسه والظاهر أنه لم يتول بمصر نائب من طرف خليفة أو سلطان الا تتوق نفسه الى الاستبداد بملك مصر والاستقلال بحكمها والتسلط عليها وذلك اما لطمعية النفس فى الانفراد بالمجد والشرف لاسيما اذا كانت فى أشرف المواطن كمصر واما لاقتضاء موقع مصر وحدة التصرف وعدم التبعية وانها لا تفلح حكومتها الا بانفرادها كم

بالتصرف فيكون النائب مضطرا الى الاستقلالية ورفض التبعية ويدل على هذا أن نائب مصر قديما وحديثا له خصوصيات ومزايا ومعافاة دون غيره من نواب الممالك ولم يكن فى زمن من الازمان تابعا تبعية مطلقة بل تبعيته ظاهرية فقط فقل أن تجد نائبا على مصر لم يبحث عن الاستقلالية والذى لم يبحث عن ذلك كجوهر قائد المعز بدين الله الذى أخذ مصر لسيده ولم يطمع فيها فانه كان بمنزلة الملك الحقيقى لاسيما وانه كان مملوكا وجميع جنوده اتباع للمعز وبالجملة فنيابة مصر ووزارتها كالسلطنة قديما وحديثا فان نور الدين ولاها وزارة لصلاح الدين

وتولى بعد قورنليوس غالوس نائبا على مصر بطرنيوس وفى أيامه قام عليه أهل الاسكندرية وخرجوا عن طاعته فأدخلهم حالا وسريعا تحت الطاعة الرومانية وفى مدة ولاية هذا العامل أمر أغسطس بغزو بلاد العرب فجهز بطرنيوس نائب مصر جيشا لذلك تحت رياسة اليوس غالوس أحد قواد الجنود الرومانية وسيره الى بلاد العرب تحت قيادة القائد المذكور وقيل ان أغسطوس صحب الجند أيضا الى تلك الجهة فانتصرت تلك الجنود الرومانية على العرب من أول الامر ثم انهزمت واضمحلت لصعوبة مزاج الاقطار الحجازية وعدم موافقة اهويتها للجنود الرومانية فبعد مضى سنة كاملة فى الحروب والخطوب ومقاساة النصب والتعب وفقد الزاد والراحلة وما يضاف الى ذلك من أمراض تلك النواحى وعدم انقياد العرب لغيرهم رجعت الجنود الرومانية من طريق بلاد العرب ودخلت فى مصر من غير حصول على مرغوب الامبراطور أغسطس حيث كان قصده من هذه الغزوة الاستيلاء على بلاد اليمن الكثيرة العطريات والبهار لاسيما وأنها كانت اذ ذاك مركزا لمحصولات الهند الشهيرة بالثروة والغنى ولا غرابة فى تشبث أغسطس بذلك فقد دلت التواريخ والوقائع قديما وحديثا على ان كل من ملك مصر من أرباب العقول السليمة امتدت انظاره العالية للاستيلاء على جزيرة العرب للاستحصال على الحظوة بمحصولات الهند واغتنام مكاسبها وأرباحها

وفى مدة هذه الغزوة العربية اغتنمت أهالى السودان فرصة غيبة العساكر

من صعيد مصر وغاروا على الديار المصرية بجيش جرار تحت قيادة قنداقه ملكة جبال بركل باقليم دنقلة فاستولت على مدينة أسوان وماحولها من الجزائر المصرية كجزيرة الصنم ودخلت بلاد الصعيد الاعلى وأهلكت الحرث والنسل واغتنمت الغنائم العظيمة فقصدها بطرنيوس ودفعها عن مصر الى السودان واقتفى اثرها ليعاقبها على جسارتها وتعديها حتى غلبها على دار ملكها ولم يعقد معها الصلح الا بشرط أن تدفع لدولة رومة خراجا سنويا وأن تبعث من طرفها سفراء للقيصر أغسطس لتتميم هذا الصلح باقراره عليه وكان قد بلغ ديوان رومة خبر هذه الوقائع وهجوم هذه الملكة على الديار المصرية التى هى من الاعمال الرومانية فانفعل أغسطس من ذلك كله وسار بنفسه الى مصر لينتقم من هذه الملكة لظنه انها لم تزل بصعيد مصر متشبثة بالعتو والفساد فبلغه فى أثناء طريقه وهو بجزيرة صيصام انتصار بطرنيوس عليها وما عقده معها على الصلح وتفويض تتميمه لاغسطس وأن نائب مصر حمل الملكة على أن تبعث سفراءها للملك فانتظر أغسطس سفراء السودان فلما حضروا اليه أقر الصلح الذى عقده نائبه وانعم عافى هذه الملكة من الخراج السنوى الذى قرره عليها عامله

ولما عاد بطرنيوس من البلاد السودانية الى الديار المصرية عكف على ما كان عليه من حسن ادارة الاقاليم واصلاح أراضيها وتقويم أودها بما تقتضيه أحوال البلاد المصرية وكان مطمح نظره فى عملياته كلها اصلاح مجارى النيل ومصارفه وخلجانه وترعه فبذل مجهوده فى ذلك حتى صار النيل على حالة مرضية بحيث متى بلغ اثنى عشر ذراعا يكون ضامنا للرى وكافلا لخصوبة الارض وكثرة الانبات وكان قبل عملية هذا النائب لا يكفى فى رى مصر دون أربع عشرة ذراعا هكذا قال أرباب التاريخ والمشهور أن رى مصر فى تلك الازمان ست عشرة ذراعا فلا مانع من أن حسن عملية الرى تفعل الغرائب أو أن المقصود أن رى مصر اذا وصل الى أربع عشرة ذراعا لا يحصل القحط لامكان زرع البارى فى الاراضى العالية وزرع الحنطة فيما روى من الواطية وهذا كاف فى أن مصلحة الرى ليس فيها فى الاربع عشرة ذراعا مضرة وقد مكث بطرنيوس واليا على مصر ثمان سنوات ثم خلفه عليها أليوس

غالوس الذى كان قائدا من طرف قيصر على غزوة العرب فى أيام نيابة بطرنوس وبمجرد تولية أليوس غالوس نائبا على مصر ذهب الى الصعيد الاعلى واستصحب معه اسطرابون الجغرافى فى سياحته لاستكشاف البلاد وبقى نائبا على مصر مدة طويلة ومات أغسطس فى نيابته

وقد أعقب تولية الرومانيين على مصر خسارة عظيمة ومضرة جسيمة بالنسبة للعلوم والمعارف الموجودة بالاسكندرية بضعف مدارسها ومكاتبها الاهلية ولم تكن هذه الخسارة دون ما سبقت من حريقة كتبخانة الاسكندرية فى آخر أيام الملوك البطالسة وذلك لان اكابر المعلمين والمدرسين بتلك المدارس رحلوا من الاسكندرية الى رومة لينالوا القبول عند القياصرة والحظوة بانعاماتهم الجليلة فخلت منهم ربوع العلوم والمعارف والفنون واللطائف ومع ذلك فقد جدد القياصرة فى مصر مدارس ومعالم وعينوا لها من الرؤساء والرجال من له السبق فى ميدان الفضائل ولكن لم يحتفل الاهالى بتلك المدارس ولا مارسوا العلوم كالاول حيث فترت هممهم واعتراهم التكاسل عن التحصيل فمن هذا لم تتقدم العلوم حق التقدم الكلى كالسابق وان كانت تلك المدارس المصرية لا تزال يتخرج منها أفاضل ممتازون بالعلوم والآداب لهم جميل الذكر والشهرة فى تواريخ أولى الالباب وبالجملة فقد وقع فى زمن حكومة الرومانيين على مصر بالنسبة للعلوم والمعارف نظير ما وقع فى سائر الازمان وهو أن تحصيل المعارف البشرية واكتساب العلوم العقلية ظهر فى مصر بقدر ما اقتضته عناية الحكومة واجتهدت فيه همة الدولة المتسلطة عليها ومن المعلوم أن أيام الدولة الرومانية لم تكن كأيام الفراعنة ولا البطالسة فى صرف الهمة للفنون والعلوم فان غالب همة الرومانيين كانت مصروفة فى الحروب والغزوات وتوسيع دائرة الفتوحات فلما أخذت مصر أعدتها مخزنا للدولة تستخرج منه ما تحتاج اليه من محصول الزراعة وجعلت الاسكندرية مركزا للتجارة وتكثير البضاعة فكانت المعارف المصرية بالنسبة لدولة رومة من الاغراض الثانوية

وقد اقتدى أغسطس بالاسكندر الاكبر حيث رخص للمصريين فى التمسك بدينهم وأباح لهم التعبد بمقتضى أصولهم ولم يمنعهم من شئ فى عقائدهم

وعوائدهم فصاروا يجددون الهيا كل لاصنامهم فى أى اقليم من الاقاليم المصرية أو النوبية ويصلحون ما تهدم منها حتى انهم كتبوا على مبانيهم اسم أغسطس قيصر لتخليد اسمه وتأبيد رسمه وفى أيام هذا القيصر الرومانى كان ظهور عيسى بن مريم على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى السلام فكان ميلاده قبل الهجرة بستمائة واثنين وعشرين سنة بعد ولادة ابن خالته يحيى ابن زكريا بثلاث سنوات ويولد عيسى عليه السلام الذى حصل بعد نحو عشرين سنة مضت من ملك أغسطس أرخ النصارى فيما بعد تواريخهم وهو روح الله وكلمته ألقاها الى مريم وأصل عيسى فى اللغة العبرانية التى هى لغة أمه وآبائها ايشوع وسمته النصارى يسوع وسماه الله تعالى وهو أصدق القائلين عيسى ومعنى يسوع المخلص بتشديد اللام وينعت بالمسيح ومعناه الصديق وكان من خبره عليه السلام أن مريم ابنة عمران بينما هى فى محرابها اذ بشرها الله تعالى بعيسى تخرجت من بيت المقدس وقد اغتسلت من الحيض فتمثل لها الملك بشرا فى صورة يوسف بن يعقوب أحد خدام القدس فنفخ فى جيبها فسرت النفخة الى جوفها فحملت بعيسى كما تحمل النساء اذ حلت نفخة الملك منها محل اللقاح ثم وضعت بعد تسعة أشهر على الاصح بقرية بيت لحم من عمل القدس فى يوم الاربعاء خامس عشرى كانون الاول وتاسع عشرى كيهك سنة ٣١٩ للاسكندر فقدمت رسل ملك فارس فى طلبه ومعهم هدية لها فيها ذهب ومر ولبان فطلبه هيردوس ملك القدس ليقتله وقد أنذر به فسارت أمه مريم به وعمره سنتان على حمار ومعها ابن عم لها وهو يوسف النجار حتى قدموا الى أرض مصر فسكنوها مدة أربع سنين وذلك انهم حين وصلوا الى مصر نزلت به أمه الى مدينة بسطة فى رابع عشرى بشنس فلم يقبلهم أهلها فنزلوا بظاهرها وأقاموا أياما ثم ساروا الى مدينة سمنود وعدوا النيل الى الغربية ومشوا الى مدينة الاشمونين فدخلت مريم بعيسى عليه السلام وظهرت له فى الاشمونين آية وهو ان خمسة جمال زاحمتهم فى مرورهم فصرخ فيها المسيح فى الاشمونين فصارت حجارة ثم انهم ساروا من الاشمونين وأقاموا بقرية تسمى فيلس مدة أيام ثم مضوا الى القوصية وكان بها أصنام فصاح من جوف الاصنام صائح وقال ان امرأة أتت ومعها ولدها يريدون أن يخربوا

بيوت معابدكم فخرج اليه مائة رجل بسلاحهم وطردوهم عن مدينة القوصية
فمضوا الى ناحية ميرة فى غربى القوصية ونزلوا فى الموضع الذى يعرف اليوم
بدير المحرق وأقاموا به ستة أشهر وأياما فرأى يوسف النجار فى منامه قائلا
يخبره بموت هيرودس ويأمره أن يرجع بالمسيح الى القدس فعادوا من ميرة
حتى نزلوا حيث الموضع الذى يعرف اليوم فى مدينة مصر بقصر الشمع
وأقاموا بمغارة تعرف اليوم بكنيسة بوسرجه ثم خرجوا منها الى عين شمس
فاستراحوا هنالك بجوار ماء فغسلت مريم من ذلك الماء ثياب المسيح وقد
اتسخت وصبت غسالتها بتلك الاراضى التى تنبت البلسان هنالك وكان اذ
ذاك ينبت البلسان بالاردن فانقطع من هنالك وبقى بهذه الارض وكثر الماء
بالبئر الموجودة هنالك حيث سال عليها الماء الذى غسلت منه مريم فهذا سبب
تعظيم النصارى لهذه البئر وذكر بعضهم ان من خواص مصر النيدة وهى
عسل القمح ولا يوجد فى الدنيا اصطناعها الا بمصر وقد ذكر الحكماء أن
السيدة مريم عليها وعلى ولدها الصلاة والسلام صنعت النيدة للسيد عيسى
عليه السلام حين قل لبنها فألهمها الله تعالى عملها ومن المعلوم أن النيدة أكثر
اتخاذها فى منشأة اخميم المسماة بمنشأة النيدة ولم يزل عملها باقيا بها الى الآن
ولم يذكر أحد من المؤرخين أن مريم ذهبت بعيسى عليه السلام الى تلك
الجهات من الصعيد وانما قال بعضهم ان مريم أقامت أيضا بابنها باهناس
المدينة بالصعيد حتى قيل ان أمه ولدته بها وان فيها النخلة التى ذكرت فى قوله
تعالى وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا وان هذه النخلة
تسمى نخلة مريم وانها لم تزل باقية باهناس المدينة الى آخر أيام بنى أمية والذى
عليه الجماهير أن عيسى عليه السلام انما ولد بقرية بيت لحم وجاءت به أمه الى
مصر وعمره سنتان وانه أقام فى مصر أربع سنين ثم عادت به أمه ومعها يوسف
النجار وعمر عيسى ست سنين فنزلت به مريم قرية الناصرة من جبل الجليل
فاستوطنتها فنشأ بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة فسار هو وابن خالته يحيى بن
زكريا عليهما السلام الى نهر الاردن فاغتسل عيسى فيه فحلت عليه النبوة
لثلاثين سنة ولم يتنبأ غيره الا على رأس الاربعين فمضى الى البرية وأقام بها
أربعين يوما لا يتناول طعاما ولا شرابا فأوحى الله اليه بأن يدعو بنى اسرائيل

الى عبادة الله تعالى فطاف القرى ودعا الناس الى الله تعالى وأبرأ الاكمه والابرص وأحيا الموتى باذن الله وبكت اليهود وحصل ما حصل مما سيأتى ذكره فى الفصل الآتى وفى السنة الرابعة عشرة من ميلاد عيسى الموافقة لسنة ٦٠٨ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية كان موت أغسطوس الذى هو أول قياصرة الرومانيين وعمره ست وسبعون سنة بعد ان حكم ثلاثا وأربعين سنة حكومة ملوكية غير مدة الرياسة الجمهورية وتولى بعده على الرومانيين قيصر طيبروس ثم ان لفظ أغسطس ويقال فيه أيضا أغسطوس ومعناه الرئيس الاعلى كما سبق يطلق عند الرومانيين على كل ملك من ملوكهم فهو بمنزلة قيصر وامبراطور فهى ألقاب ثلاثة مترادفة على معنى واحد

(الفصل الثالث)

(فى الملك طيبروس قيصر الاول ويسمى طباريوس)

تولى هذا الملك قيصر سنة ٦٠٨ قبل الهجرة

وهذا القيصر هو ثانى امبراطور من امبراطرة الرومانيين خلف أغسطس على الدولة الرومانية وولى على مصر عاملا من طرفه يسمى أمليوس أولوس فاجتهد هذا العامل فى تقرير خراج مصر زيادة عما كان قرره عليها أغسطس وبعث يستأذن طيبروس فى ذلك فأجابه هذا القيصر بقوله نعم أشتهى من الراعى تسمين ما يرعاه ولا أرضى منه أن يذبحه وهذا نظير ما صدر فى صدر الاسلام من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لعامله لما أراد مثل ذلك وزاد فى الخراج زيادة فائقة الحد حيث كتب اليه ان اللقحة قد درت ولكن أجاعت أولادها وقد خلف هذا العامل عدة ولاة تعاقبت على مصر فى مدة طيبروس منهم ألبوس سيان وهو الذى تكبر وتعاظم جدا ليخشى بأسه ويجل قدره فى أعين الناس وتكمل هيبته فكان جوره وختله كجور طيبروس وختله وعتوه لان طيبروس كان جبارا عنيدا ماكرا ومخادعا منافقا يظهر خلاف ما يبطن بدليل أنه فى مبدا توليته على رومة أراد أن يخلع نفسه من الملك قائلا ليس لى فضل فى السياسة والتدبير كفضل أغسطس بل قبل اقدامه على

التولية ترجاه مجلس رومة فى أن يكون قيصر الرومانيين فلم يتول الا كرها وأظهر انه لايحب أن يكون امبراطور وهذا نظير ما وقع من السلطان قانصوه الغورى حين اختاروه للسلطنة على مصر وحين سئموا منه بعد ذلك فجمعهم وأظهر انه يريد خلع نفسه من السلطنة فأبقوه فمكايد الملوك قد تتفق مع اختلاف الازمنة والامكنة وفى الحقيقة كان أغسطس أهلا لحكومة الدولة الرومانية فانه لما تولى لقب نفسه أميرا ولم يرض أن يكون ملكا ولا سيدا فقد ساس الرومانيين وماسادهم ورعاهم وما استرعاهم وأما طيبروس فلم يرض أن يلقب امبراطور يعنى أمير العساكر بل تسلطن وقال أنا مولى الرعايا وسيدهم وهم عبيدى وأمير العساكر وقائدهم وهم جنودى وملك الاهالى وسلطانهم وهم فى قيودى وقد كان يرى ان اهداء جميع أنواع التعظيم والتبجيل بالنسبة لمقامه شئ قليل وقد استوزر من يلائم طبعه من الامراء وهو أليوش سيان نائب مصر وجعله آلة لجبروته ووسيلة عظمى لطاغوته وكان هذا الوزير بطانة سوء فأشار على طيبروس بقتل عائلة أغسطس فقتلهم على التدريج واحدا بعد واحد ولم يبق منهم الا القليل ثم استشعر هذا القيصر بان وزيره يريد أن يتغلب على الملك ويستلبه من يده فأمر بقتله وطرحه فى الميدان العمومى ففرح الاهالى بذلك ومن قواجته وفى أول ولاية هذا القيصر كان العثور فى بلاد العجم على الفيل الذى أخذه الاسكندر من بوروس يعنى فيروز ملك الهند ووسمه ونذره لكوكب الشمس وأطلقه محترما ظهره اكراما للمعبوده كما تحرم عند العرب الابل التى يصل راكبها الى الحرم النبوى كما قال الشاعر

وإذا المطى بنا بلغن محمدا * فظهورهن على الرحال حرام

والرحال بالحاء المهملة فلما عثروا بهذا الفيل استدل على أنه طويل العمر وقد تقدم ذكر ذلك فى الفصل الرابع عشر من ملوك الدولة الحادية والثلاثين قال فى حياة الحيوان وقد حكى ارسطو أن فيلا ظهر أن عمره أربعمائة سنة واعتبر ذلك بالوسم انتهى والواقع أن الفيل يعيش هذا القدر من السنين كما نص عليه أيضا غير الدميرى من علماء المواليد ونظير هذه الغريبة ماحكاه ابن خلكان قال ان فى أثناء سنة ٦٦٠ توجه عسكر الشأم الى انطاكيا فأقاموا عليها قليلا ثم رجعوا فأخبرنى بعضهم بغريبة وهى أنهم نزلوا على جرود وهى

بين دمشق وحمص فاصطادوا حمر وحش كثيرة فذبح رجل حمارا وطبخ لحمه فبقي يوما بوقد عليه ولا ينضج لحمه ولا يتغير ولا يقارب النضج فقام جندى وأخذ الرأس فوجد على أذنه وسما فقرأه فاذا هو بهرام جور فلما أتوا أحضروا تلك الاذن الى فوجدت الوسم ظاهرا وموضع الوسم أسود وهو بالقلم الكوفى وبهرام جور من ملوك الفرس كان اذا كثر عليه الوحش وسمه وأطلقه وحمر الوحش من الحيوانات المعمرة وهو لعله عاش ثمانمائة سنة وأكثر انتهى كلام ابن خلكان ونقله عنه صاحب المنتقى من تاريخ الاسلام لمحمد ابن الذهبي كما نقله أيضا عنه الدميرى فى حياة الحيوان وبعد أن أورد هذه الغريبة قال ان حمر الوحش تعيش أكثر من مائتى سنة ثم قال وقيل انها تعيش أكثر من ثمانمائة سنة ثم نقل عن الجاحظ أن أعمار حمر الوحش تزيد على أعمار الحمر الاهلية قال ولا يعرف حمار أهلى عاش أكثر من حمار أبي سيارة وهو عميلة بن خالد العدوانى كان له حمار أسود أجاز الناس عليه من المزدلفة الى منى أربعين سنة انتهى ومن العجب أن ثلاثة من أكابر الفضلاء ينقلون مثل هذه الغريبة ويعتقدون أن الحمار الوحشى يعيش ثمانمائة سنة فأزيد مع علمهم أن العمر الطبيعى للحمر ولو وحشية هو نحو الخمسين بموجب الناموس الطبيعى الذى اقتضته الحكمة الالهية ويعتمدون فى ذلك على الوسم باسم بهرام جور مع أنه يمكن أن يصطاد أحد من المتأخرين حمارا وحشيا ويسمه باسم هذا الملك الاعجمى تذكارا لتولعه بالصيد فمن عثر عليه ظن أنه من وسم بهرام جور فلعل حمار هؤلاء الفضلاء الذى هو مطية قولهم من هذا القبيل ويدل على ضعف قولهم كون الاسم بالقلم الكوفى الذى لا يصح على وجه مستحسن أن ينسب لبهرام جور فى تلك الازمان ولو تفطنوا لمثل هذه الدقيقة لحققوا النقل وناقشوا فيه لكن تهافتوا فى أمثال هذه الغريبة وحكاية هذا الحمار الوحشى أشبه بحكاية ابن بطوطه فى سياحة الصين عن شيخه المعمر عدة قرون وكحكاية أهل السودان المتواترة عن عبد العزيز القندرى الذى نقلوا عن أهل قندر أنه عاش فوق اربعمائة وخمسين سنة مع أن الاعمار الاستثنائية يعني النادرة جدا فى الازمان الجديدة لا تكاد تبلغ المائتى سنة والتثبت أولى فى مثل هذه الامور وكان هذا القيصر سفاكا للدماء

حاقدا على جميع الأكابر والأعيان تكره أهل رومة منظره واعتكف في جزيرة قريبة من رومة وانزوى فيها ليبعد عن أعين الناظرين ويفعل ما لا يليق بالمنصب الملوكي فاختلى في هذه الجزيرة مع شركائه في الفسق والخبائث وآوى اليه أرباب الرذائل والدنايا وشبيه الشيء منجذب اليه وجعل هذا المحل مقتله ومذبحه فكل من أراد قتله أحضره من رومة الى هذا المحل وقتله وأغرقه في الماء من محل مخصوص بالجزيرة معد لذلك وفيه آلة تكبس على الغرقى فتكسر عظامهم حتى لا يعيشوا بعد السقوط في الماء وكان له بهذه الجزيرة قصور فاذا أراد أن يتماشى حولها للنزاهة يسأل الساعي عن حال الطريق حولها هل هي خالية من الناس أولا

ومع بطشه وفتكه فكان في ارتياب عظيم وخوف على نفسه فكانت ذمته مترددة موسوسة تجيك فيها الآثام وتتحرك فيها الشبهات والوساوس فكأنما نيران ذمته المتوقدة ترعى أحشاءه وطالما كان يسأل العرافين والكهان ويزجر الطائر في كل مكان وأوان ليتعرف عاقبة أمره والباقي من عمره ولما أحس بأن عمره قد دنا وأشرف على القدوم الى دار البقاء والخروج من دار الفناء تكلف كتمان سره على من سواه وأظهر التجلد وأخفى نصبه وعناه فبينما هو خارج من وليمة من الولائم اذ أبصره حكيمه فوجده بحال غير موافق للحالة الطبيعية ولا ملائم وان علامات الموت قد نشرت عليه آثارها وأنشبت المنية أظفارها وان عيشته أضغاث حالم بعد ظهور هذه العلائم فانذر أهل الديوان بأن القيصر لا يعيش أكثر من يومين وانه سينعق على رأسه عما قريب غراب البين فأرسلوا سعاة لقواد العساكر فكان أول حاضر منهم ومبادر الامير قاليغولا بن جرمانيقوس فأمسك زمام الحكومة واستولى عليها فما يشعر الا وقد رجعت للقيصر حواسه واستنار بعد الظلام نبراسه فارتعب جميع الناس غاية الارتعاب وهربوا وارتابوا غاية الارتياب فقام أمير مبارك الطلعة ميمون يسمى الامير مقرون فلف القيصر في بردجة وثقل عليه بها حتى صارت فوقه كالغمة وكان هذا القيصر هرما قد ناهز السبعين أو الثمانين فمات لحينه في سنة ٥٨٥ قبل هجرة سيد الاولين بعد أن حكم ثلاثا وعشرين سنة

وقبل موته بأربع سنين رفع عيسى بن مريم الى السماء وقصة رفعه مشهورة فى قصص الانبياء وبين العلماء وملخص ذلك انه لما تنبا وأظهر المعجزات المذكورة فى الفصل السابق وأمر اليهود بالزهد فى الدنيا والتوبة من المعاصى آمن به الحواريون وكانوا قوما صيادين وقيل قصارين وقيل ملاحين ولا مانع أن يكونوا من هؤلاء الطوائف الثلاثة وعددهم اثناعشر رجلا وصدقوا بالانجيل وكذب به عامة اليهود وضللوه واتهموه بما هو برىء منه فكانت له ولهم عدة مناظرات آلت بهم الى أن اتفق أحبارهم على قتله وطرقوه ليلة الجمعة فقيل انه رفع عند ذلك وقيل بل أخذوه وأتوا به الى بلاطس النبطى شحنة القدس من قبل الملك طيباريوس قيصر وراودوه على قتله وهو يدفعهم عنه حتى غلبوه على رأيه بأن دينهم اقتضى قتله فأمكنهم منه وعندما أدنوه من الخشبة ليصلبوه رفعه الله اليه وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة وثلاثة أشهر فصلبوا الذى شبه لهم كما أخبر الله تعالى فى قوله ولكن شبه لهم وما أحسن قول المتنبى

ما مقامى بأرض نخلة الا * كمقام المسيح بين اليهود
انا فى أمة تداركها الله * غريب كصالح فى ثمود

وقد اشتهر هذا الملك بأنه هيكل الظلم وشخص الجبروت ومع اتصافه بهذه الخصال الذميمة فكان له فضائل ومعرفة بالسياسة والتدبير فقد كانت أيامه فى رومة أيام سلم وصلح مع الاجانب ولم يحصل فى مملكة الرومانيين المنتظمة أدنى اختلال وكانت العدالة موجودة فى الاقاليم والعمالات وكانت أموال الخزينة الرومانية مدبرة موفرة فقد وجد فى بيت مال الرومانيين بعد موت هذا القيصر خمسمائة وخمسون مليونا من الفرنكات واشتغل كثيرا بالعلوم والآداب وألف وصنف وتعلم باليونانية واللاطينية ولكن اغتال تآليفه يد الضياع بمجرد ما خلت من ذات الملوكية الرباع واليه تنسب طبرية بالشأم فهى مأخوذة من اسمه

(الفصل الرابع)

(فى الملك قاليغولا قيصر)

تولى امبراطورية الرومانيين فى سنة ٥٨٦ قبل الهجرة بعد وفاة عمه طيبروس وكانت مدة حكمه نحو أربع سنوات واستبشر به الرومانيون فى طالعة أمره لاسيما وانهم كانوا قد نجوا من طغيان طيبروس وكذلك مما أوجب فرحهم به أنه ابن جرمانيقوس الذى كان من فحول الرجال المحبوبين للرومانيين فلقبوا ابنه قاليغولا لحبهم اياه تبعا لمحبتهم لابيه فى مبدا حكمه نجم الدولة وولى نعمة الملة وكان فى أوائل حكمه على جانب عظيم من حسن السلوك وكمال الاستقامة كما توسم فيه جميع الرومانيين ذلك ثم لما مرض مرضا شديدا وشفى منه تغيرت طباعه واختلت أحواله واستحالت الى حالة سيئة جدا حيث اعترته الحماقة التامة والميل لارتكاب الكبائر والمآثم وسفك الدماء والغدر والاتصاف بسائر القبائح

فقد تشبث بان يحيط به أرباب اللهو واللعب وأهل السخرية والهذيان والتجاهر بالمعاصى والخطايا فكان يفعل اللهو واللعب فى المحافل العامة وعلى رؤس الاشهاد ويدعو لذلك أرباب المجلس الرومانى وكل من لم يستحسن هذه الالعاب ويظهر الانبساط منها والاعجاب يقتله حالا ومن رفع صوته فى ميدان اللعب أمر بجلده وضربه ضربا مبرحا فقد اتفق ذات يوم فى عقد مجلس الالعاب أن هذا الملك كان ينافس بين الفضائل الرومانية ويفاضل بينها وبين المحاسن اليونانية ويجادل فى التفضيل بينهما فتركت عامة الرومانيين مجلس اللعب وانفصلوا عنه فصاح هذا الملك قائلا ليت الامة الرومانية لم يكن لها الا رأس واحدة يشير الى أنه كان يسهل عليه قطعها وكثيرا ما أمر بطرح من قصر من اللاعبين عند الحضور فى ميدان اللعب وقذفه بين المتفرجين عقابا لتقصيره وربما قطع لسانه حذر أن يصيح فى الميدان فيكدر على أهل المجلس

وقد ارتكب غاية التبذير ونهاية الاسراف فى الحظوظ والشهوات حيث أنفق على ذلك ما أبقاه سلفه طيبروس من الاموال فكان يأمر باعمال الجسور والقناطر على البحر فكأنه يأمر بالمحال مما يظهر فى خيال ذهنه الدال على الاختلال ويعمل الصنادل والزوارق المرصعة بالجواهر ويجعل فى هذه السفن حمامات وغرفا مزينة وأشجارا وأزهارا مرونقة وقد اصطنع اصطبلا بناه من المرمر لفرس كانت عليه عزيزة وعمل فى الاصطبل لها حوضا من العاج

ورصع طوقها باللؤلؤ والمرجان وقيد اسمها فى دفتر القسيسين والاحبار ووعد أن هذه الفرس تصير ذات يوم من الايام حاكمة على الرومانيين ويكون لها عليهم الامر والنهى وكان يسقيها الخمر فى الاكواب من الذهب وهذا من أعجب العجب

وأمر فى حق نفسه أن تصطنع صورته ويتخذ منها تماثيل عديدة حتى توضع فى جانب الاوثان والاصنام فى جميع الهياكل والمعابد الموجودة فى كافة المدن الرومانية ليكون من جملة الارباب وجعل لنفسه قسيسين خصوصيين يتقربون الى تمثاله المتخذ من الذهب الابريز بذبائح الطواويس والسمان وكل طير نادر الوجود عزيز فكم سبق فى ملوك الدنيا حاكم بأمر الله يفعل فى رعيته مشتهاه ولعل مثل هؤلاء الملوك المتجاوزة فى الاحكام الحدود صار فى حقهم المبالغة والمغالاة أكثر مما نسب اليهم مما ليس بمعهود والا فكيف يتصور أن أمة من الامم تطيع الحاكم المختل وتطيق اختلاله وتنقاد الى امتثال ما به أمر وحكم وهل كان وزراؤه مثله فى الاختلال والا فكيف بلغ منهم هذا المبلغ فى الانقياد والامتثال لاسيما وان الامة الرومانية كانت متمدنة وذات قوانين محكمة متقنة فيبعد أن يكون ما حكاه المؤرخون عن مثل هذا الملك وقائع حرفية والا لما الفرق بين الامم المتمدنة والخشنية فى الاحوال العسفية ولعل هذا فى التواريخ من القضايا الانحرافية أو التحريفية وبالجملة فكان عظم جبروته على قدر جسامة حمقه فكان اذا أمر بقتل انسان أمر بحضور أبويه وأقربائه ليشهدوا مقتله فاذا اعتذر أحدهم عن الحضور بمرض مثلا بعث بنعش يحمله عليه يشهد قتله وكان لا يحاوله قتل أحد ولا تعذيبه الا وهو على المائدة وكان يوصى الجلاد بالتعذيب وكان ذات يوم فى وليمة حافلة وفيها أرباب مجلس رومة متكاملة فضحك هذا الملك وقهقه من غير سبب فسأله من بجانبه من أرباب المجلس عن سبب هذه القهقهة فقال لهم انما السبب هو أنى ان أردت أن أقتلكم قتلتكم بأدنى اشارة ومع أنه كان طاغية جبارا وداهية غدارا فلم يكن شجاعا ولا هماما ولا باسلا مقداما بل كان يرجف قلبه من أقل الاشياء ولا يستطيع فى الصف أن يقابل الاعداء فقد سار فى غزوتين احداهما الى بلاد جرمانية والثانية الى بلاد بريطانية فلم يكتسب غير الجبن

والعجز وعاد من غير أن يرى صف الاعداء سع الخيبة ومع ذلك فكتب فى سفره الى مجلس رومة يقول لاربابه بينما أنتم عاكفون على اللذات ومنبسطون على بساط الشهوات فانا معرض نفسى للاخطار باقتحام العقبات وكان أشد القياصرة ظلما حتى انه طلب من اليهود نصب وثنه ببيت المقدس فمنعوه ووقعت فى أيامه شدة على النصارى ويقال ان امرأة من بيت الملك تنصرت فى أيامه فعضدت النصارى ولقى النصارى الذين بالقدس الشدائد من اليهود وكذلك لقى اليهود فى أيامه شدة فانه أول سنة من ملكه غزا نائب مصر اليهود واستعبدهم سبع سنين وفى الرابعة من ملكه أمر عامله على اليهود بفلسطين أن ينصب الاصنام فى محاريب اليهود ببيت المقدس فلما عظم فى الاساءة حاله وثقلت على قلوب الجميع أفعاله قتله الامير خيرياس فى قصره وخلص العالم من جنونه وأسره وكان ذلك فى سنة ٥٨١ قبل الهجرة وبموته قرت الاعين

فألقت عصاها واستقربها النوى * كما قر عينا بالاياب المسافر

وفى أيامه كان العامل على مصر من طرفه أوليوس فلاقوس فحصل فى أيام ولايته فتن عظيمة فى مدينة الاسكندرية بأن نائب مصر المذكور أساء السلوك فأوجب اظهار اليهود العداوة لحكم الرومانيين على مصر فقاموا على الحكومة وأظهروا العصيان وصمموا على القتال فبعزل النائب المذكور وقتله سكنت الفتنة وتولى على الرومانيين بعد مقتل قاليغولا المسمى أيضا قايوس الامبراطور قلودس الاول

(الفصل الخامس)

(فى الملك قلودس الاول قيصر)

تولى هذا الملك امبراطور على الرومانيين فى سنة ٥٨١ قبل الهجرة وأمر توليته عجيب وذلك أنه لما قتل سلفه فى قصره دخل العساكر القصر الملوكى للنهب والسلب فبينما أحدهم يفتش على شئ ينتهبه اذ عثر بشخص طويل القامة أصلع الرأس مختف وراء الفراش ترتعش جميع جوارحه فاقد الحواس فاستبان أنه قلودس من آل بيت جرمانيقوس فسلم عليه الجنود بالقيصرية ولقبوه امبراطور الرومانيين وحملوه على تختروان وذهبوا به الى المعسكر

ووضعوه هنالك فأفاق هذا الامير من فزعه وبايعه الحرس الملوكى فأنعم على كل واحد منهم بخمسة وعشرين دينارا ليستميل قلوبهم اليه ويعتمد على صداقتهم ووعد بقية الجنود أن يغمرهم بانعامه

ماقيد الحر كعبد الشرا * وأطلق الالسن الا السخا
فكن كريما لا تخف فاقة * مايعقب الشدة الا الرخا

وقال آخر

اذا وضعوا تيجانهم فضراغم * وان نزعوا تيجانهم فبدور
على أنهم يوم النزال قساور * ولكنهم يوم النوال بحور

وقال آخر

اذا كان لى فى دولة المرء غبطة * ولم يغشنى احسانه ورعايته
فسيان عندى موته وحياته * وسيان عندى عزله وولايته

وبالجملة فالهبا تفتح اللها فكان هذا أصلا للاتحافات الملوكية والانعامات القيصرية ورسما من رسوم ابتداء التولية للخلافات فلا تتخلف هذه العادة حيث صارت سنة متبعة

وكان هذا القيصر مجردا من المكر والحيلة منزها عن الغدر والاذى كثيره وقليله وانما كان على غاية من الحمق والغفلة حتى كانت أمته تلقبه من زمن الطفولية بأضحوكة العالم وبالصورة الخيالية لانه كان فى مهده مبتلى بداء الهزال حتى أورثه نحافة الجسم وسخافة العقل فكان أشبه بالخيال ومع ذلك فكانت له مشاركة فى الانشا فقد ألف تاريخ رومة وقرطاجة وأحسن ماوشى ولما كان هذا القيصر عاجزا عن حمل اعباء الملك وتدبيره أوكل ادارة المصالح للمعاتيق والموالى وقلدهم بادارة أموره وكانوا أصحاب شرور وقبائح والمشهور اثنان ممن تقلد منهم رياسة المصالح أحدهما يقال له بلاص والثانى يسمى نرجساف كانا أعز وزرائه وأعظم أمرائه وكانا يغريانه على ارتكاب الجور والعدوان وعلى قتل أخيار الناس من الوجوه والاعيان وكان لهذا القيصر زوجة خبيثة تسمى مسالينه وكانت ممن يشكرن العشير ويكفرن الكثير من الخير واليسير فكانت تبغضه وتحقد عليه طمعا فى زواج شاب من الامراء تميل اليه فقصدت ذات يوم قتله لتولى محبوبها قيصرا بدله على

الدولة فانكشف له منها الخيانة وآنس منها خدش وجه الامانة فقتلها بدون عطف ولا حنانة ومن ذلك الوقت صحا من غفلته وداخلته الحماسة غب يقظته وتطور من طبعه الى طور آخر جديد وتزوج بزوجة أخرى أيم تسمى أغريبنه وهي بنت جرمانيقوس من نسل أغسطس ولكنها ليست فى الخيانة دون السابقة بل عنها تزيد وكانت ولدت من زوجها الاول نيرون الجبار وكان للقيصر ولد آخر من ضرتها ودائما تغار منه ومن أمه وتطمع فى تولية مملكة الرومانيين لابنها الغدار وتحرم منها أخاه ابن ضرتها كما هي فعال الاشرار وخصال أهل النار فصممت على سقى السم لزوجها قلودس فجهزت له سما بطيأ فشرب به ولم يمت فى الحال فخشيت على نفسها من ظهور هذه الخيانة وان تذوق ماذاقته ضرتها من المذلة والاهانة فأرسلت لحكيم يسمى زنفون وأشركته معها فى قتل هذا القيصر وسقيه كأس المنون فأظهر هذا الحكيم أن يسقى الملك علاجا الاستفراغ ما فى جوفه فأدخل ريشة مسمومة فى حلقه فكانت سببا فى تعجيل حتفه فمات لوقته فى سنة ٥٦٨ قبل الهجرة بعد أن حكم ثلاث عشرة سنة وكانت على الرومانيين مرة بالمرة

وفى مدة حكمه وقعت فى مصر واقعة بين يهود الاسكندرية ومن بهذه المدينة من اليونان وحصلت بينهما فتنة عظيمة اقتتل فيها الفريقان فأسكن هذا الملك فتنة اليهود وأعطاهم رخصة بأن ينتخبوا لهم نقيبا منهم يحكمهم على حسب مالهم من المواثيق والعهود وفى أيامه كتب متى حوارى انجيله فى بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدى الى الرومية وكذلك كتب بطرس رأس الحواريين انجيله بالرومية ونسبه الى مرقص تلميذه وكتب لوقا من الحواريين انجيله بالرومية وبعث به الى بعض الاكابر من الروم ثم عظم الفساد بين اليهود بعضهم مع بعض فبعث أقلوديس عساكر الروم فقتلوا من اليهود خلقا كثيرا وجلوا الى انطاكيا ورومة من اليهود سبيا عظيما وخربت القدس وانجلى أهلها عنها فلم يول عليهم القياصرة أحدا لخرابها وافترق اليهود على فرق كثيرة ولسبع من ملك هذا القيصر دخلت بطريقة من الروم فى دين النصارى على يد شمعون الصفا فجاءت الى القدس لتظهر دين النصارى ورجعت الى رومة وكذلك اتسعت فى أيامه بمصر دائرة العلوم والمعارف وتأسس فى الاسكندرية دار

علوم متحفة بالتحائف واللطائف وتحسنت بها المدارس والمكاتب وعادت لما كانت عليه من علو الشأن والمراتب ولكن كان اجتهاد العلماء والفضلاء لا يوازى كرامة الحكومة لهؤلاء النبلاء فان اكرام الدولة كان أجسم من تحصيل العلوم من هؤلاء الاجلة

(الفصل السادس)

(فى الملك نيرون قيصر)

تولى هذا الملك الامبراطورية فى سنة ٥٦٨ قبل الهجرة المحمدية وحكم ثلاث عشرة سنة كثيرة السيئة قليلة الحسنة وكان نيرون ربيب أقلودس فتبناه وزوجه بنته أوقطاوه

وكيفية توليته أنه فى أثناء احتضار قلودس ومعالجته فى نزع روحه أظهرت زوجته أغربينة أم نيرون غاية الاسف والحزن وبالغت فى ذلك وأظهرت أيضا أنها تريد أن تسلى نفسها وتصبرها على هذا المصاب العظيم فى زوجها وكان ابنه من ضرتها المسمى ابريطانيقوس يشبه أباه فذهبت اليه وعانقته وضمته الى صدرها وقالت له انك على صورة أبيك قلودس الذى نحبه فلا يسلينا عنه غيرك وانا لا نقدر على فراقك فكانها تقول

فانظر الى الولدين من أدناهما * شبها بوالده فذاك الماجد

فألانت له الكلام وخادعته ومنعته أن يخرج من القصر وأن يظهر بين الاهالى وأمرت الحراس أن يغلقوا جميع أبواب القصر ومنافذه وأن يشيعوا زمنا بعد زمن أن القيصر قلودس قد تناقص مرضه وحصل التحسين فى صحته وأنه مشرف على الشفاء

وفى أثناء هذه المدة صارت تداهن الجنود وتواسيهم بالهدايا والانعامات فبهذا دبرت التدابير اللازمة لتولية ولدها نيرون فلما تم لها الدست وأيقنت بنجاز مرامها فتحت أبواب القصر على حين غفلة واذا بنيرون خرج وصحبته بوغوس رئيس الخفر القيصرى فدخل هذا القيصر فى وسط الخفر الملوكى فتلقوه بالترحيب والكرامة وبايعوه ثم ذهب الى المعسكر الرومانى وتلا عليهم مقالة رسمية تتضمن تشويق الجنود واحياء قلوبهم ووعدهم بالانعامات الجمة

كانعامات أبيه فسلموا عليه بالقيصرية والامبراطورية الرومانية وصدق على هذه المبايعة العسكرية أرباب مجلس رومة وأهل الحل والعقد بالمدينة وبهذه الطريقة وثق هذا القيصر بأن لا يتوقف فى مبايعته أحد فى الايالات الرومية ثم جهزوا جنازة قلودس مع غاية الاحتفال وشيعوها بما يليق بمقامه القيصرى من الاجلال

ولم يكن عمر نيرون اذ ذاك الا خمس عشر سنة فحكمت أمه بالنيابة عنه وكان يظهر من حاله أنه يصير قيصرا جليل الشأن وكان فى حال شبوبيته يستشير معلمه بورغوس وسناخس فى جميع أطواره وأحواله حيث استوزرهما وكان الاول ممتازا بمعارفه العسكرية وشهامته وحسن استقامته كما كان الثانى ممتازا بذكاء قريحته وقوة فطنته وحسن سلوكه مع الناس بمكارم الاخلاق فلما أراد الملك تلاوة المقالة الرسمية على جمعية الاهالى الرومانية أنشأ له سناخس مقالة تتضمن الوعد منه للاهالى أنه يحكمهم ويسوسهم على موجب أصول أغسطس وقوانينه العدلية ومما يحكى عن هذا القيصر من الكلمات الدالة على أنه يرجى خيره لمدينة رومة أنه ذات يوم عرضوا عليه قضية حكموا فيها على انسان بالموت ليكتب بالاجراء والتنفيذ فصاح قائلا ياليتنى كنت أميا ولما مدحه مجلس رومة قال لارباب المجلس أمسكوا عن المدح حتى استحقه وكان يظهر من حاله أنه يألف الحلم والعدل فبان منه فيما بعد خلاف ذلك فقد كان هذا القيصر ظالما غشوما قليل التدين بدين من الاديان فانه لما بلغه أن كثيرا من أهل رومة تدينوا بدين النصرانية كره ذلك منهم وأمر بقتلهم حيث وجدوا وقتل بطرس رأس الحواريين الذى كان بطركا برومة منذ خمس وعشرين سنة وكان بطرس المذكور زيادة عن كونه رأس الحواريين رسول المسيح الى رومة فولى بدله أريوس بطركا عليها وقتل مرقص الانجيلى بالاسكندرية لثنتى عشرة من ملكه وكان هنالك من منذ سبع سنين بها مساعدا على اشهار النصرانية بالاسكندرية ومصر وبرقة والمغرب وولى مكانه حنانيا وهو أول البطارقة بالاسكندرية واتخذ معه الاقسة الاثنى عشر وقتل أيضا هذا القيصر رئيس كهنونية اليهود بالمقدس فثار اليهود على من كان بالمقدس من النصارى وقتلوا أسقفهم هنالك وهو يعقوب بن يوسف النجار وهدموا البيعة وأخذوا

الصليب والخشبتين ودفنوها الى أن استخرجتها هيلانه أم قسطنطين وولى مكان يعقوب النجار ابن عمه شمعون ثم ثار بهم اليهود وأخرجوهم من المقدس لعشر خلون من ملك نيرون فأجازوا الاردن وأقاموا هنالك وبعث نيرون قائده المسمى وسباسيانوس ويقال له اسباشيانس وأمره بقتل اليهود وخراب القدس فتحصن اليهود من هذا القائد وبنوا عليهم ثلاثة حصون فحاصرهم اسباشيانس وخرب جميع حصونهم وأحرقها وأقام عليهم سنة كاملة وهذا كله بخلاف ما كان يعهد من نيرون فى ابتداء أمره فبهذا وغيره من أفعاله الشنيعة ظهر جبروته واستبانت دناءته واختل حاله وساءت أفعاله ونزع أمه من النيابة عنه ولم يمكن لوزيريه السابقين منعه من اتباع هوى نفسه فأوجبهم الامر أن وافقاه على مرغوبه ولم يخجلا من ذلك وأما أمه أغربينه فكانت تحب أن تكون نافذة الكلمة على الحكومة بجاه ابنها وكان جل قصدها أن تبلغ بغيتها وتنفذ أحكامها من الجنايات وخلافها فكان قتل النفس عندها كلا شئ لبقاء الملك فى قبضة ولدها ولتمكنها من أنواع التصرفات فاشتكت من سلوك ولدها وأوضحت لرؤساء الجنود أنها تخشى ضياع الملك من يده بواسطة أبريطانيقوس ابن ضرتها وانها تبغى زواله حتى تأمن على الملك فصمموا من ذلك الحين على قتل ابريطانيقوس فبينما هو ذات يوم على المائدة القيصرية مع الاقارب والحواشي اذ وقع مغشيا عليه وذلك لان نيرون اصطنع له كأسا مسموما وسقاه له على الاكل فلما رأى الحاضرون سقوطه تفرقوا ما بين مرجوف وخائف ومن بقى منهم على المائدة صار مبهوتا ينظر شزرا الى نيرون ويشخص اليه بالبصر وأما نيرون فكان لا يبالى بذلك بل اضطجع على فراشه ومد رجليه كأنه لا يعلم سبب موت أخيه بل قال للحاضرين ان موته بمرض كان فيه من زمن طفوليته وان موته عادى ودفنه ليلا بدون احتفال لجنازته وقسم أمواله وأملاكه على الموالسين معه فى قتله

ومن هذا الوقت أحاط بهذا القيصر أرباب الفسق والعصيان وأصحاب اللهو واللعب والالحان وقطاع الطريق وخوان الرفيق وجلسوا معه على فرد خوان وصار يلبس فى الليل للتنكر تبديلا وتخفيا ويتزيا بزى المماليك متردیا ويطوف باطراف المدينة وأكنافها وصحبته المعاكيس المناحيس

ينهبون الحوانيت ويؤذون المارين ولا ايذاء العفاريت ولكون هذا القيصر متنكرا لا يكاد يعرف للاهالى فى طوافه حتى اذا تقاتل معهم ضربوه ضربا موجعا أثر فيه تأثيرا ذريعا ثم علم الاهالى أنه هو الذى يطوف ليلا مع قطاع الطريق فاقتدوا به فى ذلك وكثر التعدى والسلب والنهب ليلا من المفسدين حتى صارت رومة فى الظلام كأنها هى مدينة أخذت عنوة وقد جرح هذا القيصر فى بعض الليالى جراحة شديدة فى قتاله مع الاهالى فاحتاط من ذلك الوقت واحترس من وقوع مثل ذلك فلم يطف بالليل الا ومعه ما يكفى من العساكر المتنكرة اللباس ومن المصارعين المتبذلين لئلا يعرفه بهم أحد من الناس ثم ان أم هذا القيصر التى هى أمر منه وأدهى كانت تشتهى أن تأمر دائما وتنهى ويكون فى يدها زمام المملكة فلم تملك مقصدها فى ذلك حيث كان ابنها يمنعها من تنفيذ أغراضها ولا يمكنها من ذلك فقصدت أن تصنع طريقة فى اعادة نفوذها بالقهر والغلبة ولكن كان ابنها مغرى من بطانته ووزرائه وكانوا يشيرون عليه فى جميع أموره بالمفاسد والقتل والنهب والسلب فكان يسلك سبيل الاصرار على أفعاله القبيحة الآخذة دائما فى الزيادة فلما أنس من أمه ما أضمرته له من المكاره اشتد بغضه لها وأضمر قتلها ليستريح منها وكان من أشد أمرائه فتنة وافسادا أنيقاطوس أمير السفن القيطرية فدبر للقيصر الحيلة فى قتلها وهو أن يصطنع سفينة مخترعة عجيبة الشكل والهيئة بأن يكون جزء منها منفصلا عن أجزائها الحقيقية متصلا فى الظاهر بها بحيث لو سقط فى البحر تبقى السفينة بتمامها كاملة ولا يخشى عليها من الغرق فاستحسن القيصر هذا التدبير فاصطنع الامير السفينة بهذه المثابة وأظهر القيصر أنه يريد أن يعمل عيد الهيكل عطارد فى مدينة بايس التى على ساحل نابلى وكان لهذا القيصر فى هذه المدينة قصر ملوكى وحمامات ومنتزهات فدعا أمه وأفهمها أنه يريد عمل المواسم هنالك وأنه بمناسبة ذلك يصالحها ليزول ما فى النفوس بينها وبينه فصدقت قوله وحضرت فى الحال راكبة سفينة وكان هو فى المينا لاستقبالها فلما أرست سفينتها استقبلها بأحسن تشريف وتلطيف وأخذ بيدها وضمها الى صدره ولا زال يكثر من الملاطفة والتودد حتى مضى يوم العيد فذهب ما كان بها من الوحشة والنفور وزال عنها البأس

والوسواس ثم ذهب ليودعها الى جهة الساحل وكانت السفينة حاضرة ومزينة بزينة تليق بها فأنزلها فيها وافترقا على وجه جميل وهي لا تدري ما نصبه لها من الشرك فسارت مع السلامة صوب مقصدها وكان السير في ليلة مقمرة تحسن فيها الملاحة فبينما هي قد دخلت السفينة في بحبوحة البحر اذ أعطيت الاشارة على حين غفلة للملاحين بما أضمر لهذه الاميرة فانخسف مقعدها وانفصل عن السفينة وسقطت بها وبمن معها من أتباعها الالواح في البحر فصاحت احدى النساء المصاحبات لها وقالت أنا الاميرة أغربينة أم القيصر ظنا أن تنجو بذلك من الغرق فضربها بعض الملاحين بمجذاف فقتلها

وأما أغربينة أم القيصر نفسها فلم يحصل لها من سقوطها في البحر الاجرح هين وكانت تحسن السباحة والعوم فسبحت حتى وصلت الى سفن تجارية باحدى المين الرومانية ناجية بنفسها فلما عرفوها أوصلوها الى بيتها في ضواحي بلدتها وقد فهمت بما كان دبره لها ابنها من الهلاك ووجدت أن سكوتها عن ذلك أولى وأنه لا ينفعها الاعدم اظهار أنها فهمت الحيلة فكتبت لابنها ما مضمونه قد نجوت بالالطاف الالهية من الغرق وتخلصت من الخطر العظيم فارتجف قلب نيرون من ذلك وارتعدت مفاصله وعلم أنه قد خاب في تدبيره وأن حيلته لم تنفع لما سبق في علم الله وتقديره وخشي من أمه انها ان عاشت وبقيت على قيد الحياة لابد أن تثير عليه فتنة عظيمة وتغري عليه العساكر والقواد وأرباب الحل والعقد فسعى في طلب قتلها بسائر الوسائل الموصلة الى ذلك بأي شئ كان وألح في ذلك على كثير من أرباب الفساد والعصيان وعرض عليهم واحدا بعد واحد هذا الامر وطلب منهم الغدر فبرز له صاحب الحيلة الاولى وتعهد بقتل هذه الاميرة ليكون له على ابنها بقتلها اليد الطولى فصاح القيصر قائلا لهذا الجلاد ان صدق قولك فانا قد صرت من الآن فصاعدا قيصر رومة وما يتبعها من البلاد وأما أنت فلك على اليد البيضاء ولابد أن أكافئك أيضا فقتلها من ليلته انيقاطوس الاثيم وأخذ ثنيها في عنقه ليكون للقيصر أصدق صديق وأعز حميم فلما بلغ القيصر مقتلها أشاع أنها قتلت نفسها واختارت مفارقة رومة بالحلول في رمسها فمن ذلك الحين صفا الوقت لنيرون الجبار وخلا له الجو وصار يفعل برومة ما يشاء ويختار

لقد انفردت بملك رومة فافرح * مات الذى قد كنت منه تستحى

فصار يفعل مابدا له بدون أن يخجل من شئ ما وصار يتعدى الحدود ويجول فى ميدان السفاهة والدناءة فكأنه ماتمكن من الحكم وتسلطن الاليتمرد ويتشيطن وكانت له زوجة عفيفة حسنة الاخلاق جيدة السيرة تسمى أوقطاويه قل أن يوجد مثلها فى الآفاق فعشق امرأة تسمى بوبه وكانت من الخواطئ فصارت له محبوبة فعقد عليها عقد زواج وأمر بقتل الاولى وفى حالة قتلها كان عاكفا على اللهو واللعب مشغولا بسماع المرقص والمطرب فى المحافل العمومية والملاعب الاهلية وقد اتخذ ملعبا عظيما ضرب اليه من جميع الجهات الاسوار وكان ميدانا رحبا خصصه لحظ نفسه فى السر والاجهار فكان يأوى اليه فى الليل والنهار ويجرب نفسه فى اللعب والغناء والرقص وسوق العربات ويفعل ذلك بنفسه واذا احتاج الى المتفرجين والمستمعين احتفل بخدمه وحشمه وحشدهم فى الميدان أجمعين أكتعين أبصعين فيلعب أمامهم ويابتذاله نفسه أضعف بالنسبة اليه احتشامهم ولايزال يجرب نفسه فى هذا الميدان حتى وصل فى جميع هذه الفنون على كمال الاحسان والاتقان بحيث تأهل للعب فى المحافل العامة فكان يركب الابل ويعدو عليها ويجمع الحيوانات للهراش ويصطنع الولائم يدعو اليها الخواص والعوام وينفق عليها كرائم الاموال الجمة وجزيل الانعام ولايدع أحدا من الاهالى الادعاه للحضور ليفوزوا بالحظوظ والحبور فكان رعاع الناس اذذاك لا يطلبون الا اللعب والقوت ويقنعون بالكفاف من ذلك الغرض الممقوت

قالت أراك مع الانذال تصحبهم * ومن يصاحبهم فى عمره يهن
لايصحب المرء الامن يوافقه * متى رأيت الظبا والاسد فى قرن
أجبتها مظهرا عذرى ومنشدها * بيتا به تضرب الامثال فى الزمن
يقضى على المرء فى أيام محنته * حتى يرى حسنا ماليس بالحسن

وقد طلا جدران هذا الملعب بالذهب الابريز وكساه من حلل السندس المطرز أحسن تطريز وعمل الاشراك والشبك الذى يصطاد به من القصب المصنوع من الذهب والفضة وكان اذا ذهب هذا القيصر الى الملعب سار

بألف عربة تسحبها البغال المتعلقة باللجين وكان يصحبه أيضا سائسوا الخيل والسعاة متجملين بالملابس متزينين بأنواع النفائس وكان يطلق فى ميدان اللعب أصناف البخور الثمينة كالمسك والعنبر وينفق فى ذلك كله على الالعاب مالا يحصى من الاموال ولا يحصر

وبينما هو عاكف ذات يوم على أنواع اللهو واللعب مشغول ومشغوف بما يعجب المتفرجين ويطرب اذ حصل فى مدينة رومة حريق هائل رعى المدينة فى أقرب وقت وسرى فى اطرافها وأكنافها واحترق من أهلها الجم الغفير وخرج الناس منها مبادرين بالفرار فنجا من نجا وتلف من تلف ولم يستطع أحد اخماد النيران وكل من تعرض لاطفائها سمع صوتا يهدده ويتوعده من غير أن يرى شخصه بل كان الناس يبصرون شعل النيران الملتهبة ترمى فى المدينة وبها أصوات تصيح نحن مأمورون بذلك وكان القيصر على ما يقال فوق منارة عالية ينظر الحريق على بعد ويتفرج عليه مستحسنا لذلك المنظر الهائل وكان اذذاك يرى اللاعبين ينشد الاشعار التى قيلت فى رسوم ترواده ومعالمها وأطلالها بعد خرابها ويتغنى بها متمثلا ولما وجد أن الاهالى قد خسروا منازلهم وأموالهم ومتاعهم وخرجوا من المدينة غب هذه الاهوال مجردين عن الذخائر والاموال أراد أن يجبر كسرهم فأذن لهم بأن يدخلوا فى ميدان تعليم العسكرية وفى غيره من الميادين القيصرية وأباح لهم سكنى بساتينه وبنى لهم الدور والمساكن حالا وفرشها لهم وأعطاهم بعض أدوات وآلات وأرخص أثمان الحبوب والغلال وكل هذا يستميلهم ويستعطفهم فلم يجد ذلك شيأ ولا مال اليه أحد من الاهالى حيث علموا أن هذا القيصر قد سعى فى خراب وطنه ولاسيما انه كان شرع فى بناء قصر متحف بالتذهيب والاحجار النفيسة وكان رسمه رسما متسعا وأدخل فيه البساتين والحدائق والمزارع والبرك والانهر والغابات والرياض والحياض فكانوا يقولون انه هو الفاعل للحريق والآمر به فلما علم منهم ذلك وكثر لغطهم به أراد أن يسكتهم فادعى أن هذا الحريق انما هو صادر من النصارى الذين جددوا دين عيسى بهذه المدينة وتشبث بهذه الوسيلة وتصدى بتعذيبهم واهلاكهم وكان تعذيبهم معدودا فى رومة من الافراح والمواسم فكانوا يلبسونهم جلود البهائم ويطرحونهم

الكلاب لتفترسهم وكانوا يصلبون بعضهم ويدهنون جلود بعض آخر بالادهان والزيوت والنفط والقطران فاذا أظلم الليل أطلقوا فيهم النيران وأوقدوهم كالمشاعيل ليستصبحوا بهم وكانت هذه الفعائل كلها تفعل فى حدائق نيرون وبساتينه بأمره وقت الالعاب الميدانية وكان يشاهد ذلك بعيني رأسه ويندرج بين الاهالى فى صورة عربجي أوفى صورة أخرى وفى هذه المحنة العظيمة قتل بطرس حوارى وبولص حوارى بعد أن جاهدا كل المجاهدة ودعيا الناس الى دين المسيح عليه السلام وكان استشهاد بطرس حوارى بالصلب واستشهاد بولص بضرب عنقه حيث كان رومانيا فتلطفوا به فى القتل

ثم أخذت رومة تتجدد شيأ فشيأ فاجتهدت فى تشييد مبانيها أعظم وأنظم مما كانت عليه قبل المحنة وفى أثناء ذلك قام أهلها على نيرون وأضرموا نار الفتنة وقصدوا بذلك ابطال الالعاب والملاهى فتحزب عليه أرباب المجالس والامراء والاعيان بل والنساء وترابطوا على ذلك سرا وكتموه بحيث لا يفشى الا باجراء مفعوله من طرف المتعصبين ولكن انفضح حال هذه الفتنة السرية فقبض على الاحزاب وصار عذابهم بأشد العقاب وكان من أعيانهم شخص يسمى سوبريوس فقال لنيرون لا أحد من العساكر يصدق فى خدمتك الا بقدر معروفك ومحبتك وأما أنا فقد شرعت فى بغضك من وقت ما صدر منك قتل أمك وزوجتك ومن وقت ما صرت عربجيا ولاعبا ومحرقا لرومة انتهى

وقد عذب بعض من اتهمه بالفتنة من أرباب الفضل والادب تعذيبا شديدا فقطع عروقه وفتح منازل الدم ولا زال يستفرغ دمه حتى مات بهذه الفعلة

وقد اتخذ نيرون مع منصب القيصرية على رومة صناعة الغناء وضرب الالحان واللعب فى الافراح العامة حتى انه قيد اسمه فى دفاتر اللاعبين والمغنين لانه شرع أولا فى انشاد الاشعار الحماسية وأراد أن يظهر بمظهر أرباب هذا الفن ليطرب الجلاس فطلب منه الامتحان فى الالحان وغير الالحان حيث أفادوه أنه لا يقبل دخوله فى أبناء الفن الا بالبحث والاختبار للوقوف على درجة فضله ورتبته فى هذا الاعتبار فتقدم فى الميدان العام بزى لاعب وعلى هيئة مناضل مضارب وفى صورة مغن فى الميادين والملاعب ولم يبصق ولا تنخم ولا مسح وجهه بل أمال أعطافه وترنح وحافظ على القوانين

والرسوم الواجب اتباعها فى الميدان ثم جثا على ركبتيه كالمتمنى للحاضرين لتستحسنه الاهالى فى تغنيه ففرحوا بذلك وابتهجوا ولعل ابتهاجهم انما كان سببه تعجبهم من قلة حرمته ومذلته وهوانه وأيضا لم يكن أحد من الاهالى مقتدرا على أن يظهر الكآبة والعبوس وقت لعب القيصر فى الميدان بل لابد من اظهار الالتفات والمسرة والاعجاب وكان لا يستطيع أحد أن يكدر على مجلس اللعب ولا على المتفرجين والا فلا يلومن الا نفسه فكان بالميدان حراس متفرقون فى الاطراف والاكناف يعاقبون من حصل منهم أدنى خلل حتى ان الامير وسباسيانوس الذى صار فيما بعد قيصرا على رومة لما تناوم وظهر منه غطيط قصد القيصر قتله فى نظير ذلك ولولا شفاعة من لا ترد شفاعته عند القيصر ما نجا من القتل وكذلك بوبه زوجة القيصر ومحبوبته لما قالت له انه لاعب عجيب اللعب على سبيل التهكم رفسها برجله فى بطنها رفسة عنيفة كانت سببا فى موتها

وقد قصد نيرون سفر بلاد السودان فانتقل من رومة ورسا على بلاد اليونان ليغزوها غزوة لعبية حتى يشهدوا له بالبراعة فى فنه وحروبه اللعبية فاستصحب جنوده وكانوا من أرباب الالحان والمغنين فتسلحوا بالعيدان والمزامير وغيرها من آلات الطرب ونزل بهم مدينة قورنثيه وكان يونان هذه الجهة دون غيرهم يعرفون هذه الفنون حق المعرفة فانتصر عليهم نيرون فى هذه الحروب الالعابية فنزل تماثيل فحول الرجال الذين اشتهروا فى سالف الاعصار بالاسباق فى الالعاب الاولامبيقية وانتصروا فيها وحازوا قصب السبق فى ميدان الفخار والالعاب الاولامبيقية نسبة الى أولمبيه بلدة ببلاد اليونان وكان بها موسم يجتمع اليه الناس فى كل أربع سنين كسوق عكاظ وفيه تكتسب الامتيازات اليونانية وبهذه المواسم المتكررة كل أربع سنوات يؤرخ اليونانيون وقائعهم فيقولون حادثة كذا وقعت فى الاولامبياق الاول أو الثانى أو الثالث وهكذا كالسنة من الميلاد أو من الهجرة فهذا الاولامبياق عبارة عن عقد أربع سنوات

فلما أنزل نيرون تماثيل فحول اليونان بالقول على انه انتصر عليهم تقديرا كان هذا بمنزلة التحقير لقدماء اليونان ومع ذلك فقد صانع الاهالى وصفقوا لهذه

النصرة التخيلية تملقا ونفاقا كأنهم شهدوا لهذا القيصر بالبراعة والفوقان على الاقدمين وكانت هذه الواقعة كما تقدم بمدينة قورنتيه باقليم أخايا وكان اذ ذاك هذا الاقليم تحت استعباد الرومانيين فأعتق اقليمهم وأعاده للحرية كما كان أولا حيث شهدوا له فى الالعاب بكمال البراعة واستحسنوا منه اتقانه هذا الفن واحكامه لتلك الصناعة وكان ذلك فى نحو سنة خمسمائة وخمسة وخمسين قبل الهجرة فكانت غنيمته من هذه الحروب استحسان ألعابه التى يعدها من المفاخر وليست فى الحقيقة الا من قبيل الهزئيات والمساخر

فقد رضى من الغنيمة بالاياب بل باء بصفقة المغبون غب الغياب حيث خسر الاقليم الذى استولى عليه سلفه بالاكتساب وداخله فى عودته الاختيال بنفسه والاعجاب ووقع استحسان اليونان للعبه منه أعظم موقع فلما دنا من مدينة رومة هدموا له جانبا من أسوار المدينة فدخلها من هذا النقب راكبا عربة مسحوبة بخيول بيض لابسا حلة أرجوانية ملوكية وخودة مرصعة بنجوم فضية وذهبية وعلى رأسه تاج النصرة اليونانى المصطنع من أغصان الزيتون البرى وفى يده اكليل آخر يونانى من شجر الغار وكل هذا علامة على الانتصار وأمامه جماعات حاملون ألفا وثمانمائة اكليل مكتوب عليها أسماء المسابقين المناضلين الذين حازوا قصب السبق فى مضمار الفخار واستحقوا الامتياز بين الاقران بهذه الاكاليل والتيجان وحول عربة هذا القيصر ينشد المغنون فخره وانتصاره وأمامه المباخر والعطريات يعبق شذاها فى سائر النواحى والجهات وأناس كثيرون ينثرون الازهار واللاكى فى هذا الموكب العالى المتلالى وهذا يذكر التالى

من الكرك جانا الناصر * وجاب معه أسد الغابة
ووكيتك ياشيخ هنطش * ما كانت الا كدابه

ثم لم يكتف هذا القيصر بهذه المفاخرات والامتيازات بل أمر أن يصنعوا تماثيله ويصوروه على هيئة أرباب الطرب والالعاب وأن توضع هذه التماثيل فى الميادين العمومية على هذه الصورة الرسمية وأن ترسم بهذا الوجه على النقود والسكة القيصرية ولمحبته فى تحسين نغمه وجهورية المغنى الخارج من فمه أمسك عن كثرة الكلام والتزم الصمت حتى عن الامر والنهى فى

الاحكام وقلل الكلام مع جنده وخادمه وعبده خشية أن يضعف حسه ليبلغ من ترخيم الانغام أنسه فكان يعد هذه الاجادة من كمال الشرف والمجادة

فهذه مناقبه فى حياته وأما كيفية مماته فكان سببها أنه لما أخل بناموس ذاته الملوكية وبحرمة مروأته القيصرية وتجاوز الحد الى هذا الحد وفقد صفة الشرف العليه ومنقبة المجد سئم الاهالى من الانقياد لمثل هذا القيصر الذميم والملك الوضيع اللئيم وخيم الخيم عديم التربية البعيد عن التكريم فصمموا جميعا على مجازاته بسوء فعله واستحسنوا المبادرة بقتله وكان من جملة الاقاليم الرومانية أقليم فرانسا القديم التى كانت أهله تسمى الغلية وكان نائب هذا الاقليم يسمى ونديش من ذرية ملوك تلك الجهة فحقد على نيرون وناواه وقصده بالحرب عسى أن يملك من الاستراحة منه مناه وعرض تقليد مملكة الرومانيين على نائب رومة فى اسبانيا وكان يسمى غلبا وكان ذلك فى سنة ٥٥٤ قبل الهجرة فلما أحس بذلك نيرون أرسل قائد جنود بروسانيا الى ونديش قائد الغلية فقتله وتجهز هذا القائد الجرمانى ليساعد القيصر على غلبا المنتخب للقيصرية فبلغ قائد جنود جرمانيا الخبر بأن مجلس الرومانيين استصوب مبايعة غلبا فأحجم عن المعونة

وأما نيرون فقد أيقن انه لا محيص له عن الهلاك وتصور الموت نصب عينيه وتقاعس عن الحظوظ والشهوات وهرب من رومة مع أربعة من عتقائه واختار سكنى الفلوات فنزل بقصر له فى الخلاء على البعد من رومة باميال قلائل وقد دلت على قرب حينه الدلائل فأشار عليه بعض أصحابه بقتل نفسه بنفسه وتقربه بالطوع والاختيار الى الحلول برمسه وأن هذا أولى من قتل أخصامه له فلم يشجع نفسه على ذلك لانه كان يخشى من الموت وينفر منه كل النفور ولم تسمح نفسه بسماع قول الشاعر لو كان فى زمانه

قد قلت مذ كروا الحياة وأطنبوا * فى الموت ألف فضيلة لا توصف
منها أمان لقائه بلقائه * وفراق كل معاند لا ينصف

فطالما كان ينوح على نفسه ويندبها ويقول كيف يجوز قتل مثلى وهو صاحب فن نفيس ولسان حاله ينشد

لو يعلم الدهر مني ان مصطبرى * يغتال صرف الليالى ثم يفترس
كانت جياد الرزايا كلما اطردت * تحوم حول دموعى ثم تنعكس

فبينما هو على هذه الحالة اذ سمع صهيل الخيل وصريرسنا بكها وقد حضر الفرسان وقبضوا عليه فقال لهم هيا بنا فقد أوجبت الشجاعة على أن أقتل نفسي حين لا حيلة لى فيما دون ذلك

أبت لى همتى وأبى حيائى * وأخذى الحمد بالثمن الربيح
واجشامى على المكروه نفسى * وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما اجشأت وجاشت * مكانك تحمدى أو تستريحى
لادفع عن مآثرصالحات * وأحمى بعد عن عرض صريح

فهم بقتل نفسه وشجع نفسه فلم تشجع وكلما عمد لقتل نفسه بيده وفيها الخنجر رفع يده من الخوف فأخذ بعض أحبابه يده قابضة على الخنجر ووضعه على منحره ليشجعه فتجلد لذلك وطعن نفسه فأزهقها وكان موته فى سنة ٥٥٤ قبل الهجرة فاستراحت الامة من ظلمه وعسفه يقال انه وجد على سيف بختنصر كتابة أعجمية فعربت فى هذه الابيات

الشر مصراع له سطوة * يستنزل الجبار عن عرشه
وأنت ان لم ترج أو تتقى * كالميت محمولا على نعشه
لا تنبش الشر فتبلى به * فقلما يسلم من نبشه
اذا طغى الكبش بلحم الكلى * أدرج رأس الكبش فى كرشه
ونابش الموتى له ساعة * تأخذه أنبش من نبشه
لله فى قدرته خاتم * تجرى المقادير على نقشه

فمن هذا يفهم ان بختنصر الجبار كان يعتقد وحدانية الله وقدرته فقد قال بعضهم نقلا عن وهب بن منبه انه بعد أن رد الله بشريته بعد المسخ ورد عليه روحه دعا الى توحيد الله تعالى وقال كل اله باطل الا الله اله السماء فقيل لوهب أمات مؤمنا فقال وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فيه فقال بعضهم آمن قبل أن يموت وقال بعضهم قتل الانبياء وخرب بيت الله المقدس وأحرق كتبه فغضب الله عليه فلم يقبل منه التوبة وقد تقدم ذكره فى الكلام على الملك نيخاوس الاعرج أحد ملوك الدولة السادسة والعشرين فالبيت الاول

أصـدق بيت قيل فى وعد الظالمين فقد صدق فى صاحب السيف المرقوم عليه وفى غيره ومن أحسـن ماقيل فى وصف دعوة المظلوم على الظالم قول بعض الاعراب فى أبيات لا بأس بذكرها هنا

وسائرة لم تسر فى الارض تبتغى * محلا ولم يقطع بها البيد قاطع
سرت حيث لم يحد الركاب ولم تنخ * لورد ولم يقصر لها القيد مانع
تمر وراء الليـل والليل ضارب * بجثمانه فيـه سمير وهاجـع
اذا وفـدت لم يردد الله وفدها * عـلى أهلها والله راء وسامع
تفتح أبواب السموات دونها * اذا قرع الابواب منهن قارع
وانى لارجو الله حتى كأننى * أرى بجميل الظن ما الله صانع

ومدح بعضهم انسانا وشبه سمو همته بدعوة المظلوم فقـال

كلفت هـمتك السمو فحلقت * فكأنما هى دعوة فى ظالم
وطئت بأوطان النجوم فكم لها * من مارد قذفت اليه براجم

وللسراج الوراق فى هذا المعنى

توق ممـن سـؤته دعوة * تطلع حيث السهم لم يطلع
ما كبد القوس اذا أرسلت * فيها الذى فى كبد الموجع

وبموت نيرون الظلوم الغشوم وانقطاع حكـمه الذى كان على الرومان من أعظم البلاء والشوم انقطعت عائلة قيصر أغسطس وتم أمر الامبراطورية للقيصر غلبا قال بعضهـم ان نيرون مع ما كان عليـه من الطغيان والعدوان واللهو واللعب والهذيان كان ينتخب نوابه من أرباب الفضائل فكانوا جميعا يحسـنون السـياسة والتدبير فى كافة الاقاليم والبلدان وكان حريصا على الوقوف على الحقائق والكشف عن تفاصيل الجزئيات والدقائق فقد أناب عنه فى مملكة مصر بلبياوس فأحسـن فيها الصنيع وأصلح أرضها وأخصبها بتدبير النيل المبارك على وجه رفيع وكان لهذا القيصر أعتناء بتحسين الديار المصرية وكمال رغبـة فى الوقوف على حقيقة المنابع النيلية فلهذا بعث من الرومانيين جماعة ليستكشفوا هـذه المنابع فأدوا واجب سياحتهـم فى الاقطار السودانيـة على وجه جليل فقد حكى من شاهد أرباب هذه السياحة حين عودهـم من السودان انه اجتمع باثنين من رؤسائهم وسمع منهما شفاها

ما ملخصه

قد وصلنا بعد سياحة طويلة وسفرة مستطيلة الى ملك السودان فأعطانا الزاد والراحلة وأمدنا بالذخائر الطائلة وأعاننا على تتميم هذا السفر وقضاء الوطر بأن أوصى علينا الملوك المجاورة لبلاده فأذنوا لنا بالجولان فى بلادهم والتقدم فيها والتعمق فى أقاصيها فسرنا حتى انتهينا الى محال ذات بحيرات وبطائح وبرك يتعذر السير فيها للغادى والرائح لكونها مجهولة المعالم والمسالك غير مطروقة لاهالى تلك الممالك لكونها مملوأة بالاشجار المتكاثفة والحشائش والاعشاب المتلافة فبهذه المثابة وبتكاثف غروسها يعسر التطرق فيها بل يتعذر فلا يستطيع دخولها الماشى الخائض فى مائها ولا يستطيع الراكب أن يسير بمطيته فى أرجائها وقد وجدنا هنالك صخرتين عظيمتين تخرج عندهما المياه بغاية القوة فما علمنا هل هما منابع هذا النيل السعيد أو منابعه بعدهما وان هذين المنبعين فى أثناء طريقه ومنبعه الحقيقى بعيد انتهى

ومن المحقق أن نيرون كان أشغل نفسه بمصر وتعلق قلبه برؤيتها حتى انه عزم على أن يسافر اليها وتجهز لذلك وكان اذذاك نائبه طقسوس أخاه من الرضاع فأرسل اليه يعلمه بقدومه الى مصر وأرسل القيصر رسلا يشعرون بقرب قدومه ويجهزون ما يليق باستقبال ذاته القيصرية فجهزوا له ما يلزم وصنعوا له حمامات خصوصية حسب العادة والرسوم ليدخلها عقب القدوم فتجاسر نائبه طقسوس واغتسل فيها فكان هذا بالنسبة للقيصر مما يخل بالناموس الملوكى فلما علم القيصر بتلك الجسارة أمر بقتل النائب ولم يراع أخوة الرضاع ولا حق النيابة والامارة

انى لاعزق فى الرجال مخادعا * يهدى الصفاء ووده ممذوق
مثل الغدير يريك قاع قراره * لصفائه والقاع منه عميق

فما أحسن قول الطغرائى

أعدى عدوك أدنى من وثقت به * فحاذر الناس واصحبهم على دخل
فانما رجل الدنيا وواحدها * من لا يعول فى الدنيا على رجل

وحين أشرف القيصر على حد الارتحال الى الديار المصرية حلت فى مدينة رومة فتن داخلية فقتل هذا القيصر الشرير يوم ان عزم على المسير فى صباحه

وأطفأوا بفراغ زيت ذاته نور مصباحه وكان ذلك فى سنة ٥٥٤ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة كما تقدم الكلام على ذلك فى أول الفصل السادس

(الفصل السابع)

(فى الملك اسليفيوس غلبا قيصر ويقال له غلبان)

تولى هذا القيصر أمبراطورا على الرومانيين عقب انقراض عائلة أغسطس فى سنة ٥٥٤ قبل الهجرة وحكم سنة واحدة وكان غلبا المذكور من عائلة شهيرة بالحسب والنسب بين عائلات ايطاليا وكان شيخا كبيرا معمرا نحو ثلاث وسبعين سنة فاجتمع الجنود الرومانية فى مجلس للشورى بينهم فأجمعوا أمرهم سرا فى أن يكون لهم الحق أن ينتخبوا قيصرا من غير مدينة رومة فانتخبوا هذا القيصر المعمر وكان موسرا بالمال لكن بخيلا صعب الاخلاق مدققا فى الادارة والتدبير مشددا فى الصرف والانفاق لا يلائم طبعه طبع الرومانيين فى الكرم وانما انتخبه الجند على ما فيه من هذه العيوب ظنا انه لشيخوخته لا يعمر زمنا طويلا ورجاء انه بتوليته ربما تسهل أخلاقه وتتغير طباعه ويتخلق بالسخاء والكرم وينالهم منه ما يتمنونه من جزيل الاحسان والنعم وتوسموا فيه أنه أقل ما يعطيهم من العطايا عوائدهم ومرتباتهم التى عودهم عليها اسلافه من القياصرة عند التولية فان هذا رزق لا مقطوع ولا ممنوع فلا يتوهم الحرمان منه وكما ان الجنود كانت على هذا الامل كان الاهالى أيضا يؤملون منه أملا آخر فكانوا ينتظرون منه أن يعمل لهم مواسم وأعيادا وولائم وملاعب عمومية لمنافعهم الخصوصية وكان جميع ذلك بخلاف رأيه ومذهبه ومعدودا بالنسبة اليه من النوافل بل من الاسراف والتبذير

فلما لم يجدوه وفى بشىء من ذلك بل أمسك عن الانعامات المعتادة للعساكر المنتخبة ولغيرهم التمسوا منه الوفاء به التماسا رسميا فما كان جوابه الا أن قال أنا أختار عساكرى أحسن اختيار ولا أشترى خدمتهم بدرهم ولا دينار ثم عاقب وزراء نيرون وعزلهم واستوزر غيرهم وأمرهم سرا بالاقتصاد وتقليل

الايراد والمصرف على قدر الامكان محاذرا على حسن التدبير كما قيل

حذر أمور الانخاف وآمن * ماليس منجيه من الاقدار

فضيقوا على العساكر وقتروا عليهم كمال التقتير فاغتاظوا واجمعوا من سوء هذا الترتيب المبنى على شح هذا الشيخ الكبير فبهذا السبب كان الخلاص من العجب فلم يقتصروا على نزع الملك من يده بل صمموا على انتزاع روحه من جسده

اذا أراد الله أمرا مضى * ولم يقو حى على رده

ولله در من قال

اذا المرء أحمى نفسه كل شهوة * لصحة أيام تبيد وتنفد

فيا باله لايحتمى عن حرامها * لصحة مايبقى له ويخلد

وكان بمدينة رومة انسان من عائلة قديمة ماجدة يبسط للكرم يده ويمد للشجاعة ساعده يسمى مرقوس أوطون وكان شهيرا بسعة الاتفاق مثقلا بالديون للبذل فى مواساة الرفاق فلتحيز توليته قتلوا ذلك الشيخ الهرم بعد سنة من حكمه وأردفوه بوزيره المسمى بسقون اذ هو مثل قيصره على الشح شره ونهم فكان فى حالة الموت والحياة معطوفا عليه وشبيه الشئ منجذب اليه فتولى مرقوس أوطون فى سنة ٥٥٣ قبل الهجرة ولم تطل مدة حكمه ولاعلمت منه مضرة ولامبرة فسبحان من فاوت بين الخلق قيل لابراهيم عليه الصلاة والسلام اذبح ولدك فتله للجبين وقيل لبنى اسرائيل اذبحوا بقرة فذبحوها وما كادوا يفعلون وخرج أبو بكر الصديق رضى الله عنه من جميع ماله وبخل ثعلبة بن حاطب بالزكاة وجاد حاتم فى حضره واسفاره وبخل الحباحب بضوء ناره وكذلك فاوت بين الفهوم فسبحان أنطق متكلم وباقل أعجز من أخرس وفاوت بين الاماكن فزرود تشكو العطش والبطائح تشكو الغرق وهو سبحانه وتعالى الفاعل المختار يقلب القلوب كما يقلب الليل والنهار

(الفصل الثامن)

(فى الملك مرقوس أوطون قيصر)

قد اختارت جنود رومة تولية مرقوس أوطون فى سنة ٥٥٣ أمبراطور عليهم لشهرته بالكرم عسى أن يفوزوا منه بانهمال ديم النعم وكأنه بما استتر

عندهم من الفضائل هو المعنى بقول القائل

سألت أخاه البحر عنه فقال لى * شقيقى الا انه السائغ العذب
لنا ديمتان ماء ومال فديمتى * تماسك أحيانا وديمته سكب
اذا انشأت برية فله الندى * وان نشأت بحرية فلى السحب

ومع ذلك فلم يصبهم شئ من فائض نعمته بل اقسموا معه رابض نقمته لانه ربما تولى القيصرية ورضيت به رومة والديار المصرية كانت جنود الرومان فى جرمانيا قد بايعت أيضا ويطليوس المسمى أيضا ايطالس الذى هو قائدهم قيصرا على الرومانيين فحصل حرب داخلى بين الفريقين ولما تلاقى الجمعان واصطف الفريقان بدون حضور الامبراطورين انهزمت عساكر أوطون وانتصرت جماعة ويطليوس فلما أحس أوطون بانهزام جمعه وتحقق انطفاء نور شمعه قتل نفسه بعد أن حكم ثلاثة شهور فبهذه النصرة تحققت الامبراطورية الرومانية للقيصر ويطليوس وفى مدة حكم أوطون على رومة ولو كانت المدة هينة ضربت السكة باسمه فى مصر لانها أول من اعترف له بالقيصرية من الممالك الرومانية كما سبق حتى ان اسمه يوجد فى مبانى مصر العمومية مرسوما عليها دون سلفه وخلفه يعنى دون غلبا قيصر ومن بعده وهو ويطليوس قيصر فلم يوجد لهما اسم على المبانى العمومية المصرية وفى زمن القيصر مرقوس أوطون وفى عهد اثنين من خلفائه كان النائب على مصر طيبروس اسكندر من طائفة اليهود وسيأتى ذكره فى الكلام على وسباسيانوس قيصر

(الفصل التاسع)

(فى الملك ويطليوس قيصر)

لما تولى هذا الامير أمبراطور على الرومانيين فى آخر سنة ٥٥٣ قبل الهجرة ذهب الى مقتل خصمه الذى قتل فيه عدوه وأظهر الشماتة التى هى أقبح المثالب اذ لا أحد يأمن صروف النوائب

لا تظهرن لعاذل أو عاذر * حاليك فى السراء والضراء
فلرحمة المترجين حرارة * فى القلب مثل شماتة الاعداء

ثم قال لقوادعساكره ان جثة العدو المقتول هنا لا يزال يشم منها على طول الزمان وتداول الايام رائحة طيبة فمثل هذا القول الصادر من هذا القيصر الرومانى الذى كان أعظم ملوك الدنيا فى ذلك العصر يدل على خسته وقلة مروأته ولؤم طبيعته وانه لا يرجى منه خير لوطنه لان قصده بذلك أن هزيمة عدوه يتسبب عنها تنعيمه وتلذذه بالطعام والشراب والانهماك على اللذات والشهوات وسائر الاغراض الدنيوية الدنيسة بدون نظر لمنافع وطنية وقد تحقق منه ذلك فيما بعد

الناس أطوار اذا جربتهم * كالنبت فيه طيب وخبيث

وفى الخبر ان الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض فجاء منهم الاحمر والابيض والخبيث والطيب وقال بعضهم الناس معادن كمعادن الذهب والفضة وغيرهما

ضاعت مروأة أهل الارض كلهم * الا الاقل فليس العشر من عشره

لا تحمدن امرأ حتى تجربه * فربما لا يوفى خبره خبره

وقيل ان جملة الناس كالشجر والنبات منها ماله ظل وليس له ثمر وهو النافع فى الدنيا دون الآخرة فان نفع الدنيا كالظل السريع الزوال ومنها ماله ثمر وليس له ظل وهو الصالح للآخرة دون الدنيا ومنها ماليس له واحد منهما كام غيلان تمزق الثياب وليس لها طعم ولا شراب ومثاله من الحيوان الفأرة والعقرب قال الله تعالى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير وقد كان هذا القيصر نحيف البدن ضاوى الجسم يضيع أكثر ساعاته فى الجلوس على المائدة وباقى ساعاته يشغل نفسه فى الاوامر بجلب الاطعمة النادرة العزيزة الوجود من الاقطار الشاسعة والبلاد البعيدة وقد أحضر له أخوه فى يوم واحد ألفى سمكة وسبعة آلاف طائر من أغرب الطيور وأندرها وجودا وطبخها له وأحضرها على مائدته ليشكره على ذلك ويتحصل على الشرف والفخار فما كان من القيصر الا أن استخف بها وأظهر انها كلا شئ ووجد طريقة جلب بها أكثر من ذلك وأعظم ليظهر اقتدار نفسه وكانت مدة حكمه ثمانية شهور وأنفق فيها على مطبخه ما قيمته نحو مائتى مليون فرنك فلم يكن هم هذا القيصر الاحمق الا لبطنه بدون أن يشبعها أبدا وكان لا يشتغل

بشئ من مهمات المملكة ولا يتفكر فى حسن تدبير الحكومة بل يصرف همته فى المطاعم والمشارب فقد قيل عنه انه لما بلغه ان عساكر الرومانية والايالات المشرقية والديار المصرية قد بايعوا وسباسيانوس القائد الشهير على القيصرية الرومانية لم يتفكر فى ذلك ولا أهمه هذا الامر بل بقى نائما تحت ظلال الاشجار كالبهيمة السائمة لم ينتقل من محله معتمدا على أمرائه وجنوده موكلا أمره اليهم وهذا يقرب مما حكاه المؤرخون عن الخليفة الامين العباسى وهو مشغول بالصيد حين حربه مع أخيه وهجوم الجند عليه فانهزمت جنود هذا القيصر من جنود خصمه وأخذوا رمة منه فاختفى فى بيت أحد حجابه فقبضوا عليه وطافوا به المدينة مشدود الوثاق يسبه العامة فى طريقه ويضربونه ثم انتهى الحال بضرب عنقه ليلا فهو وان فاته الموت بالتخمة الحسية فقد أودت به الى الهلاك التخمة المعنوية وكان موته فى سنة ٥٥٣ قبل الهجرة

(الفصل العاشر)

(فى الملك وسباسيانوس قيصر ويسمى اسباشيانس)

تولى القيصرية فى سنة ٥٥٣ قبل الهجرة وانتهى حكمه فى سنة ٥٤٣ فكانت مدة حكمه عشر سنوات وسبب توليته القيصرية ان السلطنة الرومانية منذ أن صارت أمبراطورية بعد ان كانت جمهورية كان مضى عليها خمسون سنة بعظمها الاول ثم صارت بعد هذه المدة من تأسيسها قيصرية قد مالت بتعاقب القياصرة الذين لا رأى لهم ولا حزم عندهم ولا حسن سياسة ولا كياسة الى الانحطاط بعض ميلان وتنازلت عن درجتها القديمة وعن رفعة الشان وربما تلاعب بها أخصامها خارجا وداخلا ولم يرجح لها ميزان فكانت الاعجام تغير على ملحقاتها المشرقية المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة وكان رعاياها من اليهود فى بلاد فلسطين يعتقدون ان حكم دين عيسى بن مريم عليهم قد آن أوانه وان الرومانيين هم خلفاؤه وأعوانه وانهم ينفصلون عن رومة أو يستقلون بأنفسهم فكانوا يقومون على الرومانيين ويثيرون الفتن ويرفعون راية العصيان ويقاتلون ولاة أمورهم وكانت

الايالات المحكومة بالرومانيين تحاول مثل ذلك وتطلب الاستقلال فقد تحزب الامير قيوويليس الفلمنكي مع ايالة جرمانيا على الجنود الرومانية وكان يطلب انفصال الايالة الغلية عن حكومة رومة يعني استقلال أهالي فرانسا القديمة وما يتبعها وكان في الدولة الرومانية عائلتان شهيرتان بالبأس والكلمة احداهما تسمى عائلة الفلاوية والثانية تسمى عائلة الانطونونية فاجتهدت كلتاهما في رفع شأن الدولة الرومانية وسمو صيتها واعادة رونقها القديم ولم تكن العائلة الفلاوية ذات مجد أثيل ولا نسب عريق ولم يكن رئيسها وسباسيانوس صاحب مظهر عظيم بل كان يألف الخمول فلم تكن له شهرة عالية ولا صيت بعيد لان جده لم يكن الا ضابطا من ضباط بومبيوس وكان أبوه صيرفيا وأما هو فقد كان بطلا باسلا ومقداما فاضلا له حظ عظيم في الفضائل العسكرية ونصيب وافر من العارف الملكية فكان عصاميا لا عظاميا ولكن كان فيه البخل والطمع وهما خصلتان ذميمتان ومن المعلوم أن الخصال الذميمة تضر بالفضائل وكان له مداخلة قوية مع الاسكندر طيباروس الامرائيلي نائب الديار المصرية فلهذا توسط هذا النائب في قضية توليته حيث حمل الجنود الرومانية التي بمصر على المبايعة لهذا القيصر وانتخابه امبراطورا على الدولة الرومانية ولذلك كان اعتراف ديوان الاسكندرية بالامبراطورية سابقا على دواوين الايالات الرومانية وكان هذا تداخل هذا النائب الجسور فكان جزاؤه من هذا القيصر الفاجر كما جوزي مجير أم عامر فقد قتله بعد سنة وولى بدله لوبوس نائبا على مصر في سنة ٥٥٢ قبل الهجرة

وكان عمر هذا القيصر عند توليته ستين سنة فضاعف الخراج وزاد العوائد وجاوز الحد في ضرائب الاموال وأحدث مكوسا لم تكن قبل عهده وبلغ من طمعه انه كان لا يستحيي أن يقاسم خدمه وحشمه وأتباعه في الاموال المستفادة لهم من الشفاعات وكان يبعث الى الاقاليم عمالا يختارهم من المشهورين بالطمع والبخل ليعاقبهم فيما بعد بضبط أموالهم واستصفاء ما عندهم بالمصادرات وكان يشبههم بالسفنج ويقول ان السفنج متى عصروه أخرجوا ما فيه من الماء فكذلك العمال متى صار التشديد عليهم أخرجوا ما عندهم

كل امرئ راجع يوما لشيمته * وان تخلق أخلاقا الى حين

فلا غرابة من صدور تلك الافعال ممن اجتمعت فيه قلة الاصول وكثرة الفضول وخفة العقول وسوء الاخلاق وتكدير الضمائر ومخالفة الباطن للظاهر فالواثق بمثل ذلك على غرر والمتمسك به على خطر

عموا عن الخير واعتادت نفوسهم * فعل القبيح وظنوا أنه حسن

وكان الرومانيون ولوه عليهم لظن ضعفه وانتظار اللين والرفق وعدم التشديد عليهم ثم تبين لهم انه لم يظهر بعد اغسطس قيصر يد أصعب من يده ولا أقوى من سطوته وبأسه فى مسك زمام المملكة وحسن تدبيرها وسياستها فانه عمل فى المملكة الاصلاحات النافعة التى ابتهجت بها أيامه وافتخرت بها أحكامه واستولى على مدينة القدس الشريف بعد ان غلبت الرومانيون عليها اليهود بوجه عنيف وذلك انه أقام ولده طيطوس على حصارها وعاد هو الى ايطاليا فأخذ المدينة ولده عنوة بعد مقاومة عظيمة وهلك فى هذه الوقعة من اليهود ألف ومائة نفس بالقحط والاسر وبهذه انتهى خراب القدس الشريف كما أنذر عيسى عليه السلام حواريه حيث قال لا يبقى من هذه المدينة حجر على حجر ومن هذا الحين تفرق شمل اليهود فى الآفاق وتمزقوا كل ممزق وانتشروا فى الاقطار وتفرقوا أيادى سبأ وانقرض ملكهم ولم يقم بعدها قائم لهم فى شأم ولا عراق

ولما ملك طيطوس بيت المقدس رجع النصارى الذين كانوا عبروا الى الاردن فبنوا كنيسة بالمقدس وسكنوا وكان الاسقف فيهم شمعان ابن عم يوسف النجار وهو الثانى من أساقفة المقدس

ومع أن وسباسيانوس المذكور كان متصفا بحسن التدبير وجميل الخصال وكمال العدل لم تسلم مصر فى أيامه من الجور فقد جدد فيها مغارم لم يكن أحدثها أحد قبله وأوكل أمر جمعها وتحصيلها الى أرباب الخيانة من أعوانه فكانوا لا يرعون للرعايا المصرية الا ولا ذمة ولما شكا المصريون مظلمتهم لهذا القيصر قابلهم على ما قيل بالاستهزاء والسخرية ولم يقبل منهم صرفا ولا عدلا ولسان الفرح يناجى صبرا فان الفرج يفاجى

خفض عليك ولا تكن قلق الحشى * مما يكون وعله وعساه

فالدهر أقصر مدة مما ترى * وعسالأ أن تكفى الذى تخشاه

وذلك أن وسباسيانوس لما بلغ سن تسعة وستين سنة مرض مرضا شديدا يعز في مثله الشفا حيث أيس من نفسه اذ كان على شفا وكان من عادة الرومانيين اذا فارق الدنيا قيصرهم روحنوه بعد الممات ونظموه في سلك العلويات وعدوه في عداد الروحانيات فكان هذا القيصر يمزح في محفل تقديسه بحضر كاهن دينه وقسيسه ويقول قد آن تقديس نفسي بالروحانية ونظمي في سلك الارواح العلوية ولما أحس بدنو أجله وأشرف على انفصال روحه من بدنه أظهر عدم خوفه ووجله واعتمد على أيدى أمرائه واستند وانتصب من فراشه قائما كالوتد وقال يحق للقيصر أن لا يموت الا قائما في آفات لوقته وهو منتصب ولصفة الشجاعة مغتصب وكان ذلك في سنة ٥٤٣ قبل الهجرة وحكم من السنين عشرة كما تقدم في أول الفصل وتولى بعده ولده طيطوس منصب القيصرية

(الفصل الحادي عشر)

(في الملك طيطوس قيصر ويقال له طيطس)

تولى الامبراطورية في سنة ٥٤٢ قبل الهجرة وحكم الى سنة ٥٤١ وكان قبل توليته لا يعهد منه فعل الخير ولا مكارم الاخلاق بل كان المعهود فيه القساوة والجبروت والسفاهة والاسراف لاسيما اظهر منه في محاصرة القدس واستيلائه عليها وما فعله من كثرة القتل والاسر واستلاب الاموال حتى يقال انه احتمل الخوارج الذين كانوا في نواحي القدس مع الاسرى وكان يلقى كل يوم منهم للسباع فرائس الى أن أفناهم فلما صعد على سرير الملك سلك سبيل العدل والرشد وحسنت حاله وحمدت خصاله وحكم بالعدل والاحسان واجتمع بأهل الفضل وصلحاء الناس وكان متفننا في العلوم عارفا باللسان اليوناني واللطيني وكان ملازما للخير مخالطا للناس غير محتجب عن أصحاب الحوائج وقد طرد من ديوانه بطانة السوء وأهل السخرية وتنزه الا عن معاشرة أرباب الفضائل ولذلك لقبوه نعيم الدنيا ويحكى انه مضى عليه يوم لم يعمل فيه عملا صالحا لرعاياه فصاح في الليل بيدى التأسف والتحزن قائلا مضى هذا اليوم سدا وهو كقول بعضهم

أليس من الخسران أن لياليا * تمر بلا نفع وتحسب من عمري

وقال آخر

اذا كان هذا الدمع يجري صبابة * على غير سعدى فهو دمع مضيع

ووقعت فى أيام هذا القيصر حادثة من الحوادث الهائلة تميزت بها أيام دولته وهى ثورة بركان ايطاليا المسمى ويزوف ولفظ بركام معناه جبل النار حيث ارتج هذا الجبل عقب رعدة عظيمة وانفرجت منه فرجة وهى فوهته وصارت تقذف المواد المعدنية الملتهبة والرماد الغزير فغير شكل الخلاء الجميل الذى انتشرت عليه هذه المواد النارية وكان على مقربة منه مدينتان عظيمتان احداهما تسمى هرقولانوم والاخرى تسمى بومبايس فوصل اليهما ما قذفه هذا البركان من المواد الجرية والرمادية فتراكمت عليهما هذه المواد فأغرقتهما وغطتهما وكان فى هذا العهد بلنياس الاكبر الحكيم الطبائعي فاجتهد فى أن يتحرى هذه الحوادث الكونية وكيفية وقوعها ليقف على أسبابها ومسبباتها وعللها ومعلولاتها فدنا من البركان فى حال ثورته فهلك هذا الحكيم لوقته فمات قتيل جسارته وشهيد مجازفته ولا زال هذا البركان الى الآن يهيج ويقذف المواد النارية وبعد ذلك بنحو سنتين مرض طيطوس بالحمى فدخل الحمام فمات به فجأة وذلك فى سنة ٨١ بعد ان حكم سنتين وشهرين فكأنما ظهر فى الدولة الرومانية لخراب بيت المقدس الذى أنذر به عيسى وليكون قدوة للملوك الرومانيين فى التحبب الى الرعية فان فى أيامه ذهب الغدر والحسد والبغضاء والشحناء من مدينة رومة ولم يكن بغية هذا القيصر الا مواساة أحبابه وأحبابه هم جميع رعاياه ورعاياه هم الرومانيون والرومانيون هم الناس كل الناس فقد واسى الجميع بحسن الصنيع ومن مناقبه انه كان يذهب بنفسه بدون حاشية الى مجلس رومة ليستشيره كما يذهب وحده الى الميدان العمومى فى وسط الاهالى ليسمع المواعظ والمقالات بنفسه فكان يحب جميع الرومانيين وجميع الرومانيين يحبونه ولا يتفكر الا فى اسعادهم فلما مات فى سنة ٨١ خلفه أخوه دومطيانوس

(الفصل الثانى عشر)

(فى الملك دومطيانوس قيصر)

تولى امبراطورا فى سنة ٥٤١ قبل الهجرة عقب موت أخيه طوطوس ويقيت مدة حكمه الى سنة ٥٢٦ قبل الهجرة
وقد دلت القرائن على ان هذا القيصر قتل أخاه طوطوس بالسم وليس هذا ببعيد فان هذا الملك كثير الآثام والخطايا وكان يتظاهر قبل توليته بما لا مزيد عليه من طيب الاخلاق وحسن السريرة والرفق واللين ولكن الظلم فى النفس كمين حتى انه بعد تقلده بالقيصرية لم يرقط أظلم منه على وجه الدنيا فكان أشبه بنيرون الطاغية فى الميل الى اللهو واللعب والمصارعة والتولع بسفك الدماء والجراءة على قتل النفوس البريئة وكان اذا لم يجد من يقتله من الناس سلى نفسه بنخس الذباب حتى لا يخلو طرفة عين من اذاقة خلق الله العذاب فكان شديد الجبروت يخترع للعقوبات طرائق للشر متنوعة لا تخطر على قلب بشر فاذا أراد أن يقتل انسانا فى غد أحضره عنده ليتناول معه الطعام وأكرمه غاية الاكرام وهذا التكريم على سبيل التهكم وكم له أمثال فى العقوبات من باب الهذيان وكان له قائد ماهر فى الحروب يسمى أغريقولا فظهر اجتهاده وفضله فى الفنون الحربية وانتصاره على الامة البريطانية يعنى الانكليز وتسخيرهم للرومانيين فغار القيصر من قائده وحسده على هذا الانتصار وجازاه كما جوزى سنمار فأورده حوض المنون مسموما وأغضب الاهالى والامراء خصوصا وعموما ولما تصدت عساكر الرومانيين لحرب بلاد الافلاق والبغدان وما جاورها من المدن والبلدان أهمل هذا القيصر امداد الجنود الرومانية بالميرة ولم يسعفهم بالزاد والذخيرة فكان ذلك سببا لانهزامهم وتنكيس أعلامهم وانتصر ملك الافلاق والبغدان على اقطار الرومان حتى التجأت رومة الخطيرة أن تدفع خراجا لملك تلك البلاد التى هى بالنسبة للرومان حقيرة وكان هذا مما يخس بقدر الرومانيين فدخل فى نفوسهم من هذا الملك الداء الدفين فأغروا على قتله أميرا يدعى اصطفانوس فحضر عنده بوسيلة كتاب حضر به لديه وناوله الكتاب ليطلع عليه فبينما كان الامبراطور مشغولا بقراءة الكتاب اذ قام عليه وقتله بخنجر واجتهاد وافق الصواب وكان ذلك فى سنة ٥٢٦ قبل الهجرة فكانت

مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وبقتله انقرضت العائلة الغلاوية وتولى المملكة بعده نيروا قيصر وهو رأس العائلة الانطونونية

وفى أيام القيصر دومطيانوس والقيصرين السابقين عليه لم يذكر المؤرخون من وقائع مصر شيأ ولا ذكروا أعمال القياصرة فيها فلم يظهر منهم فى شأنها منافع تعود عليها بالاسعاد أو بالشقاء وانما يستنبط من قرائن الاحوال ويغلب على الظن باستنطاق لسان الحال أن مصر لم تخل من السعادة والراحة فى عهد طوطوس فانه كان عادلا وشأن العادل اسعاد الرعية فلا شك أن مصر كانت بعنايته مرعية الا أنه لم تطل مدته وأعقبتها أيام دومطيانوس وفى زمنه تمكن دين النصرانية ولكن مرقس حوارى استشهد بالاسكندرية بسبب نشر هذا الدين وذاق العذاب المبين ولهذا كان خلفاؤه بطارقة الاسكندرية التى استشهد بها وهم بطارقة طائفة القبط وبقيت كنيسة الاسكندرية كرسى البطارقة الذين هم على قدم مرقوس حوارى وعدتهم الى وقتنا هذا نيف وسبعون بطريقا وكان عدد الاقباط فى صدر الاسلام وما بعده كثيرا فى القطر المصرى فلما تناقص عددهم بالاحوال المقتضية انتقل كرسى البطرق الى قلاية المحروسة وكيفية انتخاب بطرق طائفة القبط أن العادة الجارية أنه لا ينتخبه المطارنة ولا الاساقفة ولا القمامصة ولا القسوس وانما حق الانتخاب موكول الى وجوه الملة المسيحية وأعيانهم فينتخبون أولا ثلاثة أنفار من الرهبان المشهورين بالاستقامة فى دينهم والعدالة فى يقينهم لينتخب منهم فى المرة الثانية خيرهم فى الفضل والاستقامة وقد جرت العادة أن من سمع من هؤلاء الاحبار الزاهدين بأنه سيصير بطريقا يهرب فى الخلاء اظهارا للتعفف عن المنصب البطريقى وزهدا فى الرياسة والغالب أن جميع الثلاثة يفرون من ذلك لنفورهم منه ثم تحضرهم القلاية قهرا عنهم بواسطة الحكومة فيساقون بالسلاسل والاغلال ويحضرون على هذه الهيئة ولا يفكون من أغلالهم الا بعد انتخاب واحد منهم بالقرعة وهذا هو الانتخاب الثانى فمن خرجت عليه القرعة فهو البطريق وله الرياسة على جميع الطائفة اليعقوبية وهذه رسومهم السابقة وأما الآن فقد اقتضت الاحوال اجراء نظام الانتخاب على أسلوب آخر غير السابق يعنى أن تمام

الانتخاب انما يكون بمعرفة الوجوه والاعيان والطائفة القسيسية من مطارين وأساقفة وقامصة مع تصديق الحكومة المحلية وأيضا كان المنصب البطريقى فى السابق مجمع الاضداد يعنى أن صاحبه متصف بالرفعة والضعة بمعنى أنه عالى المقام رفيع الجناب فى وقت تأدية وظائفه كامل التقشف والزهد نافذ الحكم فى طائفته محروم من اللذات والشهوات فى نفسه عظيم فى أعين أهل ملته حقير فى حد ذاته حيث يرى نفسه بعين الحقارة غنيا لكونه مستحوذا على أموال أوقاف جماعته يصرفها بمعرفته وفقيرا بحيث لا يملك شيأ لخاصيته ولا له مال يرثه عنه غيره وأما الآن فقد أخذت البطارقة فى سلوك طريق التمدن وتلبسوا برفاهية المطعم والملبس والمؤانسة والمحادثة والتودد للناس والتردد عليهم وساروا بسير الوقت والحال ولكن المتمسك منهم بالعوائد القديمة والسنة المسيحية يخشوشن فى الملبس الذى يمس البدن وفى المطعم اذا اختلى ونفسه ويوافق العموم عند الداعى الى الاجتماع بالناس لقصد تهذيب أهل ملته وتحسين أحوالهم كما قيل

وللناس عادات وقد ألفوا بها * لها سنن يرعونها وفروض

فمن لم يوافقهم على العرف بينهم * فذاك ثقيل عندهم وبغيض

ويقال ان دومطيانوس قيصر هو ابن أخت نيرون قيصر فلهذا كان غشوما كافرا مثله وقد أمر بقتل النصارى كما فعل خاله نيرون وحبس يوحنا الحوارى وأمر بقتل اليهود من نسل داود حذرا أن يملكوا وكان شديدا على اليهود وقتل أبناء ملوكهم وسبب قتله للنصارى ما قيل له انهم يزعمون أن المسيح يأتى ويملك وبحث عن أولاد يهوذا بن يوسف من الحواريين وجاءهم الى رومة مقيدين وسألهم عن شأن المسيح فقالوا انما يأتى عند انقضاء العالم فخلى سبيله وفى السنة الثالثة من دولته طرد بطرك الاسكندرية من كرسيه ونصب غيره ونفى من رومة جميع الفلاسفة والمنجمين وأمر أن لا يغرس بها كرم وبالجملة فقد كان فيه من الجبروت بقدر ما فيه من الجبن وقد اقتضت الحكمة الالهية ان الجبناء غالبا جبابرة فيستعينون على تحفظهم على أنفسهم بالجبروت لفقدهم نخوة الشجاعة واحساسهم بالضعف الذى يلازمه الخوف والفزع وقد أسلفنا أنه مات قتيلا حيث حنق عليه الرومانيون وقيل انه قتل فى حروبه مع

الافرنج وتولى بعده نيرواقيصر

(الفصل الثالث عشر)

(فى الملك نيرواقيصر)

تولى هذا القيصر امبراطورا على الرومانيين بعد مقتل دومطيانوس فى سنة ٥٢٦ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ٥٢٤ فكانت مدة حكمه سنتين

لما تحزب جوع الرومان على قتل سلفه انضم المجلس الرومانى الى المتحزبين بعد هلاكه ليولوا غيره فانتخبوا نيرواقيصر وكان شيخا ايطاليانى المولد كريدى الاصل والجنس فى سن سبعين سنة وكان فى السياسة جليل المذهب جيد الرأى يميز الغث من الثمين وانما كان ضعيف القلب فاتر الهمة لا يقوى على تنجيز الاشغال ولا تنفيذ الافعال ولما كان هو رأس العائلة الانطونونية لانقراض العائلة الفلبانية قام عليه الاهالى عقب توليته حتى كادوا يخلعونه من المملكة لانه ليس من بيت الملك لولا أنه بادر بالاتحاد مع أولبيوس طريانوس حكمدار جرمانيا السفلى فتبناه وأشركه فى الملك معه وفى القيصرية فاجتهد الامير طريانوس فى تشتيت شمل المفسدين وقتل رؤساء الفتنة عن آخرهم وتمكين شوكة نيروافأحسن السيرة وأمر برد من كان منفيا من النصارى وأباح لهم التمسك بدينهم ورجع يوحنا الانجيلى الى أفسوس بعد بعده عنها ست سنين وقيل كان مسجونا فأطلقه نيروا من السجن وكان فى مدة حكمه مهتما بمحو الظلم والجور وبسلوك سبيل العدل والسداد يصفح عن الجانى حسب الامكان وقد عفا عن قتل الاشخاص المتهمين بخيانة الحكومة بسعى عتقائهم وعبيدهم بهم فاقتصر على نفيهم واجلائهم من البلاد لحسم الريبة ثم قتل العبيد والعتق الواشين بساداتهم الساعين فى اضرارهم جزاء لارتكابهم النميمة فى حق مواليهم حيث ان سعيهم من باب الخيانة وكفران النعم ولما تمكن من الملك ومهد البلاد بواسطة طريانوس لم يعش بعد صفاء الوقت له الا ثلاثة شهور وكان موته سنة ٥٢٤ قبل الهجرة بعد أن حكم سنتين وتولى بعده شريكه طريانوس

(الفصل الرابع عشر)

(فى الملك أوليبوس طريانوس قيصر)

تولى أمبراطور على الرومانيين سنة ٥٢٤ قبل الهجرة وامتد حكمه الى سنة ٥٠٥ فكانت مدة حكمه نحو تسع عشرة سنة ولما كان هذا الامير شريكا لنروا قيصر فى تدبير المملكة الرومانية لم ينتطح عنزان فى استخلافه على الرومانيين عقب موت سلفه وقد كان عند خلو سرير القيصرية غائبا فى الاقاليم الافرنجية التى على نهر الرين ولم يبادر بالحضور الى رومة للقبض على زمام المملكة ولكن لكونه له فى قلوب الجميع كمال الهيبة والوقار شهيرا بعظم الصولة وعز الدولة لم تقم فتنة فى غيبته ولا حصل اختلاف فى توليته لاسيما وانه قد حصل على يديه قمع الفتنة الاخيرة فى أيام سلفه وأصل مولده بمدينة مالقة ببلاد الاندلس وقد اشتهر بأنه أعظم أمراء الدولة الرومانية معرفة وشجاعة وكان يشهد بعلو درجته فى الفضائل العسكرية كافة الاهالى فلما حضر الى رومة عقدوا الموكب لطيفا مجردا عن الابهة والطنطنة ودخل المدينة غير مختال ولا محتجب بمسند السلطنة بل ماشيا على الاقدام بشوشا مع الخاص والعام مقبلا على من أقبل للتهنية باسطا يده لمن أراد تقبيلها متشكرا لارباب الادعية والاثنية ثم توجه الى الحاضرين وقال أحب أن أصنع مع جميع الناس ما كنت أحب أن يصنعه معى قيصر رومة لو بقيت فى أيامه معدودا من الآحاد فأحبه لنفسى أحبه لاهل وطنى وأبناء جنسى

وقد اجتهد هذا القيصر ذو القلب السليم بأن يعيد للدولة الرومانية فخارها القديم ويخصها بالمزايا والحقوق كما كانت تتمتع بذلك فى عهد الجمهورية الاولية على وجه موثوق وقد رخص لمجلس الاحكام برومة التصرف بما تقتضيه المصلحة على أصول معلومة وكذلك أباح للقضاة والحكام قوة نفوذهم فى اجراء الاحكام وقد نهى عن أن يحكم القضاة على الغائب فى مواد الجنايات لان القضاء على الغائب الذى لا يدافع عن نفسه فصل نزاع بدون اثبات وتعليقه من باب درء الحدود بالشبهات فقد قال هذا القيصر ان أصول الاحتياط ترجح جانب البراءة على جانب الجناية فلا تحكم بالعقاب فى غياب

المتهم لان الاصل عدم الجناية يعنى أن الغائب المتهم الذى يراد الحكم عليه بالجزاء يحتمل كونه مذنبا كما يحتمل كونه بريئا فينبغى أن يغلب جانب البراءة على جانب الجناية لانه اذا حكم عليه بالعقاب وكان بريئا فالحكم جناية من الحاكم يأثم به واذا سكت الحاكم عن الحكم بعقابه وكان فى الحقيقة مذنبا فلا لوم على الحاكم فى السكوت لانه ليس مكلفا بباطن الامر وكان هذا القيصر يحسن التدبير والادارة ويتبصر فى عواقب الامور فلهذا خفف المكوس والعوائد وتشبث بجلب ما يقتضى من الفوائد فأنشأ القناطر والطرق العمومية وجدد المينات البحرية فمن ذلك مينا أنكونة على جون البنادقة بايطاليا لتكثير التجارات والمعاملات وقد اجتهد فى تجهيز بناء هذه المينا فى سنة واحدة فاعترف له مجلس أعيان الرومانيين ومجلس الاهالى بأنه يستحق التعظيم والتبجيل فبنوا له هيكلا بهذه المدينة لتخليد ذكره وبقاء اسمه وبنى برومة ملعبا لسباق الخيل وجدد كتبخانة عظيمة وأقام فى رومة العمود المشهور المسمى الطريانوس المتخذ من الرخام الابيض ورسم عليه الحروب التى وقعت من الرومانيين مع الافلاق والبغدان وجميع ما جرى من نصرة الرومانية عليهما فى ذلك الزمان وكان لا يحضر مجلس هذا القيصر الا مشاهير الرجال وأكابر أهل الفضل والامتياز من الابطال ويحبهم من صميم قلبه وكان لاهل الحكمة عنده منزلة عظيمة ومودة صميمة فكان يعد من أكبر أحبابه الحكيم بلنياس الاصغر وكان من مشاهير المؤلفين فقد جمع مناقب هذا القيصر لتصير تذكرة للمتأخرين وكان قد غزا طريانوس بلاد الافلاق والبغدان وضم هذه البلاد للاقاليم الرومانية فحصل له من ذلك كمال الشهرة وبعد صيته فى سائر ممالك الدنيا حتى ان ملوك الهند بعثوا له سفراء ليهنوه على على انتصاره ثم جعل بلنياس المذكور حاكما على هذه الاقاليم ثم ظهر لهذا القيصر ان عرب الحجاز يريدون شن الاغارة على الاقاليم الرومانية المشرقية لقصد السلب والنهب وسبى النساء وأنهم قد تحركوا لهذا الجهات المشرقية المملوكة للرومانيين فسار الى آسيا لقتال العرب وادخالهم تحت الطاعة وكان ذلك فى نحو سنة ٥١٢ قبل الهجرة فاجتهد العرب فى بذل ما عندهم من الشجاعة والبسالة لحماية أوطانهم فانهزموا وأدخلهم طريانوس

تحت الطاعة الرومانية فصارت بلاد الحجاز ايالة من ايالات القياصرة وسار بعد ذلك بسنة الى بلاد فارس وغالبهم على ملكهم وأخذ منهم أرمنية والجزيرة وبلاد الاكراد والعراق واليمن وبالجملة فقد اجمعت القلوب على حب هذا القيصر حتى سمته رعيته أفطينوس يعنى القيصر الكامل ولم يقدح فيه المؤرخون الا بكونه لم يخل من مثالب خصوصية وعيوب شخصية كميله للشراب وحبه للطعان والضراب وبأنه أضر بالنصارى واذاهم وخذلهم وأخزاهم وقتل شمعان بن كلاو با أسقف بيت المقدس واغناطيوس بطرك انطاكيا ولقى النصارى فى أيامه شدة وتتبع أحبارهم بالقتل واستعبد عامتهم وفى عهده كتب يوحنا انجيله فى بعض الجزائر فى السنة السادسة من ملكه وكان قد رجع اليهود الى بيت المقدس وكثروا بها وعزموا على الانتقاض عليه فبعث عساكره لحربهم حتى طالت الحرب بينه وبينهم فخربوا كثيرا من المدن ووصلوا الى مصر والاسكندرية ولازالوا يقاومون الحكومة المصرية ويحاربون من فيهما من الجنود الرومانية ويغالبونهم حتى توصلوا ان أخرجوا من الاسكندرية لو بوس نائب مصر فاضطر طريانوس قيصر الى أن بعث اليهم بدله مرطيوس مع جنود عظيمة واشتد الحرب بين الفريقين لاستمرار الفتن والاختلالات الداخلية المترتبة على المنازعات الواقعة فى الاسكندرية بين اليونان واليهود لما بين الطائفتين من العداوة التى لم تكن تنقطع أبدا فلم تنته حرب مرطيوس نائب مصر الا فى أيام أدريانوس قيصر وكان لطريانوس قيصر آثار عظيمة فى الديار المصرية وقد جال هذا القيصر فى الفتوحات ببلاد الشرق حتى دنا من البحر المحيط الهندى وفى عوده من الشرق مات فى أثناء طريقه فى سنة ٥٠٠ بعد ان حكم تسع عشرة سنة وخلفه ابن عمه ادريانوس وقد أسف عليه جميع الرومانيين وغيرهم من الاهالى الذين بمصر بلادهم كما حزنوا على طيطوس قبله لما لهم من المآثر والمكارم

(الفصل الخامس عشر)

(فى الملك أدريانوس قيصر)

تولى هذا القيصر امبراطور على الرومانيين سنة ٥٠٠ قبل الهجرة وحكم

الى سنة ٤ ٨ ٤ فكانت مدة حكمه احدى وعشرين سنة

وذلك أن طريانوس لما لم يعقب ولدا ذكرا استخلف الجند ابن عمه أدريانوس قيصرا على الرومانيين وكان رئيس جيش الشأم فلما بايعه الجنود على الامبراطورية صدق على ذلك أرباب المجلس الروماني وكان أدريانوس متناقض الاحوال متباين الخصال متضاد الافعال فتارة يكون حليما وأخرى غضوبا وطورا يميل الى الفضائل وطورا آخر الى الرذائل فكان كأبي قلمون يتلون بكل لون ولم يجعل مطمح نظره كسلفه في المفاخر الحربية ولا في الفضائل العسكرية ولا في الفتوحات الرومانية بل كان يؤثر السلم والدعة ويقتصر على محافظة الحدود والمدافعة وفي غالب أيام ولايته كان جوالا في بلاده سياحا في ممالكه وكان يزيد في العوائد والمكوس ويضرب على الاشياء مغارم موقتة خارجة عن العوائد الاصلية ولم يساوه أحد من سلفه في الميل الى تشييد العمارات العمومية والمباني الملوكية وكان يحب المعارف والآداب وله فيها مشاركة عظيمة وكان يعيش في قصره عيشة هنية ويتشبث بأفعال شهوانية حتى يقال انه اعتراه بعض خفة وطيش وتناقص عقله من التنعم بذلك العيش ويدل على هذا أنه أشرك معه في ادارة المملكة شخصا دني الهمة يسمى قومودوس ويروس ولم يستحسن أحد منه عقد هذه الشركة حتى شاع عند جميع أهالي رومة أن سبب تشريكه اياه في المملكة انه اخترع صنفا من الفطير لذيذ الطعم يستطيبه الفم وصنفا من الفراش يمتد على بساط الورد في وسط الروائح العطرة فبلغ عنده مبلغ الاقبال لاختراعه هذين الشيئين لا على مثال وكان ويروس المذكور رخنث الشمائل تميل طباعه الى تكسر النساء في المحادثة والمسامرة وقد اخترمته المنية قبل أدريانوس قيصر بقليل من الزمان فأشرك بعده في ادارة المملكة طيطوس أنطونين الذي صار فيما بعد قيصرا ولولا موت قومودوس ويروس في حياة القيصر لكانت مصيبة الرومانيين بتوليته عليهم بعده عظيمة

وقد كانت ولاية أدريانوس قيصر على الرومانيين طيبة بالنسبة الى الديار المصرية فان في مدته كان يونان الاسكندرية خلفوا اليهود بتطبعهم بطباعهم في فتنهم وتقلباتهم وعصيانهم على نوابهم وحروبهم معهم وسرت

الفتنة منهم الى كثير من المدن المصرية وكان قيامهم على النواب قد ترتبت
عليه محنة عظيمة وفتنة جسيمة بعد تسكين فتنة اليهود فلم يخمدها الا هذا
القيصر وسبب ذلك أنه ظهر بالديار المصرية عجل جديد على شكل العجل أبيس
معبود المصريين وكان المصريون اذا مات عجلهم المخصوص الشكل ينتظرون
ظهور مثاله انتظار الدروز للحاكم بامر الله معتقدين أنه ظهر بعد الغيبة وأنه
آب بمظهره القديم أعظم أوبة وأنه مستوف للعلامات والدلائل الابيسية وأنه
موصوف بالصفات الوثنية القدسية فبمجرد أن ظهر عجل بهذه الصورة اتفقوا
على التحقق من هويته وماهيته وأرادوا أن يحلوا بتخصيص المحل المستعد
لرضاعه وتربيته وكثر جدالهم واختلافهم فى التخصيص ولم يقع وفاق على
محل معهود من معاهد التنصيص فقامت الحرب لذلك على ساق وقدم وظهر
ضرام الفتنة ولاظهور نار على علم واشتد الحال فى هذا الامر لكونه عندهم
من ذوات البال فلما طرقت مسامع أدريانوس هذه الفتنة العظيمة والمحنة
الجسيمة وكان فى المرور باقليم فرانسا عجل بالذهاب بنفسه الى الديار المصرية
لاقتضاء الاهمية أن يخمد بحضوره نيران هذه البلية البهيمية فحضر واطفاها
وأزال الجفوة من مصريين اليونان والمصريين وصفاها وعند دخوله مدينة
فرما تبوأها وأصلح مبانى تربة بومبيوس وزينها فكان لسان حاله يقول عند
هذه التربة للمقيم فى هذه الغربة

تقيم الى أن يبعث الله خلقه * لقاؤك لا يرجى وأنت قريب
تزيد بلى فى كل يوم وليلة * وتبقى كما تبلى وأنت حبيب

ثم ساح فى أرجاء مصر للتنزه والفرجة وابتهج الاهالى بعبوره ومروره أعظم
بهجة فأرادوا تخليد تلك السياحة القيصرية وتذكارها فى سائر الاعصر
للاهالى المصرية وغير المصرية فضربوا سكة من الحديد مرسوما عليها تاريخ
سفره المنيف حيث عاد على مصر بالتكريم والتشريف فصوروا على هذه
النقود المشخصة النيشانية شخص مدينة الاسكندرية كأنها انسان
يستقبل هذا القيصر وهو قادم فى سفينة وصوروا القيصر يتلقى تشريفات
هذه المدينة كانه يمد يده للاسكندرية وتمد يدها اليه للمصافحة والتحية واليدان
فى بعضهما مشتبكان ويد القيصر ويد المدينة متماسكان كما يتصافح الخلان

ويتصادق الاخدان وصوروا على النقود موكب القيصر وتقريبه للقربان
وكذلك رسموا على النقود من الجهة الاخرى سير القيصر على النيل المبارك
وهو فى سفينة مقدمها على شكل قرن الخصب واليمن وضربوا أيضا لهذا
الامبراطور سكة أخرى عليها صورته وصورة زوجته سابينه وعليها تاريخ
ابتداء ولايته القيصرية ويحكى أنه فى أثناء سفره على النيل السعيد الى جهة
الصعيد فقد ولده أنطنيوس وناح عليه نواح الخنساء على صخر والثكلى على
ولدها البر ولا عجب فى الاسف والحزن على الاولاد فانهم فلزات الاكباد كما
قيل وهو جيد فى المعنى

على صفحتى خدى أجريت مقلتى * بحيث ترى الانهار من تحتها تجرى
وخدى لسقم عاد صخرا وجندلا * فقلتى الخنساء تبكى على صخر

(وقال آخر)

لئن أخليت منك اليوم أنسى * فما أنا فيك من أسف خلى
عصانى الصبر بعدك وهو طوعى * وطاوع بعدك الدمع العصى
وهل أبقت لى الايام دمعا * فيسعدنى به الجفن الشقى

وقد أعان هذا القيصر ديار مصر الكثيرة اللطائف على توسيع دائرة العلوم
والمعارف وأنشأ فيها بعضا من العمائر لتكون على زيارته من أجل الامائر
وقد كتب فى أثناء سياحته رسالة لبعض أحبابه المسمى سرويانوس
من كبار الرومانيين تدل على فضل القيصر وعلى حالة مصر فى ذلك الوقت
ومضمون هذه الرسالة بالمعنى

قد استقصيت أحوال الديار المصرية واستقريت عوائد هذه البلاد واطلعت
عليها بالمطالعة الجلية وكنت فى الامر أخصها بالمدح وأشرحها بالنسبة لما
يتراءى بأجل شرح وأتحاشى سلوك منهج اللوم والقدح فاستبان لى بعد
التأمل والنظر أنها عبرة لمن اعتبر فهى بلد طائشة متلونة لاتدوم على حال
واحدة بنية كثيرة القيل والقال لا ينقطع منها الشغب والجدال لاسيما
فى مادة الاديان وعبادة الاوثان أو الملك الديان فان من لم يعبد الشمس والعجل
أيس يعد نصرانيا مع أنه ليس له من الدين العيسوى أدنى مسيس بل الذين
يزعمون بمصر أنهم أساقفة على دين عيسى بن مريم هم كغيرهم يحترمون الشمس

والعجل المعظم وخاخام اليهود كغيره يحترم العجل والشمس وكل قسيس أو راهب أو عامى له فى الشمس والعجل احترام فكانهم جميعا يعبدون الاوثان والاصنام ويغلب على الظن ان بطرك النصارى الخارج عن الديار المصرية لودخلها لوافق أهلها على التمسك بهذه الاحترامات الدينية بل ربما اعتقدوا أن الشمس والعجل وعيسى أسماء مترادفة والالوهية فى الثلاثة واحدة موصوفة بأوصاف كاشفة وهذه من العلوم المتعارفة وأهل مصر دون غيرهم يميلون الى اختلاف الكلمة ويسرعون الى الملاعنة والمشاتمة وأما مدينة الاسكندرية التى هى دار الحكومة المصرية فهى بلدة مثرية غنية كثيرة البركات والخير بعيدة عن الضرر والضير وليس أهلها أهل بطالة ولا كسل وأغلبهم حاكة الكتان لا يخرج عن الميل الى الصناعة منهم انسان ولا يستثنى منهم فى ذلك العرج والعميان ولا المصابين بداء النقرس وغيره من علل الابدان فلا يهملون الصناعة طرفة عين ولا يضيع زمنهم سدى لاكتساب الورق والعين كلهم يقرّون بوحدانية المعبود وسواء فى ذلك اليونان والنصارى واليهود حتى عامة الناس ورعاعهم تميل الى وحدانية المعبود أنفسهم وطباعهم فلو كانت مدينة الاسكندرية رفيعة الدرجة فى التربية والتمدنية زيادة عما عليه الآن لكانت سيدة الامصار والبلدان ومع ذلك فهى بكثرة أهاليها واتساع أراضيها ومبانيها تستحق عنوانها وصيتها وشانها بأنها تخت الديار المصرية ومركز العمارية فلهذا الخصوص لم أمنعها شيأ من حقوقها بل منحتها مزاياها القديمة وزيادة عليها الحسن تنظيمها وتنسيقها لقصد أن ترضى عن هذه الحالة الراهنة ولتكون على عوائدها ورسومها آمنة ولكن بمجرد ماخرجت منها وتباعدت عنها صار أهلها يستهزؤن بابنى ويروس ولا يحفظ ما عسى يقولونه فى موت ابنى انطنيوس فأنا لا أتمنى لهم الا التخمة بما عندهم من الدجاج ليكسبهم كثرة الباه الموجب لقوة التوليد وهو داء قليل علاج والافصاح عن ذلك أزيد عما قلته يخل بالادب والحيا والتصريح به مما يخجل منه ويستحيي والواصل لكم بعض كؤس وأكواب مختلفة الالوان معدة للشراب فقد أهداها الى كهان الهيا كل فوهبتها لك ولاختى ليطوف بها السقاة فى المواسم والمحافل تحلو بها المدامة بين الندمان

فى مجلس الانس الجامع للاخوان والخلان وانما ينبغى أن يحترس صاحبنا افريقانوس من أن يكثر من الشراب بها فيعربد فلا يدعو هوى نفسه ليستولى عليه ويستعبد انتهى

وعلى ما تقدم من ذكره التخمة بالدجاج يحسن قول بعضهم وقد أهدى اليه فطائر

لا أبالى ان لم أفز بدجاج * منكمو بل أنت الى الفطائر
كيف والنفس تشتهيها وعندى * هى أكل معادل ألف طائر

وعلى ذكر العربدة يحسن قول ابن سهل الاسرائيلى الاشبيلى

فياطيب عيش العشق لولا جنونه * محالذة النشوان سكر المعربد

وقد أثخن هذا القيصر فى اليهود ثم بنى مدينة القدس وسماها ايلياء وكان شديدا على النصارى وقتل منهم خلقا وأمر الناس بعبادة الاوثان ويقال انه ألزم أهل مصر حفر خليج من مجرى النيل الى مجرى القلزم أجرى فيه الحلو ثم ارتدم بعد ذلك وجاء الفتح والدولة الاسلامية فألزمهم عمرو بن العاص بحفره حتى جرى فيه الماء ثم انسد ولما بنى هذا القيصر مدينة القدس رجع اليها اليهود فبلغه أنهم يريدون الانتقاض وأنهم ملكوا عليهم زكريا من أبناء الملوك فبعث اليهم العساكر وتتبعهم بالقتل وخرب المدينة حتى عادت صحراء وأمر أن لا يسكنها يهودى وأسكن اليونان بيت المقدس وكان هذا الخراب لثلاث وخمسين سنة من خراب طيطس وهو الجلوة الكبرى وامتلأ القدس من اليونان وكانت النصارى يترددون الى موضع القبر والصليب يصلون فيه وكان اليهود يرمون عليه الزبل والكناسات فنعهم اليونان من الصلاة فيه وبنوا هنالك هيكلا على اسم الزهرة وفى السنة الخامسة من ملك هذا القيصر قدم نسطش بطركا على الاسكندرية وكان حكيما فاضلا فلبث احدى عشرة سنة ثم مات وقدم مكانه أمانيق فى السنة السادسة عشرة من ملك هذا القيصر وهو سابع البطارقة فلبث احدى عشرة سنة

وقد أسلفنا أن أدريانوس كان أشرك معه قبل موته بقليل فى ادارة المملكة طيطوس أنطينينوس فلما مات هذا القيصر فى سنة ٤٨٤ قبل الهجرة

بعد أن حكم احدى وعشرين سنة تولى بدله شريكه المذكور ألا الى الله تصير الامور

(الفصل السادس عشر)

(فى الملك طيطوس أنطينينوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية فى سنة ١٣٨ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ١٦١ فكانت مدة حكمه ثلاثا وعشرين سنة ويلقب بالرحوم وأصل العائلة الانطونونية من أمة الغلية أسلاف الفرنساوية من أهالى مدينة نيمه وكانت هذه العائلة مصاهرة لاعيان ايطاليا واشتهر طيطوس انطينينوس بكرم النفس وحسن التربية وكان مستنير العقل مطبوعا على مكارم الاخلاق محافظا على جلب الراحة للبلاد والعباد وتأمين الرعايا والسعى فى تقديم التجارة والصناعة ناجح المشروعات وكان يدقق النظر فى حسن الادارة والاقتصاد فى مصارف المملكة فلا يكاد يفتر طرفة عين على أن ينظر بغاية الدقة لكليات المصالح وجزئياتها وكانت فى أيامه الاموال مدبرة موفرة على وجه لم يسبق مثله فى خزينة الرومانيين فقد كان هذا الملك يسلك فى معيشة المملكة طريقة بسيطة بدون زخرفة ولا زينة مع غاية الاقتصاد بدون اسراف ولا تبذير فكانت خزينة المملكة فى أيامه دائما معمورة بالاموال فلهذا قال من أراد التلميح بتوسط معيشة هذا القيصر ما معناه حسبه من الاقتصاد أنه لو أراد أن يتكفل بالانفاق على جميع الرعية وأن يقوم بمصارفهم على وجه السعة وبدون تقتير لامكنه ذلك ولو حدثت له حوادث مهمة ووقائع مدلهمة على حين غفلة لكان كفوا لان يزحزحها عنه بالمال ولهذا تمكن بجمع الاموال من انشاء العمارات العميمة ذات المنافع الجسيمة وبالجملة فكانت أفعاله مؤسسة على حسن التدبير والحكمة ولا يفعل الا ما يوجب احترام ناموسه عند جميع الملوك والاهالى المجاورين لبلاده فقد كان قيصرا وحكيما لم يكن فى وقته من ملوك الدنيا أحد بشهرته فى حسن التدبير والسياسة وبينما كان يحكم فى أوروبا وافريقة وآسيا اذ ظهر فى بلاد الصين ملك شهير بالسياسة والحكمة يسمى هيا كنغ تى فهذا الملك اشتغل أيضا

بتمدين رعاياه وتهذيب أخلاقهم وتلطيف أحوالهم وقنن لهم قوانين مبنية على التوسط فى الحدود والعقوبات وأبطل التعذيب للمذنبين وحكمهم كحكم الاب على أولاده بمراعاة مصلحة أحوالهم وتقدمت من عهده بلاد الصين وسارت فى سيرة العدل والحرية وهذه البلاد الصينية واسعة الاقطار معتدلة الاقاليم طيبة الهواء كثيرة الخير والبركة لعظم أثمارها وأشجارها وجبالها المعدنية المثرية بالمعادن المتطرقة وغيرها كالاحجار الكريمة وبجبالها ظباء المسك وباشجارها صموغ الطلا التى لا توجد فى غيرها وبها شجر الكافور ويرتفع جدا ويحصل منه محصولات عظيمة وكذلك عود الصبر وهو يختلف عن الصبر الهندى فثمره على شكل الزيتون وداخله ثلاثة أصناف من الحبوب الصنف الاول يسمى حب العقاب وهو مرغوب جدا والصنف الثانى يسمى حب القلنبوق وهو خفيف الزنة والصنف الثالث يسمى القلنبا وهو يوجد فى وسط الثمر ويباع بزنة الذهب وله رائحة عظيمة وهو نافع جدا للمهزولين والمفلوجين وتكثر عندهم الحشائش ذوات الروائح الذكية وعندهم علم الفلاحة متقدم جدا فيحرث الملك بنفسه كل سنة أخدودا من الارض لتشريف الزراعة ويرفع درجات المزارعين الى مرتبة الامارة وعند الصينيين تقدم قديم كاختراع صناعة الورق والطبع والرقوم وغير ذلك ومع أن حكومتهم مطلقة التصرف الآن التسوية والعدالة موجودة عندهم ثم انه كما ظهر ملك الصين الحكيم السالف الذكر فى أيام انطنينوس كذلك ظهر فى أيامه بمصر بطليموس المنجم صاحب الفلك وبعضهم يجعل ظهوره فى أيام البطالسة كما سبقت الاشارة الى ذلك عند ذكرهم وكانت أيام حكمه هينة لينة مؤسسة على العدل والانصاف مجردة عن الجور والاعتساف لاسيما فى دار مصر فانه قد نالها عدله واحسانه وفضله وامتنانه فقد كثر فيها فى أيام حكمه العمارات الاهلية والمبانى الدينية وانما كان يونان الاسكندرية يتجاوزون الحدود فى اثارة الفتن والعصيان على الدولة والكلام فيما لا يعنى فلم يتمتعوا بالسعادة العمومية ولا اغتنموا مذاق لذاتها الهنية فلهذا تواتر بهذه المدينة الاختلالات الدائمة حتى قتل يونانها نائب القيصر على مصر فحضر هذا القيصر بنفسه الى الديار المصرية فى جيش جرار ودخل الاسكندرية منصورا مؤيدا فقمع العصاة وأعاد الهدء والسكون

وفى السنة الخامسة من حكم هذا القيصر تولى مرتيانو بطركا بالاسكندرية وهو ثامن البطارقة فلبث تسع سنين ومات وكان فاضل السيرة وولى بعده كلوتيانو فلبث أربع عشرة سنة ومات فى أثناء حكم مرقورياس الآتى ذكره وقد كان موت طيطوس أنطينينوس سنة ١٦١ قبل الهجرة بعد أن حكم ثلاثا وعشرين سنة وتأسف على موته جميع الايالات والاقاليم الرومانية لماله من المآثر الجميلة والآثار الجليلة لاسيما بمدينة نيمه بفرانسا التى هى مسقط رأسه فقد ترك بها آثارا جميلة من مصنوعاته وتولى بعده صهره مرقوريلس

(الفصل السابع عشر)

(فى الملك مرقوريلس قيصر)

تولى هذا القيصر امبراطورية الرومانيين سنة ٤٦١ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ٤٤١ فكانت مدة حكمه نحو تسع عشرة سنة وكان هذا القيصر صهر طيطوس أنطينينوس فلهذا سمى أيضا أنطينينوس الاصغر وكان متمسكا بمذهب زينون الحكيم أحد الفلاسفة المتقشفين فكان من شبيبته زاهدا فى الدنيا ورعا متقشفا ينام على الفرش اليابسة ويعود بدنه على حركة الرياضة الشاقة كما يروض عقله على النظر فى التأمل والنظر فى دقائق الامور والتفكر فى المصنوعات وأحوال الكائنات فقد استقل بالآداب والعلوم الحكمية واتسعت دائرة علمه فيها واشتهر بالمعارف شهرة عظيمة فعند تمام دراسته وتمكنه من العلوم دعى لولاية الامبراطورية الرومانية وبنى على ما أسسه من كان قبله من القياصرة الثلاثة من حسن السياسة والتدبير فتمم ما كانوا شرعوا فيه من المقاصد الخيرية واجتهد زيادة عنهم فى اتباع القوانين والتمسك بالاصول وعدم تعدى الحدود وشدد فى اجرائها وأكد على العمل بموجبها حرفا بحرف ثم ان هذا القيصر من فرط حرصه وبدون فكرة أشرك معه فى ادارة المملكة الرومانية لوقيوس ويروس بن ويروس السابق شريك أدريانوس وسيأتى ذكر ما تسبب عن هذا الاشتراك

وكانت أيام مرقوريلس وأحكامه حسنة فى الجملة ولولا ما حصل فى المملكة

الرومانية فى أيامه من المصائب والمصاعب التى بمحض القضاء والقدر لعدّت أيامه سعيدة بحسن ادارته الجيدة الا أنه قد تصادف فى عهده وقوع وباء عظيم هلك به مالا يحصى من الاهالى وفاض أيضا نهر رومة فازعج الاقاليم الوسطى بايطاليا وقحط الناس سنتين واستسقى لهم النصارى فأمطروا وارتفع الوباء والقحط بعد ان كان أشتد على النصارى وقتل منهم خلقا وهى الشدة الرابعة من بعد نيرون كما سيأتى ذلك فى أثناء هذا الفصل مع ما يضاف الى هذه الوقائع من حصول زلزلة عظيمة فى أيامه أزعجت كافة العالم ولامانع من أن تكون السقيا حصلت ببركة دعاء أحبار عيسى عليه السلام لان هذا وقع فى أيام أن كانت شريعته مطهرة باقية الحكم غير منسوخة ومنه يفهم أن الاستسقاء قديم ومن غريب ما وقع فى الاستسقاء ما يحكى عن محمد بن مسلم بتشديد اللام المفتوحة المغربى التونسى الحصينى نسبة الى بنى حصين طائفة من عرب المغرب أنه انتدب الى صلاة الاستسقاء والخطبة فى بعض السنين فصلى وخطب يومين فحصر عن القراءة فيهما الا أنه استسقى فى خطبة ثانى يوم بانشاد بيت أبى طالب فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للارامل

وبآل البيت رضى الله عنهم فما كان آخر النهار الا وسقى المسلمون بمنه تعالى فنظم بعض الحاضرين هذه الواقعة وأنشدها

خطيب لنا استسقى بذكر جماعة * هم وآل بيت المصطفى العظماء
وأبدى لهم المصطفى بيته الذى * قد استشفعت من مسكه الشعراء
فسحت علينا السحب من فيض ربنا * وتوبع فى أثناء ذاك ثناء
فيالك من بيت كريم مشرّف * به طفقت تستمطر الضعفاء

وكان وقوع هذا فى حلب الشهباء الذى كان هذا الشيخ التونسى مقيما بها وله الكلمة النافذة على المغاربة القاطنين فيها وفى هذا الزمن بعينه يعنى زمن مرقوريلس أغار العجم على البلاد الرومانية المشرقية كما أغار الجرمانيون أيضا الذين هم بسواحل طونه على البلاد الرومانية المغربية فكل من العجم والجرمانيين أزعج الرومانيين بهجومه فكان يخشى على المملكة من التمزيق والتفريق وكانت مدينة رومة فى أثناء هذه الاخطار محكومة بحاكمين مختلفى

الامر

الامر والنهى فى سائر المدن والامصار وذلك ان القيصر مرقوريلس كان من فرط حرصه وقلة حزمه أشرك معه فى القيصرية لوقيوس ويروس بن ويروس السابق الذى كان مشاركا فى أول الامر لادريانوس قيصر

* ومن يشابه أبيه غالبا ظالم * فكان فى هذا الولد خسة أبيه ودناءته فقضى عمره فى الحانات ومحال اللهو واللعب لا يكاد يخلو من السكر والعربدة ومجالسة أمثاله فلما هجم العجم على أقاليم الرومانية فوض اليه الامبراطور أمر ابعادهم وطردهم وأناط به مدافعتهم فأخذ قائدا تحت يده من الرومانيين يسمى أويديوس قسيوس وكان هذا القائد شجاعا مجربا فاعتمد عليه وهو الذى حارب الاعداء وطردهم وحاز فخار النصرة فى هذه الغزوة دون لوقيوس ويروس المقلد برياسة عموم الجيش فلم يسر مع وكيل الجيش ولم يقتحم الحرب والقتال بل أقام وقت المعمعة مع أرباب الهزؤ والسخرية فلم يحضر مضمار الحرب ولم يشاهد فى الواقعة الطعن والضرب

وقد كان أويديوس قسيوس أميرا ماهرا مشددا على جنوده تشديدا لا مزيد عليه متمسكا بأصول الضبط والربط والتربية العسكرية وكان جنود المشرق المقيمين من طرف الرومانيين فى أقاليمهم قد ألفوا العوائد المشرقية من فتور الهمة والتكاسل والتساهل فكان توجيه هذا القائد اليهم قد صادف محلا حيث ضبطهم بأصول التربية العسكرية وشدد عليهم فى اتباع منطوق القوانين الحربية وكان يعاقب من خالفها الا بأشد عقاب ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها فى سجل كتاب وجازى جانيها بقدر درجة الارتكاب

ومن وقائع هذا الامير أنه لما علم أن فرقة من الجيش هجمت من تلقاء نفسها على جيش العدو على حين غفلة فهزمت ثلاثة آلاف نفس وبددت شملهم وكان ذلك بدون اذن أمراء الجيش العظام أمر هذا القائد بقتل ضباط تلك الفرقة حيث خالفت الاصول وسلكت بعدم الاذن سبيل الافتيات والفضول ولم يلتفت الى انتصارها على الاعداء والاخصام لجواز عدم النصرة واختلال النظام وعد النصرة من قبيل رمية من غير رام فقام عليه الهياج فى المعسكر من كل قبيل وخاض الجميع فى عرضه ووقع فى حقه القال والقيل فلما بلغه ذلك حضر بين الجند بدون رعب ولا انزعاج وكشف عن صدره بدون خفقان

قلب ولا ارتجاج وقال لهم اطعنوا هذا القلب الابيض وارتكبوا أعظم خطيئة وأضيفوا ذلك الى جنية عدم الاطاعة العسكرية التي هي أعظم جنية فأحجموا عن قتله بعد الاقدام والتصميم وبهذا سكنت الفتنة ورضوا عن هذا الهمام المقدام واعترفوا بذنبهم الذميم وعادوا الاشغالهم الحربية وعلموا أن فعلته التي فعلها انما هي لمجرد التربية فلهذا انتصر بهم الامير على العجم أعظم نصرة فلم يكن لاعدائه على مقاومته من القدرة مثقال ذره وانتهى بهم الامر أن طلبوا منه الصلح والامان وكان ذلك في سنة ٤٥٨ قبل هجرة سيد ولد عدنان

وكما كان القيصر لقيوس وبروس منوطا بحماية البلاد المشرقية كان شريكه مرقوريلس قيصر منوطا أيضا بالسفر لحماية البلاد المغربية والذب عنها من اغارة القبائل الشمالية فوصل اليهم في وقت الحاجة الى وصوله ليتمكن من بلوغ مقصده وسوله وذلك أن قبيلة المرقومان التي هي احدى القبائل المتبربرة كانت اجتازت جبال ألبة كأنها جمر مستنفرة وكان يخشى على ايطاليا من هجومها فسار اليها هذا القيصر وطردها قبل تحقق قدومها وبعد ذلك بثلاث سنوات انضمت أمة الجرمان الى قبائل متوحشة أشبه بقبائل البدوان وهم قبائل الاندلسين والسربوه واللان وقصدت ايطاليا لتدمير الجيوش الرومانية والتغلب على البلاد الايطاليانية فجمع الامبراطور مرقوريلس جميع الارقاء والمصارعين واللاعبين وأمثالهم ممن صنعتهم الدوارة والبطالة ونظمهم في سلك العسكرية خير لهم من الدعة والكسالة ولاجل الانفاق على هؤلاء الجنود المجندة باع الامتعة الملوكية النفيسة المتعددة وسار الى الاعداء بجيش جرار لا يلحقه في مضمار الفخار غبار وهو لا يشك في النصرة على هؤلاء القبائل الفجار ولكن قد تجاسر هؤلاء القبائل الاجانب وحاصروا جيش القيصر وأحدقوا به من كل جانب وقطعوا عنه الامداد والميرة والعدة والذخيرة فظمئ الجيش ظمأ عظيما وكادت الجنود أن تهلك عطشا وحرا وأشرفوا على أن يهلكهم العدو ويبدد شملهم وأيسوا من العود الى رومة وفقدوا قوتهم وحولهم ولولا أن أغاثهم المولى سبحانه وتعالى بنزول الامطار وانهمال الغيث وارتووا من الصدى لكانوا ذهبوا بجملتهم الى

حيث

حيث فبانهطال المطر المدرار ترعرعت أبدانهم ونجوا من الضرر والضرار وانتصروا غاية الانتصار وكان النصارى قد استسقوا لهم بصفا نية واخلاص فاعتقدوا أن صدور السقيا من القسوس هى سبب الخلاص حتى ان القيصر صدق على ذلك واعتقده وأذعن أن هذا من كرامات الديانة المسيحية المعتقدة وكانت قبل ذلك عنده منتقده فكتب الى مجلس رومة يوصى على الملة العيسوية وأن لا يصير لهم من الآن فصاعدا شئ من التعدى كالمدة الاولية بل ندم القيصر على ما سلف منه من التطاول عليهم فى مبادى أمره واعترف أنه من محض ظلمه وغدره وأباح دخول الدين العيسوى فى جنوده فكثر العيسويون فى معسكره فكف المجلس عن النصارى كف التعدى برهة من الزمان ثم تعرض الحكام لهم فى الايالات الرومانية فى غيبة القيصر وامتدت اليهم يد العدوان لاسيما فى اقليم الغلية التى هى الآن دار الفرانساوية وكان النصارى قد كثروا فيها كثرة بليغة فأضعفوا قوة ظهورهم ومنعوا اينياع زهورهم

وقد يوجد على المبانى المصرية مرسوما اسم كل من القيصرين وهما مرقوريلس قيصر ولوقيوس ويروس شريكه فى القيصرية وفى مدة قيصريتهما ظهر فى مصر عدة من الاحزاب أشهروا السلاح تحت راية رئيس خارجى جسور يسمى أزيدور وأغراه على الخروج قسيس مصرى مثير للفتن والشرور فقاتل أزيدور عساكر الرومانيين فى جميع الجهات المصرية وهجم على مدينة الاسكندرية التى فيها ديوان الحكومة الرومانية فاجتهد الامير أوديوس قسوس نائب ويروس قيصر على مصر وغلب هؤلاء الاحزاب وبدد شملهم وأذاقهم كأس العذاب فاغتر بهذه النصرة واستضعف الامبراطور مرقوريلس وظن أنه لكبر سنه قصير العمر فسعى فى طلب الامبراطورية لنفسه فبايعه عليها الجنود المصرية ويقال ان الامبراطورة زوجة مرقوريلس هى التى أعانته على خلع زوجها الغرض من الاغراض وكان لهذا النائب ولد يسمى مطيانوس وكان نائبا على الاسكندرية فبعد المبايعة لابيه تعصب عليه الجنود وقتلوه مع والده ولم تنفع ولا يته بشئ بل بقى منصب القيصرية لصاحبه الاصيل ودخل المتعدى فى خبر كان ولم يظفر بقطمير ولا فتيل

وكان مرقوريلس كريم النفس رفيع الهمة كامل المعانى يعفو عن المذنب ويصفح عن الجانى ومع ذلك فلم يعف عن خصميه بعد أن صارا فى قبضة يديه وانما عفا عن احزابهما وصفح عن أحبابهما ولما حضرت اليه السندات الدالة على صورة الفتنة المتضمنة للمراسلات والمخاطبات الواقعة بينهما وبين رؤساء الفتنة فى النواحى والجهات لم يرض بقراءتها والاطلاع على مضمون حقيقتها بل مزق الاوراق واكتفى بالعفو ونفى رؤساء الفتنة الى الآفاق ثم لما وصل هذا القيصر الى الاسكندرية استجلب قلوب الاهالى واستمال نفوس الرعية وعامل الجميع بحلمه وكرمه فارتكز فى قلوبهم أمر مجده وعظمه وكانت أيامه كأيام بقية الانطونونية أزمان صلح وسعادة على الامة المصرية وانما لم يحسن المصريون اغتنام فرصة الهنا ولا التمتع بالاسعاد والغنى فقد حرمت مصر بسبب عصيانها من نيل المنى ولو سلكت مسلك الطاعة والانقياد لحصلت فى أيام هذه الدولة الرومانية من المعاملة على طبق المراد وقد سبق أن مرقوريلس قيصر كان منوطا بغزاء الامة الشمالية وقد غزاهم غزوتين انتصر فى كلتيهما ومات فى الغزوة الثالثة بالوباء وكان ذلك فى سنة ٢٤٤ قبل الهجرة وخلفه ابنه قومودس

(الفصل الثامن عشر)

(فى الملك قومودس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية فى سنة ٢٤٤ وحكم الى سنة ٤٢٩ فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وكان لا يؤمل من ظاهر حال هذا القيصر فعل شئ من الحسنات ولا يرجى خير لما ظهر منه فى أيام صباه من السيآت فكيف وقد كان له حمامى معتاد على تنظيف بدنه وازالة ما على جسمه من أوساخه ودرنه فجهز له الحمام حسب العادة فوجد هذا الامير الماء بالغا فى الحرارة حد الزيادة فأمر بقذف الحمامى فى المستوقد وشواه على جمر لظاه وقد توقد فهل يوجد من الجبروت أعظم من التعذيب بالنار والغدر بخادم متقرب ليس له ناصر سوى الملك القهار فبهذه الفعلة الرديئة لم يتوسم فيه أحد عدلا ولا حلما بل مما يضم الى ذلك ويوقع فى الاذهان اليأس من

صلاحه وفلاحه ان أباه لما مات فى ويانة مدينة النيمسا وهو معه ظن الناس أنه قتله بالسم فأوقع فى نفوس الجميع أنه منطبع على العقوق مضيع للحقوق فتأمله قل أن يحسن السياسة بالعدل والاحسان فما خاب فيه ظن انسان فبمجرد ما بويع له بالقيصرية فى تلك البلاد التى كانت جنود الرومان تحارب فيها القبائل المتبربرة الخشنة وكان الحال مقتضيا المكثه لتتميم هزيمتهم ودفع خصومتهم وكان أبوه قد بنى بتلك الجهات قلاعا واستحكامات وأعدها للمحافظة من المهاجمات فترك قومودس قيصر تلك القلاع وانسل من تلك البقاع وعاد الى رومة معجبا بنفسه النفيسة يختال بالتيه والخفر وبيده مرآة ينظر فيها الى حسنه وجماله وقوام قده واعتداله فدخل المدينة على هذه الحالة بموكب عسكرى عليه صورة الجهالة والجلالة والقيصر فى وسطه كأنه المؤيد المنصور وكل مشاهد شاهد عليه بالقصور وضياع تلك الابراج والقصور

ولم تتمتع مدينة رومة بأفراحه ومسراته الامدة قصيرة وكانت أغلب أعوامه مغمة وشرار نيرانها مستطيرة وذلك لان هذا القيصر كان عظيم القامة جليل الهامة فيه قوة بهلوانية وخفة المصارعين البدنية فبان منه الاستعداد الى هذه الصنائع الدنية والميل الى مغالبة القوى الحيوانية والى منازلة الرجال الغلاظ الشداد ومبارزة الاقران والاساد فلا يميل غصن بدنه الرطيب الا فى ميدان المواثبة فى التحطيب فقد حارب فيلا شديد العنفوان فى حالة الافتراس وضربه ضربة واحدة فألقاه على الارض عديم الحواس كما يحكى نظير ذلك فى أسد غلبه الخليفة المعتصم من بنى العباس وقتل ذلك القيصر فى يوم واحد خمس حيوانات من الافراس البحرية هجم عليها دفعة واحدة فأعدمها الحسية وفى هذا اليوم بعينه طعن مائة أسد بمائة سهم فوقها فقتل تلك الاسود وبالسهام مزقها فبوصوله الى هذه المغالبات الوحشية ازداد كبرا وعتوا وانتظم فى سلك الجبابرة والعمالقة وقوم عاد وسمى نفسه هرقول الرومانيين تشبها بهرقول اليونان الذى يحكى عنه العجائب والغرائب فى قتل الغيلان وتنظيف البقاع من الآساد ولذلك يوجد معنونا فى بعض التواريخ بعنوان هرقليانوس وشتان بين هذا القيصر

وبين ملكشاه السلجوقي سلطان خراسان فانه كان مولعا بالصيد ويقال انه ضبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف فتصدق بعشرة آلاف دينار وقال انى خائف من الله تعالى من ازهاق الارواح وكان بعد ذلك كلما قتل صيدا تصدق بدينار وصاد مرة وحشا كثيرا فبنى منارة من قرون الظباء وحوافر الحمر الوحشية قال ابن خلكان والمنارة باقية الى الآن تعرف بمنارة القرون فانظر الى مكارم الاخلاق الاسلامية الصادرة من السلطان والى عظائم الآثام الرومانية الصادرة عن القيصر وبالجملة والتفصيل فكان لا يهتم هذا القيصر بمصالح الدولة الا أقل من القليل بل جميع أوقاته تمضى فى مجامع المصارعة والمحاطبة والمسابقة والمغالبة وكان لا يأنس الا بمجالسة هؤلاء المحترفين بهذه الحرفة ويظهر معهم بمظهرهم فى المحافل العمومية بدون احتشام ولا كلفة ويشاركهم فى النزال والبراز ويترقب فى حومة الميدان شهادة الاهالى له بالفوقان والامتياز فكان يحب السبق على هؤلاء الاخوان حتى كان يتطلب هذه الشهادة من الحاضرين بالالحاح وفى الحقيقة كان له مزيد الفوقان والنجاح فقد انتصر فى ميدان المصارعة على ألف مصارع وافتخر بهذه النصرة حيث ظهر أنه أول مصارع بارع ويدل على ذلك أنه كان برومة تمثال للشمس على صورة مجسمة فرفع هذا القيصر رأس هذا التمثال ووضع صورة شخصه محل رأس صنم الشمس الرفيعة المنال وكتب فى أسفل التمثال ما نصه قد انتصر قومودس على ألف مصارع ليخلد ذكر مهارته فى المصارعة لتبقى من أعظم الحوادث والوقائع ولم يعتكف أحد على هذه المثالب اعتكافه ولا ساواه بشر فى سلوك سبيل هذه المعرة والكثافة فانه كان دائما حليف اللاعبين رفيق المسابقين فاذا خلا بنفسه فى قصره سفك دماء الناس وأجرى فيه بحور الدماء بلا مقياس وكان مغرى بسلب الاموال والارواح مغرما باطماع نفسه واتباع هواها فى المباح وغير المباح وأين منه السفاح ونظائر السفاح وربون بعيد بينه وبين السلطان اسمعيل السامانى أحد ملوك السامانية بما وراء النهر وخراسان على ما يحكى عنه أنه كان يأمر مناديا ينادى فى كل وقت ليصل من كانت له ظلامة ويرفع الحجاب ويبعد البواب ويقف مع المظلوم فى جانب البساط ويقضى بين الخصوم ويسمع الدعاوى

كبعض الحكام ثم يعود الى موضعه و يقبض على لحيته و يرفع وجهه نحو السماء و يقول اللهم ان هذا جهدى وقد بذلته وأنت عالم الاسرار تعلم نيتى ولا أعلم على أى عبد من عبيدك حفت فاغفر لى ذنوبى فلما كان صادق النية جميل الطوية لاجرم قوى أمره وارتفع قدره وبقيت المملكة الساسانية مدة طويلة هكذا تكون الملوك أرباب العدل والانصاف المنزهين عن الجور والاعتساف لا كمثل هذا القيصر الطاغية الملازم فى جميع أطواره وأحواله للاحكام الباغية اذ كان يأمر بالقتل بأدنى سبب حتى فقدت الامنية فى زمانه فى رومة وفى الطرق السلطانية وكان يسلى نفسه ويروحها ويواسيها ويراوحها بتعذيب من يريد قتله فيخترع كل يوم عذابا جديدا وهكذا من أعمى الله بصيرته وأضله والبغى مرتعه وخيم يمهله ولا يهمله العزيز الحكيم واذا أراد الله بحاكم خيرا ألهمه بالوعظ استدراك ما وقع فيه لطفا منه سبحانه وتعالى وأطلعه على باطنه وخافيه كما يحكى عن أبى جعفر المنصور أنه كان جالسا بفناء قصره اذ جاء سهم فوقع بين يديه فذعر منه ثم أخذه فاذا عليه مكتوب

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يجرى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها * وعند صفو الليالى يحدث الكدر

وعلى جانبه الآخر مكتوب همذان وكان الاعمش حاضرا عند المنصور فسأله عن ذلك فقال لعل فى السجن رجلا من همذان فأمر أن يبحث عن ذلك فوصلوا الى السجن فوجدوا رجلا يتلو القرآن ويردد قوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فقالوا له من أين أنت قال من همذان ففكوا عنه القيد وجاؤا به الى المنصور فلما دخل عليه قال ما قصتك قال وصل والبك الى بلدنا ولى ضيعة تغل ألف درهم فأراد أخذها منى فامتنعت عليه فكبلنى بالحديد وكتب بأنى عاص فطرحت فى السجن فقال المنصور منذ كم فقال منذ سنتين فأمر باطلاقه والاحسان اليه وخلع عليه خلعة كاملة وقال له يا شيخ قد رددنا عليك ضيعتك ووضعنا عنك خراجها ما عشت وعشنا ووليناك بلدك وحكمناك فى الوالى تفعل به ما شئت فقال أما الضيعة فقد قبلتها وأما الولاية فلا أصلح لها وأما الوالى فقد عفوت عنه فأمر له المنصور بصلة وانصرف

الى بلده مكرما وأما قومودس قيصر فلم يلهم ولم يستدرك الوقوع فى المأثم بل استدرج من حيث لا يعلم فان تكن قضية وقوع السهم بين يدى المنصور كما هو الظاهر وضعية فقضية العلج بحبس الهمذانى هى قضية طبيعية كما ان قضايا قومودس كلها واقعية فلهذا قام عليه الرومانيون وعصاه من الجنود الجميع وسقوه السم النقيع بواسطة معشوقته مرقيا ولكن قوته الطبيعية وبنيته الحيوانية غلبت على السم القاتل فلم ينقع فيه وحده بل مع ما يضاف اليه من طعنه فى المقاتل أو موته بخنق وشنق فقام عليه أحد المصارعين وهو المسمى نرجس من أهل الفتوة وكان أشد منه عزما وقوة فطرح نفسه عليه وضمه بين ذراعيه وقدميه وتصارع الجسمان بجميع أعضاء الابدان فغلب المصارع قيصره وصرعه وخنقه وتم مصرعه وأسكنه دارا غير هذه الدار ومأواه جهنم وبئس القرار فبموته انقطعت عائلة الانطونونية وكان ذلك فى سنة ٤٢٩ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وخلفه برطيناش قيصر كما سيأتى

ولم تكن مصر فى أيام الانطونونية الرومانية فى حالة صلح ولا سعادة ولا كانوا يستجلبون الحكم بالعدل والاحسان والشفقة واللين ولا عرفوا كيف تذاق لذة عدل الانطونونية بالديار المصرية فان مصر حرمت ذلك بما كسبت يداها من اثارة الفتن فأيام قومودس لم تفدها أدنى راحة ولا سعادة لتشبثها بالخروج والعصيان على دولة الرومان وكان فى مدة حكم الانطونونيه يأخذ دين النصرانية فى الانتشار والاتساع فى سائر الاقطار والبقاع وكان يبيح قياصرتهم التمسك به بدون تهديد ولا تشديد ويباح اجراء عباداته بدون تخويف ولا تنكيد وانما كان دين المصريين القديم لم يزل متمسكا به فى الحكومة المصرية وهو الكثير والغالب فكانت عبادة الشمس والقمر جارية فى مصر يتبعها اليونان والروم والغرباء المتوطنون ومن أراد الدخول فى النصرانية فى تلك الاوقات أبيح له ذلك وان كان الدخول فيه يعد عند عامة الناس من الموبقات

(الفصل التاسع عشر)

*(فى

(فى الملك برطيناش قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطوريه سنة ٤٢٩ قبل الهجرة وحكم ثلاثة شهور وذلك أنه لما مات قومودس اجتمع الاحزاب وبايعوا بالقيصرية لبرطيناش وكان عمره ستين سنة وكان أبوه نجارا وما يسا من الموالى ولكن رباه أبوه فأحسن تربيته فكان أول أمر برطيناش ان صار معلما للسان اللاطينى وكانت همته عالية فلم يقتنع بالتعليم بل صمم على أن يدخل فى الخدمة العسكرية فانتظم فى جند انطينينوس قيصر واستخدم فى جنود الشأم ثم خدم ويروس قيصر ففاق الاقران واشتهر فى حرب العجم ولما تولى مرقوريلس كان يحقد عليه فى أول أمره ثم غمره بالانعام وجعله من أعضاء مجلس رومة ثم أعطاه فرقة عسكرية جعله رئيسا عليها وهذا أقوى دليل على فضل برطيناش لان مرقوريلس كان صيرف رجال ونقاد أبطال فلما صار برطيناش رئيس الفرقة العسكرية وقائدا مستقلا هابه أعداء الرومانيين كمال الاهابة وطار صيته فى الآفاق وظهر أنه يحسن السياسة الملكية والعسكرية فبهذا استحق أن يجعله مرقوريلس حاكما كبيرا بوصف القنصلية الرومانية حيث استبانت صداقته للقيصر المذكور ولما تولى المملكة استبان منه الحلم والتحبب للناس والميل للعدل والانصاف وانما أراد أن يصنع فى الدولة الرومانية محسنات ادارية بديعية فأظهر بعد السماحة الحماسة وقصد الاقتصاد فى الاموال وتشبث بتأسيس تدبير المصارف على أقوى أساس بما تقتضيه السياسة والكياسة فعما قريب غضب عليه أمراء الرومانيين وأصبحوا على قتله مصممين حيث منعهم من الحرية فى الصرف والانفاق ولم يجدوا لهم فى سوق قيصريته نفاق فاجتمع من الاحزاب المقاتلين ثلاثمائة تحت رياسة أمير يسمى لوطوس واصطفوا صفوفا منتظمة وأحاطوا بقصره من جميع المسالك حتى أيس من الحياة وأيقن أنه لا شك هالك فقبضوا عليه وذبحوه ومن نصب المنصب القيصرى أراحوه فلم يظهر منه ما يؤذن بالتحسين أو التقبيح ولا بالتعديل أو التجريح ولم تكن مدة ولايته الا ثلاثة شهور وكان يرجى بره للرومانيين لولا صروف الدهور وتولى بعده ديديوس يوليانوس فى عين هذه السنة باشتراء المملكة على صورة غير مستحسنة وكان حظه كحظ سلفه كما

سيأتي

(الفصل المكمل للعشرين)

(في الملك ديديوس يوليانوس قيصر)

تولى هذا الملك الامبراطورية سنة ١٩٣ وحكم شهرين لما خلا سرير الامبراطورية الرومانية عن قيصر وعن ولي عهد استبد أمراء رومة وقواد جنودها وكانوا اذذاك أرباب النفوذ وأولوا الحل والعقد بتولية قيصر عليهم على موجب أصول جديدة وان كانت غير مجيدة ولا سعيدة حيث لم يكن عندهم روابط مشروطة ولا قوانين مضبوطة عند خلو السرير من القيصر يلجأ اليها ويعتمد عليها فاستصوبوا أن يضعوا المنصب القيصري في المزاد وأن يلتزم به من يشتريه بأغلى ثمن فيكون نوعا من المقاطعات الالتزامية يستفيده من يكثر الثمن ويملأ خزينة المالية فلما استقر الرأي على ذلك صعد على أسوار الرباطات العسكرية في الشوارع والمسالك عدة أشخاص وصاحوا على العامة بالنداء صيحة جهورية وأذن مؤذنوهم قائلين ان المملكة الرومانية في المزاد لمن يسوم ثمن تغالى في الاموال صار قيصرا على جميع بلاد الروم فحضر اثنان من السوام في محفل المزايدة العام أحدهما سولبقيانوس صهر القيصر الهالك والثاني ديديوس يوليانوس وهو خير من ذلك لانه كان عارفا بحسن القوانين والاحكام وكان الاول بالنسبة اليه منظوما في سلك العوام فسام الاول المنصب القيصري بخمسة آلاف من الدراهم على كل رأس رومانية وجعل العمدة في ذلك على الفرز والعدية وأبلغه الثاني على كل رأس ستة آلاف ومائتين وخمسين بالنظر لعدية رؤس الرومانيين وكلاهما معتمد على التعديل والميزانية وتحصيل هذه المقادير من الرومانية وغير الرومانية فاستقر البيع للثاني فبايعوه على القيصرية بالتزام هذا الثمن حيث وعدهم بالوفاء بدون مطل ولا تواني فأخذ عنوان الامبراطور والقيصر ونال بالملك الحظ الاوفر وصدق على ولايته مجلس أعيان رومة وسلمه زمام الحكومة ومع أن مجلس رومة كان له مزيد الفخار والاعتبار ولا يخفاه ما في هذه البدعة الذميمة من السبة والعار الا أن

شوكة قواد الجنود كانت اذذاك قوية فلم يكن للمجلس أدنى معارضة ولا تصح منه فى تلك الحالة الراهنة مناقشة ولامناقضة لاسيما وانه لم يكن للرومان قوانين أكيدة صريحة فى وراثة المملكة على طريقة صحيحة فلو كانت عندهم الوراثة القيصرية من الحقوق الشرعية والاصول المرعية لساغ لمجلس رومة أن يصونها ويحامى عنها ويحفظها من التغيير والتبديل حتى تكون بالرسوخ متوارثة بالتسلسل لاتزول عن مستحقيها فى كل جيل والظاهر أنها لو كانت على هذا المنوال لبقيت الى هذا الوقت الحال فانظر الى الدول المتجددة فانها لم تزل على مدى العصور باقية فى بيوت الملوك مخلدة

ومن المعلوم أن الذى حل محل الدولة الفارسية والرومانية فى الاعصر الاخيرة انما هو الدولة العثمانية فقد خضعت لهم صناديد الاكاسرة وأعناق القياصرة وعظماء الجبابرة وتلك مزية ظاهرة ومرتبة فاخرة وقد وقعت مهابة سلاطينهم فى قلوب الخلق وجلالة خواقينهم فى صدور الناس خصوصا عساكرهم وأجنادهم فلا يجسر أحد يسطو عليهم ولا أن ينظر بعين الازدراء اليهم بل هم على ممر الاعصار معظمون وعلى توالى الدهور مهابون مع اتساع مملكتهم العظيمة وأقاليمهم الجسيمة واستيلائهم على غالب الاقطار وأعظم البلدان والامصار ولاريب ان أعظم البلاد المعمورة وأشرف الاقاليم المنصورة اقليم الشأم والعراق والحجاز واليمن ومصر والمغرب وقد استولت هذه الدولة العثمانية على جميع هذه الاقاليم السنية فلا يعلم من الملوك من ملك كملكهم ولامن اندرج فى مثل نظمهم وسلكهم وماذاك الا أن مملكتهم موروثة بموجب قوانين منتظمة ومن الغريب انه قد ولى السلطنة منهم خمسة عشر سلطانا كل واحد منهم ابن السلطان الذى قبله على نسق واحد ولايعلم فى الجاهلية ولافى الاسلام ملوك بهذه المثابة وهو أمر عجيب لم يقع لغيرهم مثله ولامايقاربه الاماوقع لخلفاء مصر الفاطميين كما سيأتى فى محله ان شاء الله تعالى وهذا من حسن تنظيم الوراثة التى بها قوام الملك وعليها مداره

وأما الرومانيون فكانوا محرومين من ذلك فلما تولى ديديوس يوليانوس المنصب بتلك المثابة الغريبة عقدوا له موكبا وساروا به الى القصر الملوكى ولكن فى أثناء الطريق أصابه ما أصابه فان جميع الاهالى شنوا عليه الغارة وصاروا

يسبونه ويرجمونه بالسب واللعن مما هو أقوى من الرجم بالحجارة ولا فرق في ذلك بين الوجوه والرعاع فانظر كيف يكون حال الراعي مع الرعية اذا ظهر منهم العصيان والامتناع فانه يخشى عليه الضياع وفي الواقع لم يلبث هذا الامبراطور في منصب القيصرية طويلا وقد ذاق في مدة حكمه التي هي عبارة عن شهرين عذابا وبيلا فقد زعق على هامته المزينة بالتاج غراب البين ولم ينج بالتزام نصاب العين من مصاب العين فاجتمع العساكر المحافظون من سائر الحدود والثغور وانقضوا على أمراء رومة وقوادها ولا انقضاض البازات والصقور وبايع جنود كل اقليم قيصرا اختاروه من القواد وكادت أن تتمزق السلطنة الرومانية الى عدة قياصرة بانتخاب قيصر في كل واد فعساكر الشأم مثلا اختارت قائدها قيصرا على الجميع وجنود بريطانيا بايعوا الاميرهم كذلك وجنود سواحل ايطاليا اختاروا أميرهم سبطيمس سويرس قيصرا على سائر الرومان وهو الذي صحت قيصريته وعمت جميع البلدان فهذا القيصر هو الذي ساعدته على اقباله المقادير لانه قريب من رومة ومشهور بحسن التدبير فسار سويرس قيصر صوب رومة وكان وديوس يوليانوس قيصر لم يزل فيها يتمتع بالمنصب القيصري ويتولى أمر الحكومة فاتهمه المجلس الروماني بأنه خائن الاوطان وأن ولايته مجرد طغيان وعدوان وحكم بقتله بصورة قرار فقتلوه وأسكنوه دار البوار فكان موته في أثناء السنة ولم يحكم الاشهرين فكانه كان في غفوة من النوم أو سنة وصفا الوقت لسبطيمس سويرس قيصر فدباعه للقبض على زمام الحكومة وما قصر

(الفصل الحادي والعشرون)

(في الملك سبطيمس سويرس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٤٢٩ قبل الهجرة وبقي حكمه الى نحو سنة ٤١١ فكانت مدة حكمه ثمان عشرة سنة وكان هذا القيصر من بلاد المغرب من مدينة لبودة احدى مدن افريقية وكان قد تزوج بزوجة شامية اشتهر بها فلهذا قيل انه أول سلسلة القياصرة الشامية وكان طاغية

من طواغى قياصرة الروم الجبارين وكان فى حال صباه يهوى اللعب بمحاكاة حركات القضاة والحكام ويقلدهم فى ألعابه وهزلياته فكان يجمع أنداده من الصبيان وأقرانه من الغلمان ويجعل نفسه رئيسا عليهم ويوزع عليهم مصالح المحكمة ووظائفها ويجعلهم على صورة مجلس قضائى ويصعد على منبر القضاء ويصفهم حوله ويتذاكر معهم فى قضية يخترعها ومشاجرة يبتدعها ثم يقول حكمت بذلك فكأنه من وقت شبوبيته كان مستعدا للاقضية والاحكام فلما تولى القيصرية وكان خارج رومة بادر بالذهاب الى رومة مع جيش جرار يبلغ مئتين ألف مقاتل فلما أشرف على المدينة ارتعب منه المجلس الرومانى وأرسلوا اليه من أعضائه رسلا ليهنوه على منصب القيصرية فلما وصل اليه الرسل وهم منهم وخشى أن يكونوا جاؤا لمكيدة وارتاب فيهم بسبب اغتصابه للملك من باب كاد المريب أن يقول خذونى فأمر بتفتيشهم فلم يجد شيأ مما اتهمهم به فأمر بقتلهم بين يديه ولاجل تطييب خاطرهم ونسيان ما حصل لهم من التحقير أجزل انعامهم وبالغ فى اكرامهم فقبلوا انعامه واكرامه ولم يقدروا على رده خوفا منه على أنفسهم فأول ما وصل الى رومة لم يبال فى الدخول على المجلس بعساكره ثم وعد أرباب المجلس أنه يحكم الدولة الرومانية بالعدل والانصاف فأظهر المجلس الرومانى أنه صدق وعده بذلك مع علم المجلس المذكور أن الملك المغتصب للقيصرية لا يوثق بمواعيده العرقوبية وقل أن يحكم رعيته بالاحكام العدلية ثم أصحبوه بموكب ودخل القصر الملوكى بالرفعة والشأن ثم تولى الاحكام بنفسه فكان أول حكم أصدره من ديوانه هو ابطال الخفراء المحافظين القاتلين ابريطناش سلفه ووضعوا المملكة الرومية فى المزاد كما سلف وعاقب رؤساء الفتنة جزاء لهم على أفعالهم الشنيعة ثم اشتغل بتنظيم المملكة وحسن ترتيبها فمحا وأثبت وغير وبدل ولاجل أن يأمن على نفسه طرد المحافظين الذين عزلهم من رومة وأهدر دم من يعود اليها منهم وجدد خمسين ألف عسكرى للمحافظة واهتم بترتيب أصول الضبط والربط فى العسكرية على الطريقة الحسنة التى كان يجريها فى المملكة الغلية حين كان رئيسا على الجيوش الرومانية المحافظين فيها ثم فى أثناء ذلك اقتضت المصلحة سفره خارج ايطاليا وذلك لان الحال اقتضى أن

يحارب القائدين المتطلبين للقيصرية الرومانية المختارين فى الجهات الخارجية أحدهما بسقنيوس نيجر قائد عساكر الشأم ومصر والبلاد المشرقية وثانيهما قلوديوس ألبينوس قائد عساكر بريطانيا فلاجل أن يتفرغ لقتال بسقنيوس نيجر أشرك معه فى القيصرية قلوديوس ألبينوس ليأمن على مملكته فكل من القائدين فى الحقيقة عدو مبين الا أن الاول أضر من الثانى على القيصر فقد كان ظلوما غشوما وكان جده وكيلا على الديوان القيصرى برومة وكان قد تربى هو فى مدة حكومة مرقوريلس فى العسكرية فكان الجند يألفونه مع شدته وحدته وعدم تلطفه بهم وكانت مصر متحزبة معه ومعترفة له بأنه ملكها وملك المشرق حتى ان ديوان الاسكندرية كتب على باب المدينة نيجر سيد هذه المدينة وصاحبها فسار لقتاله سبطيس سويرس سيرا حثيثا ليأخذه غيلة فلما قدم سويرس على مصر تمثل بين يديه أهل الاسكندرية وازدحم على بابه عامة الناس ورعاعهم وأظهروا الفرح باقباله عليهم وصاحوا قائلين نيجر سيد هذه المدينة وأنت سيد نيجر وقصدوا بذلك اصلاح مارسموه على باب المدينة ومداواة جراح مافعلوه من اعترافهم بملوكية نيجر حيث لم يمكنهم انكاره فأقام هذا القيصر نائبا على مصر من أحد أرباب مجلس رومة وأقام على الاسكندرية من أعضاء مجلس رومة أيضا وخالف فى ذلك قانون أغسطس قيصر حيث لا ينيب أرباب المجلس فى الولايات وكان نيجر لما أحس بسير سويرس اليها فر هاربا فسار سويرس يقتفى أثره ويهجم عليه فى المدن المبايعة له وهو يمانع عن نفسه وعن بلاده ويصادم خصمه حتى أظهر ما لا مزيد عليه من الشجاعة والمهارة فى جميع المصادمات والمطاردات برية وبحرية ولكن لم تساعده المقادير فى النصرة على سويرس قيصر حيث حدثت تلاقيح شديدة ورياح عواصف عنيفة تسبب عنها انهزامه عند رأس بالبحر فأخذ فى الفرار الى بلاد العجم فضبط فى أثناء طريقه وقتل وكان ذلك فى سنة ١٩٧ قبل الهجرة وصفا لسويرس قيصر ملك الجهات المشرقية فلم يبق لهذا القيصر الا خصم واحد بالجهات المغربية وهو قلوديوس البينوس الذى كان أشركه فى القيصرية وكان مجلس رومة يميل باطنا الى تقليد قلوديوس بالامبراطورية والى نصرته على سبطيس سويرس مع كون جنوده مشهورة

بالقوة والشجاعة وكونه معدودا من فحول الرجال وكان قد لقب نفسه أغسطس فسار اليه سويرس فلما تلاقى الجمعان بقرب مدينة ليون بفرانسا وتصادما ضدمة عظيمة كانت الهزيمة على جند ألبينوس فانكسر هو وجنوده فقتل نفسه خوفا من أن يقع بين يدى عدوه فقطع سويرس رأسه وبعث بها الى المجلس الرومانى بخطاب لاربابه يلومهم على ميلهم وتعصبهم سرا لهذا الخارجى ويفيدهم غضبه عليهم وغيظه منهم ثم عاد هذا القيصر الى رومة فقتل وفتك وأجرى فيها الدماء كالسيول والانهار ونفى منها من نفى من أكابرها واعيانها وضرب أعناق مشاهير رومة وصناديدها ومشاهير مدن المملكة وصناديدهم ولم يبق على أعضاء مجلس رومة بل انتقم منهم كل الانتقام فقد وعد بما وعد من الاصلاح فأخلف واتلف وهكذا عادة الجبارين الذين لادين عندهم ولا يقين فانهم يظهرون فى مبادى أمرهم خلاف ما يبطنون لاحساسهم بضعفهم فاذا تمكنوا أعلنوا ما كمن فى الخواطر وتظاهروا بمستترات الضمائر وقد تفرغ بعد تصميم المملكة لحرب ايالة العجم والانكليز وضبطهما وادخالهما تحت الانقياد والطاعة فحارب الجهات المشرقية حتى حاصر مدينة بوزنطيا التى هى الآن قسطنطينية وجعل على حصارها قواده ليقتحموها فدافعت عن نفسها نحو ثلاث سنوات ففى أثناء غزوه فى الشرق والغرب استولت جنوده على القسطنطينية ونهبوا هذه المدينة المثرية ودمروها كل مدمر فبعد أن غلب العجم والبلاد المشرقية بلغه أن الانكليز غالبون لجنده فقدم عليهم من حيث لا يشعرون وغزاهم غزوتين خسر فيهما خمسين ألف مقاتل وكان قد أشرك ولديه فى القيصرية معه وأكبرهما يسمى بسيانوس حضر وقعة الانكليز وانهزام جنود أبيه فوقعت الفتنة فى المعسكر بين الجنود وحصل الفشل بين الرؤساء فقام بسيانوس بن سويرس على أبيه وسل عليه السيف يريد قتله فلم يتمكن من ذلك * ومن لم يمت بالسيف مات بغيره فخنق أبوه من جسارة ولده فمات بغيظه وكمده

وفى مدة حكمه كان أصدر أمرا بقتل النصارى فى ممالكه فوقعت عليهم مذبحة عظيمة وكانت هى الشدة الخامسة وقد ابتدأت أولا فى مملكة مصر ثم سرت منها الى البلاد الغلية والى افريقية فقتل فى تلك البلاد من النصارى

مالا يحصى عددا لاسيما فى مدينة ليون بفرانسا وفى قرطاجه بالمغرب فلما هلك هذا القيصر سنة ٤١١ قبل الهجرة ظن الاهالى أنهم اكتفوا شره وان ابنه بسيانوس اذا تولى بعده يرجون خيره فأخلفت الحية حوية صارت أفعى وصارت باللدغ واللسع الى جميع الناس بالاذى تسعى

(الفصل الثانى والعشرون)

(فى الملك بسيانوس قراقلة قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٤١١ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ٤٠٥ فكانت مدة حكمه ست سنين وبيان ذلك ان سبطيمس سويرس قيصر مات عن ولدين أحدهما يسمى بسيانوس قراقلة والثانى يسمى سبطميوس جيطا وكان أبوهما قد عهد لهما بالامبراطورية فى حال حياته فبويع لهما معا بها فاشتركا فيها بعده وكان يتوهم فى بسيانوس قراقلة الشفقة والرفق بالعباد والبلاد فانه كان يعهد منه فى حال صباه أيام والده انه لا يتمالك دمع عينيه متى عاقب أبوه أحدا من الناس بقذفه للحيوانات المفترسة لتفترسه فكان الولد يستبشع وقوع ذلك الامر فى ديوان أبيه على رؤس الاشهاد فكان الناس يؤملون فيه الخير فبمجرد توليته قيصرا استحالت هذه الشفقة والرأفة الى جبروت وقساوة وظهر المخبا وألبس هذا الملك رداء سريرته الردية وقد هم أن يقتل أخاه بالسم فاحتال على ذلك بكل الحيل فلم يتمكن من قتله مسموما فأغرى عليه أعوانه فقتلوه بين ذراعى أمه فأظهر بسيانوس قراقلة أنه لم يعلم ذلك * ويحسن السبك قد يتقى الزغل * فهرب من سرايته وأظهر انه يخاف من هؤلاء الاعوان وأنه أراد بذلك أن ينجو بنفسه من الخطر والفتنة وأعلن جميع الناس أن قتل أخيه كان على غير مرامه وذهب بنفسه الى معسكر الخفر والمحافظين وأعلمهم بقتل أخيه فأنكر الجنود عليه ذلك وأظهروا الاسف والحزن على الطفل الهالك فوعدهم بالانعام الجزيل وأنجز لهم ما وعدهم به وكان لم يزل حزب أخيه حاقدا عليه مثيرا للفتنة فأشار عليه المحافظون الذين أجزل لهم العطاء أن يصنع لاخيه تمثالا وينظمه فى سلك الاصنام المعبودة على عادة ملوك الرومانيين ليقمع الفتنة بذلك ويقنع حزب

أخيه بما هنالك فأجاب بأنه لا مانع من صنع التمثال لتخليد ذكر أخيه حيث فارق الدنيا وانتقل من دفتر الاحياء على أسوا حال ثم التمس هذا القيصر من وزير أبيه المدعو باسم بابنياس أن ينشئ له مقالة رسمية لتتلى على الاهالى فى المحافل العمومية اعتذارا عما جرى لأخيه من البلية فأجابه بابنياس بقوله كان ترك القتل أسهل من الاعتذار عنه فغضب من قوله وجازاه على فلتة لسانه بقتله ولا غرابة فى ذلك وأمثاله فقد قيل

لا تبطرنك خلعة ألبستها * ما خلع قلبك عندها ببعيد
والبدن ليس بمنكر تزيينها * للنحر ليلة جمعة أو عيد

فقد جرت عادة الملوك أن يستعظموا ولو فى اثواب رد الجواب ويستقلوا فى العقاب ضرب الرقاب فلذلك قيل كن من الملوك مكانك من الشمس انها لتؤذيك والسماء لها مدار والارض دار فكيف لو نزلت قليلا وكما ضربوا الشمس للملوك مثلا كذلك جعلوا البحر منهم بدلا فقالوا جاوره لكا أو بحرا وأحرى براكب البحر أن لا يسلم وقيل مثل صاحب السلطان كراكب الاسد يهابه الناس وهو لمركبه أهيب

ومن خدم السلطان أكرم نفسه * ولكنه عما قليل أهانها
ومن عبد النيران لم ينتفع بها * ولم يلق الاحرها ودخانها

فلما ان خلص هذا القيصر من وزير أبيه بنحره تصدى لاتباع هوى نفسه الامارة فى حاله وأمره فتأمر وتكبر وتأسد وتنمر وتشبث بالاغتيال بالظفر والناب وأكثر من سفك الدماء وضرب الرقاب وفتك بالأكابر والاعيان ووجوه الناس ولكل زمان حجاج ثقفى يتشبث بالمراء والمراس فكان عدد ما قتلهم من الاعيان والكبار ينيف عن عشرين ألف نفس مختلفين فى الدرجات والاعمار ثم توسوس وتخوف وتهوس وتخرف وتنكر وتعرف وحاكت فى نفسه الخبيثة آثامه وخطاياه ولازمه الوهم الفاسد وما تخطاه فكان يتخيل له دائما الانزعاج بأضغاث الاحلام حتى يرى أن أباه وأخاه يريدان قتله فى المنام فلم يستقم له بعد ذلك حال ولا تنعم له بال ولا اعتدل مزاجه أدنى اعتدال ولا حسنت منه أقوال ولا أفعال وانتزعت من قلبه الشفقة على العباد والرأفة وتمكن منه الطيش والخفة فكان يسلى نفسه

بحضور الولائم والالعاب والعب بالميادين العامة حتى صار عبرة لأولى الالباب يلعب مع اللاعبين ويرتكب ما يخل بناموس الملوك ومروأة السلاطين ويلبس فى الميدان ملابس العربجية وفى عنقه ياقة زرقاء كالزنار مخصوصة بذلك الكار وفى يده كرباج العربة كأنه سيما الافتخار واذا أقبل فى ميدان البرجاس سلم على رئيس الالعاب تسليم ائتناس وأظهر بالتمنى لطفه وظرفه وحياه تحية أنفار الحرفة ودخل فى ميدان السباق مع الاخوان وسابقهم مسابقة الاقران واذا انتصر عليهم التمس قصب السبق ليمتاز وظن ان من حاز هذه الجائزة بالنصرة وزحزح عن الهزيمة فقد فاز وهى عبارة عن قلادة من الذهب يتميز بها من غلب

وقد كان هذا القيصر كثير الغش والزغل والتدليس فكان غشه مستوعبا لجميع أحواله وأطواره حتى كانت نقوده القيصرية المضروبة باسمه من دراهم ودنانير مغشوشة حتى قال بعض أهل عصره كان القيصر يعطينا النقود المتخذة من الرصاص مطلاة بالفضة على أنها فضة خالصة والنقود المتخذة من النحاس المطلاة بالذهب على أنها ذهب خالص وكان يحتكر النقود من الذهب الخالص والفضة الخالصة ويكنزها عنده ولا يخرج منها شيأ الا ما كان يدفعه للقبائل الاجنبية المتبربرة فى نظير عقد الصلح معهم حتى يتجنبوا حربه أو يساعدوه على الرومانيين وكانت دائما أفعاله سخيفة فقد تولع على حين غفلة بتقليد الاسكندر الاكبر المقدوانى والتشبه به فى جميع شؤنه وأحواله ولو أن التشبه بالرجال فلاح كما يقال لكن لم يكن لهذا القيصر فى ذلك اصلاح ولا صلاح لانه لم يكن معدودا من الابطال فكان يقلده فى أحواله وأطواره ويتزايا به فى الملبس والمطعم وكان يتكلف التخلق باخلاقه فى جميع ما يحكى لم عنه بدون مصادفة محل وشتان بين التكحل والكحل فقد كان للقيصر من الجنود المحافظين نحو ستة آلاف مقاتل كلهم مقدوانية تقليد العساكر الاسكندر وقد علق أيضا تمثال الاسكندر على جميع الميادين العامة والهياكل والمعابد وسمى نفسه الاسكندر لتكون هذه التماثيل رموزا له معنونة بعنوانه ومنطبقة عليه ليتحد الاسم والمسمى وكان يعتقد أن اطلاق هذا الاسم الجليل عليه يكفيه فى المجد والتبجيل وانتهاء الفخر اليه

وان

وانّ اتحاد ذاته بذات ذلك الجناب المهاب تدفع عنه اللوم والعتاب
وقد قصد أن يستوفى أصناف هذه التقليدات الهزلية والتخيلات المجازية
ويجعلها منطبقة عليه بالكلية والجزئية وان تكون موجبة لاسلبية فشرع
بحسب اقتضاء الحال أن يفتح الفتوحات على منوال الاسكندر الاكبر
فأخذ فى الغزوات حتى جعلته أضحوكة عند جميع العالم حيث أجراها على
أسلوب غير معهود وفجزها على وجه ليس بمحمود فتصدى الى غزوة حربية
فى بلاد فرانسا المسماة اذ ذاك بالغلية أهلك فيها الحرث والنسل وأفنى
فيها الجنود حيث ارتحل وحل وجال فى البرارى والقفار حتى نزل على
بلاد جرمانيا كسيل العرم ولم يستطع أن يغلبها بل صار فيها بحالة المنهزم لانّ
أهل جرمانيا تأهبوا لمصادمته فعبروا نهر الرين ليهزموه شر هزيمة ويخلعوه
من منصب الامبراطورية الفخيمة ولولا أنه أرشاهم بالدراهم الوافرة
لكسروه وقطعوا دابره لكنهم لما حصلوا منه على مراهم الدراهم عادوا الى
بلادهم بما كسبوه من المغانم بوصف مسالم ثم دخل فى بلاد المجار والافلاق
والبغدان وبلاد الاردل المجاورة لبلاد الجرمان فوجد هذه الممالك فى قبضة
الغوطية وكانوا أصحاب بطش وشوكة قوية فكانوا قد أشرفوا أن يصادموه
ويخرجوه من الحدود فلم ينفع من حربه معهم الا كونه أدخل تحت طاعته
مملكتين صغيرتين لا يفيان بما أهلكه من الجنود ومع هذا كله فكان
انقيادهم له بالمكر والحيلة لا بالوقعات الجليلة وكذلك تشبث بتدمير اقليم
فارس فما ظفر ولا ظهر بل اصطلح بعد ان انهزم و... وا... ما فعله الاسكندر
الاكبر وقد وثب أيضا الى الديار المصرية وأ... د... مقدارا عظيما من أهالى
الاسكندرية وسبب ذلك ما بلغه من أن أهل الاسكندرية يخوضون فى
عرضه ويذمّونه غاية المذمة ولا يرعون له إلاً ولا ذمة فحضر اليها قصدا وأوقع
بأهلها وقعة عظيمة وأغرى عليهم جنوده حال قدومه فذبحوا أكثر أهلها
فى مذبحة عظيمة مكثت يوما وليلة فكانت عليهم مشؤمه وانتهى حاله
فى غزواته بالعجز عن القتال وعدم منفعة ما صنعه مع العجم من الحرب
والنزال حيث عاد العجم للانتقام منه فلما رأى جنده أن قيصرهم صار
أضحوكة لاهل الممالك ومهانا فى جميع الطرق والمسالك وانّ هذا يخل

بناموسهم ويزرى برفيع بأسهم ويفضى الى بوسهم صمموا على قتله فى أثناء الطريق فاراحوا بسفك دمه الرفيق والفريق وكان قتله فى سنة ٤٠٥ قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ست سنوات ليس فيها للدولة الرومانية غير المذلة والمعرة

وفى جميع غزواته كان يلبس على رأسه مغفرا على زى بلاد فرانسا من الصنف المسمى قراقله فكأنه يقول

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * متى أضع العمامة تعرفونى

فاشتهر بهذا الاسم فى كتب التاريخ وتولى الامبراطورية بعده مقرينوس رئيس الخفر القيصرى

وقد كان بسيانوس قراقله حين اشتراكه مع أخيه جيطا رسم العلامات الملوكية والطغرى القيصرية فى جميع البلاد الغربية والشرقية باسمه واسم أخيه معا ومن جملتها ما كان قد رسم على المبانى والهيا كل فلما مات أخوه قتيلا أمر بمحو اسمه فى سائر الجهات فانمحى اسم أخيه من جميع الرسومات ولا فرق بين المبانى وغيرها ولم يبق لاخيه عين ولا أثر وانما بقى فى مصر دون غيرها من البلاد آثار محو على بعض الاحجار لكن يمكن قراءة الاسم لمن أمعن الانظار ومما ينبغى التنبيه عليه ان هذا القيصر هو آخر قيصر من القياصرة بقيت آثاره على مبانى الديار المصرية ولم يكن لقيصر بعده من اسمه رسوم أثرية

(الفصل الثالث والعشرون)

(فى الملك أوبليوس مقرينوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٤٠٥ قبل الهجرة وبقى الى سنة ٤٠٤ فكانت مدة حكمه سنة واحدة وقبل توليته المنصب الملوكى كان كما قيل رئيس الخفر القيصرى كما سبق ويقال انه هو الذى أغرى الجند سرا على قتل قراقله وأنه جعل للجند فى نظير ذلك جعلا جسيما وان سبب ذلك كون بعض الكهنة من أهل العرافة أخبر هذا الرئيس أن سيصير ذات يوم امبراطور الرومانيين وقيصرا عليهم فبعد قتل قيصره أعلنت له الجنود فى

المعسكر بالامبراطورية وكان مولده فى مدينة الجزائر بالغرب وكانت تسمى قيصره وكان هذا القيصر منقوب الاذن فسمى مقرينوس ويسمى أيضا مقرين ومعنى مقرين بلسان بربر المغاربة مثقوب الاذن وكان مسعود الطالع ميمون الطلعة فارتقى المناصب العالية فى أقرب وقت ومع أنه كان من عشيرة خاملة الذكر كان صاحب علوم ومعارف متنوعة فتارة يتوظف بوظيفة خطيب مصقع فى المجالس وتارة بوظيف عدل فى المحاكم وطورا بوظيفة قاض رئيس محكمة فلما كان منظوما فى سلك القضاة والحكام وله اليد الطولى فى معرفة القوانين والاحكام رفعه قراقلة قيصر الى منصب امارة الجنود ورياسة الجيوش واستخدمه بمعيته ثم رقاه الى أعلى المناصب الرومانية وجعله أميرا لمحافظة القيصرية وكان هذا المنصب يعادل منصب الاتابك عند السلاطين فى الاعصر الحديثة فانتهى به الحال ان خان ومان وتطبع بطبيعة ذلك الزمان بل وكل زمان وغدر بولى نعمته لحيازة رتبته وهذا هو الغاية القصوى فى كفران النعم المذموم شرعا وعقلا عند سائر الملل والامم وجور صاحب المملكة لا يسوغ قذفه بيد أصدقائه فى المهلكة وأحسن ما قيل فى ذم عمل السلطان وخدمته ما كتبه أبو الفضل الهمدانى الى بعضهم نهت الحكماء أدام الله عز الشيخ عن صحبة الملوك فقالوا اذا خدمتهم ملوك واذا لم تخدمهم أذلوك وانهم يستعظمون فى الثواب رد الجواب ويستقلون فى العقاب ضرب الرقاب وانهم ليراوحون بحميد الخدمة ويعادون بلطيف التهمة فلا يقيمون لها وزنا ولا يعرفون لها قدرا وقالوا كن من الملوك مكانك من الشمس انها لتؤذيك والسماء لها مدار والارض دار فكيف لو نزلت قليلا او ان العاقل ليطلب منها مزيد بعد فيتخذ فى الارض سربا لو اذا منها وهربا ويبتغى فى الارض نفقا فرارا منها وفرقا وكما ضربوا الشمس للملوك مثلا كذلك جعلوا البحر منهم بدلا فقالوا اجاور ملكا أو بحرا وأحرى براكب البحر أن لا يسلم كراكب الاسد يهابه الناس وهو لمركبه أهيب وقد سبق ذكر بعض ذلك فى الفصل الثانى والعشرين وتكرر هنا والمكرر أحلى وانما اذا كان التكرار لفائدة فلا بأس به وهنا نضم الى ذلك فائدة زائدة والشئ بالشئ يذكر ويحسن ذكره مع غيره ولو تكرر فنسرد هنا ما ذكره

أبو النصر العتبى فى وصف السلطان وذم خدمته قال السلطان بمنزلة السيف القاضب والنبل الزاغب والنار ذات اللهب والنخل ذات الشوك والرطب ان فرشت له خد الطاعة سلمت من حديه وقطعته سالما من طرفيه وتمتعت بجدوى صلاته وضيائه ونعمت بين أفيائه وأجنائه وان سحبت ذيل الرداء له غدوت على قضاء مذروب ودفاع غاوب ونار يلفح وهجها ولظاها ومثال تدمى الاصابع بشباها ومافى لذة الانتفاع بهم وفاء بعاجل المخافة وآجل الآفة مع ما بينهما من نصب الابدان بامساء وتبكير وادلاج وتهجير وتعب النفوس بتعديل الاطراف وتقويم الاعطاف وتهذيب العبارة واتباع آداب الامارة والمنافسة مع الخلطاء فى الخدمة والشركاء فى النعمة ثم احتقاب الاوزار التى مصيرها الى النار وبئس عقبى الدار فمن نشط للذة بمحذورها وغرة بزنبورها فليشدد للذل نطاقه وليبذل فى الطاعة ما أطاقه والا فليعبد سلطان السموات والارض ومالك البسط والقبض يرض منه بدون هذه المناصب والمتاعب وشطر هذه المخاوف والمراهب مع ما استحق من كريم الرغائب وعظيم المثاوب ورفيع الدرجات والمراتب ثم عقباه جنة تنعم فيها الابرار وتجرى من تحتها الانهار خلود يجعل الوجه منيرا والعيش نضيرا واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا انتهى فقد بين فى هذا أوصاف المنافع والمضار وأصناف العقوق والمبار وحذر وأنذر وألف ونفر فمنه يفهم أن من خالف الملوك يندم وان استطاع أن يستغنى عن الخدمة فلا يقدم وسواء فى ذلك الحقير والخطير والوزير وغير الوزير فما فعله مقرينوس هو محض جناية وان حصلت له بتولية القيصرية العناية وقد كان حزب من الجنود المحافظين انفرد بالتوقف زمنا طويلا عن مبايعته فلما تولى وشرع فى أداء الوظيفة القيصرية اشتكى منه جميع الناس وتمكنت منهم الوحشة وتجردوا عن حلية الايناس وكان بمجرد توليته استمر على الحرب مع الفرس لان أردوان ملك الفرس الاردوانية كان هجم على حدود الرومانيين فانهزم القيصر هزيمتين متواليتين واضطر الى أن يشترى صلح أردوان معه بثمانين مليونا من دراهم الفضة العين فحنق عليه الحزب الذى نكص عن مبايعته ثم لما تكرر منه ارتكاب جناية الفتور

والكسل واظهار الجبن والعجز والملل استشاطوا عليه غيظا ثم محاوا أثبت فى القوانين الملكية والاصول المتداولة فى العسكرية وتشبث بالتشديد فى انتخاب شبان العساكر المستجدة وأهمل تسريح العساكر المتعلمة التى طالت عليها المدة حقد عليه الجنود وصمموا على انتهاز الفرصة فى الانتقام منه فعما قريب لاحت لهم الفرصة فى ذلك وان يلقوه بأيديهم الى أشد المهالك

وذلك أنه كان قد نزل بقرب مدينة حمص فرقة عسكرية وكان أهل هذه المدينة صابئين يعبدون الشمس وكان لهم كهان لخدمة هيكلهم ومن هؤلاء الكهان شماس عمره ثلاث عشرة سنة يسمى بسيانوس جميل الشكل حسن الوجه وردى الخدود رشيق القوام

متورد الخدين من خجل * متخاذل الاعضاء من كسل

ما راعنى الا تدافعه * كالغصن بين الصدر والكفل

اذا لبس الملابس الفاخرة المعدة للكهنوتية المكللة باللؤلؤ والمرجان شخصت اليه الابصار ومالت اليه القلوب فكانوا يشبهونه بالقمر المنير ويحفلون به وقت تقريب القربان ولا احتفال الجند بالامير ويرقصون حوله ويغنون بالانغام على صوت الالحان ويتشون من خمر عينيه ولا نشوة مدامة الحان ولا تمل أعينهم من التملى بذاته الجميلة وشمائله الجليلة قال بعضهم

بالله يا صاحب الوجه الذى اجتمعت * فيه المحاسن فاستولى على المهج

خذنى خديما وان لم ترض بى صلفا * فادفع بى العين عن ذا المنظر البهج

وكان لهذا الغلام جدة تسمى يوليه موزه أخت يوليه دومنا زوجة سوريس قراقله قيصر ومن المعلوم مكايد العجائز وان عندهم كل مفعول جائز فكانت جدته تزعم أنه ابن قراقله قيصر لتحببه العساكر وتميل نفوسهم اليه وكان مجهول الأب فكان يسمى فى بعض الاحيان بسيانوس هليوغباله يعنى الشمس لنورانيته وضيائه المعجب للحس والنفس

وهو مشهور فى كتب التواريخ بهذا الاسم فلما عهدت جدته تمكن حبه من قلوب الجنود وأن ميلهم اليه بقلبهم وقالبهم مشهود

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

لاسيما [illegible] بن خيروا [illegible] ذات يوم من الايام وذهبت به الى المعسكر ليتولى منصب ا[illegible] مصر فبايعه الجنود ولقبوه أغسطس فقاز بنفاسة الامبراطورية لنفاسة جماله ونسبته الى قيصر نفيس وهو سويرس قراقله قيصر

لولا نفاسته ونسبته لمن * يدعى نفيسا لم يفز بنفيس

فلما سمع بذلك مقرينوس جمع أحزابه فى أقرب مدة وجاء يقاتل خصمه بقرب انطاكية فكان الحرب بينهما سجالا ولم يظهر الغالب من المغلوب وانتهى الحال أن جبن مقرينوس عن القتال وعجز عن النزال فهرب فى الحال ولم يقف الاعند مدينة قاضى كوى فى ايالة بروسة فاقتفى الجنود اثره وقتلوا احزابه وفتكوا به وأسكنوه قبره وكان ذلك فى سنة ٤٠٤ قبل الهجرة وبقيت الامبراطورية الرومانية فى قبضة بسيانوس هليوغباله فباء سلفه بصفقة الخسران وقد قيل كما يدين الفتى يدان

(الفصل الرابع والعشرون)

(فى الملك بسيانوس هليوغباله القيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية الرومانية سنة ٤٠٤ قبل الهجرة وبقى الى سنة ٤٠٠ فمدة حكمه أربع سنوات وبمجرد تصديق مجلس رومة على انتخابه وصفاء الوقت له قتل أقارب مقرينوس وأحزابه وكثيرا من الاعيان والامراء ولم تزل باقية معه رياسة هيكل الشمس كالخلافة فكان جامعا بين القيصرية والكهنوتية وقد صنع لولايته القيصرية مواسم وأعيادا لبثت ست شهور وقد رتب أن يكون أكبر الاصنام فى رومة ومصر صنم الشمس الذى نقله من المشرق وكان متمسكا بعبادته فكان لا يعلو عليه وثن من الاوثان وهو عبارة عن حجر أسود لا صورة به ولا شكل فأمر أن يبنى له فى رومة هيكل عظيم فشيدوا له معبدا وجعلوه سيد الاصنام وكبيرهم وجميع الاصنام المعبودة فى رومة عبيده وخدمه ثم زوجه لصنمة الزهرة التى هى رئيسة أصنام افريقية ورتب له مهرجانا عظيما ومواسم وأعيادا سنوية وجعل مصرف ذلك على جميع الاهالى يتوزع عليهم وكان

هذا الصنم فى بلاد الشأم التى كانت اذ ذاك كثيرة البدع والاوهام متخلقة بالاخلاق المذمومة والطبائع الملومة فنقله هذا القيصر الكهنوتى الى رومة ليتسلطن فى أقطارها المغربية وكان هذا القيصر حين دخوله رومة وسنه أربع عشرة سنة لابسا حلة كهنوتية من الحرير المقصب وهو أول قيصر لبس الحرير فى رومة وكان فى يده أساور من ذهب وفى رقبته أطواق من الذهب أيضا وكان مزجج الحواجب مكحول العينين يتزيا بزى العذارى تارة وبزى المردان أخرى وليس فيه من صفات الرجولية الرومانية أدنى شئ وكان ينثر فى قصره دائما أنواع الزهور والرياحين وينثر تحت رجليه الذهب والفضة فكان فى التكسر أشبه بالنساء ولم توجد أخلاقه الذميمة من حيث الهيئة الاجتماعية فى أحد من القياصرة غيره فكان اذا أراد التسلية والنزاهة وترويح النفس والفكاهة ذهب فى ذلك مذهبا عجيبا فكان يدعو الى مائدته ثمانية أنفار من العور ومثلهم من العرج ومثلهم من الصم ويسخر بالاربعة والعشرين نفرا كمال السخرية حيث كمل نصاب الحظ أربعة وعشرين قيراطا

وكان فى بعض الاحيان فى وقت انتظام الديوان واحتفال الجلساء والندمان يطلق على حين غفلة الاسود والنمور حتى يصير ديوانه بهذه الوحوش كالشرى المعمور ومع ان هذه الوحوش الكاسرة مقلمة الاظافر مخلوعة الانياب لكن القصد منها ايهام الحاضرين أنها شاكية السلاح بقصد الرجفة والاضطراب فكثيرا ما كان يزعج الحاضرين بمنظرها الهائل ولا يكتفى بازعاجهم بذلك بين يديه بل كان يزعج خواصه بهدايا وتحافات مملوأة من الهوام حتى اذا فرحوا بها وفتحوها أرهبتهم وأورثتهم المضار والآلام واذا اجتمع الاهالى فى ميادين الالعاب العمومية للتفرج والتبسط أمر أعوانه باطلاق الثعابين فى هذه الميادين لازعاج جميع المتفرجين فكان الناس فى أول الامر يتكلفون الصبر على حكومته القاسية وقد قلنا فيما سبق أنه ابن دعى منسوب الى سويرس قراقله نسبة ادعائية وأن ذلك القيصر كان زوج خالته وكان لخالته بنت لها ولد يسمى الاسكندر سويرس فالتمس منه الرومانيون أن يشركه معه فى القيصرية فرضى بذلك وأشركه معه ولكن

الاسكندر لم يطاوعه على أغراضه فدبر لقتله تدبيرا عظيما فانكشفت حقيقة الحال وأنبأت عن وبال المآل واستقبح جميع الناس هذه النية فقام عليه الاهالى وهموا بقتله فاختفى فى مكان خفى من المعسكر فبحثوا عنه وأمسكوه وذبحوه وقذفوا جثته بعد تثقيلها بحجر فى نهر رومة وذلك فى سنة ٤٠٠ قبل الهجرة وولوا بعده الاسكندر سويرس الثانى ابن خالته

(الفصل الخامس والعشرون)

(فى الملك الاسكندر سويرس قيصر الثانى)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٤٠٠ قبل الهجرة وبقى الى سنة ٣٨٧ فكانت مدة حكمه نحو ثلاث عشرة سنة وكان تقليده بهاس طرف مجلس رومة لا من طرف الجند كاسلافه ولو فرض أن قيصرا من القياصرة يستطيع بتدبيره وحده أن يتدارك الدولة الرومانية ويمنعها من الانحطاط ويكسوها حلة العظم السابق لما كان الا هذا القيصر هو الذى يستطيع ذلك ويقدر عليه بحسن سياسته وكمال حزمه فقد كان نصرانى الام وكانت أمه تسمى مامه فكان يستشيرها فى جميع أطواره وأحواله ويستنصحها فى جميع مشروعاته وأفعاله ويعمل برأيها فى جميع حركاته وسكناته فكان ملتزما لها بكمال الطاعة بقدر الاستطاعة فلهذا أبطل جميع الامور المخالفة الصادرة من سلفه فأعاد صنم الشمس الى حمص وأخرج الاصنام الاجنبية من رومة ومنع اباحة التعبد بها فى غير محالها الخاصة بها ولم يرض أن تمسك رومة من الاديان الاجنبية عن الرومانيين بغير دين النصرانية يعنى أن الرومانيين يباح لهم أن تمسكوا بدين جاهليتهم القديم ولا يباح لهم غيره من الاديان الا الدين العيسوى بأن يصير الدين العيسوى مقبولا فى هياكل الرومانيين ومعابدهم حتى لو قصدوا أن يدخلوا صورة سيدنا عيسى عليه السلام بين ما للرومانية من تماثيل الاصنام لا أحد يمنعهم من ذلك فأصدر أمره بهذه الرخصة لكن نهاه عن ذلك كهنة الاوثان الرومانية وقالوا له اذا تم هذا الامر عاد على الاصنام الرومانية بالمحاق وتمكنت الملة العيسوية من الاهالى على الاطلاق وانقرضت عبادة الاوثان ولم يبق الا دين عيسى

الناسخ لهذه الاديان ثم رتب هذا القيصر التراتيب النافعة للاخلاق
والعوائد ونظم ادارة المالية وسياسة الملكية على أحسن الاساسات
والقواعد ومكن أصول الضبط والربط أحسن تمكين وسلك بنفسه فى حركاته
وسكناته أحسن السلوك متمسكا بالاحكام المتينة والقوانين وسن مكارم
الاخلاق الحسان فاقتدى به رعاياه فى سلوك طريق العدل والاحسان ولم
يقبل فى ديوانه أحدا من أرباب السخرية والمضحكين ولا أرباب الآلات
من المغنين فأمثال هؤلاء كانوا عن ديوانه من المطرودين ولم يجالس الا أرباب
الصداقة والنصائح واذا أبطؤا عليه سلى نفسه بكتاب من الكتب
المتعلقة بالمنافع والمصالح فكانت لذته اما مطالعة الكتب النافعة أو فى
الرياضة العسكرية واستطلاع حركات المهاجمة والممانعة وكان لا أحد
يتكلم فى مجلسه بتمنى اعادة شئ من العوائد القديمة ولا احداث شئ من البدع
الذميمة وطالما كان يجمع الاهالى فى المحافل العامة ويعظهم بالخطابات
والمقالات الرسمية التى تفيد الفوائد التامة وذلك كما كان يفعله عظماء
الجمهورية الرومانية فى أيام انتظام دولتهم الاولية وكان يستشير مجلس
رومة فى كافة المصالح ويسترشدهم فيما يبديه من تجديد العمل الصالح
وقد خفف عن الاهالى العوائد والمكوس والجبايات وكان يحيى قلوب أهل
الفنون والصنائع بالجوائز الجزيلة والمكافات وذلك لتصد التشويق
والترغيب وتقويم أود بلاد فى زمن قريب وكان يتدارك بحسن
ملاحظته وكمال تفتيشه ماعساه أن يقع من الخلل من نواب الجهات
والاقاليم ويمنعهم من السرقة والاختلاس ويهديهم الى الصراط
المستقيم وكان مع ذلك كله له كمال العناية بالجنود والعساكر لا يفتر عن تحسين
شؤنهم طرفة عين فيواظب على دفع جوامكهم وعلوفاتهم فى أوقاتها وكان
يفتش بنفسه على المرضى فى خيامهم ويسأل عن أسباب أمراضهم وآلامهم
فاذا رأى أحدا منهم اشتد به المرض أمر بنقله فى المارستانات المدنية وأمر
بدفع مصاريف العلاج من طرف الحكومة والادوية وكان يقول يجب
على الجندى كمال الطاعة بقدر الاستطاعة ويجب له أيضا من طرف الدولة أن
يكون حسن اللباس جيد السلاح مستور القدم متحصلا على قوته على

الوجه الاتم وأن يكون فى جيبه جانب من الدراهم لحاجة نفسه فكان العساكر فى أيامه مستحوذين على تلك المنافع ولكن اذا صدر من أحدهم أدنى جنحة شدد فى الجزاء فكان كل من تجرد من علامات العسكرية أوحاد عن سنن التربية الحربية أوساق أونهب أواختلس أوارتكب عوقب بما يقتضيه جرمه وعذب بما يوجبه اثمه من جلد أوقتل فكان حبل اجراء الاصول بمقادير الجنايات والعقوبات غير منقوض بل هو دائما موصول وفى أثناء هذه التنظيمات حدث فى البلاد المشرقية انقلاب عظيم وذلك ان أمة البرث التى هى أمة قديمة تنسب اليها فارس أوهى الفرس الاولى ذهبت دولتها وتولى عليها أردشير بن بابك رأس الدولة الساسانية ولفظ أردشير مركب من كلمتين فارسيتين احداهما أرد بمعنى الغضب وثانيتهما شير اسم للاسد فسمى الملك بهذا المركب ومعناه قبل العلمية أسد الغضب وهو ابن ساسان الاصغر ابن بابك بن هرمز بن ساسان الاكبر بن كى بهمن المشهور وكان ساسان الاكبر قد تزهد لما أخرجه أبوه من الملك وجعله الدارا قبل ولادته فأردشير من بيت الملك لا من رعاع الناس كما قاله بعضهم وأبوه ساسان بن بابك وفى البخارى الشريف عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى مأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع فقال بعضهم يارسول الله كفارس والروم قال ومن الناس الا أولئك انتهى وكان أسلاف الفرس يحجون البيت ويطوفونه ويعظمونه لاجل جدهم ابراهيم عليه السلام لانهم من ولد اسحق عليه السلام والعرب من ولد اسمعيل فالعرب والفرس يجمعهم سيدنا ابراهيم عليه السلام فلذلك قال بعضهم يفتخر على قحطان

أبونا أبو اسحق يجمع بيننا * أب كان مهديا وملكا معمرا

وقد افتخر بعض الفرس على العرب من يعرب بن قحطان سنة ٢٠٠ من الهجرة

ألم تكن فى القديم أمتكم * لامتنا سارة الجمال أمه
والملك فينا والانبياء لنا * ان تنكروا ذلك توجدوا ظلمه
أما بنو يعرب فليس كمن * قد أسكن الله أمتنا حرمه

ولا كابناء فارس وهمو * فى الارض مثل الاسود فى أجمه

ولعل قائل هذا من عرب فارس بالشام وغيره الذين كان أصلهم فرسا واستعربوا وقد قلنا ان أسلاف الفرس كانوا يحجون البيت ويطوفون به ويعظمونه لاجل جدهم ابراهيم عليه السلام وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك جد أردشير أول الساسانيين وكانوا يزمزمون عند بئر اسمعيل والزمزمة قراءة المجوس حتى قيل انها سميت زمزم لذلك قال شاعرهم

وزمزمت الفرس فى زمزم * وذلك فى عصرها الاقدم

وقال شاعرهم المستعرب

ومازلنا نحج البيت قدما * ونلقى بالاباطح آمنينا *
وساسان بن بابك سار حتى * أتى البيت العتيق لنصرد ينا
فطاف به وزمزم عند بئر * لاسمعيل تروى الشاربينا

وقوله لنصرد ينا أصله لنصره دينا فحذف المضاف وقدره ثابتا وأعمل المصدر ونصب دينا على ذلك * وفى بعض التواريخ ان ابن الزبير لما هدم الكعبة التى هى من بناء ابراهيم عليه السلام قال اطلبوا من العرب من يبنيه فلم يوجد من يقوم بذلك فقال استعينوا بفارس فانهم من ولد ابراهيم ولن يرفعه الا ولده وكان أردشير قبل وثوبه عاملا على اقليم من أقاليم اصطخر وكان قد أخبره أحد المنجمين بأن ملك الفرس سيصير اليه فوثب على ملوك الطوائف وأخذ منهم البلاد فملك اصطخر وهمذان والجبل واذربيجان وارمينية والموصل والسواد وبنى مدينة على شاطئ دجلة شرقى المدائن ثم رجع الى أصطخر ففتح سجستان ثم جرجان ثم مرو وبلخ وخوارزم الى تخوم خراسان ثم رجع الى فارس ونزل جول وأطاعه ملك كوستان ومكران ثم ملك مدينة البحرين بعد ان حاصرها مدة وألقى ملكها بنفسه فى البحر ولم يزل مظفرا وقهر الملوك حوله ومدن المدن واستكثر من العمارة وقتل أردوان الاشغانى وغيره من الاردوانيين وكان سبب قيام أردشير وحروبه انه أراد الاستيلاء على ملك الفرس الذى كان لآبائه وأن يجمعه ويستولى عليه وحده فظفر بمراده وسلب الملك من خصمه أردوان الذى كان ملكا على الاردوانيين وهم أنباط السواد يعنى السريانيين وكان على الارمن ملك يسمى بابا والارمن هم أنباط من نبط الشأم وكان بين أردوان وبابا

حروب مستمرة وفتن مستقرة فاجتمعا على قتال أردشير فحاربا مناوبة ثم بعث
أردشير الى بابا فى طلب الصلح على أن يدعه فى الملك ويخلى بابا بينه وبين أردوان
يعنى ينفصل عنه فلم يلبث ان قتل اردشير اردوان ثم استولى على السواد
فاعطاه بابا الطاعة بالشأم وانقاد له بعد ان كان تحت طاعة الرومانيين ودانت له
سائر الملوك وقهرهم واستولى على ممالكهم كما أسلفناه ثم رجع الى أمراء
العرب وكانت بيوتهم على ريف العراق ينزلون الحيرة وكانوا ثلاث فرق
متمايزة الفرقة الاولى قبيلة تنوخ ومنهم قضاعة وكانوا يسكنون بيوت الشعر
والوبر ويضعونها غربى الفرات بين الانبار والحيرة ومافوقها وكانوا على
حريتهم فلما ملك أردشير هذه البلاد أنفوا من الاقامة فى مملكته تحت قبضته
وخرجوا من البرية ليستمروا على الحرية الفرقة الثانية قبيلة العباد وكانوا
يسكنون الحيرة متوطنين فيها الفرقة الثالثة قبيلة الاحلاف الذين نزلوا بهم
من غير نسبهم ولم يكونوا من تنوخ الناكثين عن طاعة الفرس ولا من العباد
الذين دانوا لهم فقبيلة الاحلاف تملكت الحيرة والانبار وكان منهم عمرو بن
عدى وقومه فعمدوا الى الحيرة والانبار ونزلوا بها وخربوها وكانت من بناء
العرب من منذ عهد بختنصر ثم عمرها بنو عمرو بن عدى لما صيروها دارا
لملكهم الى أن صبحهم الاسلام واختط الخلفاء مدينة الكوفة فدثرت
الحيرة كما سيأتى

ولما زحف أردشير على الممالك التابعة للرومانيين كمملكة الارمن السالفة
الذكر وأقام دولة الفرس الساسانية الجديدة وتلقب بالملك الاكبر وساعدته
الاقدار على اتساع ملكه وقوة دولته وعظم صولته فى البلاد المشرقية التى
كان أكثرها تحت قبضة الرومانيين خشى اسكندرسو يرس بأسه وأن
يتسلط على ملكه فسار هذا القيصر سيرا حثيثا الى البلاد المشرقية ليمنع
كسرى أردشير من امتداد سطوته اليه فأرسل اليه أردشير سفراء يطلبون
منه اعادة جميع ممالك فارس التى كانت ملحقة بها فى زمن كورش الممتدة الى
جزائر الروم فتعجب هذا القيصر من كلام كسرى وجد السير واستمر فى طريقه
وقد تصادف أن بعض العساكر من جنده خالفوا أصول الضبط والربط
فعقد مجلسا عسكريا للحكم عليهم بأصول العسكرية وأحضرهم أمام المجلس

فى السلاسل والاغلال وقرر فى المجلس العام الحافل بحضور الخواص والعوام أن السكوت على اهمال العساكر فى أصول الضبط والربط يترتب عليه هدم الناموس الرومانى وينتج عنه فقد شرف المملكة الرومانية ومحو صيتها من دفاتر الدنيا فلما سمع أرباب المجلس هذه العبارة القيصرية ارتفعت الاصوات الاهلية على الذات الملوكية كأنهم لم يصدقوا على قوله فقال المجلس للخفراء اضبطوا هؤلاء الصائحين ووجهوهم صوب الاعداء لقتالهم عوضا عن أن يعارضوا الملك ويقاوموه فاشتد غضب الاهالى وتمادوا على غيهم واستطالوا على القيصر وأقاموا فى وجهه السلاح فقال لهم اغمدوا سلاحكم فان مثلى لا يزعجه هذا التهديد فبسماع ذلك منه سكنت الفتنة وحصل الهدء والراحة وسار هذا القيصر على العجم بنفسه فتلاقى معهم فانتصر عليهم نصرة مؤزرة صار بها صاحب البلاد ومالك رقاب العباد فهرب أردشير ونكص على أعقابه ومكث مدة طويلة لا يشن الغارة ولا يطلب ثاره ورجع القيصر اسكندر سويرس الى رومة مؤيدا منصورا فتلقاه أهلها بالافراح والمسرات وأكثروا من التهانى على هذه الفتوحات وصورة ذلك ان القيصر بعد حضوره من السفرية دخل المجلس العالى على حين غفلة وتكلم بمقالة رسمية مضمونها يا أعضاء مجلس رومة قد هزمت الفرس شر هزيمة ولا حاجة لبسط الكلام فى هذا المعنى بل أقتصر على ذكر قوة العدو بجنده وبما ظفرنا به عند هزمه وطرده فقد كان للفرس فى هذه الوقعة سبعمائة فيل يقاتلوننا بها فقتلنا منهم مائتى فيل وسلبنا ثلثمائة أحضرنا منهم الى رومة ثمانية عشر وكان عندهم ألف عربة مسلحة بالمناجل مطقمة بالعساكر المقاتلين بهذه الآلات فهزمناهم وأخذنا منهم مائتين ولم أحضر بهما هنا لانه لا طائل فى ذلك حيث لا حاجة بعد الاثر فى هذه الاشياء الى العين وقد هزمنا فرسان الفرس وكانوا مائة وعشرين ألفا فبددنا جموعهم وقتلنا منهم عشرة آلاف مدرعين وسلبنا دروعهم وجعلناهم عدة لعساكرنا وأسرنا من عساكرهم عددا كثيرا صار مبيعهم وقد أعدنا الى دولتنا الرومانية بلاد الجزيرة الفراتية التى لم يحمها القيصر سلفنا وقد بددنا شمل أردشير مع أنه فى المشرق مشهور باسم الملك الكبير وفى الحقيقة هو عظيم الدولة فخيم الصولة فقد ولى الادبار والتجأ الى

ممالكه بوصف الذل والانكسار وقد نصبنا أعلامنا فى جميع الاماكن التى كانت تحت أحكامنا حتى ان اعلام اردشيرة دبقيت بعد فراره تحت أيدينا فهذه بضاعتنا ردت الينا فقد بسطنا للمجلس هذه الغزوة بغاية من الدقة فى العبارة والعيان دليل صدق بل تكفى فى مثل ذلك الاشارة فاغتنام العساكر دليل ظاهر وقد أنساهم هذا الانتصار ما كابدوه من الاخطار فعلى المجلس أن يأمر فى المعابد والمشاهد بنشر أنواع الشكر والمحامد فى مقابلة هذه النعمة التى لا ينكرها الا جاحد معاند فأجاب أرباب المجلس عن هذه المقالة أيها القيصر قد استحققت الامتياز بلقب الفارسي الاول والاختصاص بهذه المزية حيث انتصرت على الفرس نصرة حقيقية والفضل فى تلك النصرة انما هو لحسن تدبيراتك العسكرية ثم خرج من المجلس وذهب الى الميدان العام وركب على منبر الخطابة فاحتفل به الخواص والعوام فقال يا أيها الرومان قد هزمنا جنود فارس ورجعنا بجنودنا سالمين غانمين فنعدكم بالانعام والاكرام وفى يوم غد نخصكم بالالعاب الميدانية لاشهار افراح هذه النصرة السنية فصاح جميع الناس يلهجون ما أسعد رومة بطول عمر الملك المنصور مجدد مجد الحكومة ثم جرد هذا القيصر عساكره على جرمانيا وسيرهم اليها جندا بعد جند وكانت قد أقامت عليه راية العصيان وكان يخشى من دخولها على بلاد الرومان فكانت هذه الغزوة منحوسة عليه وعلى جنوده حيث أخلت بناموس أعلامه وبنوده فانه لما وصل الى معسكر ميانسه بفرانسا حدثت الفتنة بين جنوده فى المعسكر وقام بعضهم على بعض ولم يلتفتوا للعدو الاكبر وهاجوا وماجوا وعصوا أمر هذا القيصر بل تجاسروا عليه ودخلوا فى خيمته وذبحوه وكفوه شر قتال الاعداء ومن نكد الحيلة أراحوه ولم يلتفتوا لوجوب ابقائه لمصلحة أوطانهم ولا نظروا أن فى حياته احياء عزهم وسلطانهم وقل أن تجد من السفهاء والاوغاد من يسلك فى جادة الرشد والسداد وكان قتله فى سنة ٣٨٧ قبل الهجرة وبموته انقطعت القياصرة الشامية الذين هم فى الحقيقة من بلاد افريقية بالاقطار المغربية وتولى بعده مقسيمينوس وكانت مصر فى عهد الامبراطور الاسكندر سويرس الثانى قد تجدد فيها نوع من العمارية وتقدمت فيها العلوم والمعارف من

أدبيات وفلسفة وغيرها واكتسبت مصر في أيامه من التقدم والتمدن نظير ما اكتسبته رومة وغيرها من المدن الرومانية وحصل في جميع البلاد الداخلة في حكم الرومانيين كثير من الاصلاحات والتنظيمات والتدابير الحسنة ولو كان في أجله فسحة لحصل للاهالي الرومانية كمال المنحة

(الفصل السادس والعشرون)

(في الملك مقسيمينوس قيصر الاول ويسمى مخشيميان قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية الرومانية سنة ٣٨٧ قبل الهجرة وحكم الى سنة ٣٨٤ فكانت مدة حكمه أربع سنين وكان هذا القيصر عاتيا جدا فظا غليظا حسا ومعنى خارجا في ضخامة الجسم عن حد العادة جافي الطبع والعقل والجسم فهو أقرب غلظة الى الحيوانية غير الناطقة بل ما أقصاه من محاسن السلاطين وأدناه من مثالب الشياطين كما قيل

شخص خبيث لو طلبت اسمه * من أحد يوصف بالضن
لبادر الحال الى كشفه * وقال عفريت من الجن

فكان اذا تختم في اصبعه تختم بأساور زوجته فتكون على قياس اصبعه واذا ضرب الفرس بقبضة يده كسر أسنانها وكان يسحق بيده الاحجار وكان فيه قوة شديدة بحيث يفلق الشجر فلقتين بيديه وكان يسحب العربة الكثيرة الاحمال وحده ولا يحتاج الى مساعدة ولا اعانة وكان يأكل في اليوم أربعين رطلا من اللحم ويشرب جرة من النبيذ زنة خمس وعشرين أقة وهذه الاوصاف وان كان يشم منها رائحة المبالغة والاطراء الا أن أصلها لا يخلو من أن يكون صحيحا بعد تلطيفها بمزيد التحري ودليل الاستقراء والا فلا يبعد على المؤرخ من أي قبيل أن يلحق النملة بالفيل وكان أبوه من جنس الغوطية وأمه من جنس اللان وكان عمليق الجسم يعني من الرجال الطوال الشداد أشبه بما يؤثر عن قوم عاد وقد رقي الى المنصب القيصري بصدفة عجيبة وذلك لان القيصر سويرس كان قد صنع عيدا مشهودا على ساحل نهر طونه بمناسبة مولد ابنه جيطا وكان مقسيمينوس يرعى الماشية بهذا الساحل فحضر في المعسكر والتمس قبوله من ضمن اللاعبين في هذا الفرح فتعجب القيصر من ضخامة بنيته ومن منظره الهائل ورأى أن مثله يليق للمنازلات والحروب فأذن له أن يتصارع

مع أقوياء العساكر ليجربه فطرح من المبارزين معه على الارض ستة عشر صنديدا واحدا بعد واحد وغلبهم فى أقرب وقت من غير تخلل زمن للاستراحة فأمر القيصر بقيده فى جريدة الجنود وانتظامه فى سلكهم ولازال فى أفراد العسكرية الى أيام الاسكندر سويرس قيصر فأعطاه الاسكندر المذكور رياسة جيش ليعلمه وينظمه ويربيه التربية العسكرية فرتبه أحسن ترتيب وأتم نظام وضبطه ضبطا كاملا وعلم شبان هذا الجيش الحركات العسكرية وتدبيرات الحيل الحربية وكان يناضلهم ويصارعهم بنفسه فلما مات القيصر الاسكندر سويرس بايع مقسيمينوس الاول جنوده عند شطوط نهر الرين وجعلوه امبراطور الرومانيين فأقام البرهان بأفعاله وحركاته على عدم أهليته واستحقاقه للمنصب الملوكى لانه جسم بدون عقل وذلك انه لما عبر نهر الرين أحرق مقدارا عظيما من القرى والبلدان التى على طريقه ثم تقدم فى السير الى ايطاليا وجعل معسكره فى مملكة النيمسا وأصدر أوامره بقتل أغنياء مدن ايطاليا وأعيانها وأمر أن يرسلوا اليه فى معسكره لتنجيز قتلهم فبعثوا بهم اليه على عجل فصار يقتلهم بالصلب أو يقذفهم فى أفواه الوحوش المفترسة ثم اقتفى اثر النصارى بالقتل والتعذيب لاسيما القسيسين والاساقف وكان كل من قبض عليه منهم صلبه أو أغرى الوحوش على افتراسه وكان يحتقر النوع البشرى أشد الاحتقار فكان الانسان عنده كلا شئ وبالجملة فهو أشد القياصرة لؤما وخسة وأقلهم مروأة وانسانية حتى انه صرح لاعيان دولته بذلك فقال أنا لا أريد أن أحكم الا على رعية مستعبدة ذليلة فلو قيل فى حقه

ان هو مستوليا على أحد * الا على أضعف المجانين

لكان عين مناه ولكن لم يتركه الامراء والجنود يستمر على فعل مرامه ولا بلوغه مقصده من كل الوجوه بل حكموا بعزله وولوا بدله قيصرين مشتركين فى الامبراطورية وهما قيصر غورديانوس الاب وقيصر غرديانوس الابن فكان عزل من ذكر وتوليتهما فى سنة ٣٨٤ قبل الهجرة

(الفصل السابع والعشرون)

(فى الملك غرديانوس قيصر الاب وابنه الملك غرديانوس قيصر الاصغر)

تسمى هذه المدة مدة الغرديانوسين بصيغة التثنية وبيان ذلك أن فى سنة ٢٣٨ قبل الهجرة كان فى افريقية بمملكة قرطاجه من طرف الرومانيين شيخ هرم يسمى غورديانوس من وجوه العائلات وأعيانها وكان له ابن يسمى غورديانوس الاصغر وكان استقر الامر فى مجلس رومة عقب عزل مقسيمنوس الاول على توليتهما معا وتشريكهما فى الامبراطورية فوليها معا وكان على مملكة قرطاجه نائب للرومانيين يسمى قابليانوس فقاتلهما وهزمهما وأوقع الافتتان بينهما حتى اقتتلا فقتل كل منهما صاحبه فعين مجلس رومة عوضا عنهما قيصرين آخرين يسمى أحدهما بوبيانوس ويسمى الثانى قلودس بلبينوس فلما سمع مقسيمنوس وكان قد أغرى على قتل خصميهما بتوليتهما وكان قصده بالاغراء العود لمنصبه استشاط غيظا وتغير مزاجه واختبل عقله فهاج وماج ومزق ثيابه وتدحرج على الارض وخرج من طور البشر وثار ثورة الوحوش وصار يزأر ولا زئير الاسد الكاسر ثم أفاق بعد برهة فجد السير لقتال خصميه فافتتن جيشه وعظمت الفتنة بين العساكر فقتلوا ذلك القيصر المعزول سنة ٣٨٤ قبل الهجرة فكان كالساعى لحتفه بظلفه ونفذت تولية بوبيانوس وبلبينوس قيصرين رغما عن أنفه فقد حصل أيضا فى هذه الدفعة ولاية قيصرين فى آن واحد يحكمان الرومانيين بالاشتراك وكلاهما من عائلة خاملة دنيئة الاصل فقد كان والد بوبيانوس أقفالى كما كان والد بلبينوس من أولاد الموالى ولما كانت ولايتهما بدون انتخاب الجنود الرومانية ولا باقرارهم عليها بل كانت من قبل مجلس رومة أبى أمراء الجنود اقرارهما على القيصرية ولم يمتثلوا لهذا الانتخاب حيث لم يكن لهم فيه مدخلية لاسيما وقد تكرر استبداد مجلس رومة بتعيين القياصرة عدة مرات فكانت أمراء الجنود تعتد هذا بالنسبة لحقوقهم الادعائية من قبيل الافتيات فتصادف ذات يوم دخول أميرين من أمراء الجنود فى مجلس رومة عند انتخاب هذين القيصرين وكان دخولهما بلا اذن فى المجلس فغضب أربابه من هذا التهجم وحكموا عليهما بالقتل فقامت الفتنة فى الخفر القيصرى فقتلت الجنود القيصرين فى أثناء هذه الفتنة وكان ذلك فى سنة ٣٨٤ المذكورة وولوا بدلهما غرديانوس الثالث ابن حفيد غرديانوس الاكبر

(الفصل الثامن والعشرون)

(فى الملك غورديانوس قيصر الثالث)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٣٨٤ قبل الهجرة وحكم الى سنة ٣٧٨ فكانت مدة حكمه ست سنوات قد بايع الجنود القائمون على مجلس رومة بالقيصرية لصبى عمره دون الخمس عشرة سنة يسمى غورديانوس من ذرية غورديانوس السابق الذى كان ولاه مجلس الرومانيين مع والده وكانت ولاية هذا القيصر بدل القيصرين وكان أيضا عوضا عن مقسيمنوس الذى قتلوه بعد عزله ولما كان هذا الشاب قاصرا لم يبلغ سن الرشد ولا يعتمد على مثله لعدم تجاربه مع عدم الامن من الاخطار أرفق معه المجلس الرومانى وزيرا حسن التدبير فصيح اللسان يسمى ميسوطش ليساعده على ادارة المملكة فكان وصيا على القيصر وعلى الدولة الرومانية فبكفالة هذا الوزير انتظم حال الدولة الرومانية فى أيام هذا القيصر وارتفع شأنها وقويت شوكتها وسارت بحسن سيرتها الركبان وكان فى عهده قد قامت أمة الافرنجة يعنى الامم المتبربرة التى جاءت من البلاد البعيدة وأغارت على فرانسا وأقامت بها فهجموا على اقليم جرمانيا الرومانى وقصدوا التغلب عليه فخلصه من غائلتهم قائد الجيش القيصرى المسمى أورليانوس الذى سيأتى أنه تولى قيصرا فيما بعد فقد هزم هذا القائد الافرنج شر هزيمة وقد سار القيصر غورديانوس بنفسه بجيش جرار لغزو سابور بن اردشير كسرى الفرس فانتصر عليه نصرة عظيمة كما انتصر أيضا فى هذه السفرة على أمم السرماطية والغوطية الذين أغاروا على بلاد روم ايلى مع امة اللان ثم سافر الى الشأم فطرد نواب الفرس منها واقتفى أثرهم وطردهم من الجزيرة وأخذ منهم عدة مدن وانتصر نصرة عظيمة وكان ملك فارس اذ ذاك سابور بن أردشير الذى فتح حصن الحضر وهو غير سابور ذى الاكتاف الذى هو تاسع الاكاسرة بعد أردشير ولا بأس بذكر تاريخه فنقول ان المذكور يسمى بالفارسية شاپور بالشين والباء الفارسية وهذا الاسم مركب من شا مختصر شاه بمعنى سلطان وپور بمعنى ولد يعنى ولد السلطان فعربته العرب بلفظ سابور بالسين المهملة وسبب تسميته بذلك ان

اردشير لما حارب أردوان وقتله أراد أن يقطع نسله فقتل أولاده وأحفاده وأسر أتباعه وجواريه فيوما من الايام رأى أردشير فى قصره جارية بديعة الجمال فاقتضها وكان يتسراها ويتخذها حظية فسألها يوما عن جنسها فأخبرته أنها بنت أردوان ملك الاردوانيين فغضب الملك من هذا الكلام وطلب الوزير وأمره بقتلها فأخذها الوزير لانفاذ الامر فلما رأى براعة جمالها أخذته الشفقة فسألها عن أحوالها فأخبرته بأنها حامل من الملك فلما تيقن صدق كلامها قطع ذكره وخصى نفسه نفيا للتهمة ووضع ذكره فى زجاجة وختمها بخاتم الملك وودعها عند خازن الملك ثم ولدت الجارية ولدا فسماه الوزير شابور يعنى شاه زاده ورباه تربية ترشيح للملك وكان أردشير لم يرزق بولد يرثه وكان مغموما من ذلك فيوما من الايام تأوه وقال انى سخرت العباد وفتحت البلاد ولكن ليس لى وارث يرث الملك فعند ذلك أخبره الوزير بما فعله وجيء بالآلة المقطوعة نفيا للريبة وأخبره أنه سماه شابور من يوم وضعه ففرح الملك بذلك فرحا عظيما ثم لما مات أردشير ورثه شابور وصار ملكا كبيرا ذا سطوة قاهرة وكان حسن التدبير فأفاض العطاء لاهل الدولة وتخير العمال ثم شخص الى خراسان فمهد أمورها ثم رجع فشخص الى نصيبين فملكها عنوة فقتل وسبى وافتتح من الشأم مدنا وحاصر انطاكية وكان بها قيصر الرومانيين والريانوس فاقتحمها عليه وأسره وحمله الى جنديسابور فحبسه بها الى أن فاداه على أموال عظيمة ويقال بل فاداه على بناء شادروان تستر اجهة همذان ويقال جدع أنفه وأطلقه ويقال انه قتله وكان قد سبقت اغارة نيسابور على ايالات الرومانيين وصار الحرب بينه وبين غورديانوس فهزمه غورديانوس وأبعده عن الايالات الرومانية بالبلاد المشرقية ورجع ثانيا فى أيام والريانوس كما سيأتى فى الفصل الثالث والثلاثين عند ذكر والريانوس قيصر

وأما قصته مع صاحب الحضر فمجملها أنه كان بجبال تكريت بين دجلة والفرات مدينة يقال لها الحضر وبها ملك من الجرامقة يقال له الساطرون من ملوك الطوائف وتسميه العرب الضيزن من قضاعة وكان بأرض الجزيرة ومعه من قبائل قضاعة من لا يحصون عددا وكان ملكه قد بلغ الشأم حيث

اغتنم فرصة غزاة سابور فى أرض العراق فشخص اليه سابور عند انقضاء غزواته حتى أناخ على حصنه الذى هو الحضر وحاصره سنتين وقال الاعشى

الم تر للحضر اذ أهله * بنعمى وهل خالد من نعم
أقام به جند سابور حولين * يضرب فيه رؤس القمم

وكان للساطرون وهو الضيزن ابنة تسمى النضيرة خرجت الى ربض المدينة وكانت من أجمل النساء وكان سابور جميلا أيضا فأشرفت عليه فشغفت به وشغف بها وداخلته فى أمر الحصن ودلته على عورته فدخله عنوة بعد تمام الحصار أربع سنين وقتل الضيزن وأباد قضاعة الذين كانوا معه وخرب حصن الحضر وقال على بن زيد فى رثائه

وأخو الحضر اذ بناه واذ دجلة * تجبى اليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلسا * فللطير فى ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الـ * ـملك عنه فبابه مهجور

ثم أعرس بالنضيرة بعين التمر وباتت ليلتها تتضرر فى فراشها وكان من الحرير محشوا بالقز فاذا ورقة آس بينها وبين الفراش تؤذيها فقال ويحك بم كان أبوك يغذيك قالت الزبد والمخ والشهد وصفو الخمر فقال وأبيك لانا أحدث عهدا وأبعد ودا من أبيك الذى غذاك بمثل هذا وأمر رجلا أن يركب فرسا جموحا ويعصب غدائرها بذنبه ولم يزل يركضه حتى تقطعت أوصالها ومن أمعن النظر فى كيفية ولادة سابور المذكور وفى قطع مذاكير الوزير وفى ورقة الآس التى تأثرت منها النضيرة وما ماثل ذلك طرح غث هذا الكلام ظهريا واستصفى الحوادث التاريخية مما يكون به أصل التاريخ حريا

وظهر فى أيام سابور المذكور مانى بن ماذن الزنديق وادعى النبوة وتبعه خلق كثير وكان قد جمع له كتب فلسفة اليونانيين ونقلها الى اللغة الفارسية فرجع سابور عن مذهب المجوسية الى مذهب مانى والقول بالنور والبراءة من الظلمة ثم عاد بعد ذلك الى دين المجوسية ولحق مانى بأرض الهند لاسباب أوجبت ذلك والى مانى المذكور تنسب المانوية الذين يقولون بالاصلين وهما النور والظلمة فالنور أصل الخير والظلمة أصل الشر وقد لهج الشعراء فى تغزلاتهم بذكر مذهبهم تصديقا أو تكذيبا فمن ذلك قول الشاعر

هدى بثناياه وضل بشعره * فكدنا نقول المانوية تصدق

وقال من ردّ عليهم

وكم لظلام الليل عندك من يد * تخبر أنّ المانوية تكذب

وقاك سرى الاعداء تربحيهم * وزارك فيه ذو البنان المخضب

ومدح الظلام أيضا البهاء زهير فقال

قد ستر الليل علينا وغفر * وما لذيذ العيش الاما استتر

لليل عندى منن اذا اعتكر * يخفى جناحه عند الحذر

كم حاجة قضيت فيه ووطر * أودعته سرّ الهوى فما ظهر

رق علىّ قلبه كما كفر * أشكره وان مثلى من شكر

وللعلامة الامير فى الردّ على المجوس الثنوية والمانوية قوله

وكم ليلة بات الحبيب مؤانسى * وقد سترتنا من دجاها ذوائب

ولما بدا نور الصباح فراعنى * تبين لى أنّ المجوس كواذب

وقال أيضا

وافى الحبيب بليلة * وأزال عنا كل بوس

وبدا الصباح فراعنا * لاشك فى كذب المجوس

وقال من حسن الظن بهم انهم عنوا بالنور صفات الجمال وبالظلمة صفات الجلال فانّ أنواع الخير من آثار الاولى وأنواع الشرّ من آثار الثانية فعلى هذا يكون لا اشراك عندهم ولكن مفردات كلامهم تأبى ذلك التأويل

فالذى فتح حصن الحضر هو سابور بن أردشير صاحب الحروب مع غوردیانوس قيصر مع بعض من خلفه من القياصرة كما سيأتى وأما سابور ذو الاكتاف فهو بعد سابور بن أردشير بنحو أربعين سنة وهو فى زمن قسطنطين قيصر الروم وانما سمى ذا الاكتاف لانه لما حارب عربان الحجاز وقهرهم كان كلما أخذ أعرابيا أسيرا يثقب كتفه ويجعل فيه حبلا ليقوده فسمته الاعراب ذا الاكتاف

ثم بعد انتصار القيصر غورديانوس على كسرى حصل له مزيد الفخر عند الرومانيين وكان قبل ذلك قد تزوج بنت ميسوطش كافل الدولة فلازال لهذا الوصى النفوذ باقيا على حاله فى الدولة الرومانية وكان من أمراء الجيوش

الرومانية قائد شهير يسمى فليبش أصله من العرب وكان يحقد على كافل الدولة وعلى القيصر فدس لكافل الدولة السم فتعاطاه فمات مسموما بذلك ثم أوقع فليبش الفتنة بين الجند حتى افتتنوا فتنة عظيمة قتل فيها غرديانوس الثالث باغراء فليبش وذلك فى سنة ٢٧٨ قبل الهجرة فحمل فليبش الجند على أن يبايعوا له بالا براطورية فبايعوه وتم له الامر

(الفصل التاسع والعشرون)

(فى الملك فليبش قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٢٧٨ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ٢٧٣ فمدة حكمه خمس سنين وكان هذا القيصر عربى الاصل وابتداء ولايته عبارة عن استمرار الاختلال والاغتصاب للامبراطورية الرومانية بدون انتظام ولا اعتبار حقوق فى التولية فمن عهد هذا القيصر لم يكن المنصب الامبراطورى الاغنيمة يستلبها رؤساء الجنود وقواد العساكر ويغتصبونها بدون حق ولا أهلية فى الغالب فكان يستولى على المنصب من غلب

وقد فتح فليبش المذكور باب التغلب على السرير القيصرى بقتل سلفه ومع ذلك فلم يجتن ثمرة جنايته ولا اغتنم مزية فرصة خطيئته ولا فرح بالقيصرية مدة طويلة بل ظهر له خصمان منغصان لعيشته منكدان عليه طول مدته لينتزعاها من يده أحدهما يسمى بطيبانوس ولم يعش هذا المعارض الا قليلا حيث قتله عساكره ودارت عليه من صروف الدهر دوائره وثانيهما من اعضاء مجلس رومة يسمى دوقيوس فاستظهر على فليبش بجنود الرومانيين المحافظين فى بلاد البشناق والصرف والبلغار وكانوا يميلون اليه ويتعصبون له فمات فليبش فى واقعة بقرب مدينة ويرونه من مملكة البنادقة وكان فى مدته قد عقد الصلح مع سابور بن أردشير بلاد العجم بعد قتل سلفه وعاد الى رومة وسلك سبيل التحبب مع كبارها وأعيانها وكان من مبدأ أمره متشبثا بتقوية شوكته فأعطى المناصب لاقاربه وأحبابه ليعضدوه ويمنعوا عنه الاذى ولكن المولى سبحانه وتعالى مطلع على القلوب والضمائر لا يترك

الخطايا والذنوب بدون مجازاة فلم يفز فليبش بالمملكة الرومانية بل بويع دوقيوس قيصر على الامبراطورية الرومانية وحرم منها فليبش وكان ذلك في سنة ٢٧٣ قبل الهجرة

(الفصل المكمل للثلاثين)

(في الملك دوقيوس قيصر)

تولى الامبراطورية سنة ٢٧٣ قبل الهجرة وبقي الى سنة ٢٧١ فكانت مدة حكمه نحو السنتين لاغير وكان هذا القيصر من بلاد استوريا من ممالك النمسا وكان من عائلة خاملة الظهور فارتفع الى درجة القنصل يعني الحاكم الكبير بمجرد معارفه لا بحسب ولا نسب ومع ذلك فقد كان مغتصبا للملكة سفاكا للدم غادرا خائنا لا يبالي بشئ فقد وقع في أيامه مفاسد عظيمة في الدولة الرومانية حتى كادت الدولة أن تكون على خطر عظيم فاقتضى الحال أن سار بجيشه الى سواحل نهر طونة لتخليص الايالات الرومانية مما عساه أن يحدث فيها من زحف الاعداء عليها وذلك لان أمم الغوطية والهيرولية والبرغولية خرجوا من أقاليمهم الشمالية واجتازوا نهر طونة مع رئيسهم المسمى اقليوه وأهلكوا الحرث والنسل في طريقهم بجهة روم ايلي مما كان تحت الرومانيين فتصادم معهم جند الرومانيين هنالك وهزمهم وبعد أن ظهر الرومانيون عليهم كمال الظهور وكانت هذه الامم قد طلبت من الرومانيين الصلح ولم يرض الرومانيون مصالحتهم وأبوا الاقتال هم عادت الهزيمة على الرومانيين وكانت شر هزيمة وهلك فيها قيصرهم دوقيوس سنة ٢٧١ قبل الهجرة وخلفه القيصر غالوس الآتي ذكره ويقال له والوس وأشرك معه في الامبراطورية هوسطليانس وغدر به فيما بعد كما سيأتي في الفصل بعده

وكان القيصر الهالك وهو دوقيوس قد أمر في أيامه بالتشديد على المتنصرين بقتلهم وسلبهم وتعذيبهم لانهم كانوا يحبون سلفه فليبش وكانوا متعصبين له فكانت أيام دوقيوس مصيبة عليهم ولم يذق النصارى من النكبات شدة أعظم مما ذاقوه في أيامه وكانت مدة حكمه كحكم عدة ممن تقدمه ذات أحكام مختلة وأصول معتلة منحلة عرضة للمحو والاثبات قليلة الرسوخ

والثبات كأنها لم تكن الاموقتة وكان الظلم والفتن العسكرية كالمحن العمومية أقرب رسوخا ودواما من رسوخ القوانين الملكية وكانت عناصر هذه الاختلالات تتولد فى بعض الاقاليم الرومانية ثم تسرى فى باقيها كالأمراض الوبائية المعدية وكان المصريون دائما مصرين على تمسكهم بعقائدهم القديمة وعوائدهم المستديمة لايريدون أن يتزحزحوا عنها وكان اذذاك دعاة دين النصرانية مجتهدين فى حمل المصريين على التمسك بدين المسيح فكانوا يحاولون ادخاله فى ديار مصر للارشاد الى الدين القويم والصراط المستقيم وكان لهم فى مصر أحزاب يدعون الى الانجيل لارشاد الخلق الى الصواب وذلك لايخلو عن فائدة ببذل الهمم المتزايدة ففى أثناء ذلك ظهر من بين ظهرانى المصريين داع لاحياء الدين القديم متعصبا لانعاش عبادة الاصنام واستمالة القلوب للانقياد لتعظيم الاوثان والاستسلام وأغرى الجم الغفير على رفض دين ابن مريم ودعا النصارى الى الردة واستفحل أمره واستحكم فنهبوا بيوت النصارى بالديار المصرية وكثر النهب بمدينة الاسكندرية حيث كانت ماوى المتنصرين ومثوى المتنصرين وقد اختل نظامها قبل عهد دوقيوس وفى أيامه عظم الاختلال واشتدت الفتنة على النصارى لاعلى سابقة مثال وصار تعذيبهم يعد من أبرك المصالح ويحسب من العمل الصالح فاقتفى أثرهم وكثر التفحص عنهم فهربوا فى صحارى الصعيد الاعلى وانزووا فى أقطارها وترهبنوا واتخذوا للرهبانية فى كل جهة من تلك الجهات محلا وهذه الفرق الهاربة المصرية أول من ترهبن وسكن الديور وسن الرهبانية والتجأ الى البرارى والقفار ولم تكن الرهبانية اذذاك معروفة لاحد حتى ان القسيسين على اختلاف مراتبهم لم يكونوا مجبورين على ذلك

ويقال ان مثير الفتنة والتعصب على النصارى انما هو اليهود والمصريون عباد الاصنام فكانت الحكومة الرومانية بالديار المصرية تساعد المتعصبين أرباب الحمية لتوقع الفشل والشقاق وتؤكد العداوة بين أهل الاديان من رعاياها لتدوم شوكتها ويستمر حكمها فلهذا حصل فى تلك الازمان تغيير وتبديل فى صورة الحكومة المصرية بتدبير رئيس الحكومة فى

الاسكندرية فترتب فى الديار المصرية أمير كبير رئيس على الجيوش الرومانية بديار مصر ثم أمير مصرى الاصل يقام ملك بأمر و ينهى فى المملكة وهذان الاميران اللذان أحدهما عسكرى والآخر ملكى زيادة على الحكمدار العمومى الذى هو قائمقام القيصر على مصر فقد بقى على ما كان عليه وانما كان ضعيف التصرف مع وجود الاميرين السالفين فكانت الحكومة المصرية فى ذلك العصر كحكومة مصر فى أيام حكم المماليك حيث كان المتولى عليها فى الحقيقية اثنين وهما شيخ البلد ورئيس العساكر وكان الباشا المقيم فى القلعة نائبا صوريا عن الدولة العلية والاحكام فى يد غيره

فقد يتقارب الوصفان معنى * وموصوفاهما متباعدان

وكانت قوة عبادة الشمس والقمر فى ذلك العصر لم تزل متينة متمسكا بها بدون أن يعتريها ضعف ولا وهن لاسيما فى عهد غورديانوس الثالث وفليش ومن بعده فقد كان التمسك بها لم يزل فى هيا كل مصر والنوبة ولم يتحول عن دين الصابئة أحد من العائلات المصرية والنوبية فكان هذا كله مما يقوى عزم المصريين على اثارة الفتن والشرور وبعثهم على القيام على الرومانيين وعدم الانقياد لهم فكان المصريون يساعدون من تحزب على الحكومة المصرية وخرج عن طاعتها من أمراء الرعايا والاغراب ويعينون كل من أراد خلع الامبراطور فطالما أعانوا من أراد اغتصاب المنصب القيصرى ونصروه والغالب ان أرباب الاقيبات على الحكومة الرومانية انما هم من الاجانب فكانت نتيجة ذلك كله حصول الفتن العظيمة والحروب الداخلية الجسيمة وما ترتب على ذلك من القحط والوباء مما أهلك أهالى مصر وقلل عددهم وكان مما يقوى المصائب الرومانية انتخاب القياصرة من أرباب الخمول والدناءة وهذا مما كان يعود بالخسارة على مصر بخصوصها وعلى المملكة الرومانية بعمومها لان القياصرة الذين لا أصل لهم ولا فصل لا يبالون بارتكاب القبائح المضعفة للدولة الرومانية كما سيظهر ذلك عند الكلام على زنوبية ملكة تدمر عند ذكر أوليريانوس قيصر

(الفصل الحادى والثلاثون)

(فى الملك غالوس قيصر ويسمى أيضا والوس)

تولى الامبراطورية سنة ٣٧١ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ٣٦٩ فكانت مدة حكمه سنتين

لما انهزم جند الرومانيين فى روم ايلى بانتصار اقليوه رئيس القبائل الشمالية عليهم نصرة مؤزرة وقتل فى هذه الواقعة دوقيوس حصل للجند غاية الخجل من ذلك فلم يقلدوا الامبراطورية لوالوس ولا لهوسطليانوس بن دوقيوس بل انتظر واقرار المجلس الرومانى فيمن يتولى القيصرية منهما وكان غالوس معدودا من قواد العسكرية الرومانية وكان قد ارتقى بغيرته واجتهاده الى درجة عالية فى المملكة فحمل من معه من الجند على مبايعته وأشرك معه هوسطليانوس بن دوقيوس فى الامبراطورية وكان لغالوس ولد يسمى ووليسيانوس فأعطاه عنوان القيصرية وكل هذا حصل فى معسكر بلاد النيمسا ثم سار من بلاد النيمسا واستصحب معه شريكه هوسطليانوس بقصد مدينة رومة ليصدق عليه المجلس وكان اذ ذاك فى المملكة الرومانية وباء عظيم فاغتنم الامبراطور فى أثناء طريقه فرصة قتل شريكه ورفيقه ليستبد بالمنصب الملوكى وأشاع عند جميع الناس أنه مات بالوباء ثم دخل رومة فبايعه مجلس رومة على الامبراطورية بيعة صحيحة مؤملين أنه لبسالته اذا تقلد القيصرية ينصر الرومانيين على أخصامهم فخاب فيه الأمل وسلك فى ادارته سوء العمل فقد اشتد أعقب توليته فى رومة بقتل البابا مارقورنيليوس رئيس النصارى ثم عقد مع الغوطية صلحا ليس فيه شرف للرومانيين حيث شرط للغوطية أن يدفع لهم الرومانيون خراجا سنويا فى نظير عدم اغارتهم على بلاد رومة فقد قرر الجزية على الرومانيين وعاد الى رومة مذموما مدحورا فكان فى هذا الصلح كمال الحقارة والصغار على الرومانيين وحصل لهم منه كمال الخزى والعار وقد قصد القيصر بتعجيله الصلح مع الغوطية على هذا الوجه أن يريح نفسه ويتفرغ لحظوظه وشهواته الخاصة به ولم يلتفت لمصلحة الوطن ومع ذلك فلم تمسك الغوطية بشروط هذا الصلح بل نقضوه وأغاروا على الاقاليم الرومانية التى ببلاد البشناق والصرف والبلغار وكان أمير الجيش بتلك الجهة أمليانوس المغربى الاصل فاجتهد فى محافظة تلك الايالات الرومانية وهزم أئمة الغوطية فبايعه جنده على

القيصرية

القيصرية فى ميدان الحرب الذى انتصر على أعدائه فلما سمع والوس بذلك سار اليه ليؤدبه على اقتيانه فلم يبلغ مقصوده بل قامت عسكر والوس عليه وعلى ولده فقتلوهما وكان ذلك فى سنة ٣٦٨ قبل الهجرة وسلم امليانوس من هذه الوقعة

(الفصل الثانى والثلاثون)

(فى الملك امليانوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٣٦٨ وقتل فى سنته بعد أن حكم أربعة شهور

وذلك أنه أول ما جلس هذا القيصر على سرير الرومانيين سار لقتاله قائد جيش الرومانيين ببلاد الغلية المسمى والريانوس مستصحبا بجيشه المحافظ لتلك البلاد فالتقى جند هذا القائد مع جيش القيصر فقتله هو وولده جند هذا القائد فى ميدان الحرب شر قتلة ولم تدم مدة ملكه الا أربعة شهور فاسلم الاودع وتولى بعده والريانوس فانظر الى اختلال أجناد قياصرة الرومانيين فى تلك الاوقات والى درجتهم فى العصيان وعدم الانقياد وتشبثهم بقتل الامبراطرة اعتباطا بدون علة فقل أن يكون وقع مثل ذلك فى دولة من الدول فما منهم من قائد الا وهو لقيصره غير منقاد ولا عامل الا وحركة عمله اثارة الفتنة لعدم راحة العباد والبلاد فكانت أيام الخلفاء فى الازمان الحديثة تعد أيام هنا وكان فيها نور الاسلام ساطع البهاء والسنا قال أحمد بن يوسف الكاتب دخلت على المأمون أمير المؤمنين وبيده كتاب وهو يطيل النظر فيه فبقيت متعجبا من أمره فقال لى أراك متفكرا فيما تراه منى فقلت نعم وقى الله أمير المؤمنين المكاره قال انه لا مكروه فيه ولكنى رأيت كلاما نظير ما سمعت الرشيد يقول فى البلاغة قال هى التباعد عن الاطالة والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى وما كنت أظن أحدا يقدر على ذلك حتى قرأت هذا الكتاب ثم رمى به الى فاذا هو كتاب من عمرو بن مسعدة فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم كتابى الى أمير المؤمنين أعزه الله ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت عطياتهم

واختلت لذلك أحوالهم فلما قرأته قال ان استحسانى ايلمبعثنى على أن أبعث للجند الذى قبلى بعطاياهم لسبعة أشهر وعلى مجازاة الكاتب بما يستحقه فى صناعته انتهى فانظر الى حسن الاشارة اللطيفة فى قول الكاتب ان الاجناد فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت عطاياتهم واختلت لذلك أحوالهم فانه تلطيف فى الكناية بادماج السؤال وانظر أيضا الى ملاطفة الخليفة للجند والكاتب المذكور باجابة سؤالهم المدمج ويقال انه لما مات عمرو بن مسعدة عن ثروة وغنى رفعت الى المأمون قصة فيها انه خلف كذا وكذا من الاموال يريد رافع القصة اضافة مخلفاته لجسامتها الى بيت المال فوقع الخليفة على ظهرها هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا فبارك الله لولده فيما خلف وأحسن لهم النظر فى ذلك *الله أكبر كل الحسن فى العرب*

(الفصل الثالث والثلاثون)

(فى الملك والريانوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية فى أواخر سنة ٢٦٨ قبل الهجرة وبقى الى سنة ٢٦٢ فمدة حكمه خمس سنوات لما قتل الجند أمليانوس ورأوا أن والريانوس قائدهم شيخا معمرا نحو ثلاث وستين سنة وقد قضى حياته فى مكابدة الحروب والتمرن على الوقائع والخطوب وأنه من الشجاعة والبسالة بمكان واعتقدوا فيه أهلية توطين المملكة الرومانية وتمكين شوكتها وتخليصها من الفتن والشرور قلدوه المنصب الامبراطورى فأشهر الحرب على سابور ملك الفرس بن أردشير فكان حربه مع العجم الساسانيين مشؤما على الرومانيين فخاب أملهم فى قيصرهم وانقطع رجاؤهم منه وذلك لان سابور كان قد خلف أباه عن قريب فانتهز فرصة اختلاف كلمة الدولة الرومانية واختلال تقليدهم للقياصرة واحدا بعد واحد بدون حسن سياسة ولا رياسة فسار الى أناطلى على مهل وأهلك فى طريقه الحرث والنسل ودمر انطاكيا وتهيأ لان يدمر حمص فحينئذ سار اليه والريانوس للمدافعة عنها فدبر له الفرس مكيدة عظيمة واستجلبوه الى موقع من مواقع الحرب وميدان من

ميادين المطعن والضرب لا يلائم مصافه فضايقوه فيه وهزموا جيشه شر هزيمة وأخذوه أسيرا لانحراف شجاعته أو لخيانة جماعته فحقره سابور بجميع أنواع التحقير وضرب الذلة والمسكنة على هذا الشيخ الكبير فكان يستصحبه معه أينما حل وارتحل ويلبسه من الحلل القيصرية أبهى الحلل ويقصد بذلك الاستهزاء والتهكم ويحكم فيه بجميع أنواع التحكم واذا أراد كسرى أن يركب عرشه أو جواده طرح هذا القيصر الهرم على بطنه وجعله سلم ركوبه واتخذ هذه في طريقة الركوب عادة فكان يدوسه عند الركوب بقدمه ولا ينظر الى شيخوخته وهرمه وكان أسره ٢٦٢ قبل الهجرة فاستمر والريانوس على هذه الحالة الشنيعة عدة سنوات حقيرا ذليلا وكان قد أمر في السنة الرابعة من حكمه بتعذيب النصارى والتشديد عليهم وقتلهم وقدمات بعد مقاساته في الاسر ثمان سنين وتجلد على ذلك غاية التجلد ويقال انه لما مات أمر سابور بسلخه ودبغ جلده وصبغه باللون الاحمر الارجواني الذي هو لون ملابس الملوك وحشوه بالتبن ليكون دائما على صورة الآدمي راجع الفصل الثامن والعشرين السابق

ثم عقب أسره دخل الافرنج السالية في بلاد الغلية واسبانيا وأفريقة وانقسموا الى عدة طوائف لكل طائفة منهم ملك وكان كل ملك من ملوكهم يمتاز عن رعيته بهندازة في يده يقبض عليها دائما وكان وظيفة الملك أن يمشي بهذه الهندازة أمام جنده وأن يقضي بين الاخصام على دكة وبيده هذه الهندازة ولما مكث والريانوس في الاسر وكان له ولد يسمى غليانوس أقامه الرومانيون امبراطورا عليهم في سنة ٢٦١ قبل الهجرة وكان حاكما على بلاد الغلية فلما تقلد بالامبراطورية حضر الى رومة لتعاطي الاحكام

(الفصل الرابع والثلاثون)

(في الملك غليانوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٢٦١ قبل الهجرة وبقي فيها الى سنة ٢٥٤ فكانت مدة حكمه سبع سنين

بينما كان والريانوس أبو هذا الامبراطور يكابد ما يكابد من ذل الاسر الذي

تسبب عنه ضعفه وهدم بنيته تدريجا حتى انتهى به الى موته ببلاد فارس كان الابن منهمكا على الالعاب العمومية ومولعا بالولائم الاحتفالية يدعو اليها جميع ندمائه وجلسائه لاقتسام اللذات والشهوات معه وكان يقضى أيامه ولياليه فى السكر والعربدة ويتسلى ببناء القصور من باقات الزهور والرياحين ويزرع البطيخ فى الشتاء حيث تشتهيه نفسه فى ذلك الفصل وكان فى أثناء ضياع الاوقات فى هذه المحقرات قد انصب على المملكة الرومانية جميع المصائب والنكبات وفاض عليها سيول الدواهى من جميع الجهات حتى كادت تلك المملكة ان تشرف على الخراب والتدمير وأيست كل اليأس من حسن الادارة والتدبير فقد اجتمع فيها فى آن واحد موجبات الهلاك كالقحط وفيضان الانهار وحدوث الفتن الداخلية والاوباء فكان يهلك بالطاعون فى رومة وحدها خمسة آلاف نفس كل يوم ومع هذه الصروف والمصائب كان القيصر منكبا على حظوظه ولذاته معاقرا المدامه وملازما لشهواته وكان لا يبالى باغارة الاعداء على بلاده ولا يكترث بتمزيق ممالكه ويقول مادام اقليم ايطاليا باقيا تحت حكمى فلا أبالى بضياع ما عداه من الاقاليم فكانت أيام حكمه عرضة لضياع ممالك الرومانيين الخارجة عن اقليم ايطاليا فتحير الرومانيون فى أمرهم واشتد عليهم الخطب وداخلهم الذل والعار وضربت عليهم الذلة والمسكنة بكسر الناموس وهدم الاعتبار فقام عليه الجنود وقتلوه شر قتلة لعل أن تمحى بقتله عنهم المسكنة والمذلة وكان ذلك فى سنة ٢٥٤ قبل الهجرة وانتخبوا بدله قلودس الثانى اذ كانوا يرجون خيره وفى أيام غليانوس كان قد قام فى مصر أمير الجنود الرومانية يسمى امليانوس واغتنم فرصة حرب غليانوس قيصر مع افرنج الغلبة فأرسل اليه الرومانيون طيودوطس فهزمه وقبض عليه وأرسله الى رومة فسجن فيها وصار قتله صبرا بأمر غليانوس وكان على مدينة تدمر ملك يسمى أدنياطوس وكان محالفا للرومانيين فهو الذى هزم العجم المغيرين على أقاليم الرومانيين وطاردهم الى أن أوصلهم الى تخت بلاد العجم حتى قيل انه لم يبق للرومانيين مصادق الا ملك تدمر حيث كان حافظا لبلاد الرومانيين من هجوم العجم وقد كافأه غليانوس قيصر على صداقته واعانته له فأعطاه لقب أغسطس وهذا

العنوان أيضا انتقل من هذا الملك الى زوجته زنوبية وأولاده اذ كان متوارثا فيهم بعد موت أودنياطوس المذكور عقب اكتساب هذا العنوان وسيأتى الكلام على زنوبية فى محله مفصلا ثم انه فى مدة هذا الملك قام عليه كثير من أمراء الجنود واغتصبوا الامبراطورية منه فمن هؤلاء المغتصبين من قتله هذا القيصر ومنهم من قتله جنوده ثم صار قتل هذا القيصر فى سنة ٣٥٢ وانتخاب قلودس الثانى امبراطورا على الرومانيين

(الفصل الخامس والثلاثون)

(فى الملك قلودس قيصر الثانى)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٣٥٤ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ٣٥٢ فكانت مدة حكمه سنتين وكان هذا القيصر أول سلسلة القياصرة الليريه يعنى السواحلية بالنسبة لايطاليا فكان أصل هذا القيصر من اقليم دلماشيا وكان معدودا من فحول رؤساء الجيوش الرومانية لما استبان منه من البسالة التامة فى حرب الغوطية وانتصاره عليهم فبهذا استحق المنصب القيصرى فقد انتخبه الجنود أولا وأقره مجلس رومة واستصوب انتخابه وفرح به واستبشر وقد استبان ثم بعد التجارب الكثيرة أنه فى الحقيقة أهل لهذا المنصب العالى وذلك لان الغوطية جمعوا جيشا عظيما عند نهر آق كرمان ونزلوا على سواحل البحر الاسود وأغاروا على المدن الرومانية القريبة منها وكانوا يغيرون على البلاد اليونانية التابعة للحكومة الرومانية بهذه الجهة فسار هذا القيصر لقتالهم وانتصر عليهم نصرة بليغة تسمى نصرة نيسا اسم مدينة ببلاد الصرف كثر فيها اراقة الدم فى ميدان الحرب حتى تولد عن هذه الدماء وباء عظيم فسار الى قلودس فمرض ومات به فى مدينة سرمش جهة بلاد الصقالبة وذلك فى سنة ٣٥٢ قبل الهجرة وتولى بعده أورليانوس قيصر

(الفصل السادس والثلاثون)

(فى الملك أورليانوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٢٥٢ وبقى الى سنة ٢٤٨ قبل الهجرة فكان مدة حكمه أربع سنوات ولما مات قلودس انتخب الجنود هذا القيصر وكان أبوه نزيلا فى بلاد الافلاق وذلك لان القيصر أورليانوس المذكور كان مقاتلا مهيبا تخشى سطوته ويخاف بأسه فاشتهر فى الشجاعة والبسالة حتى طار صيته فى الاقطار وكان صعبا على الجند وكان يتراءى منه فى مبدا أمره انه نحس على الدولة الرومانية لان طوائف الالمان أغاروا فى مبادى أيامه على ايطاليا وبددوا شمل جيش جرار من الجيوش الرومانية وقضوا زمنهم بنهب مدن ايطاليا وسلبها وضيعوا أوقاتهم فى ذلك ولكن فى أثناء مشغوليتهم بالسلب والنهب جمع أورليانوس ما تفرق من عساكره وانقض عليهم ولا انقضاض البازالاشهب وبدد شملهم حتى مالوا الى الفرار وولوا الادبار وعدموا القرار وعادوا يجتازون نهرطونة وذلك فى سنة ٣٥١ قبل الهجرة واكتفى شر هؤلاء الطوائف وسلمت البلاد والعباد من أذاهم

ولكن حدث أيضا من جهة أخرى حوادث أخرخطرة على الرومانيين فى مدة هذا القيصر وان كان موجبها متقدما على زمانه وهى أنه قبل موت القيصر غليانوس بسنة كان حصل منه مساعدة الملكة التدمر المسماة زنوبية حيث كان زوجها محالفا للرومانيين ومظاهرا لهم على الفرس فقلده الملك منصب الاغسطوسية هو وزوجته وذريته فظهرت زنوبية بعد زوجها مظهرا عجيبا فى البلاد المشرقية وقويت شوكتها واستفحل أمرها وانتظم ملكها وصارت مدينتها الملوكية التى فى صحارى الشأم الرومية وهى مدينة تدمر عامرة آهلة زاهرة بهية حتى كأنها جنة من جنان الدنيا ومتنزه من المتنزهات الزهية واتسعت دائرة ملكها من ساحل بلاد الصور والشام الى نهر الفرات والعراق براو بحرا واهتمت هذه الملكة باعانة التجارات وتوسيع دائرة الاخذ والعطاء فأحرزت مدينتها مالامزيد عليه من الرونق والبهجة كما يدل عليه ما بقى من الاطلال والرسوم والآثار والردوم فالظاهر أن هذه المدينة اكتسبت من الحلى والزينة فى أيام هذه الملكة مالم تكتسبه فى أيام سليمان عليه السلام بالنسبة للوقت التى هى فيه فكانت

هذه

هذه الملكة بلقيس زمانها فى بلاد الشأم بتدمر سليمان عليه السلام وكانت متزوجة بالملك اذيناطوس الذى هزم سابور ملك فارس وانتصر عليه بشجاعته وبسالته فى عهد غليانوس قيصر كما سبقت الاشارة الى ذلك فى الفصل الرابع والثلاثين فلما تأيمت بموته تقوت عزيمتها واحتدمت شكيمتها واتصفت بصفات الرجولية وتقلدت بنعوت البطلية والفحولية حتى خلفت زوجها فى الشجاعة والحماس والشوكة والباس فأحرزت مملكتها كمال الشهرة وبعد الصيت وتلقيبها بالقيصرة ثبت ملكها أتم تثبيت وكانت تزعم أنها ملكة بالاستحقاق لانها فى نسبها صاحبة تأصيل واعراق أثيلة المجد أصلية المحتد تدعى أن نسبها ينتهى الى فراعنة مصر وملوكهم وأنها تستحق أن تنتظم فى سلوكهم فكانت فى جنس النساء نادرة الزمان وفريدة العصر والاوان تخطب العساكر بأبلغ خطابة وتحرضهم على الحرب وتضمن لهم النصرة والاصابة وتلبس فى رأسها خودة الحرب كالابطال حاسرة عن ذراعيها كالفتيان من الرجال وكانت قوية الجأش والجنان تقوى باقتحامها المطلوب قلب الجبان مع سلوك سبيل الحزم والاحتراس ولها فى السياسة اليد الطولى واستخدام جميع الحواس تترقب دائما أن تحكم الممالك الرومية وتؤمل أن تصير على ممالك الدنيا ملكة عمومية ولا تكاد تنفك عنها هذه النية ولا تعزب عن ذهنها هذه الامنية وكانت اذ ذاك الديار المصرية تحاول الخروج من قبضة الرومانيين وتزاول الاستقلال بنفسها كما فى زمن الفراعنة الاولين فشرعت الملكة زنوبية أن تستولى على مصر مستعينة ببذل ما عندها من الاموال فلم تستطع أخذ مصر بهذه الوسيلة لمصادمة المصريين لها بحسب اقتضاء الاحوال فاستعملت القوة الجبرية وغلبت الجنود المصرية واستولت على سرير الاسكندرية ولكن لم تلبث قليلا أن طردت منها وزحزحت عنها ثم عادت اليها وعولت فى التغلب عليها حيث أمدتها مملكة تدمر بالجنود العديدة والذخائر المجيدة وكان ذلك فى زمن أوريانوس وكان التغلب على مصر فى عهده دونه حرب البسوس فجد هذا القيصر السير من رومة الكبرى وحضر الى الشأم ليزيل عن ممالكه ضيقا وحصرا فانتصر على زنوبية نصرة عجيبة بقرب حمص الشام فهربت

داخل حصون تدمر عقيب هذا الانهزام فضيق عليها الحصار ومنع عنها الميرة فنفد ما فى المدينة من الزاد وأيست من الذخيرة والامداد فحاولت الخروج والفرار وتسليم هذه الدار فقبض الجند على هذه الملكة فى أثناء الطريق ووقعت فى قبضة فرسانهم وخانها الرفيق والصديق فلما تمثلت بين يدى القيصر المنصور وليث الرومانيين الهصور قالت له قد ساعدتك بالنصر علينا الاقدار فها أنا معترفة لك بالولاء اعتراف من تفرقت عنه الانصار وأما سلفك فانهم لم يصلوا الى هذه المثابة ولا سلكوا مسالك النجابة فالخروج عليهم كان من عين الاصابة فاستدعى سائر الجنود سفك دمها وطلب جميع العساكر اباحة عدمها فأبى أورليانوس قتلها واستصوب الاستبقاء عليها ولكن أسرها وأذلها فأدخلها رومة من ضمن الموكب المعقود فى اليوم المشهود لتكون غنيمة وعلامة على النصرة العظيمة وعوضها عن مملكتها قصرا متنزها فى رومة وقد بقيت ذريتها هناك الى قرب فتوح الشام بالاسلام حتى تغيرت الاحوال وخرجت الشام عن حكم الروم وساغ لهم الانتقال وكان أسر زنوبية وزوال ملكها من البلاد الشامية وغير الشامية فى سنة ٢٥٠ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

وبعد هذا الزمن بمدة يسيرة ظهر أحد تجار مدينة الاسكندرية وقصد الاستبداد بالمملكة المصرية وكان صاحب ظهور وخروج وله فى مراقى الامارة عروج فأعلن لنفسه بالرياسة وتشبث بالانفراد فى الاحكام والسياسة وانتهى اليه فى ديوان مصر الامر والنهى فى جميع الامور وخضع له من أهلها السواد الاعظم والجمهور وتكفل بدفع جوامك جميع الجنود واقامة شعائر الاعلام والبنود وزعم أنه يدفع مصرف ذلك من مكسب صناعة ورق الكتابة الذى كان اتخذه من شجر البردى المعروف فلبى دعوته جماهير الاقاليم المصرية وعقد المعاهدات مع أهل المجاورة من ملوك القبائل العربية وضرب السكة باسمه واستعان بأروام الاسكندرية فدخلوا تحت حكمه وانتصروا له ودخلوا فى حزبه وقصدوا طلب الحرية والتخلص من الحكومة الرومانية فحارب ذلك التاجر الفاجر دولة الرومانيين

وتلاقى معهم فى ثلاثة وقائع ولم يظهر عليهم فى نصرة بل انتهى به الحال أن انهزم وانكسر شر كسرة ووقع أسيرا وقتل شر قتلة ووقعت مصر تحت قبضة الرومانيين كما كانت تحت هذه الدولة وتقلد نيابتها أمير من طرف أورليانوس يسمى أورليوس بروبوس فاجتهد هذا النائب فى اصلاح ما أفسدته الحروب والوقائع فأصلح العمارة العمومية بالتجديد والترميم والتحسين والتنظيم كما أصلح النيل السعيد بالعمليات الهندسية وشغل فيها العساكر الجهادية فحسن هذه العمليات التطهيرية سهل سير السفن فى هذا النهر على صورة مرضية

فكانت سيرة اورليانوس أحسن سيرة وكان للممالك الرومانية فى أيامه تجدة شهيرة وكان يرجى منه أن يتمكن أتم تمكين وأن يكون لوطنه أعظم حصن حصين ولكن أضره الاغارة على الايالات المشرقية حيث سار اليها بعد الانتصار على عصاة الديار المصرية والشامية وكان سيره بقصد قتال الفرس فقامت عليه فتنة من جنوده كان مثيرها ورئيسها كاتب سره منسطيس فقتل هذا القيصر عقب هذه الفتنة فى سنة ٣٤٨ قبل الهجرة وفى السنة الاخيرة من حكمه كان تعذيب النصارى بالشدة السابعة وفيها قتل ساندنيس رئيس أساقفة باريس وتولى بعد هذا القيصر أورليانوس طاقيطوس أحد أرباب مجلس رومة بعد فترة ثمانية أشهر خالية من الحكومة وسيأتى أن طاقيطوس هلك قتيلا كسلفه

ومع اصلاح مصر وتنظيم أورليوس بروبوس لها فكان صعيد مصر لم يزل فى فتن وشرور فى عهد كل من أورليانوس وطاقيطوس

(الفصل السابع والثلاثون)

(فى الملك طاقيطوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية فى سنة ٣٤٧ قبل الهجرة وبقى حكمه الى أثناء سنة ٣٤٦ فلم تبلغ مدة حكمه سنة كاملة بعد ما سلف من زمن الفترة السابقة لما قتل أورليانوس فى حرب العجم بفتنة الجنود الرومانية لم يستطع أحد أن ينتخب قيصرا على الرومانيين فبقى سرير رومة خاليا عن

الامبراطورية وهذه أول مرة خلا فيها سرير رومة عن ذلك فكان زمن فراغ
سرير رومة من القيصر به ثمانية أشهر فكانت هذه المدة فترة فلما ظهر
الافرنج وعمروا نهر الرين للتغلب على ايطاليا بقصد اغتنام الفرصة فى هذه
الفترة اتحد مجلس رومة مع أمراء الجنود واختاروا طاقيطوس أحد أعضاء
المجلس امبراطور عليهم وكان حكيما عاقلا حسن المقاصد صافى النية
يفتخر على غيره من جهة أنه من ذرية طاقيطوس المؤرخ وقد حكم دون السنة
وذلك لانه كان هرما بلغ من العمر خمسا وسبعين سنة ولم يكن مجربا بالحروب
ولا ممارس الخطوب وانما كان له معرفة بالانشاء والمحاضرات وبالادبيات
والخطابات فكانت نفوس الجنود غير مائلة اليه ولا معولة على حصول الخير
لهم على يديه لما بين العلوم الادبية والمعارف العسكرية من المباينة
العادية لاسيما وان دولة الرومانيين كانت مؤسسة اصالة على الغزو والقتال
والفتوح للبلاد واسترعاء الخلائق على ممر القرون والاجيال فكان القيصر
ينتخب من الابطال وفحول الرجال لا من أرباب اللسن والمقول الحسن
مع أن المنصوص عند أرباب السياسة والحزم والكياسة أنه لو تعارض
فى المملكة اثنان وانحصر الانتخاب منهما وكان أحدهما يحسن العسكرية
والآخر لا يحسن الا العلوم السياسة فانتخاب الثانى أولى وهو الجدير
بأن يكون السيد والمولى لانه لغزارة علمه وجودة فهمه يحسن أن ينتخب
أمراء جنوده وكبراء أعلامه وبنوده وسائر خدمه وحشمه لذكاء
فطنته وتمكنه من حسن التدبير ورسوخ قدمه بخلاف العسكرى البطل
المنازل اذا كان متصفا بفضيلة الحرب ومجردا عن غيرها من الفضائل
فلا يقدر أن يسوس الرعية الا بطريقة التخويف وسلوك الطرق الجبرية
ففضيلة العلم فى الملوك مستحسنة بل وفى سائر حواشيهم تعد من اللوازم البينة
قال ابن الصلاح روينا عن الزهرى أنه قال دخلت على عبد الملك بن مروان
فقال من أين قدمت يا زهرى قلت من مكة قال فمن خلفت يسود أهلها قلت
عطاء بن أبى رباح قال أمن العرب هو قلت بل هو من الموالى قال وبم سادهم
فقلت بالعلم فقال ان أهل العلم ينبغى أن يسودوا فمن يسود أهل مصر قلت
يزيد بن أبى حبيب قال أفمن العرب هو قلت بل من الموالى قال فمن يسود أهل

الشام

الشأم قلت مكحول قال أفمن العرب هو قلت بل من الموالى عبد نوبى أعتقته امرأة من هذيل قال فمن يسود أهل الجزيرة قلت الضحاك بن مزاحم قال أمن العرب هو قلت بل من الموالى قال فمن يسود أهل الكوفة قلت ابراهيم النخعى قال أفمن العرب هو قلت نعم من العرب قال ويلك يازهرى فرجت عنى قلت ياأمير المؤمنين انما هو أمر الله فمن حفظه ساد ومن ضيعه سقط

ومما يرفع قدر حرفة العلم والادب ماحكاه بعضهم عن زياد ابن أبيه مع حارثة ابن بدر الفزارى وذلك أنه لما ولى زياد ابن أبيه العراق كان كثير الرعاية لحارثة بن بدر الفزارى وكان حارثة مكبا على الشراب فوقع أهل البصرة فيه عند زياد ولاموه على تقريبه فقال لهم زياد ياقوم كيف لى باطراح رجل يسايرنى منذ دخلت العراق فلم تصك ركابى ركابه قط ولاتقدمنى فنظرت الى قفاه ولاتأخر عنى فلويت اليه عنقى ولاأخذ على الروح فى الصيف ولاالشمس فى الشتاء ولاسألته شيأ من العلوم الاظننته لايحسن سواه

وحكى المبرد قال دخل الاصمعى يوما على الرشيد ومجلسه حافل فقال ياأصمعى ماأغفلك عنا فقال والله ياأمير المؤمنين مالاقتنى أرض فتبسم الرشيد وقال له اجلس قال فجلست حتى خلا المجلس ولم يبق غيرى ومن بين يديه من الغلمان فقال لى ياأصمعى مامعنى قولك مالاقتنى أرض قلت ماأمسكتنى أرض ياأمير المؤمنين وأنشد مفردا

كفاك كف ماتليق درهما * جودا وأخرى تقطر السيف الدما

أى ماتمسك فقال هذا حسن وهكذا فكن وقرنا فى الملا أى بأن لانسمع منك شيأ تسئله منا وعلمنا فى الخلا فانه يقبح على السلطان أن لايكون عالما امّا أن أسكت فيعلم الناس انى لم أفهم اذا لم أجب وامّا أن أجيب بغير الصواب فيعلم ذلك من حولى وقال الاصمعى قال لى الرشيد يوما فى خلوة ياأصمعى أنت أعلم منا ونحن أعقل منك لاتعلمنا فى ملا ولاتسرع الى تذكيرنا فى خلا واتركنا حتى نبتدئك بالسؤال فاذا بلغت فى الجواب حسب الاستحقاق فلاتزد الا أن يستدعى منك ذلك قال فعلمنى أكثر مما علمته فكانت علوم خلفاء الاسلام معادلة لشجاعتهم وتجاريبهم فى الحروب فقد اجتمع فيهم الرأى والشجاعة والسياقة والبراعة فلم يكن عندهم السيف أصدق انباء من الكتب بل

تساوى عندهم الصدق بين السيف والقلم والعلم والعلم فلم يقل لهم كما قيل لغيرهم

فصغ ما كنت حليت * به سيفك خلخالا
فما تصنع بالسيف * اذا لم تك قتالا

ولا قيل لهم

دع اليراع لقوم يفخرون به * وبالطوال الردينيات فافتخر
فهن أقلامك اللاتى اذا كتبت * يوما أتت بمداد من دم هدر

وكيف يقال هذا لمن يفتخر بالاداتين على حد سوى وانما يحسن أن يقال عن الخليفة المضال

ان سار سار لواء النصر يقدمه * أو حل حل به الآمال والكرم
يلقى العدا بجيوش لا يقاومها * كثر العشائر الا أنها همم

فقد وسعوا فتوحاتهم أكثر من الرومانيين ومدنوا البلاد أكثر منهم أعظم تمدين حتى صار من المعلوم أنه لا يتيسر لاحد من السلاطين أن يملك مثل الخلافة الاموية فى سعة ملكها ولا أن يدخل فى مثل تنظيمها وسلكها فقد كان خلفاء بنى أمية يملكون الصين والهند والسند وخراسان وبلخ وبخارى وسمرقند ونيسابور والعجم والروم والعراق ومصر والحجاز واليمن والمغرب بأسره والاندلس وسائر أقطار الاسلام من مشرق الارض الى مغربها ومن أقصى الجنوب الى أقصى الشمال وكان لا يتولى أحد فى بلد الامارة فى شئ الا بأمر الخليفة وكذلك أوائل خلفاء بنى العباس كالمنصور والمهدى والرشيد والمأمون كما سيأتى تفصيل ذلك فى تاريخ الخلفاء وانما كانت دولة الرومانيين أشبه شئ فى التملك على البلاد الكثيرة بالدولة العثمانية فى الجملة لا من جميع الوجوه ولا فى الرسوخ والثبات ولا فى الشهامة الاسلامية ولا فى العدالة بين الرعية وكيف يحصل الرسوخ وثبات الدولة مع التغيير والتبديل والنفى والاثبات وكثرة التولية والعزل بمحض الاقتيات وان كل قيصر يصحب الدنيا بلا أمل وينادى عليه حين مصرعه سبق السيف العذل فأكثر القياصرة ساقهم البغى الى صرعة للجبين لم تخطر على بالهم كم أملوا المكروه فى عزهم فنالهم مكروه آمالهم

فان الجنود الرومانية لما علموا أن طاقيطس قيصر لم تحنكه التجاريب ولم يكن

له من فحولية الرجال حظ ولانصيب حصل بينهم و بينه وحشة ونفور وكثر منهم فى حقه القيل والقال واشتد الخطب وعظمت الامور ولم يكن له فى قلوبهم الهيبة القيصرية لقصوره عن درجة سلفه غورليانوس الذى هو بطل صنديد خبير بالفنون العسكرية فقامت الفتنة بين الجنود وأشهروا العصيان فأراد قائدهم أن يسكن غضبهم بارشادهم من الضلال الى الصواب وقال لهم ان مجلس رومة أعطا كم طاقيطوس حيث التمستم توليته عليكم وها هو يعدكم بالاكرام والانعام ويبلغكم القصد والمرام فلم يفد ذلك أدنى فائدة بل قتلوا هذا القيصر فى سنة ٣٤٧ قبل الهجرة وبايعوا بعده بروبوس قيصر لما رأوا من الغبطة على حسب الاصل والقاعدة

(الفصل الثامن والثلاثون)

(فى الملك بروبوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٣٤٧ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ٣٤٠ وحكم نحو سبع سنوات

كان أبو هذا الامبراطور بستانيا وكان الابن قد خدم فى الجنود الرومانية وارتقى الدرجات العسكرية وتسمى بروبوس بمعنى الصالح وكان مستقيم الحال حسن الفعال جديرا بتحقق ذلك العنوان أقام على صلاحه واستقامته أعظم برهان فقد عرف الجند شجاعته بحصاره المدائن والثغور وحروبه وفتوحاته فكان دائما معدودا عند العسكرية من فحول الرجال ورؤساء الابطال ولما أحضروا له الحلة الملوكية ليلبسها امتنع أول الامر من قبولها فألحوا عليه فى ذلك وانتهى الامر أن رضى بلباسها وقال لهم لعلكم قلدتمونى القيصرية بداهة وبدون روية وستندمون على ذلك فانى فيما يخص النواهى والاوامر والحدود والزواجر لا أرعى لاحد منكم أدنى خاطر

فكان أول شروعه تحصين الحدود والثغور والعناية بمحافظتها ودفاع الاعداء ومنعهم من الاغارة عليها ثم شرع فى حرب الغوطية والصقالبة والافرنجة والالمان وانتصر على الجميع وقد أرسل قبائل رومانية خلف نهر الرين

للتوطن بالبلاد التي وراء ذلك وأرسل عدة قبائل جرمانيــة الى الاقاليم المشرقية الرومانية وأذل أهل فارس وأهانهم وأدخل تحت الطاعة والانقياد أهالى صعيد مصر وأسكن فتنتهـم وعاقب بالعقاب الشديد أحزاب تلك المدن الصعيدية كأهل مدينة قفط واخيم ومنشاة أخيم وبعد هذه الغزوات المنصورة حضر الى مدينـة رومة ليستريح فيها من المتاعب والمشاق فدخلها بموكب عظيم ومشى أمام عربتـه أسراء الامم والدول المنهزمة ولما تم دخول أهـل صعيد مصر تحت الطاعة والانقياد وخرج هـذا القيصر منها مؤيدا منصورا بقصـد رومة كان النائب على مصر اذذاك أميرا يسمى ساطرنيوس فاغتنم هـذا النائب فرصـة عود القيصر الى رومة واستعان بمن استماله الى نفسـه من أروام الاسكندرية وأعلن لنفسـه بالامبراطورية ثم هلك قبـيلا وعادت حكومة القيصر بمصر على حالها ثم تولى نيابة مصر من طرف القيصر أمير يسمى اخليس فراودته نفسه كسلفه أن يتولى امبراطور نبايعوه على ذلك بمصر وقتـل كالاول وفى عهـد بروبوس غرس الرومانيون أرض الملاعب بالاشجار والغابات وأطلقوا فيها أنواع السباع والحيوانات لاجل تمرين الاهالى على الصيد والقنص فى هذه الميادين الواسعة ورتبوا فى هذه الميادين المناوشه والمهارشة بين الاسود والنمور والدبوب ومصارعة المصارعين

وقد تمكن الصلح التام والطمأنينـة العامة فى داخل المملكة الرومانيـة فى أيام هـذا القيصر اذ كان معينـا على التجارات والصناعة والفلاحـة والزراعة لاسيما غرس الكروم فى بلاد الغلية والجرمانيـة والبلاد الاندلسية وتكثير العنب وكان مع ذلك كله لايدع هـذا القيصر الجند فى البطالة بل يستعملهم فى الخدم العمومية كتنشيف البرك والمستنقعات وعمارة القناطر والجسور وفتح الترع والخلجان وتطهير الانهر وتحسين مجاريها لاصلاح حال المزارع والمنافع وكان لايدعهـم للاستراحة من الاشغال العمومية طرفة عين وكان قد أنذرهـم قبل ذلك كما سبقت الاشارة الـيه بقوله لعلكم قلد تمونى القيصرية بدون روية وستندمون على ذلك فانى لا أرعى فى الاوامر والنواهى لاحد منكم أدنى خاطر فكان الامر كما قال فسئم الجند

من استدامة الخدمة على هذا المنوال وأغضبهم استمرارهم على هذه الحال كما هي عادة المترفهين وأهل الكسل الذين لا يحبون الا الدعة والنزاهة مع التخلق بالهرج والمرج فقتلوه عند بعض البحيرات وكان بالمرور لملاحظة العمليات النافعة فكان قتله رزأ عظيما على الحكومة الرومانية لانه كان متشبثا باحياء البلاد وتنشيط العباد كما قيل

لعمرك ما الرزية فقد مال * ولا فرس يموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد شخص * يموت بموته خلق كثير

ومما حملهم على قتله أيضا أنه قال لجنوده فى المحفل العام سيأتى على يوم لا أحتاج فيه الى عسكر منكم ولا جنود يريد بذلك أنه بالعدل تقل حاجته اليهم كقولهم لو استقام الناس لارتاح القاضى فكان التفوه بهذا الكلام من قلة الحزم وعدم الاحتياط حيث أفادهم أنه سيستغنى عنهم ورب كلام فى القلوب كلام فمن جانبه وجانبهم وقع الافراط وخير الامور الاوساط وكان مقتله فى سنة ٣٤٠ قبل الهجرة وولى بعده قاروس قيصر

(الفصل التاسع والثلاثون)

(فى الملك قاروس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٣٤٠ وبقى حكمه الى أثناء سنة ٣٣٩ قبل الهجرة فكانت مدة حكمه سبعة عشر شهرا

لما مات بروبوس لم يكن فى أمراء الرومانيين من يساويه فى شهامته وشجاعته وحسن تدبيره وسياسته لانه كان منفردا بمزية جمعه لهذه الاوصاف الجيدة وأنه لا يخلف بمثله وانما رأوا أن قاروس رئيس الجند القيصرى هو شجاع فى الجملة وصاحب بأس وقوة ومولده فى مدينة أربونة بمملكة الغلية وان لم يكن ذا بيت عريق فى المجد والشرف الا أنه لم يخل من المجد الذاتى والشرف المكتسب فحضر بنفسه الى رومة بعد انتخاب العساكر له وطلب مسند الامبراطورية حيث وجدت فيه الاهلية فأجابه مجلس رومة الى ذلك وتولى امبراطورا على هذه الممالك وكان له ولدان أحدهما يسمى قارينوس والثانى يسمى نومريانوس فبمجرد توليته قلد ولديه منصب الاغسطوسية يعنى أن كلا

منهما بلقب أغسطس وفى سنة توليته عاد الفرس والصقالبة للاغارة على الاقاليم الرومانية فسار بنفسه الى بلاد آسيا فهزم الصقالبة والفرس وأخذ بعض مدنهم ثم حصل انقلاب عظيم عليه فاخذ غيلة وقتله جنده بعد أن حكم سبعة عشر شهرا وذلك فى أثناء سنة ٢٣٩ قبل الهجرة وأعقب ولديه وهما قار ينوس ونومريانوس فتقلدا الامبراطورية الرومانية فى هذه السنة وقتلا فى هذه السنة فكان حظهما من الملك كحظ أبيهما من سوء البخت ونحس الطالع كما سيأتى فيما بعد

(الفصل المكمل للاربعين)

(فى الملك قار ينوس قيصر ونومريانوس قيصر)

توليا الامبراطورية سنة ٢٣٩ وقتلا فى عين هذه السنة

وذلك أن نومريانوس كان معتدل المزاج لين العريكة سهل الاخلاق فصيح المنطق بليغ المقال حتى ان المجلس الرومانى شهد له بأنه خطيب عصره ومقوال دهره والخطابة عند اليونان والرومانيين أصل عظيم فى الدولة يعين على التحسين والتمكين وفى سائر الازمان والى الآن فى الدول المتقدمة والمتأخرة تعد الخطبة الحسنة والمقالة المستحسنة منقبة ومفخرة وللعرب العرباء من الخطب جوامع الكلم فهم فصحاء كل زمان سباق حلبة البيان وأفصحهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فله عليه الصلاة والسلام الخطب التى حكمت فصاحتها بالعى لقس وبالفهاهة لسحبان ورجعت خاسئة عن مجاراتها سوابق الاذهان فمنها قوله عليه الصلاة والسلام أيها الناس ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم ان المرء بين مخافتين بين أجل قد مضى لايدرى ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقى لايدرى ما الله قاض فيه فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشيبة قبل الهرم ومن الحياة قبل الموت فوالذى نفس محمد بيده مابعد الموت مستعتب ومابعد الدنيا دار الا الجنة أو النار وكان داود عليه السلام من أخطب الخطباء قال تعالى فى حقه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب فقيل ان فصل الخطاب هو ذكر أما بعد فى الخطبة وانه أول من قالها ولعله

أول من قالها فى بنى اسرائيل ليوافق قول العرب ان أول من قال أما بعد قس ابن ساعدة حيث يقول

لقد علم الحى اليمانون اننى * اذا قلت أما بعد انى خطيبها

وفى المثل أخطب من قس بن ساعدة وهو خطيب العرب قاطبة

وفى الحديث ان شعيبا عليه السلام اخطب الانبياء وهل الخطابة الا الاعراب عما فى النفس من المعانى الجليلة

لا يعجبنك من خطيب خطبة * حتى يكون مع الكلام أصيلا

ان الكلام لفى الفؤاد وانما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ومزايا حسن البيان بينة فى جميع الازمان فقد استولى به يوسف عليه السلام على مصر وملك زمام الجمهور وأطلعه ملكها على سائر الامور فان العزيز لما رأى فصاحته أعلى مكانته وأعظم منزلته وربما سودت الفصاحة غير مسود فرفعته من الحضيض الاوهد وفى كل عصر لم تزل الفصاحة تشيد لأهلها ذكرا وترفع لهم قدرا

فقد خلد التاريخ منقبة فصاحة نومريانوس قيصر وبيانه وجعل شهادة المجلس الرومانى له بذلك دليله وبرهانه فلما تقلد هذا القيصر الممدوح السيرة سار الى بلاد فارس اذ كانت دولة الفرس على بلاده مغيرة وبصحبته آبروس أبو زوجته فقتل آبروس فى أثناء الطريق وكان دقلبانوس رئيس غلمان القيصر معه فى هذا السفر فأخذ بثأره من قاتله آبروس بقتله وتولى أغسطوسا يعنى قيصرا ولم يكن ضربه عنق آبروس محض انتقام لسيده بل السبب الاصيل فى ذلك ان كاهنة من بلاد الغلية بشرته أنه يصير قيصرا اذا قتل خنزيرا والواقع ان لفظ آبروس باللسان اللاطينى معناه خنزير ونقل الى العلمية من معناه الاصلى فكان قتله لابروس لتحقق ما بشرته به الكاهنة فقد تولى القيصرية لكن على بلاد الغلية فقط ولم يقصد بذلك الاستيلاء على رومة بوصف الامبراطورية العمومية وأما قارينوس أخو نومريانوس المقتول وابن قاروس فكانت أوصافه على خلاف أوصاف أخيه السالفة الذكر اذ كان فاسد الاخلاق منهمكا على الفواحش والقبائح مخالطا لاهل السخرية والالعاب والاغانى لا يصحب الا من لا خلاق له من أمثاله يتزيا بزى النساء

فيلبس اللاّلئ النفيسة والجواهر الكريمة ولاينام الاعلى بساط الزهور والرياحين وكان يطيب خاطر الاهالى والجنود بالولائم والضيافات ويدعوهم الى الالعاب العمومية فى الميادين والمتنزهات ويلهيهم بجميع أنواع الافراح والمسرّات فلهذا كانوا يصفحون عن معائبه ويفصحون بالثناء على صلاته ورغائبه ولكن لما علم دقليانوس أن قارينوس قرينه ليس أهلا للامبراطورية الرومانية وانه مرتكب للمثالب الدنية سار بجنده اليه ودنا منه وأضمر له السوء فلما علم قارينوس بذلك صحا من سكر الغفلة وأقلع عما كان عليه من الفعال المخلة وأبرز مالامزيد عليه من الشجاعة وحارب خصمه ودافع عن مسنده مع غاية البسالة والبراعة فكانت الحرب بين الفريقين سجالا فانتهى الحال ان ظهر هذا القيصر على دقليانوس وهزمه وكسر جيشه وحطمه ولكن وقعت البغضة بينه وبين جنوده فقاموا عليه وقتلوه فى أثناء نصرته الموجبة لصعوده وذلك فى سنة ٣٢٩ قبل الهجرة وتولى بعده دقليانوس الذى عمّ ظلمه مصر وكان حكمه عليها محض مضرة

(الفصل الحادى والاربعون)

فى الملك دقلطيانوس قيصر ويسمى دقليانوس ودقله أيضا وفى الملك مقسميانوس هرقل أغسطس

تولى دقلطيانوس الامبراطورية الرومانية فى سنة ٣٣٩ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ٣٢١ فكانت مدة حكمه ثمانية عشرة سنة وكان مولده بمدينة دقليا دلماجيا ببلاد النمسا من عائلة خاملة الذكر عاطلة من حلية المجد والحسب فدخل من زمن صباه فى الخدمة العسكرية واشتهر بالبراعة فى الفنون الحربية والادارة الملكية ولم يشتهر بالشجاعة والبسالة فى المشاهد والمواقع ولاعرف فضله بالفتك بالاعداء ولاباقتحام الوقائع فكانت قريحته فى التدبير كقريحة أغسطس أوّل قياصرة الروم يميل بالطبع الى حسن التنظيم والترتيب واحكام التدبير والسياسة والتمسك بالحزم والتبصر فى عواقب الامور وكان يميل كل الميل الى السلم والصلح وتنسيب الافعال وتنسيق الاحوال وبالجملة فكان معدودا من أكابر مدبرى الدولة

الرومانية وربما لم تكن تسمح بمثله هذه الدولة من مدة قرون سابقة
وكان سنه حين تولى الامبراطورية أربعين سنة وهو السن المعهود فيه
استكمال الرشد وقد أحس باحتياجه الى عضد بقوى ساعده وظهير يقتسم
معه حمل أعباء المملكة الواسعة وكان مقسيميانوس هرقل من أبناء وطنه
ومن أشجع الجند الرومانى لكنه فظ غليظ الطبع دنىء الاصل كان أبوه
من رعاة الماشية وتربى الابن فى العسكرية حتى انتظم فى سلك الشجعان
فأدناه الامبراطور وقاسمه العسكرية وساواه بنفسه فى نفوذ الكلمة وتنفيذ
الاحكام ولكن اقتسم القيصران الامبراطورية الرومانية وبلادها قسمة
مهايأة وتراض فأبقى دقلطيانوس لنفسه الاقطار المشرقية وخصص لشريكه
تدبير الاقطار المغربية وجعل مقر حكومة مقسيميانوس مدينة ميلان
بايطاليا وامتاز دقلطيانوس على شريكه بملاحظة عموم مصالح البلاد الرومانية
مشرقية أو مغربية وجعل دار اقامته فى مدينة ازمير باقليم برسة فهجرت
مدينة رومة وانسلخ عنها كونها دار السلطنة الرومانية من عهد هذه المقاسمة
التى وقعت فى سنة ٣٢٣ قبل الهجرة فكان هذان القيصران
يشتركان فى تدبير المملكة معا مع غاية الوفاق وتواطئ الرأى فكان دقلطيانوس
رأس الدولة ومقسيميانوس عضدها

ولما ذهب مقسيميانوس الى الاقطار المغربية التى اختص بتدبيرها كان
الفلاحون ببلاد الغالية وهى فرانسا وما جاورها عاصين على الدولة الرومانية
مثيرين للفتن والشرور فأسكن فتنتهم وأدخلهم تحت الطاعة والانقياد وكان
قد ظهر ببلاد الانكليز رئيس خارج يدعى قارسيوس اجتمع عليه عصب
الاشقياء من أهل الصيال وقطاع الطريق وتصدى معهم للايذاء وقصد أن
يتشبث بذلك لكثر حزبه ويستقل بمملكة الانكليز ويفصلها من حكم
الرومانيين فاستفحل أمر هذا الخارج حتى ان مقسيميانوس حاربه بجنوده
بدون طائل فلما ظهر عجز مقسيميانوس عن ادخاله ومن معه من الافرنج تحت
الطاعة اضطر الى الاستعانة على هذا الشق بشريكين آخرين يجعلهما
قيصرين فانتخب لذلك قسطنقيوس خيورس من أهالى سواحل ايطاليا من
بيت مجد وشرف وانتخب قيصرا ثانيا يسمى والبرس الراعى ويقال له غالبرس

أيضا فألبسهما حلة القيصرية فصارا قيصرين منصبا وعنوانا وقد صار عاقبة أمرهما أن ورثا بلاد قسطنطيوس ودقلطيانوس كما يأتى بيان ذلك وكان وقوع هذه المقاسمة والتشريك فى سنة ٣٣٠ قبل الهجرة فاجتمع على حكومة الدولة الرومانية أربع ملوك ملكان كبيران يلقب كل منهما بأغسطس وهما مقسيميانوس ودقلطيانوس وملكان دونهما فى الرتبة يلقب كل منهما قيصرا وهما قسطنقيوس وغاليرس وكانت تسمى هذه الحكومة الرومانية اذ ذاك بالدولة الرباعية فكان هذا الترتيب المشتمل على قسمة المهايأة تمهيدا لانفصال رومة وقسطنطينية وامتياز كل منهما فيما بعد بقيصر حيث اقتدى هاتان المدينتان فيما بعد بهذا الترتيب وانما الفرق بين المشاركة السابقة واللاحقة أن الدولة الرومانية فى الاولى باقية على وحدتها حافظة لكليتها الجسمية لم يحصل فيها تمزيق لان القيصر فى الحقيقة انما هو دقلطيانوس وحده حيث بيده زمام المملكة والرياسة العمومية وشركاؤه فى الواقع ونفس الامر انما هم أعوان تابعون له كالوزراء واما المشاركة اللاحقة فالمقاسمة فيها افرازية كل قيصر يملك بلاده كما سيأتى بيانه

وهذه الشركة الرباعية قد أفادت فوائد جمة وتعضدت بها الدولة حتى صارت لا يخشى عليها أدنى شئ فان قسطنقيوس قهر أئمة الافرنجة وهزمهم شر هزيمة كما ان غاليوس دفع الفرس وغلبهم ومع هذا فانتجت هذه الشركة فيما بعد ما أدى الى اختلال الحال وظهور مالا خير فيه من الجدال كما فى الشركة الثنائية السابقة اذ من المعلوم أنه لا يصلح اسدان فى غاب ولا سيفان صارمان فى قراب ويسع الحصير الصغير مائة فقير ولا يسع ملكين اقليم واسع الرحاب وأدل دليل على ذلك وأقوى شاهد ما حصل فى القرن السابق وما قبله بمصر بين الاوجقلية وبين الكوليمان اذ لا زال الشقاق بينهم يحرك بالشركة من ضغن القلوب عنادا وعنتا وحسبك لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا

وفى أثناء انتصار هذين القيصرين كان دقلطيانوس مجتهدا فى تحسين الادارة الملكية وتهذيب الاحكام والقوانين السياسية وتسوية الخواص والعوام فى الحكومية وادخال الجنود تحت القوانين والاحكام العسكرية ونشر لوائح الضبط والربط وقد اشتغل أيضا هذا القيصر بتحسين أحوال مدينة

ازميروانطاكيا وحمص وقرطاجنه وقد جدد هذا الامبراطور فى الديوان الرومانى الرسوم والآداب المشرقية وزينة السلطنة والطنطنة على عادة سلاطين المشرق من الفرس وغيرهم ولم تكن هذه الآداب معهودة فى دواوينهم

ولما صارت المقاسمة الرباعية وتوزيع الاقاليم بين الملوك الاربعة وقعت مصر من ضمن بلاد المشرق التى صارت لدقلطيانوس وكان نائبا عليها شخص يقال له أخليوس ويسمى آجله وكان قد تغلب عليها النفسه واستبد بحكمها فبادر دقلطيانوس أن يعيدها كما كانت ويدخلها فى الحكومة الرومانية فحاصر مدينة الاسكندرية وقطع خلجان النيل لتصريف مياهه التى تجرى فيها السفن ليمنع عن هذه المدينة الميرة والذخيرة فضيق على خصمه واستولى على الاسكندرية بعد حصار ثمانية أشهر وبعد أخذها عنوة استعمل هذا القيصر أنواع الظلم والجبر وتجاوز الحدود فى ذلك وارتكب مالا يخطر على بال أحد من المآثم والمظالم فقد حرق مدينة الاسكندرية وسبى أهلها وأغرى عليهم جنده فعاثوا فى الارض وأهلكوا الحرث والنسل حتى حكى بعض أحبار النصارى أن هذا القيصر ركب ظهر فرسه وأمر جنده أن لا يتركوا القتل مالم تسل الدماء على الارض وتعلوا حتى يصل الدم الى ركبة فرسه قال بعض المؤرخين فكان من الالطاف الالهية أن فرس هذا القيصر سقطت به على الارض فتلوثت ركبتاها بالدماء فنفذ كلامه فى الجملة فأبطلوا القتل ولهذا صار حكم دقلطيانوس على الرومانيين تاريخا للمصريين تؤرخ به القبط الوقائع ويسمونه تاريخ الشهداء ويوافق سنة ٢٣٩ قبل الهجرة وتسعة وثلاثين يوما فكانت نصرة دقلطيانوس على آجله كأنها فتوح لمصر جديد من طرف الرومانيين ومفتاح الخير للمصريين وذلك لان هذا القيصر بعد ماصار منه ماصار من الجور والظلم عاد الى سلوك الاستقامة والانصاف عقب تمكنه بالنصرة على العاصين فعمل لمصر قوانين خاصة وصالح أهل الصعيد وترك لهم من جنوب أسوان جهة الشلالات يستبدون بحكمه ويرابطون فى الثغور والحدود ويحفظونها من هجوم الاعداء ورتب لهم الجوامك والعلوفات اللازمة فى نظير المحافظة

وقد كان والبرس جبروتيا جلفا من الاجلاف جهورى الصوت مزعجا فى حركاته وسكناته يحسد دقلطيانوس على لقب أغسطس ساعيا فى حيازة هذا اللقب لنفسه مدمن التهديد والتخويف لدقلطيانوس وهو الذى أغرى على تعذيب النصارى فى الشدة العاشرة التى هى آخر الشدائد الفظيعة فانه عذبهم بسائر أنواع التعذيبات وأوقع فيهم القتل وكان يحملهم على الردة عن دين عيسى عليه السلام والرجوع لعبادة الاصنام وقد أحرق القصر الملوكى مرتين واتهم أهل الديوان الرومانى أنهم حرضوا الاهالى على قتاله فهذا القيصر يعنى والريوس هو الذى تسبب فى سفك الدماء بسائر الاقاليم الرومانية ولو أن الشدة على النصارى بالديار المصرية فى أيام دقلطيانوس كان ابتداؤها لنكبة خصوص النصارى الا أنه انتهى بهم الامر حيث عم الخطر أنهم اشتركوا فى المغضوبية والنكبات مع أرباب العقائد القديمة المصرية فعمت النقمة للمتمسكين بالنصرانية أو بدين الصابئة بالديار المصرية فتسبب عن عموم النقمة للطرفين تقارب النصارى والصابئة من بعضهم وتودد بعضهم لبعض وعداوتهم للحكومة الرومانية واشمئزاز نفوسهم منها ولهذا الداعى طالت مدة المغضوبية من الدولة على الطرفين ودليل تحزب الطرفين على الحكومة الرومانية أن أصحاب العقائد المصرية القديمة أنقذوا النصارى الذين ركنوا اليهم واحتموا بجنابهم ولم يمكروا بهم ومع ذلك فاختلاف العقائد جاهلية ونصرانية واختلاف مذاهب النصارى وتشعبهم الى فرق متباينة وكثرة المشاجرات والمناقشات فى الاديان كل هذا انشأ عنه مفاسد عظيمة لاسيما الاختلاف فى المذاهب النصرانية وكثرة الجدال فيها ومع ذلك فالعقوبات الواقعة على النصارى وتعذيبهم بالامر القيصرى مع الشدة والقساوة لم تمنع انتشار دين النصرانية فى الاقطار الرومانية ولم يكن الدين العيسوى موجبا لضعفها وانحطاطها الاتبعا وانما الذى أضعف بالاصالة هذه الدولة على التدريج انما هو تقسيم المملكة تقسيما جديدا بانتخاب دقلطيانوس لشركائه لانه ولو أفاد النصرة على الاعداء من جهة فقد ترتب عنه من جهة أخرى طمع رؤساء الاقاليم فى جميع الجهات بالاستقلال والانفصال وقد حدث عنه أيضا ما لا يطاق من الحروب الداخلية والخارجية

ويضاف

ويضاف الى ذلك ماهو كامن فى هذه المملكة من المصائب والنوائب الخصوصية فكان صعود هؤلاء القياصرة على سرير الملك نوعا من أنواع المصائب على الحكومة المركزية مضافا الى مصائب أخرى خصوصية محلية وبقى الامر على هذه الحالة من ايام دقلطيانوس الى أيام قسطنطين

ولما كان دقلطيانوس حين حقد غالبرس عليه قد كبر سنه ووهن عظمه وكان لايمكنه أن يقاوم ذلك القيصر و يصده عن مرامه ولا أن يجيبه الى التماساته الصعبة ولا يستطيع مخالفته خلع نفسه من المملكة طوعا واختيارا فى سنة ٣٢١ قبل الهجرة وانزوى فى أرضه واشتغل بالزراعة والفلاحة واقتدى به فى ذلك مقسميانوس الشريك الآخر فعزل نفسه ولم يبق من القيصرية الرباعية الا غالبرس وقسطنقيوس خيورس فصفا الوقت لغالبرس وتصرف فى الامبراطورية كما شاء

وتلخيص عبارة المقريزى ان دقلطيانوس أحد ملوك الروم المعروفين بالقياصرة كان من غير بيت الملك فلما ملك تجبر واستد ملكه الى مدائن الاكاسرة ومدينة بابل واتخذ تخت ملكه مدينة انطاكية واستخلف على مدينة رومة وجعل لنفسه بلاد الشأم ومصر الى أقصى المغرب وخالف عليه أهل مصر والاسكندرية فبعث اليهم وقتل منهم خلقا كثيرا وأوقع بالنصارى فاستباح دماءهم وغلق كنائسهم ومنع من دين النصارى وحمل الناس على عبادة الاصنام وأسرف فى قتل النصارى وهو اخر من عبد الاصنام من ملوك الروم ويقال ان رجلا يقال له آجله ثار بمصر وخرج عن طاعة الروم فسار اليه دقلطيانوس وحصر الاسكندرية ثمانية أشهر حتى أخذ آجله وقتله وعم أرض مصر كلها بالسبى والقتل وكانت أيامه شنيعة قتل فيها من أصناف الامم وهدم من بيوت العبادات مالا يدخل تحت حصر وكانت واقعته بالنصارى هى الشدة العاشرة وهى أشنع شدائدهم وأطولها لانها دامت عليهم مدة عشر سنين لا يفترون ولا يوما واحدا يحرق فيها كنائسهم و يعذب رجالهم و يطلب من استتر منهم أو هرب ليقتل يريد بذلك قطع أثر النصارى وابطال دين النصرانية من الارض فارتد خلائق كثيرة جدا وممن قتل فى الاسكندرية شنو بابطرس بطرق الاسكندرية وقتل معه امرأته وابنتاه بالسيف لامتناعهم من السجود

للاصنام وقتل دقلطيانوس لنصارى مصر يؤرخ به قبط مصر الى يومنا هـذا كماسبق فبين تاريخ دقلطيانوس يعنى أول يوم منـه وبين يوم الخميس أول يوم من سنة الهجرة النبوية ثلثمائة وثمان وثلاثون سنة قمرية وتسعة وثلاثون يوما انتهى كلام المقريزى وقدسبق أنه خلع نفسـه عن الحكومة وانصرف عنها وأبقاها الغاليرس فى سنة ٣٢١ وحسبـه من الفخر أنه دعاه مجلس رومة الى العود للامبراطورية والحكومة فتنصل من ذلك وتنزه وأظهر الانفـة عنها والعزة وأبان أنه لم يكن تركها وعينه فيها وأنه هجرها حليما لاسفيها

(الفصل الثانى والاربعون)

(فى الملك غاليرس قيصر وقسطنقيوس خيورس قيصر)

استقل هذان القيصران بالامبراطورية سنة ٣٢١ قبـل الهجرة وبقى حكمهما الى سـنة ٣١١ فكانت مدة حكمهما نحو عشر سنين لما تولى الامبراطورية العمومية غاليرس اضطر الى أن يشرك معه قسطنقيوس خيورس الذى كان قيصرا على حكومة الغلبـة شركة أغسطوسيه ثم انتخب أيضا قيصرين جديدين أحدهـما يسمى سويرس ويقال له أيضا سوريانوس وكان عسكريا ولكن مجردا عن الفضـل والشجاعـة والثـانى مقسمينوس وكان جلفا من أجلاف الهمج معـدودا من رعاة الغنم وكان قدانفصـل عن الغنم والمرعى عن قرب وانتظـم فى سلك العسكرية بدون فضـل ولا مزية فبهـذا كانت أيضا القيصرية الرومانية رباعية الحكم رئيسها غاليرس قيصر فبمجرد ماوصل هذا الامبراطور الى أقصى آماله من الرياسة الرومانيـة كتب تعدادالاهالى بالاسماء والصفات لضرب المغارم عليهـم ومصادرتهـم فى أموالهم وتكدير صفاء أحوالهم فكانت هذه البدعة على المملكة تعدمن العجائب وتحسب من أكبر المصائب وقد مسح هذا القيصر جميع الاراضى والمزارع وضرب عليها مغارم جسيمة وقاس كروم العنب بالقدم وضرب عليها المغرم وعد الاشجار والمواشى وغير ذلك وصار كل رئيس عائلة أو بيت مجبورا على كتابة عدد أولاده وعبيده وخدمه وحشمه وتقييـد مايملكه من العـقار

والمتاع

والمتاع فى سجلات كتاب المالية حتى ان هذا القيصر أمر بتقرير الاولاد والخدم والعبيد على ما يملكه آباؤهم وساداتهم عسى أن يخالف قولهم قولهم ويظهر المخبأ بل ربما أغراهم المغرون على عدم الموافقة والاخبار بالزيادة لعلهم يصيبون منهم أزيد مما قرروه أولا بالاملاء وقد عين لذلك كله تسجيل خانات فكانوا يحضرون فيها المرضى والمعلولين وأرباب الامراض المزمنة والعاهات المعضلة والعواجز لقيدهم فى دفتر العوائد وتحويلهم وكانت المغارم مضروبة على المولودين والاموات فلم يكن أحد فى أيام هذا القيصر مستثنى من المغارم والمصادرات وكان اذا مات أناس من المسجلين فى دفتر المغارم أو نفق حيوان بالموت من الحيوانات المضروب عليها العوائد وزع ما يخصه على الاحياء بدون فوات شئ من المطلوبات فلم يخل انسان ولا حيوان من ظلم هذا القيصر وعسفه حتى شمل جوره الشحاذين والسائلين والفقراء والمساكين فكان اذا عجز أحد عن أداء المطاليب وأظهر الفقر والمسكنة وسأل الناس ما فى أيديهم أمر بجمع من يتصف بذلك وشحنهم فى السفن وتغريقهم فى البحر ليجتنب الناس المسئلة والتخلق بالمسكنة والفقر حتى لا يتخلص أحد من المغارم ودفع ما ضرب عليه ولكن اقتضت الحكمة الالهية أنه لابد من الاقتصاص من الظالم للمظلوم * وعند الله تجتمع الخصوم *

وذلك ان قسطنقيوس خيورس شريك غالبرس الجائر كان يحكم بلاده بالعدل والاحسان ويرفق برعاياه ليعيشوا فى حجر الامان والاطمئنان فمات فى مدينة يورق ببلاد الانكليز بعد ان عاش عيشة مرضية فأسف لموته جميع الرعية وورث منصبه ابنه قسطنطين الملقب بالاكبر وقد تصادف فى هذا الزمن أنه ثارت فتنة عظيمة فى ايطاليا قتل فيها سويرس أحد الشركاء وتولى بدله الامبراطورية مقسنقوس بن مقسميانوس الذى كان شريكا لدقلطيانوس فاستشاط والبرس من ذلك غيظا واستغاث بدقلطيانوس الذى كان سببا فى خلعه وكان دقلطيانوس أقام فى مدينة سالونه وانزوى فيها واشتغل بالحرث والغرس وعاش عيشة هنية فلما كتب اليه والبرس يعرض عليه المشاركة فى الامبراطورية أجابه بقوله أريد أن تحضر عندى لترى الخس المورق المخضر الذى غرسته بمدينة سالونه فلعلك لو سرحت النظر فى هذا

الغرس النضير لا تخاطبني أبدا فى شأن المملكة فلما رأى منه الامتناع فى العود الى الامبراطورية انتخب شخصا غيره يسمى ليقنيوس ولقبه بعنوان أغسطس فكان هذا الانتخاب آخر أفعال غاليرس وغاية تدبيره فرض عقب ذلك مرضا شديدا حل به على حين غفلة فانمل جسمه وتقرح وقاسى ما قاسى من حدة الالم الذى اشتد به وبرح فمات حيث تناهى به الوجع وما أغنى عنه ماله وماجمع وتولى بعده مقسمينوس الثانى شريكه فى الامبراطورية واستولى على الرياسة العليا على الدولة الرومانية وذلك فى سنة ٣١١ قبل الهجرة المحمديه على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

(الفصل الثالث والاربعون)

فى الملك مقسمينوس قيصر الثانى وقسطنطين قيصر الاكبر ومقسنقوس قيصر وليقنيوس قيصر

كانت مدة حكم هؤلاء الشركاء فى الحكومة الرباعية من سنة ٣١١ الى سنة ٢٩٩ فهو ثلاث عشرة سنة

فقد اجتمع على قبض زمام الدولة الرومانية فى هذا العهد أربعة من الامبراطرة ولاشك فى ترقب الشقاق بينهم وأنه يحصل ولابد ومن عادة الشقاق أن يترتب عليه الحرب فقد اتحد قسطنطين مع ليقنيوس واتحد أيضا مقسنقوس مع مقسمينوس فحدث من هذا الاتحاد حزبان متخالفان متباينان بالكلية فكان مقسنقوس حاكما على الايطاليانية وقد سلك معهم مسلك الظلم والجور فاشتد عليهم الامر وفشا فيهم العسف والجبر فاستغاثوا بقسطنطين ليخلصهم من ظلم قيصرهم وكان قسطنطين المذكور مشهورا بكمال الرأفة والشفقة وغاية الشجاعة وبالمحاماة عن الملة النصرانية ولكن لم يكن فى امكانه أن يجهز من الجنود الا أربعين ألف مقاتل وكان عساكر خصمه تنيف عن مائة وستين ألف نفس فلهذا تردد قسطنطين فى اعانة الطليانية وصار يقدم رجلا ويؤخر أخرى ثم صمم أخيرا على الاعانة لوجود مرجحين اقتضيا تصميمه على الحرب وذلك أنه تصور له ولجميع جنده أنهم رأوا فى السماء على دارة كوكب الشمس شكل صليب مكتوب عليه بالرومية أنت تغلب عدائم

رأى فى المنام حبرا من أحبار النصارى يأمره بأن يتخذ صورة الصليب شعار القيصرية على سلاح جنوده وعلى أعلامه وبنوده فمن هذا الوقت اعتقد قسطنطين على هاتين الحادثتين فى حرب خصمه وجزم بالنصرة عليه وجعل شعار الصليب على الاسلحة والبيارق والرايات فى القيصرة الرومانية وكانت قبل ذلك شعار القياصرة عبارة عن صور صنمية فابتدأ قسطنطين بأن اتخذ لنفسه بيرقا مطرزا بالقصب ومكللا بالجواهر على شكل صليبى ورقم عليه اسم عيسى بن مريم عليه السلام بالحروف الرومية وصور المسيح متوجا بتاج من الذهب ثم أمر قسطنطين جنوده أن يرسم كل منهم صورة الصليب على كنانته وسلاحه فأجابوه جميعا الى ذلك وسار بهم حتى اجتازوا جبل ألبة بايطاليا فتقاتلوا مع جيشين عظيمين من جيوش خصمهم فهزموا الجيشين ثم استمروا فى طريقهم حتى وصلوا جبلا يسمى جبل مليوس تحت أسوار رومة وكان مقسنقوس قد صف هنالك جميع جنوده ليتقوى بهم على جنود خصمه قسطنطين فانهزمت جيوشه فى أول صدمة ففروا هاربين وكانت النصرة لجند قسطنطين وفى صبيحة اليوم الثانى وجد مقسنقوس غريقا فى نهر رومة وكان ذلك فى سنة ٣١٠ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

ثم بعد ذلك بسنة انتصر ليقنيوس رفيق قسطنطين على مقسيمينوس قيصر وقبض عليه وجبره على قتل نفسه فبهذا ارتفع شأن قسطنطين من ذلك الوقت واستفحل أمره وقويت شوكته وعظم قدره فحقد عليه رفيقه ليقنيوس غيرة منه وحسدا فناواه وقصد أن يصده عن مشروعاته ويمنعه عن جولانه وتقلباته فوقع الحرب بينهما فانهزم ليقنيوس وقتل فى المعركة فبقى قسطنطين منفردا بالمملكة الرومانية بدون مشارك فيها ولا منازع وكان ذلك سنة ٢٩٩ قبل الهجرة ودخل رومة بموكب عظيم حسب العادة عقب ما حصل له من الاقبال والسعادة فجعل الصليب زينة موكبه وعلامة طالع كوكبه حيث انتصر به وصمم على أن يدخل فى دينه ومذهبه فصور صورة نفسه بشكل تمثال قابضا بيده على صليب فعد أهل رومة ذلك من أعجب الاعاجيب لما ان عادة قياصرة رومة ان أحدهم اذا دخلها فى موكب حربه

أو صلبه قبض بيده على رمحه ولم تبطل هذه العادة عندهم الى أن أحدث قسطنطين عادة الصليب مع كونه الى ذلك العهد لم يكن قط قد تنصر وبما فكان هذا من الغريب اذ بنى ذلك كله على تخيلات وأوهام أو أضغاث أحلام ولو قبض تمثاله على شكل الانجيل لكان الاصوب لان عيسى عليه الصلاة والسلام رفعه الله اليه ولم يقتل ولم يصلب ومما نسب للفخر الرازى أو للعارف النابلسى

عجبا للمسيح بين النصارى * والى الله والدا نسبوه
أسلموه الى اليهود وقالوا * انهم بعد قتله صلبوه
فاذا كان مايقولون حقا * فسلوهم فأين كان أبوه
فاذا كان راضيا بقضاهم * فاشكروهم لاجل ماصنعوه
واذا كان ساخطا الاذاهم * فاعبدوهم لانهم غلبوه

ولا يخرجهم من الورطة أن الصلب وقع على الناسوت لانهم قالوا الاله واحد مركب من ثلاث أقانيم والاقنوم كلمة يونانية معناه الاصل أقنوم الوجود ويعبرون عنه بالاب وأقنوم العلم ويعبرون عنه بالابن وبالكلمة وأقنوم الحياة ويعبرون عنه بروح القدس ولهم فى ذلك تناقضات ومذاهب مختلفة فمن قائل حل ذلك فى عيسى فانقلب ناسوته لاهوتا ومن قائل عيسى هو الله ومن قائل عيسى ابن الله ومن قائل عيسى رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه وقد قيل لهم لم قلتم عيسى اله أو ابن الله فقالوا الدليل انه كان يفعل مالا يفعله الا الاله يحيي الموتى ويبرئ الاكمه والابرص فقيل لهم قد يتصف بهذه الصفات من ليس باله اذ يجوز ذلك فى حق الآدميين والحيوانات والجمادات ولو عدم الدليل لانه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول ثم قيل لهم لم خصصتم تركيب الاله من الاقانيم الثلاثة وهى الوجود الذى عبرتم عنه بالاب والعلم الذى عبرتم عنه بالابن والكلمة والحياة التى عبرتم عنها بروح القدس فقالوا ان الابداع والايجاد لا يتأتى الا بها فقيل لهم بل هو يتوقف على صفات أخر كالقدرة والارادة فلم يجيبوا بجواب مفيد وفى هذا القدر كفاية فلا يحتاج الى المزيد فيجب علينا الجزم بأنه رسول الله وأنه من أولى العزم ومن أنكر نبوته ورسالته يكفر

محمد ابراهيم موسى كليمه * فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم

فعيسى عليه السلام من الخمسة والعشرين نبيا الذين يجب على المكلف معرفتهم تفصيلا كما فى قول بعضهم

حتم على كل ذى التكليف معرفة * بأنبياء على التفصيل قد علموا

فى تلك حجتنا منهم ثمانية * من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

ادريس هود شعيب صالح وكذا * ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وأشار بقوله فى تلك حجتنا الى الآية الشريفة من سورة الانعام وهى قوله تعالى وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء انّ ربك حكيم عليم ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين واسمعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين فأولهم وأفضلهم نبينا صلى الله عليه وسلم

فانى وان كنت ابن آدم صورة * فلى فيه معنى شاهد بأبوتى

ولله در البوصيرى حيث قال

دع ما ادّعته النصارى فى نبيهم * واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

فانّ فضل رسول الله ليس له * حدّ فيعرب عنه ناطق بفم

(وقوله)

وكلهم من رسول الله ملتمس * غرفا من البحر أو رشفا من الديم

وأمته خير أمة أخرجت للناس وعلماؤها أكرم العلماء

(الفصل الرابع والاربعون)

(فى انفراد الملك قسطنطين الاكبر بالامبراطورية الرومانية)

انفرد هذا القيصر بالامبراطورية الرومانية فى سنة ٢٩٩ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ٢٨٥ فكانت مدة انفراده بالحكم نحو أربع عشرة سنة

لما استبد قسطنطين الاكبر بالقيصرية الرومانية دخل مدينة رومة بموكب

حافل مؤيدا منصورا فلم يلق من أهل هذه المدينة بشاشة ولا طلاقة وجه ولا حسن اقبال عليه اذلم يفرحوا بقدومه ولا بمنصبه بل صاروا يسخرون به ويقدحون فيه تصريحا وتلويحا ويطعنون فى عرضه بدون أصل ولا فصل والحامل لهم على ذلك ميله الى حماية دين النصرانية فغضب من وقوعهم فيه وادمانهم على عبادة الاوثان فرغبت نفسه عن مدينتهم وصمم على أن يبنى مدينة عظيمة غير رومة ويجعلها دار ملكه ومقر حكومته فطمح نظره الى مدينة بيزنطيا لحسن موقعها بين أوروبا وآسيا ولكونها فى منتزه عظيم البقعة مطلة على ثلاثة أبحر فعما قريب رسمها وبنى أسوارها وهيأ كلها وقصورها وحماماتها وسقاياتها وقصباتها وأتمها على أحسن حال فرغب الاهالى فى سكناها لتعدد المنافع والفوائد وهرع اليها الناس من جميع الاقطار واشتهرت باسم القسطنطينية وكان اتمامها سنة ٢٨٣ قبل الهجرة وتحوّل اليها تخت الدولة الرومانية

وفى أثناء ذلك أصلح قسطنطين حكومة رومة والحكومات الرومانية التابعة لها واعتنى باصلاح حكومة الديار المصرية فهذبها ولطف حالها على التدريج ومن المعلوم انه بتحويل دار اقامته بالمشرق ساعدته عوائد المشرق ومزاج قطره واعتدال طبيعته على تحسين الاخلاق الرومانية وتهذيبها والتغيير والتبديل فيها بالاصلاح لاسيما ديار مصر وكان قد تعين من طرف القيصر قائد لحكومة المشرق يعنى رئيسا عاما وكانت مصر داخلة تحت قيادته وحكمه وأمره ونهيه بمقتضى الاصول الرسمية ولكن لم تكن عساكر مصر تحت امارته وتصرفه بل كانت تحت تصرف قائد مخصوص تابع مباشرة لرئيس عموم الدولة الرومانية لا يطيع قائد الحكومة المشرقية وذلك لان مصر لما كانت مأخوذة من البطالسة عدها الرومانيون حدودا وثغورا لممالك رومة وكان للحدود والثغور والرباطات أمير مخصوص للمحافظة من طرف رومة وكان منوطا بتحصيل العوائد والاموال من خصوص الحدود والثغور ليتوزع بعضها على الخزينة الرومانية العمومية يعنى بيت مال المملكة وعلى الخزينة الخصوصية يعنى خزينة القيصر وكان لمصر أيضا نائب ملكى قائمقام القيصر كالملك على مصر جل أشغاله اجراء العمليات الهندسية فيما فيه

اصلاح أحوال النيل للسقى والزراعة والاسفار ونقل الغلال من مصر الى القسطنطينية وكان رؤساء الاقاليم المصرية وحكامها وعمالها لاينقادون لاوامر هذا النائب غالبا بل كانوا المخالفته أقرب منهم للمساعدة على اجراء احكامه وتنفيذ أوامره ونواهيه حتى صار حاكم الصعيد فى أدنى زمن فى مقام النائب المذكور وكان هذا ممايخل بانتظام الحكومة المصرية وبانقيادها للرومانيين فشرع الرومانيون على تداول الايام فى تمكين دولتهم بمصر بتغيير أسماء الاقاليم المصرية وتقسيمها أقساما صغيرة وتكثير العمالات لاضعاف قوة الحكام وليحكموها بالسهولة فبكثرة العمليات والعمال كثر الظلم فيما بعد على الرعايا وانضم الى ذلك كراهة المصريين جميعا للحكومة الرومانية مع مايضاف الى ذلك من اختلاف المذاهب العيسوية وتشعبها الى شعب كثيرة متعادية كما سيأتى ذكره فى محله

وبالجملة فمدة استقلال قسطنطين بالحكم كانت أربع عشرة سنة وكان فى الغالب يسعى فى تميم مشروع دقلطيانوس بأن يجعل المملكة الرومانية دولة ملوكية واحدة الحكم والحاكم يستوى فى قوانينها وأحكامها جميع أهاليها بدون امتيازات خصوصية بحيث لايكون فيها حكومة أشراف ولاقضاة ولاملتزمين وانما يكون حكامها أمراء من طرف القيصر يوليهم ويعزلهم فلهذا قسم قسطنطين المملكة أقساما ادارية بين أولاده الثلاثة وهم قسطنطين وقسطنطوس وقسطنطقوس وابن عمه دلماقوس وجعل القيصر لنفسه الرياسة العمومية على هؤلاء القياصرة الاربعة الذين هم عبارة عن قائمقامات كل منهم نائب فى ولايته عن القيصر فبهذا الترتيب أصلح حال الحكومة الملكية وقد أصلح أيضا حال الجيوش الرومانية بالتراتيب اللازمة والتنظيمات المستحسنة فقسم الجيوش الى فرق كالايالات وجعل كل فرقة ألفا وخمسمائة نفس وجعل على الفرقة أميرا فبهذا صار أمير كل فرقة على حدته لايخشى منه على القيصر لانحصار امارته بخلاف الامارة السابقة فى أيام غيره فان أمير الجيش كان قوى الشوكة لكثرة جنده وأيضا ترتيب الفرق العسكرية بهذه المثابة فيه مزية سهولة تعليم الفرقة ولما كان أهالى البلاد الرومانية قد تناقص عددهم بالحروب الداخلية والخارجية فكانت لاتفى

بكفاية هذه الفرق العديدة وتكميل ما تناقص منها من الاهالى اضطر القيصر أن يكمل الفرق المطلوبة من الاجانب والاغراب وأن ينظمهم فى سلك العسكرية للاحتياج الى ذلك فعاد هذا على المملكة الرومانية بالضرر والمفسدة لوجود الدخيل فى عساكرهم وفى آخر أيام حكومة قسطنطين اضطر هذا القيصر الى قتال فارس وطلب أن يتعمد ويتنصر فغطس فى ماء المعمودية عند مدينة أزميد على يد أسقف هذه المدينة ومات هنالك

ومع حسن ترتيب قسطنطين ووفور عقله الى هذا الحد كان لا يخلو من ارتكاب بعض الافعال الجبرية المذمومة كاخراجه اليهود من القدس وجبرهم على التنصر وقتل من امتنع منهم فأبى أكثرهم وقتل بل من تنصر منهم لم يخل من النكبة حيث جمع هذا القيصر من تنصر من اليهود وحشرهم فى الكنيسة يوم عيد الفصح وأمرهم بأكل لحم الخنزير الممنوع فى دين اليهودية فأبى أكثرهم أن يذوقه فقتل فكان المقتول منهم خلائق كثيرون جدا فى هذه المحنة

وليس هذا بعجيب فقد تعصب هذا القيصر دون غيره لدين النصرانية ونشره وذب عنه ونصره وآوى أهله وتجاوز الحد فى الحمية الدينية حتى انه قبل تنصره كان أصدر أمره المشهور الصادر منه بمدينة ميلان سنة ٣٠٩ قبل الهجرة برخصة التدين بالدين النصرانى واباحة التمسك به وبأن المتنصرين جميعا يكونون تحت حمايته ومن هذا الوقت انتشر دين عيسى عليه السلام وصار دين الحكومة والحكام ومعتقد أهل الحل والعقد وأرباب الاحكام وكانوا جميعا قبل ذلك عبدة أوثان وأصنام ولازال الحال على ذلك الى أن جمع فى سنة ٢٨٧ قبل الهجرة فى مدينة نيقه بايالة بروسه المجمع الاول الذى تهذبت فيه علامة الامانة النصرانية الباقية الى الآن التى هى مذهب الكنيسة القاثوليقية ولم يكن من القياصرة أشد حمية منه على هذا الدين لاسيما بعد الدخول فيه فقد كان يعظم الاساقفة ويعاملهم معاملة الاخوان ويجمعهم على خوانه وقد أمر فى سائر أطراف وأكناف المملكة بصلاة يوم الاحد وجعل هذا اليوم عيدا فى الاسبوع وتعطيل جميع الاشغال فيه وصار العمل على ذلك سنة متبعة عند سائر العيسوية فى سائر الازمان وقد أبطل

المصارعة وعيد الزهرة وهدم هياكلها لما وجد فيها من وجود الاخلاق القبيحة فصار عباد الاوثان يدخلون بكثرة فى دين النصرانية ورتب فى جميع المملكة مرابطين ومحافظين من الامراء وأقطعهم الاراضى فى نظير خداماتهم وجعلها وراثة من بعدهم فى أعقابهم ومنع جميع مافيه فساد الاخلاق وخفف العوائد والاموال بالتعديل ولطف أمور المصادرات والاسر والاسترقاق وأبطل الربا وكان له ميل قوى للعلوم والفنون فلذلك كان يعين عليها وقد عافى أهل العلوم والآداب من جميع العوائد والاثقال وأباح لهم أن يكون لهم مزايا العسكرية للتشريف وأن يسكنوا فى مساكن العسكرية ومنازلهم وجعل هذا المزية لنسائهم وأولادهم وقد مات هذا القيصر فى سنة ٢٨٥ قبل الهجرة بعد أن حكم ثلاثين سنة اشتراكا وانفرادا وبموته تقاسم أولاده المملكة مساهمة

(الفصل الخامس والاربعون)

(فى الملوك الثلاثة وهم قسطنطين الثانى وقسطنطوس الاول وقسطنقوس)

قد تقاسم فى سنة ٢٨٥ أولاد قسطنطين الاكبر الممالك الرومانية بينهم مساهمة ومحاصة وصار كل منهم قيصرا على حصته مستقلا بها فأصاب قسطنطوس الاول الايالات المغربية وخص قسطنقوس الايالات المشرقية وأقيم قسطنطين الثانى رئيسا على الاقطار المشرقية والمغربية فبهذا صار امبراطورا عموميا وحاكما كليا على أخويه وقتلوا بقية عائلة قسطنطين الاكبر لقطع عرق المطامع فى المملكة ولم يبق منهم على قيد الحياة الا اثنان من أقاربه وهما اولوس ويوليانوس الملقب بالمرتد فان مرقس أحد الاساقفة تشفع فى ابقائهما وخلاصهما من المقتلة العمومية فتلقب كل من القياصرة الثلاثة بلقب أغسطس فعما قليل وقع بين الاخوة الثلاثة كمال الشقاق والتفاقم حيث لم يرض قسطنطين بنصيبه من المملكة وهو الملاحظة العمومية وتدبير الايالات المشرقية والمغربية بوجه التفتيش فصمم على قتال أخيه قسطنطوس فجرد عليه وسار اليه بخيله ورجله وقاتله فهلك قسطنطين فى أثناء المقاتلة وكان ذلك فى سنة ٢٨٢ وتم التمكن لقسطنطوس ولكنه لم يحصل على الراحة

ولا فرح بعد قتل أخيه قسطنطين الثانى بهدء ولا استراحة بل ظهر له فى ايالاته المغربية خصم ألدمن أخيه يسمى مانيقوس كان أصله من الاسارى من سبى جرمانيا وتربى عند الرومانيين وارتقى فى العسكرية وتقلب متهافى الدرجات العلية فاغتصب المنصب الملوكى بالبلاد المغربية ودعا لنفسه بالقيصرية وتبعه خلق كثير فسار اليه قسطنطوس فهلك قسطنطوس المذكور سنة ٢٧٢ قبل الهجرة فى المعركة فلما أحس أخوه قسطنقوس بذلك صمم على أخذ ثار أخيه وبلاده بقتل مانيقوس الغاصب للمملكة الرومانية فسار اليه وقتله وأخذ بثار أخيه وانفرد بالدولة الرومانية عقب هذه الواقعة العظيمة ولكن أشرك فيها قريبه والوس ولقبه قيصرا وأحال عليه محافظة المشرق وأبقى الايالات المغربية وعموم السياسة والتدبير فى الدولة الرومانية بتمامها لنفسه فلم يفلح والوس فى تدبير الحكومة لانه كان حديث نعمة وكان فاسد الاخلاق شره النفس وقل أن يفلح من اجتمعت فيه هذه الخصال فقتله قسطنقوس فى سنة ٢٦٨ قبل الهجرة

وبهذا صارت الدولة الرومانية على خطر عظيم يخشى عليها التلف والانحلال بتحويل هذه الاحوال وكانت أمة الافرنجة تهجم عليها من جهة المغرب وأكاسرة الفرس تهددها من جهة المشرق وكان الامبراطور قسطنقوس وحده لا يستطيع الذب عنها فكان الامر مقتضيا لتنصيب قيصر آخر مع هذا الامبراطور يشد به أزره ويصلح به أمره وكان قد بقى من أقارب قسطنطين الاول يوليانوس أخو والوس وكان فى مدرسة مدينة أزميد للتربية والتعليم وكان شابا متدينا بدين النصرانية مشتغلا بالفلسفة والحكمة وقد حصل فى تلك المدرسة الازميدية ما يمتاز به أبناء الاكابر من العلوم والمعارف والآداب واللطائف فجلبه الامبراطور قسطنطوس من مدرسته وجعله قائدا على جنده المعين لقتال الافرنج وناطه بقتال الافرنج فقاتلهم أشد المقاتلة وظهر عليهم ظهورا عجيبا وظفر بهم كال الظفر فحسده الامبراطور على ذلك وحقد عليه وناواه وأراد أن يأخذ منه بعض فرق عسكرية ليضعف بذلك شوكته وكان اذ ذاك سابور ذى الاكتاف زحف على ممالك الرومانيين بآسيا وأخذ مدينة آمد بالجزيرة وكان قسطنطوس يمانع عن هذه البلاد ويحميها من فارس

فاغتنم

فاغتنم هذه الفرصة بطلب العساكر من يوليانوس فأبى العساكر الانفصال عن رئيسهم وخالفوا على الامبراطور وأحدقوا بهذا الرئيس واعتنقوا به وأعلنوا له بالاغسطوسية وبايعوه على ذلك ولكن يوليانوس لم يجبهم الى ذلك وتمنع من قبول المنصب وبكى وناح وأظهر عدم الفرح والانشراح فانتهى الحال بأن جبروه على الرضا والقبول وحملوه على أن يسير بهم حالا الى المشرق لقتال خصمه واراقة دمه فسار اليه فلما التقى الصفان بالمشرق مات قسطنقوس فى مدينة المصيصة سنة ٢٦١ قبل الهجرة فتمت الامبراطورية الرومانية ليوليانوس

وقد كان هذا القيصر حين غزوه الافرنجة فى بلاد الغلية يعنى فرانسا وما جاورها جعل مقر اقامته وكرسى قيصريته فى مدينة لوطيقة التى هى الآن مدينة باريس واشتغل مدة الغزو بتحسين هذه المدينة واصلاحها وادخال العمارية فيها والرفاهية فهى من آثاره الباقية وبموت قسطنقوس انفرد يوليانوس بالدولة الرومانية مشرقا ومغربا فكانت باريس أحب البلاد اليه وكانت مدة حكم أولاد قسطنطين بالمملكة الى انفراد يوليانوس المرتد نحو أربعة وعشرين سنة

(الفصل السادس والاربعون)

(فى الملك يوليانوس قيصر المرتد)

تولى الامبراطورية الرومانية العمومية وانفرد بحكم جميع الرومان فى سنة ٢٦١ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ٢٥٩ فكان مدة استبداده بالولاية العمومية سنتين

قد استحسن العقلاء واستصوب النبلاء من عموم الرومانيين تولية هذا القيصر لما كان يظهر لهم من رسوخه فى الفضل وسلوكه مسلك العدل اذ أبعد من الديوان القيصرى أرباب السخرية والهذيان والمتملقين من الاخصاء والندمان واستعوضهم بارباب الفصاحة والبلاغة والبيان وأهل الفلسفة والحكمة والعرفان فصار يأتى اليه أرباب المعارف والفضائل من كل فج عميق ويدعوهم الى حضور مائدته ولا يختار له من غيرهم حميم ولا صديق ولا حبيب ولا رفيق

وكان قبل تقليده بالمملكة الرومانية مظهر التمسك بدين النصرانية فلما ملك الزمام واستبد بتدبير الاحكام ارتد على رؤس الاشهاد ورفض دين النصرانية ولم يبال بالارتداد بل عاد الى عبادة الاصنام والاوثان وصبا اليه وذب عنه من دون الاديان فاستبان ان اظهاره فى بادية أمره التمسك بدين عيسى كان محض نفاق وأحبولة يصيد بها قلوب المتمسكين بهذا الدين ليصعد على كرسى الحكومة بدون شق العصا واظهار الشقاق اذ كان دين النصرانية اذ ذاك هو الايمان المطلوب والاسلام المرغوب وشتان بين أهل الكتاب وبين الصابئة الذين لا كتاب لهم فلا يميل الى الصابئة والمجوس الا المشركون فى جميع الازمان حتى فى صدر الاسلام ودليل ذلك أنه فى عهده صلى الله عليه وسلم حين كانت الحروب واقعة بين الروم وفارس كان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لانهم أهل كتاب وكان المشركون يميلون الى أهل فارس لانهم أهل أوثان فلما بشر الله تعالى المسلمين بأن الروم سيغلبون فى بضع سنين سر المسلمون بذلك ثم ان أبا بكر رضى الله عنه بادر الى مشركى قريش فأخبرهم بما نزل عليهم فيه فقال أبى بن خلف خاطرنى على ذلك فخاطره على خمس قلائص وقدر له مدة الثلاث سنين ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله كم البضع فقال ما بين الثلاثة الى العشرة فأخبره بما خاطر به أبى بن خلف فقال ما حملك على تقريب المدة فقال الثقة بالله ورسوله فقال النبى صلى الله عليه وسلم عد اليهم فزدهم فى الخطر وازدد فى الاجل فزادهم قلوصين وازدادهم فى الاجل سنتين فأظفر الله تعالى الروم بفارس قبل انقضاء الاجل الثانى تصديقا لتقدير أبى بكر رضى الله عنه وكان أبى قد مات من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبى فقال النبى صلى الله عليه وسلم تصدق به وكانت المخاطرة بينهما قبل تحريم القمار وقد فرح المسلمون بظهور الروم على فارس كما كره المشركون ذلك وقد فرح عباد الاوثان برجوع يوليانوس قيصر الى عبادة الاوثان ورفضه دين عيسى عليه السلام وانحاز اليه من لا خلاق له من الصابئة وامتلأ ديوانه اذ ذاك من أرباب القيافة والمنجمين وأرباب العيافة والعرافين ومن رؤساء دين الصابئين فكان لا يسمع فى ديوانه الا مدح الاصنام والاوثان وزجر الطير وخوارق العادات من كل زور

وبهتان حتى تقلد بنفسه الكهانة وصار رئيس هذه الديانة وكان يفتخر بهذه الرياسة ويعدها من باب الحزم والكياسة فكان محاربا ومعاديا لدين النصرانية لكن لا يتعرض لابطال العقائد المسيحية وانما كان باحثا على اعلاء الملة الوثنية ورفعها على دين عيسى عليه السلام فبذل الهمة فى تقوية عبادة الاصنام وجعل مدار الديانة واخلاص العبادة على الانقياد لها والاستسلام ويأبى الله الا ما أراد فلم يبلغ القيصر مقصوده ولم يتمكن من الحصول على المراد لان التوحيد لا يكون الا بالتمسك بدين قويم يهدى الى صراط مستقيم جاء به الوحى بكتاب الى نبى من الانبياء ورسول من الاصفياء وقد أراد هذا القيصر أن يعضد فاسد ايمانه ويمكن من القلوب حب أوثانه فأمر أمراء دين الصنم أن يشددوا فى التمسك بدينهم على وجه محكم وأن يجتمعوا بكليتهم وجزئيتهم على مكارم الاخلاق ليجذبوا العامة ويكثروا الرفاق فلم تنفع أوامره ولا ساعدته زواجره وكان يعظهم بقوله لهم أليس من العيب والعار على مثلكم أن نصارى القدس يتصدقون على فقرائكم بجزيل الصدقات فضلا عن احسانهم لفقرائهم بالعطايا والانعامات فأنتم أولى بهذه المكارم لاسيما وان سبب فقر فقرائكم انما هو أفعالكم السيئة ومع هذا الوعظ فكان أمناء الصابئة لا يرتضون أن يسلكوا مسالك الاخلاق الحميدة ولا يستطيعون أن يتمسكوا بالفضائل وينتهوا عن الرذائل وكان النصارى فى ذلك العهد بخلاف ذلك سالكين أحسن المسالك

ولما سار يوليانوس للانتقام من الفرس فى مقابلة اساءتهم للدولة الرومانية مدة طويلة تلج فى طريقه فى مدينة قيصرية من اقليم قبادوقيا هيكلا لعبادة الاصنام خربا ووجد فى انطاكيا احتقار أهاليها لعبادة الاصنام فاتهم النصارى بأنهم هم المخربون للهياكل والمتسببون فى تحقير دين الصابئة فأمر بايذائهم واساءتهم ثم بعد ذلك بزمن جازف بنفسه وتجاسر ودخل بلاد فارس وجال فيها وأوغل كل الايغال ولم يبال من شئ ولا خطرت له الهزيمة على بال فانهزم وولى مدبرا امام سابور ذى الاكتاف مقاتلا فى ادباره لعدوه ومظهرا الشجاعة الخاصة والبسالة العسكرية بما به عد من فحول الرجال وكبار الابطال لانه منع عن نفسه وقوعه فى يد الفرس المقتفين أثره فحاول ابعادهم

عنه فى قتاله مع رجوعه القهقرى بجرح فى هذا الحرب فى واقعة عظيمة قهقرته
ومات قتيلا فى قتاله على جمة فى سنة ٢٥٩ قبل الهجرة ومع ذلك
فكانت النصرة له وانما من زرع الاحن لقى المحن وخلفه يويانوس كما سيأتى
وكانت مدة يوليانوس فيها راحة على من لم يكن تنصر من المصريين ممن بقى على
دين آبائه وأجداده فاستمر المصريون الذين لم يتنصروا على عبادة الاصنام
بدون معارض ولا منازع
ولما كان قد بشر نائب مصر القيصر يوليانوس المرتد قبل غزوه للفرس بأن
المصريين قد بحثوا بحثا حثيثا على عجل حديث على شكل العجل أبيس المعبود
لهم النافق فى السابق بالموت وأنه ظهر لهم أنه معبودهم بعينه نسبا وحلية
فرح بذلك فرحا شديدا وهش وبش واستبشر لان المعهود فى هذا القيصر
الرومانى انه كان يحترم العجل المصرى المعبود للمصريين وكان يحلف بحياته
حتى انه حين كتب لنائبه أوقديقس فى شأن البطرق أساناسوس صاحب
كرسى بطرقة الاسكندرية الذى كان انتفى منها ورجع اليها مانصه وحق العجل
أبيس ان لم يخرج هذا البطرق من المدينة حالا لاجعلن على جندك مائة رطل
من الذهب غرامة عليهم وعقابا لهم فى نظير عدم اخراجه فكان هذا القيصر
متجاهرا بحماية دين المصريين القديم وعبادة العجل الذميم كان عليه فى مصر
بذلك الدهر مدار الدين القبطى القديم

والدهر كالدولاب ليس * يدور الا بالبقر

وكان فى عهده قد رجع دين النصرانية القهقرى فلم يشم رائحة القوة الا فى
زمن طيودوسيس قيصر كما سيأتى وقد سبق ان موت يوليانوس قيصر كان فى
سنة ٢٥٩ قبل الهجرة فى قتال الفرس وتولى بعده يويانوس سنة ٢٥٩
قبل الهجرة

(الفصل السابع والاربعون)

(فى الملك يويانوس قيصر)

لما مات يوليانوس قيصر حصل فى الجنود الرومانية وغيرهم كرب شديد بموته
وكانت العساكر الرومانية المنصورة على الفرس فى منقطع من الارض ليس
عندهم شئ من الميرة ولم يكن من العائلة الامبراطورية القسطنقوسية وارث

يتولى الامبراطوريه ولايمكن أن تلبث الحكومة الرومانيـة من غير قيصر فاختاروا امبراطور للرومانيـين يسمى سالسطوس حاكم البلاد المشرقيـة فامتنع من قبول هذا المنصب فاختار الجند رئيس الحرث القيصرى المسمى الاميريويانوس ونصبوه قيصرا عليهـم بالتواطئ التام والاتفاق العام ولم ينتطح فى توليته كبشان وكان تقليده المملكة فى سنة ٢٥٩ قبل الهجرة وبقى الى سنة ٢٥٨ فلم يحكم الاسنة واحدة و بتوليته المملكة عقد الصلح مع سابورذى الاكتاف ملك فارس على شروط مخلة بناموس الدولة الرومانيـة ومزريه بمقامها ثم أبطل جميع أوامر يوليانوس سلفه فى كل مايتعلق بعبادة الاصنام من حمايتها وفيما يتعلق باضرار دين النصرانية ونهى اليهود عن أن يشهروا شعائر دينهـم على رؤس الاشهاد ومع كونه انتصر للدين العيسوى وأبطل عبادة الاصنام لم يكن يستحق رياسة الدولة الرومانية لقلة شهامته فانه فى أيامـه قامت قبائل مغاربه فى بلاد برقة ونهبوا مدن طرابلس الغرب وكان من عماله على هـذه الجهات أمير يسمى أوريقيوس نائب أقاليم طرابلس الغرب فلم يمكن لهذا النائب أن يمنع اغارة هـذه القبائل على بلاده ولاظهرت نتيجة من القيصر المذكور فى ردعهم فبهذه الوسائل و بعـقده الصلح السالف الذكر الذى هو عار على الرومانيـين محض معرة صار هذا القيصر مبغضا للجـميع فوجد ذات يوم من الايام قتيلا على فراشه سنة ٢٥٨ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية

قيـل ان السبب الحقيقى فى قتله هو عقد الصلح المخل بناموس الرومانيـين مع سابورذى الاكتاف كسرى فارس وكان الرومانيون فى ذلك الوقت لازالوا يحافظون على حفظ ناموسهم ولو تضعضعت أحوالهـم ثم ان تاقدأ سلفنا ان سابورذا الاكتاف هو غير سابور بن أردشير وان بينهـما عدة سنوات فى الحكم وبيان ذلك ان أردشير بن بابك بن ساسان أول الطبقـة الساسانيـة التى هى الطبقة الرابعـة من ملوك الفرس أعقب سابور بن أردشير وأن سابور حكـم احدى وثلاثين سنة ثم ملك بعـده ابنه هرمز الاول ابن سابور سنة ٣٥١ قبل الهجرة وكانت مدة حكمه سـنة واحدة وسـتة أشهر وكان عظيم الخلق شديد القوة وكان يلقب هرمز البطل لشجاعته وهو الذى بنى مدينة هرمزمن

كورالاهوازثم ملك بعده ابنه بهرام الاول سنة ٢٥٠ قبل الهجرة وكانت مدة حكمه ثلاث سنين وثلاثة أشهر وكان له حروب مع ملوك الشرق وسار على سيرة آبائه فى حسن السياسة والرفق بالرعية ثم ملك بعده ابنه بهرام الثانى سنة ٢٤٩ قبل الهجرة فحكم سبع عشرة سنة فأقبل فى أول ملكه على اللهو واللعب والنزاهة والصيد لا يفكر فى ملكه ولا رعيته وأقطع الضياع لخواصه وخدمه وحشمه فخربت البلاد وقل ما فى بيوت الاموال وكان تدبير الملك مفوضا الى وزرائه ثم استيقظ من غفلته حيث نصحه موبذان مملكته بقوله أيها الملك ان الملك لا يتم الا بالشريعة ولا قوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قيام للرجال الا بالمال ولا سبيل للمال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين البرية نصبه الرب وجعله قيما وهو الملك فلما سمع الملك ذلك أحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين وأمرهم بالاجراء على رسومهم السالفة فانتظم ملكه حتى كانت ايامه تدعى بالاعياد لما عم الناس من الخصب وشملهم من العدل ثم ملك بعده بهرام الثالث ابن بهرام الثانى ابن بهرام الاول سنة ٢٢٩ قبل الهجرة فحكم أربع سنين وأربعة أشهر وسلك سبيل آبائه من العدل والسياسة وهو الذى يقال له شهنشاه ثم ملك بعده أخوه نرسى بن بهرام ويقال له نرسيس سنة ٢٢٥ قبل الهجرة فحكم تسع سنين ثم ملك بعده ابنه هرمز الثانى ابن نرسى سنة ٢١٢ قبل الهجرة وحكم تسع سنين أيضا ولما مات هرمز نحو سنة ٣١٢ فى أول حكم مقسيميتوس الثانى قيصر الرومانيين لم يكن له ولد وكانت بعض نسائه حاملا فعقد التاج فى هذه السنة على ما فى بطنها فولدت ولدا اسموه سابور الثانى فلما اشتد ظهرت منه نجابة عظيمة من صباه فكان أول ما ظهر منه أنه سمع ضجيج الناس بسبب الزحمة على الجسر الذى على دجلة بالمدائن فقال ما هذه الجلبة فقيل بسبب زحام المارين على الجسر فأمر أن يعمل الى جانب الجسر جسر آخر يكون أحد الجسرين للخارجين والآخر للداخلين فعملوه وزال الزحام وكان سنه اذ ذاك دون السن المعتاد لتمييز مثل هذه الامور المهمة فتعجب الناس من نجابته

وفى أيام صباه طمعت العرب فى بلاده وأخربوها فلما بلغ من العمر ست عشرة

سنة انتخب من فرسان عسكره عدة كثيرة وسار بهم الى العرب وهم من ولد
أياد بن نزار وملكهم يومئذ الحرث الاعز الايادى وكانوا يصيفون بالجزيرة
ويشتون بالعراق وقتل من وجد منهم ووصل الى الحساء والقطيف وشرع
يقتل ولا يقبل فداء ثم سار الى اليمامة وسفك بها الدماء ولا يمر بماء للعرب
الا غوره ولا ببئر الا طمها فعمهم القتل فما أفلت منهم الا نفر لحقوا بأرض الروم
وصار هذا الملك ينزع أكتاف العرب حتى نزع فيما قيل كتف عدد كثير جدا
فلذلك سمى سابور ذا الاكتاف وصار لقبا عليه وقد أتى فى مسيره على بلاد
البحرين وفيها يومئذ بنو تميم فأمعن فى قتلهم وشيخها يومئذ عمرو بن تميم بن مرة
معمرا كثيرا وكان يعلق فى عمود البيت فى قفة قد اتخذت له
فلما سمعوا بمسير سابور اليهم رحلوا وأرادوا حمله معهم فأقسم عليهم أن يتركوه
فى ديارهم وقال أنا هالك اليوم أو غدا ولعل الله ينجيكم من صولة هذا الملك
فخلوا عنه وتركوه فأصبحت خيل سابور فى الديار فلم يجدوا أحدا فلما سمع عمرو
صهيل الخيل وهمهمة الرجال أقبل يصيح بصوت ضعيف فنظروا الى قفة
معلقة فى شجرة هو فيها فأخذوه وجاؤا به الى سابور فلما وضع بين يديه نظر الى
دلائل الهرم ومرور الايام عليه ظاهرة فقال له سابور من أنت أيها الشيخ
الفانى قال أنا عمرو بن تميم وقد بلغت من العمر ما ترى وقد هرب الناس منك
لاسرافك فى القتل وأنا أسألك عن أمر ان أنت أذنت لى فيه فقال له سابور
قل تسمع فقال ما الذى حملك على قتل رعيتك من رجال العرب فقال أقتلهم
لما ارتكبوا فى بلادى وأهل مملكتى فقال عمرو فعلوا ذلك ولست عليهم بقيم
فلما ملكت رجعوا عما كانوا عليه من الفساد هيبة لك قال سابور وأقتلهم
أيضا لانا نجد فى مخزون علمنا وبأخبار أوائلنا أن العرب ستدال علينا قال
عمرو هذا أمر تظنه أم تحققه قال بل أتحققه ولا بد أن يكون ذلك قال عمرو
فان كنت تعلم ذلك فلم تسىء الى العرب والله لئن تبق العرب وتحسن اليهم
ليكافئوا قومك عند ادالة الدولة لهم باحسانك اليهم وان أنت طالت بك المدة
كافؤك عند مصير الامر اليهم فيبقون عليك فقال سابور الرأى ما قلت ولقد
صدقت ونصحت فرفع السيف وانكف عن قتلهم ويشبه أن تكون هذه
الحكاية من كلام الحكويين والقصاص وليس عليها أمارات التواريخ

الواقعية أو أنها واقعة تاريخية داخلها أوضاع الحكويين للتمليح بالغرائب والتمليح للعجائب والافلامعنى لتركنعز يزقوم فى قفة عرضة للنكبة وبالجملة فسابور الذى دوّخ العرب والروم فقد حارب الرومانيين من زمن مقسيمينوس الثانى الى زمن طيودوسيس الاكبر ومما يدل على انتظام مملكة فارس فى هذا العهد وقوتها وشوكتها وحسن تدبيرها أنها استمرت فى قبضة سابور الثانى من ولادته الى وفاته فى مدة اثنتين وسبعين سنة التى هى مدة حكمه على الفرس ولم يحصل فيها فتن ولا شرور وكان موته فى نحو سنة ٢٤٢ قبل الهجرة وتولى بعده أردشير بن هرمز وفى هذه المدة بعينها حصل ما حصل من الحوادث والتغييرات فى دولة الرومانيين وقتل من ملوكهم العدد الكثير مع استدامة الهرج فى مباديها وأثنائها وأواخرها كما يشهد لذلك وصية طيودوسيس قيصر لابنه أرقاديوس حين عهد اليه بمملكة القسطنطينية حيث خاطبه بقوله لو كنت أيها الولد نشأت فى بلاد فارس وعهد الملك بمملكتها لكان عنوانك الكسروى كافيا فى حفظ سرير الملك ولكن نشأت بين ظهرانى الروم وحالهم معلوم وسيأتى الكلام عليه فى ذكر الملك ارقاديوس قيصر فى المقالة الرابعة ان شاء الله تعالى فان هذا القيصر يشير الى ان الامة الرومانية صعبة الانقياد لقياصرتها وان مادة الفتن لا تنحسم أبدا أوان الرومانيين ولو كانوا فى قوة كافية بحيث يستظهرون على فارس الا أنهم كانوا يضطرون الى الصلح معهم على شروط مخلة بالنواميس الرومانية كما وقع ذلك فى زمن الملك يونيانوس قيصر الذى كان عقده للصلح بهذه المثابة سببا فى ذبحه على فراشه سنة ٢٥٨ كما سبق واستعواضه بولنطنيانوس قيصر المشترك مع أخيه والنسوس

(الفصل الثامن والاربعون)

(فى الملك ولنطنيانوس قيصر الاول والملك ولنسوس قيصر أخيه)

كانت مدة ملكهما من سنة ٢٥٨ الى سنة ٢٤٤ قبل الهجرة فهى نحو أربع عشرة سنة

لما قتل يويانوس قيصر اجتمع أعيان الرومان فى مدينة نيقه وقلدوا منصب

الامبراطورية للامبرولنطنيانوس الاول وقد كان مولده ببلاد المجار وكان فظا غليظا شديدا طويل القامة عجيب الخلقة وقد أشرك معه فى المملكة أخاه ولنسوس فخصه بقيصرية البلاد المشرقية وأبقى لنفسه الممالك المغربية واتخذ مقر حكومته مدينة لوطيقة التى هى الآن مدينة باريس وقد بعث من هذه المدينة أمراءه وقواده لمحافظة حدود المملكة مخافة أن تغير عليها قبائل الافرنجية والانكليز والمغاربة وكان من جملة أمرائه الامبرطيودوسيس فاكتسب فى قتاله مع هؤلاء الامم جيد الاوصاف وجميل الاعتبار ونهاية المجد والفخار فصدرت من ديوان باريس الاوامر القيصرية الاكيدة ان كل من اتهم بخيانة دولته ووالس مع الاعداء يعاقب أشد عقاب فصار التشديد فى التفتيش على ذلك وكثر التفحص والتجسس وعمت البلوى البرىء والمتهم وقد تجبر القيصر ولنطنيانوس فى عقاب من رمى بالخيانة بدون اثبات بما لا مزيد عليه من العقاب مما لا يخطر على بال بشر فمن ذلك انه حبس دبين عظيمين مفترسين فى قفص وأجاعهما حتى اذا أراد قتل أحد من المتهمين أطلقهما عليه لافتراسه واشباعهما من لحم المتهمين ويقال انهما افترسا بهذه المثابة كثيرا من الناس فكان غذاؤهما ذلك فقد بلغ من لؤم الطبيعة الغاية من التشفى والانتقام النهاية فلقد صدق عليه نظير ما كتبه الهمدانى فى ضمن رسالة يصف بها ملكا مثل هذا القيصر عظيم الشان يحسبه المتأمل انسانا وهو شيطان ليس بين رضاه والسخط عرجة كما ليس بين غضبه والسيف فرجة وليس من حقيقة سخطه مجاز كما ليس بين الموت والحياة معه مجاز يغضبه الجرم الخفى ولا يرضيه العذر الجلى وتكفيه الجناية وهى ارجاف ثم لا تشفيه العقوبة وهى اجحاف حتى انه يرى الذنب وهو أضيق من ظل الرمح ويعمى عن العذر وهو أبين من عمود الصبح وهو ذو أذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان ويحجب بهذه العذر وله برهان وذو يدين يبسط احداهما الى السفك والسفح ويقبض الاخرى عن الحلم والصفح وذو عينين يفتح احداهما الى الجرم ويغمض الاخرى عن الحلم فمزحه بين القد والقطع وجده بين السيف والنطع ومراده بين الظهور والكمون وأمره بين الكاف والنون لا يعرف من العقاب الا ضرب الرقاب ولا من

التأديب غير اراقة الدما ولامن التأنيب الا ازالة النعما ولا يحلم عن الهفوة كوزن الهبوة ولا يغضى عن السقطة بجرم النقطة ثم ان النقم بين لفظه وقلمه والارض تحت يده وقدمه فلا يلقاه الولى الا بغمه ولا العدو الا بذمه فالارواح بين حبسه واطلاقه كما ان الاجسام بين حله ووثاقه
وكان دأب هذا القيصر ولنطنيانوس فى سائر الاوقات الغضب فأودى به الى الهلاك وقاده الى سبيل العطب وقد قيل فى تفسير قوله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ان الطائف من الشيطان هو الغضب وفى التوراة يا ابن آدم لا تغضب فأغضب عليك فالغضب يصدئ القلب حتى لا يرى صاحبه شيأ حسنا فيفعله ولا قبيحا فيجتنبه فلهذا قيل ليس من عادة الكرام سرعة الغضب والانتقام قال عمر بن عبد العزيز ثلاثة من كن فيه فقد استكمل الايمان من اذا غضب لم يخرجه غضبه الى الباطل واذا رضى لم يخرجه رضاه عن الحق واذا قام جدال لا يأخذ ما ليس له واذا تمكن منه الغضب على أحد حبسه ثلاثة أيام حتى يسكن غضبه ثم يحضره فان وجب عليه العقوبة عاقبه والا أطلقه وقد اشتدت بهذا القيصر حدة الغضب وثورته فقد هاج ذات يوم غضبه فمات لوقته قتيل غضبه وقال له لسان الحال

فاشرب بكأس كنت تسقى بها * أمر فى الحلق من العلقم

وخلفه بعد موته على حكومة الاقطار المغربية ابنه غرثيانوس وذلك فى سنة ٣٦٧ قبل الهجرة وسيأتى الكلام عليه فى الفصل الآتى
وفى أثناء ما كان ولنطنيانوس متخلقا بالاخلاق السيئة فى أحكام بلاده كان أخوه ولنسوس متخلقا بجميل الاخلاق من العدل والانصاف وحسن الادارة فى البلاد المشرقية الحالة على عهدته حتى قيل انه فى زمانه لم يكن تولى المشرق من القياصرة خير منه فانه خفف على رعاياه المكوس والعوائد والخراج وأنقصه قدر الربع شفقة منه على عباد الله ثم حدثت قبل موته حادثة عجيبة عرف منها الرومانيون أمة جديدة لم تكن معروفة لهم قبل ذلك فاشتهرت بينهم وتخلد ذكرها فى صحائف التاريخ من عهد هذا القيصر وذلك ان فى سنة موت ولنسوس ظهرت أمة تتارية تسمى أمة الهونية جاءت من آسيا كالجراد

المنتشر فطردت قبائل الغوطية من سواحل نهر طونه وجبرتهم على أن يجتاز واهذا النهر ويأتوا الى بلاد المشرق فزحفوا على بلاد الرومانيين وأراضيهم والتمسوا منهم أن يقطعوهم أراضى ليتعيشوا منها فلم يساعدهم الرومانيون على ذلك فبهذا صار الغوطية أعداء للرومانيين يغيرون عليهم ويقاتلونهم على بلادهم وكان رئيس الغوطية اذ ذاك الملك افريطيجرن وكان شجاعا مقداما فقادهم الى جهة أدرنه وأوقع بالقيصر ولنسوس عند أسوار هذه المدينة وانتصر عليه نصرة مؤزرة هلكت فيها الجنود الرومانية وجرح قيصرهم فنقل الجنود قيصرهم الى وكر وضعوه فيه فأحرق الجنود الغوطية ذلك الوكر فهلك القيصر حريقا فى سنة ٢٤٤ قبل الهجرة ومن هذه السنة صارت الدولة الرومانية شركة رباعية بين الاربع قياصرة الآتى ذكرهم فى الفصل الآتى

(الفصل التاسع والاربعون)

فى القياصرة الاربع

وهم الملك غرثيانوس قيصر والملك ولنطنيانوس الثانى والملك مقسيموس والملك طيودوسيس الاكبر ويقال له تاودسيوس

كانت مدة توليتهم من سنة ٢٤٤ الى سنة ٢٢٧ قبل الهجرة فتكون مدة حكمهم فى الجملة سبع عشرة سنة

لما تولى غرثيانوس أمبراطور كان عمره سبع عشرة سنة وكان أخوه ولنطنيانوس الثانى متطلبا لمشاركته فى القيصرية فتنازل عن ايطاليا وبلاد السواحل الايطليانية المثمرة وقد استمر غرثيانوس على حرب الغوطية فكانوا دائما ظاهرين عليه كما كانوا على سلفه فلما أحس بضعفه عن مقاومتهم وحده انتخب معه طيودوسيس ابن الامير طيودوسيس ولقبه أغسطس المشرق فتقلد الجهات المشرقية فكان انتخاب طيودوسيس سنة ٢٤٣ قبل الهجرة من حسنات الدهر على الرومانيين بعمومهم وعلى النصارى خاصة فان هذا الاغسطس كان كأبيه هماما باسلا وذلك أن أباه كان يسمى طيودوسيس وكان أمهر أمير من أمراء عصره وله محافظات على بلاد أفريقية وحروب نجح فيها

حيث أدخل عصاة أفريقية تحت الطاعة فحسده أخصامه على ذلك وقتل غيلة في مدينة قرطاجة وكان والده طيودوسيس قد ولد في بلاد الاندلس وتربى فيها وخدم تحت راية والده وحارب معه وحضر المشاهد العظيمة في الحروب فلما مات والده عاد هو الى موطنه الى ان طلبوه لتقليد القيصرية باشترا كه مع غرثيانوس وما حازه من البسالة والشجاعة في الحروب واقتحام الخطوب وحبه لدين النصرانية وغيرته عليه أوجب تلقيبه بالا كبر فقد كان له ثبات عظيم في الحروب وفيه كرم نفس وسماحة على وجه عجيب فهو الذى هزم الغوطية في هذا العهد واجلاهم من حدود المملكة وعكس آمالهم وأفسد حالهم

اذا انعكس الزمان على لبيب * يحسن رأيه ما كان قبحا
يعانى كل أمر ليس يعنى * ويفسد ما يراه الناس صلحا

حتى عجبوا من علو شانه وجلالة برهانه فمدوا اليه يد الضراعة وتنازلوا عن صفة الاغارات ورغبوا في معاهدتهم للرومانيين وعقدوا اعقد المحبة والوصلة لتكون يد الله مع الجماعة وكان في هذا الزمن مقسيموس قائد جنود الرومانيين التى في بلاد الانكليز فولاه الجند امبراطور بدلا عن غرثيانوس بعد قتل هذا الاخير في مدينة ليون بفرانسا في سنة ٢٣٩ قبل الهجرة فصار مقسيموس شريكا لطيودوسيس وبعد ذلك بخمس سنين هزم طيودوسيس شريكه مقسيموس وقتله في سنة ٢٣٤ قبل الهجرة

لا تعاشر كل من أبصرته * ربما استأمنت جهلا من يخون
ولكم غرك سمت ظاهر * تحته من قلة العقل فنون

فلم يبق من القياصرة الشركاء لطيودوسيس الا ولنطنيانوس الثانى وحده مالكا لبلاد المغرب الرومانية وأما طيودوسيس فكان متملكا على البلاد المشرقية فقام شخص يسمى اربوغاست الافرنجى على ولنطنيانوس وقتله بخنجره وولى بدله أوجينوس كاتب سر الديوان القيصرى أمبراطور وذلك في سنة ٢٣٤ قبل الهجرة فنوى طيودوسيس أمبراطور المشرق الانتقام من أوجينوس بقتله فجمع جيوشه ليظفر بقرينه وسار اليه وتقابل معه ببلاد النمسا فأخذه أسيرا بعد انتصاره عليه نصرة مؤزرة ولسان حاله يقول

صيد الملوك أرانب وثعالب * واذا ركبت فصيدى الابطال

فصار بهذه النصرة الاخيرة منفردا بحكومة الممالك الرومانيـة وذلك فى سنة ٢٢٨ قبـل الهجرة

واذا العرين تصرعت آساده * عوت الثعالب فيه آمنة الردى

وهو آخر قيصر تملك على الدولة الرومانيـة شرقا وغربا شمالا وجنوبا بتمامها كما قيل

سموت اليها بعدما نام أهلها * سمو حباب الماء حالا على حال

وكان هـذا القيصر يهوى العدل والانصاف ويتدين بدين النصرانية فبهـذا احترمه جميع القسيسين وقد اتحـد بالبابا سانت سيريقوس لقصـد ابطال عبادة الاصنام بالكلية ومنع التمسك بدين الصابئة فى جميع الاقطار الرومانية وتواطأ هو والبابا على ذلك والتمس من مجلس رومة أن يصدر أوامره بذلك فأبى المجلس فسخ هـذه الديانة فأبطل القيصر المجلس وألغاه وعزل أعضاءه وأصدر أمره بهدم هيا كل الصابئة ومعابدهم ونهى عن تقريب القربان للاصنام فى البيوت وعن أن تقام فيها شعائر وثنية وأن لا يعتمد فى البلاد الرومانيـة الا دين المسيح عيسى بن مريم الانجيلى ونهى أيضا عن التفرق فى الدين وسلوك مذهب الاعتزال والخروج ونصب مفتشين يبحثون عن ذلك ومن وجـدوه متصفا بالتشيع والهرطقة أخرجوه من رومة وقبضوا على أمواله وأملاكه ثم نهى البابا السالف الذكر جميع القسيسين عن أن يتزوجوا وجعل شعارهـم الرهبانية وهـذه الطريقـة باقيـة الى الآن شعارا فى سائر قسيسى الملة القاثوليقية على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم بدون استثناء ولا تعليق وأصدر أيضا سنة ٢٤١ قبل الهجرة أوامر قيصرية بمحو قديم الديانة المصرية وأن لا يباح فيها الا التمسك بدين النصرانيـة فأغلقت الهيا كل المصرية والمعابد الاهلية وبهذا انعدمت شعائر الجاهلية بالكلية وكان للمصريين أربعون ألف صنم للعبادة فخل محلها دين عيسى عليه السلام الآمر بالتوحيد والناهى عن الزيادة ومع صدور أمر طيودوسيس بمحو دين الجاهلية فلم يترك المصريون ديانتهم الاصلية مرة واحدة فى سنة صدور هذا الامر بل صار العمل فى مصر على شعائر دين النصرانية بالصفة الرسمية ولم يزل يوجد من أهل مصر بعد

صدور هذا الامر من بقى على العقائد الجاهلية خصوصا فى صعيد مصر ولم يمح دين الجاهلية الابتداول الايام بعد التنيا والتى فالاصل الاصيل أوامر هذا الملك النبيل فبسلوك جادة العدل والانصاف واجتناب الجور والاعتساف وبالدخول فى الديانة العيسوية كان هذا القيصر جديرا بحكم الرومانيين وقيصريته عليهم لاسيما وانه كان حائز الصفات الفاضلة والخصال الكاملة وقد حصل فى أثناء مملكته تلطيفات لازالة الفتن المصرية حتى حصل بعصر الراحة التامة والطمأنينة لاهلها من نصارى وصابئين فمات هذا القيصر بعد انفراده بالملك سنة واحدة فى سنة ٣٢٧ قبل الهجرة وقد قلنا ان انتهاء الدولة الرابعة والثلاثين الى أمر هذا القيصر الصادر فى سنة ٣٤١ قبل الهجرة فمن هذه السنة الى موته الحاصل فى سنة ٣٢٧ قبل الهجرة تكون المدة نحو أربع عشرة سنة محسوبة من مدة الدولة الخامسة والثلاثين وأعقب ولدين أحدهما يسمى أرقاديوس والآخر يسمى نوريوس فأورثهما حكومة الدنيا اعنى الحكومة الرومانية بتمامها ومن ذلك العهد لم يتول عليهما الملك واحد يعنى لم تصرفيها وحدة الحكومة بل صارت أمبراطوريتين مستقلتين احداهما امبراطورية المشرق ومدينتها القسطنطينية والثانية امبراطورية المغرب ومدينتها رومة كما كانت وذلك فى سنة ٢٢٧ قبل الهجرة ولا يخفى على من مارس التاريخ وسبر الوقائع كثرة التقلبات فى الدول المختلفة والامم المتباينة بسبب انقسام الممالك وتمزيق الدول فان مملكة فارس بحفظ وحدتها كانت قوية الشوكة مصونة الناموس فلما انقسمت الى ملوك الطوائف تضعضعت أحوالها وسهل أخذ أردشير لها وكذلك لما تفرقت مملكة الاسكندر العظيمة وتمزقت الى ممالك صغيرة بعدد الطوائف اضمحلت جميعها وانقرضت دولة اليونان بانقسامها وكذلك مملكة الرومانيين كانت قوية عظيمة بوحدتها فلما انقسمت الى مشرقية ومغربية كان هذا الانقسام سببا لانحطاطها وانقراضها وانما حصل الانقسام فى الممالك القديمة والحديثة بسبب مطامع أعيان المملكة وأمرائها فكل أمير خطير فى دولة عظيمة تطمع نفسه لاخذ حصة من الدولة يملك عليها فتضعف الدولة بقدر ما نقص عنها بدون أن يقوى الطامع بحصته

وقد قاست العقلاء وحدة المملكة بوحدة الجسم الحيوانى الذى هو قوة متحركة تحتاج فى تحريكها الى حفظ الموازنة المركزية فان خروج الجسم الحيوانى عن مركز الموازنة اختل نظامه فالدولة أيضا متى خرجت عن مركز وحدتها بالانقسام تلفت فلما فقد فى مجلس جمهورية رومة احترام ناموس مجلسها الجمهورى وتجاسرت الجنود على انتخاب القياصرة نتج من هذا خروج الجمهورية الرومانية عن مركز الوحدة فضعفت الدولة من عهد القياصرة وبانقسام المملكة الى مشرقية ومغربية آلت الى الانحطاط ثم الى الانقراض وكان هذا الانقسام ختام دولة الرومانيين الحقيقية التى يطلق عليها هذا الاسم حقيقة وبالاصالة فقد كان تقسيم طيودوسيس المملكة الرومانية بين ولديه ضروريا لازما لمنع الاختلاف والتشاجر الا أنه تسبب عنه زوال ملك الرومانيين بدون بطء ولبقاء الممالك وزوالها أسباب عادية فسبحان من لايزول ملكه قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير فلعل الحكمة الالهية اقتضت تمهيد الخلافة الاسلامية وفى جميع المعاهد والمشاهد مصائب قوم عند قوم فوائد ومن هذا العهد الى ماسيأتى بعد من تاريخ القرون الوسطى فالدولة الرومانية التى هى مبدأ القرون الوسطى تسمى الدولة الطيودوسيسه وأول قياصرتها فى المغرب هولوريوس بن طيودوسيس ولاحاجة لنا به لانه ليس له يد على مملكة مصر وليست داخلة فى حكمه وأما أول ملوكها فى المشرق فهو أرقاديوس بن طيودوسيس ومعلوم ان مصر بعد هذه المقاسمة صارت فى قبضة قياصرة المشرق الذين يقال لهم قياصرة الروم وتسمى الدولة الطيودوسيسة المشرقية وهى بالنسبة لمصر تكون عبارة عن الدولة الخامسة والثلاثين وستأتى فى المقالة الرابعة

(الفصل المكمل للخمسين)

فى ذكر ملحوظات تتعلق بالدولة الرومانية التى هى الرابعة والثلاثون ممن حكم مصر من الدول

لما صارت الديار المصرية فى قبضة الدولة الرومانية اجتهدت رومة فى جميع

الوسائل التدبيرية التى فى طاقتها أن تبقى مملكة مصر تحت يدها وفى قبضتها
حيث هى من أعظم غنيمة اغتنمتها من الممالك فاستحسنت لحفظها وصيانتها
أن تبقى لها رخصة ديانتها وأن تتركها على عوائدها الاصلية وعلى فنونها
وصنائعها وطريقة كتابتها ولغتها وأن لا تسلك معها مثل ما سلكه العجم من
الحظر والمنع بل أصلحت الدولة الرومانية ما كان اندرس من معالم الديانات
وهيا كل العبادات وزادت هيا كل ومعابد جديدة أهلية وتممت ما كان من
مشروعات الدولة البطليموسية ولم تقتصر على العمائر المصرية بل جددت عمائر
أخر فى ديار النوبة من البلاد السودانية التى هى من ملحقات الممالك المصرية
فبهذا كله قصدت تطييب خواطر المصريين وتأليف قلوبهم وتمكين حكومتهم
على وجه متين واستمالة نفوس أهل النوبة وضمهم اليهم وتوسيع دائرة
الحكومة المصرية ثم لاجل حسم دواعى الفتن والعصيان واظهار حكم
مصر بالعدل والاحسان لم تتعرض لمادة الاديان بجور ولا عدوان فبهذه
السياسة رسخت دولة الرومانيين بمصر رسوخ الاطواد وتمكنوا بهذه
التحيلات من كمال الاستيلاء على هذه البلاد وكانت عساكر مصر وكبراؤها
فى مبدا الامر محافظين لقلاعها وثغورها وزمام المملكة بين أيدى جمهورها
فلما أمنت دولة رومة من أهالى المصريين غوائل العصيان بمسايرتهم على
مذاهبهم القديمة وطرائقهم المستديمة ولم يبق للمصريين تعلل ولا احتجاج
فى اثارة الفتن أمرت الدولة الرومانية بأن لا يوضع فى المدن محافظون الامن
جنودهم وأن لا يتولى أحكام مصر الا اصحاب راياتهم وبنودهم وأن
لا يكون فى مصر رئيس الحكومة الا نائب رومانى يعينه مجلس رومة وأن
يكون هذا النائب القيصرى متصرفا فى حكم مصر تصرف القيصر فاعلا
مختارا مرخصا فى الملكية والعسكرية ليكون مقامه عند المصريين كمقام
ملوكهم الاقدمين صاحب وقار واعتبار ليس فوقه فى الدرجة الا مجلس
رومة أو قيصر الرومانيين وليس تابعا لحكمدار عموم المشرق فكان لمجلس
رومة أو متولى الدولة له على متولى مصر كمال المناظرة وتمام الصولة وكل من
ارتكب من الولاة هفوة عومل من طرف رومة بالجفوة فلم تكن مدة ولاية
النواب فى تلك الايام طويلة وكان عزلهم ونفيهم وقتلهم يحصل من طرف رومة

بأدنى وسيلة وكان من أصول الدولة الرومانية أن لا يتولى على مصر أحد من أعضاء مجلس رومة ولا من عائلات المجد الاولية خشية أن يستبد بملك مصر لغروره بمحاسنها ويطمع فى الاستقلال بها و ينازى رومة بالعصيان ويحاشنها

فكانت مصر فى أيام حكومة رومة قليلة البهجة والعظم بالنسبة للسياسة الاجنبية غير متمتعة بالثمرات الوطنية من كمال الحرية بل كانت على حالة الاسترقاق والاستعباد ونسيت مفاخرها القديمة وصفات مجدها العميمة ولم تذكر أنها كانت سيدة البلاد ولم يبق لها من رمق الحياة الاهلية الا بعض لمحات روحانية فقد كان فى مدة الرومانيين لمدارس الاسكندرية شهرة جلية لاسيما فى المذاهب الفلسفية فكان لها فى ذلك العصر على رومة ومملكة اليونان سلطنة القوة العلمية وسطوة المملكة الحكمية وأما حالتها الجسمية فقد عم اختلالها وتم اضمحلالها وقام الدمار مقام العمار فلا تجد فى أيام الرومانيين من مدينة طيوه والعرابة المدفونة ومنف وعين شمس الا آثارا خربة وأطلالا مكتئبة ولم يبق من العمائر الا الرسوم والامائر من جميع المدن حتى من مدينة الاسكندرية التى كانت دار المملكة المصرية اذ ذاك فانها انخفض قدرها عن ذلك فصارت كرسى ايالة رومانية وبندر اقليم من الاقاليم المصرية كما صارت جميع الديار المصرية فى ذلك العهد لا عناية لها الا بمادة الفلاحة والزراعة تجتهد فى امداد مدينة رومة وتميرها بالميرة وتعينها بالذخيرة حتى كانت مخزن غلال لرومة تفى بحاجاتها من الحبوب وتتكفل لها من ذلك بالمطلوب ولم تفز مصر من حكومة الرومانيين بفائدة مهمة ولا عادت عليها منها عائدة من الفوائد الجمة الا ارشادها فى أزمانها الاخيرة الى دين عيسى بن مريم وانقاذها من دين الصابئين وهدم معابد الوثن والصنم وهذه مزية كبرى وان كان أهالى مصر لم يتوصلوا الى ذلك المرام الا بعد مقاساة الشدائد والا آلام من وقت أن دعا لهذا الدين بمصر القديس مارى مرقس تلميذ مارى بطرس حوارى ومن تبعه فيها فانه بكثرة الحمية الدينية والاحزاب العصبية قاسى المتنصرون ما لا مزيد عليه من النكال ممن يريد البقاء على دين الصابئة ويرى فيه الهدى وفى

غيره الضلال وسيأتى بعض مايتعلق بالديانة العيسوية فى آخر المقالة الرابعة ان شاء الله تعالى

(الفصل الحادى والخمسون)

فى جدول القياصرة الرومانية الذين حكموا مصر من أغسطوس قيصر الى طيودوسيس قيصر

وهو عبارة عن اجمال ماذكر مفرقا ببيان أسمائهم وابتداء حكمهم وانتهائه المفهوم من ذكر مدة الحكم ومن كون ابتداء كل قيصر نهاية سلفه وكل ذلك على وجه التقريب حسب الامكان لا التحديد الحقيقى

	ابتداء الحكم سنة قبل الهجرة	مدة الحكم سنة قبل الهجرة
الملك أغسطس قيصر	٦٥١	٤٣
الملك طيبروس قيصر الاول ويسمى طباريوس	٦٠٨	٢٣
الملك قاليغولا قيصر	٥٨٦	٤
الملك قاودس الاول قيصر	٥٨١	١٣
الملك نيرون قيصر	٥٦٨	١٣
الملك اسلبقيوس غلبا قيصر ويقال له غلبان	٥٥٤	١
الملك مرقوس أوطون قيصر	٥٥٣	ثلاثة أشهر
الملك ويطليوس قيصر	٥٥٣	ثمانية أشهر
الملك وسباسيانوس قيصر ويسمى اسباشيانس	٥٥٣	١٠
الملك طيطوس قيصر ويقال له طيطش	٥٤٣	٢ وشهران
الملك دومطيانوس قيصر	٥٤١	١٣
الملك نيروا قيصر	٥٢٦	٢
الملك أولبيوس طريانوس قيصر	٥٢٤	١٩
الملك أدريانوس قيصر	٥٠٥	٢١
الملك طيطوس أنطينينوس قيصر	٤٨٤	٢٣

ابتداء

	ابتداء الحكم سنة قبل الهجرة	مدة الحكم سنة قبل الهجرة
الملك مرقوريلس قيصر	٤٦١	١٩
الملك قومودس قيصر	٤٤٢	١٣
الملك برطيناش قيصر	٤٢٩	ثلاثة أشهر
الملك ديدوس يوليانوس قيصر	٤٢٩	شهران
الملك سبطميس سويرس قيصر	٤٢٩	١٨
الملك بسيانوس قراقله قيصر	٤١١	٦
الملك أوبليوس مقرينوس قيصر	٤٠٥	١
الملك بسيانوس هليوغباله قيصر	٤٠٤	٤
الملك اسكندرسويرس قيصر الثانى	٤٠٠	١٣
الملك مقسيمينوس قيصر الاول ويسمى مخشميان	٣٨٧	٤
الملك غرديانوس قيصر الاب وابنه الملك غرديانوس قيصر الاصغر	٣٨٤	بعض أشهر
الملك غورديانوس قيصر الثالث	٣٨٤	٦
الملك فليبش قيصر	٣٧٨	٥
الملك دقيوس قيصر	٣٧٣	٢
الملك غالوس قيصر ويسمى أيضا والوس	٣٧١	٣
الملك أمليانوس قيصر	٣٦٨	أربعة أشهر
الملك والريانوس قيصر	٣٦٨	٥
الملك غليانوس قيصر	٣٦١	٧
الملك قلودس قيصر الثانى	٣٥٤	٢
الملك اورليانوس قيصر	٣٥٢	٤
الملك طاقيطوس قيصر	٣٤٧	ثمانية أشهر
الملك بروبوس قيصر	٣٤٧	٧

	ابتداء الحكم سنة قبل الهجرة	مدة الحكم سنة قبل الهجرة
الملك قاروس قيصر	٣٤٠	١ وخمسة أشهر
الملك قارينوس قيصر ونومريانوس قيصر	٣٣٩	عدة أشهر
الملك دقلطيانوس قيصر ومقسميانوس هرقل أغسطس	٣٣٩	١٨
الملك غالبرس قيصر وقسطنقيوس خيورس قيصر	٣٢١	١٠
الملك مقسمينوس قيصر الثانى وقسطنطين قيصر الاكبر ومقسنقوس قيصر وليقنيوس قيصر	٣١١	١٢
الملك قسطنطين الاكبر	٢٩٩	١٤
الملك قسطنطين الثانى وقسطنطوس الاول وقسطنقوس	٢٨٥	٢٤
الملك يوليانوس قيصر المرتد	٢٦١	٢
الملك يويانوس قيصر	٢٥٩	١
الملك ولنطيانوس قيصر الاول والملك ولنسوس قيصر أخوه	٢٥٨	١٤
الملك غرثيانوس والملك ولنطنيانوس الثانى والملك مقسيموس والملك طيودوسيس الاكبر	٢٤٤	١٧

فاذا جمعت هذه المدد تجدها نحو أربعمائة واحدى عشرة سنة تقريبا وان يكن فرق فمن عدم علم شهور التولية فى السنين ومقدار مدة الاربعمائة واحدى عشرة سنة هو حكم هذه الدولة على ديار مصر بوصف كون مصر ايالة رومانية تابعة لحكومة الرومانيين كسائر الايالات الرومانية المشرقية ليس لها علاقات خارجية وانما كانت فى أيامهم تحظى من الثمرات والمحصولات بما يتحصل من حسن ادارة ولاة أمورها وتدبيرهم الداخلى فهى وان فقدت فى هذه المدد الاستبداد بسلطنتها على نفسها سلطنة حسية وهى فى قبضة

الرومانيين لم تزل اذ ذاك محافظة لسلطنتها المعنوية بالقوة العلمية والشوكة الروحانية فى تلك المدة كما سبقت الاشارة الى ذلك وكان لها علو الدرجة والمرتبة المعنوية على رومة وعلى بلاد اليونان بقوة أنوار العلم الساطعة وأضواء الفهم اللامعة فى تلك الازمان فما كان هذه الاحزية للديار المصرية وخاصية من خواصها الذاتية لانها على اختلاف الازمان ودوران الحدثان متصفة بصفة القوة المعنوية والظهور المعنوى على أعظم مدينة من مدن الدنيا ولو كان لتلك المدينة الحكم الحسى على مصر فهى وان كانت فى الظاهر ليست فى درجة العظمة السلطانية لا تتنازل أبدا عن درجة السلطنة العقلية بسر الهى وضعه الله سبحانه وتعالى فيها كما دلت على ترجيحها اصحاح النصوص ومدحها الله سبحانه وتعالى بالخصوص وهى التى تلبس من يملكها حلل البهاء والفخار والمجد والاعتبار لا سيما من يحسن صيانة ناموسها عن الانكسار

اذا ما كنت مرضى السجايا * وعاش الناس منك على أمان
فعش فى الدهر ذا أمن ويمن * ويوصلك الاله الى الامانى

فتخلع على متملكها الوجاهة وتعلى قدره وتقوى جاهه وينال كمال مطلوبه ويحصل على تمام مرغوبه وتنشر علم مجدها عليه حتى يصير علم الشرف وشرف المضاف بقدر شرف المضاف اليه وشرف مصر معلوم والكفو المزاحم على موردها التقويم أودها غير ملوم والمورد العذب كثير الزحام قال تعالى اهبطوا مصر فان لكم ما سألتم فقد تزاحم على موردها العذب سائر الامم وامتزج أهلها بغيرهم امتزاج المدام بماء الديم وتخلقت من بينهم أمة جامعة لاخلاق العرب والعجم فمصر ولاية جامعة تعدل الخلافة بقى لها من سناء أنوار الملك الساطعة ما لم يبق للكرخ والرصافة وبالجملة فهى بلد العلم والحكمة من قديم الدهر وحديثه ومنها خرج العلماء والحكماء الذين عمروا الدنيا قديما وحديثا بعلومهم وحكمتهم وهى جاهلية واسلاما أقوى بلاد الدنيا تدينا وذلك أنها لما كانت فى قبضة الدولة الرومانية الحسية وكانت السلطنة الرومانية لمبالغة اتساعها وكثرة اتباعها تمزق ربعها وتفرق جمعها وانقسمت الى سلطنتين تحت تسلط دولتين من قياصرة الرومانيين احداهما بقى سريرها

بمدينة رومة حاكمة على الاقطار المغربية والثانية بمدينة القسطنطينية وكان ذلك فى نحو سنة ٢٥٩ قبل الهجرة فكانت مصر داخلة فى دولة الروم المشرقية تابعة لقيصر الروم بالقسطنطينية وكان دين المسيح عليه السلام تمكن فى القسطنطينية كل التمكن وسرى منها الى مصر فباستقرار طيودوسيس قيصر على سرير المملكة المشرقية أصدر أمره فى تاريخ سنة ٢٤١ قبل الهجرة بمحو الديانة المصرية القديمة بالكلية وازالة دين الجاهلية وجعل دين عيسى عليه السلام هو الدين العام يتمسك به الخواص والعوام وعلى مقتضى أمره القيصرى أغلقت الهيا كل والمعابد وما كان لدين الجاهلية من المعاهد والمشاهد وانعدمت شعار الجاهلية المصرية وقضى الامر وانتشرت شعائر دين المسيح عليه السلام ومن ابتداء هذه المدة اشتهر أهل مصر باسم القبط فطائفة الاقباط هم المتنصرون من ذرية الامة المصرية وبقى الدين العيسوى متسلطا بمصر مدة سنى المائتين والتسعة والخمسين الآتية فى المقالة الرابعة

(المقالة الرابعة)

(فى ملوك الدولة الخامسة والثلاثين)

وهى دولة الروم العيسوية بمدينة القسطنطينية ومبدؤها من سنة ٢٤١ قبل الهجرة وانتهاؤها بفتوح مصر بالاسلام سنة ١٨ من الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ومدة حكم هذه الدولة نحو مائتين وتسعة وخمسين سنة وهى تشتمل على عدة أبواب

(الباب الاول)

(فى ملوك هذه الدولة وفيه فصول)

(الفصل الاول)

(فى الملك ارقاديوس قيصر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية المشرقية فى سنة ٢٢٧ وبقى حكمه

الى

الى سنة ٤١٢ قبل الهجرة فكانت مدة حكمه ثلاث عشرة سنة ويضاف الى هذه المدة أربع عشرة سنة من مدة حكم أبيه فى القسطنطينية من اصدار أمره باتباع الملة العيسوية فى حكومته بحسبان هذه المدة من أيام هذه الدولة التى نحن بصددها ففى الحقيقة رأس هذه الدولة هو طيودوسيس الاكبر الذى هو مؤسسها لم يكن ارقاديوس فى العقل كأبيه بل كان ضعيف الرأى عديم التدبر

ما ابن اللبون يصول صولة بازل * فيه قصور عن طويل الباع

فلهذا كانت مملكة المشرق فى عهده ضعيفة كأنما ارتسم فيها مرآة طبعه فان هذا القيصر فوض سياسة المملكة لاحبابه ولامراء أجناده وقواده وكانوا من الاجانب فوقعت بينهم العداوة وصار يهلك بعضهم بعضا وكان زمام المملكة فى أيامه حلا وعقدا فى يد شخص يدعى روفين ويلقب رئيس الدولة وفى يد آخر يسمى أطروبس حاجب الديوان القيصرى وكان كمال النفوذ فى الدولة لزوجة القيصر المسماة أودقسيه الشهيرة التى عذبت القديس خروصوصطومس وسيأتى الكلام على ذلك وكان القيصر طيودوسيس قد أوصى ابنه أرقاديوس حين عهد اليه بوصية صورتها

لو كنت أيها الولد وبيضة البلد من أبناء ملوك فارس وعهد اليك مملكتها وآلت اليك دولتها لكان عنوانك الكسروى كافيا فى حفظ سرير الملك وصيانة تاج الدولة ولكن مبتلك بأرض الروم وحال أهلها معلوم فكن حازما فالحزم ينفع أهله وان كنت ممن يجهل الامر فاسأل فاذا أردت أن تكون أهلا لان تحكمهم وتسوسهم فابدأ بنفسك واحكمها وأحسن سياستها قبل ذلك لتعلم كيف تغلبها فالعاقل من غلب عقله على هواه والناس صنفان سوقة وملوك فالسوقة ليس همهم الا سعادة أنفسهم وأما الملوك مثلك فهمهم سعادة الرعايا وسعادة الرعايا سعادة الملك فاذا تحكمت عليك الذنوب وتغلبت عليك العيوب فأنت عبد هوى ولو تحليت بتاج القياصرة فاحترس من تغلب الشهوات النفسانية وخلها للرعاع من الرعية فان الشهوات الدنيوية تعترض للامراء والملوك وتكون نصب أعينهم فتغلبهم فاذا أردت أن تتخلق باخلاق ملك الملوك وسلطان السلاطين فتخلق

برحمته وحلمه واتبع دائما طريق العدل والاحسان ولا تلتفت فى فعل الخير لمدح أو قدح من انسان فان العامة لا يتحاشون عادة من مدح الملوك أو القدح فيهم وحالهم قائل

وان لسانى مبضع أى مبضع * وفى كل عضو منهم عرق أكحل

فكن باستكمال الفضائل ومكارم الاخلاق صورة للعدل والاحسان وتخلق باخلاق الملك الخلاق فبهذا تتسلطن على قلوب الرعية سلطنة أقوى من سلطنة السيف والشوكة القوية فقد جرت عادة الرومانيين أنهم لا ينقادون لامير متكبر ولا لمليك متجبر بل لامير حليم عادل حكيم تخل الرفاهية والطنطنة والزينة والسلطنة لملوك آسيا والبلاد المشرقية وتحل بحلية عظماء القياصرة الرومانية يعنى بالمعارف الصحيحة ومكارم الاخلاق الرجيحة وأوصيك اذا حاربت ملكا من الملوك فأحكم قيادة العساكر واحسن فى الامرة والسلوك لتطاع منهم وينفذ أمرك فيهم واقتسم اقتحام الاخطار مع الجنود فانهم بك يقتدون ويستسهلون المهالك وباقتحامها لا يبالون ومما تتأكد به الوصية وتجب فيه النصيحة أن تواظب على قراءة تاريخ من سبقك من القياصرة لتعرف ما أصابهم من النصرة والهزيمة والوقائع الفاخرة وغير الفاخرة وتقف على سبب العزة والهوان وما تداول من العظم والانحطاط لدولة الرومان لتفقه من ذلك ما ينبغى فعله وتتفطن لما ينبغى اجتنابه انتهى ملخص الوصية ومن المعلوم أن قياصرة الروم كانوا يشهدون للاكاسرة بعلو درجة التدبير وانتظام الملك ويتساءلون عن الاسباب وهذه الابيات الآتية تشير الى ذلك وهى

كاتب فى السابق كسرى قيصر * بما استقام ملكهم والظفر
فقال قد دام لنا الولاء * بخمسة طاب بها الهناء
ان استشرنا فذوى العقول * وان نولى فذوى الاصول
وليس فى وعد ولا وعيد * نخالف القول على التأبيد
وان نعاقب فعلى قدر السبب * من الذنوب لا على قدر الغضب
ولا نقدم الشباب مطلقا * على الشيوخ فى ولاء أطلقا

ومع ذلك فقد ترك أرقاديوس لسخافة عقله العمل بهذه الوصية والانقياد

لهذه النصيحة فكان مدة حياته مبغوضا عند سائر الرعايا مذموما مفضوحا أقبح فضيحة

وعاجز الرأى مضياع لفرصته * حتى اذا فات أمر عاتب القدرا

وقد سلف أن الذى كان قابضا زمام الدولة هو الوزير روفين وكان الحل والعقد باستشارة الملكة أودقسيه وكان يخشاها الوزير روفين أكثر من القيصر وكان يخطر له سلب المنصب القيصرى من زوجها حتى كاد لا يمنعه من ذلك الا وجودها حتى انه مهد التمهيدات اللازمة بسلب ذلك المنصب وضرب نياشين باسمه نقش صورته عليها كأنه لابس التاج القيصرى وأعد هذه النياشين لوقت استقلاله بعد خلع القيصر فأراد أن يقابل النعمة بالكفران ويضع الاساءة موضع الاحسان

ألا رب من تحنو عليه ولو ترى * طويته ساءتك تلك الضمائر

فلا تأمنا خلا ولا تغتربه * اذا لم تطب منه لديك المخابر

وكان للقيصر طيودوسيس قائد عسكر يدعى اسطيليقون قد أقامه فى حياته كفيلا على ولديه القيصرين بالمشرق والمغرب فلما توليا القيصرية بعد أبيهما كل بجهته كان ذلك الكفيل مشغولا بقسمة الاموال والجنود بينهما وكان يحقد على الوزير روفين فتصادف أن طائفة الغوطة اجتازوا نهر طونة لحرب أرقاديوس وقصدوا بلاد القسطنطينية وساروا نحو مقصدهم وظنوا أن لا يصدهم أحد فأراد الامير أسطيليقون أن يغتنم الفرصة للانتقام من روفين ومن الغوطة فأظهر أنه يقود الجنود من ايطاليا ليوصلهم الى القسطنطينية لسلامتها فسار حتى وصل الى مدينة سلانيك ثم هجم بحركة عجيبة على الغوطية وحصرهم حصرا شديدا حتى هزمهم وقصده بذلك أيضا الفتك بالوزير روفين

فأحس بذلك الوزير روفين وكان يخشى من أسطيليقون أكثر من الغوطة فأصدر أمرا من أرقاديوس بطلب وصول الجنود الى القسطنطينية بدون حضور أسطيليقون معهم فامتثل أسطيليقون أمر القيصر وانفصل عن الجند ورجع الى ايطاليا لعلمه بصداقة الجنود المبعوثين لقيصر المشرق وأرسلهم مع قائدهم غيناس فكان أسطيليقون يعهد أيضا ان هذا الرئيس

وجنده يبغضون الوزير روفين حتى ان أسطيليقون أخذ عليهم موثقا بقتل الوزير روفين

فكتموا ما عاهدوه عليه مع غاية الحزم ولم يبوحوا به لاحد مدة سفرهم من سلانيك الى القسطنطينية ولم يتفوهوا بكلمة يشم منها رائحة العداوة للوزير روفين بل أظهروا له عند قدومهم اليه كمال التملق والنفاق وعاملوه بغاية ما يليق من التبجيل والاحترام فاغتر بظاهرهم وأغدق عليهم بالاموال كمال الاغداق وأمّل أنه باعانتهم يقتل زوجة الملك لينتخبوه قيصرا عليهم

ولما كان أرقاديوس عديم الثبات والرسوخ وجب عليهم أن يكتموا عنه حقيقة الحال وأن لا يطلعوه على ما فى ضميرهم وأن لا يخبروه بأن وزيره روفين مضمر له الخيانة وربما كانوا اذا بادروا بسلوك طريق الصداقة وأخبروه بذلك حالا يترتب على اخبارهم غاية المضرة لهم فقتل قائد الجند الامير غيناس بين يدى القيصر والتمس منه أن يعرض الجند على قيصرهم وأن يسير العسكر أمامه فحضر القيصر فى الميدان مصحوبا بوزيره روفين وسلم حسب العادة على البرقدارية الرومانية بالمعسكر القيصرى فكان روفين يتأمل كل التأمل ويوجه نظره الى العساكر والضباط مع اظهار التعاظم والكبرياء كأنه معتمد على تحقيق رجائه بمساعدتهم له وواثق بهم فى حركاته وسكناته فلما وصل مع القيصر الى كبد الصف تقدم جناحا الجيش على وجه السرعة وأحاطا بالقيصر والوزير كمال الاحاطة فأعطى غيناس الاشارة اللازمة للجند بما أضمره فهجم أحد العساكر بغتة على الوزير روفين وطعنه بالسلاح فى صدره فصرخ الوزير صرخة عظيمة وانكب طريحا على الارض وخرجت روحه تحت قدم القيصر

ألا انما الاحياء شرب وبينهم * كؤس المنايا لا تزال تدور

فمنهم سريع السكر فى الحال ينتشى * ومنهم على الشرب الكثير قدير

فشاع قتله بين الاهالى فقاموا جميعا وهاجوا وماجوا وازدحموا للتفرج عليه لكون قتله كان جل مرامهم وفتكوا بأعوان هذا الوزير الذين كانوا أهانوا جميع الرعايا فقتلوهم عن آخرهم وقبضوا على جسم روفين فمزقوه كل ممزق وطافوا به فى الاسواق والشوارع وأقاموا رأسه على سنان الرمح وقطعوا يده اليمنى ليمثلوا به ويتفرج عليها الوارد والمتردد وجعلوا كفه ممدودة مبسوطة

كانه يطلب من الاهالى أن يسلموه المغارم والمطاليب كما كان يفعل فى حال حياته فقد جوزى أشد الجزاء على عسفه وظلمه وجوره فى حكمه

وماذم أهل الظلم شيأ قصدته * ولكنه من يزحم اليم يغرق

ولم تنج زوجته ولا ابنته من القتل الا بهروبهما الى دير بيت المقدس وضبطت أمواله الى الخزينة القيصرية فبهذه الحادثة التى صار فيها الاقتيات من الجنود على هذا القيصر ضعف احترام الرعية للقياصرة وصار مقامهم وضيعا وناموسهم قليل الاعتبار وصارت قوة الجنود مهيبة يخشى على الدولة سطوتها ويترقب على ممر الايام صولتها

مولاى ان صروف الدهر قد حكمت * وأعوزت أن يذل الرأس للذنب

كم من مقبل كف لو تمكن من * قطع لها كان ممن فاز بالارب

فولى أرقاديوس بدل ذلك الوزير المقتول أطروبس الطواشى الحاجب وكان أسطيليقون زعيم الدولتين يرى أن له حق كفالة قيصر المشرق ويدعيها مستندا على وصاية طيودوسيس قيصر ولكن كان يخشى أن يوقع بتطلبها العداوة بين الدولتين والبغضة بين الاخوين فترك أرقاديوس وشأنه مع وزرائه وامرائه ولم يقع منه تداخل فى السياسة والتدبير وكانت كل دولة من الدولتين ليس لها على الاخرى أمر ولا نهى فلم يكن بينهما جامعة قوية فى هذا الوقت فاغتنم الاريق ملك الغوطية هذه الفرصة واصطلح مع أرقاديوس وانتظم فى سلك الجنود الرومانية وعد نفسه من الاتباع القيصرية المشرقية فجعله القيصر رئيس عموم جنوده الرومانية بسواحل ايطاليا المشرقية وكانت تابعة للقسطنطينية ومع انضمام ملك الغوطية للدولة المشرقية ظاهرا كان فى الحقيقة عدوا للدولتين حاقدا عليهما ماكرا مخادعا كعادة اللئام من بنى الايام

الا انما الايام أبناء واحد * وهذى الليالى كلها أخوات

فلا تطلبا من عود يوم وليلة * خلاف الذى مرت به السنوات

فانتهى به الحال الى أن استفحل أمره وقوى جيشه وجاشه وحارب قيصر رومة وهزمه شر هزيمة وكاد يأخذ ملكه لولا ان صده عن ذلك الامير أسطيليقون فقد دفعه عن المملكة المغربية فى واقعة هزمه فيها وأخذ زوجته أسيرة وفر الملك الاريق هاربا ونجا بنفسه فمن هذا يعلم ان مدة حكم أرقاديوس

كانت سببا لانحطاط القيصرية وانخفاضها عن مرتبتها العلية وان هذه المدة كانت منشأ لفساد الاخلاق والعوائد ولتجدد الظلم والجور فقد كان أكثر عمال الدولة أرباب ظلم وعسف وأرباب جبن ورخاوة منهمكين على اللذات والشهوات ودليل ذلك ان أطروبس الطواشى وزير هذا القيصر كان رئيس المجالس والمحاكم وأمير أمراء الجيوش عموما فكان رئيس الدولة بتمامها وكان مبغضا للغوطية الذين هم أعداء الرومانيين طبعا وقد فرحوا بتقليد هذا الوزير منصب الرياسة الكبرى فبه أمنوا غائلة جنود أخصامهم لما ان هؤلاء الجنود تحت رياسة رئيس ليس أهلا لتأدية وظيفة الرياسة ولا كفؤا لمقاومة رؤسائهم ولا يقوى على منافستهم

وقد شنع خيار الناس وأهل الاستقامة جميعا من الجنود والاهالى على انتخاب القيصر له لاسيما وقد تحقق لدى الجميع ان هذا الوزير يأخذ الرشوة ويضيع حقوق المملكة بل قد يضيع المملكة نفسها بأن يبيع لاعدائها من البلاد ما يتمكن من بيعه لهم وكان من خصاله انه يصغى لوشى الوشاة ولاهل السعاية بالنميمة فى حق الاهالى ويكثر من أخذ المغارم غنيمة لنفسه وكان من دأبه انه كان يسعى فى اتلاف من امتاز من أمراء العساكر فى أيام طيودوسيس بالصداقة والاستقامة فكان يفتك بقدماء المستخدمين اذ كان يخشى من شجاعتهم

ولما كان هذا الوزير متجاوزا للحد فى الظلم والجور وكان لا يجهل الآراء العامة ويخشى القدح فى حقه من عموم الناس كما هو مذهب كثير من الحكام كان يحاذر فى غدره ويحترس كل الاحتراس خوف الملامة فنشر لائحة وأعلن فيها أن كل من طعن فى وزراء الملك أوفى أهل ديوانه فجزاؤه القتل وان من سعى بالشفاعة فى مذنب والتمس الصفح عن ذنبه فجزاؤه الجرسة بالفضيحة والعار وقد ظن ان هذين الحكمين يكفان ألسنة الخلق من القيل والقال فكان نشرهما فى اللائحة القيصرية سببا لاضرام نار الفتن والشرور فى الاقاليم الرومانية اذا ما أراد الله اهلاك نملة * سمت بجناحيها الى الجو تصعد

فلما قامت الفتنة واشتدت وانضم رؤساؤها الى زوجة القيصر طلب الجمهور من القيصر أن لا تسكن هذه الفتنة ولا يصطلح واهمعه الا بضرب عنق هذا

الوزير فتوقف الملك فى قتله فقبلت زوجته اقدامه وشكت أنه أساء الأدب فى حقها وخاض فى عرضها وأنه لا فائدة فى ابقائه فصدر الامر القيصرى بقتله فكان الحكم بقتله عاقبة سوء فعله

فبمجرد الحكم عليه بالقتل أظهر له الشماتة كل من كان يتملق له من الاهالى ومن أهل الديوان ولا أحد الا ويشبعه شتما وسبا وطعنا وضربا وأرادوا أنهم يمزقوه اربا كما قيل

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها * وكلما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فان وثبت * عليه يوما بما لا يشتهى وثبوا

(غيره)

اياك تخدعك فى الايام بارقة * من ذى خداع يرى بشرا والطافا
فلو قليت جميع الارض قاطبة * وسرت فى الارض أوساطا واطرافا
لم تلق فيها صديقا صادقا أبدا * ولا أخا يبذل الانصاف انصافا

ولكن لسعده برهة من الزمان ولطول أجله الى مجىء الاوان كانت نجاته من القتل والتمزيق على يد القديس خروصوطومس فقد جاء من الاهالى وخطب فيهم خطبة بليغة يقول فيها ان الدنيا لا تدوم على حال واحد وان الطبيعة البشرية ليست معصومة من النقائص الدنيوية وسوء المقاصد الى آخر ما قال من المواعظ فى هذا المعنى وسبب حماية هذا القديس له انه سبق من الوزير المعروف فى حقه حيث اواه اليه وحماه من أخصامه أيام وزارته والمعروف لا يضيع عند الله والناس يشهد به قوله تعالى ولا تنسوا الفضل بينكم وليس ذلك مقصورا على الشكر بل يشمل المكافأة قال لقمان لابنه يا بنى المعروف قيد لا يفكه الا شكرا أو مكافأة وقيل المعروف رق والمكافأة عتق قال الشاعر

كلما قلت أعتق الشكر رقى * صيرتنى لك المكارم عبدا
أبق عمر الزمان حتى أؤدى * شكر احسانك الذى لا يؤدى

واطلاق الشكر باللسان للثناء على أهل الفضل والاحسان انما يكون اذا قصرت اليد عن المكافأة والا وجبت المكافأة بالنعمة وكيف يكافئ من قلت بسطته وعجزت قدرته فلما الاحت للاسقف السالف الذكر فرصة تخفيف ظهره

من حمل منه الوزير المنقوب اغتنمها وتشبث بالسعى فى نجاته فخطبة هذا القديس سكن غضب الاهالى واستقر الحال على نفى هذا الوزير فى جزيرة قبرس وحقن دمه ومع ذلك فلم يصن حاكم هذه الجزيرة دمه

وقد استوزر القيصر بعده الوزراء من الاجانب والاغراب وسلمهم قياد المملكة كالسابق وقد أفضى الحال ان سلم زمام المملكة لزوجته وكانت تكره الاسقف خروصوصطومس وتعاديه وقد تسبب عن هذه العداوة من حط مقامها الامر يد عليه

عليك باخوان الصفاء فانهم * عماد اذا استنجدتهم وظهور
وان قليلا ألف خل وصاحب * وان عدوا واحدا لكثير

فحقدت عليه ونفته وكان معظما عند الاهالى لكونه كان أسقفا وكانت الاساقفة معظمة عندهم فقامت الفتنة على ساق وقدم واجتمعت الاهالى أحزابا واشهروا السلاح وأحاطوا بقصر الملك فرجف قلب الملكة من هذه الفتنة وتمثلت بين يدى القيصر واشهدت على نفسها أنها اخطأت فى نفى الاسقف وأمرت بعوده الى القسطنطينية وجلوسه على كرسى الاسقفية فعاد الى كرسيه فكان فى عودته راية الانتصار على الملكة لعدم نفوذ أوامرها فى حقه فزين الاهالى لقدومه سواحل القسطنطينية شرقا وغربا بقصد استقباله بالفرح والسرور ثم لما دخل المدينة صعد على منبره وخطب خطبة يعظ فيها بالصلح والسلم ولكن تعاظمه الدنيوى أنساه ذل حرفته الروحانية وأذهله عن حقوق خرقته الدينية وواجبات رياسة ملته ولم يعمل بمواعظ الانجيل حيث عرض بذم النساء على العموم وذكر معايبهم وتعرض للخوض فى عرض الملكة على الخصوص وقذفها حيث جعلها محبوبة لبعض الناس اللئام وان عشاقها عبدوها عبادة الاصنام ومع أن ذكر هذا لا يليق من مثل هذا القديس فقد احتمل الاهالى سماعه منه وهو لا يليق أيضا

وسمعك صن عن سماع القبيح * كصون اللسان عن النطق به
فانك عند سماع القبيح * شريك لقائله فانتبه

لاسيما وأنه مخل بناموس الدولة القيصرية فلهذا جمعوا مجمعا آخر وحكموا عليه بالنفى ثانيا بسبب ذلك وساعد على نفيه طوائف الاروسية التابعين

لمذهب أريوس فكانوا من غرض الملكة ولذلك لما ماتت الملكة بعد نفى الاسقف حزن لموتها اتباع أريوس حزنا شديدا وفرح بذلك غيرهم من النصارى اتباع ذلك القديس وبعد نفى هذا البطرق مضت سنوات كثر فيها المصائب العامة من حرق وزلازل وهدم وافساد الزرع بالجراد فاعتقدوا أن سببها هذه الواقعة

وقد سبق أنه حصل فى أثناء مملكة طيودوسيس تلطيفات للمحن والفتن المصرية فلما تولى أرقاديوس أمر أن تغلق هيا كل الاصنام المصرية ويتبع فى مصر دين النصرانية دون غيره فاستدعى أهل مصر أن يتولى على مصر من طرف الرومانيين ملك يسوسهم بما فيه المصلحة وحسم الفتن فبعث اليها الامبراطور قوانين مشتملة على التشديد وعلى زجر الاهالى وجبرهم على الاقامة بواجباتهم تحت نواب دونه وأباح لهم مع ذلك اباحات دينية اقتضتها الحالة الراهنة ورخص لهم أن يتخذوا كهانا لعبادة الشمس والبقر وأقام على النصارى بمصر ثيوفيلس بطريقا عليهم بالاسكندرية فكان هذا البطرق صاحب حمية دينية قليل المعرفة والفضل فأظهر العداوة لارباب الديانة القديمة وتعرض لرخصتهم فى دينهم وتحصل على أمر من القيصر بكسر الاصنام وهدم الهيا كل المصرية فصدر أمر القيصر بذلك وعاد الامر كما كان وجعل ثيوفيلس مأمورا بذلك وتحت أمره متوليا مصر وأميرها فبلغ الاسقف مقصوده على قدر تعصبه وحميته وبالغ فى هدم الهيا كل وتبعه أساقفة مدن مصر وقراها ففعلوا بالهيا كل كما فعل البطريق فحصل بدين مصر القديم من الشدة والمذلة ما لا مزيد عليه وصار المجد والعظمة فى مصر للبطريق وللاساقفة وفوض الحكم لهم وكانوا قبل ذلك من أيام قسطنطين مفوضين فى التعليم والتربية وتهذيب الاخلاق وتحسين العوائد دون تنفيذ الاحكام واجرائها وكان القضاة مأمورين أن ينفذوا ما تحكم به طائفة القسيسين فتم لهم النفوذ فى الحكومة وكمل لهم التداخل فى المصالح

فباضمحلال عبادة الاصنام وانقراضها على التدريج صار يلمح الانسان بطرف خفى قرب زوال التمدن القديم شرعا وسياسة وهو تمدن أزمان الجاهلية وقد عم ذلك جميع البلاد الرومانية فالامة القديمة الرومانية لا زالت على

التدريج آخذة فى محاق تمدنها وتبدل ديانة ايالاتها وانما أضر بها غاية الضرر كثرة الدخيل فى أهاليها من زمر الاجانب المتبربرين وتقلدهم للمناصب والمراتب الملكية والوظائف العسكرية وامتزاج الاغراب بأهاليها ثم استبان أن هنالك أغرابا أخرى أقوى من الرومانيين وهو الافرنجة والغوطة فقد انتشروا فى بلادهم من نهر الرين بالمغرب الى حد نهر الفرات بالمشرق وازدحموا بالهجوم على الرومانيين فبعد عشر سنوات من اغاراتهم اضمحل حال رومة حتى عاقبت رومة ملوكها وقياصرها على تعديهم وظلمهم وطردتهم واستدعت دخول الاغراب فى بلادها لان الرومانيين اختاروا أن يكونوا مستعبدين ومنقادين للافرنجة والغوطية ورضوا بذلك وآثروه على أن يكونوا احرارا تحت ملوكهم الجائرين خصوصا المشاق عليهم ظلم القياصرة بتعداد النفوس لمقاصد سيئة كضرب المغارم الجسيمة على الرؤس فى سائر البلاد والامصار وتكثير الجرائم والمكوس وأخذ الاموال على سائر الاشياء والتكليف بما لايطاق من الآصار وتجسيم الضرائب المنفرة للطباع المفضية للضياع لاسيما تعرض القياصرة لمذلة عبادة الاصنام وانحطاط قدر الاوثان حتى صار عابد الصنم عرضة للقتل والنكال فقد كسر فى ذلك العهد جندى صنم الشمس وكانوا يعتقدون أنه اله الدنيا وأخرج منه عدة من الفيران مع ما رسب فيه من فضلاتها التى هى أشد خبثا من بول الثعلبان ولم يحصل من كسره على هذه الحال أدنى فتنة لضعف دين الصابئة فى وقته ولو كان كسر تلك الصنمة قبل ذلك الزمن لقامت الفتن العظيمة وقد اسود هيكل رومة العظيم المطلى بالذهب واغبر بالتراب وصار مهجورا لايدخله عابد ولا يومئ اليه بالعبادة راكع ولا ساجد وكذلك هجرت هيا كل الاصنام الاجنبية ولم تجد من يتقرب اليها بالقربان وبالجملة فقد نسج العنكبوت على جميع هيا كل الجاهلية برومة أهلية وأجنبية ودخلت فى رومة ملة جديدة تتبختر امام هذه الهيا كل المشرفة على الخراب بقصد زيارة تربة النصارى الشهداء وانتشر دين النصرانية وانتصرت الملة المسيحية وانجبر كسر كنيسة النصارى وتأيد دين عيسى بن مريم عليه السلام بقدر ما قاساه من الشدة والمذلة وصار الناس يدخلون فى دينه زمرا وصاروا مستوين فى الحقوق الدينية حيث تمسكوا

بهذا الدين وتركوا عبادة الاصنام لاسيما فى أيام أرقاديوس على مافيها من العسف ومات أرقاديوس بعد ثلاث عشرة سنة من ولايته وكانت ولايته فى حقه كالاسر والاستعباد لانه كان فى هذه المدة اما طوع يد زوجته أو وزرائه ويقال ان هذا القيصر أوصى قبل موته أن يكون يزدجرد بن بهرام المعروف بالاثيم كفيلا على ولده طيودوسيس الثانى ولعله قصد بذلك مدخلية أهل فارس فى مصالح الروم والقسطنطينية وأنكر بعض المؤرخين هذه الوصاية بالكلية وقال انها لم تصدر من ارقاديوس بدليل أن كسرى فارس المذكور لم يتطلب الكفالة ولم يدخل نفسه فى مصلحة القسطنطينية مع ما كان عليه من الفظاظة والغلظة ولؤم الاخلاق وكان موت أرقاديوس المذكور فى سنة ٢١٤ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

(الفصل الثانى)

(فى الملك طيودوسيس قيصر الثانى الملقب بالاصغر)

تولى هذا القيصر الامبراطورية سنة ٢١٤ قبل الهجرة وحكم الى سنة ١٧٢ قبل الهجرة فكانت مدة حكمه اثنتين وأربعين سنة

لما آلت القيصرية الى هذا الامير كان عمره تسع سنين ولما بلغ سن الرشد كان حاله كأبيه أرقاديوس فى عدم الثبات وضعف العقل وقلة الادراك والتمييز فلهذا كان مدة حياته مطواعا مدة الكفالة وغيرها لوزرائه أو لاخته الكبيرة المسماة بولشيرية وكان الحكم فى الحقيقة للوزراء ولهذه الاميرة فكانت أخته المذكورة تسعى دائما فى تهذيب اخلاقه واصلاح شؤنه وتقويم أوده لعله يحسن تدبير المملكة كجده طيودوسيس الاول ثم حكمته أيضا زوجته المسماة أطنايس ثم حكمه خروساف الطواشى المهردار بديوانه

وكان حق الكفالة بموجب القوانين الرومانيين لعمه أونوريوس قيصر المغرب بمدينة رومة ولكن لم يرض أعيان المملكة القسطنطينية بتقليد عمه بكفالته وكان من الاغنياء الملتزمين أصحاب الجاه والبأس شخص يسمى أنطميس وكان مشهورا بالمعارف والاستقامة وكان قد تقلد نيابة الايالات المشرقية فكان قائما مقام القيصر بالمشرق فولاه وجوه القسطنطينية كفالة

الملك مدة قصورة فتقلدها ولم تطل مدة كفالته للقيصر حيث اختار الراحة لنفسه والاشتغال بأشغاله الخصوصية وآثر ذلك على نيابة المملكة فتنازل بطوعه واختياره عن النيابة لاخت القيصر المذكورة حيث رغبت فى ذلك فانمحت عنه النيابة المشرقية والكفالة القيصرية واستولت بولشيرية على سرير الملك ولم يكن عمرها اذذاك الاست عشرة سنة فقامت باعباء الملك كما يجب مع غاية الشجاعة والحماسة واستقامة الحال وقدلقبها المجلس بلقب أغسطوسة فبالنيابة عن أخيها حكمت بالاتحاد مع وزرائها مملكة المشرق نحوأربعين سنة مع غاية الفخار فكما ورثت هذه الاميرة فضائل جدها طيودوسيس الاكبر ونالت من مكارم اخلاقه الحظ الاوفر كما ورثت عنه الشجاعة والبسالة وبلغت فى فضل التدبير كماله وهذا يؤيد أن قولهم فى معرض أل الجنسية الرجل خيرمن المرأة معناه ان جنس الرجل خيرمن المرأة بقطع النظرعن الافراد فانه قديوجد من افراد النساء من هوأفضل من الرجال كهذه القيصرة بالنسبة لاخيها ويصح أيضا قول من قال فى مثلها

فلوكان الرجال كمثل هذى * لفضلت النساء على الرجال

(لاسيما وأنها كما يقال)

لها حكم لقمان وصورة يوسف * ونغمة داود وعفة مريم

فكانت ذات عدل وانصاف بعيدة عن الجور والاعتساف أسكنت الفتن وأزالت المحن وبها اطمأنت نفوس الرعايا وانتظم حال الملك بين البرايا ومالت اليها القلوب القاسية لحسن صنيعها ومعروفها ورسوخها وشجاعتها الوافية لاسيما وقدحسمت الفتن والزور ففى أيامها انقطعت المنازعات وتناسقت الامور ولم يرجف هذه القيصرة من الحوادث الخارجية الااغارة طائفة الهونية من قبائل التتار وهجومهم من بلاد المجار على ممالك القسطنطينية تحت رياسة ملكهم آطيلا الجبار فصالحتهم هذه الاميرة بتقرير خراج من الدرهم والدينار فبهذا دفعتهم عن الهجوم عن البلاد وارتاح من اغارتهم جميع العباد

وقدسعت هذه المملكة فى تقدم العلوم والفنون والامور الصناعية وكانت تحسن اللغة اليونانية واللاطينية وقداشتغلت أيضا بتعليم أخيها العلوم

والمعارف

والمعارف والفنون واللطائف وأشغلته بذلك لتحسن الحكم عليه زمنا طويلا فجلبت اليه كبار العلماء ومشاهير الحكماء ممن لهم شهرة فى العلوم المتنوعة الاصلية والمتفرعة

وكان هذا القيصر مع قلة فطنته مهيبا سالكا سبيل الجد لا المزاح حافظا لناموسه قابلا للتعليم وانما لم يكن مستجمعا الصفات الرجال الراسخين فى صفات الكمال فلم يكن منطبعا على تحييز ما قاله ولا ثابتا فى كلامه وكان ممدوحا بالعفة والقناعة والرفق والرأفة والحلم ولم تكن هذه الصفات غريزية له ولا طبيعية بل مكتسبة بدليل عدم ملازمة الثبات لها يعنى أنه لم يكن متمكنا من فضائلها فكان مدة حياته أشبه بالطفل فى المهد يحيط به النساء والطواشية من كل جانب وكان شغله النقش والرسم والصيد والقنص ولما كان خطه فى غاية الحسن واللطافة لقب بالخطاط وكان فاتر الهمة فى المصالح العمومية يميل الى الكسل والدعة حتى كانوا اذا أحضروا له الاوراق ليطلع عليها ويشملها بامضائه أهمل قراءتها وامضاءها ولما رأت أخته هذا الاهمال الكلى وأرادت أن تشعره بدرجة تكاسله ومبالغته فى الاهمال حررت له خطابا عن لسانه وأظهرت أن فيه مصلحة للحكومة مضمونه انى خلعت نفسى من المملكة ثم قدمته اليه فأمضاه بدون تلاوته ثم أيقظته أن يطلع عليه ومزقته امامه ليقف على عيبه ويحاذر فى أموره كلها وكان ابتداء مملكته دالا على نصرة الروم ونجاحهم فى مشروعهم فقد غلب فى بادية أمره الهونية لما دخلوا فى ايالة روم ايلى مع ملكهم المدعو هولادين فحضر القيصر ملكهم وجنده وطلب منهم الخروج من هذه الايالة فأقسم ملك الهونية أن لا يدع الفتوحات وأن لا يزال يتغلب على الولايات ولا ينتهى عن ذلك الا اذا بلغت فتوحاته مغرب الشمس فانتصر عليه القيصر وحنثه فى يمينه وطرده من روم ايلى وجبره على تعديه نهر طونة وعوده الى بلاده وأهلك القيصر جنود الهونية فى هذه الواقعة

فلما رأت أخت هذا القيصر أن أخاها قد نجح فى أموره واستحق أن يتزوج بحثت له عن زوجة مشهورة بالفضل لا بالنسب وبالعقل لا بالحسب وكان فى مدينة آتينا فيلسوف يسمى ديونقوس وله بنت من أجمل بنات اليونان تسمى

أطنايس ذات علم وفصاحة ودربة ظرافة وصباحه متفلسفة كاتبها ناطقة ممتازة بالخطابة والبرهان وكان أبوها له من الذكور ولدان فتبرع لهما بجميع أمواله ولم يورثها اعتمادا على أنها في غنى بالجمال عن المال ولكن بعد وفاته تطلبت حقوقها وتظلمت للملكة الرومانية وبثت شكواها للاميرة أخت القيصر فعجبت الاميرة من لطفها وحسنها ووفور عقلها ووجدتها أهلا لان تكون زوجة للقيصر أخيها فلما بلغ القيصر أمرها وعلم أنها تصير امرأته تولع برؤيتها واشتاق الى ذلك فلبس تبديلا وأتى متنكرا عند أخته فبوقوع بصره عليها وخطابها أخذت بمجامع قلبه فعقد عليها وأدخلوها المعمودية لتنصيرها وسموها أودقسيه فلما علم أخواها بأنها صارت زوجة للملك خشيا صولتها فاختفيا فبحثت عنهما وأرسلت من كشف عن حالهما فوجدا ومثلا بين يديها فلاقتهما بالبشاشة والطلاقة وأعطتهما المناصب العالية في المملكة ومع أنها ارتفعت بالزوجية الى درجة القيصرية فلا زالت مواظبة على ما تعودت عليه من أشغالها أيام فراغها مطالعة ودراسة فنظمت ما في التوراة وألفت تآليف جديدة

ولما كانت قد دخلت في دين النصرانية وظهرت بهذا الدين الجديد أرادت أن تظهر الشعار فقصدت مزار بيت المقدس وقدست وذهبت الى أنطاكية وخطبت بمجلس أنطاكية خطبة بليغة أثرت مواعظها ونصائحها في القلوب والنفوس حتى نافست كبار الاساقفة بمقالها وأصحبت معها من القدس الى القسطنطينية ما يتبرك به من آثار صلحاء القديسين والعباد والزهاد

ومن المعلوم أن يندر اجتماع أختين أو قريبتين متحدتين متحابتين في بيت واحد وعائلة واحدة فمن باب أولى وجود ذلك في القصر الملوكي والعائلة القيصرية وذلك أن زوجة القيصر طمعت أن يكون لها النفوذ على زوجها وعلى المملكة بتمامها وأن يكون بيدها الامر والنهي والحل والعقد وقد كان هذا النفوذ قبل الزواج في يد أخت القيصر فلم ترض التنازل عنه لزوجته بل استمرت ماسكة زمام الحكومة ومن هذا حصل الفشل والاختلاف بين الاميرتين وترتب على اختلافهما اختلاف الآراء والاحزاب فانقسم الديوان الملوكي الى غرضين أحدهما متعصب لزوجة القيصر والآخر منتصر لاخته

فتغلب

فتغلب حزب الاخت على حزب الزوجة فانتصرت على الزوجة وكان لها تمام النفوذ ثم وقع الشك فى عفة زوج القيصر واتهمت مع جماعة من أخصائها المتعصبين معها من الديوان بالعشق والميل لها فصدر الامر بنفيهم فكان هذا بمنزلة غضب الملك عليها وسوء ظنه فيها

فاستأذنت بان تخرج من القصر الملوكى وتعتكف فى بيت المقدس فرضى القيصر بذلك فذهبت الى القدس واعتكفت هنالك فلم يزل أخصامها يقتفون أثرها بالتجسس ويتهمونها كالسابق بما لا يليق مع اثنين من القسيسين فعذبوهما بالقتل بخصوص هذا السبب

فغضبت من هذه التهمة وتسببت فى قتل قاتل هذين الحبرين فقويت التهمة بذلك بل بلغت مبلغ التحقيق والتأكيد

فمكثت ست عشرة سنة معتكفة منزوية فى زوايا الاهمال والنسيان وهى دائما تبرئ نفسها من ذلك وتشتكى بأنها متهمة ظلما وعدوانا ثم صار اعلان الحرب بين فارس والقسطنطينية بسبب فتك الفرس بالنصارى فمكث الحرب سنتين ثم بعد ذلك عقد الفريقان مهادنة ومتاركة مدة مائة سنة وانقسمت بلاد الارمن بين الرومانيين وفارس وذلك فى عهد كسرويه بهرام جور بن يزدجرد الاثيم وقد كان بهرام المذكور من أمره ان أباه سلمه للنعمان بن امرئ القيس أحد ملوك اليمن من العرب وهو صاحب الخورنق ليربيه ويعلمه الفروسية فلما مات أبوه تولى الملك كسرى خسرويه من ولد أردشير فلما بلغ ذلك بهرام جورا انتصر بالنعمان ووقع بين بهرام وخصمه مراسلات كثيرة وآخر الامر اصطلحا على أن يجعل التاج بين أسدين شبلين فمن تناوله منهما فهو الملك فوثب بهرام وقتل الشبلين ولبس التاج واستقر على سرير الملك وكان عاقلا عادلا صوالا على اعدائه وكان يقول الشعر بالعربية فمن شعره يوم ظفر بخاقان الترك

أقول له لما فضضت جموعه * كأنك لم تسمع بصولات بهرام
وانى حامى ملك فارس كلها * وما خير ملك لا يكون له حامى

وكان نقش خاتمه بالافعال تعظم الاخطار وينسب اليه المؤرخون أفعالا عجيبة نظير ما ينسب لهرقولس الرومى اليونانى مما لا يكاد يصدقه العقل فمن ذلك ما يقال انه دخل أرض الهند متنكرا فمكث حينا لا يعرف حتى بلغه أن

فيلا هائجا بموضع قد قطع الطريق وأهلك الناس فسألهم أن يدلوه عليه فرفع أمره الى الملك فأرسل معه من يدله فلما انتهى اليه صعد الى شجرة لينظر ما يصنع بهرام مع الفيل فلما رآه الفيل أقبل اليه فجعل بهرام يرميه بالنبل و يثبت النشاب بين عينيه ثم دنا فأخذ بخرطوم الفيل وجذبه جذبة خرّ منها ميتا ثم احتز رأسه وأتى به الى الملك فحياه الملك وأحسن اليه ثم ان ملكا من أعداء ذلك الملك أقبل نحو بلاد الملك الذى بهرام عنده فجزع ذلك الملك منه من كثرة جنوده الا تية نحوه فقال بهرام له لايهولنك أمره فركب بهرام وقال لاساورة الهند احرسوا ظهرى وانظروا الى عملى وكانوا اقواما لا يعرفون الرمى وأكثرهم رجالة وحمل عليهم حملة هزمتهم ثم جعل يضرب الرجل فيقطعه نصفين و يأتى للفيل فيضرب مشفره و يكبه على أم رأسه و يتناول عليه فيقتله و يأخذ الفارس فيذبحه على قربوس سرجه و يتناول الرجلين فيضرب أحدهما بالا خر فيموتان معا و يرمى فلا تقع له نشابة فى الارض فولوا منهزمين وحمل أصحابه الذين كانوا معه يحرسون ظهره عليهم فاكثروا القتل فيهم فأنكحه ملك الهند ابنته وأقطعه من بلاده جانبا كبيرا ثم انصرف بهرام الى مملكته ولم يزل تحمل اليه أموال تلك البلاد والظاهر أن مثل هذا من اختراع الحكويين كما قيل فى ذلك

لى صاحب فى نقله ما حكى * للكذب عن آبائه وارث
فكل ما ينقله مثل ما * قال الحريرى حكى الحرث

وانما مقاسمة بلاد الارمن بينه وبين الروم تدل على نخوته ولم يعلم من وقائع هذه الحروب الغريبة الاحادثة واحدة وهى ان أقاسوس بطريق أحد مدينة ديار بكر فادى بجميع ما عنده من أوانى الذهب والفضة الموجودة فى كنائسه سبعة آلاف من الفرس كان أسرهم الروم فاشتراهم هذا البطرق بتلك الاموال من الرومانيين وأطلقهم وبعثهم من عنده الى ملكهم كسرى فارس ليريه الفرق بين أصول دين المجوسية التى تميل الى سفك الدماء وقواعد دين النصرانية المبنى على مكارم الاخلاق وحماية من دخل الحمى والعفو عن الجرم

وهيهات أن ينفع الوعظ فى أمة فارس وقل أن يحملهم كلام مثل هذا البطرق

على

على رفض دين المجوسية والتخلق بمكارم الاخلاق العيسوية لاسيما وان لهم مكارم اخلاق خاصة بهم فان سفك دماء أسراء الرومانيين قد لا يرونه من المثالب ولا يعتقدون أنه يخرجهم عن مكارم الاخلاق كما يحكى عن بهرام جور أنه صرع فى صيده حمار وحش وقد انفرد عن أصحابه فنزل عن فرسه يريد ذبحه ومر براع فقال له أمسك لى فرسى وتشاغل بذبح الحمار وحانت منه التفاتة فرأى الراعى يقلع جوهر عذار فرسه وكان العذار ياقوتاً أحمر فحوّل بهرام جور وجهه عنه وقال فى نفسه تأمل العيب عيب وعقوبة من لا يستطيع الدفاع عن نفسه سفه والعفو من أفعال الملوك وسرعة العقوبة من أفعال العامة فلما رجع الى العسكر قال له الوزير أيها الملك السعيد انى أرى جوهر عذار فرسك مقلعا فتبسم وقال أخذه من لا يرده ورآه من لا ينم عليه فمن وجد منكم صاحبنا فلا يطالبه فهذه مكارم أخلاق علية دلالتها على محاسن أخلاق ملوك الفرس جلية

وقد سبق أنه كان من أعظم المصائب فى دولة طيودوسيس الثانى اغارة الهونية وملكهم آطيلا وأن هذا الملك قد أرعب أخت القيصر المذكور المقلدة الولاية والواقع أنه أرجف أهل الدنيا بأسرها باغاراته الجبروتية كما فعل ذلك أبناء جنسه وهم هلاكو وتيمورلنك ولهذا لقب آطيلا بعذاب الله ولولا أنه حصل قبل توليته ملكا على طائفته اضطراب عظيم بين فرق الهونية وجدال شديد حصل فيه تمزيق بعضهم من بعض لعظمت قوة ملكهم جدا واستفحل أمره ولم ينج من تعذيبه شىء من الممالك ولكن اختلفت كلمة طوائف الهونية فى مبادى أمرهم وشروعهم فى الاغارات على البلاد وقصد السوء للعباد فأدى الشقاق بينهم الى أن بعضهم فارق الجماعة وانضم الى طائفة الغوطية وصار من أحزابها وانحاز البعض الآخر الى الدولة الرومية وتعصب لها ودخل فى خدمتها حتى انه كان من ضمن جنود طيودوسيس الثانى ملك من ملوك الهونية منتظما فى سلك جيوشه وكان جمهور أمراء الهونية ولاة على بلاد الالمان يعنى النمساوية حتى ان الالمان لما تحققوا وقوع الفشل بين أمراء الهونية اغتنموا فرصة النزاع بصرف همتهم فى الخروج عن طاعة هؤلاء التتار المتبربرين المغتصبين لبلادهم وكان طيودوسيس الثانى قيصر

الرومانيين هو الذى حمل الالمان سرا على القيام والخروج عن طاعتهم وكان قائد طائفة الهونية وحاكمها فى البلاد الالمانية أميرا يسمى روجيلاس وكان له الرياسة العظمى أيضا على جميع قبائل الهونية خارج ألمانيا وكان يهدد قيصر قسطنطينية ويتوعده بالاغارة عليه فلما ارتجف طيودوسيس منه وارتعدت مفاصله من سطوته وبأسه أرسل اليه سفراء من طرفه لتسكين غضبه عليه ومنع هجومه على بلاده فبوصول سفرائه اليه وجدوه قد مات وقد ورث رياسته الملوكية اثنان من بنى عمه وهما آطيلا وأبليدا فاستقبل هذان الاميران سفراء القيصر وهما على ظهر خيلهما كعادة ملوك هؤلاء القبائل التتارية الرحالة النزالة فان الرئيس عندهم لا يعقد مجلس المصالحات ولا يبت أمر المهادنات الا وهو على ظهر جواده فاشترط هذان الاميران على سفراء الرومانيين زيادة الجزية المقررة التى كانت تدفعها القسطنطينية قبل ذلك للهونية وأن يسلم لهما القيصر احدى المينات الرومانية التى على نهر طونه لتكون خالصة حرة لاولاء للرومانيين عليها وأن لا تعقد دولة القسطنطينية معاهدة أيا ما كانت مع أى عدو من أعداء الهونية فرضى القيصر بهذه الشروط حين عرضت عليه من طرف السفراء مع أنها مؤذنة بالمذلة والعار ومخلة بناموس دولة الرومانيين فكانت هذه أول مرة رأى فيها الرومانيون آطيلا

وذلك أن سفراء القسطنطينية لما اجتمعوا به تأملوا أوصافه فوجدوه على صورة أهالى القلموق الذين يقال لهم الكيماكية عريض الرأس أصفر اللون أفطس الانف قصير القامة مربع الهيكل يكاد يقدح الشرار من عينيه كالوحش الكاسر

زبانية النيران تكره وجهه * وحين تراه تستعيذ جهنم

وكان قد بلغهم قبل الاجتماع به أنه فظ غليظ جبار عنيد متولع بالحروب يحسن سياسة العساكر ورياستهم ولكنه فى ميدان الحرب دون ذلك لا توازى شجاعته تدبيره ومن المعلوم ان كل ملك من الملوك ولو تمرد وتجبر وكثرت خصاله الذميمة فلا يخلو من محاسن ممدوحة وفضائل ليس لمثله عنها مندوحة فكان خير فضائل هذا الملك الهونى الوفاء بالعهد وصدق القول فمتى نطق بشئ صدق

فيه وان وعد وفى وكانت عليه سيما الهيبة فكأنه مخلوق ليحكم البلاد ويقهر العباد وكان يتشبث دائما بأن ينشر فى قبيلته الجهالة ويستغفل قومه ويشيع بينهم الاوهام الفاسدة والعقائد الكاسدة ليعتقدوا أنهم دونه فى درجة العقل وميزان المعرفة وفى الحقيقة كانت درجته فى المعارف وفى الوقوف على أحوال زمانه أعلى طبقة من رعيته حتى كادوا يعتقدون أنه ليس من البشر

فمما يحكى أن بعض الرعاة وجد فى حافر بقرته جرحا مشقوقا ولم يعرف سببه فبحث عن الاسباب الموجبة لذلك فوجد أنه داس برجله على طرف سيف مغروز فى الارض ظاهر حده على وجهها لحفر الارض وأخرج السيف منها وذهب الى الملك آطيلا ليريه له فأخذه الملك وأشاع فى رعيته أنه قد عثر بسيف المريخ القاهر وان هذا السلاح الاقدس شعار المريخ القاهر الذى هو صنم الحرب عند القدماء من الجاهلية وأنه منحه لهذا الملك من فضله ايذانا له بالنصرة على بلاد الدنيا فلما سمع الهونية بتلك الكرامة المدبجة المختلفة صار سيف المريخ معظما عندهم يعبدونه كالمريخ القاهر فكانوا يقربون له القربان واذا ذهبوا الى الحرب نذروا لخدمته فى كل مائة من الاسارى تقع فى أيديهم أسيرا واحدا فهذا مما يدل على دهاء هذا الملك

ومن المقرر فى تاريخ الرومانيين ان رومة فى مبدأ أمرها تملك عليها ملكان أخوان أحدهما يدعى رومولوس والآخر روموس وأن الاول منهما قتل الآخر حسدا كواقعة هابيل وقابيل فكذلك آطيلا قتل أخاه ابليدا حسدا فقد أشبه رومولوس فى مجرد قتل أخيه ليستبد بالاحكام وبعد أن قتل أخاه وانقادت له وحده جميع قبائل ملته الهونية وغيرها من بقية القبائل التتارية تغلب بعد جملة سنين على سائر القبائل الجرمانية المعبر عنهم بالالمان كما سبق واستولى أيضا على كافة الامم الشمالية كالاسوج والنروج والدانيمارقة وخشيه أمم الغلية والبرغونية الساكنة فى بلاد فرانسا بل قد دخل بلاد فرانسا بجيش جرار وتوغل فيها الى مدينة أورليان ولكن أخرجه من هذه البلاد ثلاثة رؤساء وهم ايطيوس قائد عساكر رومة ومروويه ملك فرانسا وطيودوريق ملك القوطية فانهم دفعوه عن البلاد وأوقعوا به وقعة

عظيمة بقرب شالون فى اقليم شمبانيا وقد خسر فى هذه الوقعة ربع جنوده ورجع القهقرى الى ايطاليا وبالجملة فقد استولى على جميع الامم التى يسميهم الرومانيون بالامم المتبربرة يعنى الاعجام الخشنية فاتسعت دائرة ولايته من جهة نهرى الاتل وطونه وبحر الشمال ونهر الرين وجبال ألبه بايطاليا فكان هذا الملك مهيبا فى سائر الممالك يعتقدون أنه صاحب خروج وان له معرفة بالسحر والشعبذة وأنه متى توجه الى مملكة لا يصده من التغلب عليها شئ وكان اذا اقدم على مملكة من الممالك شرقا أو غربا سجدت ملوكها بين يديه حتى تصل تيجانهم على الارض ويفتخرون بحضورهم فى مجلس مشوراته ويعدون أنفسهم من وزرائه وأمرائه وطالما كان تشاهد صفوف الامراء ورؤساء القبائل حول قصره يتباهون بمحافظة ذاته الملوكية ويستعدون لخدمته فى أى مأمورية وكانت قبائلهم وطوائفهم منظومة فى سلك جنوده داخلة تحت أعلامه وبنوده وكان جنده نحو ثمانمائة ألف مقاتل وقد بعث فرقة من جنده للاغارة على بلاد فارس وامتدت اغارته فى المشرق حتى وصلت الى الشام وكانت مجرد اغارات لا فتوحات ومن المعلوم انه كان بينه وبين طيودوسيس قيصر عقد مصالحة كما سبقت الاشارة اليه وانما دأب الملل التى جميع أهلها حربية بالطبع كملة الهونية لا تستطيع أن تبقى على الصلح أمدا طويلا فلهذا ادعى الهونية بعد زمن أن عقد الصلح بينهم وبين القسطنطينية قد انتقض بعدم وفاء القسطنطينية بشروطه وزعموا أن الروم قد سرقوا منهم فى احدى مينات طونه الحرة خزينة أحد أمرائهم وطلبوا من القيصر أن يرجع لهم هذه الاموال وأن يسلم لهم أحد أساقفة النصارى ليصنعوا فيه كيف شاؤا فامتنع ديوان القسطنطينية من الاجابة الى شئ من ذلك فأشهروا الحرب وأغاروا على بلاد الروم ودخلوا مدن بلاد القسطنطينية وفى طريقهم سلبوا ونهبوا وأسروا وهدموا اقلاعها وقصورها وسبوا نساءها وأولادها ودمروا المدن التى بين البحر الاسود وخليج البنادقة

فجميع هذه النكبات لم تبعث همة طيودوسيس على التحرك من ديوانه لخوفه وجبنه لانه كان يجبن عن أن يقود جنده بنفسه فأناط مدافعة الهونية لامرائه وقواده وكانوا اذ ذاك لا يستطيعون جمع العساكر ولا يحسنون تنظيم

الجندولا ترتيب الصفوف للقتال فانهزم جند الرومانيين فى واقعة بقرب نهر طونه وفى أخرى بسفح جبال البرقان جهة أدرنه وانهزموا هزيمة ثالثة بسواحل روم ايلى وكانت هزيمة عظيمة على جنودهم دمرتهم ولم تبق منهم باقية وعثا آطيلا فى ارض مقدونيا وأفسد الحرث والنسل وأحرق نحو سبعين مدينة وجال فى أرض روم ايلى حتى وصل الى رساتيق القسطنطينية وضواحيها فلم يحجزه عن الدخول الا أسوار هذه المدينة لانه كان لا يحسن الحرب الا فى السهول والخلا وكان يجهل محاصرة المدن والقلاع ولما كان حرب آطيلا يعد من العجائب وكان دائما يعقبه التدمير العمومى باهلاك البلاد والعباد ولم تكن مصائبه كمصائب الحرب المعتادة التى تشمئذ منه النفوس ولا تصل الى هذه الدرجة أرجف قلوب أمم أوروبا وآسيا غاية الرجفة وأزعجهم غاية الازعاج لان تتار الهونية كانوا اذا انتصروا على قبيلة من القبائل أسروا سائر أهلها وأدخلوا من كان يصلح للخدمة العسكرية أيا ما كان فى جنودهم وضربوا الرق على الشيوخ والنساء ور بما قتلوهم بدون أن يرقوا لحالهم وكانوا اذا كثر عدد الاسرى كثرة بالغة وزاحموا الهونية على الزاد والراحلة ذبحوا القدر الزائد ومع ذلك فقد التحد بجنود الهونية كثير من الروميين وامتزجوا بعساكرهم فلم يطق الرومانيون التربية الهونية ولا التخلق باخلاق هؤلاء المتبربرين لانهم كانوا كالاسود الكاسرة والوحوش الثائرة حربيين بالطبع فبهذا كانوا يحتقرون الفنون والمعارف ولا يميلون الى العمل بموجب أصول وقوانين ونهاية ما عندهم أنهم تعلموا بعض فروع ضرورية لحفظ أنفسهم كالطب فكانوا يحترمون هذا العلم دون غيره وكذلك اجتهد بعض دعاة النصارى فى تنصير أفراد قلائل منهم فصار بعض منهم نصارى على مذهب أريوس فانتشر هذا المذهب فيما بعد تدريجا عند الامم الشمالية

فبعد تلك الوقائع السابقة التى انهزم فيها طيودوسيس الملقب بالقيصر المنصور على عادة الرومانيين القديمة كاسلافه وان لم يتحقق فيه هذا الوصف بل كان وصفه بذلك محض لقب لا معنى له لم يكن له جيش يستعد به لقتال عدوه ويدافع به عن نفسه وكان هذا القيصر أضعف من أن يحيى قلوب رعاياه وينعش نفوسهم ويقوى عزمهم ويحرضهم على قتال الاعداء ويجعلهم جميعهم جندا

يتحامى عن الوطن فلما لم يستطع أن يفعل ذلك اعتكف فى قصره الملوكى
كالراهب ولم يخرج منه الا الكنيسة فكان عاجزا عن حرب آطيلا وقتاله
فاضطر الى طلب الامان وعقد مع خصمه صلحا مؤسس الشروط على المذلة
والعار حيث ترك لدولة الهونية الارض التى فى جنوب نهر طونه من مدينة
بلغراد الى داخل ترحالة بيلاد روم ايلى والتزم هذا القيصر أن يدفع كل سنة
ألفين ومائة رطل ذهب فى كل سنة وستة آلاف معجلة غير ذلك بوصفه مصروف
الحرب وكان قد ذهب ما فى أيدى اهالى الرومانية قبل ذلك وكان أيضا جباة
الكارك والعوائد والمكوس أرباب خيانة واختلاس فبهذا كله تأخر دفع هذه
المغارم عن مواعيدها وتعذر على القيصر دفعها
وكذلك كان ما بقى من عساكر الرومانيين قد داخله الجبن والفتور كما حل
الخوف والرعب فى صدور أهل ديوان القيصر مما أعقبهم الذل والعار
فانعكست أحوالهم ولم يقم لهم قائم من ذلك الحين وانما انتصبت مدينة من
مدن روم ايلى تسمى أسوموس كانت ذات نخوة وفتوة فأظهرت الحماسة
الرومانية وتمسكت بالاصول القديمة المؤسسة على الهمم العلية وأعلنت انها
لا ترضى لنفسها بالدخول تحت شروط هذا الصلح المشتمل على المسبة والمعرة
وأن الرضا به دونه خرط القتاد وأبت أن تسلم نفسها للهونية الا بالحرب
والجهاد فخرجت الاهالى خارج الاسوار وطلبت النزال مع الهونية اما
للنصرة أو الانكسار فاجتمع عليهم الجم الغفير من العساكر الفارين ومن
الاسرى الهاربين فعظم جيش هذه المدينة وضخم غاية الضخامة وأوقعت
بالهونية فى واقعة هائلة ولا هول القيامة فهزمتهم شر هزيمة وطردتهم عن
أرضها وآبت بأعظم نصرة وغنيمة
فشكا آطيلا للقيصر من عدم وفاء هذه المدينة وغيرها بالشروط وطلب منه
اكراه أهلها على الانقياد للهونية وتسليم المدينة على أصول ما هو فى العقد
مربوط فأمرهم القيصر بالوفاء فلعلو هممهم وسمو شيمهم لم ينقادوا لامر
القيصر واظهروا الجفاء وعصوه كما عصوا الهونية وأجابوا أن الصلح المبنى على
الذل والعار والتحقير والصغار لا يعد من القوانين الواجبة الامتثال وأن
انقيادهم لمثل هذه الاوامر طوعا واختيارا من قبيل المحال فصرف النظر

عنهما

عنهما كل من ملك الهونية وطيودوسيس قيصر الرومانية لما رأوا عندهم من الشجاعة وشرف النفس الابية وكان من جملة شروط الصلح أن القيصر التزم لملك الهونية أن يسلم له كل من فرّ عنده من الالمان والغوطية والطوائف التتارية وكل من هرب من جيش آطيلا ودخل فى جيش القيصر فلم يستطع الروم الرومانيون أن ينجزوا هذا الشرط الصعب المرام لانه يترتب عليه هلاك ضباط هونية عظام لاسيما أنهم اجتهدوا فى حرب الروم وساعدوا كل المساعدة وانتظموا فى جندهم وامتازوا عندهم وحازوا فى الميدان ما لا مزيد عليه من الفائدة وأما آطيلا فكان جبارا عنيدا وشيطانا مريدا فتمادى فى طلب تنجيز هذا الشرط الصعب الاجراء فبعث اليه القيصر سفارة لعله يلين قلبه ومع ذلك فدس عليه القيصر سرا دسيسة حيث أغرى بعض وزرائه لقتله ورشاهم وأفسدهم بالبرطيل كما سيأتى بيان ذلك فقابل ملك الهونية أهل السفارة بغاية الازدراء والتحقير وأذلهم غاية الاذلال ووضع مقامهم الخطير كما كان الروم فى أيام غيرهم يعاملون بمثل ذلك سفراء الملوك الاجنبية فكما تدين تدان وكما تهين تهان وأبقى آطيلا السفراء عدة أيام خارجا عن مقر حكومته قبل أن يمثلوا بين يديه حتى أدركوا دلائل العكس والطرد وعدم القبول لديه

فانظر كيف كان حال هؤلاء الامراء الايلجية حيث جاؤا الى هذا الملك من القسطنطينية التى هى مدينة عظيمة متحفة مزينة بالقصور العالية المزخرفة ودخلوا فى قرية آطيلا المتبربر المخشوشن مع أنهم رسل من طرف قيصر عظيم الشان جليل البرهان يتضرعون الى جلف من الاجلاف ويعهدون من الحقارة والاستخفاف فصاروا قبل اجتماعهم به يمرون على كثير من الصفوف ما بين خفر وحراس لابسين من الحلل البهية خير لباس مما سلب من الروم واليونان فى ميدان الحرب والرهان فلا زالوا يشقون الصفوف بين الرماح والسيوف حتى وصلوا ديوان الملك فوجدوه لابسا ملابس الآحاد من التتار بدون زينة ولا طراز افتخار ولا شعار اعتبار ولم يكن سريره الملوكى الا كرسى العادة وانما هو صاحب السعادة فسجدوا أمامه وخضعوا له كما يقتضيه مقام المملكة والزعامة وقلوبهم فى أثناء ذلك كله ممزقة وأفكارهم فى بحر

الوساوس مستغرقة
فعرضوا عليه قضاياهم المشتملة على مصلحة الارسالية وأوضحوا أسباب السفارة والمأمورية وتكلموا في شأن ذلك بألفاظ دالة على الكبرياء والفخار على العادة الرومية القديمة أيام العز والاعتبار مما لا يليق في الحالة الراهنة لا يصلح الا للمغاشة حيث انهم موسومون بوسم الانهزام وموصوفون بالضعف وانحطاط المقام وما علموا أن لسان حاله ينشدهم

لم ألق مستكبرا الا تحوّل لى * عند اللقاء له الكبر الذى فيه
ولا حلا لى من الدنيا وزهرتها * الا مقابلتى للتيه بالتيه

فلم يجبهم آطيلا الجبار العنيد الا بألفاظ التخويف والتهديد حيث قال لهم مغضبا أتظنون أنى اذا أردت النكاية هل تبقى مدينة من مدنكم على وجه الدنيا باقية وكيف تصادفها هذه العناية فاذا أردتم لمدنكم التدمير فلا ينفع التدبير فالانوا له القول وتلطفوا معه فى الخطاب فانطبع ورق وراق فتعشموا الخير من انطباعه وطمعوا فى حسم مادة النزاع والشقاق ثم دعاهم الى وليمة بهية حافلة جليلة الجمعة
ومن الصدفة والاتفاق أنه كان فى ديوانه أيضا سفراء دولة رومة فأجلس سفراء كل من الدولتين فى المجلس بعد أمراء الهونية تحقير الرجال الجانبين وصاروا مدة تعاطى الطعام يسقون الندماء على عادة ملوك البلاد الشمالية كثيرا من الشراب بحضور أصناف اللاعبين وأرباب الهزل والمزاح وسائر أصناف الالعاب وأحضروا أيضا أسراء البلاد المغربية أمام أهل المائدة للمصارعة وجنود التتار تصنع صورة محاربة صناعية بارعة والاغانى تتغنى بحروب طوائف الهونية وانتصار ملكهم آطيلا وتغلبه على سائر بلاد البرية وكانت نساء الهونية حاضرة فى المائدة مع رجال الرومية يتكلمن مع أهل المشرق بدون استحياء ولا احتفال واختلطن معهم ولا اختلاط الرجال مع الرجال
ثم اقتضى نظر ملك الهونية أن يبعث سفراء من عنده لملك القسطنطينية كلهم متميزون بعلو المناصب والمراتب ورئيسهم يسمى أيديقون وكانت أخت القيصر وكفيلته بولشيرية قد انكسرت شوكتها وضعف نفوذها فى الديوان القيصرى وصار الحل والعقد بيد الطواشى المسمى خروساف فكان له النفوذ

الكامل عند القيصر بل كاد القيصر أن يكون فى قبضة يمينه فاتحد هذا الوزير مع بعض من أرباب الديوان ممن يعتمد عليهم ومنهم ويجلوس له اليد فى المملكة واتفقوا على أن يرشوا ايديقون رئيس السفارة الهونية ليشير فتنة على آطيلا ويقتله وكان ذلك أيضا بمعلومية القيصر ورضاه بدفع هذه الرشوة ومن العجيب أنه كان مستقيم الحال يكره الباطل وأهله ولما علم آطيلا بذلك كان أكرم نفسا من القيصر فى ذلك الوقت حيث وقع فى يده المذنبون المتعصبون على قتله ولم ينتقم منهم بل أعادهم الى القسطنطينية كما سيأتى بيانه وصفح عن خيانة الملك المشارك لهم فى الجناية ليريه أنه أشرف نفسا وأن فيه شمائل الملوك ومكارم أخلاقهم وأن بداوة ملوك البدو أسلم من حضارة ملوك الحضر فقد غدر ملك الروم المتمدن وصفح ملك التتار المخشوشن

ان كنت ترغب فى شأو الكرام فسر * فى الناس بالفضل والدين الذى شرعوا
حافظ اذا غدروا واشجع اذا جبنوا * واحلم اذا جهلوا وابذل اذا منعوا

وذلك أنه لما كان ويجلوس ترجمان السفارة فى هذه القضية وكان رجع الى القسطنطينية ثم عاد الى معسكر آطيلا ومعه ثلثمائة رطل من الذهب فدية قتل المتعصبين على قتل الملك قبض عليه آطيلا وسأله فى شأن ذلك وقرره فاعترف بذنبه فعفا عنه وبعث سفراء غير السفراء الاول الى القسطنطينية منهم شخص يقال له أسلا وشخص آخر يقال له أغسطه فلما امتثلا بين يدى القيصر شرع الاول يتكلم بهذه المقالة الرسمية التى نصها انى مأمور من طرف ملك الهونية أن أقول لكم ان القيصر طيودوسيس والملك آطيلا كلاهما من سلالة ماجدة ذات نسب رفيع وحسب منيع ولكن آطيلا أظهر مقام أجداده فى غزواته وأبان عن مجدهم فى حروبه واغاراته وطيودوسيس لطيشه أبان أنه ليس أهلا لحيازة شرفه ونبله وانه لم يخلف آباءه الكرام بل بخس بنفسه وأخل بناموسه وناموس أهالى مملكته بين الانام حيث رضى أن يدفع لملك الهونية جزية توجب الصغار والهوان فبدفع هذه الجزية كان بمنزلة من أشهد على نفسه أنه صار عبد رق لملك الهونية الذى أسعده الزمان ورفع الدهر عليه مقداره وأبد مجده وفخاره فكان من الواجب على القيصر حينئذ أن يسلك فى حق ملك الهونية مسلك الرعية فى التمسك بالصداقة وحق العبودية

ويظهر لسيده كمال الطاعة والاحترام ولا يليق به أن يعصى ولى نعمته وفضله ويتعصب على قتله فانه بذلك الفعل الذميم انما سار سير عبد السوء الذليل اللئيم الذى يعتاد الاباق أو يظهر النفاق فقد عصى سيده ومولاه وقصده بالقتل وناواه

وكان القيصر عند سماع هذا الكلام المؤلم جالسا على سرير جده طيودوسيس الاكبر المصوغ من ذهب صامتا غير متكلم ولم يكن قبل ذلك طرق بأذنيه غير المدح والملق من وزرائه ولا سمع غير التملق والتعظيم من أمرائه فلما أسمعه أسلاوهذه المقالة ثبت نفسه وقوى جاشه على أن يصغى لمعانيها مع غاية الخجل والوجل بدون أن يظهر سآمة ولا ملالة على ما فيها من التوبيخ كيف يدرك المعنى ويفهم من يتمسك من أذيال العجب والكبر بلزوم ما لا يلزم فكان لسان حاله ينشده

انما غفلة لك الويل منها * ما رواها الرواة فى تاريخ
وكما قيل هب بأنك أعمى * كيف تخفى روائح البطيخ

ثم بعد استكفائه سماع العبارة سلم وزيره خروساف الطواشى لارباب السفارة ولاجل تسكين غضب آطيلا انتخب له أيضا عدة من أمراء ديوان القيصرى منهم لونيوس خازندار المملكة وأنطنيوس رئيس الجنود القيصرية وكلاهما مستشار فى الديوان ووظفهما بوظيفة السفارة وسيرهما الى ملك الهونية

وكانت الدولة المشرقية الرومية لم يزل فيها رمق الفخار القديم وحفظ المقام الفخيم فانتخاب هؤلاء السفراء شرح صدر ملك الهونية لما فيه من التبجيل والتعظيم فسعى الملك اليهم وسامح القيصر وعفا عنه بل عفى أيضا عن كل من الطواشى والترجمان ومن سعى فى قتله من أهل العدوان وأنعم على القيصر باعادته له عدة مدن من المدن المغصوبة وفك عدة كثيرة من الاسرى المسلوبة ونأى عما كان طلبه من الهاربين من جنده فى العسكر القيصرى وجدد عقد الصلح وطلب جانبا عظيما من المال فدية عن قتل الطواشى السالف الذكر ولكن المقدار الذى طلبه كان جسيما جدا بحيث دفعه يجحف بخزينة الدولة الرومية وربما كان يكفى فى دفع جوامك مقدار من العساكر يهجم بهم القيصر على ملك الهونية ويكفيهم شر المصالحة المعرة فبعد عقد هذه المصالحة

بزمن يسير ركب القيصر جواده للرياضة والنزاهة فكبا به الجواد فسقط على الارض فانكسرت فقار ظهره وفارق الدنيا وأراح العباد والبلاد ومات وعمره ثلاث وخمسون سنة فى أثناء السنة السادسة والاربعين من حكمه وكان ذلك فى سنة ١٧٢ قبل الهجرة وتولت بعده أخته بولشيرية وفى السنة الخامسة عشرة من ملك هذا القيصر كان ايقاظ أصحاب الكهف من رقدتهم التى ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز فى سورة الكهف وأطنب فى حكايتها المفسرون بأقوال مختلفة وحكاها أهل السير بحكايات غير مؤتلفة وتلخيص القول فيها ان بعض القياصرة حصل منهم فى أيامهم غاية الطغيان وعبادة الاصنام والذبح للطواغيت وكان فى الروم كثير من الناس على دين المسيح عيسى عليه السلام متمسكين بعبادة الله وتوحيده فكان ممن طغى وبغى وكفر بالله وعبد الطاغوت ملك من ملوكهم وهو دقيوس قيصر المسمى أيضا دقيانوس فقد اجتهد فى عبادة الاصنام وتقريب القربان للطواغيت والامر بذلك وقتل من خالفه وكان ينزل بلاد الروم ليكره الناس على ذلك فنزل مدينة أفسوس التى هى الآن آياصولوقا ومدينة منبج ببلاد أناطلى بقصد اكراه أهلها على ذلك فكبر ذلك على أهل الايمان فهربوا منه فى كل وجه فجعل الكفار من أهل المدينة يفحصون عن المستخفين فى أماكنهم ليخرجوهم منها الى دقيانوس فيخيرهم بين القتل والذبح للطواغيت فمن اختار عبادة الله قتله ومن أطاعه فى ذلك تركه فلما رأى ذلك الفتية الثمانية وكانوا من أبناء أشراف الروم وعظمائهم حزنوا حزنا شديدا واشتغلوا بالعبادة والتضرع الى الله تعالى وجعلوا يقولون ربنا رب السموات والارض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا فبينما هم على ذلك فى مصلى لهم اذ دخل عليهم أعوان القيصر فوجدوهم سجدا يتضرعون الى الله تعالى أن ينجيهم من فتنة دقيانوس فرفعوا أمرهم الى دقيانوس فأمر باحضارهم وأعينهم تفيض من الدمع حزنا فقال لهم مامنعكم أن تجعلوا أنفسكم كغيركم من الذبح للآلهة فاختاروا اما أن تذبحوا لآلهتنا كما يذبح الناس واما أن أقتلكم فقال له كبيرهم مكسلمينا أما الطواغيت فلا نعبدها أبدا اصنع ما بدا لك وقال بقية الفتية مثل ذلك فجردهم من ملبوسهم ومن حليتهم التى كانت من الذهب

والفضة وقال انى أراكم شبابا فلا أحب أن نهلككم حتى أجعل لكم أجلا تراجعون فيه عقولكم وأمر بخروجهم من عنده وانطلق دقيانوس الى مدينة سوى مدينتهم قريبة منها لبعض أموره فلما علم الفتية بخروجه خافوا اذا قدم مدينتهم أن يذكرهم فائتمروا بينهم أن يأخذ كل رجل منهم نفقة من بيت أبيه فيتصدق منها ثم يتزود بالباقى ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة يقال له منجلوس يعتكفون فيه لعبادة الله تعالى حتى اذا جاء دقيانوس أتوه ليصنع بهم ماشاء ففعلوا ذلك وانطلقوا بنفقتهم واتبعهم كلب كان لهم حتى أتوا ذلك الكهف الذى فى الجبل فلبثوا فيه ليس لهم عمل الا العبادة وجعلوا نفقتهم الى فتى منهم يقال له تمليخا كان من أجلهم وأجلدهم فكان على طعامهم يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرا ويذهب متنكرا يتجسس لهم الخبر فلبثوا كذلك مالبثوا

فقدم دقيانوس الجبار المدينة فأمر العظماء فذبحوا للطواغيت وكان تمليخا بالمدينة فرجع الى أصحابه وهو يبكى فأخبرهم بأنهم بعد عود دقيانوس ذكروا مع عظماء المدينة ليذبحوا للطواغيت فحصل لهم الفزع من ذلك ووقعوا سجدا يتضرعون الى الله تعالى ويتعوذون به من الفتنة وكان تمليخا قد جاءهم بيسير من الطعام فقال لهم ارفعوا رؤسكم وكلوا من رزق الله وتوكلوا عليه ففعلوا وكان ذلك عند غروب الشمس ثم جلسوا يتحدثون فبينما هم على ذلك الحال اذ ضرب الله على آذانهم فى الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد وهو باب الكهف فأصابه ما أصابهم وهم مؤمنون موقنون ونفقتهم عند رؤسهم وكلبهم يغبطه بنو آدم وكان الشاعر الحريرا الملقب عبد على يلقب نفسه كلب على فقال مشيرا لكلب أهل الكهف

فتية الكهف نجا كلبهم * كيف لا ينجو غدا كلب على

فلما كان من الغد تفقدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض أصحابه قد ساءنى هؤلاء الفتية الذين ذهبوا ولو جاؤا فى الاجل المسمى تائبين وعبدوا الهى ما كنت لاجهل على أحد منهم ثم أرسل الى آبائهم وتوعدهم بالقتل فأخبروه بأنهم انطلقوا الى الكهف فخلى سبيلهم فألقى الله تعالى فى نفس هذا القيصر أن يأمر بسد الكهف عليهم ليموتوا جوعا وأراد الله أن يجعلهم آية

لمن بعدهم وأن يبين للناس ان الساعة آتيـة لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور وقد توفى الله أرواحهم وفاة النوم

ثم ان رجلين مؤمنـين كانا فى بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهـما وكان اسم أحدهما مندروس والآخر دوماس فائتمرا أن يكتبا أسماء الفتية وأنسابهم وخبرهـم فى لوح رصاص ويجعلاه فى تابوت من نحاس ثم يجعـلا التابوت فى البنيان وقالا لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنـين قبل يوم القـيامة فيعلم من فتح عليهم خبرهم حين يقرأ هذا الكتاب ففعلا ثم بنى عليهم مصلى

فبقى دقيـانوس ما بقى ثم مات وقومـه ومضت عدة أجيـال وخلفـه عدة من القياصرة الى ان ملك على أهل تلك البلاد ملك صالح يقـال له تاودوسـيوس قيصر ويسمى أيضا طيودوسيس الثانى وكان متمسكا بدين عيسى بن مريم ولكن لم يزل فى ملكه بعض ممن يكذب بالبعث ويقول لاحياة الا الحياة الدنيا وينكر بعث الاجساد دون الارواح فلما رأى ذلك هـذا الملك الصالح دخل بيته وأغلقه عليه وصار يبكى ويتضرع الى الله تعـالى مما يرى فيـه الناس من انكار البعث ويقول أى ربى قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث اليهم من يبين لهم حقيقة البعث فاستجاب الله دعاءه فالقى الله عزوجل فى نفس رجل من أهـل ذلك الجبل الذى به أهل الكهف أن يبنى فيـه حظيرة لغنمه فاسـتأجر عاملين فجعلا ينزعان تلك الاحجار ويبنيان بها تلك الحظيرة حتى فرغ ما على فم الكهف من السـد وفتح عليهـم باب الكهف وحجبهم الله عن الناس بالرعب فلما نزعت الحجارة وفتح عليهم باب الكهف أذن الله ذو القدرة والعظمة ومحيى الموتى أن يستيقظوا من رقدتهـم ويجلسوا بين ظهرانى الكهف فجلسوا فرحين مستبشرة وجوههـم طيبة أنفسهم فسـلم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا من ساعتهـم التى يستيقظون فيها على عادتهـم اذا أصبحوا من ليلتهـم التى يبيتون فيهـا ثم صلوا صـلاتهم كعادتهم لا يرى فى وجوههـم ولا فى ألوانهم شئ يكرهونه انما هم كهيئتهم حين رقدوا وهم يرون أن ملكهم دقيانوس الجبار فى طلبهم

فلما فرغوا من صلاتهـم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهـم ائتنا بالخبر الذى قال الناس فى شأننا عشية أمس عند الجبار ظنا منهم أنهـم رقدوا كعادتهم وانما

خيل لهم أنه طالت مدة نومهم على العادة فقال بعضهم لبعض كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم وكل ذلك فى أنفسهم يسير ثم قال مكسلمينا التمليخا انطلق الى المدينة لتسمع ما يقال فى شأننا بها هذا اليوم وما الذى نذكر به عند دقيانوس وتلطف ولا تشعر بنا أحدا وابتع لنا طعاما وائتنا به فانه قد نالنا الجوع وزدنا على الطعام الذى تجيئنا به العادة فانه كان قليلا وقد أصبحنا جياعا فأخذ تمليخا ورقا من نفقتهم التى كانت معهم مما ضرب بطابع دقيانوس فانطلق تمليخا خارجا من باب الكهف فلما مر بالباب رأى الحجارة منزوعة عنه فعجب منها ولم يبال بها فى مروره حتى أتى باب المدينة متنكرا مخافة أن يراه أحد من أهلها فيعرفه فيذهب به الى دقيانوس الجبار ولم يشعر بالعبد الصالح الذى هو تاودوسيوس ولا علم أن دقيانوس وأهله هلكوا من منذ أجيال فلما رأى تمليخا باب المدينة رفع رأسه فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لاهل الايمان فجعل ينظر اليها متعجبا فنظر يمينا وشمالا فلم ير أحدا ممن يعرفه فترك ذلك الباب وتحول الى باب آخر من أبوابها فرأى مثل ذلك فتخيل له أن المدينة ليست بالتى كان يعرفها ورأى ناسا كثيرين محدثين لم يكن يعرفهم قبل ذلك فجعل يمشى ويتعجب منهم ومن نفسه ويخيل اليه أنه حيران ثم رجع الى الباب الذى أتى منه فجعل يتعجب منه ومن نفسه ويقول ياليت شعرى أما هذه عشية أمس وقد كان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون بها فأما اليوم فانها ظاهرة لعلى حالم ثم يرى أنه ليس بنائم فأخذ كساءه وجعله على رأسه ثم دخل المدينة فجعل يمشى بين ظهرانى سوقها فيسمع ناسا كثيرين يحلفون بالله ثم بعيسى بن مريم فزاده ذلك عجبا ورأى كأنه حيران فقام مسندا ظهره الى جدار من جدران المدينة وقال فى نفسه والله ما أدرى من هذا أما عشية أمس فلم يكن على وجه الارض انسان يذكر عيسى بن مريم الا قتل وأما الغداة فأسمع كل انسان يذكره ولا يخاف ثم قال فى نفسه لعل هذه المدينة ليست مدينتنا ولا أعلم مدينة أقرب منها حتى تشتبه على بها ثم قام كالحيران الهائم لا يدرى أين يتوجه ثم لقى فتى من أهل المدينة فقال يافتى ما اسم هذه المدينة فقال أفسوس فقال فى نفسه لعل بى مسا أو أمر أذهب عقلى والله يحق لى أن أسرع الخروج منها قبل أن أخرج منها ويصيبنى سوء

فأهلك

ثم انه أفاق فقال والله لو عجلت الخروج من المدينة قبل أن يفطن بى أحد لكان أكيس فدنامن الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق التى كانت معه فأعطاها رجلا منهم وقال له ياعبد الله بعنى بهذه الورق طعاما فأخذها الرجل ونظر الى نقش الورق وعجب منها ثم طرحها الى آخر فنظر اليها وهكذا فجعلوا يتطارحونها بينهم من رجل الى رجل وهم يعجبون منها ثم جعلوا يتسارون ويقول بعضهم لبعض سرا ان هذا الرجل قد أصاب كنزا فلما رآهم يتسارون من أجله ظن أنهم فطنوا به وعرفوه وانهم يريدون أن يحملوه الى دقيانوس الجبار فارتعدت مفاصله ثم قال لهم اقضوا لى حاجتى فقد أخذتم ورقى والا فامسكوا طعامكم فلا حاجة لى فيه فقالوا من أنت يافتى وماشأنك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الاولين وتريد أن تخفيه منا فانطلق معنا وشاركنا فيه والا نأت بك الى السلطان فنسلمك اليه فلما سمع قولهم عجب فى نفسه وقال قد وقعت فى كل شئ أحذر منه فجعل تمليخا لايدرى مايقول ولايحير جوابا فلما رأوه لايتكلم طوقوه بكسائه فى عنقه وجعلوا يقودونه فى سكك المدينة مكبلا فاجتمع عليه أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم فجعلوا ينظرون اليه ويقولون والله ماهذا الفتى من أهل هذه المدينة ومارأيناه فيها قط وهو لايتكلم ولو قال انه من أهلها لم يصدق مع علمه أن أهله من عظماء المدينة وأنهم سيأتونه اذا سمعوا وقد تيقن أنه عشية أمس كان يعرف كثيرا من أهلها وانه الآن لايعرف من أهلها أحدا فبينما هو كالحيران ينتظر من يأتيه من أهله فيخلصه من أيديهم اذا اختطفوه وانطلقوا به الى رؤساء المدينة

وكان للمدينة رئيسان يدبران أمرها وكانا رجلين صالحين اسم أحدهما أرموس واسم الآخر اصطفوس فلما انطلق به اليهما ظن تمليخا أنه انما انطلقوا به الى دقيانوس الجبار الذى هرب منه الفتية فجعل يلتفت يمينا وشمالا والناس يسخرون به كما يسخرون من المجنون والحيران وهو يبكى ويتضرع الى مولاه بالخلاص ثم تمثل بين يدى أرموس واصطفوس فلما رأى تمليخا انه لم يذهب به الى دقيانوس أفاق فى نفسه فأخذ أرموس واصطفوس الورق فنظرا اليها وعجبا منها ثم قال له أحدهما أين الكنز الذى وجدته يافتى هذا الورق

يشهد عليك انك قد وجدت كنزا فقال تمليخا ما وجدت كنزا ولكن هذا ورق
آبائى من نقش هذه المدينة والله ما أدرى ما شأنى ولا ماذا أقول لكم فقال له
أحدهما من أنت فقال له تمليخا أنا من أهل هذه المدينة فقال له من أبوك ومن
يعرفك بها فأنبأهم باسم أبيه فلم يجد أحدا يعرفه ولا أباه فقال له أحدهما أنت
رجل مفتر لا تخبر بالحق فنكس تمليخا رأسه الى الارض فنهم من يقول هو
رجل مجنون ومنهم من يقول هو يحمق نفسه كى يتخلص منكم فنظر اليه أحد
الرئيسين نظرا شديدا وقال له أتظن انا نرسلك ونصدقك فى قولك ان هذا مال
أبيك ونقش هذا الورق قديم وأنت غلام شاب تظن انك تسخر بنا ونحن ولاة
المدينة وخزائنها بأيدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار فلا بد أن
تعذب عذابا شديدا وتوثق حتى تقر بالكنز الذى وجدته فقال تمليخا أنبئونى عن
شئ أسألكم عنه فان فعلتم صدقتكم ما عندى فقالوا سل لا نكتمك شيأ قال
مافعل الملك دقيانوس فقالوا لا نعرف اليوم على وجه الارض ملكا بهذا
الاسم وانما كان وهلك من دهر طويل فقال لهم تمليخا فوالله ما يصدقنى أحد
من الناس بما أقول لقد كنا فتية الملك دقيانوس وأكرهنا على عبادة الاوثان
والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية أمس فى الكهف فنمنا فلما انتبهنا
خرجت لاشترى لاصحابى طعاما وأتجسس لهم الاخبار فاذا أنا كما ترون
فانطلقوا معى الى الكهف أريكم أصحابى فلما سمع أرموس واصطفوس قوله
قالا يا قوم لعل هذه آية من آيات الله عز وجل جعلها الله لكم على يدى هذا
الفتى فانطلقوا بنا معه ليرينا أصحابه فانطلق معه أرموس واصطفوس وانطلق
معهما أهل المدينة صغيرهم وكبيرهم نحو أصحاب الكهف لينظروا اليهم وكان
لما رأى أصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن الوقت
الذى كان يأتيهم فيه ظنوا أنه قد أخذ وذهب به الى ملكهم دقيانوس الذى
هربوا منه فبينما هم يظنون ذلك ويتخوفونه اذ سمعوا الاصوات وصهيل
الخيل مصعدة نحوهم فظنوا انهم رسل دقيانوس بعثهم اليهم ليأتوا بهم فقاموا
حين سمعوا ذلك وقالوا انطلقوا بنا الى أخينا تمليخا فانه الآن بين يدى الجبار
دقيانوس ينتظر حتى نأتيه معه الرسل فبينما هم يقولون ذلك وهم جالسون بين
ظهرانى الكهف اذ وفد عليهم أرموس وأصحابه ووقفوا على باب الكهف

وقد سبقهم تمليخا ليطمئنوا اذا دخل عليهم وهو يبكى فلما رأوه يبكى بكوا معه ثم سألوه عن شأنه فأخبرهم بخبره وقص عليهم النبأ فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نياما باذن الله تعالى ذلك الزمان كله وانما أوقظوا ليكونوا آية للناس وتصديقا للبعث وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ثم دخل على اثر تمليخا أرموس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ودعا رجالا من عظماء أهل المدينة وفتح التابوت عندهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبا فيهما أسماء الفتية وانهم هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم فدخلوا فى هذا الكهف وان دقيانوس لما أخبر بمكانهم أمر بسد الكهف عليهم بالحجارة وانا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلم من بعدهم ان عثر عليهم

فلما قرأوه عجبوا وحمدوا الله عز وجل الذى أراهم آية البعث فيهم ثم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا بين ظهرانيه ووجوههم مشرقة ولم تبل ثيابهم فخر أرموس وأصحابه سجدا لله تعالى الذى أراهم آية من آياته ثم أنبأهم الفتية عن الذى لقوا من ملكهم دقيانوس الجبار فبعث أرموس وأصحابه بريدا الى ملكهم تاودوسيوس أن عجل بالحضور لعلك تنظر الى آية من آيات الله تعالى جعلها الله آية على ملكك وجعلها آية للعالمين ليكون ذلك تنويرا للبصائر فى التصديق بالبعث فعجل للنظر الى فتية بعثهم الله تعالى وكان قد توفاهم منذ دهر طويل

فلما أتى الملك الخبر قام من الشدة التى كان عليها ورجع اليه عقله وذهب عنه غمه ورجع الى الله تعالى وحمده اذ تطول عليه ولم يطفئ النور الذى جعله لآبائه وبلجنده العبد الصالح قسطنطين الذى نصر دين عيسى بن مريم عليه السلام

فلما علم به أهل المدينة ركبوا اليه وساروا معه حتى صعدوا نحو الكهف وأتوه فلما رأى الفتية تاودوسيوس فرحوا به وخروا سجدا على وجوههم وقام تاودوسيوس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه على الارض يسبحون الله تعالى ويحمدونه ثم قال الفتية لتاودوسيوس نستودعك الله ونقرئك السلام حفظك الله ومد ملكك ونعيذك بالله من شر الجن والانس فبينما الملك قائم اذ رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله أرواحهم

فواعجبا كيف يعصى الالــه * أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شئ له آية * تدل على أنه واحد

فقام الملك وجعل ثيابه عليهم وأمر أن يجعل لكل احد تابوت من ذهب فلما أمسى المساء ونام أتوه فى المنام وقالوا انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن خلقنا من التراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله فأمر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر أحد أن يطلع عليهم وأمر الملك أن يجعل على باب الكهف مسجد يصلى فيه وجعل لهم عيدا عظيما وأمر أن يؤتى كل سنة وهذا حديث أصحاب الكهف من نومتهم الاولى فى أيام دقيانوس وايقاظهم فى أيام تاودوسيوس التى هى مدة ثمانية واحدى وسبعين سنة شمسية ويضاف اليها زيادات هذه السنين على القمرية وهو مقدار خمس سنين وثلثى سنة تبلغ مائة وستا وسبعين سنة الانحو ثلث سنة وهى عدة السنين المذكورة فى قوله تعالى فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا فهذه المدة عند المؤرخين محصورة فى المسافة التى بين زمن حكم القيصرين المتقدمين وهما دقيانوس وتاودوسيوس وأما قوله تعالى فلبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا هو والله أعلم كما ذهب اليه بعض المفسرين من قول أحد الحزبين المشار اليهما فى قوله تعالى ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا حيث اختلف الحزبان فى عدد السنين رجما بالغيب ويؤيده قوله تعالى قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض فبهذا يكون الجمع بين نص الآية وكلام المؤرخين القائلين بأن هؤلاء الفتية ناموا وقاموا بين حكومة القيصرين المذكورين والالم يكن مطابقة بين الآية القرآنية والوقائع التاريخية المتواترة مالم نذهب الى قول بعض من قال ان حادثة أهل الكهف كانت قبل عيسى عليه السلام فيصح أن تكون مدتهم ثلاثمائة سنين وتسع سنين ويكون قوله تعالى ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ليس حكاية عن قول أحد الحزبين كما ذهب اليه بعض آخر من المفسرين بل عن قوله تعالى أو حكاية عن أحد الحزبين المصيب فى قوله والقول الاول أرجح لموافقته لما اعتمده التاريخ والمفسرون من كون واقعتهم كانت بعد ظهور عيسى عليه

السلام

السلام وأنها بين القيصرين المذكورين
ثم انه يفهم من كلام المفسرين لهذه الآيات أن الرجل الصالح تاودسيوس الذي هو طيودوسيس الثانى حكم ثمانين سنة وقد أجمع المؤرخون على أن مدة حكمه لم تكن أكثر من اثنتين وأربعين سنة فالظاهر انه اشتبه على بعض أهل السير الذين نقل عنهم المفسرون هذا القول أن تاودسيوس هو واحد وهو الاكبر وامتدت مدته الى المدة التى مات بها حفيده المسمى باسمه ودخل فى هذه المدة أيضا مدة أرقاديوس ابن الاول وأبى الثانى فجعلوا المدد الثلاثة مدة واحدة للاشتراك اللفظى فى الاسم على أن المدد الثلاثة لم تبلغ الثمانين سنة بل هى عبارة عن اثنتين وسبعين سنة كما يعلم من مراجعة مدة حكم كل واحد منهم فى فصله والافطيودوسيس الثانى تولى القيصرية فى سنة ٢١٤ قبل الهجرة وحكم الى سنة ١٧٢ قبل الهجرة واشتهر صيته بقومة أهل الكهف فى زمانه فكان لسان الحال أنشده بعد أن قوى معتقد البعث وشيده قول القائل

فعش مادمت فى الدنيا وأدرك * بها مارمت من صيت وصوت
فخيط العيش موصول بقطع * وحبل العمر معقود بموت

وتولت بعده القيصرة بولشيريه وزوجها مرقيانوس

(الفصل الثالث)

* (فى الملكة بولشيريه القيصرة وزوجها مرقيانوس قيصر) *

تولت هذه الملكة القيصرية فى سنة ١٧٢ قبل الهجرة ثم تزوجت بمرقيانوس وأشركته معها فى المملكة الى سنة ١٦٩ قبل الهجرة فكانت أحكام هذه الملكة منفردة ومتحدة مع مرقيانوس ثلاث سنين ثم انفرد مرقيانوس بالملك سنة ١٦٩ وبقى حكمه الى سنة ١٦٥ قبل الهجرة فكانت مدة حكمه وحكم زوجته نحو سبع سنين
من المعلوم ان دولة القسطنطينية كانت انحطت عن مقامها وتنازلت عن قدرها فى أيام طيودوسيس أخى هذه الملكة وكان الحال مقتضيا لرفع شأن الدولة الرومانية وتقوية شوكتها بعد أيام هذه القيصرة وهذا يستدعى

الثبات والشجاعة فاقتضى تطروجوه القسطنطينية والجنود الرومية ومجلس الاحكام وكافة الرعية أن يضعوا على سرير الملك بولشيريه أخت القيصر فبايعوها على القيصرية فكانت أول أنثى جلست على سرير الروميين الذى كان لايجلس عليه الا فحول الرجال ولى فى هذا المعنى مقتبسا

عجز ملوك الروم عن مطلبهم * نأى به عن العلى مسلكهم
دولتهم تقاعست رجالها * انى رأيت امرأة تملكهم

فشرعت هذه القيصرة فى مبدا حكمها تنتقم من أعداء الدولة أرباب الجسارة وكان هذا الانتقام هو من عين العدل والانصاف حيث أجرت عقابهم على موجب الاصول والقوانين فضربت عنق خروساف على باب الديوان القيصرى بدون اقامة دعوى ولا تحقيق قضية فكانت جسارتها الى هذا الحد وتبصرها بالامور سببا لانطباع هيبتها فى قلوب الاهالى ولنفوذ كلمتها فى الحكومة اذ توسم فيها جميع الناس أنها أهل لذلك ولكن لما كان حكم الانثى عند الروم على خلاف الاصول والعوائد وكانت تخشى هذه الملكة انه ربما يترتب على حكمها فى الرجال اشمئزاز النفوس وتشويش الخواطر واثارة الفتن والشرور ولم ترض تعرض نفسها للاستمرار على ذلك فتزوجت بأحد أكابر المجلس وأكثرهم احتراما ووقارا وهو مرقيانوس وكان عمره اذ ذاك ستين سنة وألبسته الحلة القيصرية وعاهدته على أن يحترم دائما ناموس نفوذها وأن لا يضيع حقوقها الاشتراكية فى الادارة والتدبير وأن يتجاوز لها عن حقوق المباضعة التى تقتضيها الزوجية لانها كانت نذرت أن لا تمكن أحدا من أن يفتضها وأن تترهب مدة عمرها فعاهدها على ذلك ووعدها أن لا يمسها ووفى بوعده فهى أشبه ملكة بلقيس سبا وابن بولشيريه من بلقيس ولكن أين نساء ذلك الزمن المتوليات الملك من ملكات هذا الزمان المدبرات الممالك الواسعة كملكة الانكليز التى مملكتها من أجل ممالك الدنيا سياسة ورياسة حتى ان بعض أهل السياسة من أهل هذا العصر يزعم أن الملكة الانثى لكونها متسلطنة على قلوب الرجال حسا ومعنى تكون مملكتها فى الغالب أعمر من ممالك الرجال التى يتسلطن على قلوبهم نساؤهم ولكن رهبانية بولشيريه لم تجعلها فى القوة كملكات الدول الاخيرة وانما تجعلها أرقى رتبة

من أمثال كلوبتره ملكة مصر

وكان لها أختان وهما مرينة وارقادية فكانتا مثلها فى الرهبانية السابقة فهؤلاء الاخوات الثلاثة العذارى كتبن صورة هذا النذر على لوح مصفح بالجواهر وبعثن به الى كنيسة أياصوفية كأنه قربان للعذراء وكن لا يحضرن بمجلس الرجال أبدا ماعدا الحضور بمجلس القسيسين وكان قصرهن أشبه بالدير وديوانهن عبارة عن معبد المترهبات

ثم لما تولى مرقيانوس أجرى الادارة كما تشتهى بولشيريه من الثبات والعقل وحسن السلوك وأصل هذا القيصر أنه كان ولد فى روم ايلى وكان من عائلة فقيرة ثم مكث تسع عشرة سنة مستخدما ثم صار عسكريا تحت قواد الجيوش فامتاز فى حرب الرومانيين مع الفرس وفى حرب افريقية ففاق الاقران وحاز الاعتبار وكان متواضعا خاليا من الاعداء ولم يحقد عليه أحد فلما تولى القيصرية رتب من القوانين ما يمحى به الظلم والطغيان والجور والعدوان فتطول برفع التعدى الذى طالما أضر الروم على طول الازمان وتواضع لرعاياه كما تكبر على عداه

ولما طلب منه آطيلا مع الكبرياء والعظمة أن يرفع الخراج المقرر الذى كان يدفعه طيودوسيس أجابه بما نصه

قد انجلى الزمن الذى كانت تنتهك فيه حرمة المملكة الرومانية وخلا الدهر الذى كان يخل بنواميس الدولة القيصرية وأما فى عهدى هذا فلا أعطى شيأ الا بالطوع والاختيار بوصف الامداد والاعانة والمساعدة على المحافظة والصيانة مما يلزم للملوك المتعاهدين معى الخادمين لحكومتى بالصداقة وليس عندى لغيرهم ممن يهددنى من الاعداء جواب الا ارسالى عليهم جنودا من الصناديد قلوبهم كالجلاميد وأجسامهم من حديد ثم بعث السفراء الى آطيلا ليشافهوه بمثل هذا الكلام فاغتاظ قبائل الهونية وأقسموا على هلاك الدولة الرومانية ومحوا اسمها ورسمها من صحيفة الدنيا حتى لا تبقى منهم باقية فكتب آطيلا لكل من قيصرى القسطنطينية ورومة ما نصه

قد أمرك آطيلا مولاك وسيدك بتجهيز قصرك لتتلقاه فيه فهو حاضر عن قريب ليأمرك بما تقتضيه المصلحة ولكن لما تيقن آطيلا أن قيصر القسطنطينية

مستعد لقتاله ومتعين لجلاده وجداله خاف من بسالته وشجاعة رجاله بقي الصلح معه على ما هو عليه

ويسهل وصل الحبل بعد انقطاعه * ولكنه يبقى به عقد الربط

وصمم أن لا يغير على دولة المشرق الابعد الاستيلاء على مملكة المغرب فسار صوب المغرب وتبعه كثير من ملوك الامم المتبربرة وأمرائهم ورؤسائهم بقصد حرب رومة وجرمانيا ووقف صفه وصف أخصامه للمصاف بعد حروب مستمرة في ميدان شالون بفرانسا وبعد الاستراحة بعض ساعات وكان آطيلا عليه الهيبة الكاملة فلا تستطيع أن تنظر اليه أعين الملوك المتعاهدين معه فخرج من محله لتفتيش جنوده وكان رؤساءهم مختلفي الجنس فخطبهم بقوله لا تخافوا شيأ فاني رئيسكم وقائدكم وصنم الحرب حاميكم وناصركم وقد تعودت النصرة فيما مضى فلا أحرم النصرة فيما بقي

شدوا أياديكم وانضوا سلاحكمو * وشمروا انها أيام من غلبا

وأيضا قد كفل لكم النصر والتأييد جبن الروميين وفتور همتهم فهزيمتهم لدينا محققة

ان اختفى ما في الزمان الآتي * فقس على الماضي من الاوقات

نخن من الاعداء يصادمنا في حومة الميدان ويطاردنا في حلبة الرهان فان كانت الخشية من طائفة الافرنجة فبينهم الشقاق والاختلاف واقع وكل فريق منهم للفريق الآخر منازع

وتشتت الاعداء في آرائهم * سبب لجمع خواطر الاحباب

فأكثرهم عما قريب ينتظم في سلك جنودنا ويدخل تحت ظل أعلامنا وبنودنا وان خشيتم الغوطية والبرغونية فان شوكتهم ضعيفة لا قوية فطالما هربوا خوفا من جيشنا عند الالتحام وكثيرا ما كرهوا في حروبنا الدخول معنا في الميدان والاقتحام وقال لسان حال جمعهم عند تولي الادبار

لئن كانت يدي في الحرب شلا * فرجلي في الهزيمة غير عرجا

فان قلتم انهم نزلوا هنا مصممين على النزال فليس الامر كذلك بل نزولهم لمحض الاستراحة من التعب وليس لهم في باطن الامر قصد في الحرب ولا أرب فقد اضطربت فيهم نيران الفتن وظهرت بينهم الاضلالات والمحن ولم يبادروا

باطفاء ذلك ولا تعولوا على ما هنالك

والشر كالنار يبدو حين تقدحه * شراره فاذا بادرته خمدا

وان توانيت عن اطفائه كسلا * أورى فتايل تشوى القلب والكبدا

فلو تجمع أهل الارض كلهم * لما أفادوه فى اطفائه أبدا

فسيروا على أعدائكم ثقة بالنصر والظفر واعتمادا على التأييد ولا مفر فليس فوق قوتكم قوة بشرية ولا يقدر على غلبتكم الا القدرة الالهية فلا يستطيع خصمكم الخلاص مما قدره المولى وقضاه فهو الذى يهلك الجبان الذى يتولى مدبرا أو يحب الدعة أو يكون فى الجيش متأخرا أو يختار الصلح على القتال ويؤثر السلم على النزال فالرب ينجى الشجاع المقتحم لعقبات الحرب من المهالك ويسلك به أحسن المسالك وقد أنطقنى من أنطق كل شئ بكلمة واحدة وهى أن أطعن العدو برمحى قبلكم وأقتل الجبان شر قتله اذا كان من قبلكم فعند فراغه من المقالة التى هى من قبيل التشجيع لا محالة

* ان لم تحارب يا جبان فشجع *

التحم الصفان والتقى الجمعان وهجم أخصام الهوينة على الهوينة من كل جانب فأذاقوهم عذاب الهون وصبوا عليهم صيب المصائب ومزقوهم كل ممزق فما تجمع منهم تفرق فصار أطيلا يزأر كالاسد الكاسر ويأمر جنوده بالحمل على العدو المتكاثر وتقول طائفته

كلما أظهر الزعامة * أسد على وفى الحروب نعامة

فلا يجيبوه عن زئيره الا بالعصيان ولم تكن خطابته الا كالواعظ فى فلاة كأن لم تصغ لها الاذنان

لقد أسمعت لو ناديت حيا * ولكن لا حياة لمن تنادى

أولسوء حظه لم يساعده الزمان على نتاج ما غرسه فى غير أوان

وأعظم شئ فى الوجود تمنعا * نتاج مرام من عقيم زمان

وهذه أول مرة حرم الطاعة من هؤلاء الجماعة حيث ولوا مدبرين والتجؤا الى الاحتمى خلف عرباتهم كما هى عادتهم خائفين فكان عدد من قتل فى هذه الواقعة فى ميدان الحرب من الطرفين مائة وخمسين ألفا فأكثر وعاد الهوينة من حيث أتوا يقتلون ويأسرون ويقتلون الاسرى صغارا وكبارا ذكورا واناثا ويعيثون فى السلب والقتل كل الميل حتى لقد قتلوا من النساء مائة صبية تحت سنابك الخيل وهذا كله جهة فرانسا وما جاورها من الاقاليم ولم تضعف

هذه الهزيمة عزم آطيلا بل قصد حرب ايطاليا واجتاز الالب واستعمل آلات الحرب كالمنجنيق وكانت هذه أول مرة أغار فيها الهونية على ايطاليا بقصد هلاك الرومانيين وكان قيصر رومة اذذاك ضعيف الشوكة والبأس لفتور همة الرومانيين وخمولهم بعد العز وعقب لبسهم من البهجة أحسن لباس فصاروا لا يستطيعون أن يقاتلوا الهونية بدون استعانة بجنود أجنبية فاستغاثوا بجنود الغوطة وحكموها وكان عليها الملك الاريق الغوطي وغيره فبهذا الاتحاد قويت الجنود الرومية فحصلت المهاجمة والمدافعة بغاية الهمة من الطرفين ولازال الحرب سجالا ثلاثة أشهر لم يحصل منها للهونية أدنى ثمرة حتى طلب عسكرهم من ملكهم رفع الحصار وتخلية هذه الديار اذ لم يكن نصيبهم منها غير الهزيمة ولم تنفعهم همة ولا عزيمة ولا اغتنموا أدنى غنيمة فبينما هم مصممون على هذه النية لليأس من بلوغ الامنية اذ سنح ببال ملكهم مخيلة وهبية ووسيلة لهبية

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا ٭ مقالة لهبي اذا الطير مرت

حيث لمح طائرا أهليا يحوم على أبراج المدينة ويبعد عنها ثم يعود كأن ذاته بها رهينة فقال لجنوده ان طيران هذا الطير هو فال السعادة والخير يبشرنا بقرب النصرة والنجاح ويعدنا باليمن كلما خرج من بيته صفق بالجناح فكأنه قد ألهم ان هذه البلاد قريبة الدمار ولا تمكث زمنا طويلا على العمار فصدق الجند مقاله واعتقدوا يمن الطائر وفاله وقوى عزمهم وهجموا على مدينة أكيله وكان الملك محصورا بها فأخذوها عنوة ونهبوا وسلبوا وأسروا أهل المدينة وحرقوها فسهل بذلك على آطيلا الامر فصار يتغلب على جميع مدن ايطاليا بالقوة والقهر حتى وصل الى مدينة ميلان فألقت اليه مقاليدها فوجد فيها لوحا منقوشا عليه صورة القيصر على سريره وامامه ملوك التتار يسجدون له فخرق هذه الصورة ووضع بدلها صورته على كرسيه حين يستقبل تلقى تشريفات القيصريين حين دفعهم اليه الجزية المقررة التي أداؤها من العين فرض عين

ولم تكتف الهونية ومن صحبها من القبائل المتبربرة بالسلب والنهب والقتل بل أهلكوا الحرث والنسل وخربوا الديار وقطعوا الاشجار وأحرقوا القرى

والامصار

والامصار وكان ملكهم آطيلا بما فيه من العناد يغريهم على العتو والفساد ويقول لا ينبت الزرع فى مكان وضع فيه جوادى قدمه فكان أهل ايطاليا يهاجرون من بلادهم فرقا من المتبربرين وخشية على أنفسهم من الخشنين حتى ان أهل البنادقة هاجروا من اقليمهم الى جزائر خليجهم وقد قال فى حقهم بعض القوطية ان البندقيين كدجاج الماء يبنون أوكارهم فى لجة البحر ولذلك تأسست مدينة البندقية المسماة وندیق من مهاجرة أهلها من الارض القارة الى جزائر بحر البنادقة وبنوا مساكنهم على سدود وقناطر وعمروا البحر بالمدائن والعمائر واجتمع عليهم من ألجأته الضرورة والحاجة الى اللحاق بهم وتجددت فى بلادهم الجديدة الصناعة والزراعة وتألفت حكومة بلادهم من جمهورية مركبة من عشرين جزيرة متحدة وكل جزيرة محكومة بحاكم ثم قويت تلك الجمهورية وصارت غنية مثرية ثم بعد انتصار الهونية هذه النصرة المؤزرة انتهى الحال أن بعث قيصر رومة الى آطيلا سفراء يلتمس منه الصلح فأجابه الى ذلك فانعقد الصلح وكان من شروطه أن يتزوج آطيلا بنتا من بنات قيصر رومة تسمى الاميرة هونورية وكان قد سبق له خطبتها من أبيها ورده فتزوجها فى هذه الدفعة حيث أجيب بالقبول على الوجه الاتم وما علم أن السم فى الدسم فكانت سبب موته لانه أجرى لها مراسيم الفرح العظيم فى يوم وليلة وأكثر فيه من الشراب فلم يزل يشرب حتى سكر ثم ذهب معها الى محل فراشه وكانت تبغضه وتنفر منه ففى صباح ليلة البناء بها تعجب الجند لما وجدوا ملكهم لم يخرج حسب العادة قد خلوا خيمته فوجدوه مضرجا بدمائه فقالت عشيرته انه مات بداء السكتة وقال الروميون انه مات قتيلا وكان الظاهر من دولته لو بقيت أن تكون فى الرونق والعظم كدولة الاسكندر الاكبر وانما كانت مثلها فى الانقراض المترتب على مقاسمتها بين أولاده وامرائه فبالفشل الذى وقع بين أولاد آطيلا وامرائه ضاع ملكه وبموته اطمأنت دولة الروم بالمشرق والمغرب بل كانت دولة المشرق قد أمنت من شره بمجرد ما صرف همته على حرب المغرب ولم تخش صولته بعناية مرقيانوس القوى الجاش الشديد الباس وبالجملة فقد كانت دولة القسطنطينية فى أيام مرقيانوس فى غاية الامن والراحة كما كانت ملة عيسى عليه السلام منصورة مؤيدة فى أيامه

وقد سبق أن موته كان فى سنة ١٦٥ قبل الهجرة بعد موت زوجته بولشيريه بثلاث سنوات وهو آخر قياصرة عائلة المشرق الاولى التى أولها أرقاديوس وقد تولى بعده مرقيانوس ليون الاول الرومايلى

(الفصل الرابع)

(فى الملك ليون قيصر الاكبر و يسمى الاقدم)

تولى هذا القيصر المملكة سنة ١٦٥ وبقى حكمه الى سنة ١٥١ فكانت مدة حكمه أربع عشرة سنة

نشأ هذا القيصر ببلاد روم ايلى وتولى القيصرية بعد مرقيانوس بانتخاب البطريق الامير أسبار الغوطى الذى كان فى خدمة الروميين ومن قوادهم وكان معدودا من أماجد الروم وأبطالهم وكان رئيس الاساقفة نافذ الكلمة فلما حكم هذا القيصر أعاد الصلح للروميين مع أمم الغوطة المشرقية المتبربرة اكراما للبطارقة فى نظير معروفه

واستوثق على دوام الصلح معهم بأخذ طيودوريق بن طيودومير أحد ملوكهم رهنا فى القسطنطينية وأدخلهم تحت الطاعة وكان عمر طيودوريق اذ ذاك ثمان سنوات ولم يفك أسره الا فى زمن القيصر زينون الآتى ذكره قريبا وقد حارب القيصر ليون أيضا طائفة الوندال أصول الاندلسيين وفى هذا الحرب معهم ثبتت لديه خيانة الامير أسبار البطريق فقتله مع جميع عائلته ولم يراع ماسبق لهم من الخدم الرومية ولم ينظر الى ماصنعه معه من الجميل حيث قلده المملكة ونصره على أعدائه ومن أمثلة العرب الغدر يصلح فى كثير من المواطن ولا عذر لغادر ولا خائن

أخلق بمن رضى الخيانة شيمة * أن لا يرى الا صريع حوادث
مازالت الآراء تلحق بؤسها * أبدا بغادر ذمة أو ناكث

وقد مات ليون الاول فى سنة ١٥١ قبل الهجرة وخلفه ليون الثانى بعد ان حكم أربع عشرة سنة

(الفصل الخامس)

(فى الملك ليون قيصر الثانى الملقب بالساوقى)

تولى المملكة فى سنة ١٥١ وحكم عشرة أشهر

هذا القيصر هو سبط ليون الاكبر السالف الذكر وابن زينون السلوقى نسبته الى سلوقية بلاد أناطولى كان رئيس المحافظين بولاية من ولايات أناطولى كان أشركه جده لامه معه فى القيصرية مدة حياته ثم خلف جده بعده وكان عمره اذذاك أربع سنين فكفله أبوه زينون وكان يحكم بالنيابة عنه فلما مات ليون الثانى فى حياة أبيه انتقلت المملكة الى ابيه بالوراثة عن ابنه ضد المعتاد فى الممالك فقد يسمو بطيب الفرع طيب العنصر وبعضهم يسقط من القياصرة ملك هذا الصغير اذليس فى العير ولا فى النفير

قل لمن يدعى الفضيلة منهم * لست فى العير لا ولا فى النفير

فيجعل جميع مدة التولية لابيه زينون وصار قيصرا أصيلا

(الفصل السادس)

(فى الملك زينون قيصر والملك باسيلقوس قيصر)

تولى القيصر زينون المملكة مرتين فكانت الاولى من أواخر سنة ١٥١ قبل الهجرة والمرة الثانية فى سنة ١٤٥ وبقى الى سنة ١٣١ قبل الهجرة وأيام الفترة كانت لباسيلقوس فكانت مدتهما عشرين سنة منها سنتان لباسيلقوس وحده

وقد كان هذا القيصر فى بادئة أمره رئيس المحافظين فى اقليم ايسوريا فى بلاد أناطلى وقد تشرف بمصاهرته لليون الاكبر حيث تزوج بنته كما سبقت الاشارة الى ذلك فلما مات ليون الاكبر وانتقلت القيصرية بالوراثة الى ليون ابنه وسبط ليون الاكبر ولى المملكة بالكفالة عن ابنه ولما مات ابنه فى حياته بعد عشرة أشهر وكان لليون الاكبر زوجة نايت عنه طردت زينون من سرير الملك بعد توليته عقب فتنة عظيمة وقعت فى سنة ١٤٧ وكانت هذه السنة آخر الحكومة الاولى فهرب من القسطنطينية وعاد الى وطنه بأناطلى ثم عاد بعد سنتين الى القسطنطينية وتقلد القيصرية وهذه هى التولية الثانية فى سنة ١٤٥ قبل الهجرة وكانت هذه الولاية بعناية محافظى اقليم ايسوريا وكان

فى أثناء الفترة بين الحكومة الاولى والثانية قد قلد أرباب الفتنة القيصرية لباسيلقوس الخارجى اذ كان زينون ليس أهلا لحماية الدولة ولا لتدبيرها وانما كان ناصرا لدين النصرانية فان زينون قيصر هو الذى أثبت وحدة الامانة النصرانية لاصداره أمرا يسمى جمع القاثوليقية واتحادهم ومع ذلك فلم ينشأ عن هذا الا الاختلاف فى الدين وكثرة الفتن والمحن ثم ان هذا القيصر قد توصل الى اسكانها وانتصر على أعدائه المرار العديدة نصرا موثلا الا انه أعقب ذلك بارتكاب الظلم والجور ومجاوزة الحدود فى الطغيان وكان قد أعان الغوطية على الظفر وعلى رجوعه قيصرا كما كان فلم يقابلهم فى نظير صنع الجميل الا بحربهم الحرب الوبيل كما قهر أصحاب الفتن من أمرائه بالانتصار عليهم فبعد أن تمت له الامور بالنصرة انهمك على اللذات والشهوات والفسق والعصيان زيادة على العسف والجور فصار مبغوضا عند كافة الاهالى وكان عاقبة أمره انه دفن حيا حالة سكره بمواسة زوجته وذلك فى سنة ١٣١ قبل الهجرة حتى صار ينطبق عليه ما قيل فى وصف بعض الظلمة المتعسفين من قول الواصف والله ما الذئب فى الغنم بالقياس اليه الامن المصلحين ولا السوس فى الصوف زمن الصيف الامن العادلين ولا يزدجرد الاثيم فى أهل فارس بالاضافة اليه الامن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ولا فرعون فى بنى اسرائيل اذا قابلته به الامن الملائكة المقربين وبالجملة فهذا الشيطان المريد سلك على سرير الروم نظير ما سلكه فيما بعد على سرير الخلافة الوليد بن يزيد فقد كان فيما يحكى عنه مما جنازند يقا مستهزئا مستخفا مستهينا بالخاصة والعامة مدمنا للخمر متلاهيا باللهو واللعب مصرا على ارتكاب الفواحش مشتغلا بخلاعته عن النظر فى أمور الخلافة والقيام بحقوقها وأحوال الرعية

مضى الخلفاء بالامر الحميد * وأصبحت المذمة للوليد
تشاغل عن رعيته بلهو * وخالف قول ذى الرأى السديد

وبلغ من تهكم الوليد للشريعة أن قال فى شعره

يا أيها السائل عن ديننا * نحن على دين أبى شاكر
نشربها صرفا وممزوجة * بالسخن والبارد والفاتر

وبالجملة فمن طال عدوانه زال سلطانه فبقتل هذا القيصر خلفه أنسطاس

(الفصل السابع)

(فى الملك أنسطاش قيصر الاول)

تولى المملكة فى سنة ١٣١ وبقى حكمه الى سنة ١٠٤ قبل الهجرة فكانت مدة حكمه سبعا وعشرين سنة

نشأ هذا القيصر بمدينة من مدن سواحل ايطاليا المسماة ايليريا وكان من عائلة خاملة وقبل تقليده بالمنصب القيصرى كان من جملة ضباط القصر الملوكى المنوطين بمناظرة عدم رفع الصوت والغوغاء وتسكيت العامة والزامهم الصمت بالقصر الملوكى فلذلك كان يلقب بالمسكت ثم تزوج بالقيصرة أريانه أيم القيصر زينون فسعت فى ترقيته للمسند القيصرى وأمرت المجلس الرومانى بانتخابه وكان فى مبدا ولايته محترما لديانته وعدله ثم سلك مسلك الجور والظلم والشح والبخل فصار مبغوضا وكان قبل التولية حاقدا على بطرقية انطاكية وكان يريد الهجوم عليها فقصد عن ذلك بالولاية فلما تمكن من القيصرية وجار اجتهد فى الايقاع بالقاثوليقية لمساعدة الهراطقة مخالفيهم فعزل مقدنيوس بطرق القاثوليقية وكان اذذاك قد عصى على هذا القيصر أمير من الامراء يسمى ويطاليانوس متعللا بالانتصار بالقاثوليقية وجمع الجموع وأوقع الفتن وأثار المحن وحضر بعسكره امام القسطنطينية ونصب نفسه محاميا عن المذهب القاثوليقى الذى تعرض له انسطاش بالتعذيب وفى الحقيقة كان غرض ويطاليانوس من ذلك انما هو تطلب المملكة

مات هذا القيصر فى سنة ١٠٤ قبل الهجرة وتولى بعده يوسطنيوس وقد أعقب هذه الفتن فى أيامه محو بعض مكوس وعوائد قبيحة وأنواع من الظلم فظيعة كبيع المناصب والرتب لمشتريها ولكن من باب مكره أخاك لا بطل

(الفصل الثامن)

*(فى الملك يوسطنيوس قيصر الاكبر ويسمى جوسطنيوس الاول)

تولى هذا القيصر فى سنة ١٠٤ وبقى الى سنة ٩٥ قبل الهجرة فكانت مدة حكمه تسع سنين

تقلد هذا القيصر حكومة المشرق بعد انسطاش الاول وهو أول الدولة المشرقية المسماة الجوسطيانوسية وأصل مولده فى بلاد روم ايلى وكان فى مبدأ أمره راعيا للماشية ثم انتظم فى الجند وارتقى المناصب السامية فى خدامة ليون الاكبر ثم صعد على السرير القيصرى بالتحيل والخداع بعد موت أنسطاش وسلك فى حكمه سبيل العدل والانصاف وأسكن الفتن الدينية موقتا ثم وقعت فى أيامه فتنة عظيمة بين فرقتين من النصارى احداهما تسمى الملة الخضراء والاخرى الملة الزرقاء فالناس من قديم الزمان ما بين قيسى ويمانى وهلالى وزغبى وسعد وحرام فى جميع البلاد حتى ان مصر فى القرن الحادى عشر كانت الحكومة فيها منقسمة الى رايتين راية الفقارية كانت بيضاء وراية القاسمية كانت حمراء ومثل هذا الانقسام أقوى دليل على الشقاق والخصام وعدم الالتئام منشأ الآلام

ولما كان هذا القيصر خسيس العشيرة وليس من أهل الحسب والنسب كان مكثه على الملك يستدعى قتل أرباب الفتن والشرور لحسمها وراحته من أخصامه وكان رأس الفتنة ويطاليانوس فقتله القيصر حسما للفتنة ثم ان طوائف اللاظ كانوا يدفعون الخراج لكسرى فارس وكان لقيصر الروم حق الاسترعاء عليهم فكانت تطلب الروم انقياد اللاظ لهم فسعت الروم فى ذلك ودخلت طائفة اللاظ فى حكم القسطنطينية فكان هذا سببا لانتقاض الصلح بين فارس والروم وتصادف موت القيصر يوسطنيوس عقب ذلك ودخول المملكة الرومية فى قبضة ابن أخيه يوسطنيانوس محارب الفرس كما سيأتى وكان موت يوسطنيوس فى سنة ٩٥ قبل الهجرة وكان هذا القيصر أشرك فى المملكة معه ابن أخيه فى حياته فتولاها بعده

(الفصل التاسع)

(فى الملك يوسطنيانوس قيصر الاول)

تولى هذا القيصر المملكة فى سنة ٩٥ وبقى الى سنة ٥٧ قبل الهجرة فمدة حكمه كانت ثمانيا وثلاثين سنة

ولد هذا القيصر فى مدينة طرسيس واشتهرت مدة حكمه بعدة أشياء منها المجادلات الدينية التى ترتب عليها تميز الاحزاب الخضراء والزرقاء وبالغزوات التى غزاها قائداه بليسيرس والطواشى نرسيس مع قوطية ايطاليا وونداليه أفريقة كما اشتهرت سطوته بالانتصار على كسرى فارس وكما اشتهرت سياسته بترتيب الاحكام السياسية وتهذيب القوانين الملكية وقد اشتغل أيضا باصلاح الامور الدينية وتنقيح العقائد المسيحية وكان متعصبا فى دينه صاحب غيرة وحمية فكانت حميته أقوى من معارفه

وقد تزوج بزوجة بديعة الجمال قليلة العفة والصيانة غير محترمة على صفات الكمال تسمى طيودوره فكانت لها على قلبه كمال السلطنة والولاء لا يكاد يخالفها لاستيلائها على فؤاده

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد * جاءت محاسنه بألف شفيع

فكانت سببا للتلويث أيام حكمه وتدنيس عهد ولايته والقدح فى وصفه ورسمه وقد تحارب مع كسرى قباذ ملك الفرس وكان منشأ ذلك أن كسرى قباذ أغار على الرومانيين وهم يبنون حصنا فى طريق مدينة دارا قريبا منها فبادر بليسيرس نائب المشرق من طرف هذا القيصر ليصون هذا الحصن ويمانع عنه ويخلصه من يد الفرس ويدفعهم عنه فدار الحرب بين الفريقين فانتصر أمير الروم نصرة عظيمة على الفرس كانت سببا فى رفعة شأنه وعلو صيته فبمجرد هزيمة أهل فارس وجه الفرس جندهم صوب ارمينية وكانت منقسمة بين الروم والفرس وقريبة من الشام فصار الروم يخشون على بلاد الشام من أهل فارس فحول بليسيرس جنده صوب انطاكية لقتالهم هنالك وقد حاصروا هذه المدينة ولم ينتصر أمير الروم فى هذه الواقعة ولا ظهر على خصمه الا أنه أنقذ بلاد الشام وقاعدتها التى هى انطاكية من تغلب الفرس عليها ولكن لم يزالوا محاصرين لها

ثم بعث القيصر قائده سيطاس بدلا عن بليسيرس فلم يستطع أن يرفع الحصار عن تلك المدينة فى أيام قباذ المذكور مع أن قباذ بن فيروز المذكور كان ضعيفا مهينا عند الفرس لعدم استقامته دينا ودنيا فانه لما مات أبوه فيروز بعد أن حكم سبعا وعشرين سنة وخلف ابنيه قباذ وبلاش تنازعا فى الملك

فغلب بلاش على أخيه وكان حسن السيرة الى أن هلك بعد أربع سنين وكان قباذ قد سار الى خاقان الترك يستمده على أخيه فطال فى ذلك هذه المدة ثم وجه معه جيشا فلما قدم المدائن بالجيش وجد أخاه قد هلك فتملك قباذ على فارس وفى أيامه ظهر مزدق الزنديق ومعنى مزدق جديد الملك واليه تنسب المزدقية ادعى النبوة وأمر الناس بالتساوى فى الاموال وأن يشتركوا فى النساء لانهم اخوة لاب وأم آدم وحواء ومذهبه قريب من مذهب القرامطة فى أيام الخلفاء ومن مذهب سنسمون الجديد بفرانسا القائل بمثل ما قال مزدق الا أنه يزيد عليه التحريض على تقديم المنافع العمومية من زراعة وصناعة وتجارة للبراعة الوطنية فكل زمان عرضة لخروج أرباب الضلالات من شياطين الانس على اختلاف الجنس ولم يتبع سنسمون جمهور كثير من الفرنساوية ولم ينل فى هذه الخرجة السخيفة مدمزدق ولا نصيفه فان مزدق بمجرد ظهوره فى فارس دخل قباذ فى دينه فشق ذلك على الناس وعظم عليهم وأجمعوا على خلع قباذ وانضم الى مزدق جماعة وقالوا نحن نقسم الناس ونرد على الفقراء حقوقهم من الاغنياء فكانوا يدخلون على الرجل فيقتلونه على أمواله ونسائه فوثب رجل من الاشراف يعرف بابن ساجور فى جماعة من أصحابه على مزدق فقتله ولم تبق ناحية الا خرج منها خارج يدعو الناس الى مذهب مزدق فذهب الى الحيرة دعاة مزدق وكان عليها المنذر بن ماء السماء فلم يوافق على الدخول فى دين مزدق فطرده قباذ وولى مكانه الحرث بن عمرو بن حجر الكندى حيث وافقه على دين مزدق فعظم شأن الحرث بذلك فملك ابنه حجر على بنى أسد وبنى خزيمة وملك باقى بنيه على سائر العرب وامرؤ القيس الشاعر المشهور هو ابن حجر بن الحرث هذا ثم ان كسرى أنوشروان لما تولى ملك فارس أعاد المنذر ابن ماء السماء وطردا لحرث وقتل بنو أسد وربيعة حجرا أبا امرئ القيس وزالت دولة الكنديين وبقى منهم امرؤ القيس الشاعر يحاول أخذ ثار أبيه والملك فخلعوا قباذ وولوا مكانه أخاه جاماسب بن فيروز ولحق قباذ بالهياطلة وهم أهل البلاد التى بين خراسان وبين الترك وهى بلاد طخارستان فأنجدوه وانتصر على أخيه جاماسب وحبسه واستمر قباذ فى الملك وحارب الرومانيين وحاصر انطاكية وبقيت فى حصار جنوده الى أن قتله العرب فى مدينة الرى

وتولى بعده ابنه كسرى أنوشروان العادل فى نحو حدود سنة ٩٠ قبل الهجرة فبتوليته على فارس تغيرت أحوال ديوان فارس بالمدائن وذلك أنه لما جلس على سرير الملك كان صغيرا فقال لاصحابه انى عاهدت الله ان صار الملك الى أن أعيد آل المنذر الى الحيرة ثانيا وان أقتل طائفة المزدقية الذين أفسدوا فى أموال الناس ونسائهم وكان خليفة المزادقة قائما الى جانب السرير فقال هل تقتل الناس جميعا هذا افساد فى الارض والله قد ولاك لتصلح لا لتفسد فذكر أنوشروان لخليفة المزادقة معايبه الفاضحة وأمر بقتله فقتل بين يديه وأخرج وأحرقت جثته وأمر بقتل توابعه فقتل منهم خلق كثير وأثبت ملة المجوسية القديمة وكتب بذلك الى أصحاب الولايات وقوى جنده بالاسلحة والكراع وعمر البلاد وقسم أموال الزنادقة على الفقراء ورد الاموال التى لها أصحاب الى أصحابها وأجرى الارزاق للضعيفات اللاتى مات عنهن أزواجهن وأمر أن يزوجن من مال كسرى وكذلك فعل بالبنات اللاتى لم يوجد لهن أب وأما البنون الذين لم يوجد لهم أب فأضافهم الى مماليكه ورد المنذر الى الحيرة وطرد الحرث بن حجر جد امرئ القيس عنها وكان الحرث مزدقيا فتسبب عن ذلك قتل حجر وزوال دولة الكنديين وما جرى لامرئ القيس بعد قتل أبيه كان فى عهد يوسطنيانوس الاول المذكور وبيان قصة امرئ القيس أن أباه حجرا كان قد طرده لما هوى ابنة عمه فاطمة الملقبة بعنيزة وكان له معها يوم بدارة جلجل فقال معلقته التى أولها * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل فلما بلغ ذلك حجرا أباه دعا مولى يقال له ربيعة فقال له اقتل امرأ القيس وأتنى بعينه فذبح جوزرا وأتى بعينه الى أبيه فندم حجر على ذلك فقال ربيعة أبيت اللعن انى لم أقتله قال فأتنى به فانطلق فاذا هو فى رأس جبل وهو يقول

فلا تتركنى يا ربيع لهذه * وكنت ترانى قبلها بك واثقا

فرده الى أبيه ثم قال قصيدته المشهورة التى مطلعها

ألا عم صباحا أيها الطلل البالى * وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وهل يعمن الا سعيد مخلد * قليل الهموم ما يبيت بأوجال

وفيها يقول

ولو أن ما أسعى لادنى معيشة * كفانى ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل * وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وكان أبوه قد نهاه عن قول الشعر والتغزل بما يفضح فلما بلغه ذلك طرده وبقى مطرودا حتى قتلت بنو أسد أباه فبلغه قتل أبيه وهو بجبل دمون فى أرض اليمن فشق ثيابه وحزن عليه وحلف لا يشرب خمرا ولا يغسل رأسه حتى يدرك بثأره ثم انه استنجد ببكر وتغلب على بنى أسد فأنجدوه ثم هربت بنو أسد وتبعهم فلم يظفر بهم فوضع السلاح فى كنانة وهم بنو عمهم حيث لجأ اليهم بنو أسد ونادى امرؤ القيس يالثارات الملك فقالت له عجوز لسنا لك بثأر فاطلب ثأرك فاستمر على وضع السلاح فى كنانة ففاتوه وقيل أدركهم وقد تقطعت خيله وكثرت القتلى والجرحى وحجز الليل بينهم وهربت بنو أسد فأبت بكر وتغلب أن يتبعوهم وقالوا قد أصبت ثأرك فقال ما أصبت من كاهل ولا أسد أحدا وكاهل من كنانة وهذا معنى قوله فى قصيدة بائية

ألا يالهف هند اثر قوم * هم كانوا الشفاء فلم يصابوا

يعنى يحق بهند أى أخته أن تتلهف على عدم ادراك بنى أسد وأخذ الثأر منهم وقوله من قصيدة أخرى

والله لا يذهب شيخى باطلا * حتى أبيد مالكا وكاهلا

ومالك وكاهل حيان من بنى أسد وبعده.

خير معد حسبا ونائلا * القاتلين الملك الحلاحلا

والحلاحل السيد الشريف وبعده

يالهف هند اذ خطئن كاهلا * نحن جلبنا القرح القوافلا

والقرح هى الخيل والقوافل الضامرة منها ومع تخاذل بكر وتغلب عنه فقد طلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امرئ القيس خوفا من المنذر ولما رأى ضعف أمره وطلب القوم له ذهب يستنصر قبائل العرب قبيلة قبيلة فلم ينصروه وقصد السموأل بن عاديا اليهودى فأكرمه وأقام عنده مدة ثم صار الى يوسطانيوس قيصر الروم وأودع أدراعه عند السموأل وأنشد فى مسيره قصيدته المشهورة التى منها

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه * وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك انما * نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات

ومات امرؤ القيس فى عوده من عند قيصر فى بلاد الروم عند جبل يقال له عسيب بقربه مدينة أنقره بالروم وأنشد عندما أيقن بالموت بجانب قبر أخبر بدفن امرأة غريبة فيه.

أجارتنا ان الخطوب تنوب * وانى مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا انا غريبان ههنا * وكل غريب للغريب نسيب

قيل ان قيصر سمه فى حلة مسمومة الزيق وهو بعيد وأبعد منه أن السبب اطلاع القيصر على عشقه لابنته ونظمه قصيدته التى مطلعها

* الاعم صباحا أيها الطلل البالى * وقد سبق أنه قالها بعد اجتماعه بأبيه ولعل من قال انه أنشدها عند قيصر بنى ذلك على قوله فيها ولو أنما أسعى البيتين السالفين ولا دلالة فيهما على ذلك لاحتمال أنه بعد زوال ملك أبيه عن الحيرة كان يتطلب الملك ويسعى فى الحصول عليه ولا معنى لذهاب ابن ملك من ملوك العرب الى قيصر الروم لتطلب الملك والتشبث من القيصر عما يخذل جاره .

فجاء الحرث بن أبى شمر الغسانى فى بعض غاراته الى الابلق وهو حصن السموأل ابن عاديا ليأخذ مال امرئ القيس المودع فى هذا الحصن فتحصن السموأل منه وكان له ابن يافع خرج الى قنص له فلما رجع أخذه الحرث ثم قال للسموأل أتعرف هذا قال نعم هذا ابنى فقال أفتسلم ما قبلك لامرئ القيس أو أقتله قال شأنك به فلست أخفر ذمتى ولا أسلم مال جارى فضرب الحرث وسط الغلام فقطعه قطعتين وانصرف عنه فقال السموأل فى ذلك

وفيت بأدرع الكندى انى * اذا ما ذم أقوام وفيت

وأوصى عاديا يوما بأن لا * تهدم يا سموأل ما بنيت

بنى لى عاديا حصنا حصينا * وبئرا كلما شئت استقيت

وقد قلنا ان كسرى أنوشروان أعاد المنذر بن ماء السماء الى الحيرة ونقول انه ملك بعده ابنه عمرو مضرط الحجارة ومن ولد ولده المنذر بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء الذى أخذ الحيرة منه خالد بن الوليد وكانت المناذرة الى نصر بن ربيعة عمالا لا كاسرة على عرب العراق مثل ما كانت ملوك غسان عمالا للقياصرة على عرب الشأم

وأصل غسان من بنى الازد من ولد كهلان بن سبا تفرقوا من اليمن لسيل العرم ونزلوا على ماء بالشأم يقال له غسان فسموا به وأخرجوا عربا كانت قبلهم من الشأم يقال لهم الضجاعمة وكان ابتداء ملك غسان قبل الاسلام بما يزيد على أربعمائة سنة فى نحو أيام الملك الاسكندر سويرس قيصر الثانى

وأول من ملك منهم جفنة بن عمرو بن ثعلبة من ولد مزيقيا ودانت له قضاعة وتنقل الملك فى أبنائه وآخرهم جبلة بن الايهم الذى تنصر فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد اسلامه على يده ولحق بقيصر الروم ويقال هو جد الارنؤود الجيل المعروف بالروم لانه لما ارتد وهرب لحق بقيصر فتشعب أولاده وهم الذين يسمونهم بالارنؤود ببلاد الروم وقيل بعض منهم ذهب الى جبال قوقاسه وهى جبال الجركس حين فتح القسطنطينية بالاسلام

ثم سار أنوشروان الى الهياطلة مطالبا بدم فيروز فقتل ملكهم وخلقا كثيرا من أصحابه وتجاوز بلخ وما وراءها وأرسل جيشا الى اليمن فطردوا الحبشة عنها

وفى مبدا تولية التمس منه يوسطنياس الاول قيصر القسطنطينية رفع الحصار عن انطاكية وعقد الصلح بين فارس والروم وكان كسرى مشغولا بأمور ملكه الداخلية فرضى بالصلح وعقد مع القيصر شروط المحبة الدائمة والسلم المستمر وفى الحقيقة لم يكن هذا الصلح الا مجرد مهادنة ومتاركة وقد هاب أنوشروان المذكور الملوك وهادوه بالهدايا السنية وكان فيمن ورد عليه رسول ملك الروم قيصر يهدايا وتحف فنظر الى ايوانه وحسن بنائه فرأى اعوجاجا فى ميزانه فسئل عن سبب ذلك فقيل ان عجوزا لها منزل فى جانب الاعوجاج وان الملك رغبها فى الثمن فأبت ولم يكرهها وبقى الاعوجاج من ذلك على ماترى فقال الرومى هذا الاعوجاج أحسن من الاستواء

ونظير هذا وقع فى الاسلام فى جامع عمرو بن العاصى رضى الله عنه اذ كان لعجوز بيت يصلح المسجد فأبت بيعه فكتب الى عمر رضى الله عنه فأمره بعدم اكراهها على بيعه

ولاربع وعشرين سنة خلت من ملكه ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو النبى صلى الله عليه وسلم فكانت ولادته فى عهد يوسطانيوس قيصر الروم وكذلك ولد النبى صلى الله عليه وسلم فى السنة الثانية والاربعين من ملكه وفى عهد

يوسطنيوس الثانى قيصر الروم وكفى بعدل كسرى أنوشروان شهادة النبى صلى الله عليه وسلم فى حقه حيث قال ولدت فى زمن الملك العادل كسرى أنوشروان فانه كان ملكا عادلا عاقلا مهيبا محببا للرعية وله أفعال حسنة وآثار جميلة وكان يسمى كسرى الخير وكان وزيره بزرجمهر الحكيم وكانت مدة ملكه ثمانيا وأربعين سنة وقيل دون ذلك

كيف نرجو من الزمان بقاء * والمنايا تحول بين الامانى
لو نجا من يد الردى ذو فخار * خلد العدل صاحب الايوان

وقد أعاد أنوشروان ملك سيف بن ذى يزن عليه وقتل ملك الحبشة مسروق بن أبرهة الاشرم صاحب الفيل وكان سيف بن ذى يزن الحميرى سار الى كسرى المذكور فجهز معه أحد مقدمى الفرس فطرد الحبشة وملك سيف بن ذى يزن ملك أجداده ثم استمرت عمال كسرى على اليمن الى ان كان آخرهم باذان الذى أسلم على عهد النبى صلى الله عليه وسلم

وأما يوسطانيوس فانه لما كان مهتما بحفظ حقوق دولة الروم وصيانة ولاياتها والخوف عليها من التمزيق وكان قد عقد الصلح مع فارس شرع فى الحروب مع الواندال فى افريقية يعنى قبائل الاندلسية فكان ابتداء حروبه معهم فى نحو سنة ٨٩ قبل الهجرة ومكثت الحروب سنة واحدة حيث صمم القيصر أن يعيد لدولة الروم بالقسطنطينية الاقاليم المسلوبة منها التى استولت عليها قبائل الواندال المذكورون فوجه من أول الامر جنده الى افريقة وكانت تلك القبائل قد استحالت شجاعتها الى الجبن والفتور حيث داخلهم الميل الى الزينة المشرقية والتخلق بالترف والارتخاء لتعودهم على ذلك بالبلاد المشرقية ثم جالوا فى الاقطار المغربية بعد ذلك فكانوا قد فقدوا النخوة والشهامة فكان يسهل على من اتصف بالشجاعة مثل الروم أن يتغلب على بلادهم فى أقرب وقت فركب بليسيرس السفن الرومية وسار الى قرطاجة لحرب الواندال فقتلهم وانتصر عليهم واستولى على المدينة وأخذ ملك الواندال أسيرا ثم طلبه ديوان القسطنطينية ليحضر هنالك فسار اليها ودخل المدينة بموكب النصرة الحافل فكان ملك الواندال فى زفاف هذا الموكب تحفة من التحف الموكبية يقاد بين الاسرى الواندالية فى وسط الغنائم المكتسبة يتفرج عليه المتفرجون

ثم سار الامير بليساريوس الى جزيرة سردانيا لينزعها من قبضة الواندال فظهر عليهم هناك واستولى على الجزيرة وصيرها من ملحقات قرطاجنة ومضافاتها وفصلها من ولاية الواندال ولكن لم يمتثل أهل هذه الجزيرة المتأصلون للدخول فى زمرة الرومانيين ولا رضوا أن يكونوا رعية الروم وأبوا أن يدخلوا فى دين النصرانية حيث هم قبائل متبربرون وعشائر متوحشون فأصروا على العصيان ولم يمتزجوا بجوامع الروم وبقوا على جاهليتهم مدة من الزمان فلم يتحد وامع الروم صحيح الاتحاد ولا تمسكوا بدين عيسى عليه السلام الا فى أيام القيصر موريقوس المتولى فى سنة ٤٠ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

ثم شرع القيصر يوسطانيوس عقب الظهور على الواندال والفراغ من حربهم فى حرب الغوطية سنة ٨٨ قبل الهجرة فأمر الامير بليساريوس بفتح ايطاليا وأخذها من يد الغوطية فاهتم هذا القائد بالاجتهاد فى هذا الحرب المهم وبذل جهده فى ذلك ولكن لم يتممه الا القائد نرسيس فهو الذى ظفر بهؤلاء الاعداء وظهر عليهم

وكانت شوكة الغوطية فى الاصل الاصيل قوية فى ايطاليا يخشى من سطوتهم وبأسهم ولكن فى أيام هذا الحرب كانت قد شرعت فى الضعف والتناقص وذلك لان قوتهم الجسيمة ومركز سطوتهم العظيمة كانت بمملكة اسبانيا وكان لهم ملوك أرباب تدابير قوية واحتياطات سياسية فتولى عليهم باسبانيا ملك يدعى أطاناجلدوس كان قليل الحزم عديم التبصر وكان للغوطيين ملك آخر على ايطاليا يسمى آجيلا وكان خصما للملك اسبانيا فأظهر ملك اسبانيا للملك ايطاليا الخصومة سنة ٧٠ قبل الهجرة ولم يكن كفؤا لحربه فاستغاث أطاناجلدوس على خصمه ملك ايطاليا بالروم فى تلك السنة فوجه الروم بعد انتصارهم على ايطاليا البطريق ابريوس لنصرة اسبانيا فأخذ هذا البطريق من غوطية اسبانيا مدينة بلنسيه وقرطبة وسائر مدن اقليم الاندلس الشرقية وأضيفت لدولة القسطنطينية ولا زال جزء من الاندلس فى يد القسطنطينية الى سنة ٢ بعد الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

وفى سنة ٧٢ قبل الهجرة كان قد نقض كسرى أنوشروان صلحه مع الروم

باغراء الارمن والغوطية فكان هذا سبب الحرب آخر غير السابق فهجم الفرس على الشأم وكانت مع الروم فطردهم بليسيرس عنها ولكن كانت بلاد اللاظ وما حولها من بلاد البحر الاسود تابعة لقياصرة القسطنطينية فسلموا أنفسهم لكسرى وخرجوا من تبعية الروم فاغتنم هذه الفرصة كسرى أنوشروان فى تجديد سفن حربية على ثغور البحر الاسود بواسطة مملكة بلاد اللاظ التى هى على هذا البحر لاسيما وأن طائفة اللاظ كانت تحسن الملاحة فبواسطتهم كان يمكن لاكاسرة فارس أن يوسعوا دائرة سفنهم الحربية وأن يسيروا فى جهات البحر الابيض ويجولوا فيه بواسطة العبور من خليج القسطنطينية اليه

فلما استشعرت طائفة اللاظ ومن جاورها من أهالى ساحل البحر الاسود أن دولة فارس تريد استخدامهم فى السفن البحرية وبعثهم الى البلاد الاجنبية وأنهم بهذا يكونون خارج أوطانهم ندموا على التحاقهم بمملكة فارس واجتهدوا فى العود الى الالتحاق بالروم فالتحقوا بهم وصاروا من أتباعهم ورعاياهم وأعانوا دولة القسطنطينية على طرد الفرس من بلادهم فى سنة ٦٧ قبل الهجرة ثم استمر الحرب بين فارس والروم وطال أمده حتى انتهى بصلح سنة ستين قبل الهجرة الذى حصل الاتفاق فيه بين الطرفين على ترجيع المملكتين الى حدودهما القديمة واعادة ما حدث من الفتوحات الصادرة من كل منهما الى أصله

وكان فى سنة ٦٣ قبل الهجرة قد اتحد البلغار بالصقالبة الجنوبيين واجتازوا نهر طونة فى فصل الشتاء وكان منثلجا منجمدا وأغاروا على ولاية روم ايلى التابعة للروم وكان قائد هذه الجنود الصقلبية المتبربرة الامير زابرخان وكان فى ذلك العهد قد غضب قيصر الروم على قائده بليسيرس وأخرجه من الخدمة فكان معزولا منزويا فى زوايا الاهمال وقد حصل للدولة الرومية غاية الحيرة فى دفع الصقالبة عن الاغارة فلما علم الامير بليسيرس بأن المملكة فى خطب شديد استمال اليه الخفر الملوكى وكثيرا من الاهالى ممن جلهم على حمل السلاح وحارب هؤلاء القبائل وغالبهم وطردهم صوب نهر طونة فبهذا ظهرت دولة القسطنطينية عليهم بشهامة قائدها المعزول

وبالجملة فأكثر فخر يوسطنيانوس قيصر اغماهو فى عمليات التنظيم والترتيب وتقنين القوانين وتنظيم اللوائح الادارية والاحكام السياسية فقد أحال على جمعية من أهل المعارف استنباط القضايا المتنوعة والاحكام المتأصلة والمتفرعة باستقصائها واستقرائها واستخراجها من الكتب الرومانية وتنقيحها فصار الحصول على ذلك فى أقرب وقت وزمان واستبان من هذه المجاميع القانونية أن مدار مبناها وقوام فحواها على أن قيصر الروم حاكم مختار متصرف فى تنفيذ أغراضه السياسية كما يشاء ويختار فهذا جل منطوقها وغالب مصدوقها

وكان موت يوسطنيانوس فى سنة ٥٧ قبل الهجرة وأما الامير بليسيرس الذى كان مدار قطب رحا الحروب عليه فانه كان قد اتهم قبل موت القيصر بتهمة باطلة فقد ادعى عليه أخصامه بأنه مثير الفتنة على القيصر ومقوم للاهالى عليه فسجنه القيصر وصادره بسلب أمواله ولم يعش بعد هذه النكبة الاسنين قلائل وبعد موت هذا القائد ببعض شهور مات القيصر كما سبق بعد أن قضى زمن حكمه بغاية الفخار الملوكى والاعتبار السياسى ولم يسلم من المثالب المخصوصة ولا خلص من المصائب الدهرية فقد وقع فى أيامه فتن عظيمة ومحن جسيمة فى ميدان القسطنطينية المسمى آتميدانى أى ميدان الخيل كما وقع فى مدته طاعون سنة ٧٥ قبل الهجرة هلك فيه كثير من أهالى أوروبا ووقعت فى مدته الزلازل الهائلة منها زلزلة سنة ٦٥ قبل الهجرة هدمت فيها مدن عظيمة فهذه الحوادث بانضمامها الى مصائب الحروب ونوائب الخطوب كانت مانعة من استقامة مملكة روم بالقسطنطينية ومع هذا فقد استفادت فى أيامه المملكة كمال البهجة والرونق بالنسبة للعوارض الذاتية وقد كان يبحث عن تحسين أحوال مصر حتى انه تعاهد مع الحبشة بقصد جلب التجارة الى الاسكندرية وانما كلف نائبه أهل الاسكندرية فوق طاقتهم فى الجرائم والمغارم وشدد عليهم كمال التشديد وكان ينفى من لا يفى بدفع المغارم الثقيلة وكان نرسيس أمير جنده قد تعدى على الاسكندرية وحرقها بسبب امتناع أهل الحرف والصنائع وأعيان الناس ورعاعهم من أن يقبلوا البطرق طيودوسيس رئيسا على كنيستهم ومع ذلك فصار عزل هذا البطرق

واستبد الله بغيره ثم لما مات يوسطنيانوس الاول فى سنة ٥٧ قبل الهجرة خلفه أخوه يوسطينوس الثانى

(الفصل العاشر)

(فى الملك يوسطينوس الثانى قيصر الروم)

تولى المملكة فى سنة ٥٧ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ٤٤ فكانت مدة حكمه ثلاث عشرة سنة كان لهذا القيصر فى مبدأ أمره من الاشغال الحسنة والعمليات الجيدة ما ترتضيه أرباب العقول الذكية وكان مستقيم الحال والاطوار عادلا منصفا أنسى باستقامته اعوجاج اسلافه وفرح به الجميع وعدوه منة من الله على عباده من خفى ألطافه فعما قريب تبدلت أحواله وتغيرت أطواره فاشتغل باللذات والشهوات وجار وظلم وترك تدبير الحكومة لزوجته صوفيسة فتسبب عن قبضها على زمام الحكومة من المصائب ما أفسد حال المملكة الرومية حتى نادى لسان حال الرعية يعتذر عن السلف لما شاهد من قبح سياسة الخلف

ظننتك أولا حتى اذا ما * بلوت سواك عاد الذم حمدا
ولم أحمد لك من خير ولكن * رأيت سواك شرا منك جدا
كمضطر تحامى أكل ميت * فلما اضطر عاد اليه شهدا

وذلك لانه كما تقدم كان ركن الدولة الرومية أميرا يقال له نرسيس كان طواشيا نشأ ببلاد فارس وارتقى المراتب العلية فى أيام يوسطنيانوس وكان مدبرا للمملكة ساعيا فى ادارة الصلح والحرب وكان ملاحظا لحكومة الدولة ومساعدا على نصرتها وتولى رياسة جيش حرب ايطاليا فلما تولى يوسطينوس الثانى قيصرا حقدت عليه القيصرة صوفيسة وسعت به عند القيصر حتى غضب عليه وعزله فبعزله سهل على أعداء الحكومة الهجوم عليها وبالقرب من هذا الزمن قدمت رسل خان التتار الهيارة على القسطنطينية لعقد معاهدة مع دولتها فرفض يوسطينوس عقد المعاهدة مع خان هؤلاء التتار ولم يرض بالشروط المعروضة عليه وأظهر التعاظم والابهة عليهم وعقد مع خان التركان معاهدة حيث تحالف معه على مناصرته على كسرى فارس وكانت

اذ ذاك مخالفة الترك كان تؤذن بفتح باب التجارة والمعاملة والمخالطة فى وسط بلاد المشرقية مع الدولة الرومية فلما انتصب الحرب بين يوسطينوس قيصر الروم وأنوشروان كسرى فارس لتنازعهما على بلاد أرمنية الفارسية أغار أهل فارس على بلاد الروم وتصادف موت كل من كسرى وقيصر فى هذه المدة فانقطع الحرب مؤقتا وتأخر لوقت آخر

ولما مات كسرى أنوشروان تولى بعده ابنه هرمز بن أنوشروان وسيأتى ذكره فى الفصل الآتى وانما نقول هنا انه يوم ملك نطق بالحكم فى مقالة مطلعها الحلم عماد الملك والعقل عماد الدين والرفق ملاك الامور والفطنة ملاك الفكرة أيها الناس ان الله خصنا بالملك وعمكم بالعبودية وكرم مملكتنا فاعتقكم بها من عبودية غيرنا وأعزنا وأعزكم بعزنا وقلدنا الحكومة فيكم وقلدكم الانقياد لامرنا وقد أصبحتم فرقتين احداهما أهل قوة والاخرى أهل ضعة فلا يستأكان منكم قوى ضعيفا ولا يغش ضعيف قويا ولا تتوطن نفس أحد من الغلبة الى ضيم أحد من أهل الضعة فان فى ذلك وهنا للملك ولا يرومن أحد من أهل الضعة الاخذ بأخذ الغلبة فان فى ذلك انتشار ما نحب نظامه وزوال ما نحاول قوامه وفوت ما نحاول دركه واعلموا أيها الناس أن حاجتكم الينا فى نفس حاجتنا اليكم وحاجتنا اليكم هى مسد لحاجتكم الينا وان الثقيل ما أنتم منزلوه منا من أموركم خفيف والخفيف مما نحن بحشمكم ثقيل لعجزكم عما نحن مضطلعون واضطلاعنا لما أنتم عنه عاجزون وانما تحمدون حسن ملكتنا اياكم وفضل سيرتنا فيكم اذا حسمتم أنفسكم عما نهيناكم عنه ولزمتم ما أمرناكم به ميلوا بين الامور المتشابهات وأنزلوها منازلها ولا تسموا النسك رياء ولا الرياء مراقبة ولا الشر شجاعة ولا الظلم حزما ولا الرحمة نقمة ولا الصنع عفافا ولا الاخذ بالفضل ذلا ولا العماية غفلة ولا العذر ضرورة ولا الورع اجتهادا ولا الخيانة غنما ولا القصد تقتيرا ولا البخل اقتصادا ولا الزهو مروأة ولا التوانى تؤدة ولا الحياء مهانة ولا السفه صرامة ولا العجب كمالا ولا ما لا يكون كائنا ولا كائنا ما لا يكون ولا المعاتبة مفاسدة أيها الناس اجتنبوا المرذولات من هذه الامور المتشابهات وثابروا على ما تحظون به عندنا فان وقوفكم عند أمرنا منجاة لكم من سخطنا وتنكبكم معصيتنا سلامة لكم من

عقابنا

عقابنا فأمّا العدل الذى نحن عليه مقتصرون وبه نصلح وتصلحون فأنتم فيه
عندنا مستوون وستعرفون ذلك اذا رفعنا أهل القوّة عن أهل الضعة مرتبة
لا يستوجبها الا المستحق منهم الحباء والشرف النجدة توجد عنده أو بلاء حسن
يظهر منه واعلموا أيها الناس أنا قارنون سوطنا وسيفنا ومستعملوهما بتثبت
وحسن روية فمن غمص نعمتنا وخالف أمرنا وحاول ما نهيناه عنه فانا لانكاد
نصلح رعايانا ونضبط أمورنا الا أن تنكل بمن خالف أمرنا وتعدى سيرتنا وسعى
فى فساد سلطاننا فلا يغمطن أحد فى رخصة منا ولا ترجون هوادة عندنا فانا
غير مداهنين فى حق الله الذى قلدنا فوطنوا أنفسكم على الطاعة أو المجازاة
فانظر الى هذا الملك الذى قلبه على رعيته وأمّا يوسطينوس الثانى قيصر الروم
الذى قسا قلبه على رعاياه فانه قد أصيب قبل موته بالخبل فى عقله وكان قبل
اختلاله تبنى طيبروس قسطنطين رئيس الخفر القيصرى فلما مات هذا القيصر
فى سنة ٤٤ قبل الهجرة خلفه طيبروس الذى كان تبناه حيث حملته على
ذلك زوجته صوفية وعلى الوصاية له بالقيصرية

(الفصل الحادى عشر)

(فى الملك طيبروس قسطنطين)

تولى قيصرا على القسطنطينية فى سنة ٤٤ قبل الهجرة وبقى حكمه الى
سنة ٤٠ فكانت مدة حكمه أربع سنوات

لما دعت صوفية زوجها يوسطينوس لتبنى طيبروس والوصاية له بالقيصرية
بعده لبى دعوتها وتبناه وعهد اليه بالمملكة وكان الحامل لصوفية على ذلك
قصد التزوج به بعد موت القيصر فلما ولى طيبروس المملكة أعرض عن
التزوج بها وتمادى على اعراضه فلما أيست من ذلك وأثارت عليه الفتن
والشرور وحرضت الجنود على خلعه ولم تظفر بمرامها وأمّا القيصر فقد عاملها
بما يليق بذاته الملوكية من سلوك سبيل الحلم معها والصفح عن جنايتها وكان
هذا القيصر أهلا لمنصبه الذى عهد به اليه سلفه فتمسك بدين النصرانية أشد
التمسك ولما رأى أن مصر تميل الى مذهب اليعاقبة بذل جهده فى تثبيت هذا
المذهب فيها واجتهد فى أن يجعل ذلك المذهب عند جميع نصارى مصر عموميا

وأيد كنيسة اليعاقبة وجعلها راسخة القدم كما هي عليه في هذا العهد

وقد سبق أن سلف هذا القيصر كان قد ناوى فارس على الحرب معهم وأن الحرب تأخر بموته وبموت أنوشروان فلما تولى طيبروس جدد حرب فارس مع هرمز بن أنوشروان

وذلك ان هرمز بن أنوشروان كان عادلا عاقلا كأبيه وكان يأخذ للوضيع من الشريف وبالغ في ذلك حتى بغضه خواصه وكان اصطنع صندوقا يلقي المتظلم قصته فيه وكان يختم الصندوق بخاتمه لئلا يصل اليه أيدي بطانته ومرزبانيته ثم أمر باتخاذ سلسلة من الطريق نافذة الى مكانه وجعل فيها أجراسا وكان المتظلم يجيء فيحرك السلسلة فيعلم به ويتقدم باحضاره وازالة ظلامته ولعل الظلم كان قليلا في أيامه أو أن نصب هذه السلسلة من مبالغة المؤرخين والا لو كانت هذه السلسلة في الدول الاخيرة لاقلقت الملوك وأحرمتهم الراحة وكان هذا القيصر مهيبا محسنا للسياسة جوادا مضى من ملكه عشر سنين ولم يتحرك أحد من ولاته ورعاياه بحركة افتتانية لان أباه كان مهد الملك وسخر الرعية وانما خرج عليه عدة أعداء من الخارج منهم طيبروس وهو ملك الروم في ثمانين ألف فارس فانتصر جند طيبروس على جند فارس النصرات العديدة ولكن لم يزل جند فارس يدمن الحرب والروم تسعى في عمل الصلح مع الفرس كمال السعي بدون أن تتمكن من ذلك ولا زال الحرب مستمرا الى تولية موريقوس قيصر كما سيأتي في فصله

وكذلك قد طرد طيبروس تتار الهبارة الايغورية من بلاده وأبعدهم الى بلاد المجار والافلاق والبغدان وكان يتمنى الروم أن تكون أيام دولة هذا القيصر ذات بهجة ورونق طويلة المدة لظهور سطوة الروم وتعاظم شوكتهم فاخترمته المنية في سنة ٤٠ قبل الهجرة وفاتهم به بلوغ الامنية فكان لسان حاله ينشد

رجعت اليه بعد تجريب غيره * فكان كبرء بعد طول من السقم

وكان من قواد جيوشه الذين نصروه على الفرس أمير يسمى موريقوس كان قد كافأه الملك في نظير خدمته ومنفعته بأن زوجه بنته وعهد اليه بالملك بعده

*(الفصل

(الفصل الثاني عشر)

(في الملك موريقوس قيصر ويسمى موريقس ويسمى مورثيوس طيبروس)

تولى مملكة الروم بالقسطنطينية سنة ٤٠ قبل الهجرة وبقي ملكه الى سنة ٢٠ فكانت مدة حكمه عشرين سنة

هذا القيصر هو الذي له الفخار العظيم بكونه أعاد الى سلطنة فارس أبرويز خسرو بن هرمز بعد ان كان فر منها عقب فتنة عظيمة ومحنة جسيمة يحتاج الحال الى بيانها ويتوقف تاريخ بعض القياصرة المتأخرين على ذكرها

وذلك ان هرمز لما خرج عليه قيصر الروم وملك الخزر وملك الترك وكلهم أعداء له يخشى منهم على مملكة فارس أحضر اليه قائد اله بمملكة الري يقال له بهرام جوبين ومعنى جوبين اليابس الصلب وكان بهرام جوبين مبارزا شجاعا طويلا أعجف كأنه العود اليابس وأعده لقتال أعدائه فمن جملة من تقاتل مع بهرام التركمان وهزمهم ونهب أموالهم وطردهم واستولى على بلاد جمة وأرسل بذلك الى هرمز ثم بعد ذلك خاف هرمز على ملكه من بهرام جوبين وجرى بينهما قتال فصار أكثر الجند في جهة بهرام وكان أبرويز بن هرمز مطرودا عن أبيه مقيما بأذربيجان فبلغه ضعف أمر أبيه وخشي من استيلاء بهرام على الملك فقصد ابرويز أباه وأمسكه وسمل عينيه ولبس التاج وجلس على سرير الملك فكان من ابتداء ملك هرمز الى استقرار ابنه أبرويز في الملك نحو ثلاث عشرة سنة ونصف سنة فقد صار ملك فارس الى أبرويز بن هرمز في السنة التاسعة عشرة من مولده صلى الله عليه وسلم وطال ملكه الى أن خلعه ابنه شيرويه من الملك في السنة السادسة من الهجرة كما سيأتي وكان قد بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب مع دحية الكلبي يدعوه الى دين الاسلام فمزقه أبرويز فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يمزق الله ملكه كل ممزق فأرسل أبرويز يأمر عامله باذان ملك اليمن بقتل النبي صلى الله عليه وسلم فعين باذان الى المدينة الشريفة قاصدا لينظر في قتل النبي صلى الله عليه وسلم حيلة فأوحى الله الى نبيه ما أضمر باذان وقاصده فأحضر القاصد وأخبره

النبي صلى الله عليه وسلم ان كسرى ابرويز قتله أولاده اليوم فرد خائبا خاسرا فلما صح ذلك أسلم باذان وحسن اسلامه كما سيأتى بيان ذلك فى محله وخالفه بهرام وأظهر أنه ينتقم من أبرويز لما فعله بأبيه هرمز من سمل عينيه وجرت بينهما حروب وآخر الحال تغلب بهرام على مملكة فارس ولبس التاج وأما أبرويز فقد خشى من بهرام أن يقيم والده الاعمى قيصرا صورة ويتصرف فى الملك حقيقة ويستفحل أمره فاتفق مع خواصه على قتل أبيه هرمز فخنقه ولحق أبرويز بملك الروم موريقس مستنجدا به على بهرام جوبين فلما حضر أبرويز الى موريقس لامه على مافعله بأبيه أولا وثانيا من سمل عينيه وقتله ومن المعلوم ان أبرويز كان عدوا لموريقس قيصر لكن همة هذا القيصر كانت علية وعزيمته قيصرية تأنف عن أن يرده خائبا وأن سياسة الوقت كانت تستدعى تلك الاعانة فأرسل القيصر لاعانته جيشا جرارا وجعل قائده الامير قومنديولس تحت أوامر خسرو أبرويز فعاد أبرويز من عند القيصر مستقويا على بهرام فمكث الحرب ثلاث سنين متتابعة حصل فيها ثلاث وقائع عظيمة غير الحروب الجزئية وتم الامر بانتصار خسرو أبرويز على بهرام وهرب بهرام الى خراسان عند ملكها المسمى شاويه شاه وكان جد أبرويز لامه فدس على بهرام من يقتله بالسم فهلك بهرام بخراسان فعاد ملك الفرس لأبرويز وفرق فى عسكر الروم أموالا جليلة ثم أعادهم الى ملكهم موريقس بعد اقامة أربع سنين وكان القيصر قد اشترط على كسرى فى نظير مساعدته أن يعيد اليه ما كان استلبه بهرام من البلاد الرومية وعاهده على ذلك فى تاريخ سنة ٣١ قبل الهجرة

وفى القرب من هذا الزمن فى أيام كل من موريقوس وأبرويز بن هرمز كان زواج السيدة خديجة الكبرى به صلى الله عليه وسلم وما كان من أمر تعبده بغار حراء وأمر النبوة كما سيأتى ذلك فى محله ان شاء الله تعالى

وقد صرف هذا القيصر جهده فى اضعاف تتار الهبارة وتشتيت شملهم وتدميرهم فغلبهم قائد القيصر على سواحل نهرطونة فى خمسة وقائع ولكن أسر خان الهبارة من جنود الروم اثنى عشر ألف نفس فطلب خان التتار من القيصر افتداء الاسرى المذكورين وجعل على كل رأس دينارا وكان موريقوس

قيصر شديد البخل فلم يرض بذلك فطلب منه نصف دينار فداء كل رأس فأبى أن يعطيه شيأ فغضب خان التتار من شح هذا القيصر وحرصه فذبح أسراء الروم جميعا فكثر الهرج فى المشرق وصار يطلب الوالد ولده فلا يجده والولد أباه والزوجة زوجها والاخ أخاه فعلموا فقدهم عند التتار وفهموا السبب فصار هذا القيصر مبغوضا عند جميع رعاياه والقصاص قريب فقامت عليه الفتن وكان من جملة رؤساء جنوده أمير قرمانى خارج القسطنطينية فاغتنم فرصة توحش النفوس من القيصر فاستجلب الجنود العصاة اليه حتى بايعوه على القيصرية فتملكها بعد بعض حروب ومدافعات وأعانه على ذلك كراهة الاهالى للقيصر فلما دخل المدينة قبض على القيصر موريقس وضرب عنقه وعنق أولاده جميعا وجلس على سرير الملك وكان ذلك فى نحو سنة ٢٠ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

فقد أدى حرص هذا القيصر الى زوال الملك عنه والى الاضرار ببلاده ورعاياه فقد تسبب عن حرصه ولؤمه وسوء حاله نفور الطباع منه وقيام الجنود عليه وقتله وتولية غيره فمن هذا يفهم أن الرعية الرومية فى أيامه كانت فى أسوا الاحوال ليس لها قدرة على المدافعة عن قيصرها والذب عنه وليس فيها الشهامة اللازمة لذلك بل ولا تريد تسكين الفتن لغدر قيصرها بها وشدة جوره

اذا ما الظلوم استحسن الظلم مذهبا * ولج عتوا فى قبيح اكتسابه
فكله الى صرف الزمان فانه * سيبدى له ما لم يكن فى حسابه
فكم قد رأينا ظالما متمردا * يرى النجم تيها تحت ظل ركابه
فعما قليل وهو فى غفلاته * أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مال ولا جاه يرتجى * ولا حسنات سطرت فى كتابه
وقابله الجبار منه بفعله * وصب عليه الله سوط عذابه

فقد هدرت دم هذا القيصر رعيته ولم تحمه من جنوده المثيرين للاختلال مع أن الاختلالات دائما تعود على الرعية بالضرر وسوء العواقب وقد تحقق ذلك بالنسبة للروم حيث ان فوقاس قاتل سلفه لم يكن خيرا منه كما ستعلمه فى الفصل الآتى

(الفصل الثالث عشر)

(فى الملك فوقاس قيصر)

تولى المملكة فى سنة ٢٠ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ١٢ قبلها فكانت مدة حكمه ثمان سنوات

أول شئ ابتدأ به هذا القيصر سلوك مسلك العدوان والظلم بقتل سلفه موريقوس وقتله بأولاده معه وكانوا ستة كلهم ذكور والجزاء من جنس العمل كما سيأتى وقد انهمك هذا القيصر على اللذات والشهوات وكان كثير الطمع والحرص جبارا عنيدا وشيطانا مريدا فقد أصدر أمرا الى مصر يستثنى جنس المصريين من التقلد بالمناصب الملكية والرتب والوظائف والخدامات الميرية فبسبب ذلك قامت فتنة عظيمة فى الاسكندرية وكان أكثر أهل الفتنة يهود تلك المدينة المتأصلين بها فأطفأ الفتنة الامبراطور بالقهر والغلبة وحكم على يهود الاسكندرية بأن يتنصروا فنصرهم وأدخلهم المعمودية رغما عن أنوفهم

وكان أبرويز خسرو بن هرمز قد رسخ على سرير ملك العجم فطغى وبغى واحتقر الاكابر وظلم الرعية وكان قد اصطلح مع موريقوس صلحا كافيا الا أنه لما علم بقتل فوقاس قيصر لصاحبه أظهر الاسف على صاحبه وأنه يريد الانتقام له من قاتله فجرد على فوقاس جنودا عظيمة وتغلب من بلاد الفرس على أقاليم أرفة والجزيرة وأرمينية والشأم وقطعة من أناطلى فنال الفرس من الروم وغلبوهم أشد الغلبة على بلادهم فصار أبرويز أعدى عدو لفوقاس ومع ضعف فوقاس عن مقاومة ملك فارس فقد سير جيشا عظيما لحرب فارس وكان هذا الجيش يبغضون قيصرهم لسآمة نفوسهم منه فاعتراهم الفتور وقبل التحام الحرب مزقهم ملك فارس كل ممزق حتى ولوا الادبار واعتمدوا على الفرار وتقدم أبرويز بجيشه حتى صار قريبا من القسطنطينية

وكان فوقاس من شدة انهماكه على الفسق قد فضح زوجة فوتيوس أحد معتبرى الروم فاغتنم هذا الامير فرصة حصر فوقاس وقيام الروم عليه المرات العديدة بكتابته رسالة لهرقل حاكم بلاد افريقية من طرف الروم أن يحضر لتخليص القسطنطينية بخلع القيصر ولبس تاج القيصرية وحثه على ذلك

فجهز هرقل عمارة سفن قرطاجية وحضر بها ابنه من افريقية الى القسطنطينية ورساعلى بوغازها ولازال فوثيوس ومن تبعه يثيرون الفتنة على فوقاس حتى اشتدت فحكم جميع الاهالى بخلعه وتقلد هرقل وكان هرقل قد حضر وتحيل على فتح البوغاز ودخوله القسطنطينية وكان فوثيوس عند ذلك قد استولى على قصر القيصر وحبسه وقبض عليه وأتى به الى هرقل فى سفينته التى كان قد بويع له فيها بالقيصرية فأطال فوقاس لسانه على هرقل فقام الاهالى على فوقاس وفعلوا به كما فعل بسلفه وضربوا عنقه وعنق اخوته وأحبابه خوفا من اثارة فتنة أخرى من المتعصبين له وأظهروا المبايعة لهرقل وكان ذلك فى سنة ١٢ قبل الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية وهو الذى ظهر الاسلام على عهد ولايته كما ستقف عليه ان شاء الله تعالى

(الفصل الرابع عشر)

(فى الملك هرقل قيصر)

تولى المملكة فى سنة ١٢ قبل الهجرة وبقى حكمه الى سنة ١٩ من الهجرة فكانت مدة حكمه احدى وثلاثين سنة

قد حصل فى أيام هذا القيصر من العجائب والغرائب والحروب والخطوب مايدهش العقول ويحير الالباب فقد جمعت أيامه بين الوقائع المتضادة والحوادث المتباينة حسنا وقبحا فان دولة الروم انتصرت فى حروب عظيمة تارة وانهزمت فى أخرى تارة أخرى ففى مبدا تولية هذا القيصر وفى وسطها وفى آخرها حصل الانهزام والخيبة والنصرة والظفر متوالية مترادفة يتلو بعضها بعضا

فان خسرو الثانى الذى هو أبرويز بن هرمز كان قد فتح الحرب مع قيصر القسطنطينية سلف هرقل للانتقام منه فى نظير قتل موريقوس صانع الجميل مع خسرو المذكور فاستمر خسرو على الحروب مع هرقل ولم يرض بعقد الصلح بين فارس والروم وصمم على استدامة القتال والانتقام وقد سبق أن خسرو أبرويز كان قد تغلب على بلاد الموصل فبهذا سهل عليه فى عهد هرقل الاغارة على بلاد الشأم ومصر فهجم على الشأم وحرق انطاكية ودمشق ومدينة

القدس ووصلوا الى طريق الحجاز وقصد أن يجبر النصارى بهذه الولايات وان يخلعوا الزنار ويعبدوا النار ثم أرسل قائده الى ديار مصر وبلاد المغرب فنال من ذلك ما نال من النصرة وصالح مصر على أن تدفع له مقدارا معلوما كما كانت تدفع للروم ثم رجع كارة التغلب على بلاد أناطلى واستولى على بلاد بروسه الواقعة على بوغاز القسطنطينية وكان ذلك قبل الهجرة بثمان سنوات وكذلك استعان الفرس على الروم بقبائل التتار الهبارة ويقال لهم الاواره وتعاهدوا معهم أن يغيروا على اقليم روم ايلى فغاروا عليه حتى وصلوا الاسوار القسطنطينية قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين فتمت الهزيمة على الروم فى بلادهم باسيا وأوروبا وحوصروا برا وبحرا فلم يبق من مملكة هرقل اذ ذاك الا مدينة القسطنطينية وبعض أقاليم على البحر وأيس هرقل من النصرة حتى أراد أن يهاجر الى تونس ببلاد المغرب لكونها كانت من أملاك الروم وينقل سريره اليها ولولا أن صدته عن هذه النية بطرق القسطنطينية لنجز ذلك

وفى هذا الزمن نزل بمكة ألم غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون الى آخر السورة وذلك ان الله سبحانه وتعالى قال فى آخر سورة العنكبوت ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن وكان صلى الله عليه وسلم يجادل المشركين بنسبتهم الى عدم العقل لانكارهم الاله وكان أهل الكتاب يوافقون النبى فى الاله كما قال تعالى والهنا والهكم واحد وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال تعالى والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به فلهذا أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم بعد أن كانوا يراجعونهم فى الامور فلما وقعت الكرة على النصارى حين قتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك كما كرهه المسلمون فأنزل الله تعالى هذه الآيات وذكر فى أولها ما هو معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم وهو الاخبار عن الغيب فقوله تعالى غلبت الروم فى أدنى الارض يعنى أرض العرب وقوله وهم من بعد غلبهم سيغلبون يعنى أنه بعد أن وصل عدوهم الى بلادهم وهم عاجزون عن المدافعة عنها لضعفهم سيغلبون عدوهم بأمر الله تعالى وقدرته فى بلاده المستقوى فيها فقد وصل الروم الى المدائن وغلبوا

الفرس وبنواهنالك مدينة رومية فالغلبة العظيمة بعد الضعف العظيم لاتكون الا باذن الله تعالى وقوله تعالى فى بضع سنين أبهم الوقت بالبضع الذى هو مابين الثلاثة والعشرة مع أن المعجزة انما تكون أتم بتعيين الوقت بالسنة والشهر واليوم والساعة لانها معلومة عند الله تعالى وبينها النبيه صلى الله عليه وسلم ولم يأذن له فى اظهارها لان الكفار كانوا معاندين ومادامت هذه الامور ستقع فى بلاد بعيدة تكون معلومة الوقوع لامحالة بحيث لايمكن انكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف فى كلامه

ولما نزلت الآية ذكر أبو بكر رضى الله عنه أن الروم ستغلب وأنكره أبي بن خلف وغيره وخاطروا أبا بكر على خمس قلائص الى ثلاث سنين وكان ذلك قبل تحريم القمار فقال عليه السلام لابى بكر البضع مابين الثلاثة والعشرة فزاده فى القلائص ومادّه فى الاجل فزاده فى القلائص اثنين حتى صارت سبعا ومدّه فى الاجل حتى صار خمسا وقيل أكثر من ذلك راجع الفصل السادس والاربعين من المقالة الثالثة وهذا يدل على علم النبى صلى الله عليه وسلم بوقت الغلبة وكان يوم غلبة الروم لفارس هو يوم غلبة المسلمين للمشركين ببدر فحينئذ يحمل قوله تعالى ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء على فرح المؤمنين بغلبتهم على المشركين فى غزوة بدر اذا أريد باليوم معناه الحقيقى ويجوز حمله على الوقت فيكون معناه أن المؤمنين يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم ويصح أن يحمل على الغلبتين وعلى نصر الله الفريقين المحابين ولا يرد عليه ان فى ذلك اليوم بعينه لم يصل الى المؤمنين خبر كسر الفرس فلا يكون فرحهم يومئذ بل الفرح يحصل بعده لانا نقول المراد باليوم الحين أو اليوم الذى يبلغ فيه الخبر أو أنه يحصل الفرح للمؤمنين فى اليوم وان لم يعلم سبب الفرح فقد فرح المؤمنون بنصر بدر وفى الحقيقة فرحهم الله تعالى بنصر الروم أى جعلهم فرحين يومه وان لم يبلغهم لان النفس كثيرا ماتنبسط بشئ سيقع تبشيرا لها بوقوعه والله أعلم بمراده

ولما عاق بطريق القسطنطينية هرقل عن الخروج من المملكة وعن الذهاب الى افريقية جمع البطريق المذكور أموال الكنيسة وأمتعتها الثمينة وساعد

بها القيصر على حفظ مابقى من دولة الروم من الزوال فبهذا دفع الفرس ومعاهديهم عن المملكة الرومية وكان قد استيقظ هرقل من نومته وصحا من سكرته فقوى جيشه وجاشه ونقل ميدان الحرب الى خلف جبل طورس وانتصر جنده على فارس فى الموضع الذى انتصر فيه الاسكندر على دارا فكانت هذه أول غزوة انتصر فيها الروم على فارس بعد الغلب فى السنة الثانية من الهجرة وسار جنده بحرا فى السنة الثانية أيضا منها حتى أرسى على طرابزان وتعاهد مع الخزر وأغار على خسرو أبرويز حتى كاد أن يتغلب على حدود مملكة فارس وبدد شمل التتار المعاهدين للفرس وهزمهم بقرب القسطنطينية فى السنة الثالثة من الهجرة وكان قد تقوى بأربعين ألفا من الخزر وغزا فارس وأعاد جميع المدن والولايات التى كانت استلبتها منه الفرس فسار جنده الى المدائن بعد أن هزم الفرس عند الموصل

وكان بعض المنجمين أنذر ملك الفرس بأن بعض ولده يغتاله فحبس أولاده وكان فى سجونه ستة وثلاثون ألفا مقيدين مكبلين فمن عتوه واستخفافه بالناس أمر بقتلهم فنقم ذلك عليه أهل الدولة وأطلقوا ابنه شيرويه ولم يقتلوا المقيدين وجمعوهم الى شيرويه فجرى بين شيرويه وبين أبيه مراسلات وتقريع وآخر الامر قال شيرويه لابيه لاتعجب ان أناقتلتك فانى أقتدى بك فأرسل شيرويه بعض أولاد الاساورة الذين قتلهم أبرويز وأمرهم بقتله فقتلوه فى السنة السادسة من الهجرة ومعنى ابرويز بالعربية المظفر وكان قد خلف ابرويز ثمانية عشر ولدا غير شيرويه فقتلهم شيرويه وجلس على سرير الملك فبعد معاناة الحروب بين فارس والروم انتهى الحال عقب قتل ابرويز أن صار عقد الصلح مع شيرويه ابن خسرو فى السنة السادسة من الهجرة وكانت شروط الصلح مع الفرس قد اقترحها عليهم قيصر الروم كما شاء وأراد وبهذا انتهت المنازعة بين فارس والروم فى هذا العهد وليست أم شيرويه بنت موريقس قيصر الروم كما زعمه كثير من مؤرخى الفرس وغيرهم وقالوا ان اسمها مارية وانه زوجها لخسرو أبرويز حين استنجد به على أخصامه ولم ينتفع شيرويه بقتل أبيه ولا لبث فى ملك فارس الا ثمانية أشهر فانه لما قتل أباه راود شيرين زوجة أبيه عن نفسها فامتنعت فضيق عليها ورماها بالزنا وأراد قتلها ان لم تفعل فقالت أفعل على

ثلاث شرائط قال وماهي قالت تسلم لي قتلة زوجي أقتلهم وتصعد المنبر فتبرئني مما قذفتني به وتفتح لي ناوس أبيك فان له وديعة عندي عاهدني ان تزوجت بعده رددتها اليه فدفع اليها قتلة زوجها فقتلتهم وبرّأها مما قال لها وفتح ناوس أبيه وبعث الخدم معها فجاءت الى أبرويز فعانقته ومصت فصا مسموما كان معها فماتت من وقتها وأبطأت على الخدم فصاحوا فلم تتكلم فدخلوا فوجدوها معانقة لأبرويز ميتة وكان شيرويه ردىء المزاج كثير الامراض صغير الخلق وكانت اخوته كأنهم عوالي الرماح قد كملوا في الخلق والخلق والادب ثم ندم على قتل اخوته وجزع عليهم جزعا شديدا وكان أبوه أبرويز وضع في الخزائن برانى سم وكتب عليها نافع مجرب لتقوية الباه فلما غلك شيرويه وصفا له الامر دخل الخزينة فنظر الى البرنية مكتوبا عليها ما ذكر وكان مغرما بالنساء فلما ذاق منها مات في الحال والفرس تسميه الغشوم وكانت مدة ملكه ثمانية أشهر وعمره اثنتان وعشرون سنة وتولى بعده ابنه أردشير

وهذا مصداق قول الاقدمين من استعجل بشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ويقال ان محمدا المنتصر العباسي لما قتل أباه المتوكل ليتولى الخلافة تحدث الناس بأنه لا يطول عمره بعده وشبهوه بشيرويه بن أبرويز حين قتل أباه ولم يتمتع بالملك بعده فقيل انه بعد أن جلس المنتصر على سرير الملك فرش له بساط لم ير مثله وعليه كتابة عجيبة بالفارسية فنظر اليها نظر استحسان فاستحضر من يعرف الفارسية وأمره بقراءتها فأحجم عن ترجمتها فقال له المنتصر قل وما عليك بأس فقال مكتوب على هذا البساط انا شيرويه بن كسرى قتلت أبي فلم أتمتع بالملك بعده فتطير المنتصر من ذلك ونهض من مجلسه غضبان فلم تتم له مدة شيرويه حتى مات فان صح هذا كان من الاتفاق الغريب والافلا يبعد أن يكون محض اختراع للعظة

فلما اطمأن الروم من جهة اغارات الفرس وارتاح قيصرهم تفرغ بالكلية لتحقيق العقائد الدينية التي كانت في زمنه محلا للنزاع كما سنذكر ذلك في الفصل الآتي ولم يكن في أيامه في صدر الاسلام دولة حسية ظاهرة حتى يقع بينه وبينها مثل ما وقع بينه وبين العجم وانما كان مظهر الاسلام معنويا ومقصورا على أناس قلائل في جزيرة العرب وكانت العرب منهم من هو في حوزة

الروم كعرب الشأم قائم عليهم من طرفهم ملك أومن طرف الفرس كعرب البحرين ونحوهم قائم عليهم من طرف كسرى ملك أيضا وان كان صلى الله عليه وسلم قد أرسل الى كافة الخلق بشيرا ونذيرا في عهد هرقل الا أنه عليه الصلاة والسلام كان بصدد الدين لا بصدد الملك والدولة فكان كما يدعو كسرى وقيصر الى الاسلام يدعو ملوك العرب وغيرهم من أتباع الاكاسرة والقياصرة ويرسل اليهم من أصحابه بدون تمييز التابع والمتبوع في الدعوة الى الاسلام فانه بعث في سنة سبع شجاع بن وهب الاسدي الى الحرث بن أبي شمر الغساني ملك البلقاء بالشام ودحية الكلبي الى هرقل قيصر الروم وعبد الله ابن حذافة السهمي الى كسرى وعمرو بن أمية الضمري الى النجاشي وحاطب ابن أبي بلتعة الى المقوقس وسليط بن عميرة الى هوذة ملك اليمامة وكان نصرانيا والعلاء بن الحضرمي الى ملك البحرين المنذر بن ساوا وربما كرّر الرسالة وأردف الكتاب بكتاب آخر مع رسول آخر فلما أرسل الى كسرى أبرويز يدعوه الى الاسلام مزق الكتاب وأرسل الى باذان عامله باليمن يأمره بقتل النبي صلى الله عليه وسلم فارسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين قد حلقا لحيتهما فقالا للنبي صلى الله عليه وسلم ان باذان يشير عليك بالمسير الى كسرى والا أهلكك فأخر صلى الله عليه وسلم القول معهما الى الغد ثم أصبح فدعاهما وقال ان ربي أخبرني أن كسرى أبرويز قتله ابنه شيرويه وان ملكي سيعلو على ملك كسرى وقيصر فارجعا ومرا باذان أن يسلم فرجعا وأخبراه وجاءه كتاب شيرويه بقتل أبيه فأسلم باذان وخلق كثير من فارس وأما النجاشي فقبل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم على يد جعفر رضي الله عنه وأما المقوقس عظيم القبط بمصر فلما دخل عليه حاطب بالاسكندرية وجده في مكان يشرف على البحر فأشار اليه بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصبعيه فلما رآه أشار لمن حوله بأخذ الكتاب منه فلما وصل اليه وجده مختوما بخاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله ووضعه على عينيه فلما فضه وقرأه فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط السلام على من اتبع الهدى أما بعد فاني أدعوك بدعاية الاسلام فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله

ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون فلما فهم ما فى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذه ووضعه فى صندوق وختم عليه بالرصاص وتركه عنده ثم أرسل الى حاطب ذات ليلة وخلا به وليس عنده الا ترجمانه قال ما منع نبيكم أن يدعو على فأسلب عن ملكي فقال حاطب ما منع عيسى بن مريم عليه السلام أن يدعو على من أبي عليه فسكت عنه المقوقس ساعة ثم قال له حاطب ان كان قبلك رجل زعم أنه الرب الاعلى وانتقم الله تعالى منه فاعتبر أنت بغيرك ولا يعتبر بك غيرك وما بشارة موسى بعيسى بن مريم عليهما السلام الا كبشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم قال المقوقس أفى عينيه عروق حمر وبين كتفيه خاتم النبوة ويركب الحمار قال حاطب هو بهذه الصفة قال المقوقس قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى وكنت أظن أن مخرجه من الشأم ومن هنالك كانت تخرج الانبياء من قبله وأنا أعلم أن صاحبك سيظهر على البلاد وستنزل أصحابه بساحتنا هذه حتى يظهروا على البلاد وأنا لا أظهر للقبط ذلك ثم دعا المقوقس كاتبا يكتب بالعربية فكتب الى محمد بن عبد الله عليه السلام أما بعد فانى قرأت كتابك وفهمت ما فيه وقد علمت انك نبي مرسل وانك خاتم الانبياء وقد أكرمت رسولك غاية الاكرام وقد بعثت اليك هذه الهدية وكانت من جملتها جاريتان احداهما مارية وبغلة اسمها دلدل وحمار اسمه يعفور وعسل بنها التى دعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة

وأما هوذة ملك اليمامة فقال لسليط بن عمرو عند قدومه اليه ان جعل محمد الى الامر من بعده سرت اليه وأسلمت ونصرته والا حاربته فلما عاد بالجواب الى النبي صلى الله عليه وسلم قال صلى الله عليه وسلم لا ولا كرامة اللهم اكفنيه فمات هوذة وأما المنذر بن ساوا ملك البحرين فقد أسلم هو وعرب البحرين وأما الحرث بن أبى شمر الغسانى ملك البلقاء فانه لما أخذ الكتاب من شجاع بن وهب الاسدى وقرأه قال ها أنا سائر اليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه ذلك باد ملكه وفى كلام بعض أهل السير أن الحرث المذكور أسلم ولكن قال أخاف ان أظهر اسلامى فيقتلنى قيصر وأما هرقل قيصر الروم فان دحية الكلبي وجده اذ ذاك بالشأم ببيت المقدس فأكرمه هرقل ووضع كتاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم على تخذه وقصد أن يؤمن به فمنعه بطارقته فخاف على نفسه ورده حية رداً جميلاً فلم يكن منه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان من كسرى ولم يزل الى الآن ما صنعه من الجميل فى رد كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً جميلاً ذنباً لا يغفر عند قسس النصارى فانهم يقولون ان هرقل اما أن يكون لم يكترث برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولا ظن اتساع دولته فهو أحمق حيث رأى ظهوره وأمره بعينى رأسه واغارته على بعض بلاد الشأم واما أن يكون أهمل ذلك عمداً فهو ملوم كل الملامة فى تركه القتال مع نبى يهدم دين النصرانية مع أنه كان يسهل عليه أن يوقف فتوحاته وأن يقتفى أثره ويقتله مع أصحابه المجاهدين معه فهذا ذنب من هرقل لا تصفح عنه النصارى على تداول الازمان فهذا ما رآه القسس وشنعوا به على هرقل ونسوا الحكمة الالهية والارادة الربانية

سبحان من وضع الامور بحكمة * بعضا هدى والبعض ضل عن السنن
والبعض وافته المسرة والصفا * والبعض كدر بالمساءة والحزن
فارغب الى مولاك فيما عنده * واترك جميع الناس يا من قد فطن
واسأله خاتمة السعادة انه الـ * ـبر الرحيم وفضله يؤتيه من

ولا زال هرقل على عدم اظهار العداوة للنبى صلى الله عليه وسلم وأما ما وقع فى زمنه صلى الله عليه وسلم من غزوة موتة وغزوة تبوك ودومة الجندل فكان موجبه أمراء قيصر على الشأم

وذلك انه فى جمادى الاولى سنة ثمان من الهجرة كان بعث صلى الله عليه وسلم الحرث بن عمير الاسدى بكتاب الى هرقل فلما نزل موتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى الذى هو من أمراء قيصر على الشأم فقتله حين رجوعه من عند هرقل المذكور ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره فاشتد الامر عليه صلى الله عليه وسلم فجهز جمعا من أصحابه نحو ثلاثة آلاف وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال ان قتل فالامير جعفر بن أبى طالب فان قتل فعبد الله بن رواحة فان قتل فليرتض المسلمون برجل منهم وليجعلوه عليهم وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع وقال أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشأم

وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا بصيرا فانيا ولا تهدموا بناء فمضوا حتى نزلوا أرض الشأم فبلغهم ان هرقل ملك الروم فى مائة ألف من الروم وانضم اليه من قبائل العرب المتنصرة بكر ولخم وجذام مائة ألف ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين وكان المسلمون ثلاثة آلاف كما سبق وشجعهم عبد الله بن رواحة قائلا لهم أنتم خرجتم تطلبون الشهادة فما نقاتل الناس بعدد ولا كثرة ولا قوة ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به انما هى احدى الحسنيين اما ظهور واما شهادة فقال المسلمون صدق والله ابن رواحة

فمضوا للقتال فلقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب فانحاز المسلمون الى مؤتة وهى قرية من قرى البلقاء فالتقى الجمعان عندها فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة ومعه لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل رضى الله عنه فأخذ اللواء جعفر رضى الله عنه وقاتل على فرس أشقر ثم نزل عنه وعقره خوفا من ان يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين ثم قاتل رضى الله تعالى عنه فقطعت يمينه فأخذ اللواء بيساره فقطعت يساره فاحتضن اللواء وقاتل حتى قتل رضى الله عنه فأخذه عبد الله بن رواحة وتقدم به وهو على فرسه ثم نزل وقاتل حتى قتل فحينئذ اختلط المسلمون والمشركون وأراد بعض المسلمين الانهزام فجعل عقبة ابن عامر يقول يا قوم يقتل الانسان مقبلا أحسن من أن يقتل مدبرا فأخذ اللواء ثابت بن أرقم وقال يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم

وكان فى هذه السنة التى هى سنة ثمان من الهجرة ممن قدم على النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وكان ممن أرسل فى هذه الغزوة خالد بن الوليد رضى الله عنه فاصطلح الناس على أن يكون أميرا عليهم فأخذ اللواء وحمل على المشركين فهزمهم الله أسوأ الهزيمة حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤا وأظهر الله المسلمين وكانت مدة القتال سبعة أيام وأطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك فأخبر أصحابه وفى الحقيقة هذه الغزوة التى هى غزوة مؤتة ليست من الغزوات بل هى من السرايا لانه صلى الله عليه وسلم لم يكن فيها كما فى غزوة تبوك وغيرهما من الغزوات التى كان فيها وغزوة تبوك أيضا لم يتعرض فيها صلى الله عليه وسلم لقتال الروم كما تعرض لهم

فى غزوة مؤتة التى هى أول الغزوات بين المسلمين والروم وتبوك أرض بين الشأم والمدينة على البعد من المدينة بأربع عشرة مرحلة

وسبب غزوة تبوك التى كانت فى رجب سنة تسع ان هرقل ومن اجتمع اليه من لخم وجذام وعاملة أظهروا أنهم يريدون غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغه ذلك وكان الحر شديدا والجدب كثيرا والناس فى عسر فلذلك لم يور عنها كعادته فى سائر الغزوات فجهز صلى الله عليه وسلم لها جيشا يدعى جيش العسرة وبه سميت غزوة العسرة أيضا وأمر المسلمين بالنفقة فأنفق أبو بكر جميع ماله وأنفق عثمان نفقة عظيمة نحو ألف دينار وثمانمائة بعير وطعاما فقال صلى الله عليه وسلم ما على عثمان ما صنع بعد هذا اليوم وأنفق العباس رضى الله عنه سبعين ألف درهم وتخلف عن النفير عبد الله بن أبى بن سلول المنافق والثلاثة الذين تاب الله عليهم من الانصار وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال ابن أمية وجاء البكاؤن يستحملونه فقال لا أجد ما أحملكم عليه واستخلف صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه على المدينة فقال المنافقون انما خلفه استثقالا له فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كذبوا انما خلفتك لما ورائى فارجع أما ترضى أن تكون منزلتك منى بمنزلة هرون من موسى الا أنه لا نبى بعدى وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثون ألفا فى عشرة آلاف فارس واثنا عشر ألف بعير ووجدوا فى الطريق شدة من العطش ونهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ورود ماء الحجر وهى ديار ثمود وأمرهم أن يهريقوا ماءه وأن يطعموا عجينه الابل وفى هذه الغزوة ضلت ناقته صلى الله عليه وسلم فتكلم المنافقون فنزل الوحى وأخبره انها متعلقة بخطامها فى شجرة فوجدت كذلك

ووصل صلى الله عليه وسلم الى تبوك فوجد هرقل بحمص وأن الروم هابوا محاربته صلى الله عليه وسلم وأتته رسل هرقل فكساهم وردهم وأقام بها عشرين ليلة وقدم عليه يوحنا صاحب أيلة فصالحه على الجزية فبلغت ثلثمائة دينار وصالح أهل أذرح على مائة دينار فى كل سنة وأرسل سرية خالد بن الوليد الى الاكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وكان نصرانيا من كندة فأخذه خالد وفتح دومة الجندل وقتل أخاه وأخذ قباء ديباج كان عليه منسوجا

بذهب وقدم بالأكيدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحقن دمه وصالحه على الجزية وكتب له ولأهل دومة الجندل كتابا وقال صلى الله عليه وسلم وقد رأى تعجب أصحابه من قباء أخي أكيدر والله لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن منه وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة في شعبان فمن هنا يفهم أيضا أنه صلى الله عليه وسلم لم يقع منه مقاتلة في تبوك ولا حصل فيها غنيمة ولم يقاتل فيها الروم ولا كان بينه وبين هرقل حرب وانما حرب الاسلام مع هرقل انما كان ابتداؤها في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وانما الحرب وقع من خالد في دومة الجندل ويقال ان أصل الأكيدر من بلدة له قرب عين التمر في العراق يقال لها دومة وكان يزور أخواله من بني كلب بأطراف الشام فبينما هو في بعض الطريق ظهرت له مدينة متهدمة لم يبق الا بعض حيطانها وكانت مبنية بمكان يقال له الجندل فأعاد الأكيدر بناءها وغرس فيها الزيتون وغيره وسماها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة العراق ففتحها خالد بن الوليد سنة غزوة تبوك المذكورة وكان في الجاهلية لبني كلب صنم في دومة الجندل اسمه ود وكانوا يومئذ ينزلون دومة الجندل وتبوك واطراف الشأم ومن مشاهيرهم زهير بن حباب الكلبي وهو القائل في غزوتهم لبني بكر وتغلب على ماء الحنى

أين أين الفرار من حذر المو * ت واذ تتقون بالاسلاب

اذ أسرنا مهلهلا وأخاه * وابن عمرو في القيد وابن شهاب

وسبينا من تغلب كل بيضا * ء رقود الضحى برود الرضاب

وزهير بن شريك الكلبي وهو القائل لزوجته أسماء

الا أصبحت أسماء في الخمر تعذل * وتزعم اني بالسفاه موكل

فقلت لها كفي عتابك نصطبح * والا فبيني فالتعزب أمثل

فكم جرى عليها في الوقائع من أيام حتى وقعت بالفتوح في نصيب الاسلام

واذا نظرت الى البقاع وجدتها * تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

(الفصل الخامس عشر)

في ملحوظات تتعلق بعصر في مدة الدولة الخامسة والثلاثين

فى أيام هذه الدولة خرجت مصر من دين الجاهلية الى الملة العيسوية واشتهر أهلها بالقبط وكانت الديانة الرسمية بها اتباع دين النصرانية من ابتداء صدور أمر الملك طيودوسيس الاول فبقيت بها الحكومة عيسوية الى السنة الثامنة عشرة من الهجرة وهى مدة مائتين وتسعة وخمسين سنة فكانت معدودة من ايالات الروم بالقسطنطينية

ومع ان مصر فى ظرف هذه المدة السابقة على الفتح الاسلامى كانت متمسكة بدين النصرانية فكانت لم تزل محافظة على لغتها القديمة الاولية تكلما وانما أهملت طريق الكتابة بالقلم المصرى القديم البربائى الجاهلى واعتاضت عنه بالكتابة اليونانية بالصفة المستعملة فى مدينة الاسكندرية فكانت ألفاظ لغتها قبطية قديمة وطريق كتابتها بالحروف اليونانية ولا زالت الى الآن اللغة القبطية مرسومة بالحروف اليونانية وانما يستعمل منها المسائل الدينية عند اليعاقبة وانما اعترى بعض الالفاظ تغيير يسير وبقى الباقى من اللغة على ما كانت عليه

ومن المعلوم أن النصارى متفقون على أن المسيح قتلته اليهود وصلبته ثلاث ساعات أو ستا وعاش بعد ذلك ورآه شمعون الصفا وأوحى اليه ثم رفعه الله اليه وقد قال الله تعالى فى كتابه العزيز وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا زعم اليهود أنهم قتلوا عيسى بن مريم فأخبر الله سبحانه وتعالى أنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وذلك أن اليهود لما علموا أنه حاضر فى البيت الفلانى مع أصحابه أمر يهوذا رأس اليهود رجلا من أصحابه يقال له طيطايوس أن يدخل على عيسى عليه السلام ويخرجه ليقتله فلما دخل عليه أخرج الله عيسى عليه السلام من سقف البيت ورفعه اليه وألقى على ذلك الرجل شبه عيسى فظنوه هو فصلبوه فكان حين رفعه الله اليه ألقى شبهه على غيره بنص القرآن الشريف وهو قوله تعالى ولكن شبه لهم والاخبار أيضا واردة بذلك الا أن الروايات اختلفت فتارة يروى ان

الله تعالى ألقى شبهه على بعض الاعداء الذين دلوا اليهود على مكانه حتى قتلوه وصلبوه وتارة يروى انه عليه السلام رغب بعض خواص أصحابه فى أن يلقى شبهه عليه حتى يقتل مكانه وبالجملة فكيفما كان ففى القاء شبهه على الغير اشكالات يرجع حلها الى ان كل من أثبت القادر المختار سلم أنه تعالى قادر على أن يخلق انسانا آخر على صورة زيد مثلا لاسيما اذا كان ذلك معجزة لنبى وقد نص القرآن على ذلك صريحا فيما أنزل على النبى بمكة عليه الصلاة والسلام وأخبرنا به وقد ثبت بالمعجز القاطع صدقه عليه الصلاة والسلام فى كل ما أخبر عنه فكل اشكال فى شبه المصلوب لعيسى عليه السلام يمتنع كونه معارضا للنص القاطع ومصادما له وكذلك الرفع اليه تعالى ثابت ومعنى رفعه اليه تعالى رفعه من الارض الى السماء التى هى محل العظمة فلا يقتضى المكان ولا التجسيم بالنسبة اليه تعالى فرفع عيسى عليه السلام كالمعراج برسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليقظة بشخصه الى السماء ثم الى ماشاء الله من العلا فهو من قبيل الممكنات والله تعالى قادر على الممكنات كلها وقد وجده صلى الله عليه وسلم فى السماء الثانية فى عروجه الى السماء ففى حديث صحيح أخرجه القاضى عياض فى الشفاء والامام مسلم فى صحيحه وغيرهما بالسند المتصل عن أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بابنى الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا فعلم بما ذكر فى النص من كتاب الله تعالى برفع سيدنا عيسى والنص من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم انه وجده فى السماء الثانية وذكر بعضهم ان رفعه كان من جهة طور زيتا وعن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الانبياء اخوة وأمهاتهم شتى ودينهم واحد وانى أولى الناس بعيسى لانه لم يكن بينى وبينه نبى ويوشك أن ينزل فيكم ويحكم حكما عدلا وانه نازل على أمتى وهو خليفتى عليكم فاذا رأيتموه فاعرفوه فانه رجل مربوع القامة وهو الى الحمرة والبياض سبط الشعر كان رأسه يقطر فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال ويسكن الروحاء حاجا ومعتمرا يقاتل الناس على الاسلام حتى يهلك فى زمانه أهل الاديان

كلها غير الاسلام وتكون السجدة واحدة لله تعالى ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال ويقتل على يديه وعلى يد أصحابه ويقع الامن فى الارض حتى يرتع الاسد مع الابل والنمر مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الصبيان بالحيات ولا تضرهم ثم يلبث فى الارض أربعين سنة ثم يتزوج امرأة من غسان ويولد له أولاد ثم يتوفى فى المدينة ويدفن الى جانب قبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فطوبى لابى بكر وعمر يحشران بين نبيين وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تهلك أمة أنا فى أولها وعيسى فى آخرها والشهداء من أهل بيتى فى وسطها * ومذهب النصارى تجسد الكلمة فى المسيح وهم على ثلاث فرق أصلية

الفرقة الاولى الملكانية وهم طائفة الروم يصرحون بالتثليث وان المسيح ناسوت كلى قديم من قديم وأن الكلمة أشرقت على الجسد اشراق النور على الجسم الشفاف وأن القتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت معا لكن وقوعهما على الناسوت بالمباشرة وعلى اللاهوت بالاحساس والشعور لا بالمباشرة

والفرقة الثانية النسطورية أصحاب نسطور وهم من النصارى بمنزلة المعتزلة وهم يقولون بالاشراق والامتزاج يعنى انطبعت الكلمة فى الجسد انطباع النقش فى الشمعة وأن القتل والصلب وقع على مجرد الناسوت لا من جهة اللاهوت

والفرقة الثالثة فرقة اليعاقبة وهم أصحاب يعقوب البرذعانى راهب القسطنطينية وهم يقولون ان الكلمة انقلبت لحما ودما يعنى مازجت جسد المسيح ممازجة اللبن بالماء فصار المسيح الاله يعنى جوهرا متولدا من جوهرين وأن القتل والصلب وقعا على هذا الجوهر المتولد منهما واختلاف هؤلاء الفرق فى التجسد قيل هو المراد من قوله تعالى وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم الا اتباع الظن وقيل ان الذين اختلفوا فيه هم اليهود لما نقل انهم حبسوا عيسى عليه السلام مع عشرة من الحواريين فى بيت فدخل عليه رجل من اليهود ليخرجه ويقتله فألقى الله شبه عيسى عليه ورفع الى السماء فأخذوا ذلك الرجل وقتلوه على أنه عيسى عليه السلام ثم قالوا ان كان هذا

عيسى فأين صاحبنا وان كان صاحبنا فأين عيسى فهذا اختلافهم فالذين اختلفوا فيه على هذا هم اليهود وعلى الاول هم النصارى والواقع ان النصارى افترقت الى فرق كثيرة حتى ان بعضهم يقول كالاسلام انه عبد الله ورسوله فالجدال فى العقائد العيسوية الواقع بين أساقفة القسطنطينية بعضهم مع بعض وبينهم وبين أساقفة الاسكندرية كان شديدا جدا ترتب عليه افتراق الفرق وخروج الخوارج واعتزال المعتزلة وصار يترتب عليه صرف الاموال الجسيمة من شيعة الاحزاب الدينية ومن الحكومة وكان للاساقفة كمال النفوذ والاحترام فى الدولة الرومية وكان القياصرة يساعدونهم كل المساعدة على اغراضهم ويتنازلون كل التنازل فى تعظيمهم ويخضعون لهم من حيث كونهم أمناء الدين ويتعصبون مع من يجدونه أعظم اعتبارا فيميلون الى حزبه ويسارعون فى تأييده ونصره فى سائر أطراف وأكناف المملكة فكان يترتب على هذا تعطيل قوة الحكام والامراء والجنود وانحطاط نفوذهم بالنسبة لرؤساء الدين العيسوى فبهذا حصلت الغيرة الدينية والحمية المذهبية بين الفرق وكل مذهب من المذاهب انتصر له قيصر من القياصرة حقد عليه باقى المذاهب هذا ما كان فى القسطنطينية وسرى ذلك منها الى مصر حيث اختلفت فيها المذاهب وتشعبت المشاعب وتفرقت الفرق وكان كل حزب له نفوذ على الحاكم السياسى فكان الدم يجرى فى الاسكندرية عقب المجادلات بين النصارى المتفرقين بعضهم مع بعض ومع اليهود لما بينهم من البغضاء حتى انه بأدنى سبب قد اتفق ان أسقف النصارى افتات على نائب مصر وجمع جموعا على رهبان دير البرية كأنهم جنود امدادية وطرد بهم يهود الاسكندرية منها وأراد نائب القيصر على مصر أن يمنع ذلك حتى فر هاربا منهم هو وأعوانه بعد أن جرح منهم من جرح فهرعت الاهالى بمساعدة أمير مصر وقبض على رئيس الفتنة وعوقب حتى مات تحت الضرب فمدحه البطرق امام الحاضرين وتلا مقالة فى رثائه ونظمه فى سلك الشهداء لاعتقاده انه مات ظلما

ومما يدل على درجة نفوذ القسيسين فى تلك الازمان وقوة جاههم انه ظهرت بنت جميلة تسمى هوباطية كان أبوها عالما بالرياضيات ومعلما يسمى

طيموسيوزس وكانت تدرس كتب أغسطاليس وافلاطون فى مكتب الاسكندرية وكانت عفيفة صاحبة معارف حكمية فاجتمع عليها أرباب الحمية الدينية والعصبية العيسوية وهى راكبة عربتها وأحرقوا جثتها بالنار بالاسكندرية وكان يقودهم لهذه النكاية قسوس الاسكندرية وواعظ كنيستها ومع قتلهم لهذه الحكيمة لم ينتقم منهم أحد ولا عوملوا بموجب الاحكام والقوانين ولا عاقبهم القيصر فى نظير هذه الفعلة الذميمة وانما صدر الامر القيصرى بالتحريج على القسيسين بأنهم لا يتداخلون فى أمور المملكة وأن لا يزيد عدد أتباع الدير عن نحو خمسمائة نفس من التلاميذ ويكون تعيينهم باطلاع نائب مصر وانما فعل القيصر ذلك تسكينا للفتنة وتطييبا لخاطر الرعية وبعد ذلك أيضا بمدة رجع الحال كما كان ولكن بوجه آخر وذلك أنه كثر بالديار المصرية أتباع دين اليعقوبية على الوجه الموجود عليه الآن وصار لبطارقته نفوذ زيادة على نفوذ مذهب الملكانية فقد شوهد ان انسانا على مذهب اليعاقبة سلب بنت أعيان رؤساء المجلس الرومى واحتمى ببطرك الاسكندرية المسمى طيودوسيس فحماه على رؤس الاشهاد ولم تعاقبه الحكومة فلما بلغت القضية مرقيانوس قيصر اقتصر على عزل الاسقف المذكور

وفى أثناء هذه الاختلافات الدينية المترتبة على الاختلافات المذهبية داس العرب بلاد الشأم وقصد المغاربة ديار مصر فدفعهم نائب القيصر بجنود مصر عنها ولكن صاروا يتوعدونها بالهجوم ويهددونها بالقدوم

ولما كانت حكومة القياصرة مبنية على الخفة والطيش وكانت لا تدوم على حالة واحدة وكانت المجادلات الدينية تتولد دائما فى الاسكندرية وتتجدد بسبب ذلك بين أهل الروم واليعاقبة وكانت العداوة متمكنة بين الملكانية واليعاقبة عظم الهول فى مصر فى القرن الذى قبل الهجرة وكان قياصرة الروم يبذلون جهدهم بلا طائل فى جعل دين المملكة الرومية واحدا فى البلاد المشرقية وكثيرا ما صدرت الاوامر القيصرية بتوحيد العقيدة العيسوية والسير على مذهب واحد لا تحتمل أوامر القيصرية فى ذلك وربما كانت هذه الاوامر سببا فى تأكيد البغضاء والشحناء بين رؤساء الفرق مقوية لحميتهم

زائدة لعنادهم فكان لا أحد من أهل البلاد الرومية يعترف للقيصر بصحة
دخوله فى مادة الدين وانه ليس من خصائصه بوجه من الوجوه حتى ان فرقة
اليعاقبة بكنيسة الاسكندرية تشعبت الى عشرة مذاهب مختلفة كان يسميهم
الملكانيون قسوس الهراطقة كما أن اليعاقبة يسمون أيضا الملكانية هراطقة
يعنى خوارج وكان هؤلاء القسس العشرة فى كنيسة الاسكندرية فى زمن
حكم زينون قيصر حتى انه زاد فى أيامه المال المقرر على مصر حتى بلغ خمسمائة
رطل ذهب وكان قبله خمسين رطلا فكان نحس مصر فيما يخص الفتن الدينية
وزيادة العوائد فى المالية فلما خلف أنسطاش زينون نظم دفتر العوائد تنظيما
بحيث كثر الايراد المصرى العائد على الديوان القيصرى فكان ثقيلا على
الاهالى فحصلت الحوادث العجيبة والمصائب الغريبة فى آن واحد على
مصر مع ما ينضم الى ذلك من اغارة المغاربة على بعض أقاليم مصر ولا زال هذا
الحال يتزايد ويشتد فكثرت الفتن وظهر العصيان وتواترت قيامات الاهالى
فى الازقة والحارات وكثر اشعال النيران الحسية والمعنوية فى كثير من
الجهات وعدم الامن فى القرى والارياف بقطع الطرقات ونتج عن ذلك
ما يترتب على حصول الفتن الداخلية من البلايا وليس ذلك كله الا للاختلاف
فى مسئلة دينية أولتها كل فرقة على مقتضى اعتقادها وفهمها وكل هذا انما
سرى لمصر من فتح دولة القسطنطينية حيث كثر فيها الاختلال والارتكاب
وفشا فيها الانهماك على المعاصى من الاعيان والاكابر والعربدة من الجنود
والاصاغر عما فاق الحد حتى ان المجادلة الدينية والمباحثات من العلوم الالهية
بدون فائدة ولا ثمرة صارت من وظائف المتقلدين للقيصرة فأضاع القياصرة
ما كان حقه أن يصرف فى حسن التدبير وحصل منهم فى سياسة ملكهم
التقصير

فالديار المصرية اقتدت بهم فى ذلك وسلكت مثلهم فى مفاوز المسالك وليس
لها باعث آخر لايشار الفتن والمشاجرات غير ما أوجبته مصيبة الديانات ولم
يكن أهلها اذ ذاك كأهل هذه الازمان والاوقات وعسى أن يكون ذلك
الانحطاط المترتب على الاختلاف سهل لدين الاسلام السبيل وكانت أسبقيته
علامة على احتياج مصر لفتوحها بالاسلام وتغيير أحوال ذلك الجيل بجيل

جليل لتبلغ درجة من الترقي والتمدن على وجه صحيح وتخلص مما كانت عليه من التمسك بما انتسخ من دين المسيح فلما منحها الله سبحانه وتعالى من نعمه طيب الهوا ورزقها بخصوبة الارض التي لا تجود في السوى كذلك أنعم عليها بفتوحها بالاسلام الذي لا غلو فيه ولا شطط وأمته خير أمة أخرجت للناس حيث هي الوسط فكما شقي قبط مصر بقياصرة الجدال في الدين فقد سعدت مصر بخلافة خلفاء مصر الراشدين

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم * ويسعد الله أقواما بأقوام

وآخر ملوك اليونان على مصر هرقل قيصر ونائبه على مصر هو المقوقس الذي حاربه عمرو بن العاصي وعليه انتصر

يا أيها السائل عما مضى * عن علم هذا الزمن الذاهب
ان كنت تبغي العلم أو أهله * أو شاهدا يخبر عن غائب
فاختبر الارض بأسمائها * واعتبر الصاحب بالصاحب

ولنذكر جدول ملوك الدولة الخامسة والثلاثين التي رأس ملوكها طيودوسيس الاكبر من تاريخ صدور أمره وآخرهم هرقل الذي بقي ملكه على مصر لفتوح الاسلام

(اسماء الملوك)	ابتداء الحكم سنة قبل الهجرة	مدة الحكم سنة قبل الهجرة
صدور أمر الملك طيودوسيس الاكبر بالتمسك بدين المسيح رسما وعموما	٢٤١	١٤
الملك ارقاديوس	٢٢٧	١٣
الملك طيودس قيصر الثاني	٢١٤	٤٢
الملكة بولشيرية القيصرة وزوجها مرقيانوس قيصر	١٧٢	٧
الملك ليون قيصر	١٦٥	١٤
الملك ليون قيصر الثاني الملقب بالسلوقي	١٥١	عشرة أشهر
الملك زينون قيصر والملك باسيلقوس قيصر	١٥١	٣٠

(أسماء الملوك)	ابتداء الحكم سنة قبل الهجرة	مدة الحكم سنة قبل الهجرة
الملك أنسطاش قيصر الاول	١٣١	٢٧
الملك يوسطنيوس قيصر الاكبر ويسمى جوسطنيوس الاول	١٠٤	٩
الملك يوسطنيانوس قيصر الاول	٩٥	٣٨
الملك يوسطنيوس الثانى	٥٧	١٣
الملك طيبروس قسطنطين	٤٤	٤
الملك موريقوس ويسمى موريقس ويسمى مورسوس طيبروس	٤٠	٢٠
الملك قوقاس قيصر	٢٠	٨
الملك هرقل قيصر	١٢	٣١

فجملة حكمهم مائتان وتسعة وخمسون سنة كما سلف ذلك فاذا جمعتها تجدها كذلك وربما يختلف الحساب اختلافا يسيرا بالنظر للفروق اليسيرة التى تحصل من عدم علم شهور التولية ثم انه ينبغى أن نذكر عقيب هذا الجدول جدول عموم الدول التى حكمت مصر من ابتداء الملك ميناووس الذى هو مصرايم الى آخر ملك من ملوك الروم جاء عليه الفتح الاسلامى وهو هرقل الذى كان عامله على مصر الملك المقوقس وهاهو الجدول

الدول المصرية على رأى مانيطون كما فى فهرسته التاريخية

نعت الدولة ونسبتها الطبقة	قاعدة مملكة الدولة	الاقليم الذى به قاعدة الدولة	مدة بقاء الدولة	تاريخ ابتدائها قبل الهجرة	*(ملحوظات تاريخية)*
			سنة	سنة	
طينيسية	طينيس	اقليم جرجا	٢٥٣	٥٦٢٦	محل طينيس الآن العرابة المدفونة فى عهدها أسس ميناوس مدينة منف
شرحه	شرحه	شرحه	٣٠٢	٥٣٧٣	فى عهدها ملوكية النساء كانت جائزه
منفيه	منف	اقليم الجيزه	٢١٤	٥٠٧١	محل منف ميت رهينة وفى عهدها بنيت اهرام سقاره ودهشور
منفيه	شرحه	شرحه	٢٨٤	٤٨٥٧	فى عهدها بناء اهرام الجيزه الكبيرة
منفيه	شرحه	شرحه	٢٤٨	٤٥٧٣	. . . .
فيلمه	فيله	اقليم اسنا	٢٠٣	٤٣٢٥	فيله هى جزيرة اصوان
منفيه	منف	اقليم الجيزه	٠٧٠	٤١٢٢	. . . .
منفيه	شرحه	شرحه	٢٤٢	٤١٢٢	. . . .
اهناسيه	اهناس المدينة	بنى سويف	١٠٩	٣٩٨٠	. . . .
اهناسيه	شرحه	شرحه	١٨٥	٣٨٧١	هؤلاء الدول العشرة هى الطبقة العليا
طيويه	مدينة طيوه الآن قرية ابو	اقليم قنا	٢١٣	٣٦٨٦	أول الدولة رمسيس الثالث وفى هذا العهد كان بناء السراديب التى تحت الارض بالفيوم
طيويه	شرحه	شرحه			
طيويه	شرحه	شرحه	٤٥٣	٣١٧٣	. . . .
سخاويه	سخا	اقليم المنوفية	١٨٤	٣٠٢٠	. . . .

تابع

تابع الدول المصرية على رأى مانيطون كما فى فهرسته التاريخية

بيان عدد الدول	نعت الدولة ونسبتها لبلدة	قاعدة ملك الدولة	الاقليم الذى به قاعدة الدولة	مدة بقاء الدولة	تاريخ ابتداء ملكها قبل الهجرة	*(ملحوظات تاريخية)*
				سنة	سنة	
١٥	ملوك رعاه	مدينتهم صان	اقليم الشرقية	٥١١	٢٨٣٥	يقال لدول الرعاة دولة العمالقة وهم عرب الحجاز والشأم وفى أيامهم كان فى طيوة بالصعيد ملوك مصريون منهم أوسومنديناس صاحب الكتبخانة المسماة دواء الارواح والى الآن أشاهد فى مدينة طيوة آثار قصوره واسمه عند المصريين سمفوس والدولة السابعة عشر آخر دول الطبقة الوسطى
١٦	ملوك رعاه	مدينتهم صان	اقليم الشرقية			
١٧	ملوك رعاه	مدينتهم تنيس	شرقيه			
١٨	طيوبه	طيوه	اقليم قنا	٢٤١	٢٣٢٥	فى عهد هذه الدولة أسس طوميسيس الاول مدينة آبو وخرج العمالقة من مصر وحفرت بحيرة قارون وهى ابتداء الطبقة الاخيرة
١٩	طيوبه	شرحه	شرحه	١٧٤	٢٠٨٤	رأس هذه الدولة رمسيس الرابع الملقب ميمون
٢٠	طيوبه	شرحه	شرحه	١٧٨	١٩١٠	بهذه الدولة انتهاء الملوك الرمسيسة
٢١	تنيسية	تنيس وهى صان	اقليم الشرقيه	١٣٠	١٧٣٢	فى عهد هذه الدولة ملك داود وسليمان عليهما السلام
٢٢	بسطية	تل بسطه	اقليم الشرقية	١٧٠	١٦٠٢	رأس هذه الدولة الملك شيشاق.

تابع الدول المصرية على رأى مانيطون كما فى فهرسته التاريخية

بيان عدد الدول	نسبة الدولة ونسبتها العائلية	قاعدة ملك الدولة	الاقليم الذى به قاعدة الدولة	مدة بقاء الدولة	تاريخ ابتداء الملك مضافا لما قبل الهجرة	*(ملحوظات تاريخيه)*
				سنة	سنة	
٢٣	تنيسية	تنيس	شرحه	٠٨٩	١٤٣٢	فى آخر هذه الدولة أرخ اليونان وقائعهم بالتاريخ الاولمبيقى نسبة الى الالعاب الاولمبقية البرجاسيه التى تنعقد كالمعرض فى عهد ناحرة كل أربع سنين فالقرن الذى هو مائة سنة يشتمل على ستة وعشرين مجمعا وأول مجمع أولمبيقى كان سنة ١٣٩٨
٢٤	صاوية	صا الحجر	اقليم الغربية	٠٠٦	١٣٤٣	رأس هذه الدولة بوخوريس الاسود وفى عهدها كان تأسيس مدينة رومة
٢٥	سودانية	سودان	نوبه وحبشه	٠٥٠	١٣٣٧	. . . .
٢٦	صاوية	صا الحجر	اقليم الغربيه	١٣٨	١٢٨٧	رأس هذه الدولة ابساميقوس الاول ومن ملوكها نيخاوس الثانى الذى جمع البحر الابيض بالبحر الاحمر بخليج وفى عهدها كان ظهور بختنصر ملك الموصل
٢٧	فارسية	فارس	ايالة مصرية فارسية	١٢١	١١٤٩	فتح قنبيشاش مصر وتكبر وتجبر وسمى نفسه بختنصر الثانى وهذا معنى قول المؤرخين ان بختنصر استولى على مصر
٢٨	صاوية	صا الحجر	اقليم الغربية	٠٠٧	١٠٢٨	. . . .
٢٩	اشمونية	اشمون الرمان	اقليم الدقهلية	٠٢١	١٠٢١	. . . .
٣٠	سمنودية	سمنود	اقليم الغربية	٠٣٨	١٠٠٠	. . . .

تابع

تابع الدول المصرية على رأى مانيطون كما فى فهرسته التاريخية

بيان عدد الدول	نعت الدولة ونسبتها الخلقية	قاعدة ملك الدولة	الاقليم الذى به قاعدة الدولة	مدة بقاء الدولة	تاريخ التملك مضافا لما قبل الهجرة	*(ملحوظات تاريخية)*
				سنة	سنة	
٣١	فارسية	فارس	ايالة مصرية فارسية	٠٠٨	٠٩٦٢	فتوح العجم لمصر ثانى مرة ولم تعد دولة الملك المصرية للمتأصلين بها وهو انتهاء الطبقة الاخيرة وفهرسة مانيطون
٣٢	مقدونية	مقدونيا	ايالة مصرية يونانية	٠٢٧	٠٩٥٤	فتوح الاسكندر الاكبر لمصر وعمالة بطليموس سوطير الخ وتأسيس الاسكندرية
٣٣	دولة البطالسة	بطليموس	قاعدة المملكة الاسكندرية	٢٧٥	٠٩٢٧	هذه الدولة البطليموسية هى دولة اليونانية الا انها استقلالية بحكومة مصر ومضافاتها
٣٤	الدولة الرومانية	رومة	ايالة مصرية رومانية قاعدتها الاسكندرية	٤١١	٠٦٥٢	انتهاء هذه الدولة من تاريخ أمر طيودوسيس قيصر سنة ٣٤١
٣٥	رومية عيسوية	روم قسطنطينة	حكومة مصر رومية	٢٥٩	٠٢٤١	انتهاء هذه الدولة بفتوح مصر بالاسلام سنة ثمانية عشر من الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

ثم انه من عهد التاريخ القديم الذى تكونت فيه الممالك القديمة والدول العظيمة كدول مصر ودول اليونان ودول الفرس الاولى كانت أمة العرب عريقة القدم قائمة الملك على ساق وقدم وان لم تكن لها دولة تضبطها ولا روابط سياسية تربطها الا أنها كانت على سنن قويم وطريق مستقيم حريتها فطرية ونسائم فطنتها عطرية دأبها حب الحاكمية لا المحكومية والميل الى الغالبية لا المغلوبية فلهذا لم يكونوا فى الاحقاب الخالية والاعصر البالية تحت استرعاء دولة من الدول واذا غالبهم جنس قوى بالكثرة لا يكاد يتمكن من ادخالهم تحت الطاعة ولا أن يدخلهم فى زمرة من فى قبضته من الجماعة ولا يستطيع أن يغير اخلاقهم ولا طباعهم ولا يمكنه تبديل صفاتهم المميزة لهم عن معتادها فان كانت لهم طاعة اقتضتها صروف الحدثان فهى طاعة صورية يتنصلون منها حسب الامكان وكان لهم من الحرية والعزة اعلى مزية فلهذا بقيت اخلاقهم على تداول الدهور واحدة واستمرت عوائدهم مستوية نحو أربعة آلاف سنة لا ناقصة ولا زائدة يميلون بالطبع لشن الغارة على البلاد والاستيلاء على العباد واذا خرجوا الى النجعة قل أن يعزموا على الرجعة فأمة العرب دائما قوية على الاغارة على ما جاورها من الممالك شديدة التغلب على ما جاوزها من المسالك فقد غار ملوكها على مصر فى قديم الزمان وتواريخ مصر بذلك أقوى دليل وبرهان وكانوا يدعون أيام دولتهم بعصر بالملوك الرعاة وبالملوك العمالقة

ولما دخلها يوسف على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام كان عزيزا عند فرعون الذى كان من نسل هؤلاء العرب الرعاة وكانت أيام فرعون بعزازته أحسن الايام وقد تسلطن ملوك العرب أيضا على الشأم والعراق كالغسانية والكنديين وخلافهم وكان ذلك قبل الهجرة باثنين وعشرين سنة ومائتين وألف فاتسعت بذلك دولتهم وتمكنت خارج حدود جزيرتهم صولتهم وربما أثبت التاريخ ان دولة حمير ملكت العالم بأسره من عرب وعجم وان لهم آثارا ببلاد التتار فى مدينة بلخ وهمذان وخلافها وان ذا القرنين كان حميريا واستولى على جميع الامم وبالجملة فلاشك أن العرب بعد أن حكمت فى الزمان القديم خارج حدودها وأغارت على فراعنة مصر وانتصرت عليهم

باعلامها

بأعلامها وبنودها كما حاربت بعد ذلك ملوك الموصل وهزمتهم غير مرة ورجعت الى حدودها الاصلية وبقيت فيها على أصول نخوة الحرية والشهامة مستمرة

ولما تغلب كيروش ملك الفرس على مصر والشأم وخلفه على تلك البلاد ابنه قبيشاش الذى كان فى الاغارات كالاسد الضرغام وطمع لقربه من بلاد العرب فى أن يسترعيهم كما استرعى من بجوارهم لم يستطع أن ينشب العرب بأظفاره وخاب أمله حيث استمروا على الحرية ولم يذوقوا منه طعم ذل الرعية وكذلك لما تغلب الاسكندر الاكبر على بلاد المشرق لم ترض العرب أن تنتظم تحت لوائه ولا دخلت تحت حكمه وولائه ولما حكم الرومانيون جميع بلاد الدنيا وصارت دولتهم فى أيامهم هى العليا ولم يسلم من حكمهم الا النادر من البلاد ولا خلا من أسرهم الا القليل من العباد بقيت جزيرة العرب فى دولتهم مستبدة بأمرها مستقلة بنفسها يحكمها شيوخها وأمراؤها وملوكها وكبراؤها ولم تنقد للدولة الرومانية طرفة عين ولا دخلت تحت استعبادها والحر الزين لا يحتمل القيد الشين نعم كان للرومانيين بعض ولاء صورى على طرف من الحجاز ولم يكن فى الحقيقة الا من باب المجاز حتى ان عثمان بن حويرث لما تنصر وقصد أن يجعل الكعبة المشرفة ضمن هبا كل الروم واجتهد فى ذلك خاب سعيه الملوم ومنعته كل المنع قريش وعرف أن رأيه ليس من جيل الحلم بل من قبيل الطيش

فأصبحوا قد أعاد الله دولتهم * اذ هم قريش واذ ما مثلهم بشر
ولن يزال امام منهم ملك * اليه يشخص فوق المنبر البصر
ان عاقبوا فالمنايا من عقوبتهم * وان عفوا فذووا الاحلام ان قدروا

وقد انتهى الحال بأن أتاح الله لهم خير دولة ومنحهم منه واحسانه أعلى صولة قال الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه أئمة العرب أولى الامم لانهم المخاطبون أولا ولان الشريعة عربية والدين عربى وهو مأخوذ مما رواه ابن عباس رضى الله عنهما أحبوا العرب لثلاث لانى عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة فى الجنة عربى وعنه أيضا أحبوا قريشا فانه من أحبهم أحبه الله تعالى فالعرب هم الذين قاموا فى نصرة الدين وباعوا أنفسهم لله تعالى

وأظهروا الاسلام وأزاحوا ظلمة الشرك ولنذكر في الباب الثاني مناقبهم الحسنة التي لم تزل على صفحات الدهر حسنة

(الباب الثاني)

فيما كانت عليه العرب قبل الاسلام الى أن ظهر بين ظهرانيهم بدر التمام ومصباح الظلام عليه أفضل الصلاة والسلام وفيه فصول

(الفصل الاول)

(في صفة العرب المميزة لهم عن غيرهم)

اعلم أن العرب ترجع كلها الى قحطان وعدنان فيقال لسائر قحطان اليمن ويقال لسائر بني عدنان المضرية والنزارية وهي قيس ويقال قيسي ويماني كما يقال سعد وحرام وكل من قحطان وعدنان كلاهم متحدون في النسب متحدون في الطبائع والعوائد على اختلاف طبقاتهم الست التي هي الشعوب والقبائل والعمائر والبطون والافخاذ والفصائل فالشعب أكبر من القبيلة كربيعة ومضر والاوس والخزرج والقبيلة ككنانة والعمارة كقريش والبطن كقصي والفخذ كهاشم والفصيلة كبني العباس وأول صفة من صفات العرب المحمدة وهي الشهامة في الحرص على ما يوجب الذكر الجميل من العظائم والثناء الجميل من المكارم وهذه الصفة كعلو الهمة والحمية والنجدة من اركان الشجاعة التي هي صفة جامعة لذلك فكانوا يحبون المحامد والفخر وبعد الصيت بما يعدونه عندهم من الفعل الجميل كانتصارهم على الاعداء وكسب الغنائم فكانت النصرة عندهم تقوم مقام الحقوق المدنية فيما يترتب عليها من المزايا البلدية أوهي عين حقوق الحرب والصلح عند الامم المتمدنة وانما يتولاها صاحب الحق بنفسه أو بقبيلته لان افراد العرب جميعهم كملوك يسوسون نفسهم بنفسهم وكانوا ينتقمون من العدو بأخذ الثأر فكانت المقاصة عندهم يستوي فيها سائر العشائر والقبائل فلا قبيلة الا وتأخذ ثأرها من القبيلة الاخرى ولا عشيرة الا وتستوفي ثأرها وتنفي عارها فكانت المحمدة على الخير والشر باعثة لهم على كسب المحامد أو على كسب

المثالب المأذونة التي يعدونها من المحامد الحقيقية كما يحكى أن بعض العرب وقف على قبر عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامرى فقال يرثيه أنعم ظلاما أبا على فلقد كنت تشن الغارة وتحمى الجارة سريعا الى المولى بوعدك بطيأ عنه بوعيدك وكنت لا تضل حتى يضل النجم ولا تهاب حتى يهاب السيف ولا تعطش حتى يعطش البعير وكنت خير ما تكون حتى لا تطن نفس بنفس خيرا انتهى فقد مدحه بأحسن ما يوصف به عربى فكان بقاء ذكر الانسان بعد الموت بمنزلة الحياة قال بعضهم

فأثنوا علينا لا أبا لابيكم * بأفعالنا ان الثناء هو الخلد

وقال آخر

فان يك أفنته الليالى فأوشكت * فان له ذكرا سيفنى اللياليا

ومن صفاتهم النجدة التي هى عدم الجزع عند المخاوف فكانوا منها على مكانة عالية فكانت أحلامهم تحمل أجسامهم ما لا يطاق وسواء فى ذلك الشخص والقبيلة كما قيل فى الاول

أكر على الكتيبة لا أبالى * أفيها كان حتفى أم سواها

ولى نفس تتوق الى المعالى * ستتلف أو أبلغها مناها

(غيره)

كنت المقدم غير لابس جنة * بالسيف تضرب معلما أبطالها

وعلمت أن النفس تلقى حتفها * ما كان خالقها المليك قضى لها

(غيره)

فان يك قيس دى كان نذرا نذرته * فمالى من أحساب قومى من شغل

أنا الضامن الراعى عليهم وانما * يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

(وقيل فى الثانى)

وكفى تستقل بحمل سيفى * وبى عمن يهضمنى امتناع

وحولى من بنى قحطان شيب * وشبان الى الهيجا سراع

اذا فزعوا فأمرهم جميع * وان لاقوا فأيديهم شعاع

وقوله

لا يبعدن قومى الذين هم * سم العداة وآفة الجزر

النازلين بكل معترك * والطيبين معاقد الازر

فكان اذا خطر بقبيلة منهم ذات يوم فكرة اقتحام خطر من الاخطار لقضاء وطر من الاوطار اتحد أفراد القبيلة وصاروا على قلب رجل واحد وهموا بتنجيز ما أضمروه وقل أن يفوتهم نجازه كما قيل

كانوا على الاعداء نار محرّق * ولقومهم حرما من الاحرام

وكان طريق وصولهم الى مقصودهم بشيئين متوفرين عندهم وهما اتحاد القبيلة فى اللغة واتحادها فى الدين اذ كان لكل قبيلة لغة خاصة بها وعبادة كذلك فلو كانت القبائل العربية فى تلك الازمان الاولية يجمعها لسان واحد يحصل به التفاهم مع التمسك بدين واحد لما ساواها غيرها من الامم فى السطوة والبأس ولا خلاص من الدخول فى دولتهم أمة من الامم ولا أحد من الناس وسيأتى الكلام على لسان العرب وأديانها

ومن صفات العرب الحمية على العرض وشرفه وحفظ ناموسه وهذه الصفة بعينها هى التى بعثتهم جميعا على اختلاف قبائلهم على علو الهمة وكمال الشجاعة وكرم النفس وانما تغالى بعضهم فى شرف العرض حتى أداهم الغلو فيه الى صفات ذميمة كدفن البنات بالحياة الذى هو أفظع ما يكون فى حد ذاته الا أن المعنى الباعث عليه عندهم كانوا يرونه حميدا لدفع العار وهذا ما يسمى بالوأد يقال وأد الموؤدة يئدها دفنها حية وكانت العرب فى الجاهلية تفعل هذا بالبنات فقيل ان هذا لتجنب العار وقيل لخشية الاملاق التى يترتب عليه عدم وجود الكفء للازواج فيخشى عليهن التفريط فى العرض أو الميل لغير الكفء للعجز عن التكسب من البنات وقدرة البنين عليه

فكان الرجل اذا ولدت له بنت فأراد ابقاء حياتها ألبسها جبة من صوف أو شعر لترعى له الابل والغنم فى البادية وان أراد قتلها تركها حتى اذا بلغت قامتها ستة أشبار فيقول لامها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها الى أقاربها وقد حفر لها بئرا فى الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظرى فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى يستوى البئر بالارض وقيل كانت الحامل اذا قربت حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة فاذا ولدت بنتا رمتها فى الحفرة واذا ولدت ابنا أمسكته ولا مانع من حصول الوأد بالطريقتين بل

وبطرائق أخرى والحامل على ذلك اما خشية الاملاق أو خشية العار فقد كان قيس بن عاصم المنقري يئد بناته مع كثرة ماله

وكان صعصعة بن ناجية المجاشعي جد الفرزدق يشتري البنات ويخلصهن عن القتل كما قال الفرزدق مفتخرا

ومنا الذي منع الوائدات • وأحيا الوئيد فلم توأد

روي أن صعصعة لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يا رسول الله اني كنت أعمل عملا في الجاهلية أفينفعني ذلك اليوم قال وما عملك فأخبره بخبر طويل فيه أنه حضر ولادة امرأة من العرب بنتا فأراد أبوها أن يئدها قال فقلت له أتبيعها قال وهل تبيع العرب أولادها قال قلت انما أشتري حياتها ولا أشتري رقها فاشتريتها بناقتين عشراوين وجمل وقد صارت لي سنة في العرب على أن أشتري ما يئدونه بذلك فعندي الى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة وقد أنقذتها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفعك ذلك لانك لم تبتغ بذلك وجه الله وان تعمل في اسلامك عملا صالحا تثب عليه وفاخر الفرزدق رجلا عند بعض خلفاء بني أمية فقال أنا ابن محيي الموتى فأنكر ذلك عليه من قوله فقال ان الله عز وجل يقول ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعا وجدي منع وأد البنات واشتراهن بماله فذلك الاحياء فقال الخليفة انك مع شعرك لفقيه مع أن الفرزدق وان أحسن في المعنى فقد أساء في العبارة فلا ينبغي سماع مثل ذلك لانه تلاعب بالدين ونظير ذلك ان رجلا أراد التوصل الى المأمون فقال أيها الناس اعلموا ان عندي ما ليس عند الله تعالى ولي ما ليس لله تعالى ومعي ما لم يخلق الله تعالى واني أحب الفتنة وأكره الحق وأقول ان اليهود قالت حقا وان النصارى قالت حقا ومعي زرع ينبت بغير بذر وسراج يضيء بغير نار وأنا أحمد النبي وأنا ربكم أرفعكم وأضعكم فقاموا اليه وكادوا يقتلونه قائلين لا كفر فوق هذا فرفعوه الى المأمون فسأله فعرفه انما قال ذلك ليتوصل اليه وأخذ يتأول فقال أما قولي لي ما ليس لله تعالى فان لي صاحبة وولدا وليس لله صاحبة ولا ولد وأما عندي ما ليس عند الله تعالى فعندي الظلم والجور ومعي ما لم يخلق الله تعالى القرآن والفتنة المال والولد والحق الموت والزرع بغير بذر الشعر والسراج بغير نار العينان والحق الذي

قاله اليهود والنصارى ماحكاه الله تعالى عنهم قالت اليهود ليست النصارى على شئ الآية وأنا أحد النبي بمنى أحد نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم وأشكره وأنا ربكم صاحب لكم أرفع ذكركم وأضعه انتهى وهذا الاطلاق مستهجن قبيح لايجوز ذكره فمدح الفرزدق بالافقهية زيادة عن الشعر فى التعبير عن فداء الموؤدة بمحيي الموتى استحسان قبيح لاسيما من مثل الخليفة الاموى

والظاهر أن الوأد لم يكن مع ذلك كثيرا وان كان واقعا فان العرب كغيرها من الامم تحرص على النسل حيث هو أمر طبيعي فالوأد عرضي فقط ونادر لاحكم له فقد عهد عندهم زواج الفقيرة لابناء الملوك وزواج امرئ القيس فى بحثه عند أحياء العرب عن ذات عقل يؤيد ذلك وقصة زواجه انه كان آلى على نفسه أن لايتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية وأربعة واثنين فجعل يخطب النساء فاذا سألهن عن هذا قلن له أربعة عشر فبينما هو يسير فى جوف الليل اذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة كأنها البدر ليلة تمه فأعجبته وقال لها ياجارية ماثمانية وأربعة واثنان فقالت أما ثمانية فاطباء الكلبة وأما أربعة فاخلاف الناقة وأما اثنان فثديا المرأة فخطبها من أبيها فأجابه الى ماطلب وقصة بنات المحلق الكلابى مما يؤيد ماقلناه كما سيأتى فى الكلام على سوق عكاظ قريبا

ومن صفات العرب أيضا كرم النفس ومكارم الاخلاق وكان يحملهم على الانتصار لمن استنصر بهم واجارة من استجار كما يحملهم على صدق العهد ووفاء الوعد يستوى فى ذلك منهم الوثنى والكتابى حتى بقى فيهم الى الاسلام بالاولى والاحرى وهذا كله يجمعه الاتصاف بالمحامد والمكارم فالمحمدة اسم جامع للصفات الحميدة ومن تأمل قصيدة الشنفرى التى مطلعها

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم * فانى الى قوم سواكم لأميل

يقول منها

وكل أبى باسل غير أننى * اذا عرضت أولى الطرائد أبسل

عرف همة العرب ومن وزن معلقة عمرو بن كلثوم المشهورة ولامية السموأل بميزان العقل عرف أيضا أحوالهم اذ كلهم على هذه المثابة وهى

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه * فكل رداء يرتديه جميل

وان

وان هو لم يحمل على النفس ضيمها * فليس الى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا * فقلت لها ان الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياه مثلنا * شباب تسامى للعلا وكهول
وما ضرنا انا قليل وجارنا * عزيز وجار الاكثرين ذليل
لنا جبل يحتله من نجيره * منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسمابه * الى النجم فرع لا ينال طويل
وانا أناس لانرى القتل سبة * اذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا * وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه * ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظبات نفوسنا * وليست على غير الظبات تسيل
ونحن كماء المزن ما فى نصابنا * كهام ولا فينا يعد بخيل
وننكر ان شئنا على الناس قولهم * ولا ينكرون القول حين نقول
اذا سيد منا خلا قام سيد * قوول بما قال الكرام فعول
وما خمدت نار لنا دون طارق * ولا ذمنا فى النازلين نزيل
وأيامنا مشهودة فى عدونا * لها غرر مشهورة وحجول
وأسيافنا فى كل شرق ومغرب * بها من قراع الدراعين فلول
معودة أن لا تسل نصالها * فتغمد حتى يستباح قبيل
سلى ان جهلت الناس عنا وعنهم * فليس سواء عالم وجهول
فان بنى الريان قطب لقومهم * تدور رحاهم حولهم وتجول

وقال عباس بن عبد المطلب يذكر فخار قريش

ان القبائل من قريش كلها * ليرون أنا هام أهل الابطح
وترى لنا فضلا على ساداتها * فضل المنار على الطريق الاوضح

وسيأتى لذلك بقية عند ذكر الشعر والشعراء فى الجاهلية

وقد بقيت هذه النخوة الفخارية فى العرب الى الاسلام بل والى الازمان الاخيرة عند نسل العرب المتزمين فمن ذلك ما ينسب لبعض عظماء أولاد عائد بالدوير بصعيد مصر وهو قوله

اذا ما ركبنا ظهور الجياد * فمن ذا الفرسان تا يقهر

ومهما أمرنا لكل البلاد * فكل مطيع لما نأمر
ونحن الملوك أهل السداد * ونحن لاصدافهم جوهر
ومن يبتغينا ينال المراد * ويرجع طلقا ويستبشر
فخل سوانا وصف الفؤاد * ترى من عطانا الذى يبهر

وفى الواو قام عند عرب الصعيد مقام الشعر عند سلفهم فلهم فيه الملكة الجيدة مع لحنه الذى يحاو به ومع ذلك فأين هذا كله من ذاك

أما الخيام فانها كخيامهم * وأرى نساء الحى غير نسائها

(الفصل الثانى)

(فى لسان العرب وكون ملكة الشعر والخطابة فيهم بالجبلة والطبيعة)

لما كانت العرب مطيعة لطبائعها التولدية وغرائزها الفطرية وكانت الملكة الاصلية الجبلية فيهم على حد سوى اتحدت ألسنتهم وأفكارهم وحماستهم وبلاغة مقالهم وانما اختلفت فيهم لغات الاحياء والقبائل ومخاطبات البطون والعشائر يعنى اتحد اللسان الذى به الفهم والتفهم واختلف متعلقه واحوال التلفظ به فى التأدية وأسماء المسميات وكيفيات الحركات والسكنات ومع ذلك فاللسان واحد وعلى قاعدة واحدة تكاد أن تكون عمومية لا يعتريها تغيير والالكان لحنا وغلطا ولا يجوز أن يتوهم فى العربى البدوى أن يغلط فى نطقه ويلحن فيه وان تعمد ذلك لا يطاوعه لسانه فالعرب معصومون من لحن اللسان واطلاق الالفاظ على معانيها وانما يجوز أن يغلطوا فى المعانى أى لا يطابق كلامهم الواقع فقد رد على من قال فى مدح مسيلمة الكذاب

وأنت غيث الورى لازلت رحمانا * أنه لا يطلق الا على الله تعالى وانما قالوا ذلك لتعنتهم فى كفرهم بأن التعنت فى الكفر لا يخرج العربى عن طبعه لانه معصوم من اللحن وان المخصوص بالله تعالى الذى لا يطلق على غيره انما هو المعرف بالالف واللام

ولما كانت لغات العرب لابد من تداولها فى المحاورات والمخاطبات والمحاضرات وكان أهل نجد والحجاز مثلا لا يفهمون لغة اليمن وحمير بل ربما كانت قبائل اقليم واحد لا تكاد تتكلم بلغة واحدة أى لا تستعمل كلمات

واحدة فى تأدية المعنى وكانوا جميعا مولعين بقول الشعر ونشره بينهم بدون بأس
ممن أبطأ فى قوله ثم نطق به كالنابغة الذى نبغ فيه مرة واحدة ولقب بذلك اجتمع
الشعراء واجمعوا رأيهم على تحسين اللسان العام الذى يكون به التفاهم عند
جميعهم وأنجزوا ذلك فكانوا فى أواخر أمرهم اذا نظموا قصائدهم حاولوا أن
تكون ألفاظها مألوفة للجميع متعارفة بحيث تفهم معانيها المقصودة منها
لجميع أحياء العرب وقبائلهم فكان شاعر العشيرة اذا أراد أن يقرأ و ينظم
وتواردت على لسانه عبارات متعددة تؤدى معنى واحدا أو ألفاظ مترادفة
على معنى واحد آثر تأدية ذلك باللفظ المألوف لجميع العشائر فتكون من ذلك
لسان عربى مشترك بين لسان العرب على اختلاف أحيائهم ولاشك أنهم كانوا
محتاجين الى ذلك لان العرب لم تكن أصحاب كتب يرجعون اليها وانما كانوا
يرجعون الى حفظ بعضهم من بعض يتلقى كل طبقة عما فوقها ما تواتر من
الاخبار والآثار فيتناقلون تواريخ أحسابهم ويحفظونها محافظة على صفاء
أنسابهم ولا يهملون معرفة ما آثر قدمائهم وأسلافهم ووقائعهم وحوادث
حروبهم وخطوبهم وعلاقاتهم مع من جاورهم وكل هذا بطريق الروايات
خلفا عن سلف فلم تكن العرب لتنسى سياستها المنزلية ولا فرطت فى ذكر
روابطها وعلائقها الخارجية والداخلية لاسلما ولاحربا بعضهم مع بعض
أو مع الاكاسرة والقياصرة والحبش وغير ذلك فقد تضمن الخبر عن ذلك كله
أشعارهم وقوافيهم وقصائدهم ومعلقاتهم فكان شعراؤهم يقصون تلك
الحوادث والنوازل فى قصائدهم بفصيح الالفاظ وبليغ المعانى مما ينبئ عن
غرات أفكارهم ونتائج قرائحهم وينقل من جيل الى جيل لكثرة حفظهم
حتى صار لايشك فى فصاحتهم الاعاجم ويدل على ذلك كلام أكثم بن صيفى
بين يدى كسرى اذ قام بين يديه فقال ان أفضل الاشياء أعاليها وأعلى الرجال
ملوكها وأفضل الملوك أعمها نفعا وخير الازمنة أخصبها وأفضل الخطباء
أصدقها والصدق منجاة والكذب مهواة والشر لجاجة والحزم مركب
صعب والعجز مركب وطىء وآفة الرأى الهوى والعجز مفتاح الفقر وخير
الامور منقبة الصبر وحسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة واصلاح
فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعى ومن فسدت بطانته كان كالغاص

بالماء وشر البلاد بلاد لا أمير لها وشر الملوك من خافه البرئ وخير الاعوان من لم يراع العصبة وأحق الجنود من حسنت سيرته ويكفيك من الزاد ما بلغك المحل وحسبك من شر سماعه والصمت حلم وقليل فاعله البلاغة فى الايجاز من شدد نفر ومن تراخى ألف فتعجب كسرى من حكم أكثم وأمثاله ثم قال له ويحك يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك لولا موضعك أخذ كلامك فى غير موضعه فقال أكثم الصدق ينبى عنك لا الوعيد قال كسرى لو لم يكن للعرب غيرك لكفاها قال أكثم رب قول أنفذ من صول وقال كسرى لحاجب بن زرارة حين ذهب اليه ليرهن قوسه عنده وقد تكلم بين يديه ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها قال حاجب بل زئير الاسد بصولتها قال كسرى وذلك ولما تكلم خطباء العرب بين يدى كسرى يشكون ملكهم العامل من طرفه عليهم وأبلغوا فى الكلام والخطابة مع الجراءة ويدون مبالاة كعادتهم قال قد فهمت ما نطق به خطباؤكم وتفنن فيه متكلموكم ولولا انى أعلم أن الأدب لم يثقف أولادكم ولم يحكم أموركم وانه ليس لكم ملك يجمعكم فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الناخعة فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم لم أجز لكم كثيرا مما تكلمتم به وانى لا كره أن أجبه وفودى وأخشن صدورهم والذى أحبه اصلاح منذركم وتألف سوادكم والاعتذار الى الله فيما بينى وبينكم وقد قبلت ما كان من منطقكم من صواب وصفحت عما فيه من خلل فانصرفوا الى ملككم وأحسنوا موازرته والزموا طاعته واردعوا سفهاءكم وأقيموا أودهم وأحسنوا أدبهم فان فى ذلك اصلاح العامة وأجدر بطول السلامة ثم أمر لكل واحد منهم بخمسين دينارا وحلة وصرفهم فلم يلمهم كسرى الا بعدم حسن الخطاب مع الملوك ولذلك أمرهم بتهذيب خطابهم وفى الحقيقة انتهاء أمر العرب أن لسانهم قد دل على تهذيب اخلاقهم وعوائدهم

وقد دلت أشعارهم على وقائعهم التاريخية وأيام حروبهم وعلى ما كان عندهم من الاخلاق والعوائد دلالة كافية فى الوضوح وبممارسة قرض الشعر على هذا الوجه المنسجم تنقحت اللغة العربية وتخلصت من شوائب الركة واللكنة واستعمال الالفاظ الحوشية والغريبة وأثمر قرض الشعر بهذا الوجه

المقبول فوائد جمة منها انه كان يدعو الى المروأة وعلو الهمة ويحمل على الشجاعة والاقدام على عظائم الامور من كل ما يجب على الانسان أن يتعرض له بدفع ما يصل اليه من المكاره أو بما يصل الى من احتمى به وصار محسوبا عليه فان الخطابة تبعث همة السامع أو المتكلم على الاقدام الى ما تطلبه النفس فلذلك كان لشعراء العرب فى ذلك العهد نفوذ تام ورسوخ أقدام واعتماد عليهم ووثوق بهم فكان كلامهم حجة به يستشهد وعليه يعتمد

للسادة الشعراء فضل ثابت * ولهم مقام شامخ ومكان
وهم سلاطين الكلام أما ترى * كل امرئ منهم له ديوان

فقد كانوا دون غيرهم هم المؤرخين والنسابين والناقلين للحوادث فى جزيرة العرب بتمامها لاشتمال قصائدهم على الوقائع والمآثر والنوازل والمفاخر وتحوّل الاحوال من مكان الى مكان وتنقل الحوادث من زمان الى زمان فكانوا بدون شك ولا شبهة أمراء الكلام وأهل الحل والابرام ولما كانوا هم المحسنين والمقبحين والمادحين والقادحين والمغرين والمحذرين كانوا يرفعون القبائل ويخفضونها ويعزونها ويذلونها ويشرفونها ويضعونها كما يشاؤن مدحا وهجوا تلويحا وتصريحا تعريضا وكناية

وللشعراء ألسنة حداد * على العوراء ما برحت دليله
ولكن السعيد من اتقاها * وداراها مداراة جميله

ولذا كان يخشى بأسهم ويحترم جنابهم وكثيرا ما كانت تجتمع العرب تحت خيامهم وقبابهم يتناشدون الاشعار ويتغنون بها بالانغام والايقاعات فتطرب المسامع وتحلو على لسان منشدها وناظمها كما تلذ بها أذن السامع فكأنما البدوى من العرب مخلوق من أصل الفطرة لقرض الشعر وابتكار المعانى البديعة والتفنن فى أنحاء الكلام فتارة تكون قصيدته فى فن واحد وتارة تتضمن فنونا متعددة كالافتخار بعلو الهمة وشدة البأس وهذا ما يسمى بالحماسة وكالتمدح بالمناقب النفيسة وهو المسمى بالفخر وكذكر الحسن والجمال وهو الفن المسمى بالنسيب وكذكر ما يستفاد منه الفوائد الحسنة ويتبع ويتمثل به وهو فن الحكم والآداب والاخلاق وكذكر التأسف على فقد حبيب وبث محاسنه وهو فن الرثاء وكذكر الوقيعة فى الاعراض والانساب ورمى

الانسان بالمعايب والمثالب وهو فن الهجو وكاحتجاج المرء لنفسه ودفع اللوم عنها وهو فن الاعتذار وكذكر التخويف والتهديد وهو فن الوعيد وغير ذلك من أنحاء الشعر كالعتاب والزهد وذكر عجائب الكائنات وتوصيفها وذكر الطلول والمنازل ووصف الظباء والغزلان وغير ذلك من الاساليب التى لانهاية للتفنن فيها فقد يجمع الشاعر بين عدة منها فى قصيدته ولكن المقصود بالاصل هو فن واحد وقصيدة كعب بن زهير فى مدحه صلى الله عليه وسلم التى مطلعها بانت سعاد فقلبى اليوم متبول * جامعة للفنون الشعرية المذكورة وقد أنشأ العرب جمعيات احتفالية فى أسواق دورية ذات ميادين شعرية كسوق عكاظ وغيره وسوق مجنة وسوق ذى المجاز ولكن سوق عكاظ هو المتميز بينها بالسباق فى الشعر وغيره وهو موضوع الفصل الآتى

(الفصل الثالث)

(فى ذكر سوق عكاظ فى الجاهلية)

عكاظ قرية بصحراء بين نخلة والطائف على ثلاث مراحل من مكة المشرفة وكان فيها سوق أسبوعية يوم الاحد وسوق سنوية كانت تقوم هلال ذى القعدة ويستمر موسمه عشرين يوما تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون أى يتفاخرون ويتناشدون وكان من فوائدها أن العرب يتعارفون فيها ويتحابون وكانت فرسان العرب اذا كان أيام عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا يتقنعون حتى لايعرفوا وان كانت هذه السوق تؤذن بالتعامل والاخذ والعطاء الا أنه كان فى الحقيقة جل الغرض منها اجتماع فحول الشعراء والفصحاء والبلغاء من أهل العربية لابداء نتائج افكارهم واظهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم ومثل عكاظ فى ذلك سوق ذى المجاز خلف جبل عرفات وأسواق أخر وكانت هذه الاسواق ساذجة بسيطة مجردة عن الزينة والزخرفة لكنها مهيبة محترمة يزدحم فيها الشعراء من جميع جهات بلاد العرب ويقوم الشاعر ويبرز فى حومة الميدان وأرباب المجلس ثابتون فى مكانهم فينشد الاشعار من قريضه وهم يصغون الى سماعها منه ويحرصون على التقاطها من فمه بمجرد النطق بها ويحفظونها على ظهر قلب

وأول مايبرز الشاعر فى الميدان يظهر بمظهر الشجاعة وبشدة الحماس ويتماشى قبل أن ينشد الشعر مشية التيه والاعجاب ليتحقق من حماس بنات فكره مع تجرده عن أبهة المنصب وزهو الزينة وليس عليه من الملابس مايدل على شعار مرتبة عالية ولا دثار شرف ولا مجد بين قومه ومع ذلك فما كأنه الا هلال الشك أو شمس الضحى انبعثت منها الاشعة فلا تكاد تنفك تشخص اليه أبصار الحاضرين وتحدق به الاعين وتتأمل فى مشيته حتى يصعد الى محل مرتفع بمنزلة المنبر بعكاظ يعشى الناظرين من اذا هم لمحوا شعاعه فينشد بصوت جهورى قصيدته بتمامها دون أن يقطعها عليه أحد فتارة تكون مرتجلة بالبديهة وتارة يكون قد نظمها بالروية قبل ذلك وهيأها لينشدها فى المجمع ولكن الغالب على فحول شعراء العرب انهم كانوا يرتجلون الشعر بدون روية فيأتون فيه بما لا يقتدر غيرهم على الاتيان به فى حول كامل ومنهم من كان بخلاف ذلك كما يروى عن زهير بن أبى سلمى أنه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر ويهذبها بنفسه فى أربعة اشهر أخرى ويعرضها على الشعراء من أصحابه فى أربعة أشهر ثالثة فلا يشهرها حتى يأتى عليها حول كامل ولذلك تسمى قصائده بالحوليات وهذا لا يقدح فى فضله حتى قيل انه أشعر الجميع وكان اذا فرغ الشاعر من الانشاد أمعن الحاضرون النظر فى بنات أفكاره ونقدوها بصيرف عقولهم وظهرت فى وجوههم سيما الاستحسان لما عناه فى شأن حاله وأمره وكيفية تجلده وصبره أو تبين من حالهم أنهم لم يستحسنوا نظامه ولا استصوبوا كلامه وكان الشاعر يجلس جلسة خطيب للاستراحة ويعود الى تمام انشاده بحماس أقوى من المرة الاولى ونشاط كأنه قد أذكى من عقله مصباحه فيقص عليهم بقية أشعاره بهمة علية وحماسة شوقية فيكتب فى المحفل العام مايستحسن من القصائد بحروف الذهب على منسوج الحرير ويعلق على الكعبة المشرفة ليخلد اسمه ويبقى على مدى الايام رسمه ولا يزال فى الخلف بقايا مآثر السلف ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع محفوظة الى عهدنا هذا وقد اعتنى علماء الاسلام بشرحها لما اشتملت عليه من الفصاحة والبلاغة والصناعة الشعرية

وكان يجتمع بسوق عكاظ سادات العرب وملوكهم وقبائلهم ورؤساء القبائل

وعرفاؤها كما قال طريف العنبرى من أبيات يخاطب قبيلة بكر بن وائل

أوكلما وردت عكاظ قبيلة * بعثوا الى عريفهم يتوسم

فتوسمونى اننى انا ذلكم * شاكى سلاحى فى الحوادث معلم

تحتى الاغر وفوق جلدى نثرة * زغف ترد السيف وهو مثلم

حولى أسيد والهجيم ومازن * واذا حللت فحول بيتى خضم

وكان طريف من الشجعان وكان اذا أتى سوق عكاظ لا يتقنع كما يتقنع غيره من الفرسان وكان قبل ذلك قد قتل شراحيل الشيبانى فقال حصيصة بن شراحيل أرونى طريفا فأروه اياه فجعل كلما مر به طريف فى سوق عكاظ تأمله حتى فطن له طريف وكان ذلك فى الشهر الحرام تأمن القبائل من بعضها فقال طريف لحصيصة بن شراحيل مالك تنظر الى مرة بعد أخرى فقال أتوسمك لاعرفك فلله على نذر ان لقيتك فى حرب لاقتلنك أو لتقتلنى فأنشد طريف قصيدة منها تلك الابيات والمعنى ان لى على كل قبيلة جناية فتى وردوا عكاظ طلبنى القيم بأمرهم ليتعرفنى فها أنا فليتوسمونى فانى شاكى السلاح ولى فى الوقائع شعار ظاهر وتحتى فرسى الاغر ولابس درعى اللين الذى يرد السيف كليلا وحولى عشيرتى واذا نزلت فحول بيتى قبيلتى العنبرية المسماة خضم وقد كان لمدح فحول الشعراء وقدحهم تأثير فى النفوس يترتب عليه ما يترتب فى خارج العيان من الخفض والرفع والاعزاز والاذلال كما سبقت الاشارة اليه وكان الاعشى الاكبر يأتى عكاظ فى كل سنة فمر على بنى كلاب وكان المحلق الكلابى رجلا فقير الحال خامل الذكر وله بنات لم يخطبهن أحد من الازواج رغبة عن أبيهن لفقره فقالت له امرأته ما يمنعك يا ابن كلاب من التعرض لهذا الشاعر والتعرف به واكرامه فما رأيت أحدا آواه اليه وجذبه الا وأكسبه خيرا فقال ويحك ما عندى الا ناقتى فقالت الله يخلفها عليك فتلقاه قبل أن يسبق اليه أحد من الناس وكان الاعشى بصيرا وله ابن يقوده فأخذ المحلق بخطام ناقة الاعشى فقال الاعشى من هذا الذى غلبنا على خطامنا فقيل المحلق فقال شريف كريم ثم سلمه ابنه اليه فأنزله ونحر له المحلق ناقته ثم أحاطت به بناته يخدمنه فقال ما هذه الجوارى حولى قال بنات أخيك وهن ثمان نصيبهن قليل فقال الاعشى هل لك حاجة قال المحلق تشيد بذكرى فلعلى

أشهر فخطب بناتى فنهض الاعشى من عنده ولم يقل فيه شيأ فلما وافى سوق عكاظ اذ هو بمكان قد اجتمع الناس عليه فأنشد الاعشى قصيدته القافية التى منها

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة * الى ضوء نار بالبقاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها * وبات على النار الندى والمحلق

فاشتهرت هذه الابيات فى العرب وما أتت على المحلق سنة حتى زوج البنات

وكانت تضرب للنابغة قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ وتأتيه الشعراء فتنشده أشعارها وأول من أنشده الاعشى ثم أنشدته الخنساء فكان للنابغة الذبيانى التقدم على جميع شعراء عصره وهو من فحول الطبقة الاولى المقدمين على سائر الشعراء قال ربعى بن خراش قال لنا عمر رضى الله عنه يا معشر غطفان من الذى يقول

أتيتك عاريا خلقا ثيابى * على خوف تظن بى الظنون

قلنا النابغة قال ذلك أشعر شعرائكم وقال عمر بن المنتشر المرادى وفدنا على عبد الملك بن مروان فدخلنا عليه فقام رجل فاعتذر اليه من أمر وحلف عليه فقال له عبد الملك أما كنت حريا أن تفعل ولا تعتذر ثم أقبل على أهل الشأم فقال أيكم يروى من اعتذار النابغة الى النعمان

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة * وليس وراء الله للمرء مذهب

فلم يجد فيهم من يرويه فأقبل على فقال أترويه قلت نعم فأنشدته القصيدة كلها فقال هذا أشعر العرب وسيأتى ذكره فى الكلام على المعلقات

وكانت العرب اذا أتت فى الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانة من قريش قبل الدخول فى السوق ومن لم يضع سلاحه عندهم عرض نفسه للقتل وكما كانت هذه السوق مجمع الفصاحة والفروسية كانت مجمع مكارم الاخلاق أيضا حتى كان بعض أشراف الشعراء كعامر بن الطفيل العامرى النجدى ينادى مناديه فى هذه السوق هل من راحل فنحمله أو جائع فنطعمه أو خائف فنؤمنه ومن شعره

فانى وان كنت ابن فارس عامر * وسيدها المشهور فى كل موكب

فما سودتني عامر عن وراثة * أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي * أذاها وأرمي من رماها بمنكب

وكانت أيضا هذه السوق فى أيام هذا الموسم كديوان ملوك العرب فكان بعض الملوك يأخذ مالهم من الاتاوة والمرتبات على القبائل كل سنة بالموسم فكان زهير ابن جذيمة العبسي مثلا يأخذ الاتاوة من هوازن فى هذه السوق ويسومهم الخسف ويهددهم ويخوفهم بالحرب وكانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال جميعه أو عشرين يوما منه ثم تنتقل من تلك السوق بعد انفضاضها الى سوق مجنة وتقيم فيها عشرين يوما من ذى القعدة ثم تنتقل من سوق مجنة الى سوق ذى المجاز فتقيم فيها الى أيام الحج

ويروى عن حليمة السعدية مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها نزلت به سوق عكاظ فرآه كاهن من الكهان فقال يا أهل سوق عكاظ اقتلوا هذا الغلام فان له ملكا فراغت به حليمة عن الطريق فأنجاه الله تعالى ويروى أن حليمة انطلقت برسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق عكاظ الى عراف من هذيل يريه الناس صبيانهم فلما نظر اليه صاح يا معشر هذيل يا معشر العرب فاجتمع اليه الناس من أهل الموسم فقال اقتلوا هذا الصبي فانسلت حليمة به فجعل الناس يقولون أى صبي فيقول هذا الصبي فلا يرون شيأ فيقال له ما هو فيقول رأيت غلاما والآلهة ليقتلن أهل دينكم وليكسرن آلهتكم وليظهرن أمره عليكم فطلب فلم يوجد ولا تستغرب كهانة العرب ولا فراستهم وفهمهم الحقائق من المخايل فان وصية أبى طالب لقريش لما حضرته الوفاة تدل على شدة تفرسه فيه صلى الله عليه وسلم وصورتها كما قال بعضهم انه لما حضرت الوفاة أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم جمع اليه وجوه قريش فأوصاهم وقال يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب وفيكم السيد المطاع وفيكم المقدم الشجاع والواسع البال واعلموا انكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا الا أحرزتموه ولا شرفا الا أدركتموه فلكم بذلك على الناس الفضيلة ولهم اليكم الوسيلة والناس لكم حرب وعلى حربكم ألب وانى أوصيكم بتعظيم هذه البنية فان فيها مرضاة للرب وقواما للمعاش وثباتا للوطأة صلوا أرحامكم ولا تقطعوها فان فى صلة الرحم منسأة للاجل وزيادة للعلم

واتركوا البغى والعقوق فيهما هلكت القرون قبلكم وأجيبوا السائل وأعطوا الداعى فان فيهما شرف الحياة والممات وعليكم بالصدق فى الحديث وأدوا الامانة فان فيهما محبة للخاص ومكرمة فى العام وانى أوصيكم بمحمد خيرا فانه الامين فى قريش والصديق فى العرب وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن وايم الله كانى أنظر الى صعاليك العرب وأهل الوبر فى الاطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ودورها خرابا وضعفاؤها أربابا وأعظمهم عليه أحوجهم اليه وأنفرهم منه أحظاهم عنده قد محضته العرب ودادها وأصفت له فؤادها وأعطمت له قيادها دونكم يا معشر قريش وكونوا له ولاة ولحزبه حماة والله لا يسلك أحدكم سبيله الا رشد ولا يأخذ أحد بهديه الا سعد ولو كان لنفسى مدة أو لاجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى ثم توفى انتهى فانظر موافقة الفراسة الهاشمية للكهانة بمجمع عكاظ

وكان سوق عكاظ الذى هو مجمع المفاخرة قد يتسبب عنه المقاتلة والحرب كما وقع ذلك فى الفجار الاول والفجار الثانى فسبب حرب الفجار الاول أن بدر بن معشر الغفارى كان له مجلس يجلس فيه فى سوق عكاظ ويفتخر على الناس فبسط يوما رجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل من أشراف العرب فضربه بالسيف على ركبته فأدماها فاقتتلوا وسبب الفجار الثانى ان امرأة من بنى عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف بها شاب من قريش من بنى كنانة فسألها ان تكشف وجهها فأبت فجلس خلفها وهى لا تشعر وعقد ذيلها بشوكة فلما قامت وانحسر ذيلها من خلفها ضحك الناس وقيل لها قد بخلت بكشف وجهك فبان غيره فنادت يا آل عامر فثاروا بالسلاح ونادى الشاب يا بنى كنانة فحصل الحرب بسبب ذلك ومن هذا يفهم أن النساء فى الجاهلية كن يأبين كشف وجوههن اللهم الا أن يكون هذا الحجاب خاصا بالجمعيات الحافلة لاسيما فى سوق عكاظ حيث الفوارس كانوا يتقنعون فيها وثم فجار ثالث وسببه أنه كان لرجل من بنى عامر دين على رجل من بنى

كنانة فطله فجرت بينهما مخاصمة شديدة فتحمل عبد الله بن جدعان ذلك الدين من ماله وكان ذلك سببا لانقضاء هذا الحرب

وقد كان عبد الله بن جدعان فى ابتداء أمره صعلوكا وكان ... شريرا فتاكا لايزال يجنى الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه حتى أبغضته عشيرته وطرده أبوه وحلف لايأويه أبدا فخرج هائما فى شعاب مكة يتمنى الموت فرأى شقا فى جبل فدخل فوجد على مايقال ثعبانا عظيما له عينان تتقدان كالسراج فتأخر عنه أولا ثم غلب على نفسه ومسكه بيده فاذا هو من ذهب وعيناه ياقوتتان ثم دخل المحل الذى كان هذا الثعبان على بابه فوجد فى ذلك المحل أموالا كثيرة من الذهب والفضة وجواهر كثيرة من الياقوت واللؤلؤ والزبرجد فأخذ منه ما أخذ ثم علم ذلك الشق بعلامة وصار ينقل من ذلك شيأ فشيأ فكان هذا سبب غناه فبعث الى أبيه بالمال الذى دفعه فى جناياته ووصل عشيرته كلهم فسادهم

ببذل وحلم ساد فى قومه الفتى * وكونك اياه عليك يسير

وكان يطعم الناس ويأمر بالمعروف فكان يذبح فى داره كل يوم جزورا وينادى مناديه من أراد الشحم واللحم فعليه بابن جدعان وكان يطبخ عنده الفالوذج فيطعمه قريشا وهو عزيز فى مكة

وثم فجار رابع وهو فجار البراض بتشديد الراء وهو الذى شهده النبى صلى الله عليه وسلم وسببه ان عروة الرحال بتشديد الحاء المهملة وكان من قيس هوازن أجار العير من النعمان بن المنذر وكان يقال لمثل هذه القافلة اللطيمة وكانت تحمل الطيب والبز لهذا الملك لتباع فى سوق عكاظ ويشترى له بثمن ذلك أدم من أدم الطائف ويرسل تلك العير فى جوار رجل من أشراف العرب فلما جهز النعمان العير كان عنده جماعة من العرب فيهم البراض وهو من بنى كنانة وعروة الرحال وهو من هوازن فقال البراض انا أجيرها على بنى كنانة يعنى قومه فقال لهم النعمان ما أريد الا من يجيرها على أهل نجد وتهامة فقال له عروة الرحال انا أجيرها لك فقال له البراض أتجيرها على كنانة فقال نعم وعلى أهل الشيح والقيصوم ونال من البراض فخرج عروة الرحال مسافرا وخرج البراض خلفه يطلب غفلته ليثب عليه ويقتله فشرب عروة الرحال الخمر وغنته

القينات وسكر ونام فجاءه البراض وأيقظه فقال له الرحال ناشدتك الله لا تقتلني فانها كانت مني زلة وهفوة فلم يلتفت اليه وقتله فأتى آت كنانة وهم بعكاظ مع هوازن فقال لكنانة ان البراض قد قتل عروة الرحال وهو في الشهر الحرام فانطلقوا وهوازن لا تشعر ثم بلغهم الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبيل دخولهم الحرم وعاونت قريش كنانة وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض تلك الايام أخرجه أعمامه معهم وكان عمره أربع عشرة سنة وكان اذا حضر صلى الله عليه وسلم غلبت كنانة واذا لم يحضر انهزمت ويقال انه صلى الله عليه وسلم طعن أبا براء ملاعب الاسنة ولعله طعنه بالنبل لانه صلى الله عليه وسلم لم يقاتل في حرب الفجار الا بالنبل فقد روى عن ابن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حضرته مع عمومتي ورميت فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت وأبو براء المذكور كان رئيس بني قيس هوازن وحامل رايتهم في هذا الحرب وفي اليوم الثالث من تلك الايام وهو أشدها قيد أمية وحرب ابنا أمية بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب أنفسهم كي لا يفروا وسموا العنابس أي الاسود ثم تواعدوا اليوم للعام المقبل بعكاظ فلما كان العام المقبل جاؤا للموعد وكان أمر قريش وكنانة الى عبد الله بن جدعان وقيل الى حرب بن أمية والد أبي سفيان لانه كان رئيس قريش يومئذ وكان عتبة ابن أخيه ربيعة بن عبد شمس يتيما في حجره فضن به حرب واشفق من خروجه معه فخرج عتبة فلم يشعر به الا وهو على بعير بين الصفين ينادي يا معشر مضر علام تفانون فقالت له هوازن ما تدعو اليه قال الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم وتعفوا عن دمائنا وكان لقريش وكنانة الظفر على هوازن وغالبا يقتلونهم قتلا ذريعا وينتصرون عليهم وفي غير الغالب خلاف ذلك فقد أصيب أبو طالب بسهم في رجله في حرب الفجار فعرج منه ولذلك يقول

قالت عرجت نعم عرجت فما الذي * أنكرت من حسبي وحسن فعالي

فقالوا لما عرض عليهم الصلح وكيف ذلك قال ندفع لكم رهنا منا الى أن نوفي لكم ذلك قالوا ومن لنا بهذا قال أنا قالوا ومن أنت قال أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فرضيت به هوازن وكنانة وقريش ودفعوا الى هوازن أربعين رجلا فيهم حكيم بن حزام وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه

وسلم فلما رأت هوازن الرهن فى أيديهم عفوا عن الدماء وأطلقوهم وانقضت حرب الفجار وكان النبى صلى الله عليه وسلم حين شهد هذا الحرب من العمر أربع عشرة سنة

فمن هذا كله يعلم ان سوق عكاظ كان مجمعا لمفاخر العرب حربا وسلما حماسة وسماحة وانه كان يحمل نفوس العرب الابية على كسب المجد والشرف ومن اشتهر بالخطب فيه قس بن ساعدة القائل

لقد علم الحى اليمانون أننى * اذا قلت أما بعد انى خطيبها

وسيأتى فى الفصل الثانى من الباب الثالث الكلام على خطبته فى سوق عكاظ وحثه على اتباع دين النبى صلى الله عليه وسلم وأنه ممن آمن به صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ولم يره وقال بعض اياد مفتخرا بالحذاقة والفصاحة

وانى فتى صبر على الاين والظما * اذا اعتصروا اللوح ماء فظاظها
اذا ضرجوها ساعة بدمائها * وحل عن الكوماء عقد شظاظها
فانى ضحاك الى كل صاحب * وأنطق من قيس غداة عكاظها

واللوح بضم اللام المشددة الابل السريعة العطش والفظاظ الكرش يريد أنه يصبر على التعب والظما اذا اعتصروا ماء الكرش للشرب والشظاظ الجواليق التى تحمل على الابل يريد انه عند ذبح الابل ونزول أحمالها عنها وفكها يكون متلطفا الى الاصحاب واخطب من قيس اذا خطب فى سوق عكاظ وقال آخر يمدح خطيبا من خطباء صعيد مصر

* ياسيد العلماء والادباء والنجباء والخطباء والحفاظ
شنفت اسماع الانام بخطبة * كست المعانى رونق الالفاظ
أبكت عيون السامعين فصولها * فزكت عن الخطباء والوعاظ
وعجبت منها كيف حازت رقة * مع أنها فى غاية الاغلاظ
ستقول مصر اذ رأتك لغيرها * ما الدهر الاقسمة واحاظى
ويقول قوم اذ رأوك خطيبهم * أنسيتنا قسا بسوق عكاظ

فقد كان محفل عكاظ معدن المفاخر التليدة والطارفة ولم يكن وحده فى جزيرة العرب بل كانت أسواق اليمن أيضا مركزا للمفاخر الظاهرية والمنافع العمومية والزينة والزخرفة فكانت بضاعتها هى النافقة والعلم يمان والحكمة يمانية كما فى الآثار الصادقة

تخاذل

تخاذل أرباب الفضائل اذ رأوا * بضاعتهم موكوسة القدر فى الثمن
فقالوا عرضناها فلم نلف طالبا * ولا نظروا من مثلها نظراحسن
ولم يبق الا رفضها واطراحها * فقلت لهم لا تعجلوا السوق باليمن

ولما كان عند منصرف قريش من حرب الفجار فى شوّال عقد حلف الفضول ناسب ذكره فى الفصل الآتى

(الفصل الرابع)

(فى حلف الفضول)

كان للعرب عقود وعهود يحلفون فيها حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا وكانت هذه المحالفات بين القبائل لحفظ نواميسهم وليعضد بعضهم بعضا والمتحالفون يسمون عند العرب بالاحلاف فمن ذلك أن بنى عبد مناف لما أرادت أخذ مافى أيدى بنى عبد الدار من الحجابة والسقاية وأبت عبد الدار ذلك عقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا فأخرجت عبد مناف جفنة مملوأة طيبا فوضعتها الاحلاف لهم وهم أسد وزهرة وتيم عند الكعبة فغمسوا أيديهم فيها وتعاقدت بنو عبد الدار وحلفاؤهم وحلفوا حلفا آخر مؤكدا وكانت أحلافهم قبائل عبد الدار وكعب وجمح وسهل ومخزوم وعدى وكان مثل هذه المحالفات للتناصر بينهم فقط لا للمصلحة العمومية

فنى منصرف قريش من حرب الفجار فى شوّال بعد انقضاض سوق عكاظ تأسس حلف الفضول وهو أشرف حلف فى العرب وأحق بالفخار مما عداه وكان هذا الحلف لشرف موضوعه ونيل الغرض المقصود منه يكاد ان يكون أساسا السياسة وطنية وتمهيد المواد التمدنية وأول من دعا الى هذا الحلف فى ذى شهر القعدة بعد الفجار الرابع الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم شقيق أبيه فاجتمع اليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد العزى فى دار عبد الله بن جدعان التيمى المتقدم ذكره فى الفصل الثالث وكان بنو تيم فى حياته كأهل بيت واحد بقوتهم وكان عبد الله بن جدعان ذا شرف وسن وتحالفوا على أن يردوا الفضول الى أهلها أى على أن يردوا الحقوق التى أخذت ظلما الى أربابها ولا يعز ظالم على مظلوم أى لا يغلب ظالم على مظلوم

وكان معهم فى ذلك الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد شهد صلى الله عليه وسلم هذا الحلف وقال صلى الله عليه وسلم ما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم وأنى أغدر به أى لا أحب الغدر بهذا الحلف وان أعطيت حمر الابل فى ذلك وفى رواية لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعى به فى الاسلام لأجبت فقوله ما أحب أن لى به حمر النعم الباء فيه للبدلية أى بفواته وقوله ولو دعى به فى الاسلام لاجبت أى لو قال قائل من المظلومين يا آل حلف الفضول لاجبت لان نصر المظلوم حق والاسلام انما جاء باقامة الحق والاجابة الى هذا الحلف مستثناة من رفع ما كان من دعوة الجاهلية يا آل فلان لحرب أو لغيره فالدعوة بيا آل فلان كانت فى الجاهلية ورفعت وكان يفتخر بسرعة الاجابة اليها كما قال

نحن نحن عند الناس منكم * اذا الداعى المثوب قال يالا

وسببه أن قريشا كانت تتظالم فى الحرم وكان قبل ذلك قد تحالف قوم من جرهم أن لا يروا ظالما ببطن مكة الا غيروه وكان قد باد أهل ذلك الحلف وتنوسى أمره وصار يقع الظلم فى الحرم بدون مدافع فاتفق أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل وكان من أهل الشرف والقدر بمكة فحبس عنه حقه فاستعدى عليه الزبيدى بالاحلاف عبد الدار ومخزوم وجمح وسهم وعدى بن كعب فأبوا أن يعينوا على العاص وانتهروا الزبيدى فلما رأى الزبيدى الشر رقى على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس وقريش فى أنديتهم حول الكعبة فقال بأعلى صوته

يا آل فهر لمظلوم بضاعته * ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته * ياللرجال وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت مكارمه * ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

والمراد بالحرام الاحترام فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وعبد الله بن جدعان واجتمع اليهما من تقدم من الناس قبل كان منهم العباس وأبو سفيان وتعاهدوا وتعاقدوا ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه شريفا أو وضيعا ثم مشوا الى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها اليه وصاروا دائما يأخذون من الظالم للمظلوم حقه

على وفق حلف الفضول الذى كان أشرف حلف فى الجاهلية كما سبق
فمن ذلك أنّ رجلا من خثعم قدم مكة معتمرا أوحاجا ومعه بنت له من أوضا
نساء العالمين فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج فقيل للخثعمى عليك بحلف الفضول
فوقف عند الكعبة ونادى يا لحلف الفضول فاذا هم يعنقون اليه من كل جانب
وقد جردوا أسيافهم يقولون جاءك الغوث فمالك فقال ان نبيها ظلمنى فى بنتى
فانتزعها منى قسرا فساروا اليه حتى وقفوا على باب داره فخرج اليهم فقالوا له
أخرج الجارية ويحك فقد علمت من نحن وما تعاهدنا عليه فقال أفعل ولكن
متعونى بها الليلة فقالوا لا والله ولا شخب لقحة فأخرجها اليهم وقد بقى أثر ذلك
فى الاسلام فربما كان يطلب المظلوم أخذ حقه من ظالمه بطلب جمعية تتعصب
للحق فقد ذكر بعض أهل السير أنه كان بين الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله
عنهما وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان منازعة فى مال متعلق بالحسين فقال
الحسين للوليد أحلف بالله لتنصفنى من حقى أو لآخذن سيفى ثم لاقومن فى
مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعون لحلف الفضول أى لحلف
كحلف الفضول وهو نصرة المظلوم على ظالمه ووافقه على ذلك جماعة منهم
عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما لانه كان اذ ذاك فى المدينة فلما بلغ ذلك الوليد
ابن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضى فمن هذا تفهم ان العرب بمكة كان
لها مجامع فضائل كسوق عكاظ ومساعى مكارم أخلاق وشمايل كتأسيس
حلف الفضول الذى شهده أكرم رسول وشهد له بأنه وافق أخلاقه الكريمة
وانه أحب اليه من حمر النعم نفاسة وقيمة ومن تأمله حق التأمل وجده أساس
مايسمى عند الملل المتمدنة بالحقوق المدنية والحقوق الدولية كما يدل على ان
العرب كانت فطرتهم سليمة وان طباعهم تنفر من الخصال الذميمة وقصائدهم
بذلك ناطقه وهى عنوان ثواقب أفكارهم الصادقه

(الفصل الخامس)

(فى ذكر المعلقات السبع وتواريخ أربابها والالماع بمطالعها)

قد اشتهر أن المعلقات سبع احداها معلقة امرئ القيس بن حجر الكندى
وكان موته قبل الهجرة بنحو اثنتين وثمانين سنة ومطلعها

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقد اشتهرت هذه المعلقة حتى صار يضرب بها المثل فى الامر الواضح فيقال أشهر من قفانبك وقد تقدم ترجمة هذا الشاعر فى الفصل التاسع من الباب الاول من المقالة الرابعة مع غاية البيان

ثم معلقة طرفة بن العبد البكرى وكانت وفاته قبل الهجرة بثمان وخمسين سنة ومطلعها

لخولة أطلال ببرقة ثهمد * تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وقوفا بها صحبى على مطيهم * يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ثم معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى وكانت وفاته فى السنة الاولى من الهجرة ومطلعها

ألا هبى بصحنك فاصبحينا * ولا تبقى خمور الاندرينا

مشعشعة كأن الحص فيها * اذا ما الماء خالطها سخينا

(ومنها)

ورثنا المجد قد علمت معد * نطاعن دونه حتى يبينا

بشبان يرون القتل مجدا * وشيب فى الحروب مجربينا

ورثنا مجد علقمة بن سيف * أباح لنا حصون المجد دينا

على آثارنا بيض حسان * نحاذر أن تقسم أو تهونا

كأنا والسيوف مسللات * ولدنا الناس طرا أجمعينا

اذا ما الملك سام الناس خسفا * أبينا أن نقر الخسف فينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا * وماء البحر نملؤه سفينا

لنا الدنيا ومن أضحى عليها * ونبطش حين نبطش قادرينا

اذا بلغ الفطام لنا رضيع * تخر له الجبابر ساجدينا

وهى بديعة الافتخار الحماسى وقد افتخر عبد المطلب حيث قال

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة * ولو تسلت أسلناها على الاسل

لا ينزل المجد الا فى منازلنا * كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

وهكذا يكون افتخار الهاشمى

ثم معلقة الحرث بن حلزه اليشكرى وكان مولده قبل الهجرة باثنين وثلاثين

سنة

سنة ومطلعها

آذنتنا ببينها أسماء * رب ثاو يمل منه الثواء

(ومنها)

لا يقيم العزيز بالبلد السهـل ولا ينفع الذليل النجاء

ليس ينجي الذي يوائل منا * رأس طود وحرة رجلاء

ثم معلقة لبيد بن ربيعة العامري وكان مولده قبل الهجرة بأربعين سنة ومطلعها

عفت الديار محلها فمقامها * بمنى تأبد غولها فرجامها

ثم قال

أولم تكن تدري نوار بأنني * وصال عقد حبائل جذامها

تراك أمكنة اذا لم أرضها * أو يعتلق بعض النفوس حمامها

ثم معلقة زهير بن أبي سلمى المزني وكان موته قبل البعثة بسنة ويقال انه رأى قبل موته بسنة في نومه كأنه رفع الى السماء حتى كاد ان يمسها بيده ثم انقطعت الحبال فدعا بنيه فقال يا بني رأيت كذا وكذا وانه سيكون بعدي أمر يعلو من اتبعه ويفلح فخذوا بحظكم منه ثم لم يعش الا يسيرا حتى هلك فلم يحل الحول حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلم بجير بن زهير وحسن اسلامه فلامه أخوه كعب بن زهير على اسلامه بقوله

الا ابلغا عني بجيرا رسالة * فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا

سقاك بها المأمون كأسا روية * فأنهلك المأمون منها وعلكا

الابيات فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم هجو كعب له هدر دمه فكتب اليه أخوه بجير يعلمه أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل كعب بن الاشرف وكان يشبب بأم الفضل بن العباس وأم حكيم بنت عبد المطلب فلما بلغه كتاب أخيه ضاقت به الارض ولم يدر فيم النجاة فأتى أبا بكر فاستجاره فقال أكره أن أجير على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد هدر دمك فأتى عمر فقال مثل ذلك فأتى عليا رضي الله عنه فقال أدلك على أمر تنجو به قال وما هو قال تصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا انصرف فقم خلفه وقل مد يدك يا رسول الله أبايعك فانه سيمد ولك يده من خلفه فخذ بيده فاستجره فاني أرجو أن يرحمك ففعل فلما

ناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده استجاره وأنشد قصيدته التى مطلعها * بانت سعاد فقلبى اليوم متبول * الى آخرها فأجازه عليها ببردته الشريفة (ويحكى) ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان جالسا فى أصحابه يتذاكرون الشعراء والشعر فيقول بعضهم فلان أشعر ويقول آخر بل فلان أشعر فقيل ابن عباس بالباب فقال عمر رضى الله عنه قد أتى من يحدث من أشعر الناس فلما سلم وجلس قال له عمر يا ابن عباس من أشعر الناس قال زهير يا أمير المؤمنين قال عمر ولم ذلك قال ابن عباس لقوله يمدح هرما وقومه بنى مرة

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
قوم أبوهم سنان حين تنسبهم * طابوا وطاب من الاولاد من ولدوا
جن اذا فزعوا انس اذا أمنوا * مرزؤن بهاليل اذا جهدوا
محسدون على ما كان من نعم * لا ينزع الله عنهم ماله حسدوا

قال عمر صدقت يا ابن عباس ومطلع قصيدة زهير

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم * بحومانة الدراج فالمتثلم
ودار لها بالرقمتين كأنها * مراجع وشم فى نواشر معصم

الى ان قال فى الحكم

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة * يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله * يكن حمده ذما عليه ويندم

الى ان قال

وكائن ترى من صامت لك معجب * زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * فلم يبق الا صورة اللحم والدم

ثم معلقة عنترة بن عمرو بن معاوية بن شداد العبسى وكان موته قبل الهجرة بسبع سنين ومطلعها

هل غادر الشعراء من متردم * أم هل عرفت الدار بعد توهم

(ومنها)

فاذا ظلمت فان ظلمى باسل * مر مذاقته كطعم العلقم
فاذا شربت فاننى مستهلك * مالى وعرضى وافر لم يكلم

واذا صحوت فما أقصر عن ندى * وكما علمت شمائلي وتكرمي

فهذه المعلقات السبع مختلفة المقاصد والاغراض فان معلقات امرئ القيس وطرفة وعنترة ولبيد مختلفة التخيلات العقلية في حكايات الوقائع الخصوصية والعمومية كما هي مختلفة التشبيهات المتنوعة والكنايات والتجوزات المخترعة فلهذا انحا نحوها شعراء الاعصر المتأخرة لاسيما شعر عنترة العبسي فانه ناطق بالاغراض المقصودة منه وأحسن تخيلا للمعاني من شعر غيره من شعراء ما قبل الاسلام وأما معلقة زهير فهي عبارة عن مصالحة عبس وذبيان وأما معلقة عمرو فهي عبارة عن افتخار قبيلته التغلبية بعمومها وسبب انشاء قصيدة عمرو هذه انه جاء أناس من بني تغلب الى بكر بن وائل يستغيثون بهم في سنة أصابتهم فطردهم بكر لحقد كان بينه وبينهم فرجعوا الى الفلاة فمات منهم سبعون رجلا عطشا فاجتمعت بنو تغلب لحرب بكر وخافوا أن تعود الحرب بينهم كما كانت فدعا بعضهم بعضا الى الصلح فتحاكموا الى الملك عمرو بن هند فأصلح بينهم فانشد عمرو بن كلثوم سيد تغلب في مجلسه قصيدته ارتجالا يذكر فيها أيام بني تغلب ويفتخر لهم وأنشد الحرث بن حلزة قصيدته أيضا فعلقتا بالكعبة دهرا وكانتا مشتملتين على مفاخر العرب قيل ان الشعر كان جملا بازلا عظيما فنحر فجاء امرؤ القيس فأخذ رأسه وعمرو بن كلثوم سنامه وزهير كاهله والاعشى والنابغة فخذيه وطرفة ولبيد كركرته أي رقبته فلم يبق الا الذراعان والبطن فتوزعت على غيرهم من الشعراء وقد علق على الكعبة غير تلك المعلقات السبع معلقات أخرى كمعلقة الاعشى التي أولها

ودع هريرة ان الركب مرتحل * وهل تطيق وداعا أيها الرجل

(ومنها)

قالت هريرة لما جئت زائرها * ويلي عليك وويلي منك يارجل

قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا * أو تنزلون فانا معشر نزل

ومن قصائد العرب قصيدة الشنفري وهي التي تسمى بلامية العرب ومطلعها

أقيموا بني أمي صدور مطيكم * فاني الى قوم سواكم لأميل

(ومنها)

وكل أبي باسل غير أنني * اذا عرضت أولى الطرائد أبسل

وان مدت الايدى الى الزاد لم أكن * بأعجلهم اذ أجشع القوم أعجل

وجاسها غريب ومفاده عدم حل الضيم حيث العرب لا تطيقه كما قال الشاعر

وما ظهرى لباغى الضيـــم بالظهر الذلول

وقد نظم بعض الادباء اسماء أصحاب المعلقات السبع

لقد علقوا بالبيت شرف قدره * قصائد سبعا بالبلاغة تشهر

فطرفة عمرو وحارث بن حلزة * لبيد زهير وامرؤ القيس عنتر

وكانت القصائد المعلقات تكتب بحروف الذهب زركشة على المنسوجات الحريرية وتعلق على الكعبة المشرفة وهذا يفيد أن الكتابة فى الجاهلية كانت مألوفة للعرب ومعلومة عندهم كما يأتى بيان ذلك فى الفصل الآتى

(الفصل السادس)

(فى زمن ظهور الكتابة عند العرب)

صناعة الكتابة عظيمة النفع عند جميع الامم وهى روح العبادات والمعاملات وتذكار الماضى ونظام المستقبل الآتى ورسول المعنى القائم بالجنان وأحد الوجودات الاربع وهى وجود البنان ووجود العيان ووجود الجنان ووجود الاذهان وهى نقوش حروف المعجم المتفقة غالبا فى سائر اللغات وأولها عند جميع الامم الالف الا عند الحبشة فان حرف الالف عندهم هو الحرف الثالث عشر من حروف الهجاء وهل الكتابة من حيث كونها رسوما وأشكالا حرفية تدل على الكلمات المسموعة ومن حيث أوليتها بهذا الاعتبار هى من الاوضاع الالهية أو من الاوضاع البشرية خلاف وعلى الثانى من أوضاع أى ملة هى فقال بعضهم هى من أوضاع السريانيين وقال آخرون هى من أوضاع قدماء المصريين واستظهر بعضهم الاول وانها انتقلت من السريانيين الى غيرهم بقلمهم الخاص بهم كاليونان ومن اليونان أخذ الرومانيون حروفهم وهذا بالنسبة لغير العرب وأما هم فكانوا يعرفون الكتابة من عهد اسمعيل عليه السلام ثم ان اللغة العربية والسريانية والعبرانية متقاربة فى الالفاظ أسماء ومسميات وفى مخارج الحروف وكتابتها فكتابات هذه الامم الثلاث ترسم من اليمين الى اليسار بخلاف اليونان والروم فانهم بعكس ذلك يكتبون من

اليسار الى اليمين ويكتب أهل الصين من أعلى الى أسفل
وفى الاوائل للسيوطى انه يروى أنّ آدم أوّل من كتب الكتاب العربىّ والسريانىّ وانّ الكتابات كلها من وضعه وانه دفنها قبل موته بثلثمائة سنة وانه بعد الطوفان وجد كل قوم كتابا فتعلموه بالهام الهى ونقلوا صورته واتخذوه أصل كتابهم انتهى وقد ورد انّ أوّل من خط بالقلم وعلم أسرار الحروف ادريس عليه السلام وأما الكتابة العربية المرسومة بالحروف الهجائية التى أوّلها الالف وآخرها اليا فلا شك فى أنها أيضا قديمة فقد كان العرب يعرفون الكتابة العربية من عهد اسمعيل عليه السلام وأما قول بعضهم أوّل من كتب بالعربى من ولد اسمعيل نزار بن معد بن عدنان فلعله أوّل من أجاد الخط أو تعلم خطا عربيا على قاعدة أحسن مما قبلها تلقنها من جهة بلغت فى الحضارة أكثر من بلاد قومه فقد كان الخط العربى بالغا مبلغا من الجودة فى دولة التبابعة وهو المسمى بالخط الحميرى فكانت جودته بقدر ما عندهم من الحضارة وانتقل الخط الحميرى من اليمن الى الانبار والحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر المجددين لملك العرب بأرض العراق ومن الحيرة انتقل الخط الى أهل الطائف وقريش والذى تعلمه من أهل الانبار هو حرب بن أمية ابن أخت أبى سفيان فتعلمه جماعة من أهل مكة فلذلك كثر من يكتب من قريش خطا جيدا على وجه آخر أرقى مما كان عندهم اذ يبعد جهل قريش بالخط جملة فكيف وقد قيل انّ من العرب العاربة وهى البائدة قبيلة عبد ضخم بن ارم كانوا يسكنون الطائف وهلكوا فيمن هلك وهم أوّل من كتب بالخط العربى فاذا كان أوّل اختراع الخط العربى بالطائف من قوم بادوا وجاءت بعدهم عرب مستعربة يبعد أن يكون الخط مجهولا عندهم الى زمن نزار مع القول بأنّ الكتابة العربية كانت معروفة للعرب من عهد اسمعيل عليه السلام وأبعد منه قول بعضهم انّ أوّل من تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية أو حرب بن أمية والقول بأنّ ايادا بالعراق كانت أيضا تجهل الكتابة بالعربية وتأويل قول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق اذا * ساروا جميعا والخط والقلم

بقبوا لهم لذلك فيه اخراج المدح عن موضوعه وقد كان لحمير كتابة تسمى المسند

حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها الا باذنهم ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية الحميرية الجيدة فكانت الكتابة العربية مع ما كانت عليه فى الجهات المختلفة من جزيرة العرب بدوية غير مستحكمة الجودة فكان الخط الغربى لاول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاجادة فكان حسنه بقدر بداوة البلاد وحضارتها وقربها من الصنائع وبعدها عنها

وقد رسم الصحابة رضى الله تعالى عنهم المصحف بخطوطهم واقتفى التابعون من السلف رسمهم تبركا بهم وليس الخط كمالا فى حقهم حتى يقال ان خطوط المصاحف العثمانية لم تكن على هيئة جودة الخط فى الازمان الاخيرة على أنهم أيضا كانت خطوطهم لها جودة فى ذاتها بالنسبة لازمانها ومستحسنة عندهم بموافقة ذوق تلك الازمان والمألوف للابصار كما ان قصائد العرب كالمعلقات وغيرها بالنسبة لوجودها فى ذلك الزمن وملاءمتها المألوف طباع هؤلاء العرب ولاسماعهم بل وفى حد ذاتها تعد طبقة عالية فى الفصاحة وبالنسبة لذوق المولدين ولما ألفوه من الاشعار المشتملة على الرقة والانسجام تعد شكلا آخر غير مستنكف للاسماع وهذا سببه تعود الاسماع فى هذه الازمنة على أقوال فصيحة بليغة مألوفة لذوق الوقت فلو فرض أن شعراء عكاظ خرجوا من قبورهم كيقظة أهل الكهف من رقدتهم وعرض عليهم قصائد المولدين لمجتها أسماعهم وكرهتها نفوسهم وكذلك أهل الخط فى الازمان القديمة فالعادة هى المحسنة والمقبحة والدليل على كمال الخط فى المصحف العثمانى وأنه على قاعدة مستوفية وقانون أصولى ان مصاحف القرآن الشريف وفت بأداء لفظ القرآن كما أنزل وانه قد يعد من المحاسن المحافظة على بعض رسومها

وانما بتداول الازمان دعت الحاجة الى التسهيل وكمال الضبط للاعجمة الطباع التى لا تكتفى بالخط القديم بدون نقط مثلا كما كان فكان أول من نقط المصاحف يحيى بن يعمر فاحتاج الحال استحكام الخط الذى يتداول فى الدول العربية بحيث انه لما جاء الملك للعرب وفتحوا الامصار وملكوا الممالك ونزلوا البصرة والكوفة وقد تدونت الدواوين للاموال والرسائل فاحتاجت الدول الى الكتابة استعملوا الخط فيه وتداولوه فترقت الاجادة الذوقية فيه وبلغ فى الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان والخط الكوفى معلوم الرسم بهذا

العهد ومع ذلك فكان الخط اذذاك دون الغاية بالنسبة للذوق المتجدد بعد
ذلك العهد ثم انتشر العرب فى الاقطار والممالك وافتتحوا افريقية والاندلس
واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية يعنى أن ذوق ذلك
الوقت رأى ان ماقبله من الكتابة أدنى درجة من وقته لتقدمه فى العمران
ووجوده بدار الاسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط البغدادى معروف
الرسم وتبعه الافريقى الذى يقرب من أوضاع الخط المشرقى وتحيز ملك
الاندلس بالامويين فتميز صنف خطهم الاندلسى المعلوم ثم تقدمت الحضارة
والتمدن فى الدول الاسلامية فى كل قطر وعظم الملك واتسعت دوائر العلوم
وانتسخت الكتب وتنافس الكتاب فى كتابتها وملئت بها القصور السلطانية
والخزائن الملوكية وتنافس الاقطار فى ذلك ولازالت الخطوط آخذة
فى التحسين على أساليب جديدة وكان ابن مقلة هو أول من نقل الخط الكوفى
الى العربى وخطه يضرب مثلا فى الحسن لانه أحسن خطوط الدنيا كما قيل

خط ابن مقلة من أرعاه مقلته * ودّت جوارحه لو حوّلت مقلا

فالبدر يصفر لاستحسانه حسدا * والنور يحمر من نواره خجلا

وقيل انه كتب كتاب هدنة بين المسلمين والروم فوضعوه فى كنيسة قسطنطينية
وكانوا يبرزونه فى الاعياد ويجعلونه من جملة تزاينهم فى أخص بيوت العبادات
ويعجب الناس من حسنه ثم جاء بعد ابن مقلة ابن هلال وهو أبو على الحسن
ابن هلال المعروف بابن البواب فزاد فى تعريب الخط ثم جاء ياقوت المستعصمى
وختم فن الخط وأكمله وأدرج فى بيت جميع قوانينه فقال

أصول وتركيب كراس ونسبة * صعود وتشمير نزول وارسال

فحسن الخط كان عظيم الجودة على أكمل نهاياتها فى عهد الدولة العباسية
ثم لما تضعضعت خلافة بغداد وانتقلت الخلافة الى مصر والقاهرة انتقل الخط
والكتابة والعلم اليها وسرى منها الى مضافاتها من البلاد التابعة لدولتها والى
ماجاور هذه البلاد فلا زال الخط فى جميع هذه الاماكن آخذا فى الجودة الى
هذا العهد وصار للحروف قوانين فى وضعها وأشكالها متعارفة بين الخطاطين
وفى الحقيقة لايقال فيه ان جودة الخط الآن أحكم من السابق الا بالنسبة
لذوق الوقت فالخط المستعمل الآن فى المحاضرات والانشاآت بقدر درجة

الانشاآت والمحاورات ومألوف الدواوين فى ذلك وبالجملة فلسان العرب الاول قدتغير واحتاج الى الاصلاح بالنحو وكذلك الخط العربى قدتغير واحتاج الى الاصلاح بقوانين جديدة بخلاف اللغة العربية فانها باقية على حالها وفى موضوعاتها لم تتغير الى هذا العهد فلم تزل محفوظة دائرة على ألسنة العلوم ومعرفتها ضرورية لاسيما لاهل الشريعة اذمأخذ الاحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهى لغة العرب والناقلون للشريعة هم الصحابة والتابعون وهم عرب وشرح مشكلات الشريعة من لغاتهم فالمحافظة على اللغة العربية من أوجب الواجبات وطريق المحافظة عليها هى الكتابة وهى فضيلة من الفضائل ومما يدل على فضلها قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم أى علمه الكتابة التى تعرف بها الامور الغائبة فجعل القلم كناية عنها أو المراد علم الانسان الخط بالقلم وعلى كل حال فقد نبه سبحانه وتعالى بذلك على فضيلة الكتابة فان للخط فضلا وشرفا ومنفعة لاتجهل به تقيد العلوم وتثبت وتزرع فى الصدور وتنبت فقد أقسم الله به فى كتابه المكنون قال تعالى ن والقلم وما يسطرون وقال عليه الصلاة والسلام قيدوا العلم بالكتابة وحسب صاحب الخط مدحا ما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من خط وخاط وفرس وعام فذاكم الغلام قال الشاعر يمدح كاتبا حسن الخط

ان هز أقلامه يوما ليعملها * أنساك كل كمى هز عامله
وان أقر على رق أنامله * أقر بالرق كتاب الانام له

فالقلم لا ينطق ولكن يسمع الشرق والغرب ولذلك قيل هو أحد اللسانين بل القلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم وفضيلة أميته صلى الله عليه وسلم خصوصية له فلا تقدح فى فضيلة الكتابة فى حد ذاتها ووجودها فى اتباعه قال تعالى الذين يتبعون الرسول النبى الامى ومعنى الامى كما قاله المفسرون الذى هو على صفة أمة العرب قال عليه الصلاة والسلام انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب

خطوا فأقلامهم خطية خطبت * فهم على الخيل أميون كتاب
ان أحسنوا كلما أو ان وفوا ذمما * وقد صفوا شيما فالقوم أعراب

فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرؤن والنبى عليه الصلاة والسلام كان كذلك فلهذا السبب وصفه بكونه أميا قال أهل التحقيق وكونه أميا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه الاول انه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوما مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته والخطيب من العرب اذا ارتجل خطبة ثم أعادها فانه لابد وان يزيد فيها وان ينقص عنها بالقليل والكثير ثم انه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ يتلو كتاب الله تعالى من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير فكان ذلك من المعجزات واليه الاشارة بقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى والثانى انه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهما فى أنه ربما طالع كتب الاولين فحصل هذه العلوم من تلك المطالعة فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات وهذا هو المراد من قوله وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا الارتاب المبطلون الثالث ان تعلم الخط شئ سهل فان أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعى فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم فى الفهم والله سبحانه وتعالى أعطى نبيه علوم الاولين والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل اليه احد من البشر ومع تلك القوة العظيمة فى العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذى يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلا وفهما فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريا مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الامور الخارقة للعادة وجاريا مجرى المعجزات مع ما يضاف الى ذلك بالنسبة الى مقامه الشريف وتنزهه عن الكتابة التى هى وان كانت فضيلة فى حد ذاتها كما تقدم الا أنها معدودة من الصنائع العملية وهو صلى الله عليه وسلم منقطع الى ربه غير محتاج الى هذه الصناعة

ثم ان اللغة العربية ذات تصرف فى الكلام وقد جاء القرآن موافقا لها فى تصرفها وهى تنقسم قسمين أحدهما الظاهر الذى لا يخفى على سامعه ولا يحتمل غير ظاهره والثانى المشتمل على الكنايات والاشارات والتجوزات وكان هذا القسم الثانى هو المستحلى عند العرب وقد نزل القرآن بالقسمين ليتحقق عجز العرب عن الاتيان بمثله فكأنه تعالى قال لهم عارضوه بأى القسمين شئتم

ولو نزل كله واضحا لقالوا هلا نزل بالقسم المستحلى عندنا ومتى وقع فى الكلام اشارة أو كناية أو تعريض أو تشبيه كان أحلى وأحسن قال امرؤ القيس

وما ذرفت عيناك الا لتضربى * بسهميك فى أعشار قلب مقتل

فشبه ناظر العين بالسهم فحلا عند السامع فنزل القرآن على عادة العرب فى كلامهم قال تعالى فما ربحت تجارتهم ومن عادتهم الكناية وفى القرآن ولكن لا تواعدوهن سرا أى نكاحا وقد يكنون عن الشئ ويسترون ضميره بدون أن يجرى له ذكر يعود عليه الضمير نحو حتى توارت بالحجاب أى الشمس ونحو فلولا اذا بلغت الحلقوم أى الروح ومن عادتهم الاستعارة نحو ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ونحو فما بكت عليهم السماء والارض ومن عادتهم الحذف نحو واسئل القرية ومن عادتهم الزيادة نحو فاضربوا فوق الاعناق وهكذا من التصرفات فاللسان العربى يحتاج اليه فى فهم الكتاب والسنة وكتب الشريعة المطهرة وفهم مداركها واستنباطاتها على موجب قواعد ذلك اللسان وأركانه أربعة اللغة والنحو والبيان والادب ومعرفتها من أوجب الواجبات

ولا شك ان وحدة اللسان ووحدة الشريعة المطهرة يقضيان بوجوب التفاهم بين أهليهما فى سائر الممالك الاسلامية فاللسان العربى هو الجامع لجمعيات الممالك المتفرقة والدول المتباعدة المتحدة فى الدين والشريعة المتباينة فى اللغات العامية فعلى كل دولة من الدول الاسلامية أن يعرف متميزوها اللغة العربية وأركانها الاربعة لاسيما آدابها ودواوينها وأشعارها ويزاولوا نهاية كل المزاولة لاحياء هذه اللغة التى طمست معالمها ودرست رسومها وقل راغبوها وندر خاطبوها الا من أمم أوروبا فى مدارسهم الباحثة عن المعارف المشرقية القديمة كديوان الحماسة وخلافه

يبكى عليه غريب ليس يعرفه * وذو قرابته فى الحى مسرور

فقد اختصوا الآن باستخراج جوهر لسان العرب من معادنه واستنبطوا منها الفرائد المهمة والفوائد الجمة واستكشفوا منها مجهول التواريخ والجغرافيا والعلوم والفنون والاخلاق والآداب والامثال والحكم مما تنتظم به ملكهم فلا يليق بنا هجر هذه الوسائل المثرية ولا يكفى نشر كتبها بمجرد الطبع والتمثيل كالجارى الآن بعصر فى هذا العصر كما لا يكفى أيضا التوسع فى دائرة العلوم

العربيـة الاثنى عشر وقراءة طولاتها والاقتصار على معرفة الشواهـد كما هو موجود فى المدارس الاسـلامية الكبيرة بدون تدريس دواوين العرب ودواوين من حـذا حذوهـم من المولدين بل لابد من التشويق والترغيب وأخـذ كافة طلبـة الجامع الازهر الانور منها كغيرها من المعارف بأوفى حظ وأوفر نصيب والكامل يقبـل الكمال ولا اكتراث بايهام من لايعرف قدرها فيستـصعب أمرها ويـستصوب هجرها وينتصب لخفض شانها ونقض مرفوع أركانها ويزعم أن الاشتغال به اضياع زمان وان المجتهد فى تحصيلها لايدرك منها طول عمره مايرجح الميزان ومادرى أنها لوتداولت وألفتها الطباع وكشف عن جميـل محياها القناع لتجاذبتها العقول الذكيـة وطمحت اليها الاطماع وامتـد اليها من أولى النهى الباع والذراع وصارت لغة عامة للخاصة والعامة فقد دلت التواريخ الصحيحة على أن أكثر المتقدمين من العلماء فى سن العشرين كملت لهم فيها القريحة وانما من جهل شيأ عاداه واقتصر على المألوف لعقله القاصر وماتعداه نعم ان اللغة المتـداولة فى بلدة من البـلاد المسماة باللغـة الدارجـة التى يقع بها التفاهـم فى المعاملات السائرة لامانع أن يكون لها قواعد قريبـة المأخذ تضبطها وأصول على حسب الامكان تربطها ليتعارفها أهل الاقليم حيث نفعها بالنسبة اليهم عميم وتصنف فيها كتب المنافع العـمومية والمصالح البلدية وأما الزينة الحقيقية للدول الاسلامية التى تجرد جيـدها من حلاها فهى معرفة لسان العرب الصحيح والحصول على ملكة التكلم بكلامه الفصيح والبحث عن أمهات دواوينه القديمة وتقويم أود اللسان برصد مراصده القويمة فان القصائد العكاظيـة وغيرها من كلام العرب قد بلغت بها الدول العربيـة غاية القصـد ونهاية الارب فلاغرو ان عادت المياه الى مجاريها وأعطى القوس باريها

لياليناالذى الاثلاث عودى * ليورق فى ربا الاثلاث عودى
فان نسيم ذاك الشيح أذكى * الى من انتشاق شميم عود
وان حديثكم فى القلب أحلى * وأطيب نغمة من صوت عود

فعسى أن يكون العود أحمد والساعى فى الخير يشكر ويحمد فقد أفادت

هذه الآداب فى الجاهلية فوائد جزيلة كانت سببا فى تمهيد الاسلام كما يعلم من الفصل الآتى ماترتب عليها من القصد والمرام فلعلها يترتب على معرفتها الآن انعاش الاسلام ويزيد بسطة فى العلم والجسم ويقوى بين أمم الانام

(الفصل السابع)

(فيما نتج من شعر العرب وقصائدهم)

لما عدمت العرب سعة دائرة الكتابة فى الجاهلية وكانت فى الغالب أمة أمية جعل لها الشعر العوض فأدركت به الغرض حيث اقامته مقامها فدوّنت به كلامها وعرفت به أيامها ولذلك يروى الشعر ديوان العرب أى سجل أحوالها وقيد أفعالها فقد ظهر مما أسلفناه ان قصائد العرب هى التى دلت على أيامهم ووقائعهم ودرجة شرفهم ومجدهم وعلوّ شهامتهم وأنهم لم تتغير أحوالهم ولا طباعهم فى الازمان المختلفة ولم يتنازلوا عما كانوا عليه فى دهر من الدهور من النجدة والاريحية والحماس وكسب الفخار بما فيهم من العزة والنخوة والانفة والفتوة فهم وان أحرصوا على أخذ الثار ونفى العار وسفك الدماء والايثار بالفخار فكثيرا ما تجدهم يتشبثون مع ذلك بالكرم والجود ويميلون بالطبع الى كسب الاعتبار المحمود ويتنافسون فى المفاخرات والمنافرات وما هذا الاعن احساسهم من أنفسهم بأنهم أهل للمجد والشرف وأنهم يستحقون أن يرقوا فى مراتب المفاخر الى أعلى الغرف كما يشهد لذلك المنافرة الواقعة بين بنى عامر قبل الهجرة بعامين والمنافرة المحاكمة يقال نافرت فلانا الى فلان فنفرنى عليه أى نصرنى وأصلها أن العرب كانوا يسالون أيهم أعز نفرا وسببها أن قبيلة بنى عامر انحصرت رياستها فى اثنين من وجوه القبيلة وهما علقمة بن عبدة التميمى النجدى وعامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر العامرى النجدى وكل منهما فصيح همام وبطل مقدام وكلاهما تطلب الرياسة لما فيه من الاهلية والاستحقاق فتنافرا وتحاكما عند شيخ محبب وقور من قبيلة أخرى وتراضيا على قبولهما ما يحكم به فى فصل الخصام فاستحلفهما هذا الشيخ المتنافر اليه على أنه ان حكم بينهما ينقادان لحكمه بدون أن يكون لاحدهما بعد ذلك دعوى على الآخر فحلفا على ذلك فحكم بأن هذه الخصومة لا يفصلها

بحكمه القطعي الابعد حول كامل يختبر فيه سلوكهما ليكون له زمن يعرف فيه درجة فضيلة كل منهما ومزيته على الآخر ففي مدة هذا الحول تشبث كل من هذين القرينين يبذل ما في وسعه من الشهامة والفضيلة ليتميز عن قرينه فبعد انقضاء السنة ظهر لهذا الشيخ المحكم ان كلا من هذين الرئيسين لا أرجحية له على صاحبه في الخصال التي يستحق بها رياسة القبيلة فلما وجدهما متساويين في صفات المجد والشهامة لا أرجحية لاحدهما على الآخر حكم لهما بالرياسة اشترا كافيها فاجتمعا على ذلك واتحدا كمال الاتحاد قلبا وقالبا للقيام بشؤن القبيلة وحفظ حقوقها وكان صدور الحكم بذلك في مجلس حافل جامع لكثير من القبائل فعجبوا من قضاء هذا الشيخ الذي أمهل الخصمين في اقامة دعواهما حولا كاملا وأخذ العرب من تحكيمه بالموعظة الحسنة لاسيما وقد تسبب عن حكمه زوال البغضاء والمشاحنة وترتب عن طريقة حكمه التوادد والتحابب واجتماع القلوب والتواطؤ على صلاح القبيلة فمثل هذا المحكم أهل لان يبعث العرب بطريقة سلوكه على الاتصاف بصفات الحزم والاحتياط المنتجة للمجد والشرف والسخاء والكرم وكل ما يبلغ الانسان السيادة وقد كانت المنافرة متواترة بين بني هاشم وبني عبد شمس ويقال ان هاشما وعبد شمس ولدا توأمين فخرج عبد شمس في الولادة قبل هاشم وقد لصقت اصبع أحدهما بجبهة الآخر فلما نزعت دمي مكانها فقيل سيكون بينهما أو بين ولديهما دم فكان كذلك ويقال انهما كانا يوم ولدا في بطن واحد ملتصقي الجباه ففرق بين جباههما بالسيف فقال بعض العرب انه لا يزال السيف بينهما وبين أولادهما الى الابد

ووقعت منافرة بين هاشم بن عبد مناف بن قصي وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وسببها أن هاشما كانت اليه الرفادة التي سنها جده قصي بن كلاب بن مرة مع السقاية لان أخاه عبد شمس كان يسافر وكانت اقامته بمكة قليلة وكان رجلا مقلا وكان له ولد كبير وهو أمية بن عبد شمس فاصطلحت قريش على ان ولي هاشم السقاية والرفادة لانه كان رجلا موسرا فكان اذا حضر موسم الحج قام في قريش خطيبا فقال يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته وانكم يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته وهم

ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به وحفظه منكم أفضل ما حفظ جار من جاره فاكرموا ضيفه وزواره فانهم يأتون شعثا غبرا من كل بلد على ضوامر كالقداح أى كالعيدان المقطوعة على مقدار النبل فاقروهم وأغنوهم وأعينوهم فكانت قريش ترافد على ذلك حتى كان أهل البيت ليرسلون بالشئ اليسير على قدرهم فيضمه هاشم الى ما أخرج من ماله وما جمع مما يأتيه به الناس فان عجز كمله وكان هاشم يخرج فى كل سنة مالا كثيرا وكان قوم من قريش يترافدون لانهم كانوا أهل يسار فربما كان أرسل كل انسان منهم بمائة مثقال

وكان هاشم يأمر بحياض من ادم فتجعل فى موضع زمزم قبل أن تحفر زمزم ثم يستقى فيها من الآبار التى بمكة فيشرب الحاج وكان يطعمهم وأول ما يطعمهم قبل التروية بيوم ويطعمهم بمنى وبعرفة وبجمع فكان يثرد لهم الخبز واللحم والخبز والسمن والسويق والتمر ويحمل لهم الماء حتى يتفرق الناس لبلادهم وكان يسمى عمرا وانما قيل له هاشم لهشمه الثريد وهو أول من أطعم الثريد بمكة

عمرو العلا هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف

وكان أمية بن عبد شمس ذا مال فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم من اطعام الطعام لقريش فعجز عن ذلك فشمت به ناس من قريش وعابوه لتقصيره فغضب ونافر هاشما على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى وكان منزله عسفان وخرج مع أمية أبو همهمة حبيب ابن عامر بن عميرة بن وديعة بن الحرث بن فهر بن مالك الفهرى فقال الكاهن المنافر اليه والقمر الباهر والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلمه المسافر من منجد وغائر لقد سبق هاشم أمية الى المآثر أول منه وآخر وأبو همهمة بذلك خابر فأخذ هاشم الابل فنحرها وأطعم لحمها من حضر وخرج أمية الى الشأم فأقام به عشر سنين فشتان بين حكم الحكم الاول فى المنافرة الاولى حيث ترتبت عليه المودة وبين حكم الحكم الثانى حيث ترتب عليه ما ترتب من العداوة فكانت هذه أول عداوة وقعت فى بنى هاشم وبنى أمية وتمادت العداوة بين البيتين حتى أقام سيد بنى هاشم محمد صلى

الله عليه وسلم بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بمكة يدعو قريشا الى توحيد الله وترك ما كانت تعبد من دونه فانتدب جماعة بنى أمية لعداوته كما سيأتى فاطلاع قريش على روايات مفاخرهم وحسبهم ونسبهم وعزتهم جعلهم يحرصون على أن لا يتركوا شيأ من العزة والعظم لغيرهم

ثم ان الشريعة المحمدية جاءت فيما بعد وحققت العزة الصحيحة وحصرتها فى المواهب الحميدة والفضائل المفيدة وكانت العرب قبل ذلك تزعم ان الرجل الشريف الماجد هو الذى يكون كثير المال عظيم الجاه فيعز بين قومه وينافر من دونه فبالتقدم فى تحسين اللغة العربية والبعد عن الحالة الجاهلية وظهور الشريعة المحمدية علموا علم اليقين أن العز الحقيق انما هو فى صلاح الدين ليس مقصورا على عز الدنيا بل الاولى به عز الدين ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولذلك لما نزل القرآن على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تعجبوا فى بادية الامر واعترضوا نزوله عليه بما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فكلامهم يتضمن قياسا منطقيا وهو أن منصب رسالة الله تعالى منصب شريف والمنصب الشريف لا يليق الا برجل شريف والشريف من كان كثير المال والجاه ومحمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به فالقياس فى حد ذاته صادق الا انهم ضموا اليه مقدمة فاسدة بتفسير الشريف فكانت شبهة حيث اشتبه عليهم منصب الدين والنبوة بمنصب الدنيا والمراد باحدى القريتين مكة والطائف والذى بمكة هو الوليد بن المغيرة والذى بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفى فأبطل الله سبحانه وتعالى شبهتهم من وجهين الوجه الاول قوله أهم يقسمون رحمة ربك أى احسانه يعنى كما أحسنا بمناصب الدنيا لا لسبب سابق فكذلك أحسنا بمناصب الدين والنبوة لا لسبب سابق أيضا وحيث قد أحسنا فى الاول بمحض قدرتنا ولم يمكن أحدا أن يغيره فكذلك احساننا بالدين والنبوة لا يستطيع أحد أن يغيره فقد فاوتنا بين الاحسانين ولا يمكن المعارضين أن يقسموا احساننا الذى اقتضته حكمتنا الوجه الثانى ما يفهم من قوله تعالى ورحمة ربك خير مما يجمعون يعنى أن الله تعالى اذا خص بعض عبيده بنوع من أنواع فضله ورحمته فى الدين فهذه الرحمة خير من الاموال التى يجمعها لان الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض

وفضل الله ورحمته يبقى أبد الآباد فلا فضل للغنى على الفقير وليس الغنى شرفا حقيقيا

وبالجملة فكانت عزة نفوس العرب تبعثهم على التخلق بأخلاق المجد والشرف والسخاء والكرم مما به يبلغ الانسان السيادة والسعادة فلا عجب مما يحكى من الخصال الحميدة ومحامد الاخلاق الصادرة من حاتم الطائى وزيد الخيل ومعن ابن زائدة وأضرابهم ممن كان يضرب بهم الامثال فى الجود والشجاعة قبل الاسلام بزمن يسير مثل كعب بن مامة الايادى وهرم بن سنان النميرى قال بعضهم فى ممدوح

لو أدرك العصر من كعب ومن هرم * وحاتم جود كفيه لما ذكروا

وأجواد العرب فى الاسلام عبد الله بن عباس واخوه عبيد الله الذى لفرط جوده يسمى معلم الجود وهو أول من وضع الموائد على الطرق ولا غرابة فى ذلك فمكارم العباس أخجلت فى ذلك العهد كثيرا من الناس

لو قيل للعباس عم محمد * قل لا وأنت مخلد ما قالها

ان المكارم لم تزل معقولة * حتى فككت براحتيك عقالها

واذا الكرام تسايروا فى بلدة * كانوا كواكبها وكنت هلالها

ما ان أعد من المكارم خصلة * الا وجدتك عمها أو خالها

ومن الاجواد أيضا فى الاسلام عمر بن الخطاب والحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ومن أجود الصحابة العشرة رضى الله عنهم

وقد ترتب على انشاد الشعر وانشائه قبل البعثة تصوير الافكار والاستعداد لقبول محاسن الامصار وتقلب الاحوال الى أحسن حال بحيث تمدن العرب تمدنا خاصا بهم بمجامع الفصاحة والبلاغة ومجالس الآداب والمفاخرات وصاروا جميعا مستعدين لقبول التمدن الحقيقى ومتهيئين للتخلق بالاخلاق الحميدة والرضا بالتغيرات الجديدة وقبول التحسينات المفيدة والرجوع عن دين الجاهلية واتباع الشريعة المحمدية فكان هذا عبارة عن مقدمات استجدت لمقاصد رسالة تحدث

(الباب الثالث)

(فى مقدمات حكمية لدولة العرب الاسلامية وفيه فصول)

(الفصل الاول)

(فى تقدم قريش نوع تقدم فى تلك الازمان)

قدأسلفنا أن لسان العرب قد بلغ درجة كمال وكان مظهر استخلاصه واستصفائه فى مكة ونواحيها حتى صار اللسان العذب الفصيح البليغ هو لسان قريش وصارت لهم الرتبة المعنوية لكونهم آل الله وجيرانه وسكان بيت الله وفى ذلك يقول عبد المطلب بن هاشم

نحن آل الله فى ذمته * لم نزل فيها على عهد قدم
ان للبيت لربا مانعا * من يرد فيه باثم يخترم
لم تزل لله فينا حرمة * يدفع الله بها عنا النقم

فهم منسوبون دائما لله قال بعضهم يمدح أولى الامانة وهى مفتاح الكعبة

اذا اشتعب الناس البيوت فأنتم * أولوا الله والبيت العتيق المحرم

فمن حيث كونهم سكان الحرم لازالوا آمنين فى امتيارهم وتنقلاتهم شتاء وصيفا فى رحلتى الشتاء والصيف والناس يتخطفون من حولهم فاذا عرض لهم عارض قالوا نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد وكان هاشم يؤلف الى الشأم وعبد شمس الى الحبشة والمطلب الى اليمن ونوفل الى فارس وكانت تجار قريش يختلفون الى هذه الامصار بحبال هؤلاء الاربعة الاخوة ولا يتعرض لهم أحد وكان كل أخ منهم أخذ حبلا من ملك ناحية سفره أمانا له كالاجازة فكان هذا أشبه شئ بالروابط والعلاقات بين أمراء مكة المشرفة وبين كبار ملوك الدنيا فهذا امارة دولة قرشية مع ما يضاف الى ذلك مما حصل من قصى ابن كلاب فى زمانه حيث جمع قبائل قريش وكانت متفرقة فى البوادى فأسكنها الحرم وكانت تدعى قبل التجميع النضر بن كنانة فكانت قبائل قريش متفرقة فى بنى كنانة فجمعهم قصى بن كلاب الى البيت فسموا قريشا من التقريش وهو التجميع قال الشاعر يرثى أحد الامراء القرشيين

عدوا فى نواحى نعشه وكأنما * قريش قريش يوم مات مجمع

وقال بعضهم انما سميت قريش قريشا الدابة فى البحر هى أعظم دواب البحر

خطر الا تظفر بشئ من دواب البحر الا أكلته فسميت قريش قريشا لانها أعظم العرب فعالا قال الشاعر

وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولا تترك منه لذي الجناحين ريشا
هكذا في البلاد حي قريش * يأكلون البلاد أكلا كميشا
ولهم آخر الزمان نبي * يكثر القتل فيهم والخموشا
تملأ الارض خيله ورجال * يحشرون المطي حشرا كميشا

وأول دار بنيت بمكة دار الندوة وتسمى دار المندى بناها قصي لتكون مجلس القوم نهارا يجتمعون فيها للمشاورة في الامور المهمة فلم يكن اهم أمر مهم الا اجتمعوا فيها وهو الذي بنى المسجد الحرام بجبل المزدلفة وكان يسرج عليه أيام الحج فسماه الله مشعرا وأمر بالوقوف عنده وتنتهي قبائل قريش الى فهر ابن مالك قال الشاعر

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا * به جمع الله القبائل من فهر

وكان قصي يعشر من دخل مكة من غير أهلها وكان أول سبب حرب قصي مع خزاعة أن مفتاح الكعبة كان بيد أبي غبشان الخزاعي وكان يلي أمر البيت وسدانة الكعبة قبل قريش واسمه سليم بن عمرو فاجتمع مع قصي في شرب بالطائف فأسكره قصي ثم اشترى المفاتيح منه بزق خمر وقعود وجاء به قومه فقال هذا مفتاح بيت أبيكم اسمعيل قد رده الله عليكم من غير غدر ولا ظلم ودفع المفاتيح لابنه عبد الدار وصيره بها الى مكة وأقبلت خزاعة على أبي غبشان تذمه فأنكر البيع وقال اغا رهنته اياه وندم ندامة الكسعي فقال الناس أخسر من صفقة أبي غبشان فذهبت مثلا في الحمق والندم وخسارة الصفقة ووقعت الحرب بين قصي وبين أبي غبشان الخزاعي على ذلك فظاهر عليه قصي وفي ذلك يقول الشاعر

أبو غبشان أظلم من قصي * وأظلم من بني فهر خزاعه
فلا تلحوا قريشا في شراه * ولوموا شيخكم اذ كان باعه

فاجتمع لقريش في ذلك الوقت الرياسة على قومهم واطاعتهم العرب واجتمع لهم مالم يجتمع لغيرهم من مناصب الشرف في ذلك الوقت وهي الحجابة والسقاية

والرفادة والندوة واللواء والقيادة فالحجابة هي سدانة البيت الشريف أي تولية مفتاح بيت الله والسقاية اسقاء الحجيج كلهم الماء العذب وكان نادرا بمكة يجلب اليها من الخارج لسقاية الحاج بل ويتبذلهم التمر والزبيب للشراب أيضا وأما الرفادة فهي اطعام الطعام لسائر الحجاج فكانت تمد لهم الاسمطة في أيام الحج وأما الندوة فهي المشورة فكان يجتمع فيها من قريش ومن غيرهم من العرب من أهل الرياسة من بلغ في العمر أربعين سنة ولا يعقد عقد نكاح الرجل من قريش الا فيها

وأما اللواء فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة على اجتماع الجيش لحرب الاعداء فيجتمعون تحت هذه الراية ويقاتلون عندها والقيادة امارة الجيش ورياسة الحرب فكانت هذه هي منسب الشرف في الجاهلية وانتهت الى عشرة أبطن من قريش وبقيت لهم في الاسلام كذلك

والعشرة الابطن هم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسقي الحجيج وبقي له ذلك في الاسلام ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش وكانت اذا كانت عند رجل أخرجها اذا حميت الحرب فان اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه ومن بني نوفل الحرث بن عامر وكانت اليه الرفادة وهي ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج ومن بني عبد الدار عثمان بن طلحة كان اليه اللواء والسدانة أي خدمة الكعبة مع الحجابة ويقال والندوة أيضا في بني عبد الدار ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الاسود وكانت اليه المشورة وذلك ان رؤساء قريش لم يكونوا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليه فان وافقه ولاهم عليه والا تخيروا وكانوا له أعوانا واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف ومن بني تيم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكانت اليه في الجاهلية الاشناق وهي الديات والمغرم وكان اذا احتمل شيأ فسأل فيه قريشا صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وان احتملها غيره خذلوه ومن بني مخزوم خالد بن الوليد كانت اليه القبة والاعنة فأما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش وأما الاعنة فانه كان على خيل قريش

فى الحرب ومن بنى عدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكانت اليه السفارة فى الجاهلية وذلك أنهم كانوا اذا وقعت بينهم حرب بعثوه سفيرا وان نافرهم حى لمفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به ومن بنى جمح صفوان بن أمية وكانت اليه الايسار وهى الازلام فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تيسره على يديه ومن بنى سهم الحرث بن قيس وكانت اليه الحكومة والاموال المحجرة التى سموها لآلهتهم فهذه الوظائف عند العرب فى دولتهم المعنوية تشبه وظائف الدولة الملكية الحقيقية وكان لهم آداب منها العمارة وهى أن لا يتكلم أحد فى المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته وكان العباس ينهاهم عن ذلك وكان لبنى هاشم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر فأما حلوان النفر فلكون العرب لم تكن ترضى فى الجاهلية أن يملك عليها ملك فاذا حدث لها حرب مع أحد أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيرا كان أو كبيرا وأمروه بالنفر للحرب فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بنى هاشم فخرج سهم العباس وهو صغير فأجلسوه على المجن فصار رئيس الحرب ويروى ان المأمون قال لابى الطاهر القرشى الذى كان على البحرين من أى قريش أنت قال من بنى سامة بن لؤى فقال المأمون

ما سمعنا لسامة بن لؤى * نسبا فى بطوننا العشره

لو علمنا به على بعده منا ديارا كنابه برره

أراد بذلك أنه ليس من البطون الذين تقلدوا الشرف والمكارم قديما وهذا بالنسبة لقريش ظاهر وأما باقى العرب كعرب اليمن فكانت فيهم الدولة الملوكية وكانت العلاقة بينهم وبين قريش قد ظهرت أماراتها فكان لقريش عليهم قوة معنوية اذ كان لهم درج تزلق عنها اقدام الرجال وأفعال تخضع لها رقاب الاموال وغايات تقصر عنها الجياد المسومة وألسن تكل عنها الشفار الماضية ولو اختلفت العرب ما تزينت الابهم ولو كانت الدنيا لهم لضاقت بسعة أخلاقهم وهذه الفضائل الخاصة بهم غير الفضائل العمومية الداخلة فى عموم فضائل العرب الشاملة لقريش ولغيرهم التى أشار اليها صلى الله عليه وسلم بقوله اذا سألتم الحوائج فاسألوا العرب فانها تعطى لثلاث

خصال

خصال كرم أحسابها واستحياء بعضها من بعض والمواساة لله ثم قال من أبغض العرب أبغضه الله

واختصت قريش أيضاً أنها لم تزل على تطاول الايام تعتزى الى أنساب مضبوطة وتميز بأحساب عن الخلل محوطة قد قام بتصحيح اتصالاتها فى كل زمان علامون من الامة ونهض بتنقيح حالاتها فى كل أوان فهامون من الائمة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الائمة من قريش فمن كانت أوصافهم بهذه المثابة فقد آن لهم أوان المظهر فى النجابة لاسيما وانه سبقت لجميع العرب السعادة فى الازل بنزول القرآن بلغتها واشتقاق العربية من ألفاظها والاستشهاد على فهم الكتاب والسنة من أشعارها واسناد الحكمة والآداب اليها وانه لم يكن من الشعراء بعد شعرائها أحد الا كان مضطرا الى الاقتباس من محاسن ألفاظها والعرب مكتفون عن سؤلهم بمعرفتهم وكثيرا من ألفاظهم ما وافق القرآن الشريف وجاء القرآن على تصرفات اللغة العربية التى بلغت درجة كمال فى الفصاحة فلم يبق لها فى الحصول على مقصودها وهو كمال تمدنها وانقاذ مهجتها مما ورث السقامة والوخامة الاوحدة الدين الصحيح وهجر دين الجاهلية ورفض عبادة الاصنام المختلفة بين القبائل والتصديق بنسخ دين أهل الكتاب والتمسك بدين الاسلام ودعوة جميع الخلق الى عبادة الله واحد حق والركون الى شريعة واحدة صحيحة بها يتمكنون مما جبلوا عليه من الميل الى تملك البلاد وتسخير العباد حسا ومعنى ليصح لهم اصلاح المعاد والمعاش وليشرفوا بعزية السبق الى الاسلام وفتح سائر بلاد الدنيا بالدين المحمدى والجهاد فى الله حق جهاده فكان تقدمها ووجود الاهلية فيها لذلك يعد من الارهاصات للبعثة المحمدية

(الفصل الثانى)

فى كون العرب أولى بهذه المزية من غيرهم من سائر الامم وكون قومه المخصوصين الذين هم قريش هم أحق الامم بدولته الاسلامية حيث أرسل صلى الله عليه وسلم بلسانهم مع عموم رسالته للجميع

قال تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه المراد بقومه أهل بلده أى

حبه الذى هو قريش فهم قومه وهم غير أهل دعوته اذ دعوته عامة لجميع الناس ففرق بين قومه وأمته سواء كانوا أمة دعوة أو اجابة فلا يقال ان القرآن لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة الا العرب ولا يكون حجة الا عليهم كما لا يصح أن يقال ان المراد بذلك اللسان لسان العرب وأنه ليس له قوم سوى العرب وأنه مبعوث اليهم خاصة كما تمسك به بعض من لم يجعل نبوته عامة مع أن دلائل عموم الدعوة قائمة فى الرد عليهم كقوله تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا رداً على طائفة من اليهود يقال لهم العيسوية وهم أتباع عيسى الاصفهانى حيث قالوا ان محمدا رسول صادق مبعوث الى العرب وغير مبعوث الى بنى اسرائيل لان قوله يا أيها الناس خطاب يتناول كل الناس وقوله انى رسول الله اليكم جميعا يقتضى كونه مبعوثا الى جميع الناس ولنا دليل عقلى على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم بعضد الآية وهو أن ما يعلم بالتواتر من دينه أنه كان يقول انه مبعوث الى كل العالمين فاما أن يقال انه كان رسولا حقا أو ما كان كذلك فان كان رسولا حقا امتنع الكذب عليه ووجب الجزم بكونه صادقا فى كل ما يدعيه فلما ثبت بالتواتر وبظاهر الآية أنه كان يقول انه مبعوث الى جميع الخلق وجب كونه صادقا فى هذا القول وذلك يبطل قول من يقول انه كان مبعوثا الى العرب فقط وأما قول القائل انه ما كان رسولا حقا فهذا يقتضى القدح فى كونه رسولا الى العرب والى غيرهم فثبت أن القول بانه رسول الى بعض الخلق دون بعض كلام باطل متناقض اذا ثبت هذا فنقول قوله يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا على عمومه فهو مرسل الى كل من وصل اليه خبر وجوده وخبر معجزاته وشرائعه حتى يمكنه عند ذلك متابعته بل هو عام الرسالة الى الثقلين الانس والجن بل والى الملائكة تشريفا لا تكليفا وهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى أرسلت الى الاحمر والاسود وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا ونصرت على عدوى بالرعب يرعب منى مسيرة شهر وأطعمت الغنيمة دون من قبلى وقيل لى سل تعطه فاختبأتها شفاعة لأمتى وأما رسالة آدم لبنيه ورسالة نوح لمن خرج معه من السفينة فعمومهما خصوصية يعنى لفرقة

محصورة ففرق بينها وبين الرسالة العامة كرسالته صلى الله عليه وسلم فليس المفهوم واحدا فلم يرسل من غير العرب ولا من العرب نبي عام الرسالة عموما حقيقيا غيره صلى الله عليه وسلم فمن أرسل من العرب للعرب كهود وصالح واسمعيل وشعيب فقد أرسل الى قومه فان هودا أرسل الى عادا الاولى فكذبوه ولم يؤمن منهم الا القليل ومن معجزاته ان قومه سألوه أن يجعل الله تعالى أصواف شياههم وأوبارا بلهم ابريسما فدعا الله تعالى فصارت ابريسما وكان مكان مرعى قومه حجارة لم ينبت فيه شيء فدعا الله تعالى فأجابه فصارت الاحجار ترابا وكانت مساكنهم بين عمان وحضرموت والاحقاف من أرض اليمن وكانوا ثلاث عشرة قبيلة وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها وكانوا كالحصى عددا فلما بعث الله اليهم هودا أمرهم أن يوحدوا الله تعالى وان يكفوا عن ظلم الناس فأبوا وكذبوه وتمادوا في الغي والضلال وقالوا من أشد منا قوة فلما فعلوا ذلك ولم يقبلوا نصيحة هود عليه السلام أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين حتى هلك مواشيهم وأصابهم الضر الشديد والقحط الجهيد وكان الناس اذا أصابهم كرب بعثوا وفودهم الى البيت الحرام فيدعون الله تعالى فيستجاب لهم فاجتمع رأى ملكهم وأصحابه على أن يتوجه سبعة نفر من أصحابه الى الحرم فيستسقون لقومهم فلما قدموا مكة وبالغوا في الدعاء بدت لهم ثلاث سحابات بيضاء وسوداء وحمراء ونودوا أن اختاروا أيتهن شئتم فقالوا اخترنا السوداء فانها أكثر غيثا فنودوا اخترتم رمادا أرمدا لا يبقى منكم والدا ولا ولدا لا تركتكم همدا فتفرقت السحابتان البيضاء والحمراء ومضت السحابة السوداء نحو اليمن فوافت من ساعتها فتباشروا وكان أول من نظر الى ما في تلك السحابة من العذاب امرأة منهم تسمى مهددا فرأت وسط السحابة كلهيب النار فصفقت بيديها وهي أول من ابتدعت التصفيق عند المصائب ونادت بأعلى صوتها ويلكم عليكم بهود عليه السلام لقد أتاكم العذاب ألا ترون الى ما في هذه السحابة قالوا ما نرى شيأ فانشأت تقول

انى أرى وسط السحاب نارا * تنثر من ضرامها الشرارا

يسوقها قوم على خيول * تهتف بالاصوات والصهيل

وهي عذاب بالعاد فاعلموا * فوحدوا الله لكيما تسلموا

ثم استجيروا بالنبي هود * نبي رب واحد معبود
فقد أتاكم عن قريب داهيه * فليس تبقى منكم من باقيه

فلما أراد الله اهلاكهم أرسل عليهم الريح العقيم ماتذر من شئ أتت عليه الاجعلته كالرميم

وأما صالح عليه السلام فقد أرسل الى قبيلة ثمود على رأس الاربعين سنة وكانت منازل ثمود بالحجر بين الحجاز والشأم بينها وبين وادى القرى ثمانية عشر ميلا وكانوا يتخذون من الجبال بيوتا فنحتوا فيها وجوفوها وكانوا في سعة من معايشهم وبيوتهم الى وقتنا هذا منحوتة في الجبال ورممهم باقية وآثارهم بادية ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا وهذا يدل على أن أجسامهم كانت كأجسامنا فخالفوا أمر الله تعالى وعبدوا غيره وعثوا في الارض وتجبروا فبعث الله اليهم صالحا نبيا وهو من أفضلهم حسبا ونسبا فدعاهم الى الله عز وجل فكذبوه ولم يقبلوا مادعاهم اليه فقال العظماء منهم ياصالح ان أحببت أن نصدقك ونؤمن بالهك فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقة أضخم مايكون من النوق ومعها سقبها أى فصيلها فدعا صالح ربه فاستجاب الله دعاءه فقال لهم من أين تريدونها فأشاروا الى صخرة وقالوا من هذه الصخرة فأشار اليها صالح وقال اخرجي باذن الله تعالى فبينما هم اذ نظروا الى الصخرة وهي ترجي كما ترجي الناقة وتمخض كما تمخض المرأة في نفاسها ونحركت فانصدعت عن ناقة كما سألوه ثم نهضت فجعلت تمشى نحوهم حتى اذا دنت بركت فوضعت سقبا مثلها في العظم والجسم ثم نهضت نحو المرعى واتبعها سقبها فلما رأوا ذلك بهتوا متعجبين وآمنوا بالله تعالى يومهم وليلتهم فلما أصبحوا رجعوا الى أسوا ما كانوا عليه من الكفر والطغيان فقال لهم صالح عليه السلام اما ان نكصتم على أعقابكم فاياكم أن تمسوا هذه الناقة بسوء أو تمنعوها حظها من المرعى والشرب فيحل بكم العذاب هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله من الكلا ولها من الماء يوم تشربه كله ولكم يوم آخر لان مياههم كانت قليلة فكانت تشرب ماء الوادى في يوم ويحلبونها في يوم فيشربون لبنها عوض ماشربت فأجابوه الى ذلك فمكثت الناقة ترد الماء فتستوعبه جميعا لعظمها حتى لاتدع منه شيأ فتصدر وضرعاها يشخبان لبنا فيستقبلونها بالمحالب

فيحلبون

فيحلبون منها بقدر ما كانت تشرب من الماء فى الكثرة ثم تصدر من غير الفج
الذى وردت فيه لانها لم تقدر على ان تصدر من حيث وردت للضيق فلما طال
عليهم ذلك ملوها فعقروها فانطلق الفصيل موليا وصعد جبلا شامخا جدا يقال
له ضو فذهبوا اليه ليأخذوه من الجبل فجاءه صالح عليه السلام فلما رآه
الفصيل بكى ثم رغا ثلاثا فانفجرت الصخرة فدخلها فوعدهم الله تعالى بالعذاب
فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام لكل رغوة يوم فأصابهم فى اليوم الاول وكان
نهار الخميس صفرة فأصبحوا مصفرين وفى اليوم الثانى اصبحوا ووجوههم
محمرة كأنها خضبت بالدماء وأصبحوا فى اليوم الثالث ووجوههم مسودة
كأنها طليت بالقار وصبحهم العذاب يوم الاحد فأتتهم صيحة من السماء
ارتجت لها الدنيا فتقطعت قلوبهم فى صدورهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير
الا هلك ولحق صالح ومن آمن به من قومه بمكة وكان آمن بصالح من قوم ثمود
أربعة آلاف نفس وأقام صالح فى قومه عشرين سنة وتوفى بمكة ودفن بالحجر
وقيل انه لما خرج مع من آمن به نزل بموضع بمدينة الرملة من بلاد فلسطين
فدفن بها

وأما شعيب عليه السلام الذى يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته
قومه فقد بعثه الله تعالى الى أهل مدين وأصحاب الايكة والايكة هى الشجرة
الملتفة وكان ابراهيم عليه السلام جده الاعلى لابيه ولوط عليه السلام جده
لامه وكان لسانه عربيا ومن معجزاته أنه كان فى أرض مدين رمل عظيم
يقاسون منه عناء شديدا فأشار اليه فانتقل منه الرمل الى مكان آخر وكان فى
أرضه حجارة فانقلبت بدعائه نحاسا فصار قومه أغنياء بذلك النحاس وكان قومه
عليه السلام كفارا وكانت أرضهم مدين وهى ما بين أرض مصر وأرض الشأم
وكان غالب أهلها تجارا عليهم ممر الناس من مصر الى الشأم فقال لهم شعيب
يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان وذلك أنهم
كانوا يجلسون على الطريق ويبيعون بالكيل أو الميزان الناقص وكانوا
عشارين يقطعون الطريق فلما طال تماديهم فى الغى والكفر وأيس شعيب
من صلاحهم دعا عليهم فقال ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين
فأجاب الله تعالى دعاءه فأهلكهم بالرجفة وهى الزلزلة وكانوا اذا اجتمعوا تحت

سحابة بعثها الله تعالى اليهم فأظلتهم ووجدوا لها بردا وريحا طيبة فألهبها الله تعالى عليهم نارا ورجفت بهم الارض فاحترقوا وصاروا رمادا وذلك قوله تعالى فأخذهم عذاب يوم الظلة وقال أبو عبد الله البجلى أبجد وهوز وحطى وكلمن وسعفص وقرشت أسماء ملوكهم وكان ملكهم يوم الظلة فى زمان شعيب كلمن فقالت أخته وهى تبكى

كلمن قد هد ركنى * هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه الحتف نار وسط ظله
جعلت نارا عليهم * دارهم كالمضمحله

وقد رثاهم المنتصر بن المنذر بقوله

ملوك بنى حطى وسعفص ذى الندى * وهوز أرباب المقام مع الحجر
هم ملكوا أرض الحجاز بأوجه * كمثل شعاع الشمس أو صورة البدر
وهم قطنوا البيت الحرام وزينوا * قصورا وشادوا للمكارم والفخر

ويذكر لهم حروب عجيبة وأخبار وسير غريبة ويفهم من كون غالبهم تجارا ولهم مكاييل وموازين وانهم كانوا عشارين يقطعون الطريق وأنهم كما فى قصة يوسف كانوا يسافرون الى مصر للتجارة وان لهم ملوكا تسمى بالكلمات الابجدية انهم كانوا متمدنين وان الكتابة كانت موجودة عندهم والا فما معنى جمع حروف الهجاء وجعلها أسماء لمن ليس يعرفها وحيث انه يفهم من رثائهم السابق انهم ملكوا أرض الحجاز فهذا يؤيد ما سبق فى الفصل السادس من الباب الثانى من أن الخط قديم عند العرب

وأما اسمعيل عليه السلام فهو أكبر أولاد ابراهيم عليه السلام وأبو العرب وأبو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أول من تكلم بالعربية المستعربة وأول من ركب الخيل وكانت وحوشا لا تركب وقد أعطاه الله القوس العربى فكان لا يرمى شيأ الا أصابه والعرب كلها من ولد اسمعيل وقحطان وبعض اليمن وقد بعثه الله تعالى نبيا الى العماليق والى قبائل اليمن وروى ان ابراهيم عليه السلام استمر دهرا طويلا لا يولد له ولد فوهبت له سارة هاجر وقالت انى حرمت من الولد فلعل الله أن يرزقك منها ولدا تقر به عينك فأحبها ابراهيم عليه السلام لجمالها وعقلها ودينها فلما حملت باسمعيل وولدته تحول نور نبوة محمد

صلى الله عليه وسلم من جبين ابراهيم الى جبين اسمعيل عليه السلام يلوح
كالشمس المشرقة فأخذت سارة الغيرة وقالت لابراهيم عليه السلام ان الله
تبارك وتعالى جعل صداقي عليك رضاى وطاعتي وأنا آمرك أن تحمل هذه
الجارية وابنها الى بلد لا ماء فيه ولا زرع فتسكنهما فيه قال أفعل ذلك فأمر
الله تعالى ابراهيم بالمسير الى مكة فساروا وأنزلهما هنالك والبيت يومئذ ربوة
حمراء مشرفة على ما سواها فلم ينزل ابراهيم عن مطيته فنادته هاجر يا نبي الله الى
من تكلنا قال الى الله تعالى واستودعكما اياه فقالت له الله أمرك بهذا قال نعم
قالت اذا لا يضيعنا فرجع ابراهيم عليه السلام الى الشأم فعمدت هاجر
ففعلت عريشا وكان معها شنة فيها ماء فنفد الماء وعطشا عطشا شديدا
فتضرعت الى الله تعالى فنزل جبريل في صورة آدمي فركض برجله موضع بئر
زمزم فنبع الماء من موضع رجله فشرب اسمعيل وأخبرها جبريل انها عين
يشرب منها ضيفان الله تعالى وان هذا الغلام وأباه سيبنيان بيتا هذا موضعه
فلبثا خمسة أيام يشربان من ذلك الماء فيجزيهما عن الطعام والشراب وفي
اليوم السادس أقبل غلامان من العماليق فأبصرا الماء وأخبرا قومهما
بذلك فأقبل عظماؤهم الى اسمعيل وأمه هاجر فسألوها فأخبرتهم بخبرها فقالوا
لولا ان هذا الغلام كريم على الله تعالى ما نبع له الماء من هذا المكان واستأذنوا
منها أن ينتقلوا بأهاليهم فيقيموا معهما وان هذا الغلام متى أراد اخراجهم
من هذا المحل خرجوا منه واشترطوا له عليهم المواساة في أموالهم ورياسته
عليهم عند ادراكه فانتقلوا جميعا وبنوا المنازل والبيوت ونشأ اسمعيل عليه
السلام مع أولادهم وكانت لغتهم العربية الصحيحة وهي لغة أولاد بني معد
التي نزل بها القرآن ثم لما بلغ الاربعين بعث الى العماليق وجرهم وقبائل اليمن
وكانوا يعبدون الاوثان فآمن بعضهم وذهب كثير من العلماء الى ان اسمعيل
صلى الله عليه وسلم هو الذبيح وان ذلك كان في شعب مكة وانه فدى بكبش
من الجنة قد رعى فيها أربعين خريفا وان الاسلام جاء ورأس الكبش معلق
بقرنيه في ميزاب الكعبة الى ان حرقها الحجاج وعلى ذلك قال بعضهم

ان الذبيح هديت اسمعيل * نطق الكتاب بذلك والتنزيل
شرف به خص الاله نبينا * وأبانه التفسير والتأويل

وولد لاسمعيل من دعلة بنت مضاض اثنا عشر ذكرا وبنت وعاش اسمعيل مائة وسبعا وثلاثين سنة ومات بمكة ودفن ما بين الميزاب والحجر الى جنب قبر أمه هاجر ولما حفر ابن الزبير أساس الكعبة وجد سفطاس مرمر أخضر فسأل العلماء بالاخبار فقالوا هذا قبر اسمعيل وأمه وأما بناؤه البيت مع أبيه فأمره معلوم وتأذين ابراهيم بالحج اليه مفهوم وان حلوله بالبيت الحرام أول تمهيد لجمعية العرب

وأما حنظلة بن صفوان فانه كان من ولد اسمعيل وكان نبيا فى الفترة وأرسل الى أصحاب الرس وكانوا قبيلتين من ولد اسمعيل فقتلوه

وأما خالد بن سنان العبسى فهو نبى عربى من ولد اسمعيل عليه السلام وكان فى زمن الفترة بين المسيح و بين نبينا عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ظهرت نار فى مكة والمدينة فى الفترة فقسمتها العرب فكانت طائفة منهم تعبدها مضاهاة للمجوس فقام خالد هذا فأخذ عصاه واقتحم النار يضربها فضربها بعصاه حتى أطفأها الله عز وجل فقال لاهله انى ميت فاذا مت وجاء الحول فارصدوا قبرى فاذا رأيتم عنزا عند قبرى فارموها فاقتلوها وانبشوا قبرى واستخرجونى فانى أحدثكم بما هو كائن فمات فرصدوه الحول ورأوا العنز فقتلوها وأرادوا نبش قبره فمنعهم بنوه وقالوا لا يسمى بالنبى المنبوش ويروى ان ابنة خالد هذا أتت النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما هاجر فسلمت عليه وقالت أنا ابنة خالد بن سنان ففرح بها ثم قال لاصحابه رضى الله عنهم أتعلمون ما سبيل أبى هذه قالوا الله ورسوله أعلم قال ان أباها كان نبيا هالك بين مكة والمدينة ضيعه قومه فقص النبى صلى الله عليه وسلم قصته وقال لو نبشوه لاخبرهم بشأنى وشأن هذه الامة وما يكون فيها ويقال انه نبى البرزخ بعث لمن مات طفلا * ومما ينقل عنه حين اطفائه النار قوله بدا بدا كل هدى لله مؤدى لادخلنها وهى تلظى ولاخرجن منها وثيابى تندى

فارسال هؤلاء الرسل للعرب قبله صلى الله عليه وسلم تمهيد لرسالته ومن التمهيدات أيضا ان امن به فى الفترة عدة أشخاص من أرباب الاعتبار وان لم يحصل الاتفاق على ايمانهم فمنهم أسعد أبو كرب الحميرى كان آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسنين وأنشأ يقول

شهدت على أحمد أنه * رسول الاله وبارى النسم
فلو مد عمرى الى عمره * لكنت وزيرا له وابن عم

وهو أول من كسا الكعبة الانطاع والبرود وأول من حلاها فى الجاهلية عبد المطلب بن هاشم جد النبى صلى الله عليه وسلم وفى الاسلام الوليد بن عبد الملك وقيل أبوه وقيل ابن الزبير وحلاها من العباسيين الامين والمتوكل والمعتضد وحلتها أم المقتدر العباسى والملك المجاهد صاحب اليمن وممن حلاها من بنى عثمان السلطان أحمد ابن السلطان محمد ابن السلطان مرادخان وكان أراد أن يجعل حجارة الكعبة الشريفة ملبسة واحدا بالذهب وواحدا بالفضة فمنعه المولى محمد بن سعيد الدين المفتى وقال هذا يزيل حرمة البيت ولو أراد الله سبحانه وتعالى لجعله قطعة من الياقوت فكف عن ذلك وجعل ثلاث مناطق من الفضة المحلاة بالذهب أيضا داخل الكعبة الشريفة صونا لها من الهدم

وممن آمن به صلى الله عليه وسلم فى الفترة قس بن ساعدة الايادى وكان حكيم العرب صحيح النسب مقرا بالبعث والحساب فصيحا اذا خطب عمر عمرا طويلا وكان مقرا الله تعالى بالوحدانية تضرب بحكمته الامثال وتكشف به الاهوال كان يسيح على منهاج المسيح يتقفر القفار ولا تكنه دار ولما قدم الجارود بن عبد الله على النبى صلى الله عليه وسلم سأل عنه فقال هلك فقال يرحمه الله فهل فيكم يا معشر المهاجرين والانصار من يحفظ لنا منه شيأ فوثب أبو بكر رضى الله عنه قائما فقال أنا يا رسول الله كأنى أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أحمر وهو يقول أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا واذا وعيتم شيأ فانتفعوا انه من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت مطر ونبات وأرزاق وأقوات جمع واشتات وآيات بعد آيات ان فى السماء لخبرا وان فى الارض لعبرا نجوم تمور وبحار تغور وسقف مرفوع ومهاد موضوع أقسم بالله قسما لاحانثا ولا آثما ان لله دينا أحب من دينكم الذى أنتم عليه ونبيا قد أظلكم أوانه وادرككم ابانه فطوبى لمن أدركه فآمن به وهداه وويل لمن خالفه وعصاه ثم قال مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هنالك فناموا يا معشر بنى آدم أين الآباء والاجداد

وأين المرضى والعواد طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بتطاوله كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود

في الذاهبين الاولين * من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا * للقوم ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها * تمضي الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضي الى * ولا من الباقين غابر
أيقنت انى لامحا * لة حيث صار القوم صائر

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله قسا انى لارجو أن يبعثه الله أمة وحده ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل وهو ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان يرغب في دين الاسلام ويعرض عن عبادة الاصنام وعابها فأولع به عمر بن الخطاب وسلط عليه سفهاء مكة فآذوه فسكن كهفا بجبل حرا وكان يدخل مكة سرا وسار الى الشام يبحث عن الدين فسمته بعض ملوك غسان بدمشق فمات

ومنهم أمية بن أبي الصلت الثقفي وكان شاعرا عاقلا وكان يتجر الى الشام فتلقاه بعض أناس من أهل الكتاب فقرأ عليهم وعلم أن نبيا سيبعث من العرب وكان يقول أشعارا يصف فيها السموات والارض وذكر الانبياء والبعث والجنة والنار ويعظم الله تعالى ويوحده ويمجده وهو أول من كتب باسمك اللهم

ومنهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة الكبرى زوج النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد قرأ الكتب المنزلة ورغب عن عبادة الاصنام وبشر خديجة بالنبي عليه السلام وأنه نبي هذه الامة وأنه سيؤذى ويكذب واجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال يا ابن أخي أثبت على ما أنت عليه فوالذي نفس ورقة بيده انك لنبي هذه الامة ولتؤذين ولتكذبن ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أدركت يومك لانصرنك نصرا مؤزرا

ومنهم بحيرا الراهب وكان على دين المسيح عيسى بن مريم ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب الى الشام في تجارة وهو ابن اثنتي عشرة سنة ومعهما أبو بكر وبلال رضي الله عنهما فمروا ببحيرا الراهب وهو في صومعته فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته ودلائله وكان الغمام

يظله

يظله حيثما جلس فأنزلهم بحيرا وأكرمهم واصطنع لهم طعاما ونزل من صومعته حتى نظر الى خاتم النبوة بين كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع يده على موضعه وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وأعلم أبا بكر وبلالا بقضيته وما يكون من أمره وحذرهما عليه من أهل الكتاب وسألهما أن يرجعا به فرجعا برسول الله صلى الله عليه وسلم الى مكة وأعلنا قريشا بما أظهر الله تعالى من دلائل نبوته وعلامات رسالته صلى الله عليه وسلم ومن هذا كله يعلم أن قومه الذين أرسل بلسانهم لكافة الناس بشيرا ونذيرا هم حيه يعني قريشا حتى ان الحكمة الالهية اقتضت أن منهم من آمن به قبل بعثته وأن الدلائل كانت فيهم قائمة ولو أدركوا البعثة لكانوا أول من صدق به لاسيما وأنهم علماء قريش وفصحاؤها فكانوا أقرب الى ادراك أعظم معجزاته وهو القرآن البالغ حد الاعجاز الذي أعجز فصحاء العرب عن الاتيان بأقصر سورة منه فهو أكبر معجزاته صلى الله عليه وسلم فقد دعا به بلغاء قريش وهم ماهم وما أدراك ماهم قالة البلاغة ولسن الفصاحة لهم من آفاق ذلك قراها والنجوم الطوالع ودعا غيرهم مذ بعثه الله قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل الى يومنا هذا والى يوم البعث والنشور على أن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات وتنازل معهم الى الاتيان بسورة من مثله وفى السور ماهو ثلاث آيات وتحدى به الانس والجن فلم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ونكصوا على أعقابهم خائبين وذهب كل نبي بمعجزاته ولم يبق لها أثر ظاهر خلا الروايات عنها والاخبار وأبقى لنا صلى الله عليه وسلم معجزا خالدا بين ظهرانينا الى يوم القيامة بعد ذهابه لاتنكسف شموسه ولا تزوى زهراته فوجه الاعجاز فى سورة الكوثر التي هي أقصر سورة منه انها مشتملة على ثلاث آيات الآية الاولى وهي قوله تعالى انا أعطيناك الكوثر فيها ثمان فوائد الفائدة الاولى انه يدل على عطية كبيرة مستندة الى معط كبير ومتى كان كذلك كانت النعمة عظيمة وأراد بالكوثر أولاده الى يوم القيامة من أمته جاء فى قراءة عبد الله النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبوهم وأزواجه أمهاتهم وأيضا ما أعطاه الله فى الدارين من مزايا الاثرة والتقديم والثواب لم يعرف كنهه الا الله تعالى ومن جملة الكوثر ما اختصه به من النهر الذي طينته المسك ورضراضه الدرر وعلى حافاته من أواني الذهب

والفضة مالاتعاده النجوم الثانية انه بنى الفعل على المبتدا فدل على الخصوصية لان تقديم المحدث عنه آكد لاثبات الخبر الثالثة انه جمع ضمير المتكلم وهو يشعر بعظم الربوبية الرابعة انه صدر الجملة بحرف التوكيد الجارى مجرى القسم الخامسة انه أورد الفعل بلفظ المضى دلالة على أن الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة دون عطاء الآجلة دلالة على أن المتوقع من سيب الكريم فى حكم الواقع السادسة جاء بالكوثر محذوف الموصوف لان المثبت ليس فيه مافى المحذوف من فرط الابهام والشياع والتناول على طريق الاتساع السابعة اختار الصيغة المؤذنة بالكثرة ثم جاء بها مصروفة عن صيغتها الثامنة أتى بهذه الصيغة مصدرة باللام المعرفة لتكون لما يكون بها شاملة وفى اعطاء معنى الكثرة كاملة ولما لم يكن للمعهود وجب أن يكون للحقيقة وليس بعض افرادها أولى من بعض فتكون كاملة وقد دخل فيه الجواب عن كونه غير معقب ابنا لان بقاء الابن بعده لايخلو عن أمرين اما أن يجعل نبيا كما روى لذلك لوعاش ابراهيم لكان نبيا وذلك محال لكونه خاتم الانبياء أو لايجعل نبيا وذلك يوهم بأنه خلف سوء فصين عن تلك الوصمة بما أعطى من الخير الكثير وهو حصول الغرض المتعلق بهم مع انتفاء الوصمة اللازمة لو كانوا ولم يكونوا أنبياء ومع ذلك فان أولاد فاطمة وذريتهم يسمون أبناءه وينتسبون اليه نسبة حقيقية نافعة فى الدنيا والآخرة كما ذكر ذلك بعض الصوفية عند بيان معنى أول البيتين اللذين أنشدهما سيد الكونين صلى الله عليه وسلم للسيد الشريف الطباطبى مناما حين سلط عليه الامير القرقماش الشعبانى وأخرجه من خلوته وهما

يابنى الزهراء والنور الذى * ظن موسى انه نار قبس

لاأوالى الدهر من عاداكم * انه آخر سطر فى عبس

وذلك ان بعضهم سأل بعض الصوفية عن وجه نسبتهم الى الزهراء والى النور الذى هو عبارة عنه صلى الله عليه وسلم وعن وجه ترك نسبهم فى ذلك البيت الى أبيهم على بن أبى طالب رضى الله عنه كما هو قاعدة الشرع الاطهر وماهذا النور الذى هو عين النار التى ظنها موسى عليه السلام كذلك فنودى منها انى أنا ربك فأجاب بان ما قاله صلى الله عليه وسلم فى هذا البيت المنامى هو عين

الشرع اذ قد صرح العلماء بأن بني الزهراء وذريتهم يسمون أبناءه وينسبون اليه نسبة حقيقية نافعة في الدنيا والآخرة كما تقدم وان من خصائصه صلى الله عليه وسلم ان كل بني أب ينسبون اليه الا أولاد علي وأثبت الحنفية الشرف لاولاد البنت لان أصل الشرف كان كذلك من فاطمة رضي الله تعالى عنها وفي الحديث ان الله تعالى جعل ذرية كل نبي في صلبه وان الله تعالى جعل ذريتي في صلب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وروى نحوه من طرق وفي غيره لكل بني أب عصبة ينتمون اليها الا ولد فاطمة فأنا وليهم وعصبتهم فهم عترتي خلقوا من طينتي ويل للمكذبين وصح عن عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة ما خلا سببي ونسبي وفي رواية زيادة الصهر والحسب وكل بني أنثى فعصبتهم لابيهم ما عدا ولد فاطمة فاني أنا أبوهم وعصبتهم الى غير ذلك من الاحاديث فهذا وجه نسبتهم اليه والى الزهراء وترك نسبتهم الى علي رضي الله عنهم أجمعين ولا شك في الشرع ان كل شئ ينسب الى أصله الحقيقي وهو صلى الله عليه وسلم الشارع المشرع ومنه كان كافة الناس لا ينسبونهم الا اليه صلى الله عليه وسلم لا الى علي فيقولون أولاد الرسول ولا يقولون أولاد علي الا نادرا حتى كأنه لم يكن لهم في أبوتهم أصلا (فان قلت) لا شك ان النسب بالجزئية الابوية فلماذا كانت هذه الخصوصية على خلاف الحكمة العقلية (قلت) بل ذلك موافق لانه لا مانع في قدرة الله أن يأخذ بعض جزئية النبوي بطريق النكاح المعنوي فيضعه في علي ويضعه علي في فاطمة ويخلق منه ما أراد كرامة لسيد العباد صلى الله عليه وسلم ولقد وضع كثير من الاولياء أسرارا في البعض يحملها الى غيره حيا وميتا واذا ولدت مريم عليها السلام بلا أب أصلا فلان تلد بالأب المعنوي بواسطة علي فاطمة رضي الله عنهما أولى وقد كان بعض المحبين اذا افتصد حبيبه خرج منه الدم واذا كان بعض أفراد الاولياء يربي بالنظر فالاجدر أن يولد بهذا المعنى لسيد البشر فشأنه صلى الله عليه وسلم من وراء أطوار الفطر

وأما النور فهو النور الخاص الذي هو أول بادمن تجلي شمس ذات الاختصاص المشار اليه بقوله سبحانه الله نور السموات والارض والمصرح به حديث أنا من نور الله والمؤمنون من نوري وما في حديث جابر ان الله تعالى خلق قبل

الاشياء نور نبيك من نوره فهذا هو النور الذاتى ومنه النور الصفاتى ولا شك ان النور أثر النار فلما رؤى ظن أنه هى لانها السبب الظاهر فنودى من جانب السبب الحقيق الباطن انى أنا ربك فلا يقف بك عزمك عندما يشهده حزمك فيقعد بك حزمك وكذلك ماداه الحبيب الاكرم صلى الله عليه وسلم بطريق الاشارة الفائق على العبارة بأنى ذلك النور ياموسى لانه مجلى ذات المتجلى فكيف تجعلنى نارا وهى مجلى صفة المتجلى وكيف تقف مع الاسباب على ماظهر من الابواب ولم تخرق الحجاب حتى تشهد ماتحت النقاب فما ثم الاهو ثم عبده بل هو حبه ومحبه فأين النار من هذه الانوار وأين المزار من ذلك المزار لحط الاوزار وشمر الازار كى ماتفرق النور من النار وتميز الاسرار وتشهد المولى الستار فى جميع الاغيار وسائر الاطوار فكن جامعا فى فرقك وفارقا فى جمعك ليكمل جمعك فى فرقك وجمعك وقد صدر وعجز بعضهم هذين البيتين فقال

يابنى الزهراء والنور الذى * كل نجم فى العلا منه اقتبس

نوركم فى الطور لما ان بدا * ظن موسى انه نار قبس

لا أوالى الدهر من عاداكم * أو عليه فيكم الامر التبس

لست أخشى الله فيه ان أقل * انه آخر سطر فى عبس

وبما تقدم مع آية انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا يقطع بأنه لا يقاس به صلى الله عليه وسلم غيره من الانبياء ولا أولادهم على أولاده لان هذا أمر خصه الله به وبذريته بسببه فلا أحد يلحق به وفى الحديث نحن أهل بيت لا يقاس بنا أحد

وأما ماورد من أحاديث مقتضية لوقوع نقص كحديث ان أهل بيتى هؤلاء يرون أنهم أولى الناس بى وليسوا كذلك ان أوليائى منكم المتقون من كانوا حيث كانوا ونحو ذلك مما ورد فى هذا المعنى فقد ورد أيضا أكثر منها وأعظم فى اضداد ذلك وأزيد من ذلك وانما ورد ذلك لاصل الانذار والارشاد وعدم الاغترار كيف والقطع بالاتصال محال فى الانفصال انتهى والآية الثانية وهى قوله جل وعز فصل لربك وانحر فيها ثمان فوائد الاولى فاء التعقيب ههنا مستفادة من معنى التسبيب لمعنيين أحدهما جعل الانعام الكثير سببا

للقيام

للقيام بشكر المنعم وعبادته وثانيهما جعله سببا لترك المبالاة بقول العدو فان سبب نزول هذه السورة أن العاص بن وائل قال ان محمدا صنبور أى كالسعف النابت فى ساق النخلة الذى لا يثمر شيأ فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه السورة الثانية قصده باللام التعريض بدين العاص وأشباهه ممن كانت عبادته ونحره لغير الله وتثبيت قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم واخلاصه العبادة لوجهه الكريم الثالثة أشار بهاتين العبادتين الى نوعى العبادات أعنى بها الاعمال البدنية التى الصلاة امامها والمالية التى نحر البدن سنامها الرابعة التنبيه على ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الاختصاص بالصلاة حيث جعلت لعينه قرة وبنحر البدن التى كانت همته فيه قوية روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أهدى مائة بدنة فيها جمل لابى جهل فى أنفه برة من ذهب الخامسة حذف اللام الاخرى لدلالته عليها بالاولى السادسة مراعاته حق التسجيع الذى هو من جملة صنعة البديع اذا ساقه قائله مساقا مطبوعا ولم يكن متكلفا ولا مصنوعا السابعة أنه قال لربك وفيه حسنان وروده على طريق الالتفات التى هى أم من الامهات وصرف الكلام عن لفظ المضمر الى لفظ المظهر وفيه اظهار لكبرياء شانه وابانة لعزة سلطانه ومنه أخذ الخلفاء قولهم يأمرك أمير المؤمنين بكذا وعن عمر رضى الله عنه أنه حين خطب الازدية الى أهلها فقال خطب اليكم سيد شباب قريش مروان بن الحكم وسيد أهل المشرق جرير بجيلة ويخطب اليكم أمير المؤمنين عن نفسه الثامنة علم بهذا ان من حق العبادة أن يخص العباد بها ربهم ومالكهم وعرض بخطا من عبد مربوبا وترك عبادة ربه الآية الثالثة وهى قوله ان شانئك هو الابتر فيها خمس فوائد الاولى علل الامر بالاقبال على شأنه وترك الاحتفال بشانئه على سبيل الاستئناف الذى هو جنس حسن الموقع وقد كثرت فى التنزيل مواقعه الثانية ويجه أن تجعلها جملة للاعتراض مرسلة ارسال الحكمة لخاتمة الاغراض كقوله تعالى ان خير من استأجرت القوى الامين وعنى بالشانئ العاص بن وائل الثالثة انه ذكره بصفته لا باسمه ليتناول كل من كان فى مثل حاله فى كيده لدين الحق الرابعة صدر الجملة بحرف التوكيد وفيه انه لم يتوجه بقيله الى الصدق ولم يقصد به

الافصاح عن الحق ولم ينطق الا عن الشنآن الذى هو قرين البغى والحسد وعن البغضاء التى هى نتيجة الغيظ والحرج ولذلك وسمه بما ينبئ عن المقت الاشد الخامسة جعل الخبر معرفة ليتم البتر للعدو الشانئ حتى كأنه الجمهور الذى يقال له الصنبور ثم هذه السورة مع علو مطلعها وتمام مقطعها واتصافها بما هو طراز الامر كله من مجيئها مشحونة بالنكت الجلائل مكتنى بالمحاسن غير القلائل فهى خالية من تصنع من يتناول التنكيت وتعمل من يتعاطى التبكيت

ومن وجوه اعجاز القرآن اشتماله على المحكم والمتشابه وهذا لا يخلو عن حكمة وقد حصر بعضهم الحكمة فى ذلك فى خمس فوائد الاولى أن المتشابه مع المحكم أدعى لسائر أهل المذاهب الى النظر فى القرآن لانهم اذا ظنوا وجوه ما ينصرون به أقاويلهم كان نظرهم فيه أقوى فيكون ذلك داعية للمحق الى انشراح الصدور وللمبطل الى أن يتأمل كثيرا فيزول عن باطله وان كان جميعه محكما لم يكن يحصل هذا الوجه الثانية وهى أن كون القرآن مشتملا على المحكم والمتشابه يقتضى أن الناظر فيه والمتدبر له اذا ظفر بما ظاهره التشبيه وبما يدل على التوحيد أن ينظر فى أدلة العقول ليميز بين المحكم والمتشابه الثالثة أن عند النظر فى ذلك ربما ذاكر العلماء وتعرف منهم ما أشكل عليه ومادعا الى ذلك أولى مما يقتضى العدول عنه لأن مذاكرتهم تكشف عن الحق الرابعة أن كونه كذلك أبعد عن طريقة التقليد الى طريقة النظر لانه اذا وجد القرآن مختلفا لم يكن بأن يقلد المحكم أولى من المتشابه فيخرج الى الرجوع الى الدلالة ولو كان الجميع محكما لكان أقرب الى الاشكال على ظاهره الخامسة انه سبحانه علم أن الصلاح أن يزداد نظرهم وتأملهم ويتعبوا فى معرفة الحق خواطرهم

وربما ظهر لارباب العقول القاصرة فى الآيات القرآنية ان بعضها يناقض بعضا لأخذه بالظواهر والتناقض الحقيقى بين الكلامين انما يكون اذا تضمن أحدهما نفى ما أثبته الآخر أو بالعكس وليس فى كتاب الله تعالى ما هذه حاله وكم ادعى مدع ذلك فى القرآن وبين العلماء فساد قوله كقول بعضهم ان فى قوله تعالى ليس كمثله شئ تناقضا لان دخول الكاف عليه يقتضى اثبات المثل والنفى

يقتضي ضده ورد ذلك التناقض بأن العرب اذا أرادت أن تؤكد المثل في الاثبات والنفي أدخلوا فيه الكاف فيقولون ليس كمثل زيد جواد ولا شجاع فيكون أبلغ من حذف الكاف والقرآن جار على أساليبهم ومن ذلك ما أورده بعضهم في معرض التناقض بين قوله تعالى ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده وقوله تعالى وزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم فقال ان احدى الآيتين تقتضي أن لا ولي للكفار والثانية تقتضي أن لهم وليا وأجيب عن ذلك بأن قوله فما له من ولي المراد به في الآخرة عند اضلال الله لهم بالعقوبة وأراد بقوله فهو وليهم اليوم في الدنيا وتقييده بذكر اليوم يدل على ذلك وأيضا ان كان المراد في وقت واحد فلا تناقض لان المراد فما لهم من ولي ينفع ويضر وكون الشيطان لهم وليا لا يقتضي أن ينفع ويضر ومن ذلك ما ذكرناه عند ذكر طيودوسيس قيصر الثاني في الكلام على أهل الكهف من التناقض بين قوله تعالى ولبثوا في كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا وبين التاريخ حيث ان من دقيانوس الى طيودوسيس ليس الا مائة واحدى وسبعين سنه وأجبنا عنه بأنه من قول أحد الحزبين ثم رأيت في كتاب ألف با لابن حجاج انه نقل عن ابن عباس ما يدل على ذلك حيث قدر قالوا ولبثوا اشارة الى انه حكاية عن أحد الحزبين يعني بدلالة سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويؤيده كما سبق قل الله أعلم بما لبثوا كما تقدم مبسوطا في محله ويقاس على هذا ما أشبهه فلا مطعن في القرآن بالتناقض بوجه ما كما يعتقده من ينظر الى ظواهر الآيات كما لا مطعن فيه أيضا من جهة التكرار والتطويل وذلك لان عادة الفصحاء جارية بأنهم يكررون القصة الواحدة في مواضع مختلفة لأغراض مختلفة تجدد في المواضع وذلك من الفضائل لا من المعايب وانما يعاب التكرار اذا ذكر في الموضع الواحد

ومن المعلوم ان الله تعالى أنزل القرآن على رسوله في ثلاث وعشرين سنة حالا بعد حال وقد علم من حاله انه كان يضيق صدره لما يناله من الكفار فكان تعالى يسليه بما ينزله عليه من قصص من تقدم من الانبياء ويعيد ذكره بحسب ما يعلمه من الصلاح ولهذا قال سبحانه وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك

ومن المعلوم أيضا انّ ظهور الفصاحة ومز يتها فى القصة الواحدة اذا أعيدت ابلغ منها فى القصص المتغايرة فهذا هو الفائدة فيما تكرّر فى كتاب الله من قصة موسى وفرعون وسائر الانبياء

وأمّا ما تكرّر فى سورة الرحمن من قوله فبأىّ آلاء ربكما تكذبان فليس بتكرار لانه سبحانه ذكر نعمة بعد نعمة وعقب كل نعمة بهذا القول وانما عنى بالتثنية الانس والجنّ ومعلوم انّ الغرض من ذكره عقيب نعمة غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى وان كان اللفظ واحدا ولا يرد أنه قد ذكر تعالى فى سورة الرحمن ما ليس من النعم وعقبه بهذا القول حيث قال هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ثم قال يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران لانه انما ذكره على طريق الزجر عن المعاصى والترغيب فى الطاعات وهذا من الآلاء والنعم

وأمّا ما ذكره تعالى فى اعادة قوله ويل يومئذ للمكذبين فانه ذكر ذلك عند قصص مختلفة فلم يعد تكرارا لانه أراد بما ذكره أولا ويل يومئذ للمكذبين بهذه القصة ثم لما أعاد قصة أخرى ذكر مثله على هذا الحد ولما اختلفت الفائدة خرج عن أن يكون تكرارا

وأمّا سورة الكافرين فليس فيها تكرار لانّ المراد به لا أعبد فى الحال ما تعبدون من الاصنام ولا أنتم عابدون فى الحال ما أعبد وهو الله وحده ولا أنا عابد فى الاستقبال ما عبدتم ولا أنتم عابدون فى الاستقبال ما أعبد وهو الله وحده حيث علم الله انهم لا يؤمنون لكم دينكم الشرك ولى دين الاسلام وهذا قبل أن يؤمر بالحرب وانما أنزل تعالى ذلك لانّ قوما من الكفار قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اعبد ما نعبد نحن اليوم سنة حتى نعبد ما تعبده أنت اليوم سنة وهكذا فى كل سنة حتى نشترك فى العبادة على هذا السبيل فأنزل الله هذه السورة جوابا فبالتفسير بهذا المعنى يعلم انه لا تكرار وليس المعتبر بمجرد تكرار اللفظ لانا نعلم أنّ الحروف والكلمات متكررة فى كل الكلام فربما كان المشتبه فى اللفظ غير مكرر فى المعنى وربما كان المتباين فى اللفظ متكررا فى المعنى

وانما بسطنا الكلام فى وجه الاعجاز والمتشابه والمحكم وفيما ظاهره التناقض

او

أو التكرار لما وجدناه فى كلام الاوروباوية عند ذكر القرآن بتعداد هذه الاشياء وعدها من المعايب وشدة تعنتهم فى ذلك كما يعتقده المحدون أيضا لاسيما وانه لايدرك محاسن القرآن الاذوق العرب السليم والحصول على ملكة البلاغة الذوقية التى فى قوة الجملة الثانية وهى بهذه المثابة لاتكون للاعجمى الذى اكتسب فى أعجميته ملكة راسخة تدفع هذه الملكة العربية ولاتكاد تجامعها

وبيان ذلك أن ملكة اللغة العربية هى حصول ملكة البلاغة وهى مطابقة اللفظ للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب فى افادة ذلك المعنى فالمتكلم البليغ للسان العرب يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وعن حال مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه جهده فاذا تمكن من الامتزاج بكلام العرب حصلت له الملكة فى نظم الكلام على هذا الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لايكاد ينحو غير منحى البلاغة العربية ويمج ماعدا ذلك حيث رسخت ملكته فى ذلك حتى ظهرت كأنها سليقة فهى بهذا المعنى ملكة لسانية فى نظم الكلام تمكنت ورسخت ولاتحصل هذه الملكة الابممارسة كلام العرب وتكرره على السمع واللفظ بتراكيبه النظمية فلاتكتسب بالقوانين الصناعية التى تفيد علما لاملكة بالفعل فلو رام صاحب هذه الملكة أن يحيد عن الاساليب العربية لما وافقه لسانه على ذلك واذا عرض عليه الكلام الحائد عن الاسلوب العربى وعن البلاغة مجه سمعه لعلمه أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما عجز عن الاحتجاج لذلك حيث انه بالنسبة اليه أمر وجدانى

وتقريب ذلك لو فرضنا أن صبيا من صبيان العرب نشأ وتربى فى جيلهم فانه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها وهذا ليس من العلم القانونى فى شئ وانما هو محصول هذه الملكة فى لسانه ونطقه وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل هذه الملكة ويصير كواحد ممن نشأ فى جيلهم وربى بين أجيالهم والقوانين بمعزل عن هذا الذوق فالذوق بهذا المعنى لايكتسبه الاعاجم الداخلون فى اللسان العربى الطارئون عليه المضطرون الى

النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والبربر وغيرهم لقصورحظهم فى هذه الملكة فان قصاراهم أن يعرفوها من القوانين المسطرة فى الكتب فليست هى الملكة الذوقية المكتسبة بالممارسة والتكرار لكلام العرب وأما كون سيبويه والفارسى والزمخشرى وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعجاما مع حصول هذه الملكة لهم فانهم انما كانوا عجما فى نسبهم فقط واما المربى والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لاوراءها فهم وان كانوا عجما فى النسب فليسوا بأعجام فى اللغة والكلام لانهم أدركوا الملة الاسلامية فى عنفوانها واللغة فى شبابها وأما غيرهم ممن لم يدرك ذلك فلا يحصل على هذه الملكة العربية التى انمحى آثارها بالبعد عن الحالة العربية الاصلية التى بعدعهدها وممارسة القوانين لاتفيده هذه الملكة فلا يكون فيه الاقتدار الذوقى لادراك وجوه الاعجاز فيأخذ بظواهر الآيات فربما اشتبهت عليه نكات البلاغة بالمعايب كما يقع لكثير من الاغراب البعيدين عن مدارك العربية فى الحيدعن الصواب سلوك مسلك الالحاد والافنظم الآيات القرآنية منزه عن كل وصمة وانما يعرف الفضل من الناس ذووه وبالجملة فاساليب القرآن عربية ولا يقدح فى عربيتها وجود مفردات معربة أو موافقة لمفردات اللغات الاعجمية فقد ورد عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال لنافع بن الازرق الحرورى وقد سأله عن القرآن يا نافع القرآن كلام الله عزوجل خاطب به العرب على لسان أفصحها فمن زعم أن فى القرآن غير العربية فقد افترى قال الله تعالى قرآنا عربيا وقال بلسان عربى انتهى ومن المعلوم أن فى القرآن كلمات أعجمية فاما أن تحمل على كونها موافقة للعربية فتكون من توافق اللغات أو أنها عربت وصارت عربية أو أن المقصود بكون القرآن عربيا أنه على أسلوب العربية فلا ينافى وجود ألفاظ أعجمية كموسى وعيسى فدخول المفردات الغير العربية فى نظم القرآن لايمنع من كونه عربيا اذا التحدى بالآيات فقد علمنا من ذلك أن لسان القرآن هو لسان محمد صلى الله عليه وسلم وان قوله تعالى وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم المراد من قومه فى الآية هذا الحى من العرب وان العرب ليسوا من قومه وكذلك أنزل التوراة على موسى عليه

السلام

السلام على لسان قومه بني اسرائيل وأنزل الانجيل على عيسى عليه السلام لا يشاكل لفظه لفظ التوراة قال تعالى وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وانه لفي زبر الاولين أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين فقوله تعالى بلسان عربي مبين يحتمل أن الباء فيه متعلقة بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم هود وصالح وشعيب واسمعيل وقد تقدم ذكرهم وأنهم مرسلون للعرب ويحتمل أنها متعلقة بنزل فيكون المعنى نزل به على قلبك باللسان العربي لتنذر به لانه لو نزل باللسان الاعجمي لقالوا له ما تصنع بما لا نفهم فيتعذر الانذار به فتنزيله بالعربية التي هي لسانه صلى الله عليه وسلم ولسان قومه تنزيل له على قلبه لانه يفهمه هو وقومه ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعه صلى الله عليه وسلم دون قلبه لانه يسمع أجراس حروف لا يفهم معانيها

فالعرب جل فضيلتهم أنهم المخاطبون أولا لكون الشريعة بلسانهم ولهذا وفق الله سبحانه وتعالى الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا يخرجون من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله ويقاتلون صفوفا في سبيل الله لاعلاء كلمة الله فكانوا في السر والاجهار رهبانا بالليل وأسودا في النهار وهذا كان ببلاد العرب سرا من أسرار التوطئة والتمهيد لقبول الاصلاح والتجديد وهو من ارهاصات النبوة المتقدمة عليها والارهاصات المذكورة تنقسم الى قسمين الارهاصات الداخلية والارهاصات الخارجية كما سيأتي بيانهما في الفصلين الآتيين

(الفصل الثالث)

(في الارهاصات الداخلية)

من المعلوم ان اختلاف البطون والعشائر وتنافر القبائل والشعوب في المفاخرات أخذ في المحو والزوال واستعيض عنه التواطؤ واتفاق الكلمة المانعين للعرب الوقوع في الذل والخذلان من هجوم الاجانب بقصد التغلب على العرب واذلال أعزتهم والسطوة على حريتهم وذلك لان جزيرة العرب

كان يسطو عليهما من جهة الشمال دولة الروم ومن جهة الشرق أهل فارس ومن جهة الجنوب الحبشة فاستشعر العرب قبل الاسلام بأنهم لا ملجأ لهم من هذه الاقوام الا اجتماعهم واتحادهم وانتظامهم فى سلك الجنسية الواحدة حيث أفادتهم اغارة الاجانب عليهم عبرة وموعظة ورأوا أن حماية وطنهم العمومى مما ينبغى أن يهتم بها جميعهم و يشتركوا فى الذب عن حريته واستقلال وحدته الوجودية فدبروا تدبيرا أضعفوا به أعداءهم باغراء بعض الدول الاجنبية على بعض وايقاع الشحناء بينهم ولما غار فى أيام عبد المطلب أبرهة الاشرم صاحب الفيل ملك الحبشة على مكة المشرفة ترتب على ذلك مزية وطنية لقريش عادت عليها بالمنفعة العمومية وذلك انه لما كان النبى صلى الله عليه وسلم حملا فى بطن أمه حضر ابرهة الاشرم ملك الحبشة يريد هدم الكعبة وكان قد بنى كنيسة بصنعاء اليمن لما كان مستوليا عليها وأراد أن يصرف اليها الحاج فخرج رجل من بنى كنانة فقعد فيها ليلا وقضى حاجته بها فأغضبه ذلك وحلف ليهدمن الكعبة فخرج ومعه جيش عظيم ومعه فيله محمود وكان قويا عظيما واثنا عشر فيلا غيره فلما بلغ المغمس كمعظم ومحدث وهو موضع بطريق الطائف على ثلثى فرسخ من مكة مات دليله أبو رغال هنالك فرجمت العرب قبره والناس يرجمونه الى الآن ثم ان أبرهة بعث خيلا له الى مكة فأخذت مائتى بعير لعبد المطلب فهم أهل الحرم بقتاله ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوه وبعث أبرهة الى أهل مكة يقول لهم انى لم آت لحربكم وانما جئت لهدم هذا البيت فان لم تتعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم فقال عبد المطلب لسفيره والله لا نريد حربه ومالنا به من حاجة هذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم صلى الله عليه وسلم فهو يحميه ممن يريد هدمه ثم خرج عبد المطلب الى أبرهة وكان عبد المطلب جسيما وسيما ما رآه أحد الا أحبه وكان مجاب الدعوة فقيل لابرهة هذا سيد قريش الذى يطعم الناس فى السهل ويطعم الوحش والطير فى رؤس الجبال فلما رآه أجله وأجلسه معه على سريره ثم قال لترجمانه قل له سل حاجتك فقال حاجتى أن يرد الملك على مائتى بعير أصابها لى فلما قال ذلك قال له أبرهة قل له قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى أتكلمنى فى مائتى بعير وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه فلم

تكلمني فيه فقال عبد المطلب انى أنا رب الابل وان للبيت ربا يحميه منك قال أبرهة ما كان ليحتمي مني فقال عبد المطلب أنت وذاك فرد أبرهة على عبد المطلب ابله ثم انصرف الى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة الى الجبال والشعاب ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ودعا الله تعالى ثم قال

لاهم ان المرء يمـ * ـنع رحله فامنع حلالك
وانصر على آل الصليـ * ـب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم * ومحالهم أبدا محالك

ثم أرسل حلقة الباب وانطلق هو ومن معه من قريش الى الجبال ينظرون ما أبرهة فاعل بمكة اذا دخلها

فحينئذ جاءت قدرة الواحد الاحد القادر المقتدر فأصبح أبرهة متهيأ لدخول مكة وهدم البيت وقدم فيله محمودا أمام جيشه فلما وجه الفيل الى مكة كان ما قصه الله تعالى في سورة الفيل من ارسال الطير الابابيل ترميهم بحجارة من سجيل فتساقطوا بكل طريق وهلكوا على كل منهل وأصيب ابرهة حتى تساقط أنامله حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع قلبه عن صدره وانفلت وزيره وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه

ومن هذا الوقت صارت مكة المشرفة مستقلة بحكم نفسها وعز ملكها وسلطانها وافتخرت لذلك لانها أم القرى وكان اذ ذاك عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم رأس قريش وأكبر حكامها وهو أحد من حرم الخمر في الجاهلية فجعل مكة مركزا عاما يجمع أشتات القبائل المتفاصلة وينظمهم في سلك واحد لتقوى شوكة العرب بالوحدة الجنسية وتجهز أهل جزيرة العرب لادراك الفضيلة الوطنية العمومية

ولما كان سيف بن ذي يزن قد ظفر بالحبشة وظهر عليهم باليمن وأجلاهم عنها وذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم بسنين أتاه وفود العرب وشعراؤها للتهنئة ويذكرون ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه فسار عبد المطلب الى صنعاء اليمن ومعه وفد قريش فكان من أشرافهم أمية بن عبد شمس وعبد الله

ابن جدعان وخويلد بن أسد بن عبد العزى ووهب بن عبد مناف بن زهرة وغيرهم من وجوه قريش ورئيسهم عبد المطلب وكان المقصد الظاهرى لوفد قريش هو التهنئة لملك اليمن على نصرته على عدوه والاخذ بثأر قومه بالنيابة عن قريش والمقصد الاعظم من هذه الزيارة والغرض الحقيقى الحامل عليها هو عقد التوادد والتحابب وربط العلاقات بين الحجاز واليمن فقدموا عليه وهو فى رأس قصر غمدان بصنعاء فاستأذنوا عليه فأذن لهم فدخلوا عليه فاذا هو عليه بردان مؤزرا بأحدهما مرتديا بالآخر وسيفه بين يديه وهو متضمخ بالمسك والعنبر وعن يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك والمقاول فدنا عبد المطلب منه فاستأذنه فى الكلام فقال ان كنت ممن يتكلم بين يدى الملوك فقد أذنا لك فقال أيها الملك ان الله عز وجل قد أحلك محلا رفيعا صعبا منيعا شامخا باذخا وأنبتك منبتا طابت أرومته وعزت جرثومته قد ثبت أصله وبسق فرعه فى أكرم معدن وأطيب موطن فأنت أبيت اللعن ملك العرب الذى تأوى اليه وعمودها الذى عليه العماد ومعقلها الذى يلجأ اليه العباد سلفك لنا خير سلف وأنت لنا منهم خير خلف فلن يجهل من أنت خلفه ولن يخمل من أنت سلفه

ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته أشخصنا اليك ابتهاجنا بكشف الكرب الذى فدحنا فنحن وفد التهنئة لا وفد الرزيئة قال ابن ذى يزن وأيهم أنت أيها المتكلم قال انا عبد المطلب بن هاشم قال ابن أختنا قال نعم فأدناه وقرب مجلسه ثم أقبل عليه وعلى القوم وقال مرحبا وأهلا وناقة ورحلا ومستناخا سهلا وملكا سحلا يعطى عطاء جزلا قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم وأنتم أهل الليل وأهل النهار لكم الكرامة ما أقمتم والحباء اذا رحلتم ثم استنهضوا الى دار الضيافة والوفود فأقاموا اشهرا لا يصلون اليه ولا يؤذن لهم فى الانصراف ثم انتبه لهم انتباهة فأرسل الى عبد المطلب ليلا فأدناه وقرب مجلسه وبشره برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وخلافة بنى العباس وأوصاه بالمحافظة عليه صلى الله عليه وسلم من أعدائه وان يطوى ما ذكره له وما بشره به فى حق محمد عمن معه من الوفد وقال لست آمن من انه تدخلهم النفاسة من أن تكون له الرياسة فيبغون به الغوائل وينصبون

له الحبائل وأبناؤهم فاعلون ثم قال فلولا انى أعلم ان الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير يثرب دار ملكى فانى لاجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق ان فى يثرب استحكام أمره وأهل نصره وموضع قبره ولولا انى أقيه الآفات واحذر عليه العاهات لاعلنت على حداثة سنه أمره وأوطأت اسنان العرب كعبه ولكنى صارف ذلك اليك بغير تقصير بمن معك ثم انه أمر لكل رجل من القوم بمائة من الابل وعشرة أعبد وعشر اماء وعشرة ارطال ذهب وعشرة ارطال فضة وكرش مملوءة عنبرا وحلتين من حلل اليمن وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك وقال اذا جاء الحول فأتنى بأمره وما يكون من خبره فمات ابن ذى يزن قبل أن يحول عليه الحول فكان عبد المطلب كثيرا ما يقول يا معشر قريش لايغبطنى أحد منكم بجزيل عطاء الملك وان كثر فانه الى نفاد ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى من بعدى ذكره وفخره وشرفه فاذا قيل وماذا الذى يا عبد المطلب قال ستعلمون نبأه ولو بعد حين فهذه كلها ارهاصات داخلية وتأسيسات لدولة عربية

(الفصل الرابع)

فى الارهاصات الخارجية والتأسيسات الاجنبية المعينة فى العادة على تنجيز ما جرت به الارادة الالهية

ولو أن الدولة الاسلامية كان جميع مباديها خوارق عادات ومواد تأسيسها حقائق معجزات وكرامات الا أنه جرت عادة الله فى خلقه اذا أراد شيأ سهل أسبابه والاسباب المذكورة قد تكون عادية وانما مبانيها خوارق للعادة فالدولة الاسلامية ظهرت عقب حوادث عجيبة سهلت تنفيذها من التمهيدات للبعثة النبوية والارهاصات التجهيزية ضعف الدول المجاورة للعرب فانه فى أثناء خطور الاجتماع من العرب وان يكونوا على قلب رجل واحد وتصورهم الانتظام فى سلك الوحدة الوطنية ظهرت امارات قوية يتوسم منها استقلال جمعية القبائل العربية وانتظام أحياء العرب فى سلك هيئة اجتماعية تمدنية يتكون منها دولة قوية وهذه الدلائل هى الحروب العظيمة التى وقعت اذ ذاك بين الروم وفارس كما سلف ذكره عند ذكر قياصرة القسطنطينية فان المنازعات

الدولتين طالت ولم تنته الا بعد البعثة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

وذلك أن كسرى تغلب على بلاد الموصل والشام وفلسطين ومصر وسلب هذه الاقاليم من أيدى الروم ولم تمكث فى أيدى الفرس حيث بادر هرقل قيصر الروم بنزعها من أيديهم وساعدته المقادير على ذلك ومع هذا فكانت الحروب المستمرة قد أتعبت كلتا الدولتين وأضعفت قواهما ومزقت مدنهما كل ممزق لاسيما دولة الروم وكانت همة الاهالى قد كلت من ضرب المكوس والعوائد والجمارك بضرائب ثقيلة لا تطاق كما سئمت من كثرة جور كل من الدولتين على الرعايا وعسفهم الفاحش وتكاليفهم بالاموال العظيمة التى أنفدتها هذه الحروب المتكررة بلا ثمرة ولا فائدة تعود على الاهالى فاشتد الكرب عليهم من ذلك وضاقوا ذرعا وكذلك أفضت الحروب بكلتا الدولتين الى الوهن وفقد الشوكة حتى لم تكن دولة منهما تقدر على مقاومة العرب مع ما ينضاف الى ذلك من شدة وهن دولة الروم بالاختلاف فى الدين وتشعب الملة العيسوية الى الفرق المختلفة فى العقيدة المتعادية أشد العداوة بحيث ان دين عيسى عليه السلام قد اختلف عن أصله واتسع هذا الاختلاف فى أطراف وأكناف الروم المتنصرة وفى الجهات التابعة لهم فى الدين لاسيما فى مصر فكانت جميع البلاد محتاجة للاصلاح وتقويم اعوجاجها وتعديل مزاجها فكان ظهور الدين المحمدى اذ ذاك قد صادف محلا ووجد فرصة ينتهزها فكانوا مستعدين نوع استعداد لقبول شريعة خير الانام والدخول فى دين الاسلام بالهداية أو بالسيف وصار من أسلم من العرب هو جند الله الغالب فى المشارق والمغارب

ومن المعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لما كان أصلا للكائنات أظهر الله منه العرش والفرش وما بينهما فسار فى مراتب العوالم الروحانية والجسمانية الى أن ظهر وجوده الشريف العنصرى وبظهوره تم المطلوب فلذلك كان آخر الانبياء وخاتم المرسلين وسيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم الى يوم الدين وسيأتى فى المقالة الخامسة بيان نشأته الروحانية ونشأته العنصرية الجسمانية فهو صلى الله عليه وسلم مرسل رحمة

للعالمين

للعالمين فعند مبعثه كذلك كان من الصدفة أن هرقل قيصر الروم وكسرى
برويز ملك الفرس قد حصل بينهما مشارطة صلحية تقتضى ان كلا منهما يحفظ
حدود مملكته الاصلية ولم تكن هذه المشارطة فى الحقيقة الا عبارة عن
متاركة ومهادنة بين الدولتين فبينما كسرى جالس فى ايوانه يتلقى سفراء
الدول الاجنبية وهو فرح مسرور بزينته وزخارفه وجلالة قدره وعظمة
سلطانه يكاد أن تعبده رعاياه لهيبته وكبريائه اذ أخبر أنه وفد عليه قاصد من
النبى العربى صلى الله عليه وسلم بكتاب فأمر باحضار الرسول وكان الكتاب
على يد عبد الله بن حذافة وقيل مع غيره وصورته بسم الله الرحمن الرحيم من
محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله
ورسوله وشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله
أدعوك بدعاية الله فانى أنا رسول الله الى الناس كافة لانذر من كان حيا ويحق
القول على الكافرين اسلم تسلم فان أبيت فعليك اثم المجوس فاخذ كسرى منه
الكتاب ولم يقف الا على قراءة صدره ومزقه قبل أن يعلم ما فيه وقد سبقت
الاشارة الى ذلك عند ذكر هرقل ملك الروم وأنه لما مزقه وأخبر بذلك صلى الله
عليه وسلم قال مزق الله ملكه فكان كما قال صلى الله عليه وسلم على أن انصداع
الايوان وقت ولادته صلى الله عليه وسلم من دلائل انصداع ملك فارس
ولا غرابة فى تمزيق كسرى لكتاب النبى صلى الله عليه وسلم لشدة كبريائه
وعظمته مع مناهزة ذلك لغلبة هرقل ملك الروم عليه لانه كان يرى فى نفسه أنه
ملك الملوك وسلطان السلاطين فعجب من كون أحد أشراف العرب قدم فى
الكتاب اسمه على اسمه ففهم كسرى منه قصد العلو والشرف عليه فغضب
لذلك ومزق الرسالة الشريفة فكان كالساعى لحتفه بظلفه

فلما تقدم الاسلام بسرعة الفتوح واتسعت دائرته تعجبت دولة فارس من ذلك
غاية العجب الا أنه لم يخطر ببالهم أنه آن أوان وقوعهم فى الاخطار والمهالك
ودوران رحى الشدائد عليهم وزوال دولة ممالكهم التى هى أعظم الممالك
ولا ظنوا أن الاسلام يفتح عندهم جميع الابواب والمسالك ولا أن دولة العرب
تصل الى هنالك وأما هرقل ملك الروم الذى دفع الوافد عليه بالتى هى أحسن
ولم يسلك السبيل الاخشن فلم يتمزق ملكه الا باستيلاء الاسلام وكان كل ذلك

ببركته صلى الله عليه وسلم وعلى أيدى صحابته الكرام فقد استبان من هذا أن وقائع الاحوال السابقة على البعثة كانت لحكمة الهية ومعونة ارهاصية لما تقتضيه رسالة النبي عليه الصلاة والسلام من الغزو والجهاد فى سبيل الله لاعلاء كلمة الله وسيأتى فى المقالة الخامسة ذكر ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم من ظهوره وبعثته وأحواله وشؤنه وسيرته الشريفة وما كان من أصحابه رضى الله تعالى عنهم من جهادهم فى سبيل الله وفتحهم الامصار التى من جملتها مصر كنانة الله فى أرضه التى كان فتحها فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه على يد عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه وما يتعلق بالديار المصرية الى عهدنا هذا

قد تم الجزء الاول من توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسمعيل ويليه الجزء الثانى وأوله المقالة الخامسة فى ظهوره صلى الله عليه وسلم فبمنه تعالى وعونه وحسن توفيقه وعنايته ولى النعم الاكرم يصير اتمام الجزء الثانى على أكمل حال وأجمل منوال ويعد أيضا من المحاسن العصرية التى تجددت فى أيام خديو المملكة الجليلة المصرية أبقاه مولاه بجاه محمد ومن والاه صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين وصحبه أجمعين

وقد أرخ نجلنا الناجب على بك فهمى هذا الجزء بهذه القصيدة فقال

أدر لنا أيها السرى * راحا بها للنفوس رى
واغنم بها فرصة التهانى * فوردها للظما روى
واستجلها من يدى غرير * يرى به للجمال زى
فى اللفظ والثغر منه درّ * والعقد فى الجيد جوهرى
فى لحظه والسيوف نوع * جناسها فيه معنوى
بعينه للأنام سكر * وانما الريق سكرى
قوامه الغصن مذ تثنى * وقده اللدن سمهرى
جد براح الهنا انشراحا * فى روضة زهرها جنى
يزين أزهارها عهاد * وسميه جاد والولى
وعندليب السرور فيها * صب بها هائم شجى
وثغر أيامنا بسيم * ووجه آمالنا بهى

قد جاد في مصر بالأماني * عصر لنا بالمنى سخي
كيف وفي مصرنا عزيز * عن مدح كل الورى غني
له لكسب العلا التفات * وقدره في الملا علي
في السلم من راحتيه غيث * وفي الوغى ليثها الضري
أحيا بعصرلنا علوما * عبيرها للورى ذكي
زهورها أثمرت لتجني * والعلم ان صح أزهري
فيها تبدت محسنات * في نشرها للعصور طي
أجلها رتبة كتاب * توفيق توثيقه جلي
تاريخ مصر لقد تسامى * وهو بكسب الثنا حري
ولي عهد به تسمى * يا حبذا العهد والولي
اسم لقد وافق المسمى * ومن سما كفوه السمي
أبدى المعالي فأرخوه * تاريخه مبدأ زهي

سنة ١٢٨٥

قد وافق تمام طبعه وظهور نفعه افتتاح صفر الخير من
سنة ١٢٨٥ خمس وثمانين ومائتين وألف من هجرة
من خلقه الله على أكمل وصف فالحمد لله الذي
بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام
على صاحب المعجزات وعلى
آله وأنصاره وعترته
وأصهاره

تم

